@ketab_n
Follow Me
27.5.2016

أليف شافاك

قصر الحلوى

ترجمة: د. محمد درويش

رواية

دار الآداب

أليف شافاك

قصر الحلوى

رواية

ترجمة محمّد درويش

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @ketab_n

قصر الحلوى

Twitter: @ketab_n

قصر الحلوى

ألِيف شافاك / كاتبة تركيّة
الطبعة الأولى عام 2016
ISBN 978-9953-89-504-8
The FLEA PALACE
Copyright © 2004 - 2005
by Elif Shafak
http://www.elifshafak.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

مقدّمة المترجم

ملامح من أدب أليف شافاك الروائي

ثمّة أكثر من ملمح أساسي يستحكم في اتّجاهات السرد وبنية النصّ الروائي اللذين تشتغل عليهما أليف شافاك[1] في مختلف رواياتها. فهي من جهة أولى، تهتمّ اهتمامًا شديدًا بتجسيد المخاوف والأفكار التي تدور في رؤوس شخصيّاتها بسبب التحوُّلات الكبيرة التي طرأت وما تزال تطرأ على بنية الواقع التركي المعاصر وما يمثّلها في أكثر من جانب، من انسلاخ عن ماضي الدولة العريق الذي راح يتلاشى تلاشيًا سريعًا، عشوائيًّا ومنظَّمًا في الوقت نفسه، فينذر بالزوال: زوال الجذور والعادات والتديُّن والمكان، بعد أن يكون الزمان قد أدّى دوره كاملاً، سلبًا أو إيجابًا، في اضمحلال حضارة

---

(١) انظر روايات أليف شافاك الصادرة بترجمتنا عن دار الآداب البيروتيّة وهي: «قواعد العشق الأربعون» و«شرف» و«لقيطة إسطنبول» و«الفتى المتيمّ والمعلّم»، التي ترسّخ من مكانة الكاتبة لما تنطوي عليه معالجاتها الروائيّة من أفكار ورؤىً تصارع ما هو مألوف.في الأدب المعاصر سواء على مستوى الموضوعات أو الأسلوب، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ماديّة كان لها شأن عظيم بين حضارات العالم ومجتمعاته.

من جهة ثانية، تسعى أليف شافاك إلى الاستفادة من تنوُّع الجاليات والأقلِّيّات التي عاشت في اسطنبول على مرِّ السنين، وبخاصّة الروس والأرمن واليونانيِّين واليهود والأكراد، فتحيل القارئ إلى ما يختلج في نفوس هؤلاء البشر من حبّ وكراهية، رقّة وعنف، استقامة ورياء، نزاهة وضياع كرامة، أمانة وانتهازيّة مثل بقيّة الناس.

من جهة ثالثة، لا تخلو مؤلّفات أليف شافاك من مهارة فائقة في تصوير مختلف أوجه الانحطاط الروحي الذي يدبّ في اسطنبول، سواء في هذه الرواية أو في غيرها من الروايات السابقة لها أو اللاحقة، الانحطاط الروحي الذي يتجسَّد على أوضح ما يكون في نمط الحياة الذي تسلِّطه الشخصيّات مهما اختلفت ثقافاتها وأديانها وتراثها الفكري والاجتماعي. فهي شخصيّات تقف أساسًا مبهورة، شاخصة الأبصار أمام ما تراه من خطر الحداثة الزاحف زحفًا حثيثًا في مختلف أوجه الحياة التركيّة المعاصرة، على الصعد الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة واللغويّة والسلوكيّة.

وفي هذه الرواية، تذهب أليف شافاك شوطًا بعيدًا في التصدِّي لمعالجة توتُّرات مشتركة تكتنف حياة أبطالها، رجالاً كانوا أم نساءً، وبخاصّة التوجُّه الشرقي بإزاء ما هو غربي، والفكر العلماني بإزاء الفكر الديني، ومكانة القدر في الحياة اليوميّة. موضوعات كبرى لا يمكن التدقيق فيها إلّا من خلال رؤية فكريّة، يمتزج فيها الواقعي بالسحري امتزاجًا يذكِّر القارئ العربي، على وجه الخصوص، بألف ليلة وليلة التي يتَّضح عمق استفادة أليف شافاك منها في بناء المتن الحكائي الذي يعرض لحياة أبطالها وبطلاتها، سواء أكانوا يقطنون اسطنبول أو قرًى وبلدات نائية تقع على تخوم تركيا المعاصرة؛ مأزقهم واحد إلى حدٍّ بعيد، ويتمثّل في الحنين إلى ما هو مفقود والتشبُّث بما هو مرشّح

Twitter: @ketab_n

للضياع منهم لأسباب مختلفة، ربَّما من أهمّها الخوف من ضياع الهويّة وهيمنة القدر على مصائر الشخصيّات، ولعبة الحبّ المحكوم عليه بالموت في نفوس حائرة تتجاوز ما هو واقعي لتنحو منحى الأسطوري في تداخلات ترتّب المشهد النهائي على أساس الذاكرة الاستبداليّة التي تجعل الماضي حاضرًا يتماهى فيه المستقبل القريب والبعيد.

من جهة رابعة، تُجهد أليف شافاك نفسها في تقديم نصّ يحكمه تلاعب باللغة يصل أقصى مدياته في الحوار الذي يدور بين الشخصيّات. وإذا كان الجانب اللغويّ أداة لتطوير المتن الحكائي في معظم روايات أليف شافاك، فإنّها في هذه الرواية تستنبط تقنيّات لغويّة مؤسَّسة على إدهاش القارئ بسبب لامألوفيّة استخدامها (أسماء الشخصيّات المركَّبة هنا مثلاً) التي تكاد تذكِّر القارئ بأساليب أدباء مسرح اللامعقول، وفي مقدِّمتهم صاموئيل بيكيت أو حتى معلِّمه الأكبر وصديقه المفضَّل جيمس جويس في تمظهرات تيّار الشعور الذي لا تخفي أليف شافاك مدى تأثّرها به في أكثر من مناسبة.

من جهة خامسة، لا تخفي المؤلِّفة ولعها بالمؤثِّرات السياسيّة والحياة السياسيّة التي تتحكَّم في مصائر أبطالها، فتنظر إليهم نظرة المفكِّر السياسي الإنساني النزعة، وكيف لا وهي التي ترى نفسها جزءًا من تيّار اليسار السياسي الذي يناهض العنف الذي يمارس ضدّ المرأة والظلم الذي تعانيه الأقلِّيّات العرقيّة والقوميّة والمذهبيّة. وإذا كانت هذه هي نظرتها الفكريّة والسياسيّة التي تستند إلى عمق ثقافتها في التاريخ، قديمه وحديثه، والسياسة وعلم الاجتماع والأديان، فقد نشطت نشاطًا كبيرًا في هذا الجانب، فراحت تكتب عشرات المقالات والدراسات الفكريّة التي تجسِّد أيمانها والتزامها بحقوق الإنسان وحقوق المرأة في كلّ مكان وزمان، وتعبِّر عن وجهات نظرها في هذه القضايا المصيريّة التي لم تعد تلتفت إليها إلّا قلّة قليلة من أدباء العالم المرموقين.

Twitter: @ketab_n

إنّ هذه الرواية، شأنها شأن عدد آخر من روايات، تظلّ رمزًا لما آلت إليه تركيا في العصر الحديث، رمزًا لتركيا الحديثة التي ظهرت على أنقاض أمبراطوريّة سادت ثم بادت، ولكن ملامحها لم ولن تغيب عن عين مواطنيها أو زوّارها أو قرّاء أدبها وتاريخها وفكرها المعاصر.

الدكتور محمّد درويش

بغداد ٢٠١٥

Twitter: @ketab_n

نزلاء قصر الحلوى

شقّة ١	موسى ومريم ومحمّد
شقّة ٢	سيدار وغابا
شقّة ٣	مصفّفا الشعر جمال وجلال
شقّة ٤	أبناء الطبع الناري
شقّة ٥	حاجّي حاجّي وابنه وابنته[١] وأحفاده
شقّة ٦	متين جتين جفيز وزوجته ناديا
شقّة ٧	أنا
شقّة ٨	العشيقة الزرقاء
شقّة ٩	هايجين تايجين وسو
شقّة ١٠	السيِّدة العمّة

(١) هكذا ورد العنوان في الأصل الإنكليزي، والصحيح هو زوجة ابنه أو كنّته، كما سنلاحظ ذلك من سياق الرواية، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقدّمة

يقول الناس إنّني أملك عقلاً خاليًا متقلّب الأطوار ـ وهذا هو أكثر الأساليب المبتكرة لباقة للقول: «أنت تتكلّمين كلامًا لا معنى له!» ربّما هم على حقّ، فأنا كلّما ازددت توتّرًا وارتبكت في ما أنا مضطرّة إلى قوله، أجد نفسي وجلة من نظرات الناس، وأتظاهر بأنّني لست كذلك، وأقدّم نفسي لغرباء، وأتصنّع الجهل عن مدى اغترابي عن نفسي، وأشعر بالاستياء من ماضيّ، وأجد صعوبة في الإقرار بأنّ المستقبل لن يكون أفضل حالاً، أو أخفق في الانسجام في المكان الذي أنا فيه أو في هويّتي. وفي كلّ لحظة من هذه اللحظات المتكرّرة أكثر ممّا ينبغي، أدرك أنّني أفتقر إلى المعنى كثيرًا. غير أنّ اللامعنى بعيد جدًّا عن الخداع بعد الحقيقة، لأنّ الخداع يقلب الحقيقة ظهرًا لبطن. أمّا اللامعنى، فيربط الخداع والحقيقة ربطًا محكمًا يجعل التمييز بينهما متعذّرًا. وهذا أمر في غاية البساطة وإن لاح معقّدًا، ويمكن التعبير عن هذه البساطة بخطّ واحد.

لنفترض أنّ الحقيقة خطّ أفقي:

عندئذٍ يصبح ما نسمّيه الخداع خطًّا عموديًّا:

Twitter: @ketab_n

أمّا اللامعنى، فيبدو على الوجه الآتي:

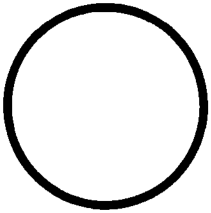

إنّ الدائرة لا تقرّ بوجود محور أفقي أو عموديّ، لأنّ خطّ سيرها ليس له بداية ولا نهاية.

في ميسورك أن تدخل الدائرة من أيّ منطقة تشاء، ما دام أنّك لا تخلط بين تلك النقطة والبداية. لا نقاط بداية ولا عتبات ولا نهايات. ولا يهمّ في أيّ لحظة أو في أيّ حادثة أبدأ خطواتي الأولى، لأنّ ثمّة متّسعًا من الوقت دائمًا يسبق بداية ذلك الوقت ـ ماضيًا يسبق كلّ ماضٍ دومًا، من هنا لا توجد نقطة انطلاق حقيقيّة.

أنا شخصيًّا لم أسمع، بل تناهى إلى مسامعي، من رجل يتمتّع بحكمة وافية، بأنّ صبيان المحلّة وصباياها كانوا يلعبون معًا في الأيّام الغابرة عندما كانت صفائح القمامة المنتشرة في شوارع اسطنبول ذات أغطية مدوَّرة الشكل ومصنوعة من مادّة الألومنيوم الضارب لونه إلى الرصاصيّ. وكان يتعيَّن على عدد من الناس الانضمام إلى اللعبة، عدد قليل وليس كبيرًا، ولكنّه يكفي للتسلية. . عدد مضبوط تمامًا، وزوجيّ دائمًا.

Twitter: @ketab_n

كان أوّل شيء يطرح في «اللعبة القمامة» هو السؤال «متى؟». ولغرض الإجابة عنه، ينبغي تقسيم الغطاء الدائري بالطبشور إلى أربعة أقسام مختلفة، وتكتب على كلّ قسم كلمة منفصلة تؤشّر أحد الاتّجاهات: «الآن ـ غدًا ـ قريبًا ـ أبدًا». ثم يُدار الغطاء من مقبضه الذي يتوسَّطه بأسرع ما يمكن، وقبل أن تسنح له الفرصة للتخفيض من سرعة دورانه، يوقفه الشخص الذي يحين دوره بلمسة من أصبعه. ويتكرّر الحال مع المشاركين الأربعة في اللعبة كي يتمكَّن كلّ واحد منهم من أن يعرف الإطار الزمني الأقرب إليه من تلك الأزمنة الأربعة. وفي الجولة الثانية، يُصار إلى تسجيل أربعة أجوبة بوصفها محتملة عن السؤال: «لمن؟» وهي: «لي ـ للذي أحبّ ـ لأفضل صديق لي ـ لنا كلّنا». ثم يُدار الغطاء من جديد ويمدّ المشاركون أيديهم إليه ليوقفوا هذيانه الدائري. وتهدف الدورة الثالثة إلى العثور على جواب عن السؤال: «ماذا؟» وتدوَّن أربع كلمات حسنة الطالع وأربع أخرى سيِّئة الطالع على الفراغات الثمان المتبقِّية، متساوية العدد دائمًا لإضافة فسحة من العدل والإنصاف لنزوات القدر، وعلى الشكل الآتي:

«حبّ ـ زواج ـ سعادة ـ ثروة ـ مرض ـ انفصال ـ حادث ـ موت». ويُدار الغطاء دورة أخرى، فتأخذ الإجابات بالتنامي كي يتمكَّن اللّاعبون في نهاية المطاف من الوصول إلى الردّ الذي طال انتظاره على السؤال: «ماذا سيحدث لفلان ومتى؟» : «لي ـ ثروة ـ قريبًا»، «للذي أحبّ ـ سعادة ـ غدًا»، «لأفضل صديق لي ـ زواج ـ الآن» أو «لنا كلّنا ـ انفصال ـ أبدًا»... ليس صعبًا البدء بدحرجة كرة السرد. فأنا شخصيًّا يمكنني أيضًا أن أوظِّف منطق لعبة القمامة بعد إجراء تعديلات ثانويّة هنا وهناك. بداية، يحتاج المرء إلى معرفة الإطار الزمني الخاصّ بالسرد: «أمس ـ اليوم ـ غدًا ـ اللانهاية». ثم يتعيَّن بعد ذلك تحديد المواضع: «من أين أتيتُ ـ أين أقف الآن ـ إلى أين أتّجه ـ ليس إلى

Twitter: @ketab_n

أيّ مكان». وفي المرحلة المقبلة، ينبغي للاّعب أن يحدّد الشخص الذي يؤدِّي العمل: «أنا ـ واحد من بيننا ـ كلّنا ـ لا أحد منّا». أخيرًا، يحتاج المرء من دون إقلاق كفّة ميزان أربعة لأربعة، إلى ترتيب النتائج المحتملة. وعلى هذا الأساس، إذا ما عمدتُ إلى تدوير غطاء القمامة المتخيَّل أربع مرّات في الصفّ الواحد، فسوف أستطيع تكوين جملة مفيدة. هل يحتاج المرء إلى ما هو أكثر من جملة لبدء قصّة ليست لها بداية في كلّ الأحوال؟ في ربيع العام ٢٠٠٢، توفّي أحدنا في اسطنبول قبل أوانه، واكتملت الدائرة».

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة العشرين من بعد ظهر يوم الأربعاء الموافق للأوّل من مارس سنة ٢٠٠٢، وجدت شاحنة صغيرة بيضاء ـ بحاجة إلى غسل وتنظيف، ومزدانة بصورة جرذ كبير ذي أسنان حادّة كالإبر على أحد جانبيها، وعنكبوت كثيف الشعر، كبير الحجم على الجانب الآخر ـ بعد أن أخفقت في مشاهدة الحواجز أمامها، نفسها وقد أصبحت في وسط حشد يتألّف من ألفين ومائتي شخص. وكان من بين هؤلاء الناس زهاء خمسمائة فرد حضروا للاحتفال بذكرى عيد العمّال، وألف وثلاثمائة شرطيّ صدرت لهم الأوامر لمنع المحتفلين من الاحتفال. أمّا الآخرون، فكانوا من المسؤولين في الدولة جاؤوا للاحتفال بذلك اليوم على أنّه عطلة ربيعيّة، وذلك بوضع إكليل من الورود على تمثال أتاتورك، فضلاً عن عدد من تلاميذ المدارس الابتدائيّة الذين جيء بهم لملء الفراغات الخالية، ملوّحين بالأعلام التركيّة التي أُعطيت لهم. في هذا الوقت، انقسم هؤلاء الأطفال إلى خلايا نحل بعد أن ـ طال بهم الوقوف من تحت أشعّة الشمس ساعات وساعات يصغون إلى طنين وخطب مملّة. وتشاء المصادفة أن يكون عدد لا بأس به من هؤلاء قد تعلّم قبل وقت قصير القراءة والكتابة، وبذلك

Twitter: @ketab_n

لبثوا متحمّسين ويصيحون بأعلى أصواتهم بمقاطع كلّ كلمة مكتوبة يشاهدونها من حولهم. وعندما اندفعت تلك الشاحنة العنكبوتيّة والجرذيّة وسط الحشود، كان هؤلاء الصغار هم الذين صاحوا صيحة واحدة: «خدمة قوس قزح لنقل الحشرات الضارّة: اتّصل ـ بنا ـ و ـ سوف ـ ننقلها ـ لكم».

فقد سائق الشاحنة هدوءه عندما واجه هذا الهجوم، وكان رجلاً أحمر الشعر، متهدّل الأذنين، طفوليّ الوجه، مضحكًا، حادّ القسمات على نحو لا يبدو فيها حقيقيًا. وعندما حاول أن يبعد الشاحنة في الاتّجاه المعاكس للهروب من ثورة الأطفال وغضبهم، وجد نفسه في خضمّ حلقة من المتظاهرين الغاضبين غضبًا عارمًا، تُحيط بهم حلقة من رجال الشرطة الأشدّ غضبًا منهم. في غضون الدقائق القليلة التي أُصيب فيها السائق بالشلل ولم يعد قادرًا على الحركة، وجد نفسه في موضع صيحات الفرح أو الضرب بالحجارة على أيدي المتظاهرين الغاضبين، الذين يحملون الأيديولوجيا نفسها؛ ولكنّ الواضح أنّهم كانوا يفسّرونها تفسيرًا مغايرًا. وعندما أراد أن ينحرف بالشاحنة باتّجاه النصف الآخر من الحلقة في حركة يائسة، وجد نفسه في هذه المرّة وقد أوقفه رجال الشرطة. وعلى الأرجح كان من شأنه أن يتعرَّض إلى الاعتقال ـ فتزداد حالة الآخرين سوءًا ـ لو لم يندفع رجال الشرطة في تلك اللحظة، إلى مجموعة صغيرة ينقصها التروّي عقدت العزم على البدء بالمسيرة من فورها. تصبَّب سائق الشاحنة عرقًا عندما أفلح في نهاية المطاف من الخروج من الميدان المضطرب. كان اسمه إنجاستس بيورتورك. وكان قد أنفق في نقل الحشرات الضارّة زهاء ثلاث وثلاثين سنة، ولم يسبق له أن كره مهنته كرهًا شديدًا كما كرهها في ذلك اليوم.

لكي لا يتورّط مرّة أخرى في المتاعب، نأى بنفسه عن السير في طرق مختصرة، ولجأ إلى شقّ طريقه في شوارع متعرِّجة حتى وصل

Twitter: @ketab_n

متأخِّرًا ساعة وخمسًا وأربعين دقيقة عن موعده، العمارة السكنيّة التي كان يبحث عنها، وركن الشاحنة بعد أن نفض عنه غبار الصدمة النفسيّة على امتداد الرصيف وهو يحدِّق تحديقة تنطوي على الريبة إلى مجموعة من الناس سدَّت مدخل العمارة. لم تكن لديه أيّ فكرة عن سبب تجمهر الناس في ذلك المدخل، ولكنَّه كان على الرَّغم من ذلك مقتنعًا بأنّهم لن يلحقوا به أيّ أذًى، واستطاع أن يهدِّئ من رباطة جأشه، وتأكَّد من العنوان الذي سلَّمته له سكرتيرته الثرثارة في ذلك الصباح:

«٨٨ قصر الحلوى، شارع الجبل». وأرفقت سكرتيرته المهذارة ملاحظة مفادها: «العمارة السكنيّة التي تنتصب في حديقتها شجرة ورد ألاكاسيا». مسح قطرات العرق من على جبينه، وحملق في الشجرة المنتصبة في الحديقة، فرآها يانعة بزهورها الورديّة المحمرّة والبنفسجيّة. وفكَّر في نفسه: لا بدّ أنَّ هذه هي الشجرة التي يطلقون عليها اسم «ألاكاسيا الورديّة».

ولكن، بما أنّه لم يكن يومًا يولي ثقته لسكرتيرته التي عزم على استبدالها في أقرب فرصة مؤاتية، فقد أراد أن يشاهد بأمّ عينيه المصابتين بقصر البصر العلامة الدالَّة على المبنى. لهذا وثب من الشاحنة بعد أن ركنها منحرفة، لكن ما إن خطا خطوة واحدة حتى صرخت في ذعر وهلع فتاة صغيرة كانت واقفة رفقة ثلاثة أطفال في الحشد:

ـ الجنِّي هنا! انظرا يا جدِّي ويا جدَّتي، الجنّي هنا!

استدار العجوز الأشيب الأشعر، الممتلئ الجسم والملتحي، الذي كانت تجرُّه من ورائها، ورنا أوّل الأمر متفحِّصًا إلى الشاحنة الصغيرة، ثم إلى السائق، ولاحت على وجهه كلّ مرّة نظرة تنمُّ عن خيبة أمل على حدٍّ سواء، وقطَّب جبينه وبدأ أكثر امتعاضًا، وجذب الأطفال الثلاثة قريبًا منه، غير راضٍ عمّا شاهده على ما يبدو.

Twitter: @ketab_n

حاق الظلم بأنجاستس بيورتورك، فهو لم يكن جنّيًا ولا أيّ شيء، بل كان رجلاً اعتياديًا امتلك وجهًا يفتقر إلى التناسق وأذنين كبيرتين وشعرًا ملوّنًا لسوء الحظّ. كما شاءت المصادفة أن يكون قصير القامة، بل كان قصيرًا جدًّا، فلم يتجاوز طوله مترًا وثلاثة وأربعين سنتمترًا. وعلى الرّغم من أنّه عُومل سابقًا بوصفه قزمًا، إلّا أنّ هذه هي المرّة الأولى التي اتُّهم فيها بأنّه جنّيّ. حاول ألّا يلتفت للأمر وشقّ طريقه مُصرًّا وسط الجماعة، واتّجه إلى العمارة السكنيّة الكالحة. ووضع نظّارته الرقيقة الإطار والسميكة العدسات التي يضعها كدأبه، لا على أنفه كما أوصاه الطبيب، بل داخل جيب بذلة عمله. وبالرّغم من العون الذي تقدّمه له نظّارته، إلّا أنّه ظلّ غير قادر على أن يتبيّن تلك الرقعة القذرة أمام العمارة إلّا بعد أن أصبح على بعد بوصة واحدة: رقعة بارزة لطاووس اسودَّ ريشه بالقذارة. ولو كان قد نُظّف، لبدا جذّابًا للعين. وكانت قد كُتبت من تحت تلك الرقعة البارزة عبارة: «٨٨ قصر الحلوى». وصل المكان الصحيح.

جذبت انتباهه بطاقة زيارة محشورة بين أزرار الأجراس الكهربائيّة المتراصفة بجانب الباب. كانت بطاقة من بطاقات شركة منافسة بدأت قبل شهرين العمل في الحيّ نفسه. ولمّا لم يظهر على الناس من حوله أيّ اهتمام به، فقد انتهز الفرصة لرفع البطاقة من محلّها ووضع بطاقة من بطاقاته بدلاً منها:

Twitter: @ketab_n

خدمة قوس قزح لرفع الحشرات الضارّة
لا تظلم نفسك
اتّصل بنا ودعنا ننظّف بالإنابة عنك
ملاك ذو خبرة ومتخصّص ومزوّد بمضخّات
كهربائيّة وآليّة لمكافحة
البرغوث. الصراصير. القمل. بقّ الفراش.
النمل. العناكب. العقارب. الذباب.
الرشّ باستخدام رائحة أو من دونها، يدويًا أو آليًا
باستعمال مساحيق / ذرّات و ـ أو وسائل كهربائيّة
أو صناعيّة مناسبة للفضاءات المفتوحة والمغلقة
هاتف: ٢٥٨٢٤٢٤ (٠٢١٢)

بعد أن اكتملت طباعة هذه البطاقات، استأجر طالبًا جامعيًا لتوزيعها في أنحاء الحيّ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى طرد الشابّ من دون أن يدفع له أجره لقيامه بعمل أخرق، وهذا تصرُّف نموذجيّ من تصرُّفات بيورتورك: إنّه لا يثق بأحد أبدًا.

عاد أدراجه إلى شاحنته الصغيرة لإفراغ حمولتها من قاتل الحشرات، إلّا أنّه في اللحظة التي أغلق فيها الباب، مرَّت امرأة شقراء ترتدي صدريّة مصفّف شعر مربوطة من حول رقبتها، داخل النافذة نصف المفتوحة ونخرت في وجهه، ورشقته بنظرة من عينيها الحولاوين عاقدة حاجبيها الدقيقين:

ـ هل هذه الشاحنة الصغيرة هي كلّ ما تملك؟ أقول لك إنّها غير كافية. لقد وعدونا بشاحنتين في الأقلّ. ولأنّ المكان يحتشد بالقمامة، فإنّ الوقت سيكون ضيّقًا أمام الشاحنتين.

Twitter: @ketab_n

عبس أنجاستس بيورتورك، وقال:

ـ لست هنا من أجل رفع نفاياتك، بل من أجل الحشرات، والصراصير...

جفلت المرأة قائلة:

ـ آه، ومع هذا، فإنّني أقول لك بأنّ ما لديك لن يكفي.

قبل أن يتمكَّن أنجاستس بيورتورك من إدراك ما كانت المرأة تتكلَّم عليه، وما الشيء الذي كان هؤلاء الناس في انتظاره، شقَّت شاحنتان حمراوان طريقهما إلى شارع الجبل وكأنّهما سمعتا النداء. تحرَّك الحشد لدى رؤية الشاحنة الصغيرة من على شاشة قناة تلفازيّة من وراء الشاحنتين الحمراوين. كان أنجاستس بيورتورك يحاول، في غمرة عدم انتباهه للحماس الذي ساد من حوله، أن يعثر في تلك اللحظة على ركن أفضل يركن فيه شاحنته. لكن لا مناصّ، فأعصابه هاجت وماجت الآن لمّا وجد نفسه في خضمّ فوضى على أثر فوضى بالرّغم من إرادته، لأنّ الوريد في الجانب الأيمن من جبينه راح ينبض نبضًا جنونيًا. وكانت الحركة الوحيدة التي بذلها للضغط على الوريد أكثر من كافية لجعله يفقد السيطرة على عجلة القيادة. ففي محاولته الرجوع إلى الوراء مذعورًا، اصطدم بأكوام الأكياس المتدلّية بجانب سور الحديقة الذي يفصل العمارة السكنيّة عن الشارع. كانت النفايات الموضوعة داخل تلك الأكياس قد تبعثرت وتناثرت من فوق الرصيف.

إذا قلنا الصدق، فإنّ قصر الحلوى استخدم للنفايات بعد أن عانى منها معاناة طويلة حتى الآن. فمنذ بواكير شهر شباط وحتى أواسط نيسان ـ وهي المدّة التي أعقبت إفلاس الشركة الخاصّة التي تتولّى رفع القمامة في المنطقة وقبل استئناف شركة جديدة بالمهمّة ـ تكدّس تلٌّ كبير

Twitter: @ketab_n

من النفايات في هذه المنطقة وراحت تنبعث منه رائحة كريهة متزايدة. ولم تتحسّن الأحوال كثيرًا عند مجيء الشركة الجديدة أيضًا. فعلى الرّغم من إزالة القمامة ليلاً على نحو منتظم، فإنّ سكّان شارع الجبل والمارّة ظلّوا يرمون على حدٍّ سواء القاذورات والنفايات على مقربة من سور الحديقة، وأفلحوا مجتمعين في زيادة ارتفاع تلّ القمامة يوميًا.

إذا كنت مهتمًّا بالموضوع، ففي وسعك أن تذهب إلى تلك المنطقة، حتى في هذا اليوم، لتشاهد بأمّ عينك كيف أنّ تلّ القمامة الممتدّ على طول السور الفاصل بين حديقة العمارة والشارع، يغدو بمستوى سطح الأرض في الغسق، ولكنَّه يرتفع في اليوم التالي من دون أن يكون قد فقد شيئًا من تراكمه. فأكياس النفايات تُرمى ثم ترفع من بعد ذلك، لكن على الرّغم من هذا الارتفاع والانخفاض المتواصلين، يبدو تلّ النفايات وكأنّه يخلّد وجوده. فالتلّ يأتي رفقة أهل التلّ ــ وهم الأشخاص الذين يأتون يوميًا لجمع علب الصفيح والمقوّى وفضلات الطعام وما أشبه، إضافة إلى جيش من القطط والأبقار والنوارس. ثم هناك البقّ أيضًا، إذ حيثما وجدت القمامة، انتشر البقّ. كما استولى القمل أيضًا على قصر الحلوى... صدِّقوني، القمل هو الأسوأ.

إذا أراد المرء أن يشاهد هذا، فإنّه يحتاج إلى قضاء بعض الوقت هناك. لكن إذا لم يكن لديك وقت، فينبغي لك أن تقنع بروايتي عن القصّة. إلّا أنّني على الرّغم من ذلك، لا أستطيع إلّا أن أتحدَّث عن نفسي، ولن أفرض آرائي الشخصيّة على ما سينجم عن ذلك، لكنّني قد ألجأ، هنا وهناك، إلى تثبيت خطّ الحقيقة الأفقي بخطّ الخداع العمودي لكي أهرب من ضجيج الواقع المضنيّ الذي رسوت فيه الآن. مع كلّ ذلك، كدت أموت من السأم هنا. وإذا ما أتاني أحدهم بخبر سارّ مفاده أنّ حياتي سوف تكون أقلّ كآبة يوم غد، فإنّني قد أشعر بسأم أقلّ في هذا اليوم. بيد أنّني أعلم علم اليقين أنّ الغد سيكون مشابهًا، وكذلك

Twitter: @ketab_n

بقيّة الأيّام المقبلة. إلّا أنّني لشدّة ولعي بالدوائر، لا يتعيّن عليَّ أن أعطيكم الانطباع أنّ حياتي وحدها هي التي تُعيد نفسها. ففي نهاية المطاف، يكون العمودي وفيًّا لتكراره وفاء الأفقي. وبخلاف ما يعتقده الكثيرون، فإنّ ما يُسمّى «التكرار الأبديّ» ليست له علاقة وثيقة بالدوائر وحدها، وإنّما بالخطوط والترتيبات الأفقيّة.

ولا يتفرَّع عن رتابة الخطوط إلَّا طريق واحد: رسم الدوائر المتداخلة، اللولبيّة. ويشبه هذا التفرُّع، إلى حدٍّ ما، ذلك الذي يعكِّر صفو الآخرين في لعبة النفايات، الذي لا يلتزم بما يظهر من نتائج عندما تدير الغطاء الدائري المصنوع من الألومنيوم الرصاصيّ، فتفسد اللعبة بسبب عدم انتظارك دورك، ولهفتك إلى التدوير مرّات ومرّات، والعبث بالفواعل والمفاعيل بهم والأفعال والمصادفات في الوقت الذي تطمئنّ نفسك أثناء ذلك. «في ربيع العام ٢٠٠٢، كان سبب موت واحد منّا في اسطنبول هو: هي ــ أنا ــ كلّنا نحن ــ لا أحد منّا».

في يوم الأربعاء الموافق لليوم الأوّل من مارس ٢٠٠٢، رشّ أنجاستس بيورتورك قاتل الحشرات في إحدى شقق قصر الحلوى. وبعد مرور خمسة عشر يومًا، ولدى عودته لرؤية صغار الصراصير المولودة من بيوض أمّهاتها النافقة، وجد باب تلك الشقّة بعينها مسدودًا. على أيّ حال، ما يزال الوقت مبكِّرًا على الحديث عن هذه الأمور في الوقت الراهن، لأنّ ثمّة وقتًا آخر كان يسبق هذه اللحظة، ووقتًا آخر، على وجه التوكيد، قبله أيضًا.

Twitter: @ketab_n

مـا قبـــــل...

في يوم من الأيّام، كانت ثمّة مقبرتان قديمتان في هذا الحيّ، إحداهما صغيرة، مستطيلة الشكل تقريبًا وفي حالة جيِّدة. أمّا الثانية، فكبيرة جدًّا، شبه هلاليّة ومهملة على ما يبدو. امتدَّت هاتان المقبرتان اللتان تحيط بهما أسوار تغطِّيها نباتات اللبلاب، والتلال الظليلة، وانحدرتا معًا باتّجاه السور غير المنتظم ومن فوق تضاريس أرضيّة شاسعة، انحدارًا متواصلاً، وازدحمتا قرب الأطراف، ولكنَّهما بقيتا خاليتين في أطرافهما النائية. المقبرة الصغيرة ملك للأرمن، والكبيرة للمسلمين. وانتشرت على السور البالغ ارتفاعه ستّة أقدام والفاصل بين المقبرتين مسامير صدئة وشظايا زجاج مكسورة، إضافة إلى قطع من مرايا مكسورة أيضًا على الرّغم من الخوف ممّا تجلبه من حظّ نحس، للحيلولة من تجاوز الأهالي من مقبرة إلى أخرى. أمّا بابا المقبرتين الضخمان اللذان يتألَّف كلٌّ واحد منهما من مصراعين اثنين وقضبان من حديد، فيقعان في اتّجاهين مضادّين، أحدهما في مواجهة الشمال والآخر في مواجهة الجنوب، حتى إذا أراد زائر من الزوّار الانتقال من مقبرة إلى أخرى، فإنَّ همّته سوف تبرد بسبب طول الطريق الذي يتعيَّن عليه السير فيه. يُضاف إلى هذا، ما من أحد سوف يضطرّ حقًّا إلى تحمُّل مثل هذا العناء، ما دام لم يوجد أيّ زائر له قريب دُفن في إحدى

Twitter: @ketab_n

المقبرتين، ويتمنّى لدى وجوده هناك زيارة المقبرة الأخرى أيضًا. غير أنّ عددًا كبيرًا من الكائنات راح، على الرّغم من ذلك، يقفز ويثب من مقبرة إلى أخرى كما يحلو له، سواء أكان الوقت ليلاً أم نهارًا، كالريح واللصوص، مثلاً، أو القطط والسحالي، الذين أتقنوا جميعًا مختلف الوسائل للدخول، من فوق الحاجز الذي يفصل المقبرتين ومن تحته.

بيد أنّ ذلك ما من شأنه أن يستمرّ طويلاً. فقد تسبَّبت موجة الهجرة المتواصلة في ازدحام المدينة بالمباني المتراصّة إحداها من خلف الثانية مثل جنود في جيش منحوس، يبدو كلّ واحد منهم شبيهًا بالآخر من على بعد مسافة. غير أنّ المقبرتين بقيتا بمنأًى عن أيّ تأثير مثل جزيرتين غير مأهولتين بالسكّان وسط مياه «التمدين» المضطرمة المحيطة بهما من كلّ الاتّجاهات. وفي حين ارتفعت المباني الشاهقة الجديدة وصفوف البيوت باستمرار، فقد امتدَّت من حولهما شوارع صغيرة ومتفرِّقة وملتفَّة تشبه أوردة الدماغ عند النظر إليها من الأعلى. فكانت الشوارع تتقاطع أمام المنازل، والمنازل تسدّ الشوارع، وانتفخ الحيّ بأكمله انتفاخ سمكة طائشة عاجزة عن الشعور بالشبع حتى بعد أن تكون قد تجاوزت مرحلة الامتلاء. وأخيرًا، وعندما وصل الحيّ مرحلة الانفجار، بات محتّمًا اللجوء إلى عمليّة قطع وفتح منفذ على العقدة المستعصية والممتدّة للتخفيف من شدّة الضغط المتنامي من الداخل. وكان هذا القطع يعني بدوره حتميّة شقّ طريق جديد قبل مضيٍّ وقت طويل.

نظرًا لهذا النموّ المتواصل الذي لم تسبق معرفته، باتت كلّ الشوارع في المنطقة القريبة منحشرة في أطرافها مثل مياه لا سبيل أمامها للجريان. وفي وسع جادّة عريضة أن تسهِّل الانسيابيّة إذا ما ربطت الشوارع كلّها بتلك الجادّة.

غير أنّ السلطات أدركت فداحة الورطة التي تنتظرها عندما حان الوقت لإلقاء نظرة عامّة وشاملة كي تقرِّر أين تشقّ هذه الجادّة وكيف.

Twitter: @ketab_n

ففي كلّ المواقع الممكنة لتشييد مثل هذه الجادّة، ثمّة بناية حكوميّة أو عقار لأحد أشراف طبقة الملّاك المحلّيّة، وكأنّ ذلك أمر متعمَّد، أو إن لم يكن الأمر كذلك، فثمّة بيوت مهلهلة واطئة الكلفة ومزدحمة بالأسر التي يمكن هدمها بيتًا في أثر بيت من دون أيّ جهد، إلَّا أنَّ الصعوبة تكمن في إزالتها ومحوها تمامًا لكثرتها. لهذا ينبغي للسلطات أوّلاً أن تمهّد السبيل لشقّ طريق حتى تتمكّن من بناء الطريق الذي سيفتح السبيل!

لمّا كانت اسطنبول مدينة لم تشيَّد فيها البيوت طبقًا لخرائط الطرق، بل إنّ خرائط هذه الطرق وضعت كي لا تؤثّر في موقع هذه البيوت، فإنَّ فتح طريق جديد يتطلّب هدم أقلّ عدد ممكن من المنازل. وفي ضوء هذا الشرط المسبق، لم يبق سوى خيار واحد يتمثّل في جعل الطريق الجديد يمرُّ وسط التضاريس الأرضيّة الخاصّة بكلّ مقبرة.

بعد أن صادقت السلطات على التقارير التي فصّلت هذه الخطّة، تقرِّر إزالة المقبرتين وتسوية التضاريس الأرضيّة المحيطة. وقالت السلطات إنَّ الذين لديهم أحبّاء في هاتين المقبرتين لا ينبغي أن يستبدّ بهم القلق. فالقبور يمكن رفعها بكاملها في نهاية الأمر إلى مناطق مختلفة حول المدينة. ويمكن نقل قبور المسلمين إلى المنحدرات المطلّة على القرن الذهبي، مثلاً، وقبور غير المسلمين إلى المقابر الخاصّة بهم في مختلف المناطق.

كانت معظم القبور موغلة في القِدَم، بحيث كانت ذرِّيَّة سكّانها قد انتقلت بدورها إلى العالم الآخر الآن. كما أنّ ثمّة قبورًا أيضًا قد لا يدّعي أحد عائديّتها له، حتى وإن كانت الذرِّيّة ما تزال في قيد الحياة. على الرّغم من كلّ هذا، فقد تبيَّن أنّ عدد الناس الذين يدسُّون أنوفهم في مصير القبور أكبر بكثير ممّا توقّعته السلطات بداية؛ ومن بين هؤلاء، أراد بعض الأقرباء أن يتركوا موتاهم وشأنهم، في حين اكتشف آخرون أنّ المقابر المقترحة البديلة مزدحمة أصلاً. وبدأت هاتان المجموعتان

Twitter: @ketab_n

من الناس البحث من فورها عن أساليب لتغيير القرار. ومع هذا، فإنَّ أغلبيّة الأقرباء ارتضت أن تفعل كلّ ما من شأنه أن يكون ضروريًّا، ولهذا السبب، انطلقت لتحمّل هذا العبء.

في الأيّام التي أعقبت ذلك، أدَّت مقبرة المسلمين دور المضيف في كلّ ساعات النهار لمختلف أنواع الزوَّار، كلّ واحد منهم يغنّي لحنه المختلف. ووقعت مهمّة إخفاء آثار زوّار الليل عن أولئك الذين يؤدُّون زياراتهم أثناء النهار على عاتق حرَّاس المقبرة الذين راحوا يجمعون وقت الفجر العظام المتناثرة وسدّ القبور التي حفرت أثناء الليل. ومع اقتراب وقت الظهيرة، كانت السلطات تأتي لتفقّد الحرّاس، وفي العصر كانت الأسر تقلق بشأن موتاها الذين يختلطون بزوّار الآخرين بأعداد غفيرة، يكلِّم أحدهم الآخر ويشكو له، إن لم يكلِّموا القبور ويشكو لها.

ظلَّت النساء العجائز واللواتي في خريف العمر من هذه الأسر تأتي إلى هذا المكان كلّ يوم تقريبًا إلى أن منعت المقبرة رسميًّا قبول الزوّار. وعندما ينتابهنّ الوهن والإعياء من طول الوقوف، يتجمّعن ناشرات بطّانيّاتهنّ من حول قبور أقربائهنّ. وإذا ما جلسن، فإمّا أن ينخرطن في البكاء وحيدات أو يتضرّعن معًا، متشبِّثات بأطفالهنّ تشبُّثًا شديدًا لإرغامهنّ على التزام صمت ينمُّ عن توقير. ثم يمرّ الوقت سريعًا، وتزداد وطأة الجوّ، ويخلد بعض الأطفال للنوم في حين يهرب آخرون لممارسة اللعب، لتعقب ذلك كلّه سحابة من الخمود تشكِّل مظلّة من فوق النسوة الجالسات على الأرض. ويمكن أن يطلق على هذه الحالة «هبوط الروحي». مع كلّ ذلك، لا يمكن أن يظلّ أكثر الزهّاد في غفلة عن قوى الجاذبيّة التي تجذبهم إلى الأرض. وتلبث النسوة على هذه الحالة مع هبوط الظلام، فينبشن في حقائبهنّ الطويلة، المهلهلة التي لا يعلم أحد متى اشترينها فانقلب لونها بمرور الزمان إلى اللون البني الكالح نفسه، بحثًا عن بسكويت بنكهة اليانسون، ويتناولن الشاي من

Twitter: @ketab_n

ترامس وفي الوقت نفسه يوزّعن ماء الكولونيا بالليمون لمسح وجوههنّ المتصبِّبة عرقًا والبقع الجلديّة المحمرّة من حول ركبهنّ الناجمة عن جواريبهنّ الطويلة المصنوعة من مادّة النيلون والضيِّقة أكثر ممّا ينبغي مهما كان الحجم الذي يلجأن إلى اختياره. ثم يقرأن صفحات دفاتر الماضي، متذكِّرات الواحدة تلو الأخرى أسماء كلّ الذين حوَّلوا الحياة إلى جحيم حيّ للراحلين الأعزّاء. وما إن يبدأن بالتوصُّل إلى قضايا سابقة مثيرة للجدال حتى يسرعن في التخلّي عن الحزن على الموتى، وينتقلن بدلاً من ذلك إلى اغتياب سيرة الأحياء. نفد الشاي كلّه ولم يبق إلَّا حفنة يانسون من البسكويت. . وتتذكّر إحداهنّ الأخريات كيف أنّ الأحبّة الراحلين حُرموا الآن من الهدوء والراحة حتى وهم في جوف الأرض، وكأنَّهم لم يتعذَّبوا بما يكفي عندما كانوا على سطح الأرض. وبهذه الذكرى، تلفّ كآبة المشهد سحابة الخمول والكسل، ويمكن أن يطلق على هذه الحالة «صعود المادِّي». مع كلّ ذلك، لا يمكن أن يظلّ أكثر الدنيويين غير مبالين بما هو سماويّ. وهكذا، تنتقل هؤلاء العجائز واللواتي في خريف العمر رويدًا رويدًا من الأدعية إلى اللعنات، ومن اللعنات إلى الاغتياب، ليعدن من بعد ذلك إلى البداية حتى ينهين هذا الحديث المتموِّج بدعاء أخير.

في أثناء ذلك، يبدأن بالبحث عن الأطفال المنتشرين بين شواهد القبور متجوِّلين في المقبرة تجوالاً طائشًا. وبعد البحث عن الأطفال والقبض عليهم، تجري إعادتهم إلى شواهد القبور الخاصّة بأقربائهم لابتهال أخير. وفي ذلك الوقت، يكون الرجال قد عادوا أدراجهم إلى البقعة نفسها، منهكين الإنهاك كلّه بسبب الجهد الذي بذلوه طوال النهار بلا طائل للحديث بصوت عالٍ على مسمع البيروقراطيّة الصمّاء، وبعد أن يكونوا قد حصلوا إجمالاً على بضع وثائق وخارطة المقبرة الجديدة، التي ما تزال بحاجة إلى توضيح قليل عن البقعة التي سيجري الدفن في

Twitter: @ketab_n

نطاقها. فيتظاهرون بأنّ كلّ شيء تحت السيطرة وفي نطاق فهمهم وإدراكهم. ويذهب هؤلاء الذكور المشار إليهم آنفًا إلى مواجهة كلّ سؤال مزعج، وكلّ تفسير مكدّر تطرحه عليهم أمّهاتهم وأخواتهم الأصغر سنًّا وزوجاتهم وأمّهات زوجاتهم وبناتهم، مواجهة خشنة وقاسية. وفي حين يبدأ جمع الدثارات وتوديع شواهد القبور، يتنبّه عديد النسوة إلى تناقضات كثيرة اكتنفت ردود الرجال، فيبدأن إمّا بطرح أسئلة جديدة أو بإعادة صياغة الأسئلة القديمة، ولكن على نحو أكثر إلحاحًا في هذه المرَّة. بتلك اللمسة الأخيرة، تنقطع أعصاب الرجال التي توتّرت توتّر أوتار القوس بسبب معوّقات البيروقراطيّة. وبعد أن يزعق الأزواج في وجوه زوجاتهم، وتردّ زوجاتهم عليهم بالزعيق أيضًا، تغادر الأسر مقبرة المسلمين في فوضى عارمة، ومن دون أن تكون قد تمكَّنت من حلّ أيّ شيء. وعندئذٍ يهبط الظلام، ويُغلق الباب الضخم ذو المصراعين والقضبان الحديد، وتبدأ بذلك ساعات القطط ولصوص المقابر.

أمّا المقبرة الأرثوذكسيّة الأرمنيّة، فكانت تحظى بدورها بعدد كبير من الزوّار في الوقت نفسه تقريبًا، باستثناء فارق واحد، وهو أنَّ أغلبيّة هؤلاء الزوّار كانوا يفدون إلى المقبرة لا من أجل نقل قبورهم بل لتوديعهم الوداع الأخير، لأنّهم حتى إذا تمكّنوا من الحصول على الإذن الخاصّ بالنقل، ففي أيّ مدفن يمكنهم أن يدفنوا موتاهم وسط مقابر اسطنبول الأرثوذكسيّة التي اندثرت منذ زمن بعيد وتضاءلت بسبب ضيقها؟ صحيح أنّ بعض الأسر وأعضاء الكنيسة البارزين تمكّنوا من نقل عدد من القبور، إلّا أنّ الحال لم يخرج عن هذا النطاق. وكان من بين الموتى الذين تركوا في أماكنهم أجداد أعزّاء بقوا في الذهن وينتمون إلى أُسر عظيمة الشأن، فضلاً عن قبور مضى زمن طويل ولم يطالب أحد بعائديّتها له، أو أهمل شأنها مؤخّرًا، فثمّة أحفاد توزَّعوا في بقاع الأرض كافّة، وآخرون ما تزال أسرهم تسكن في مدينة اسطنبول؛

Twitter: @ketab_n

وأولئك الذين لبثوا طوال حياتهم مخلصين لعقيدتهم إخلاصًا تامًّا وأوفياء لبلدهم، إضافة إلى أولئك الذين رفضوا الاعتراف بالله أو الدولة. . .

هكذا هو حال الأمور. إنّ ما يجعل الأقلّيّات نكدة الطالع لا يتمثَّل في قلّتها العدديّة بإزاء الأغلبيّة، وإنّما تشابهها النوعي. فإذا كنت واحدًا من أبناء إحدى الأقلّيّات، فيمكنك أن تكون مُجدًّا كالنملة، بل ويمكنك أيضًا أن تنجح نجاحًا باهرًا غير متوقّع وتحقّق ثروة طائلة، ويمكنك في يوم من الأيّام، وبسبب انتمائك الآن وعلى الدوام إلى الجماعة نفسها، قد تجد نفسك في لحظة من الزمان ندًّا لنّدٍ مع أفراد جماعتك الذين قضوا حياتهم بلا عملٍ مُجدٍ منذ ولادتهم. لهذا السبب، تجد الأثرياء من أبناء الأقلّيّات ليسوا أثرياء بما يكفي أبدًا، كما أنّ أفراد تلك الأقلّيّات الاستثنائيّين ليسوا في مستوى متواضع من العيش. ففي تركيا إبّان عقد الخمسينيّات من القرن العشرين على وجه الخصوص، نلاحظ أنّ ما يشاهده المسلم الثريّ على وجه مسلم آخر يصادفه في طريقه إنّما هو «شخص لا يشبهه أبدًا»، بينما يرى فرد ثريّ من أفراد الأقلّيّات على وجه فقير يصادفه في طريقه «شخصًا لا يشبهه تمامًا ولكنَّه يعامله معاملة الندّ للندّ». وعلى هذا الأساس، فإنَّ الشقاء نفسه قد يوقظ العاطفة في المسلم الثريّ الذي يستمتع بمعرفة عدم إمكانيّة هبوطه إلى ذلك المستوى أبدًا، في حين قد يسبّب ذلك القلق في نفس فرد من أفراد الأقلّيّة الغنيّة، وينتابه الضيق لإدراكه أنّه قد ينتهي به الأمر تلك النهاية على نحو غير متوقَّع. لكن ما إن يبدأ المرء الخوف من الظلم حتى ينتهي به الأمر إلى فقدان الهدف الحقيقي ويخلط بين النتائج والأسباب. من هنا، ففي الوقت الذي قد يُظهر فيه نبلاء الأغلبيّة المسلمة رأفة رقيقة تجاه التعساء على وجه الخصوص وعلى التعاسة على وجه العموم، فإنَّ صفوة الأقلّيّة ستأخذ بالاقتراب من المظلومين والمضطهدين مادّيًّا ومعنويًّا من بين قومهم اقترابًا يشوبه قلق بسيط.

Twitter: @ketab_n

غير أنّ كلّ هذه الفروق الرمزيّة لا تذهب إلى ما هو أكثر من ذلك في كلّ الأحوال. ففي نهاية مدّة الشهرين ونصف الشهر، لم ينقل إلّا عدد قليل من القبور من المقبرة الأرمنيّة الأرثوذكسيّة، وهكذا ظلّت أغلبيّة الأقلّيّة متلكّئة. أمّا مقبرة المسلمين، فقد نقل منها عدد أكبر بكثير من القبور، وظلّت أقلّيّة الأغلبيّة متلكّئة. بيد أنّ هاتين المجموعتين من الموتى، اللتين لا يربط بينهما أيّ رابط يخصّ النسب أو النشأة أو السيرة، اختتمتا المرحلة الأخيرة من وجودهما في اسطنبول على حدٍّ سواء.

وفي وسع المرء أن يمنحهما منزلة واحدة هي: «العاجزون عن الرحيل». وأنّ أسوأ شيء عندما يكون المرء واحدًا من أولئك العاجزين عن مغادرة أرض من الأراضي لا يتمثّل في عجزهم عن الرحيل قدر ما يتمثّل في عجزهم عن البقاء.

في هذه المرحلة نفسها، لعب القدر لعبته. فقبل مجيء الجرّافات، نهب اللصوص شواهد القبور واستولت الكلاب على عظام عدد من أولئك العاجزين عن الرحيل. ومن بين الأزواج الذين دفنوا معًا منذ زمن طويل بسبب تشابه الاسم أو تقصير موظّفي المقبرة العاجزين عن فهم الكتابة العثمانيّة على شواهد القبور القديمة، انتهى المطاف بأحدهما إلى ركن وثانيهما إلى ركن آخر. وحدث خلط بين بعض الأموات ودفنوا في قبور مختلفة، في حين أنّ أغلبيّة كبيرة أُزيلت إزالة صامتة وخفيّة ومنظّمة. إلّا أنّ القدر هو الذي يقرِّر في آخر الأمر مصير عديد العاجزين عن الرحيل.

ما إن انتهت هذه الإجراءات، لم يعد من تلك الأرض الشاسعة سوى حقل ملؤه الحفر، وكأنّه وقع ضحيّة لسرب من حيوانات الخُلد. ولمّا آن أوان تسوية سطح الأرض برمّتها، استبدّ الرعب بالسلطات عندما اكتشفت أنّ قبرين اثنين ما يزالان في مكانيهما مصادفة من دون أن

Twitter: @ketab_n

يلحق بهما أيّ ضرر. وكان تابوتاهما الحجريّان مصنوعين من مرمر أبيض ذي عروق قرمزيّة، ومزيّنين بنقوش عثمانيّة مزركشة ونقوش نباتات بارزة مستنبتة في عجلات القضاء والقدر الثلاث. وكانت العمامتان كبيرتين وكأنّهما عجلتا عربة، ويبلغ ارتفاع المسافة من قاعدة كلّ شاهد قبر إلى الأعلى زهاء مائة وستّة وأربعين سنتمترًا، ويحيط بهما سور من قضبان حديد، حادّة وكأنّها سهام، ومطليّة بطلاء أخضر بلون أوراق شجر كامدة. وبينما هما في مقبرة المسلمين، فإنَّ أحدهما كان يقع في السفح الجنوبي وثانيهما في الطرف الشمالي، وفي أسفل الجدار الذي يفصل المقبرة الأرمنيّة الأرثوذكسيّة. وإذا ما تركنا هذه التفاصيل جانبًا، فإنَّ القبرين متشابهان تشابهًا تامًّا. فعلى السطح الخارجي للحجارة الملحقة، ثمّة نقوش تمثّل زهور التوليب والهايسينيث، وعلى رأسيهما عمامتان متشابهتان، والقوس المدبَّب نفسه من حول مقعديهما، والعبارة نفسها «الله جبّار والآخرون حمقى»، نقشت بالخطّ العثماني على القبرين. الغريب أنّ ثمّة علامة صدئة وضعت بجانب كلّ قبر، ربّما أرسلها الأشخاص نفسهم في الوقت نفسه، مفادها: «هنا يرقد الوليّ الذي جمع متاعه ورحل، وقام بمآثر بطوليّة لا تُعدّ ولا تحصى من أجل الفتوحات الإسلاميّة أثناء خدمته في جيش أبو حفص حدّاد الذي بلغ رحمة الله قبل أن يشهد سقوط المدينة الكافرة. صلّوا على روحه».

عندما صدر الأمر إلى سائق الجرّافة بإزالة هذين القبرين، فإنّه اضطرّ إلى الانصراف من العمل مبكرًا بعد أن ألمَّ به ألم حادّ بين فخذيه. وعلى الرّغم من أنّ الألم خفَّ في اليوم التالي، إلّا أنّه رفض أن يسوق الجرّافة. وفي اليوم الثالث، حلَّ محلّ العامل جدّه الذي لم تكن لديه أيّ أسنان في فمه ولا قوّة في عضلاته، ولكن كانت لديه حيويّة مناسبة عندما يحين الكلام. وراح يروي لكلّ من يصادفه في طريقه حكايات يقشعرّ لها العمود الفقري عن المصير الكئيب لتلك الأرواح

Twitter: @ketab_n

المنحوسة التي حاولت أن تنهب قبور الصالحين. بحلول صباح اليوم الرابع، لم يرغب أيّ عامل في سياقة الجرّافة. وإذا ما أردنا قول الحقّ، فإنَّ أحدًا غيرهم لم يكن مهتمًّا بالوليّ «الذي جمع متاعه ورحل»، وكان من شأن الأحوال أن تظلّ كعهدها، لو لم تظهر السلطات اهتمامًا مفاجئًا في الموضوع بعد أن تلقّت تحذيرًا مفاده أنّ خصومها السياسيّين قد يستخدمون الوضع الحالي ضدّها. كان العام هو ١٩٤٩، وكان التوازن السياسي في غاية الهشاشة، فقد راحت المعارضة الحديثة النشأة والحكومة نفسها تشوّه إحداهما سمعة الثانية بمناوشات عن «صفاقة تسيء إلى الدين» بحسب مزاعمهما. وعند هذه النقطة، ظهر «الأصدقاء الاستشاريّون الثلاثة».

طرح أوّل الأصدقاء الاستشاريين الثلاثة فكرة مفادها وجوب أن تنعطف الجادّة العريضة في نقطتين اثنتين كي لا تقلق راحة الوليّين. وكان من شأن اقتراحه أن يحظى بالتفكير لو أنّ أحدًا ما أخذه على محمل الجدّ، ما دام أنّ زوجته لم توبّخه في ذلك اليوم المنحوس في مقرّ العمل، عندما اكتشفت أنّه أنفق أجر الشهر بأكمله في أحد النوادي الليليّة. واقترح ثاني الأصدقاء الاستشاريين الثلاثة بدوره أن تكون الجادّة العريضة مستقيمة حتى تصل القبرين، وعندها تنقسم إلى قسمين مثل قطعة جبن. وبالرّغم من أنّ كلّ فرد كان يعلم أنّه استطاع السيطرة على زوجته، وإن كان في ذلك قدر من الصعوبة، وأنّه تجرّأ على رفع صوته في البيت وقذف بالطعام الرديء الطعم على الجدار، فإنَّ فكرته لم تلق القبول، لأنّ ما من أحد أراد أن يتحمّل مسؤوليّة حوادث مروريّة ممكنة في المستقبل.

وهنا أكّد ثالث الأصدقاء الاستشاريّين الثلاثة في كلمة مشتّتة أنّهم يرتكبون هفوة كبيرة باندفاعهم إلى حلّ، لأنّ عليهم بادئ ذي بدء أن يفهموا ماهيّة المشكلة، وبعد أن يفهموها، سيلاحظون أكثر من نقطة في

Twitter: @ketab_n

هذه القضيّة المعيّنة. وهكذا فسَّر خطابه على أنّه «التشخيص أوّلاً ثم العلاج!».

كانت نقاط التوكيد التي أراد ثالث الأصدقاء الاستشاريّين الثلاثة توضحيها لأجل التشخيص على الوجه الآتي:

١ ــ ما جيش أبو حفص حدّاد؟ ماذا يفعل في اسطنبول؟

٢ ــ إذا كان هذا الجيش واحدًا من تلك القوّات العربيّة التي توغّلت منذ زمن طويل حتى وصلت اسطنبول بهدف الفتح، فماذا كان يفعل شخص ما مثل الوليّ «الذي جمع متاعه ورحل» بينهم، وهو الذي لا يبدو اسمه عربيًا أبدًا؟

٣ ــ إذا كان الوليّ «الذي جمع متاعه ورحل» قد استشهد حقًّا أثناء معركة فتح القسطنطينيّة وهو يقاتل في صفّ العرب، فما السبب في وجود قبرين له؟

٤ ــ أخيرًا وليس آخرًا، أيّ القبرين هو الأصل؟

بعد أن أوضح ثالث الأصدقاء الاستشاريّين الثلاثة كلّ نقطة من النقاط الواردة في جدوله، توصَّل إلى نتيجة مفادها أنّه بالرّغم من عدم وجود ضير في تجاوز بعض هذه النقاط من أجل توفير الوقت، إلّا أنّ من الضروري تمامًا توضيح النقطة الأخيرة للتأكُّد من الضريح الحقيقي. الحقّ أنّه كان خطيبًا أفضل من الآخرين وكان أعزب أيضًا.

ولمّا كان الأمر كذلك، فإنَّ حفر مرقد وليّ في مثل هذا الوقت كان يشبه قبول هديّة مغلَّفة لا تُعرف محتوياتها من مرسل مجهول الهويّة: ربّما كانت لا تحتوي على أيّ شيء ضارّ، ولكن إذا احتوته؟ لزيادة الطين بلّة، وفي هذا الوقت نفسه، اشتمّ الرائحة صحافي بذيء اللسان عُرف عنه أكل الخبز بالعرق في الفطور، ولكنَّه بالرّغم من ذلك، كان من اليقظة ما يجعله متنبِّهًا على الدوام، فكتب مقالة في كبرى صحف

Twitter: @ketab_n

المعارضة بعنوان: «حفّارو قبور حكوميُّون في ثياب رسميّة».

وعلى الرّغم من أنّ المقالة نفسها لم تنطو على اتِّهام كما يوحي عنوانها، والادّعاء من ورائها مبهم، فإنَّ السبب في ذلك قد يرجع إلى أنّ الصحافي ثمل قبل أن يكمل كتابة المقالة، وليس إلى قلقه من دسّ أنفه أكثر من هذا في القضيّة. ولم تكن ثمّة وسيلة للتأكُّد من أنّه لن يكتب بعد ثوابه إلى رشده مقالة أخرى، تكون في هذه المرَّة أكثر اعتدائيّة.

على الرّغم من ذلك، فإنَّ المرقدين حُفِرا معًا ومن دون سابق إنذار. وهكذا تأهَّب موظَّفان حكوميّان وثلاثة حرّاس وخمسة عمّال رفقة حقائبهم ومشاعلهم ومعاولهم ومجرفاتهم قبيل الفجر لإنجاز هذا الواجب غير المريح بأسرع وقت ممكن ومن دون حضور أيّ متفرِّجين، وراحوا يحفرون المرقدين من تحت نظرات ذاهلة رشقهم بها بعض المشرَّدين الذين كانوا قد استقرُّوا في المقبرة الخالية من القبور، بعد أن توقّف اللصوص وكلاب الشوارع عن المجيء إليها. لكنَّهم لم يعثروا على شيء في المرقد الأوّل، ولا حتى أيّ تابوت، ولا كفن ولا عظام أو جمجمة، ولا مقتنيات شخصيّة تعود للوليّ، بل كانت ثمّة جذور لإحدى الأشجار وصخور متصدِّعة ودود ـ وحتى هذه الأشياء كانت غير موجودة في القبر الثاني. وهنا ارتكبت السلطات غلطة فادحة عندما افترضت أنّ المشكلة انتهت، وأزاحت التابوت الحجري وهدمت السياج المحيط به، متفائلة تفاؤلاً أكبر ممّا ينبغي.

وفي اليوم الثاني، ظهر مقال افتتاحي من دون اسم كاتبه في صحيفة المعارضة الرئيسة، بعنوان «قتلة وليّين حكوميّين ببذلات من ثلاث قطع» ـ وكانت مقدِّمة المقالة ونهايتها مرتبطتين ارتباطًا متماسكًا ذا مغزى في هذه المرّة لا غيرها. وزعمت المقالة أنّ الحكومة التي أظهرت حتى هذه اللحظة وفي كلّ فرصة ما تكنُّه من احترام قليل للتراث الثقافي العثماني،

Twitter: @ketab_n

قد أخذت على عاتقها الآن دكّ كلّ أضرحة الأولياء في اسطنبول واحدًا تلو الآخر، وإنّ بعض السياسيّين الذين يتظاهرون أمام الملأ بتأييد العادات والتقاليد إنّما راحوا سرًّا يقلّلون من كلّ شيء يخصُّ السواد الأعظم من الشعب، وأنّ الإيمان الذي يتفجَّر من أعماق الأمَّة ضُحّي به من أجل نموذج غربي مجرّد، وإنّ الإسلام بات موضع اعتراض باسم تطهير الدين من الخرافات. ووجّهت المقالة في نهايتها نداءً إلى كلّ المسلمين لحماية أوليائهم.

على الرّغم من أنّ المقالة لم تؤدّ، كما سادت المخاوف، إلى فيض من العواطف، إلّا أنّها حفّزت مثل صاروخ منبِّه، كلّ الأفراد والتنظيمات إلى العمل في شتّى أنحاء البلاد. وبدأ هؤلاء الناس وكأنّهم اكتشفوا على حين بغتة ما حدث لمرقدي الوليّيْن في المقبرة التي خلت من قبورها على أنّه هدفهم الوحيد في الحياة، وطالبوا الحكومة بتقديم إيضاحات. لم يكن الموضوع في غاية الحساسيّة فحسب، بل كان قابلاً للاستغلال استغلالاً مدهشًا. وبدأ المشاركون في المناقشات العامّة بالإشارة إلى «تقصير التحديث»، واختتموا مقترحين بدلاً من ذلك وجوب «التخلّي عن التحديث نفسه». وكما هو حال الخنفساء الغائصة التي تنزلق على الماء، فقد قفزوا ووثبوا إلى مفاهيم متبجِّحة مثل «نسيان الأمّة» و«مقلّدو الغرب المعاصرون» و«إدخال ما هو غربي عنوة» و«علمانيّة بشعة».. وهلمّ جرّا، وهكذا عبروا بحيرة من العداء برمّتها وقذفوا بالماء على الكلّ باستثناء أنفسهم.

وأعلنت صحيفة محلّيّة تصدر في الأقاليم، ولكنَّها بدت مهتمّة بما يدور في اسطنبول، حتى وإن لم تكن توزّع فيها: «إنّ ما يصطلح عليه بمصطلح «إدخال النظم الغربيّة» ليس سوى زواج بين الشرق والغرب، ولكن يتعيّن على المرء ألّا ينسى أبدًا أنّ الغرب في هذا الزواج هو المرأة وأنّ الشرق هو الرجل. ولهذا، فإنَّ الرجل هو ربّ الأسرة في

Twitter: @ketab_n

نهاية المطاف. وهذا أمر طبيعي، ولأجله، ينبغي لتلك الشوارع المبهرجة والمشيَّدة من أجل عدد محدود من السيِّدات المنغمسات في الترف الساعيات وراء المسرّات، ومن أجل المتأنِّقين في مظهرهم وملبسهم للمباهاة بسيّاراتهم، أن تُظهر احترامًا للأولياء وليس العكس».

ومع ملاحظة جريمة تتطلَّب الكشف عن المجرم، كان الوقت ملائمًا لأن يتورّط بعض الناس في المتاعب. فبعد تأمُّل قصير في الخيارات المتاحة، حلَّقت المتاعب في الأرجاء لتحطّ في نهاية الأمر على رؤوس حرّاس المقبرة الكبار السنّ والأوفياء. فبعد أن أفلحوا في إخفاء كلّ آثار الاضطرابات الليليّة في المقبرة عن الأهالي الذين زاروها صباحًا، إلَّا أنّهم لم يتمكّنوا من إخفاء أنفسهم عن أنظار مسؤولهم، وبعد أن أُدينوا بتهمة العبث بالمرقدين، سُرِّحوا موقّتًا من العمل. وكان من بين الحرّاس الثلاثة حارسان عجوزان يعتقدان أنّ كلّ كارثة لا بدّ أن تنجلي. وعاد واحد من هذين الحارسين الاثنين إلى قريته، في حين عاد الآخر إلى منزله ليهب ما تبقّى من حياته لأحفاده. أمّا الحارس الثالث، الأصغر سنًّا نسبيًّا ولا يرضى بسهولة بالشيء القليل، فلم يقبل بالظلم الذي حاق بهم. وفي الأشهر التي أعقبت ذلك، كتب رسائل تأنيبيّة إلى مديريّة المقابر ورئيس البلديّة والوزراء ورئيس الوزراء وكبار القادة العسكريين، وراح في الوقت نفسه يشكو أمره لكلّ من يصادفه. في تلك الأثناء، حدث تغيّر في الحكومة وتسلّمت المعارضة زمام الأمور، لكنّ الأمور ظلَّت على حالها، وبقيت رسائله من دون جواب والسلطات لامبالية. وبعد أن ازداد صمتها إزاء دعواته، ازداد صمتًا بدوره، منساقًا وراء حنايا نفسه. وتوقَّع الناس أن يتجاوز الماضي في نهاية المطاف، ولكنَّه أقدم على عمل غير متوقَّع تمامًا عندما اعتقدوا أنّه تجاوز ماضيه.

كان لهذا الرجل زوجة لم يلمسها منذ سنوات، بعد أن كان قد هجرها في الفراش لشخيرها المتواصل حتى طلوع الفجر، وكأنّها فيل.

Twitter: @ketab_n

وفي يوم من الأيّام، وعلى حين بغتة، راح الرجل يطارد هذه المرأة في أنحاء المنزل، من دون أن يلتفت تمامًا إلى اللوم الذي قد ينحو به عليه الجيران بسبب مثل هذه الشهوة وهو في هذه السنّ! وأخيرًا، قبض على زوجته بعد مطاردة طويلة مفعمة بالصراخ، من دون أن يعير أيّ أهمّيّة لحججها واعتراضاتها وتوسُّلاتها ولعناتها، وغشيها في سنّ الخمسين بإصرار تامّ وبمساعدة الحظّ.

لم يضيِّع دقيقة واحدة في اندفاعه إلى مكتب تسجيل الولادات بعد ولادة الطفل مباشرة. ولكي يضمن لنفسه بأنّه لن ينسى ولن ينسى غيره الظلم الذي حاق به، سمّى الابن الذي رزقه الله به بعد كلّ هذا الزمان بالاسم «أنجاستس»، على الرّغم من كلّ احتجاجات زوجته، وبعد أن دفع حفنات من الرشا للموظّف الحكومي القائم بعمله.

قبل أن ينشأ أنجاستس في رحم أمّه بزمن طويل، راحت فضيحة الوليّيْن تتلاشى. ففي غضون أسبوعين أعقبا إزالة مرقدي الوليّ «الذي جمع متاعه ورحل»، تغيَّر جدول الأعمال السياسي تغيُّرًا كاملاً، وركَّزت كلّ من الحكومة والمعارضة جلّ اهتمامهما في الانتخابات المقبلة. وفي وسع السلطات البلديّة التي كانت قد عجَّلت في هذا الوقت في مشروع بناء الطريق، أن تزعم بأنّ القضيّة قد أغلقت، وأن تنتهي من إكمال المشروع من دون أيّ مشكلات أخرى. إنّ ما حدث قد حدث، ما دام أنّ التابوتين الحجريَّيْن قد رُفعا أثناء الحفريّات في المقبرة. ومع هذا، ففي غضون تلك الأيّام الحسَّاسة التي كانت كلّ حادثة فيها تضمُّ أكثر من عشرة أشخاص، وتنتهي كما هو مقرَّر لها بكلمة دعائيّة، لم يجد ثالث الأصدقاء الاستشاريين الثلاثة أيّ صعوبة في إقناع شركائه في العمل عدم غلق ملفّ الوليّ فحسب، بل واستغلاله أيضًا استغلالاً كاملاً في احتفال عامّ.

Twitter: @ketab_n

قبل بضعة أسابيع من الانتخابات، جرى احتفال قصير، حضره عدد كبير من الناس على السفح الجنوبي من مقبرة المسلمين القديمة. ولمّا كانت الأرض غير المستوية المجاورة للسور الذي كان يفصل يومًا ما المقبرة الأرمنيّة الأرثوذكسيّة غير ملائم لهذه المناسبة، فإنَّ السؤال الخاصّ بأيِّ المرقدين ينبغي أن يؤخذ في نظر الاعتبار على أنّه مرقد حقيقيّ، جرت الإجابة عنه إجابة استنتاجيّة. كان بعض الناس الحاضرين قد تمّ استئجارهم خصوصًا لهذا الغرض. أمّا الآخرون، فكانوا إمّا مارّة لا يعرفون ولكنَّهم فضوليُّون، أو، على العكس من ذلك، كانوا مواطنين من ذوي الضمير الحيّ الذين أرادوا أن يشاهدوا بأمِّ العين كيف سينتهي الحدث الفضائحي الذي تابعوه من الصحف.

كان الاحتفال يشتمل على ثلاث فعاليّات رئيسة. ففي الفعاليّة الأولى، رتّل رجلان، أحدهما شابّ ولكن صوته صوت عجوز، والثاني عجوز ولكن صوته صوت شابّ، آيات من القرآن الكريم الذي كانا يحفظانه عن ظهر قلب برمّته. وفي الفعاليّة الثانية، ألقى موظّف متأنِّق في ثيابه كلمة اتِّهاميّة من غير انفعال أو هوى أساسًا، ردًّا على كلّ الاتِّهامات التي أطلقت حتى الآن. أمّا الفعاليّة الثالثة، فكانت تمثّل أكثر الفعاليّات تعقيدًا، إذ جيء بقطع من تابوت الوليّ الحجريّ وتابوت فارغ في آخر لحظة للحيلولة دون إرباك أولئك الذين لا يملكون أدنى علم بالحالة، ونُقلت كلّها على الأكتاف إلى سيّارة دفن الموتى. ثم ركب الحاضرون حافلات متّجهة إلى قطعة أرض خالية بنِّيّة التربة، تحيط بها بيوت آيلة للسقوط. وهناك، دفن أوّلاً تابوت الولي «الذي جمع متاعه ورحل»، بعد أن تخضّب بالطِّين وسط الخطب والتصفيق، ثم أعقبه قطع التابوت الحجريّ التي شيّدت، وبدت أكثر بهاءً وروعة، بعد أن أصبح يحيط بها سياج خشبيّ طويل ومزخرف. وكان ثالث الأصدقاء الاستشاريين الثلاثة قد هيّأ نصّ خطاب من المقرّر أن يلقيه سابقًا لأوانه

Twitter: @ketab_n

بعدة أيّام؛ ولكنَّه في ذلك الصباح، رفض رفضًا شديدًا، بعد أن كان قد لمّ أطراف شجاعته كي يطلب يد ابنة خالته التي كانت تربطه بها علاقة غراميّة منذ سنوات، فاضطرّ إلى أن يهيم في الشوارع على غير هدى، فأخفق بذلك في الوصول في الوقت المحدّد إلى الاحتفال، مثلما أخفق في إلقاء كلمته.

لدى وصول ثالث الأصدقاء الاستشاريين الثلاثة إلى موقع الاحتفال متأخّرًا زهاء الساعة تقريبًا، لم يجد أحدًا في الموقع، ولم يبق سوى أعقاب سكائر مبعثرة وآثار أقدام مختلطة تركها الحشد الصخّاب. فجلس قرب القبر حزينًا مهمومًا، وراح يمسح جبينه المتصبّب عرقًا وهو يقرأ بصوت عالٍ النصّ الذي استهلك وقتًا طويلاً منه. الحقّ، أنّه لم تكن ثمّة ضرورة للورقة ما دام أنّه كان قد حفظ كلّ كلمة فيها عن ظهر قلب. وأعلن بصوت مرتعش أوّل الأوّل، ولكنَّه ازداد قوّة في نهاية الأمر: كيف أنّ الشخص الراقد في الضريح كان أبرز وليّ احتفظ بشهيّته للمتع الدينويّة أسيرة في الخاتم الفيروزي بأصبعه. كما أعلن أيضًا أنّ الوليّ قد رفض، بحسب معتقداته، أن ينام تحت سقف واحد أكثر من ليلة واحدة، أو أن يأكل من الطاس نفسه أكثر من مرّة، وأنّه استخدم قرميدة لتكون وسادة له، متألِّمًا ألمًا دائمًا، وأنّه لم يتزوّج كي لا يترك من ورائه أيّ ذرّيّة أو عقار أو سلع، وأنّه هام على وجهه طوال حياته، الأرض بيته والسماء سقفه. باختصار، لقد مُنح اسم الوليّ «الذي جمع متاعه ورحل» لأنّه أنفق جلّ حياته بلا جذور في أيّ مكان. من هنا، ليس ثمّة ما يعارض التقاليد في نقل الضريح من مكان إلى آخر، وأنّ كلّ من يجادل خلاف ذلك ينبغي ألّا يكون موضع ثقة، سواء في مراميه أو في عمق معرفته الدينيّة. وفي ختام كلمته، استغرق في التأمُّل، وداعب مشتّت الذهن عبارة «الله جبّار والآخرون حمقى» ـ المنقوشة مع بقيّة الكتابة على التابوت الحجريّ. ثم نهض واقفًا على قدميه وكأنّه يستجيب

Twitter: @ketab_n

لنداء بعيد، وحثّ خطاه في الاتّجاه الذي جاء منه.

لم تحصل مقبرة الوليّ «الذي جمع متاعه ورحل» على الراحة والهدوء اللذين كانت تحنُّ إليهما منذ زمن طويل إلّا في هذه المرحلة. وإذا ما تركنا جانبًا الزوّار الذين كانوا يصلّون أحيانًا بجوار قبره، الذين مسحوا تذاكرهم الخاصّة بالحافلة أو القطار أو الطائرة على شاهدة قبره، فإنَّ ما من شأن أيّ حادثة أن تحدث على مدى ستّ وثلاثين سنة تقريبًا فتقلق هدوءها الخالي من الاضطرابات. ولعلّ تحريك ضريح الوليّ الذي لا ينتهي من موقع إلى آخر هو الذي جعل المسافرين المنطلقين في رحلات طويلة أن يعتادوا التوقّف قرب هذا المكان قبل رحيلهم بيوم واحد، ساعين وراء بركاته، وأن يبصموا بالإبهام على زاوية بطاقاتهم بتربة الضريح ذات اللون الزنجاريّ، كأنّ مسؤول جمارك متخيَّلاً هو الذي منحهم الموافقة. وبعد النصف الثاني من عقد ستّينيّات القرن العشرين، حلّ محلّ هؤلاء المسافرين رويدًا رويدًا «عمّال ضيوف» في طريقهم إلى ألمانيا وإلى أقربائهم. وفي غضون تلك الأعوام، كان أكثر زوّار الوليّ وفاءً النساء اللواتي لبثن هناك بعد مغادرة العمّال الضيوف المسافرين إلى الخارج.

ولمّا كانت لا تتوافر في وضعهنّ هذا تذاكر حتى يحصلن عليها، فقد انتهى بهنّ الأمر إلى أن يمسحن التربة ذات اللون الزنجاريّ بأناملهنّ أو أكفّهنّ التي كانت تشبه الحِنّة عند جفافها. وفي الوقت المحدَّد، ذهب معظم أولئك النسوة للالتحاق بأزواجهنّ، فتقلَّص لهذا السبب عدد الزوّار شيئًا فشيئًا. وفي نهاية السنوات الستّ والثلاثين، راحت المخازن والمشاغل والمطاعم تبتلع سرًّا السور الخشبيّ أوّلاً، ثم أعقبه المرمر الأبيض بعروقه القرمزيّة، وأخيرًا التربة ذات اللون الزنجاريّ لهذا الضريح المهيب، واستحوذت عليها ضمن دائرة مطاردة أو صيد متضائلة في مساحتها على الدوام. وهكذا انتهى إلى لا شيء ضريحا الولّي «الذي

Twitter: @ketab_n

جمع متاعه ورحل» اللذان كانا قبرين ثم أصبحا قبرًا واحدًا.

أمّا بخصوص الأراضي المتموِّجة للمقبرتين القديمتين، فقد حصل فيهما أسرع تحوُّل عند إكمال الجادّة. فعلى امتداد السفح الكائن في الجهة الشماليّة الغربيّة من المقبرة الأرمنيّة الأرثوذكسيّة، ارتفعت عمارات سكنيّة أنيقة، وظهرت وإيّاها ظهور الطائرات الورقيّة ذات الأشرطة المتعدِّدة الألوان متاجرُ ذات واجهات برّاقة، وأرصفة للتنزُّه، ومواقع جديدة تنبض بالإيقاع. وعندما ارتفعت أسعار المباني ارتفاعًا هائلاً، حصل من يملك بيتًا أو قطعة أرض في هذه البقعة على مبالغ طائلة من المال بلمح البصر. وأُجّرت عديد الشقق المواجهة للجادّة لشركات تجاريّة، معظمها لأطبّاء ومحامين. وانتشرت مثل هذه المكاتب انتشارًا سريعًا وبعيدًا، بحيث لم يمرّ وقت طويل حتى أصبح في الأقلّ طبيب واحد أو محام واحد في أيّ سيّارة أجرة بالمشاركة تعمل في الحيّ. وهكذا، وفي كلّ سيّارة من هذه السيّارات التي تعمل بالأجرة المشتركة، يصادف المرء أشخاصًا يشكون من عديد المشكلات الصحّيّة أو القانونيّة، ولكن من دون مشكلات ماليّة، وهم يأتون لغرض الاستشارة المجّانيّة، والطبيب يجلس بجانبهم أو المحامي يجلس من ورائهم. وجمع عدد كبير من سائقي الحافلات الصغيرة، بفضل استراقهم السمع في مثل هذه الأحاديث من الفجر وحتى غروب الشمس، معلومات وافية عن القضايا الطبّيّة والقانونيّة. وإذا ما أردنا قول الحقيقة، فإنَّ طبيبًا حديثًا جدًّا في الجهاز العصبيّ كان ارتياده المستمرّ طريقًا معيَّنًا يعني أنّه أصبح أفضل أصدقاء واحدٍ من السائقين الدهاة، وعلى نحو دفع بالطبيب إلى أن يُحيل بعض الاستفسارات التي يتلقّاها إلى هذا السائق. وعلى الرّغم من أنّ الطبيب العجوز المشاكس لجأ إلى هذه اللعبة نتيجة السأم، إلّا أنّه حصل على متعة كبيرة منها. وكان

Twitter: @ketab_n

السائق الشابّ واحدًا ممَّن يملكون عقلاً حادًّا كالشفرة، وتسامحًا لا يتّصف به إلَّا البوهيميُّون. يُضاف إلى ذلك، كان بسبب قلّة اعتباره لقواعد الطبيب الخاصّة بالإتيكيت، أو بسبب وزنه كلّ كلمة، يتفوّه بما يعتقد أنّه صحيح، متجاهلاً تمامًا الآمال التي قد يقوّضها بكلامه. وعندما كان يقود سيّارته، فإنّه يقلّد هوس السيِّدات المُصابات بالأمراض العصابيّة، والسادة الذين يستبدّ بهم القلق والتشاؤم على مصير البشريّة، بل ويفلح أيضًا في جعلهم يضحكون على أنفسهم. كان أداؤه قد أثار إعجاب الطبيب العجوز، على نحو دفع هذا الطبيب إلى أن يمنحه وظيفة. إلَّا أنّ صداقة الاثنين الذكيّة لم تستطع البقاء في وجه الشكليّات الصارمة لمحيط المكتب، على الرّغم من أهدافهما الجيِّدة، ما دفع السائق الشابّ إلى الرجوع إلى حافلته الصغيرة.

في أقلّ من خمسة عشر عامًا، تغيَّر وجه المنطقة تغيُّرًا تامًّا. ولم يتذكّر شخص واحد أنّ مئات القبور كانت ذات يوم، وما تزال، تحت هذه المكاتب الضخمة والمتاجر العصريّة والشقق الخياليّة وهي تتلألأ على امتداد الجادّة، ناصعة مثل أسنان من الخزف. كانت معظم الشقق ذات مصاعد مفروشة بالسجّاد وأبواب مزدوجة وضيِّقة. ولو لم تعمل تلك المصاعد بين الطبقة الأرضيّة والطبقات العلويّة فحسب، بل بينها وبين باطن الأرض، لشاهد المرء كلّ أجزاء آليّات الحياة الداخليّة وكأنّها شرائح قطعت من قالب حلوى هائل الحجم. ففي القعر، ثمّة طبقات الواحدة من فوق الأخرى من القشرة الأرضيّة، تعقبها تربة خشنة مليئة بالعجر والبروز، ومن فوقها طبقة من القبور، ثم طبقة رقيقة من حصى الطريق المقطرن. وشقّتان الواحدة من فوق الأخرى، وطبقة من سطح ذي قرميد أحمر، ومن فوق ذلك كلّه، سماء لا نهاية للونها اللّازوردي، صقيلة ومنتشرة من فوق: وكان يترامى إلى السمع بين حين وآخر صوت بعض الناس وهم يتمتمون تمتمة خفيتة، كأنّهم يحدِّثون أنفسهم: «في

Twitter: @ketab_n

يوم من الأيّام، كانت هذه المنطقة تحتشد بالقبور...» إلّا أنّ هذه الكلمات كانت ذات جرس سريالي عندهم، على الرّغم من أنّ الزمن المشار إليه لا يتجاوز خمسة عشر أو عشرين عامًا. وهي تذكّرنا بالقول: «في يوم من الأيّام، استحمّت فتيات أجمل من الحوريّات تحت الضياء في قصر سلطان القمر البلّوري الذي يحتوي على ألف غرفة». هذه هي الصورة الحقيقيّة التي لاح بها، زمن ماضٍ لم يعشه أحد، أو فضّة أثيريّة في مكان ما خارج سريان الزمان الدنيويّ.

شُيِّد قصر الحلوى، الذي صدم أنجاستس بيورتورك علب قمامته الفارغة في يوم الأربعاء الموافق لليوم الأوّل من مارس سنة ٢٠٠٢، أثناء محاولته لركن سيّارته، في العام ١٩٦٦، في هذا الحيّ الذي لم يكن قد بقي إلّا الشيء القليل من روعته السابقة. أمّا الزوج والزوجة اللذان شيَّدا هذا المبنى الذي يضمّ الشقق، فقد كانا في اسطنبول في ما مضى من الزمان، وإن كانا أجنبيّيْن هنا.

Twitter: @ketab_n

حتى ما قبل...

عندما شاهدت أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا مدينة اسطنبول لأوّل مرّة في خريف العام ١٩٢٠ من على ظهر سفينة شحن، فإنّها شاهدتها وهي تحمل انتفاخًا صغيرًا في رحمها وآخر كبيرًا على ظهرها. وشقّت طريقها بمعاونة زوجها وسط حشود المسافرين الذين وقفوا كلّهم على أرجلهم، على مدى الأيّام الثلاثة كلّها منذ أن غادروا القرم[(١)]. تشبّثت بالحاجز لمشاهدة المدينة التي تنتظرهم. كانت منذ نعومة أظفارها تستمتع بممارسة اللعب بالألوان أكثر من أيّ لعبة أخرى. وكانت حيثما ذهبت في حاجة إلى أن تكتشف لون المكان أوّلاً كي تشعر بالألفة فيه. وكان المنزل العظيم في غروزني[(٢)] حيث ولدت وأنفقت طفولتها في سبيل المثال، يحتشد بالنباتات، والكنيسة التي يصلّيان فيها كلّ يوم أحد

---

(١) القِرم crimea: شبه جزيرة في أوكرانيا تفصل بين البحرين الأسود وأزوف، وتتّصل بشبه جزيرة كرتش. عاصمتها سيمفروبول، من مدنها سباستبول. تشرف عليها جبال القرم، وتنتشر على سواحلها مسابح سياحيّة ومنتجعات صحّيّة، منها يالطا وفيودوسيا. حكمها العثمانيّون ١٤٧٥ ــ ١٧٧٤، وضمنها الروس ١٧٨٣ ــ ١٧٨٤ وألحقت بأوكرانيا ١٩٥٤، (المترجم).

(٢) غروزني Grosny: مدينة في روسيا، عاصمة تشاتشانو إنغوشيا. فيها حقول نفط مهمّة، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

صفراء بلون الرقّ. كان القصر الذي يقطنان فيه إبّان الاحتفالات الدينيّة أخضر زمرّديًا برّاقًا، يغمره الندى. وكان المنزل الذي عاشت فيه رفقة زوجها بعد زفافهما برتقاليًا بلون شمس الشتاء. لم تكن الأماكن وحدها التي تتمتّع بالألوان، بل الناس والحيوانات وحتى اللحظات الزمانيّة، التي لم يخامرها أيّ شكّ في أنّ في مقدورها رؤيتها إذا ما ركّزت نظرها فيها تركيزًا كاملاً. وقد فعلت هذا الشيء مرّة أخرى. وراحت تحدِّق وتحدِّق من دون أن ترمش عيناها إلى ملامح المدينة الماثلة أمامها، أوّلاً بدافع الفضول وثانيًا بدافع الإحباط، إلى أن غامت عيناها وأصبحت الصورة مبهمة.

كانت اسطنبول تجثم تحت ضباب كثيف في ذلك الصباح. وكما يعرف الاسطنبوليُّون كافّة، فإنَّ المدينة نفسها لا تقدر على معرفة لونها في الأيّام التي ينتشر فيها الضباب. إلّا أنّ أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا كانت مدلّلة، وتلقى معاملة بالغة الرقّة منذ طفولتها، ما جعلها تفترض في نهاية الأمر أنّ اللوم يقع على الآخرين كلّما عجزت عن الحصول على أيّ شيء ترغب فيه. لهذا فسَّرت إصرار اسطنبول على التواري من خلف حجاب الضباب على أنّه علامة من علامات العداء القصدي والإهانة الشخصيّة؛ بيد أنّها أرادت، على الرّغم من ذلك، أن تمنح المدينة فرصة، لأنَّها كانت تؤمن إيمانًا عميقًا بفضيلة الغفران. فابتسمت ابتسامة تنمُّ عن عطف، وهي ترفع أيقونتها الفضِّيّة الصغيرة المتمثّلة بمريم العذراء، وقالت: «إنّ ما فعلته تجاهي ليس صحيحًا، لكنّني ما زلت قادرة على إظهار التسامح، وقادرة على أن أغفر لك، لأنّ ذلك هو العمل الصحيح الذي ينبغي فعله».

أجابها صوت: وسأعطيك الماء والخبز لقاء ذلك.

عندما مالت من فوق الحاجز، شاهدت في قارب بجانب السفينة رجلاً نحيلاً، يشير إليها بالخبز في يد والماء في يد أخرى. وقبل أن

Twitter: @ketab_n

تدرك ما الذي يحدث، دفعتها جانبًا امرأة شقراء ذات وجه مدوَّر وممتلئ، ومتورِّدة الوجنتين، مقصوصة الشعر، وربطت الخاتم الذهبيّ الذي خلعته من أصبعها بالحزام الذي حرَّرته من حول خاصرة ابنتها، وأنزلته من السفينة. أمسك الرجل الداكن البشرة بالخاتم وهو في القارب ورفعه عاليًا، وتفحَّصه في سرعة مستاءً، وعاد فربط بالحزام رغيفًا أسود مدوَّرًا من الخبز في محلّه. وبينما راحت الشقراء التي كانت قد قصَّت شعرها إبّان اندلاع وباء القمل على ظهر السفينة، وابنتها الضامرة الجسد والواقفة بجوارها، تلتهمان الخبز، رنت أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا إلى البحر بعينين اتّسعتا ذهولاً ودهشة، ولاحظت أنّ السفينة التي هم على متنها وبقيّة السفن الراسية في المرفأ، كانت كلّها محاطة بمثل هذه القوارب. وشرع الشطّار من الأتراك واليونانيّين والأرمن يلوّحون بالموادّ الغذائيّة من تلك القوارب، يساومون الأسعار مع مواطنيّ روسيا البيضاء الذين قضوا أيّامًا من دون طعام أو شراب. فكَّرت أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا بما يجري، وتعمَّدت إخفاء أيقونة مريم العذراء الفضِّيّة، وكأنّها سوف تُخطف منها، وحدَّقت في ضيق وقلق، من فوق القوارب والباعة والأمواج، إلى المدينة المترامية إلى الخلف محاولة أن تفهم نمط المكان الذي وصلته.

كانت مدينة اسطنبول يومئذٍ في ضنك شديد، وكانت أيضًا محتلَّة. لهذا السبب، لم تلتفت أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا كثيرًا للنظرة الحائرة المتشامخة التي رشقتها بها المرأة ذات التسعة عشر عامًا، التي كانت على متن سفينة أخرى كانت قد رست قبل وقت قصير. لقد نفد صبر اسطنبول بإزاء هؤلاء الأطفال الأنانيّين منذ زمن بعيد، وعادت إلى ضجيجها بهزّة من كتفيها. وظلّت أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا واقفة في مكانها، متجمّدة الابتسامة. فعلى الرّغم من أنّها سبق لها أن رأت الناس يتصرَّفون تصرُّفات خشنة، إلّا أنّ رؤيتها وقاحة مدينة ما كانت تجربة

Twitter: @ketab_n

جديدة تمامًا لها. وما إن تمكَّنت من التغلُّب على اضطرابها، حتى أغلقت كلّ ستائر قلبها ونوافذه ومصاريعه، وغضبت من المدينة. هكذا كانت حالها العقليّة عندما ترجَّلت عن القارب. وحتى بعد مرور شهرين، عندما ازداد حجمًا الانتفاخ في رحمها مقارنة بذلك الذي على ظهرها، فإنّها لبثت غاضبة من اسطنبول، وكانت اسطنبول ما تزال مجهولة اللون ولامبالية أيضًا.

أمّا الجنرال بافيل بافلوفيتش أنتيبوف، فكان على العكس من زوجته، إذ لم يعر اسطنبول أيّ اهتمام، لا في ذلك اليوم، ولا في أيّ وقت لاحق، فقد كان رجلاً اعتمد بقاؤه في قيد الحياة على تحمُّله عبء مسؤوليّة الآخرين ــ وكان واحدًا ممّن أحبُّوا النساء الضعيفات، أو انتهى بهم المطاف إلى إضعاف النساء اللواتي يغرمن بهنّ. ومنذ ذلك اليوم الذي هبطا فيه، أحاط أغريبينا بأحرّ المشاعر. ولم تكن قبضته تطوّقها وحدها، بل كانت تطوّق أيضًا طفلها الذي سوف يُرزقان به قريبًا، وكلّ الثروة التي تمكّنا من تهريبها من روسيا.

فقطع المجوهرات التي كانت أغريبينا قد أخفتها في الجزء الخلفي من مشدّ جسدها، سرعان ما سوف تُباع الواحدة تلو الأخرى، وبأقلّ من قيمتها الحقيقيّة. فقد احتشد في اسطنبول آلاف الروس البيض الهاربين من وطنهم في أعقاب الثورة البلشفيّة، وراجت شائعات مفادها أنّ آلافًا آخرين في طريقهم للهروب. وعندما عُرضت المجوهرات للبيع في مزاد، لم يكن ثمّة ما يكفي من المشترين لشراء أوسمة الشرف ومقتنيات الأسرة الثمينة ومداليّات النبلاء. وبعد مرور شهرين، لم يتبقَّ شيء من الثروة التي كان يأمل الزوجان أن تساعدهما في عيش حياة مريحة سنتين اثنتين على الأقلّ.

في صباح يوم من الأيّام، كان الزوجان في قاعة النوم، التي كانت مركز اعتقال متداعيًا وفّرها الصليب الأحمر الفرنسي، حيث أخذا ينامان

Twitter: @ketab_n

رفقة خمسين شخصًا على فُرش قذرة ورقيقة، عندما جذبت أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا رأس زوجها الفضّي اللون والذي كان يكبرها بثلاثين عامًا جذبًا قويًا إليها، وأرغمته على أن يصغي إلى الطفل في بطنها المنتفخة. كان بافيل بافلوفيتش أنتيبوف يعرف جيّدًا معنى هذه الإشارة. لديه خياران: أن يعثر له على وظيفة بأسرع ما يمكن، أو أن يحرّر رسالة إلى شقيقه الضائع الكرامة في فرنسا ويطلب منه المساعدة. فاختار الخيار الأوّل، لأنّ التفكير بالخيار الثاني وحده كان أكثر من كافٍ لتحطيم أعصابه.

لكنْ، مثلما يخفق العسكر في توفير وظيفة لأيّ فرد، فإنَّ رتبة الجنرال لا توفّر تجربة في العمل يمكن للمرء الاعتماد عليها عندما يطلب وظيفة. وعندئذٍ، أدرك بافيل بافلوفيتش أنتيبوف شيئين اثنين في نفسه، وهما أنّه لا يعرف ماذا يفعل ولا يستطيع أن يفعل ما لم يعرفه. ولمّا كان كلّ ما حدث له حتى الآن قد جاء بحسب ما هو مرسوم له، إلّا أنّ الثورة أدركته في الوقت الذي رُقي إلى رتبة جنرال وحطَّمت السلطة التي كان يتمتّع بها، والحياة التي كان قد بناها سنة في أثر سنة. ولكن، حتى في تلك الأيّام المزعجة، لم يضطرّ إلى مواجهة العلّة المسمّاة «الغموض» كما يواجهها اليوم. فلأجل أن يقهر الغموض، ينبغي له أوّلاً أن يعرف أين يجده، لأنّ هذا الغموض يمكن أن يهاجمه من أيِّ جهة وفي أيِّ وقت مغيِّرًا الأسلحة على الدوام كما يحلو له، في حين أنّه لم يتّخذ أيّ موقف دفاعيّ في أيّ مكان، ولا يتصرَّف وفق استراتيجيّة معيَّنة! وإذا كانت هذه حربًا متواصلة، فإنّها لا تدور في أرض معيّنة، وليس لها أيّ قوانين ولا أخلاقيّات. وإذا لم تكن حربًا، فإنَّ الحالة سوف تكون أسوأ، لأنّ بافيل بافلوفيتش أنتيبوفا لم يكن يملك معرفة يحصل بها على قوته بأيّ وسيلة أخرى. فهو حتى هذه اللحظة، فقد أشياء كثيرة، الواحد تلو الآخر، أملاكه ومتاع دنياه وتأثيره وامتيازاته وعزّة نفسه وأصدقاءه وأقرباءه وجنوده

Twitter: @ketab_n

والجيش الذي انتمى إليه، والمدن التي شهدت ماضيه، والبلد الذي افترض أنّ مستقبله يكمن فيه. . . إلّا أنّه على الرّغم من ذلك، اعتقد في أعماقه أنّه ما زال كما كان دائمًا: جنديًّا مخلصًا.

على العكس منه، توزَّع آلاف الجنود من مختلف الرتب العسكريّة من جيش القيصر منذ زمن طويل في أكثر الوظائف غير المتوقَّعة والمهن المضنية، في الفنادق وقاعات الموسيقى والنوادي الليليّة وبيوت القمار والمطاعم والمشارب والمقاهي ودور العرض السينمائي والشواطئ والملاهي والشوارع، فغسلوا الأواني وحملوا الصواني في المطاعم، وعملوا في إدارة موائد القمار في بيوت القمار التي تعجّ بالأكاذيب، وباعوا الدمى في نواصي الشوارع، ووفّروا راقصي الملاهي بآلات البيانو الموسيقيّة في قاعات التسلية الصخّابة. وهكذا. . وضعوا أيديهم على كلّ ركن وشغلوا كلّ وظيفة. وفي خضمّ هذه الفوضى، حاول الكونت الجنرال بافيل بافلوفيتش أنتيبوف أن يجد طريقًا لخطواته المرتعشة ارتعاش خطوات المهر المولود حديثًا الذي يتعلّم المشي على قوائمه المرتجفة. وبعد بحث استغرق أسابيع طويلة، كانت الوظيفة الوحيدة التي استطاع أن يعثر عليها في نهاية الأمر هي وظيفة خادم في حجرة وضع المعاطف في مقهى ـ وكان مكانًا يؤمُّه الضبّاط الفرنسيّون والإنكليز المتغطرسون، وهم يرتدون ستراتهم الأنيقة المصنوعة من فرو حيوان السمور، رفقة عشيقاتهم ذوات الشفاه المطليّة بقلم حمرة يشبه لون الكرز، مثلما كان يرتاده رسَّامون إيطاليُّون شهوانيُّون ومترفون يرسمون الصور الزنكوغرافيّة الشرقيّة التي تمثّل على الدوام نساء شاحبات الوجوه وممتلئات الأجسام، وشوارع معتمة ومتعرِّجة، إضافة إلى مصرفيّين يهود كالِحِيّ الوجوه بحاجة إلى ضخّ القروض للقصر كي يتمكّنوا من استعادة القروض السابقة التي وفَّروها، وإلى الشبّان الأتراك الفاسقين المشبعين بالثروة الموروثة، ولكنَّهم لا يشبعون من تبذيرها، وإلى جواسيس لا يتركون أيّ شيء ينسلّ منهم حتى

Twitter: @ketab_n

إذا أصبحوا في غاية الثمالة، وإلى بوهيميّين وغندوريّين، وكلّ تلك الأرواح الضائعة الباحثة عن الشهوة أو المغامرة.

كان مالك المقهى المشرقيّ، الأصلع الرأس والمتهدِّج الخدَّين وذو اللغد الكبير، الذي كان يكثر من حركات يديه باستمرار، يبحث عن شخص يعمل عنده منذ أن تورّط خادم غرفة حفظ المعاطف الأخير ـ الذي لم يستحسنه منذ البداية ـ في شجار انتهى بتحطيم وجهه. وعندما شاهد مظهر بافيل بافلوفيتش أنتيبوف وقوامه المهيب، لم يتردّد لحظة واحدة قبل منحه الوظيفة. لكن ما إن ارتدى الخادم الجديد السترة الحمراء بما فيها من كتفيّتين، ذواتي شرّابات لامعة على كتفيه، وخيوط صفر قطريّة متدلّية إلى أمام، حتى انقلب إعجابه به إلى استخفاف، وقال له:

ـ الحياة في غاية الغرابة! أليس كذلك يا مسيو أنتيبوف؟ إنّنا نشهد كلانا موت إمبراطوريّتين عظيمتين. فقد بدأتم أنتم بإدخال النظم الغربيّة قبلنا بقرن من الزمان على الأقلّ. بطرس الأكبر[1]! تروّج الشائعات بأنّه سوف يطلب جلد أولئك الذين لا يعرفون الإتيكيت الغربي ـ هل هذا صحيح؟ وكان يفتِّش سراويل النساء التحتيّة ولحى الرجال. صحيح؟ لا بدّ أنّ مدينة بطرس جميلة حقًّا: قصرًا مشيَّدًا فوق المستنقعات. انظر إلى مدينة إسطنبول من أجل المقارنة: مفتوحة من جوانبها الأربعة، مكشوفة أمام كلّ نسمة هواء تهبّ من كلّ اتّجاه. مدينة تائهة، مفكّكة! أتدري أنّ مثقّفين ـ شبّانًا وشجعانًا، هاربين من أمبراطوريّتك الجبّارة، جلسوا إلى ما قبل عقد واحد من الزمان جنبًا

---

(١) بطرس الأكبر Peter the Great: (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥) قيصر روسيا ١٦٨٢. وحّد السلطة ونظَّم الإدارة والجيش، وسَّع حدود بلاده وفرض سيادة الدولة: أسَّس مدينة بطرسبورج ١٧٠٣ وجعلها عاصمة. شجَّع العلوم. يُعدّ من أعظم قياصرة روسيا. خلفته في الحكم زوجته كاترين الأولى، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لجنب في المقاهي الباريسيّة نفسها رفقة مثقَّفين في ريعان الشباب، كانوا شجعانًا هاربين من إمبراطوريّتنا الجبّارة، وانغمسوا في مناقشات محتدمة ليستخلصوا ما لا يعلمه إلّا الله من نتائج قصيرة النظر. وكان النادلون الفرنسيُّون الذين يقدِّمون خدماتهم لهم يسترقون السمع أوّلاً عند هذه الطاولة ثم تلك الطاولة. تخيَّل الأشياء المتناقضة التي لا بدّ أنّهم سمعوها! فأولئك الذين هربوا من أمبراطوريّتك يهذون بتحطيم دولتهم مهما كان الثمن، والذين هربوا من أمبراطوريّتنا يهذون بدلاً من ذلك بإنقاذ دوليتهم من الدماء بأيّ ثمن. وفي غضون عقد واحد من الزمان، نجحت دولتهم وأخفقت دولتنا. لا أدري على من أتحسّر أكثر، الحياة في غاية الغرابة! أليس كذلك يا مسيو أنتيبوف؟ لقد هربت من أمبراطوريّة هوت بحثًا عن ملاذ في أمبراطوريّة توشك أن تهوي. هل سبب هروبك من الحمر أصحاب الزيّ الموحَّد للعثور على نفسك في زيّ أحمر هنا حيلة أخرى من حيل آلهة الحظّ الرومانيّة؟

في تلك الليلة، وبينما كان بافيل بافلوفيتش أنتيبوف يحتفظ بمعاطف الزبائن، لم يطرق سمعه سوى ذلك الصدى المثبِّط للعزيمة للأشياء التي تفوّه بها ربّ عمله. فهو لم يستطع تحمُّل ذلك الزيّ السخيف جدًّا إلّا ثلاثة أيّام أخرى لعينة، توقّف بعدها عن العمل، وتوقّف عن عمل أيّ شيء من شأنه أن يؤدِّيه على نحو طبيعيّ، ليقف ساكنًا لا أكثر، وكأنّه مسمَّر في مكانه، وكأنَّ ما من وظيفة أخرى يبحث عنها، ولا حياة يبنيها ولا هدف يتعب نفسه من أجله. وفي نهاية ذلك الأسبوع، تفحَّصت أغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا زوجها في عناية، كأنّها تحاول أن تقرّر حقيقته.

ولم تضطرّ إلّا حينها في تقبُّل حقيقة أنّه متشبّث بعاداته تشبّثًا صارمًا لا سبيل معه إلى تغييرها. وكان سبب ذلك يرجع إلى عمره (الأكبر ممّا

Twitter: @ketab_n

ينبغي، فبعد أن تقدّم في سنّه توقّف، وراح ينتظر من عمره أن يدركه)، وإلى مكانته (العالية أكثر ممّا ينبغي، فبعد أن ركّز دومًا في تسلُّق المناصب أعلى فأعلى، أصبح على حين بغتة مدركًا بأنّه لم يعد أمامه الشيء الكثير كي يتسلّقه، فتجمّد في موقعه)، وأخيرًا بسبب قوامه (الهيّاب أكثر ممّا ينبغي، إذ كان لديه قوام لا يعرف الانحناء أو المرونة، بحيث إنّه اختار عدم المرور في أبواب تتطلّب منه الانحناء). كان بافيل بافلوفيتش رجلاً ضعيفًا أساسًا، وكان مدركًا ضعفه إدراكًا جيّدًا، تشبّث بسلطته بكلّ ما أوتي من قوّة، ليس لأنّه كان يريد أن يتجنَّب أن يكون مثل الآخرين قدر ما كان يريد أن يتجنّب أن يكون مثل نفسه، رجلاً عرف جيّدًا ما كان يتوق إليه، ويعمل طوال حياته من أجل الوصول إليه، مكافحًا شيئًا فشيئًا، ومتسلّقًا درجة فدرجة لتحقيق النجاح في نهاية الأمر. كان النموذج الأخير للرجل الذي يكيِّف نفسه لتغييرات جذريّة.

كانت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا صفرًا كبيرًا مدوّرًا، لأنّها كانت في ريعان الشباب، قليلة الخبرة، ولم تضطرّ إلى العمل أو حتى لتحقيق أيّ شيء، وفي حالة انسجام تامّ مع تقدُّم حملها. وكان في وسعها أن تظلّ كذلك إلى الأبد، مستقرّة في أيّ حالة سبات تجد نفسها فيها، ولكن كان في الإمكان وبالدرجة نفسها من السهولة دفعها دفعًا قويًّا إلى أمام بريح عاتية، إذْ كانت تمتلك تلك الجرأة التي يتّصف بها الجَهَلة، وذلك التوقُّع البريء بأنّ الأمور ستنتهي إلى خير، وهو توقّع غذّته حقيقة كونها لم تحصل على شيء من الحياة بنفسها وحدها. فكلّ ما حصلت عليه، إنّما أُغدق عليها، وكلّ ما فقدت سوف يعود إليها يومًا ما بسهولة. كانت ما تزال تنفق معظم حياتها تعدّ القوائم الطويلة بالأشياء التي يتعيّن عليها أن تفعلها بعد أن ترجع إلى روسيا. إلّا أنّها كانت بالسهولة نفسها تقضي هذا الوقت وهي تعمل إلى أنْ يحين ذلك اليوم. لهذا السبب، لم تعد تتوقّع مساعدة من زوجها، وقرّرت أن تفعل شيئًا لم

Twitter: @ketab_n

يسبق لها أن فعلته من قبل، وهو: البحث عن وظيفة بنفسها.

كان الحظّ إلى جانبها، لأنّ الحظّ كان يحبّ أن يختبر أولئك الذين يُظهرون مثل هذا التحدّي. وهكذا عثرت على وظيفة نادلة في أحد محال بيع المعجَّنات الأكثر أناقة في منطقة بيوغلو. في ذلك المحلّ الكثير المرايا والمزيَّن بزجاج ملوّن جميل، راحت تطوف إقبالاً وإدبارًا بين الزبائن مرتدية ثيابًا أنيقة، والمطبخ الذي تفوح منه رائحة القرفة والكريما المخفوقة. وتمكّنت من اكتساب مقاطع من كلمات من بين كلّ اللغات المتنافرة النغمات التي يدور الكلام بها هناك، فتبدو كلّ واحدة منها لها غير شجيّة أسوة بغيرها، كلمات تكفي لفهم الأوامر التي كانت متشابهة بهذا القدر أو ذاك، فلم تحاول أن تتعلّم ما هو أكثر من ذلك. الحقّ، أنّها لم تكن تفتح فمها إلّا إذا اضطرّت إلى ذلك اضطرارًا. وعلى الرّغم من العمل الشاقّ والمرتّب الضئيل، فإنَّ أحدًا ما لم يشاهدها عابسة أو متذمِّرة. وعلى الرّغم من أنّ ربّ العمل كان قد أمر كلّ من يعمل لديه بأن يبتسم باستمرار عندما يقدِّم خدمة للزبائن، إلّا أنّ غيرها ممّن يعمل وإيّاها كان يلوي قسمات وجهه في اللحظة التي ينصرف ويبتعد من مدى رؤية الزبون أو ربّ العمل، إلّا أنّ ابتسامة إغريبينا كانت لا تفارق وجهها طوال اليوم، وكأنّها مسمَّرة عليه. وفي حين كانت كلّ العاملات الأخريات يحاولن تجنُّب العمل متى ما استطعن إلى ذلك سبيلاً، أو لبثن يبحثن عن رجل في خريف العمر لإنقاذهنّ من هذا العذاب، فإنَّ إغريبينا وحدها لم تفعل شيئًا سوى العمل باستمرار. كان عملها مكرَّسًا للألم، وليس جهدًا، لتترك من ورائها تلك الأيّام الخالية من العذاب والتي كانت تدفعها إلى الاستمرار في العمل، وكأنّها تغترّ بعذابها، وكأنّ المرارة تطهِّرها، وأنّ تسليم نفسها لمخلوقات الله الغانية يقرِّبها منه. وكلّما كانت العقبات أمامها لا تقهر، وكلّما كانت المخاطر التي يتعيّن عليها مواجهتها لا تُطاق ولا تُحتمل، وكلّما كان الناس الذين تخدمهم

Twitter: @ketab_n

أكثر صفاقة ورعونة، ازداد شعورها بأنّ الله مدين لها، وأنّها عاجلاً أو آجلاً سوف تنال ما تستحقّ. وكانت تُطمئن نفسها مبتسمة، وتقول: «هذا اختبار. وكلّما كان صعبًا، فإنَّ النتيجة ستكون أكثر سموًّا ورفعة».

ـ لماذا تلوح هذه الابتسامة على وجهك؟ كيف تتجرّأين على الابتسام في وجوهنا؟

كانت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا تنظر في دهشة إلى وجه تلك المرأة المسلمة وهي تهتف بها، إلّا أنّ ذهولها لا يزيد إلّا من ثورة تلك المرأة التي كانت عضوة في رابطة النساء المعاصرات، التي كانت تطالب بترحيل كلّ النساء الروسيّات البيضاوات اللواتي كنّ يعتقدن أنّهنّ يجرِّدن الرجال المسلمين من عقولهم والمال من جيوبهم. وكان من أولويّات البنود الواردة في لائحة الرابطة ما يأتي:

١ ـ تحدّي وتدوين حوادث التصرُّفات اللّاأخلافيّة التي تقوم بها الروسيّات البيضاوات ذوات الشعر الأشقر الناعم والحريري، والملامح البيض والنظرات التي لا تعرف الخجل والادّعاءات الأرستقراطيّة.

٢ ـ إنهاك البوّابات العليا من إدارة الدولة لحشد التأييد من أجل قضيّتهنّ.

٣ ـ ضمان غلق كلّ أوكار اللصوص والنوادي الليليّة القادرة على استدراج غضب سدوم وعامورة[١] إلى اسطنبول.

---

(١) سدوم وعامورة Sodom and Gomorrah: سدوم مدينة كنعانيّة قديمة حلّت بها كارثة أرضيّة في القرن التاسع عشر ق.م. فخربت مع عامورة وعدّة مدن أخرى واقعة جنوبي البحر الميت. ذكرت التوراة أنّها أُحرقت وعامورة بالنار والكبريت قصاصًا لفساد أهلها وشذوذهم الأخلاقي. وهم قوم لوط عليه السلام، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

٤ ـ طرد كلّ المومسات اللواتي هبطن من كييف واوديسا[1]، ودفنهنّ في أحياء غالاتا[2].

٥ ـ تحذير شباب المسلمين الأبرياء والذين لا خبرة لهم باستمرار وبلا توقّف من الخطر الذي ينتظرهم.

٦ ـ اتّباع سياسة خاصّة بإرهاب كلّ النساء الروسيّات البيضاوات اللواتي يلتقونهنّ، ومعاملتهنّ معاملة سيّئة إلى أن تتّخذ السلطات الإجراءات الاحترازيّة الضروريّة.

تغلّبت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا على ارتباكها الأوّلي، واشرأبّت بعنقها، وضغطت على قلادة العنق الفضّيّة التي تحمل صورة القدّيس سرافيم[3]، فساعدتها القوّة التي استمدّتها منه على الابتسام في وجه

---

(١) كييف وأوديسا Kiev and Odessa: كييف هي عاصمة أوكرانيا. وأوديسا هي أهمّ مرافئ أوكرانيا على البحر الأسود، (المترجم).

(٢) غالاتا Galata: وتُسمّى أيضًا غلطة، من مناطق مدينة اسطنبول المشهورة ببرجها الذي يعود تاريخه إلى ١٣٤٨ م، والذي يقع بين نفق اسطنبول ومنطقة كراكوي، وهو اليوم البرج الرئيس في سور غالاتا. وفي القرن السادس عشر، أصبح البرج سجنًا للعمّال الذين كانوا يعملون ضمن ترسانة قاسم باشا، ثم أصبح مستودعًا للترسانة. يتألّف البرج من ستّ عشرة طبقة، ويرتفع بطول اثنين وستّين مترًا، (المترجم).

(٣) القدّيس سرافيم Saint Seraphim: هكذا أوردت المؤلّفة الاسم، وهو الأعلى مكانة في طبقة الملائكة التسعة الوارد ذكرهم في كتاب إشعياء (٦:٢) إذْ لكلّ واحد من ملائكة السرافيم «ستّة أجنحة، أخفى وجهه بجناحين، وغطّى قدميه بجناحين، ويطير بالجناحين الباقيين». ولعلّ الاسم مشابه لكلمة «سراف» ومعناها «ثعبان» serpent المأخوذة أصلاً من كلمة «ساروف» sarof بمعنى «يحرق» (إشارة إلى قوّة عضّته). ويوحي هذا الارتباط بالحرق عند أوائل المفسّرين النصارى. إنّ هؤلاء السرافيم كانوا يتميّزون بخاصّة بحماسهم وحبّهم وشغفهم. الكلمة هي في صيغة الجمع، أمّا مفردها فهو سراف seraph، وقد وردت أوّل مرّة باللغة الإنكليزيّة في الجزء الخامس من «الفردوس المفقود» (١٦٦٧) للشاعر الملحمي =

Twitter: @ketab_n

المرأة، التي عدّتها تجسيدًا حديثًا «للامتحان الإلٰهي» المفعم بالعذاب والذي عانته منذ زمن طويل.

ـ إنّ ما فعلته قبل قليل لم يكن صحيحًا، إلَّا أنّني مازلت قادرة على الصفح، بل قادرة أيضًا على أن أغفر لك، لأنّ ذلك هو الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله.

في تلك الليلة، لم تذكر هذه الحادثة لزوجها إلَّا على نحو عابر. ولم يسألها عن أيّ شيء على الرّغم من ذلك. فهو لم يرغب في أن يعرف أيّ شيء عن العالم الخارجي فحسب، بل كان يحسدها على قدرتها على العيش في ذلك العالم المجنون الذي هزّه هزًّا عميقًا وقذف به جانبًا. وهو نادرًا ما غادر ذلك المستودع الذي عدّه بيتًا منذ رحيلهما عن قاعة السكن التي وفَّرها الصليب الأحمر الفرنسي، بل كان ينفق أيّامه أمام النافذة يحرِّر رسائل لم يرسلها قطّ إلى أخيه في فرنسا، ويستغرق في الأفكار ويرنو خارج النافذة إلى المارَّة المسلمين، ويراقب الشوارع كأنّه في انتظار شخص ما. في تلك الأثناء، ولدت طفلتهما وهي في شهرها السابع، وكأنّها تريد بمجيئها وضع حدّ لهذا الانتظار المملّ.

ومع هذا، فإنَّ إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا لم تتمكّن من الترحيب بابنتها بالحماسة نفسها التي رحَّب بها زوجها، إذْ ربّما أسهم إنجابها المبكر الذي ناء به كاهلها على نحو مؤلم بولادة حياة أخرى في هذا العالم، غير أنّ تلك الحياة سُرقت منها، إذْ كانت قد شعرت أنّها أكثر

الكبير جون ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤)، إذْ يقول عن «عبد إيل» الملك المخلص الذي وقف في وجه الشيطان عندما حثّ الأخير الملائكة على التمرُّد، بأنّه «كان «السراف» (الملك) المتّقد، شجاعًا وإن كان وحيدًا / محاطًا بالأعداء من كلّ جهة»، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أهمّيّة وأشدّ اختلافًا أثناء مدّة حملها مقارنة بما تشعر به الآن. وكانت قد أقنعت نفسها طوال ذلك الوقت أنّ الله اختارها من بين عديد النساء، ففكّرت لذلك أنّ كلّ بلوى ليست سوى مرحلة حاسمة أخرى في الاختبار الشاقّ الذي كُتب عليها. ولمّا لم تفقد إيمانها بالله أو بنفسها، فقد آمنت من صميم قلبها أنّها بطلة رواية ذات مغزى وعبرة عن اللعنة التي لا يمكن للناس من حولها أن يفهموها. ولأجل أن تنقذ زوجها ونفسها من براثن هذا العالم غير المجدي، فقد جاهدت من أجلهما ولكن بمفردها، منتظرة، مثل لؤلؤة تدحرجت في الطين، ذلك اليوم الذي سوف تتخلّص فيه من تلك الأدران وتتلألأ مجدّدًا، غير أنّها راحت تتخيّل الآن أنّها كانت مخطئة على الدوام، وأنّ الله لم يهتمّ بها وإنَّما اهتمّ بالطفلة في رحمها، ولذلك السبب تركها لمصيرها بعد ولادة الطفلة مباشرة. ولم تستطع مهما بذلت من جهد أن تتخلّص من هذا الشعور بالاضمحلال والاستسلام. ولم تبق على وجهها ذرَّة ألق من ذلك الوهج المتشامخ، كما أنّ جسدها انكمش وذوى، وكأنّ دلاء من الماء سُحبت منه، ولكنَّ نهديها وحدهما هما اللذان ما يزالان كبيرين ومكتنزين، وراحا بين الفينة والفينة يرشحان بالحليب مثل دم ينضح من شفة نازفة. كانت تهرع إلى البيت في أوقات العصر لإرضاع الطفلة، ولتواجه مرّة تلو الأخرى مشهدًا مثيرًا للحزن، قابضًا للصدر، إذْ كانت تشاهد زوجها والطفلة من فوق أريكة قريبة من النافذة، إمّا يلعبان أو يغطّان في نوم عميق، يحضن أحدهما الآخر، تغمرهما سعادة لا حدود لها وبراءة لا يُضاهيها أيّ شيء، من تحت نور النهار الذي كان يسلِّط عليهما وهجًا ذهبيًّا، وكأنّه نابع من السماء السابعة وليس من الشمس. وكان يستبدّ بها في كلّ مرّة كدر عظيم، وهي تدرك أنّ الروح التي كانت تحملها في داخلها واعتقدت أنّها جزء منها قد استبعدتها الآن.

وفكّرت أنّ هذه المدينة ليست سوى نهر غاضب، موحل المياه.

Twitter: @ketab_n

وكان السبب الوحيد الذي يدفعها إلى الاندفاع هنا وهناك طوال الوقت وسط المياه، يتمثّل بكلٍّ بساطة في أنّها أوكلت لها مهمّة إنجاب طفلتها من ضفّة النهر التي كانت عليها لزوجها على الضفّة الأخرى. هذا هو معنى الحمل في رأيها: الإبحار إلى الشاطئ الآخر داخل بدن قارب تنتفخ فيه كي تنعم الطفلة بنعمة ملائكيّة، ثم لتحملها من بعد ذلك وهي في صحّة وعافية إلى الضفّة الأخرى. وفي غضون الولادة ونقل الطفلة إلى الضفّة الأخرى، أصبحت على حين بغتة عديمة الجدوى، وكأنّها دُفعت دفعًا إلى الماء، فأصبحت في يد المدّ. كان صراعًا عقيمًا. لقد أبقتها المياه التي تنتمي إليها، والتيّار الذي وجدت نفسها فيه، بعيدًا عن الضفّة. وبدا لها أنّ الطفلة نفسها كانت قد أدركت هذا الموقف. ففي اللحظة التي حملتها من بين ذراعي أبيها، تورّد وجهها وتألّق في نوبة من نوبات الغضب. وكانت أثناء الرضاعة تلوي قسمات وجهها، كأنّما تريد أن تثبت أنّها كانت تفعل ذلك بسبب الحاجة وحدها، وأنّها بعد أن شبعت سوف تترك الحلمة وتبكي حتى تتحرّر أيضًا. وعندئذٍ، يأخذها الجنرال ويطوّقها بذراعيه ويهدّئ من روعها في رقّة ولطف، بينما تهرب إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا من المنزل كي لا ترى هذا المشهد الذي يؤذيها أكثر فأكثر بمرور الأيّام.

كانت مضطرّة لدى عودتها إلى العمل إلى تحمُّل هذا الشعور الآخر بمعاناة ظلم رهيب، فضلاً على الانتفاخ الخاوي داخلها. كانت تكره جسدها أكثر من السابق بمرور الأيّام. لقد كان جسدها يعيش لسبب واحد لا غير، وهو أنّ كلّ لقمة تأكلها وكلّ قطرة تشربها وكلّ شعاع من ضوء الشمس تستقبله وكلّ ذرّة هواء تتنفّسها تتقولب وتتحوّل إلى حليب من أجل الطفلة. وكلّما ازدادت الطفلة حيويّة، فقدت إغريبينا فيودوروفنا إنتيبوفا قوّة أكثر، ومع كلّ لحظة عابرة تبتعد أكثر فأكثر عن حيويّة الحياة ونشاطها.

Twitter: @ketab_n

إذا كان يبدو مستحيلاً لأولئك الذين يعتقدون أنّ كلّ امرأة هي أمّ بطبيعتها، وأنّ الأمومة مقدّسة ونقيّة مثل أنهار الجنّة، فإنَّ إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا لم تحبّ «الشيء» الذي أنجبته. فعندما واجهت وجهًا لوجه الطفلة التي حملتها في أحشائها مدّة طويلة من الزمان، وعدّتها جزءًا منها من دون أن تعلم كيف سيكون شكلها ولا ما الذي ستأتي به، فقد أصبحت خائفة من هذا المخلوق المتناهي في صغره والكبير في احتياجاته. كما باتت خائفة من استحالة عكس الوقت والعودة إلى الزمان الذي كانت فيه امرأة في ريعان الصِّبا مجدّدًا، ومن عدم منحها أيّ خيار آخر غير الحبّ غير المشروط. كانت تعلم شيئًا واحدًا، وهو أنّها تريد التخلُّص من الطفلة. وإذا كان هذا يبدو أمرًا غير مفهوم في نظر أولئك الذين يعتقدون أنّ كلّ امرأة هي بطبيعتها أمّ، وأنّ الأمومة مقدّسة ونقيّة مثل أنهار الجنّة، فإنَّ إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا لم تكن استثناء من ذلك. إنّ الأمم ليست وحدها التي تدوِّن تاريخها الرسمي، فذلك ينطبق أيضًا على الأمومة. فالأمّهات يبتكرن غالبًا الوقائع التاريخيّة الأموميّة المكتوبة استبطانًا وفي أناقة، إلى زمن ماضٍ يرجع إلى اليوم الأوّل، فيقتلعن الأعشاب الضارَّة ويوفّرن موطئ القدم في غضون ذلك، لأنّ الحبّ لا يأتي دائمًا من دون جهد، غير أنّه يزدهر في وقت متأخّر وينمو بالتدريج، قطرة فقطرة، من تحت رعاية الزمان. أمّا الرعاية التي يُبديها أولئك الذين يحيطون بهنّ، لحظة مثيرة للحزن والألم ومكدِّرة وقابضة للصدر، لحظة عابرة من المحبّة، ورواسب لا تُعدّ ولا تُحصى من الرقّة، فقد تندمج وتتألّف في عقل امرأة جديدة كي تتعقّبها مثل مروحة نشيطة ذات نسمة قويّة ولكنّها منعشة، كلّها أفكار غير مناسبة ومشاعر غير سارَّة. فما دامت المروحة تظلّ تدور وتدور، فإنَّ الأمّ الشابّة قد تتمكّن من إغداق الحبِّ على طفلها على نحو متزايد، فتحيط بهما هالة الأمومة. الحقّ، أنها قد تحبّ الطفلة في الوقت المحدَّد حبًّا جمًّا،

Twitter: @ketab_n

يدفعها إلى النجاح في الاعتقاد بأنّها أحبَّتها بالقوّة نفسها منذ اليوم الأوّل. وإذا لم تحبّها مثل هذا الحبّ، فإنَّ ذلك أمر يثير الذعر والهلع، ولا يمكن الاعتراف به أمام أيّ شخص. فلا تقول للزوج، مثلاً: «شعرت بادئ الأمر بالتعاسة لأنّني أنجبت طفلتك، ولكنّني تعافيت بعد ذلك». ولا تقول للطفلة: «الحقّ أنّني لم أحبّك بادئ ذي بدء، إلّا أنّني رويدًا رويدًا خالجتني أحاسيس دافئة». ولا تقول لنفسها: «كيف فشلت في أن أحبّ طفلتي؟».. وهكذا يقتضي تاريخ الأمومة الرسمي تطهيرًا دقيقًا لزوايا الذاكرة المنعزلة. لقد كانت مصيبة إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا متمثِّلة في أنّها فقدت ابنتها قبل أن تسنح لها الفرصة للبدء بإغداق الحبّ عليها، بمعنى، أن تحبّها سنة بعد سنة ودرجة إثر درجة حتى تصل في نهاية الأمر مستوًى عميقًا من الحبّ، فلا تجد أمامها صعوبة في إقناع نفسها بأنّها أحبَّتها هذا الحبّ على الدوام.

في عصر ذلك اليوم، وبعد رجوعها إلى البيت في الوقت المعتاد لإرضاعها، وجدت زوجها والطفلة من فوق أريكة قريبة من النافذة يغطّان في نوم عميق، يحضن أحدهما الآخر من تحت نور النهار الذي كان يسلِّط عليهما وهجًا ذهبيًّا، وكأنّه نابع من السماء السابعة وليس من الشمس. كان كلّ شيء موشَّحًا بظلال اللون الأصفر، وكانت خيوط الأشعّة المتسلِّلة من بين الستائر كهرمانيّة اللون، ووجه الجنرال حجرًا يشبه المرمر، وقماش الأريكة مشمشيّ اللون، ومستلزمات الوليدة الجديدة وقماطها زعفرانيّة زاهية، والكرة الصغيرة من فوقها ذهبيّة ممزوجة بالأرجوانيّ. رمشت عينا إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا بسبب أشعّة الشمس، وسارت متّجهة إلى هذه الكرة الغريبة وقد استبدَّ بها فضول قلق، ووقفت هناك، وإن كانت عن غير قصد تعلم جيِّدًا ما الشيء الذي كانت تنظر إليه.

كانت على صواب بخصوص الألوان، إذْ كما كانت المدن

Twitter: @ketab_n

والأماكن تظهر بألوان وبظلال الألوان، فإنَّ الشيء نفسه ينطبق على اللحظات والمواقف. وبضمن ذلك الموت. فقد اكتسب الموت أيضًا لونًا جديدًا عند كلّ شخص وفي كلّ نهاية. وبخصوص الطفلة المولودة حديثًا، لا بدّ أنّه لون ذهبيّ ممزوج بالأرجوانيّ.

بعد برهة وجيزة من الزمان، استيقظ بافيل بافلوفيتش أنتيبوف ووقف على قدميه متمهِّلاً كي لا يوقظ الطفلة التي كانت في حضنه، وتمطّى قليلاً، وتثاءب مكسالاً، ونظر من النافذة من دون أن يتنبّه بعد إلى أنّ زوجته حاضرة. شاهد في الشارع بائعًا جوّالاً رثّ الثياب ومطبخًا صغيرًا متواريًا من وراء ستارة وكأنّه خزانة، ومملوءًا بالأكباد من فوق ظهر حصان يشارف على الموت. كان الرجل يساوم مساومة عنيفة امرأتين مسلمتين عجوزين، كلّ واحدة منهما أشدّ خصامًا من الأخرى. وبينما كان بائع الأكباد يردّ على المرأتين الواقفتين إلى الجانب، راح يطارد الذباب المنتشر في دوائر الواحدة داخل الأخرى من حول الخزانة، في حين رافقه جواده بهزّة من ذيله، وبدا وكأنّه سوف يتخلّى عن الحياة في أيّ لحظة. الإرهاق يسود المكان بفعل الريح التي كانت تهب هواءً دافئًا باستمرار منذ ساعات الصباح المبكرة متغلغلة داخل كلّ فرد وكلّ شيء، بحيث إنّ هرج بائع الأكباد وزبائنه لم يتمكّن من إقلاق الصمت الفاتر الذي انتشر في الشوارع. أغلق بافيل بافلوفيتش أنتيبوف النوافذ، ومال إلى الخلف وسرح ببصره إلى الطفلة. سرح ببصره، وبدا أوّل وهلة لم يفهم شيئًا. كان فم الطفلة مفتوحًا قليلاً، وعيناها مفتوحتين، وحاجباها منعقدين وكأنّها في فخّ حلم من الأحلام، وفي ضيق وكدر. كانت الأوردة الرقيقة كالشعيرات، والأرجوانيّة اللون، تغطّي وجهها برمَّته. كانت تشبه طاسًا من الخزف لم ينكسر حتى بعد سقوطه سقطة قويّة على الأرض، ولكنَّه احتشد بالتصدُّعات طولاً وعرضًا. وضع بافيل بافلوفيتش أنتيبوف رأسه المدوَّر والبارد والأصفر

Twitter: @ketab_n

الذي يشوبه لون أرجوانيّ بين يديه مثل كرة بلُّوريّة، كان يأمل أن يرى مستقبله من خلالها. وكما هو شأن كلّ الناس الذين لم يبكوا منذ سنين طويلة ونسوا ذلك، فقد اضطرّ إلى أن يولول أوّلاً كي يبكي.

ما إن أعاد البائع الأكباد التي لم يتمكّن من بيعها للمرأتين العجوزين غريبتيّ الأطوار إلى الخزانة، حتى أدرك الفأل النحس من وراء تلك الولولة، ومشى مشية متّئدة وهو يجرّ لجام الحصان النعسان، ومن خلفه كتائب الذباب وفرق القطط.

كتب بافيل بافلوفيتش أنتيبوف رسالة بعد الجنازة إلى شقيقه الأصغر منه سنًّا، الذي لم يره منذ زمن طويل، لأنّ ذلك الشقيق كان قد استقرّ في أوروبا قبل اندلاع الثورة بسنين طويلة: وهو الشقيق الذي كان يزدريه سرًّا، لأنّه اختار وظيفة غير وظائف أفراد الأسرة العسكريّة. وبهذا كان يخدم المال ولم يخدم القيصر، والذي كانت عروضه في مدّ يد العون له رفضها باستمرار بسبب الكبرياء الذي حال بينه وبين اللجوء إليه. واستفسر بافيل منه في رسالة إن كان في وسعهما أن يلتحقا به في فرنسا، وأرسل الرسالة فعلاً هذه المرّة بخلاف الرسائل السابقة.

لم يتحدّث الجنرال وزوجته طوال السنوات التي أنفقاها في فرنسا عن ذلك الصباح الاسطنبولي المنحوس ولو لمرّة واحدة. وازدادت أكثر فأكثر غربة أحدهما عن الآخر، وعن أيّ وئام روحيّ سبق لهما أن عرفاه. ومهما كان وصولهما سريعًا وسهلاً إلى هذا البلد الجديد، فإنّهما كانا على استعداد تامّ وأكبر ممّا ينبغي للمخاطرة بكلّ شيء من أجل الهروب من شرور اسطنبول. وبعد وفاة الطفلة، أدرك بافيل بافلوفيتش أنتيبوف إدراكًا تامًّا شيئًا واحدًا صحيحًا، وهو وجوب رحيلهما عن هذه المدينة الحزينة بأسرع وقت ممكن. إمّا أنّ اسطنبول كانت غير طيّبة معهما، أو أنّهما لم يكونا طيّبين بما يكفي معها، ففي رأيهما، كانت

Twitter: @ketab_n

أبواب المدينة الميمونة الحظّ موصدة أمامهما، أو ربّما لم تكن مفتوحة قطّ. وكانت النهاية نفسها تنتظر أولئك الذين لم تترسّخ جذور أشجار عوائلهم كي تتفرّع في هذه المدينة، ولكن طرقهم قادتهم إليها في مرحلة من مراحل حياتهم: إنّ اسطنبول التي هي مرفأ للهروب أساسًا، ويساعد الناس على الهروب من كلّ شيء، ستكون نفسها سببًا للهروب منها.

وصلت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا مدينة باريس في ربيع العام ١٩٢٢، وكانت تحمل قلقًا ذا مغزى خاصًا في روحها. فبينما راحت تسرح ببصرها إلى المدينة التي أنهكتها الحرب بعينين غير مباليتين، فإنَّ اكتشاف ألوانها لم يخطر ببالها قطّ. ففي آخر يوم من أيّامها في مدينة اسطنبول، أُصيبت بمرض غريب في عينها، وبدأت تفقد كلّ صلة بعالم الألوان. أصبح كلّ ما تشاهده الآن، الشوارع والمباني، والناس والانعكاسات في المرايا... بالأسود والأبيض، وكأنّ العالم غاضب عليها مسدلاً كلّ ستائره ومغلقًا نوافذه ومصاريعه. غير أنّها لم تكترث. لم تكترث فحسب، وإنّما وجدت سلوك العالم طفوليًّا مضحكًا. إنّها لم ترغب في الصراع مع العالم وكلّ أعبائه التي لا نهاية لها.

كانت أمنيتها الحقيقيّة الوحيدة متمثّلة في رؤية الله، وفي رؤية لونه إن كان له لون. وإلى أن يأتي ذلك اليوم الذي تراه فيه أمامها ـ وترى وإيّاه غاية الله من أخذ ابنتها منها ـ فإنّها لم تعر أيّ أهمّيّة لرؤية ألوان هذا العالم المحتشد بالأوهام. وكانت تصدّ في نفور كلّ تلميحات زوجها المتواصلة بشأن إنجاب طفل ثانٍ للبدء بالحياة مجدَّدًا، والعزاء بأنّ الوقت كفيل بأن يداوي كلّ الجروح. كانت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا قد أدركت أنّ الأطفال الذين ينتقلون إلى جوار ربّهم قبل حلول موعد عيد ميلادهم الأوّل، والمدن التي يهاجر منها المرء قبل مرور سنة على استقراره فيها، إنّما هما أمران متشابهان تشابهًا ينذر بالشؤم. فما

Twitter: @ketab_n

من طفل يولد بعد وفاة طفل آخر يمكنه أن يفصل وجوده فصلاً تامًّا عن غياب الطفل الميِّت، مثلما أنّ أيّ مدينة جديدة لا يمكنها أن ترحِّب ترحيبًا كاملاً إذا ما وصلها منفيُّون من مدينة أخرى.

لم يلتفت بافيل بافلوفيتش أنتيبوف أيّ التفاتة إلى باريس، لا في ذلك اليوم ولا من بعده. وكانت يد المساعدة التي مدّها له شقيقه الأصغر سنًّا والضائع الكرامة بسرور لم يتحقَّق، قد قبلها أنتيبوف بامتعاض شعر أنّه مضطرّ إلى كبحه ـ ولم يطلقه إلَّا بعد أن أخذ وتعلَّم كلّ ما استطاع أخذه وتعلَّمه منه. وأخذ يفكِّر رويدًا رويدًا أنّ التجارة لا تختلف عن العسكريّة، وإذا ما فهم ذلك، ففي وسعه أن يهب نفسه لها تمامًا. كان يملك الإرادة المجرّدة من المبادئ الخلقيّة التي يملكها كلّ أولئك الذين يندفعون بغتة، في مرحلة معيَّنة من مراحل حياتهم وبقوّة هائلة، إلى خيار كانوا قد عبّروا عن ازدرائهم لهم في يوم ما. كان متهوِّرًا ونافد الصبر، كأنّه يريد أن يعوِّض عن الوقت الذي ضيّعه.

غير أنّ حظّه لم ينعطف انعطافة كبرى نحو الأفضل إلَّا بعد وقت طويل، عند اندلاع حرب عالميّة أخرى، إذ جنى من الإتجار في السوق السوداء أثناء الحرب ثروة ذات أهمِّيّة ووزن كبيرين، وحقّق مكانة مرموقة في المجتمع. وكما هو شأن كرة المطَّاط، تمكّن من أن يثب في طريقه وسط حطام الحرب، وتمكَّن أحيانًا حتى من إدارة أعمال تجاريّة مع الألمان. لم تكن تعنيه قطّ تلك الحرب التي اشتعلت، ولم تكن حربه. ولم يعد يؤمن بعد اليوم بانتصار الدول أو القضايا، بل انتصار الأفراد لا غير. ومهما كان وجه النصر المتحقّق بأيّ وسيلة من الوسائل، فإنّه يلتفت دومًا إلى الماضي. الانتصار في الحياة لم يكن معناه الوصول خطوة فخطوة إلى مستقبل فيه من الخير ما يجعله يشتاق إليه، بل إعادة ماضٍ غير متحقِّق إلى نضارته السابقة.

هذا ما فعله. فحصل له على امرأة جديدة بدلاً من المرأة التي لم

Twitter: @ketab_n

تعد تؤدِّي وظائفها الزوجيّة، وحصل على طفلة بدلاً من الطفلة التي فقدها، وسلطة جديدة لتحلّ محلّ السلطة التي انتُزعت منه. غير أنّ كلّ تلك الأشياء لم تكن بالشيء الجديد. فعندما كان يحمل بين ذراعيه الطفلة التي أنجبتها له المرأة الفرنسيّة الشابّة التي كان يقيم وإيّاها، فإنّه كان في سنّ التاسعة والخمسين. وكما كان شأن طفلته الأولى، فإنَّ هذه الطفلة كانت ابنة ذات عينين رماديّتين. وأخفى هذا الأمر عن إغريبينا سنوات طويلة. ولو لم يلجأ إلى هذا الإخفاء، فإنّها على الأرجح ما كانت لتعترض أو تشعر بالغيرة. وإذا ما امتثل المرء بما كتبه رئيس الأطبّاء الذي كان يعالجها، فإنّها كانت غير مبالية تمامًا بما كان يدور من حولها. ولمّا لم تظهر عليها أيّ علامات تدلّ على تحسُّن حالتها الصحِّيّة، فقد راحت تنفق وقتها كلّه في رسم لوحات باللونين المائيين الأسود والأبيض لفلّاحين، كانت تشاهدهم يعملون في بساتين الكروم على السفح الشمالي من الأراضي المحيطة بالمستشفى. قرأ بافيل بافلوفيتش أنتيبوف هذه الرسائل قراءة متأنّية جدًّا، وفي قلق وحزن، لينساها من بعد ذلك في اللحظة التي أودعها درْجَه. كان راضيًا عن علاقته الجديدة؛ ولذلك، لاح مصمِّمًا على أن يغدق على الطفلة الثانية كلّ الحبّ الذي لم يستطع منحه للطفلة الأولى. ومع هذا، فإنّه لم يحاول قطّ الحصول على الطلاق من زوجته. وإذا كان قد توقّف عن زيارتها منذ وقت طويل، إلّا أنّه كان يحرص على بقاء إغريبينا على مقربة منه. فقد كانت زوجته بداية حبّه الصغير، والمعجبة به غاية الإعجاب، ثم ضحيّة ضعفه ووهنه، وبالتالي، المرأة الوحيدة التي عكست كلّ ما فقده في طريقه نحو الوصول إلى هذه الغاية. وكانت أقرب شاهد على تاريخه الشخصيّ. ليست شريكةً ولا صديقةً، بل ربّما كانت سجلًّا. . . ومثلما هو حال السجلّ الذي لا يعرف ما هو مدوَّن على صفحاته، فإنَّ إغريبينا كانت أيضًا غير مدركة تمامًا ما الأشياء التي كانت شاهدة

Twitter: @ketab_n

عليها. فقرّر بافيل بافلوفيتش أنتيبوف أن يحتفظ بهذا التذكار الثمين في مكان أمين، إلى أن يحين الوقت للذهاب وأخذه.

لكن، عندما حان ذلك الوقت، كان بافيل بافلوفيتش أنتيبوف قد عاش حياة طويلة، وبلغ من الشيخوخة ما جعله يبدأ بحمل سنوات عمره وكأنّها ثياب مهلهلة لبسها مرّات ومرّات طوال السنين، ولكنَّها مريحة على نحو يمكنه أن يلبسها مرارًا وتكرارًا، لولا الضيق الذي كان يشعر به عندما يراه الناس مرتديًا إيّاها. وحقَّق أهدافه كلّها، واحدًا فواحدًا، واستعاد كلّ ما كان خسره، وعاش حياة طويلة قدر ما كان يتمنّى. إلّا أنّ حياته لم تنته على الرّغم من أنّها تخلّت عنه. ولم يعش أحد ممّن حوله ذلك العمر الطويل الذي عاشه. وفي حين رحل كلّ أولئك الذين يصغرونه سنًّا بسنوات، وكان يحبّهم أو يحميهم، ويشاجرهم أو يكرههم، واحدًا فواحدًا، فإنَّ عذابه لموت كلّ واحد منهم كان يختزنه في صدره، طبقة فوق طبقة، فيخفق ليلاً خفقانًا مؤلمًا إيّاه إيلامًا حادًّا وثاقبًا. ولم يستطع أن يحول بينه وبين الارتياب في أنّ أقرباء المتوفِّين، بل حتى امرأته وابنته، ألقوا اللائمة عليه، وأنّ كلّ شخص كان يكرهه، لأنّه عاش حياة طويلة في مثل هذا العصر اللعين الذي لم تفقد فيه الحياة وحدها سحرها، بل الموت أيضًا. وعلى الرّغم من أنّه بلغ سنّ الرابعة والتسعين، فإنّه لم يهرم ولم يصب بالخرف.. بل نادرًا ما كبر. لم يكن في وسعه أن يفعل شيئًا بإزاء ذلك، والسبيل الوحيد أمامه الذي يستطيع بوساطته أن يعوّض عن خطأه، إنّما هو من خلال الموت، إلّا أنّ المرء لا يموت بحسب رغبته وطلبه، كما أنّه لم يطلب الموت أيضًا.

كان يلوم نفسه أحيانًا من خلال شخص ذلك المشرقيّ المتهدِّل الذقن، الذي كان ربّ عمله على مدى ثلاثة أيّام، والذي لا يمكن نسيان صوته الواهن المهذّب بعد كلّ تلك السنين: «كم عمرك مسيو أنتيبوف؟ زهاء قرن إذن! في غضون هذا القرن، سقطت دول مثل بيت من ورق،

Twitter: @ketab_n

وقُضي على شعوب مثل القضاء على الذباب، ولم تقشعرّ أبداننا مرّة واحدة عندما نفخ إسرافيل في الصور(١)، بل في الأقلّ عديد المرّات. ولكن ماذا عنك أنت؟ هل دخلت خطأً البوّابات المؤدّية إلى زمن يتجاوز الزمن، أم أنّك عقدت عن دراية حلفًا مع الشيطان؟ كم تريد يا مسيو أنتيبوف أن تعيش أكثر ما عشت؟ هل غادرت بلدك لتهرب من براثن الموت، وأن تنتظر هنا في هذا البلد الذي يسكنه الآخرون الموتَ، حتى يأتي ويأخذك في حيلة أخرى من حيل آلهة الحظّ الرومانيّة؟

في الوقت نفسه الذي بدأ بافيل بافلوفيتش أنتيبوف يزداد عزلة عن الناس، بسبب العذاب الذي حلّ به من جرّاء غلطته الفادحة التي لا سبيل إلى معالجتها، فإنّه تلقّى رسالة من رئيس الأطبّاء مفادها أنّ إغريبينا تدهورت صحّتها تدهورًا كبيرًا. ففي صباح يوم من الأيّام، هرعت بغتة خارجًا تحت أنظار المرضى والممرِّضات والأطبّاء الوجلة، تصرخ وتحاول أن تكلِّم الفلّاحين في بستان الكروم واحدًا فواحدًا، غير أنّها عانت انهيارًا عصبيًّا لمّا أدركت أنّ أيّ واحد منهم لم يفهم كلمة ممّا كانت تتفوّه بها. وعندما اقتيدت إلى الداخل من جديد، وهُدّئت بمساعدة المهدّئات، قذفت بكلماتها غير المفهومة إلى أولئك الحاضرين في المستشفى. ولمّا رأت شدّة الهلع والفزع على وجوه بقيّة المرضى، تملّكها الذعر بدورها وانكمشت على نفسها، لا تختلط بالآخرين. أراد رئيس الأطبّاء من مسيو أنتيبوف أن يحضر من فوره لرؤية زوجته، لأنّ اللغة الأجنبيّة التي بدأت أكثر مريضاته صمتًا وهدوءًا تتكلّم بها، بعد كلّ هذه السنين على حدّ علمه ـ من دون أن يحدث أيّ حادث يؤدِّي إلى مثل هذا التحوّل ـ كانت روسيّة.

---

(١) إسرافيل هو اسم الملاك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة.

Twitter: @ketab_n

عندما شاهدت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوف[1] زوجها بافيل بافلوفيتش أنتيبوف، عانقته عناقًا ينمّ عن رضًى واطمئنان لم يكن سببهما متمثّلاً في أنّها رأت زوجها بعد كلّ هذه الأعوام، بل لأنّها عثرت على شخص ما يمكنه أن يفهمها. ثم راحت تتكلّم. لم يكن لكلماتها أيّ معنًى مثلما لم تكن مترابطة. وتحدّثت منتحبة عن الأغاني التي غنّاها الفلّاحون في بستان الكروم ساعة الغروب. ثم شكت من الغيرة الطفوليّة التي كانت تنتاب المرضى الكبار في السنّ في المستشفى، وكذلك من قسوة الله. ولم تتوقّف، بل راحت في ذلك اليوم تنتقل من موضوع إلى آخر ذاكرة على الدوام مطبخًا تفوح منه رائحة القرفة والكريما المخفوقة، بصوت رتيب، ليس بعالٍ أو بمنخفض، بل خشن، أجشّ، من دون أن ينطوي على سعادة أو حزن. وعندما أخذ الليل يرخي سدوله، وبات زائرها الوحيد الصابر صبرًا متناهيًا على أهبّة الاستعداد للانصراف، سألته مبتسمة ابتسامة واهنة عن موعد زيارته إيّاها في المرّة المقبلة، غير أنّها استغرقت من دون أن تنتظر ردّه في نوم اضطراريّ صعب، سببه الدواء.

عاد الزائر الصموت في اليوم التالي وفي يده وردة واحدة، وتحت إبطه علبة. لم تلتفت إغريبينا إلى الوردة، ولكنّها عندما أخذت تفتح غلاف العلبة الجميل، حيّت بسعادة غامرة الحلوى المتلألئة من فوق الصينيّة الدائرة اللّامعة. كانت هذه الصينيّة الجميلة التي اشتراها بافيل بافلوفيتش أنتيبوف من صاحب متجر تذكاريّات بعيد النظر، دراسة بقلم فيشنياكوف تصوّر مشهدَ واحدٍ من نبلاء روسيا يخطف المرأة التي أحبّها من منزل والدها. وتوقّف النبيل قبل أن يهبط الدرجات الأخيرة المتبقّية

---

(١) هكذا ورد الاسم في النصّ الإنكليزي، والصحيح هو أنتيبوفا وليس أنتيبوف، لذا اقتضى التنويه، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

من السلّم الخشبيّ، مستخدمًا إحدى ذراعيه في مسك حبيبته ووضعها في حضنه بقوّة تفوق قوّة البشر، في حين كان يمسك السلّم باليد الأخرى، ويحدِّق إلى الغابة الخضراء والظليلة إلى حدٍّ ما، والتي سوف يتواريان فيها عن الأنظار بعد قليل. تراجع بافيل بافلوفيتش أنتيبوف قليلاً لينظر إلى ردّ الفعل الذي ستخلقه هذه الصينيّة في زوجته. وكان أحد الأطبّاء الذين استشارهم، وهو في طريقه إلى هذا المكان، قد أوضح أنّ الذاكرة تمارس أحيانًا حيلاً شرسة، فالدفاع يلتفّ من جديد عندما يشرف الجسد على نهايته. وعندما يصل عديد المرضى هذه المرحلة الأخيرة غالبًا من حياتهم، يعودون إلى طفولتهم وإلى لغتهم الأمّ؛ ويكفي لموضوع واحد أو حلم من الأحلام أن يطلق شرارة مثل هذا التحوُّل. وفكّر بافيل بافلوفيتش أنتيبوف إن كان السجلّ الآن يقلِّب أوراقه إلى الخلف ليمحو سطرًا فسطرًا كلّ ما كان قد كُتب عليه.

إلّا أنّ إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا بدت مهتمّة بالحلوى أكثر من اهتمامها بصينيّة فيشنياكوف، فالتقطت قطعة حلوى واحدة من دون أن تدرك قلق زوجها، ورفعتها إلى أعلى مبتسمة ابتسامة امتنان وسألت عن نكهتها. فكان الردّ الذي تلقّته هو: «ما دام أنّها ورديّة، فلا بد أنّها بنكهة الكرز. ورديّة! مضى وقت طويل مذ شاهدت اللون الورديّ آخر مرّة. فتحت الغلاف ورمت بقطعة الحلوى في فمها. كان للّون الورديّ رائحة طيِّبة ونكهة سائغة.

في حين ذابت قطعة الحلوى في فمها. في البداية، الشفتان اللتان استبدّ بهما القلق للعاشقة الجميلة وهي في حضن النبيل، ثم بدا شيء من حول ذلك اللون الورديّ يعود إلى الحياة. وسرعان ما مدّت إغريبينا يدها إلى قطع الحلوى الأخرى وهي تسأل زوجها في كلّ مرّة عن طعمها. فالقطع الصفراء بطعم الليمون، والحمراء بطعم القرفة، والخضراء بطعم النعناع، والبرتقاليّة بطعم المندرين، والبنِّيّة بطعم

Twitter: @ketab_n

الكراميل والبيج بطعم الفانيلّا . . ثم راحت تتذوّقها. كانت قطعة الحلوى الصفراء حاذقة، والحمراء ذات مذاق حرّيف، والخضراء لاذعة، والبرتقاليّة نفّاذة، والبنّيّة قاسية، والبيج متغضّنة. وعادت الألوان التي تركتها إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا في اسطنبول إليها كلّما تذوّقت قطعة جديدة من الحلوى. وشاهدت من سريرها الملاصق للجدار الكرسيَّ والطاولة أمام النافذة، وطاولة السرير الجانبيّة المصنوعة من خشب أشجار الكرز وعليها كلّ أنواع الأدوية، وأيقونة مريم العذراء والوجه المهيب للقدّيس سرافيم يتأرجح من قلادتها. هرعت إلى النافذة ذاهلة لتفاجأ بالمشهد الذي رحَّب بها. فكلّ الألوان في أماكنها. اللون المتّقد هو لون بستان الكروم الممتدّة من سفح التلّ إلى الأفق، والقطران لون ثياب الفلّاحات المغنّيات اللواتي ملأن سلالهنّ الكبيرة بالعنب سميك القشرة، والحادّ لون الأشجار التي كانت تؤوي طيور السنونو ذات الأصوات الحادّة والعالية، والحاذق لون الشمس في السماء. . الألوان منتشرة في كلّ مكان، ولكن المتوافرة في الداخل أقلّ من تلك الموجودة في الخارج. وعندئذٍ خطرت ببالها فكرة. فعادت أدراجها، وجمعت عديد أغلفة قطع الحلوى التي أكلتها، وراحت من خلال هذا المشهد تنظر إلى المستشفى التي أنفقت فيها سنوات طويلة من حياتها. وبينما هي تضع جانبًا غلافًا وتأخذ غلافًا آخر، اصطبغت كما يصطبغ الرجل الواقف أمامها بغتة بألوانها الخاصّة بها، البياض الموحش للحجر البارد المشيّدة به قاعات البناية وجدران الغرف، وملاءات السرير التي تغيِّرها الخادمات بين يوم وآخر، والشوربة التي لا طعم لها التي توضع أمامها. الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر هو نظرة القلق والاضطراب البادية على وجهها.

لم تتوقّف إغريبينا، لم تتوقّف فحسب، بل وضعت الأغلفة غلافًا من فوق غلاف، مبتكرة بذلك لونًا جديدًا. وبعد بضع محاولات،

Twitter: @ketab_n

وضعت الغلاف الأحمر من فوق الأزرق، فرأت العالم وقد تغيّر لونه كلّه إلى اللون الأرجوانيّ. فندَّت صيحة ذات أزيز من بين شفتيها: «أسـ ـ طنّ ـ بول!» لقد وجدتها، وجدت اللون الذي فاتها على ظهر ذلك المركب العفن الذي تنبعث منه رائحة كريهة، حيث كانت تقف وهي في سنّ التاسعة عشرة رفقة انتفاخ صغير في رحمها وانتفاخ أكبر من على ظهرها. كانت اسطنبول أرجوانيّة في خضمّ الألوان وظلالها؛ أرجوانيّة ضاربة إلى الزرقة والرماديّ؛ هي الشمس التي تغشي الأبصار والمنعكسة من القباب المموَّهة باللون الرصاصيّ المنتشر عليها شيئًا فشيئًا، والمسفوع ضربة فضربة. وتذكّرت ذلك المزيج اللعين من اللونين الأصفر والأرجوانيّ. فتنهّدت شاهقة مرارًا وتكرارًا، مرّات ومرّات: «اسطنبول!» بدت وكأنّها لا تردّد لفظ الاسم نفسه مئات المرّات، ولكنَّها تلفظ اسمًا واحدًا مطوّلاً من مقاطع لا تتغيّر. لم يعد في وسع بافيل بافلوفيتش أنتيبوف أن يتحمّل، فأمسك بيديْ زوجته، وتمتم:

ـ هل تذكّرتِ اسطنبول يا إغريبينا؟

في الأيّام التي أعقبت ذلك اليوم، تخيّلت إغريبينا شيئين عن نفسها: الأوّل، أنّها شابّة؛ والثاني، أنّها في اسطنبول. وراحت الكلمات تنطلق أحيانًا من بين شفتيها، كفّاها معرَّقتان طول الوقت. تثوب إلى رشدها وتغيب، وفي كلّ مرّة كانت تغيب عن رشدها، فإنّها تترك جزءًا من عقلها هناك. لم يكن ثمّة تطوّر ملحوظ في حالتها؛ ولم يكرّر كلّ يوم عابر ما سبقه من أيّام تكرارًا قويًّا فحسب، بل كان يشير أيضًا إلى أنّه لن يتكرّر بعد الآن.

لا ينبغي لها أن تموت هذه الميتة، تاركة من ورائها وبهذا الرحيل المبكر عبئًا لا يُطاق من غيابها. في صباح اليوم الذي أعقب ليلة مضطربة، جاء بافيل بافلوفيتش أنتيبوف إلى المستشفى، وسأل:

ـ هل ترغبين في أن نذهب مجدّدًا إلى اسطنبول يا إغريبينا؟

Twitter: @ketab_n

وعندما شاهد ابتسامتها الخجولة، وكأنّها سمعت كلامًا بذيئًا، حكم بأنّ تلك الابتسامة تعني «نعم» مواربة. وشعر أنّه ينبغي له أن يفعل مثل هذا الشيء حتى تكون وفاة زوجته، حتى إن حدثت قبل أوانها وقبل وفاته بزمن طويل، أكثر مهابة في الأقلّ من الحياة التي عاشتها حتى الآن. ولهذا السبب، وعلى الرّغم من كلّ التأخير، يتعيَّن عليه أن يوفِّر لها فرصة تثأر فيها من ألم تلك الأيّام الأولى، بالعودة بعد مرور سنوات إلى المدينة التي عانت فيها وهي في مقتبل العمر الازدراء والإهانة والانتقاص من شأنها والهزيمة. أراد أن يطمئنّ إلى نهاية آمنة وسليمة لهذه الحكاية غير الكاملة والمربكة، في حين أخذ يضع أمامها المباهج التي افتقدتها وحُرمت منها ذات يوم، والرفاهيّة التي لم تتذوّقها والنِّعَم التي لم تشعر بها. لقد قرَّ رأيه على ألّا تقضي إغريبينا ما تبقّى من حياتها في هذه المستشفى، بل في اسطنبول، ولا بوصفها لاجئة أو مبعدةً أو غريبة أو ضيفة أو نزيلة. لا يتعيَّن عليها أن تكون في اسطنبول الآخرين من الناس، بل في اسطنبولها هي. وعليه بادئ ذي بدء أن يجعلها صاحبة بيت كي يكون لها سكن فيها.

هكذا وصلا. وصلا، ولكن! من أوّل وهلة، لم تستطع المدينة أن تستدلّ عليهما، ولم يستطيعا بدورهما أن يستدلّا عليها. ولمّا لم تكن لدى بافيل بافلوفيتش أنتيبوف الرغبة في قضاء يوم أكثر ممّا يقتضيه الحال في غرف الفندق، فقد راح من فوره يبحث عن منزل ملائم. ولم يكن يعلم إن كانت القوانين المحلّيّة تجيز للأجانب تملُّك عقار أم لا. لكنْ، في ضوء وجود عدد كبير من الناس في العالم ممّن يرغبون في التلاعب بمعايير طبيعتهم طمعًا في الحصول على منافع شخصيّة أو مكاسب غير مشروعة، فإنّه لم يشكّ لحظة واحدة في أنّه سوف يعثر، بطريقة ما، على وسيلة لتحقيق ذلك. إلّا أنّه، على الرّغم من ذلك، رأى أنّ الفرصة التي

Twitter: @ketab_n

أُتيحت له في غضون عشرة أيّام، كانت أكبر ممّا كان يتمنّى. إذْ شاءت المصادفة أن يكونا جالسيْن بجوار مرآبٍ أثناء حفل استقبال أقامه أصحاب الفندق الذي نزلا فيه، وذكر لهما أنّ بناء عمارة سكنيّة، في حيّ مقصور على فئة معيَّنة من الناس في المدينة، تعطّل في منتصف الطريق بسبب إفلاس صاحب العمارة غير المتوقّع. فلم يضيّع بافيل بافلوفيتش أنتيبوف هذه الفرصة التي واتته على هذا النحو.

في صباح اليوم التالي، كان أوّل شيء فعله هو الذهاب لرؤية موقع البناء، إلّا أنّه لم يجد البناء غير مكتمل على ما ذكره المرابي له، بل لم يجد سوى حفرة، وهو أفضل، أفضل بكثير كما ظنّ. فما كان منه إلّا أن بدأ باقتفاء أثر الروس البيض الذين شاركوهما المصير نفسه في عشرينيّات القرن العشرين، ولكنّهم آثروا البقاء ليصبحوا مواطنين أتراك. وأدرك فائدة أن يكون اسم مواطن تركي على الوثائق لتسهيل الإجراءات القانونيّة، إلّا أنّه لم يقدر على إيلاء ثقته لأيّ شخص، إلّا إذا كان من أصل مشابه لأصله. لهذا، وبعد قليل من البحث، توصّل إلى اتّفاق مع زوجين متحفّظيْن وقليلَيْ الكلام أصبحا مواطنيْن تركيَّيْن يتكسّبان من بيع شمسيّات مصابيح دقيقة في دكّان معتم قابض للصدر في منطقة المسجد العثماني. ووفّرت شركة لا يمتلك فيها الزوجان أيّ أسهم واجهة لتعطيه ملكيّة العمارة السكنيّة. فما كان من بافيل بافلوفيتش أنتيبوف إلّا أن حسب كلّ شيء حسابًا دقيقًا، من دون أن يقترف أيّ خطأ، ودفع الثمن بسخاء. وقد عجّل دفتر شيكاته الصفقة التي كان من شأنها لولاه أن تأخذ وقتًا طويلاً مسبّبة إزعاجًا كبيرًا. ولجأ إلى معماريّ اسطنبولي أرمنيّ، سبق له أن أقام صلات تجاريّة مع أسرته مع فرنسا. كما ترك هناك أيضًا مبلغًا ضخمًا من المال لعشيقته كي يجعل أكاذيبه التي قصّها عليها أشدّ إقناعًا. نادرًا ما تذمّر. وللمرّة الأولى، على مدى سنوات طويلة، اقتنع بإنفاق المال بحرّيّة ومن دون تحفُّظ. وفي حين لم يمسك

Twitter: @ketab_n

عن صرف الأموال، إلّا أنّه كان يريد أن يسيطر على كلّ الموادّ المصروفة. وعلى الرّغم من أنه استشار زوجته أحيانًا بخصوص الأشياء المضافة، كالبوّابة وسور الحديقة والحواجز الحديد الخاصّة بالشرفة والزخارف في واجهة المبنى والتفاف السلالم أو المرمر المستخدم في المدخل.. غير أنّه، على وجه العموم، فعل كلّ ما يريد.

إلّا أنّ إغريبينا لم يبدُ عليها الاهتمام بمثل هذه التفاصيل، على أيّ حال. فمنذ وصولها مدينة اسطنبول، كانت تنفق وقتها، إمّا في مراقبة البحر من نافذة غرفة الفندق أو مصغية إلى شجار رفيقتها الإلزاسيّة وخادمتها الجزائريّة التي لم تتوقّف لحظة واحدة عن مناصرتها. وكانت الأمارات المرتسمة على وجهها عند النظر إلى مياه البوسفور لا تختلف عن تلك الملامح التي كانت تظهر على وجهها عندما كانت تسرح ببصرها إلى بساتين الكروم من نافذة المستشفى في فرنسا. ولم يظهر عليها ما يشير إلى أنّها غير متأثّرة بسبب رجوعها إلى المكان الذي دفنا فيه طفلتهما فحسب، بل كانت أحيانًا لا تعرف في أيّ مدينة هي في الوقت الراهن. ومع هذا، فإنّها لم تبدُ غير سعيدة أيضًا. وكما هو شأن سحابة مطر خجول، ومضطربة، حلّقت من فوق اسطنبول، على أهبّة الاستعداد لذرف الدمع، ولكن يستحيل لمسها.

كان بافيل بافلوفيتش أنتيبوف يرى في عزلة زوجته عن العالم مؤشّرًا لا يدلّ على مرضها بل على براءتها. فقد شاهد، ولمرّات عديدة، على الجبهة كيف كان الجنود من مختلف الجنسيّات يتمسّكون برأي مشترك، مفاده أنّه لو كان ثمّة شخص واحد بريء بينهم، فإنّه سوف يوفّر عليهم نهاية لا تبشّر بخير. وهكذا، راح يسعى هو الآخر باحثًا عن ملاذ في زوجته مؤمنًا بذلك الرأي.

طُليت الجدران الخارجيّة بألوان شاحبة، وإطارات النوافذ والقضبان الحديد في الشرفة بظلّين من ظلال اللون الرماديّ، وانتهى

Twitter: @ketab_n

العمل في الزخرفة الدقيقة على باب المدخل ذي المصراعين، فظهرت العمارة السكنيّة جميلة تخطف الأبصار. وكان أبرز ما يميّز المبنى هو أنّ طبقاته غير متشابهة، وأنّها شُيِّدت بناءً على توكيد بافيل بافلوفيتش أنتيبوف أسلوب الفنّ الحديث، وإن لم يعد ذلك الأسلوب عصريًّا بعد الآن. وكانت الشقق القريبة من المدخل ذات نوافذ أكبر من البقيّة.

وكأنّما يُراد بها التعويض عن الافتقار إلى الشرفات في الواجهة. وكانت الشرفات مختلفة أيضًا بين طبقة وأخرى. إذْ كانت شرفات الطبقة الثانية تمتدّ إلى الخارج في شبه دائرة، في حين كانت شرفات الطبقة الثالثة غائرة عميقًا داخل المبنى، على نحو يمكن فيه للمرء الجلوس مرتاحًا في الشقق من دون أن ينزعج من رؤية أحد له من الخارج. وبدلاً من الحاجز الحديد، كانت جوانب الشرفات في الطبقة الرابعة محاطة بسياج حجريّ مزيَّن بنقوش نباتات نافرة، وعلى كلّ جانب من جوانب الشرفات أصيصان كبيران من المرمر لزراعة الورود. كانت الاختلافات مدهشة، بحيث لا يمكن للمرء إلّا أن يعتقد أنّ نزل المبنى كانوا يشاطرون بعضهم بعضًا المساحة نفسها من دون أن يعيشوا في المكان نفسه.

وفي الواجهة الأماميّة، كانت النقوش البارزة بين النوافذ في الطبقتين الأولى والثانية تخطف الأبصار على وجه الخصوص، إذْ كانت تحتوي على طاووس كبير الحجم، صغير الرأس، داخل دائرة. وكانت الرِيَش الخمس للطاووس، واحدة في الأعلى واثنتان إلى جهة الشمال واثنتان إلى جهة اليمين، تؤشّر إلى خمس جهات مختلفة. ورُسمت عيون واسعة مناسبة لها عند حافّات الريش. كانت بدورها مزيّنة بخطوط رفيعة ونحيلة تشبه رموش العين. وعلى العكس من الريش، كانت إحدى العيون تتّجه إلى السماء، والعيون الأربع الأخرى تتّجه في أربعة اتّجاهات مختلفة، في حين كان رأس الطاووس محنيًّا إلى أمام. وفي النقطة الواقعة عند طرفي قائمته، التي كان ينظر إليها الطاووس، نُقشت

Twitter: @ketab_n

في إطار بيضويّ، لا تكاد العين تراه من الشارع، الأحرف الأولى من اسميّ الزوج والزوجة.

عندما أطلعها على العمارة السكنيّة بفخر واعتزاز، قال:

ـ ماذا ستسمِّين المبنى؟

هبّ في اللحظة نسيم من الشاطئ معبَّق بعطر الياسمين، ومنح الصوتَ للأشياء التي لم يستطع أن يعبّر عنها بافيل بافلوفيتش أنتيبوف:

ـ ها هي طفلتك يا إغريبينا بعينين لونهما يشبه لون الرماد. وسوف تحبّك على الدوام حبًّا جمًّا، إلَّا أنّها لن تتوقّع لقاء ذلك حبًّا أكبر من الحبّ الذي تقدرين على منحها إيّاه. سوف تكون ملكك وحدك بكلّ ما فيها، إلَّا أنّها لن تطلب منك أن تهبي حياتك لها، ولن تتذمَّر أو تبكي أو تمرض أو تموت. ولن تكبر أبدًا. ولن تهجرك ما دمتِ معها لا تتركينها. وسوف يُشار إليها على النحو الذي ترغبين. فما الاسم الذي ستطلقينه على الطفلة؟

أصغت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا في حماسة لما كان يهمس به نسيم البحر. ولبثت ساكنة لحظة واحدة، ثم ومضت عيناها وهي تهتف:

ـ حلوى!

حدّق بافيل بافلوفيتش أنتيبوف إلى زوجته في حيرة وذهول، ثم كرّر السؤال بإضافة بعض المقترحات من عنده، لأنّه لا بدّ قد استنتج أنّها لم تفهم ما الذي كانا يتحدّثان عنه. في وسعها أن تختار أسماء تشير إلى وطنهما الأمّ، أو كلمة تذكّرهما باسطنبول عشرينيّات القرن العشرين لتكون وفاءً لتلك الأيّام، أو يُستحسن أن تختار أسماءً يمكن أن توضح مدى اختلاف مجيئهما الثاني إلى اسطنبول عن مجيئهما إليها أوّل مرّة. فالاسم «انتصار» ملائم جدًّا، تمامًا مثل الأسماء «افتخار» أو «نعمة» أو «علياء» أو «ذكرى» أو «نجاة» أو «حكاية». ويمكن للاسم أن يكون

Twitter: @ketab_n

أيضًا: شقّة «لا تنساني» أو «التئام الشمل» أو «المسترضي» أو «الاسترضاء». ثمّة مئات الأسماء ذات المغزى التي يمكن لهما أن يتوّجا بأحدها نجاحهما، ولا بدّ لهما أن يتوِّجا به، لأنّ الكثير من الجهد والمعاناة، والمال أيضًا، من وراء ذلك. أصغت إغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا لمناجاة زوجها مبتسمة ابتسامة تنمُّ عن لين العريكة، إلّا أنّ ردَّها ظلّ ثابتًا لا يتغيّر في كلّ مرّة.

عندما انتقل بافيل بافلوفيتش أنتيبوف وإغريبينا فيودوروفنا أنتيبوفا إلى الشقّة رقم ١٠ من قصر الحلوى في الأوّل من أيلول ١٩٦٦، كانت السماء مغمورة بسحب مكتنزة رصاصيّة اللون. كان العالم قد اكتسب برمّته اللون نفسه المفتقر إلى الحيويّة، وكأنّ الله لم يعد لديه حلوًى ملوّنة الأغلفة. وبعد أن رشقت إغريبينا الشقَّة بنظرة خاطفة، اتّجهت من فورها إلى الشرفة، وفي أعقابها خادمتها الجزائريّة ورفيقتها الإلزاسيّة المتجهِّمة الوجه، وفتحت الباب ذا المصراعين، وخطت إلى الخارج. كانت المدينة تمتدّ أمامها. لقد تغيّرت... كيف... رنت إلى اسطنبول على نحو ينطوي على متعة خبيثة لامرأة تواجه بعد سنوات منافستها ذات الجمال الذي كانت تحسده عليها سرًّا، وباتت الآن هرمة، أنهكتها الشيخوخة، ذاوية ضامرة. ثم هبّت ريح قويّة شماليّة شرقيّة، فتخيّلت صورتها تخيُّلاً مشوّشًا، وغامت عيناها، إلّا أنّها حافظت على ابتسامتها. في تلك اللحظة، راقب بافيل بافلوفيتش أنتيبوف من على مسافة بمتعة تلك الابتسامة التي استقرَّت على وجه زوجته. لاحت راضية مطمئنّة! الأمر يستحقّ ذلك، يستحقّ العودة إلى هذه المدينة بعد كلّ هذا الزمان. إنّ الرجال، وبخاصّة ممّن هم على شاكلة بافيل بافلوفيتش أنتيبوف، الذين يتوقَّعون من صروف الزمان وتقلُّبات الحياة أن تؤكِّد ما يؤمنون به من حقائق، يستمتعون برضى نسائهم بوصفه دليلاً

Twitter: @ketab_n

على نجاحهم الشخصيّ. وشعر بافيل بافلوفيتش أنتيبوف بالفخر والاعتزاز بنفسه، وهو يسرح ببصره إلى زوجته في تلك الليلة الاسطنبوليّة، في حين راحت الريح الشماليّة الشرقيّة القويّة تحلّ محلّ ذلك النسيم المعبَّق برائحة الياسمين الذي هبَّ من البحر في الأيّام القليلة الماضية.

أثبت الزمان أنّ بافيل بافلوفيتش أنتيبوف كان على حقّ، إذْ توفّيت زوجته قبله، وسرعان ما عادت الرفيقة الإلزاسيّة والخادمة الجزائريّة إلى فرنسا بعد ذلك. إلّا أنّ بافيل بافلوفيتش أنتيبوف لم يذهب إلى أيٍّ مكان آخر. وبعد أن فقد إغريبينا، عاش وحيدًا في الشقّة رقم ١٠ من قصر الحلوى سنتين أخريين. وعندما وافته المنيّة، لم يزد عمره أو ينقص عن المائة سنة.

في العام ١٩٧٢، ورثت ابنة بافيل بافلوفيتش أنتيبوف قصر الحلوى، وكانت قد ولدت خارج نطاق الزوجيّة، إذ كان الأب والأمّ غير متزوّجين شرعًا. ولم تحضر فاليري جيرمين، التي كانت تقطن في بيت مترامي الأطراف في ريف مدينة باريس رفقة زوجها وأطفالها الأربعة، وُلد آخرهم عندما كانت في سنّ الأربعين، جنازة والدها الذي كان حضوره لا يمثّل شيئًا لها سوى فراغ لا يكرِّر أيّ صدًى. كما أنّها لم تذهب لزيارة القبر الذي دُفن فيه بالقرب من إغريبينا فحسب، بل لبثت غير مبالية على حدٍّ سواء بإزاء هذا الميراث غير المتوقَّع أيضًا. ولم تشعر في تلك الآونة ولا بعدئذٍ بضرورة المجيء ومشاهدة المبنى، بل اكتفت بتأجير كلّ الشقق بمساعدة وكيل عقارات تركيّ جشع إلى حدٍّ ما ولكنَّه كفؤ، وإدارة العمل من مكانها البعيد، فلم تتدخَّل بأيّ شيء ما دامت النقود تودع بانتظام في حسابها المصرفيّ.

إلّا أنّها بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع على تأجيرها الشقّة ــ الرقم ١٠،

Twitter: @ketab_n

تلقّت رسالة مكتوبة بخطّ جميل وبلغة فرنسيّة ممتازة.

كانت الرسالة مرسلة من المستأجرة، تخبرها فيها أنّ مقتنيات بافيل بافلوفيتش أنتيبوف وزوجته الشخصيّة ما تزال في مكانها. وأشارت إلى أنّ الشقّة تحتوي على أثاث كثير ذي قيمة عالية، وأنّها تفضِّل لو جاءت مالكة العقار لتفقُّد الأوضاع بنفسها. وذكرت أنّ في وسعها أن تجد شركة شحن بحريّة لنقل الأثاث كلّه إلى فرنسا، وأن تساعد في تلك الترتيبات إذا تعذَّر حضورها.

عبَّرت فاليري جيرمين في ردِّها عن شكرها للمستأجرة لما أبدته من اهتمام بالموضوع، وأعربت عن أسفها لما سبَّبته عن غير عمد لمثل هذا الإزعاج، بيد أنّها أشارت أيضًا بعبارات غير مؤكَّدة أنّها غير مهتمَّة بتسلُّم أيّ قطعة من ذلك الأثاث المذكور. وقالت إنّ في ميسور مستأجرتها أن تختار ما تشاء من ذلك الأثاث وتحتفظ به لنفسها، وأن تستخدمه بحسب حاجتها له أو تعطيه للآخرين. ثم في وسعها أن ترمي ما تبقّى منه في المزبلة. فالقرار قرارها. وإذا ما استتبع ذلك صرف أيّ مبلغ من المال لنقل الأثاث خارج المنزل، فإنّها على أهبَّة الاستعداد لخصم المبلغ من الإيجار.

ثم تلقَّت رسالة أخرى بعد ذلك مباشرة، أوضحت فيها المرأة الساكنة في الشقّة ــ الرقم ١٠ أنّ نفسها لا تطاوعها على رمي المقتنيات في الزبالة، وأنّها تعتقد أنّ مالكة العقار سوف توافقها الرأي إذا ما حضرت يومًا ما لرؤية الأثاث بنفسها. وتطوّعت المرأة على أن تحتفظ لها به في مأمن إلى أن تأتي، وأرفقت في ختام رسالتها قائمة تضمّ مائة وثمانين قطعة، تصف فيها كلّ قطعة وصفًا مفصَّلاً. كما أرفقت بالرسالة صورة بالأسود والأبيض، تمثّل قصر الحلوى، ربّما كان قد التقطها بافيل بافلوفيتش أنتيبوف بُعيد إكمال البناء، ولكن قبل أن ينتقل أيّ شخص للسكن فيه.

Twitter: @ketab_n

لاحت العمارة السكنيّة باهتة، لا روح لها في الصورة. ولم يكن فيها أيّ شخص، لا قرب نوافذها أو على شرفاتها، أو رصيفها أو شوارعها. كانت أشبه بطفلة من أطفال الحرب لم يعد لديها أقرباء على قيد الحياة، ولا عينان تراقب بهما نموّها وحيدة. بل ظهرت العمارة غير ذات موقع محدّد على حدٍّ سواء. ولا يمكن للمرء أن يتكهّن بمعرفة طبيعة المدينة التي تحيط بها، إن كانت ثمّة مدينة. يمكن للعمارة أن تكون في أيّ مكان من العالم، وفي أيّ زمان غير الزمان الراهن...

راقت هذه الصورة فاليري جيرمين. ولبثت مدّة طويلة من الزمان محتفظة بها على ثلّاجتها مع قوائم التبضّع والقوائم المترتّبة الدفع وحسابات السعرات الحراريّة وإيصالات الموادّ الغذائيّة وبطاقات الإجازات البريديّة والصور التي كان رسمها أطفالها. ثم كبر الأطفال، وتقدّمت بها السنّ، وضاعت منها صورة قصر الحلوى في وقت ما، وفي مكان ما.

Twitter: @ketab_n

واليـــــوم..

شقّة رقم ٣

مصفّفا الشعر جمال وجلال

ـ آه، يا الله! ما الذي فعلناه حتى نستحقّ هذه الرائحة؟ إنّنا نعيش في الزبالة حقًّا. ولن يمضي وقت طويل حتى نبدأ النبش من حولنا مثل الديكة.

لم يكن مَنْ تفوّه بتلك الكلمات سوى جمال، الذي كلّما نطق بشيء ما في دار التجميل تعقبه ضحكات أنثويّة، بعضها حقيقيّ وبعضها الآخر مجاملة. غير أنّ الحالة لم تكن كذلك في هذه المرّة، بل على العكس، إذْ ما إن توقّف حتى غشي المكان صمت ثقيل.

حالات الصمت المطبق في هذا المكان نادرة ندرة الياقوت، إذْ لا بد أن تتوقّف أصوات الشارع الكثيرة توقّفًا إعجازيًّا مصادفةً، إذا ما أُريد للصمت أن يشيع هنا. ومن تلك الأصوات أبواق السيّارات التي تفلق الآذان، والمنبعثة من سيّارات تنعطف إلى شارع الجبل لتتفادى الازدحام الذي تكتظّ به الجادّة، لتعرقل طريق المرور هنا أيضًا، وزعيق كلّ من بائع البطّيخ الأحمر من وراء منصّته قرب الناصية، ومنافسه الذي يطوف في أرجاء الحيّ في شاحنته الصغيرة المتهالكة (التي يمكن سماع مكبّر

Twitter: @ketab_n

صوتها من المكان نفسه كلّ عشرين دقيقة)... ولا يغيب عن الذهن صياح الأطفال الذين يملأون ساحة اللَّعب المحصورة بين عمارتين سكنيّتين، وتتألَّف من أرجوحتين ونوّاسة واحدة وزلّاقة معدنيّة مخلّعة تُحرق أرداف أولئك الذين ينزلقون من فوقها إذا ما اشتدَّت حرارتها تحت لهيب الشمس... يتعيَّن على كلّ هذه الجماعات أن تتّفق بينها على الامتثال للصمت في آن واحد!

مثلما أنّ مصادر الضوضاء داخل دار التجميل كثيرة كثرة تلك الضوضاء القادمة من العالم الخارجي، فإنَّ الصمت الحقيقيّ يتطلّب وقوع عدد من الحوادث الاستثنائيّة تمامًا، حتى إن كان ذلك الصمت قصير الأمد. فينبغي للتلفاز الذي يعرض على الدوام قناة الموسيقى نفسها في ركن دار التجميل أن يصمت حتى ولو للحظة واحدة ـ وهو ما لا يحدث مصادفة إلّا في غضون بضع دقائق عندما تُطفأ الأنوار لموت المولِّد الكهربائيّ، أو تكون إحدى الزبونات قد جلست عن غير عمد على جهاز التحكُّم عن بُعد. وإذا ما أُريد للصمت الحقيقيّ أن يشيع في دار التجميل، لا بد أن يتوقّف كلّ شيء في الوقت نفسه، وفي المقدِّمة جمال، الذي يتعيَّن عليه التوقّف عن الكلام: الهواء المنبعث من أجهزة تجفيف الشعر الصغيرة، والطنين الرتيب لأجهزة التجفيف الكبيرة الموضوعة على رأس كلّ زبونة، وكأنّها عمامة شفّافة من عمامات صدر أعظم، وفوران السَّماور المستمرّ في المطبخ، وأزيز مروحة السقف، وفرقعة صحائف الألومنيوم الملتفّة الواحدة من فوق الأخرى المستخدمة لتلوين الشعر وإبراز خصلاته، وتساقط الماء عندما يحين الوقت لغسل الشعر، ونكد زبونة وجدت الماء المبتلّ به شعرها بغتة إمّا شديد الحرارة أو شديد البرودة، وصوت مبرد الأظافر المخدّش للمشاعر، وأزيز الشمع الصادر من حجرة إزالة شعر الجسم، وحفيف المكنسة الذي يترامى إلى المسامع من دون انقطاع عندما يُكنس الشعر المقصوص،

Twitter: @ketab_n

والدردشة التي تتناوب بين مدٍّ وجزرٍ مع انضمام مشاركين آخرين، وهي دردشة لا تنتهي ولا تكتمل.

إلّا أنّ العالم مملوء بالمعجزات، قصر الحلوى في أقلّ تقدير. فعلى حين بغتة، تحتشد الغرفة بسحب كثيفة ومفاجئة من الصمت لا سبيل إلى معرفة مصدرها، قادمة من النوافذ الواسعة، لتنتشر، مثل كاتم، انتشارًا لطيفًا من فوق كلّ مصادر الضوضاء. في ذلك الصمت الذي لا تشوبه شائبة، تنهّد جلال، مصفِّف الشعر الثاني في دار التجميل، تنهيدة تنطوي على الشكر والعرفان. فهو لم يرقه قطّ الضجيج والجلبة، أو الحديث الصخّاب الذي يتواصل ليلاً ونهارًا ولا يملك شيئًا كي يحول من دونه. على أيِّ حال، إنّ من تسبَّب في هذه الضوضاء المزعجة والمتعبة ينبغي له أن يتعذَّب طوال النهار، ولم يكن سوى شقيقه التوأم الذي وُلد من البيضة نفسها مثلما وُلد منها هو نفسه. كان جمال كثير الكلام، ولديه رغبة عارمة في الكلام، مثلما لديه موضوع جاهز ليتحدّث عنه. كان يتحدّث إلى الزبونات طوال اليوم (من دون أن يرعوي بسبب لكنته عندما يرطن بالتركيّة التي لم يتمكّن حتى الآن من التخلُّص منها)، لا تغيب عينه عن التلفاز كي يسبّ ويشتم كلّ مقطع موسيقيّ، ويؤنّب من دون توقّف المصفِّفين المبتدئين، ويسترق السمع إلى أحاديث الآخرين كي يضيف جدارته التي لا تتجاوز ملِّيمين اثنين. كان يفعل هذه الأشياء كلّها في وقت واحد، وليس على نحو منتظم.

على الرّغم من ذلك، لم يستطع جلال أن يغضب منه، لأنّه شأن العديد ممّن يؤمنون بأنّ طفولة الأخ الأصغر أشدّ صعوبة من طفولة الآخرين، كان قد رعى حبًّا دقيقًا نحو شقيقه الذي يصغره بثلاث دقائق ونصف الدقيقة. وانفصل الشقيقان أحدهما عن الآخر في طفولتهما، فبقي جلال في القرية صحبة أمِّه، في رحم خانق ولكنَّه ودود، محدود ولكنَّه محميٌّ، دائمًا في المكان الذي ينتمي إليه، بجذوره وفي نطاقها.

Twitter: @ketab_n

أمّا جمال، فقد رحل إلى أستراليا رفقة والده، إلى عالم لا رادع فيه ولا حماية. لا حدود له، ولكنَّه منعزل تمامًا. يتواصل بلغة مغتربة. رحّالة إلى حدٍّ ما، لا يعرف له مستقرًا. ولدى عودة جمال غير المتوقَّعة إلى تركيا، التقى طريقهما المفترق افتراقًا قاسيًا من جديد بعد أن أمضيا شبابهما منفصلين عن بعضهما بعضًا. واعتقد أقرباؤهما كلّهم أنّ سبب هذه العودة المفاجئة لا يمكن أن يخرج عن «الحنين إلى الوطن»، ولهذا السبب غفروا لجمال عدم رجوعه منذ سنوات لحضور جنازة أمِّه. الحقّ، أنّ سير الأحوال في بلد من البلدان دائمًا ما تُصلِّح إصلاحًا من غير براعة بتصوُّرات مواطنيها. فمواطنو الأقطار الأقلّ نموًّا ينحون أن يحبّوا أولئك الذين ينفقون سنوات في بلد متقدِّم، وعلى الرّغم من امتلاكهم الخيار في البقاء في ذلك البلد، إلّا أنّهم بدلاً من ذلك يأتون للعيش معهم. وقد استفاد جمال أيضًا بعد رجوعه إلى اسطنبول مباشرة من الحبِّ المميّز المحفوظ لناس مثل النصارى المهتدين إلى الإسلام، والأجانب الذين يستقرُّون في تركيا، والسيّاح الذين يمضون إجازاتهم هنا في كلّ عام.. والأهمّ من هذا كلّه، العروسات الغربيّات المتزوِّجات من أتراك، اللواتي يرغبن في إطلاق أسماء تركيّة على أطفالهنّ.

إذا كانت الأمور على هذا الحال، فإنَّ جمال كان ينظر إلى أستراليا على أنّها بلده، فضلاً عن أنّها لم ترق كثيرًا في عينيه تركيا أو الأتراك، وبخاصّة النساء التركيَّات! فهنّ يتركن مناكبهنّ الضيِّقة وأردافهنّ وأجسامهنّ الضخمة تزداد ضخامة في إهمال من القمَّة إلى أخمص القدمين، حتى أصبحت كلّ واحدة منهنّ كمثرى صغيرة مجعَّدة. يُضاف إلى هذا، أنّهنّ متحفِّظات بشأن شعرهنّ تحفُّظًا شديدًا! فالألوان نفسها والقصَّات نفسها. إنّه لم يصادف حتى اليوم امرأة تركيّة تطلب أن تكون قصَّة شعرها قصيرة مثل شعر الرجال. يبدو الأمر في غاية الغرابة مع

Twitter: @ketab_n

أولئك النسوة اللواتي لا يمكنهنّ التسامح مع وجود شعرة واحدة على أجسادهنّ، في حين لا يقدرن على المجيء إلى هنا لقصّ شعرهنّ قصّة قصيرة. آه، لا. لم يكن جمال سعيدًا في هذا المكان. السبب الوحيد الذي جعله لا يحزم حقائبه ويغادر في هذه اللحظة ذاتها هو أنّه كان يعلم علم اليقين أنّ توأمه كان مسمَّرًا في تركيا. الحقّ، أنّ جمال كان يعيش في تركيا من أجل نصفه الآخر، الشخص الذي انفصل عنه بحرف واحد من حروف الأبجديّة، الانتهاك الصارخ في روحه المتحيِّرة جدًّا. وفكّر لو كان في وسعه أن يُبعد توأمه عن هذا البلد، لتمكّن من أخذه إلى أستراليا. على أيّ حال، كان في وسع جمال أن يدرك من صميم قلبه أنّ جلال لن يذهب معه، وحتى إذا ما ذهب، فإنّه لن يستطيع العيش في أيّ مكان آخر سوى بلده. لهذا لم يكن لديه أيّ خيار غير أن يوضّب حاجياته وجميع مقتنياته ومدّخراته، ويأتي للاستقرار في اسطنبول بعد كلّ هذه السنين.

أمّا جلال، فعلى الرّغم من أنّه لا يستطيع أبدًا الاعتراف بهذا أمام أيّ شخص، إلّا أنّ حزنًا عميقًا غشيه في اللحظة التي التمّ فيها شمله وشقيقه التوأم. فعندما وقف في مبنى المطار الدولي، حدّق دَهِشًا ومبهوتًا أوّل الأمر، ثم في حرج ثانيًا، إلى الرجل ذي الشعر الجعد والأنف الكبير والكرش الضخم وهو يركض نحوه باسطًا ذراعيه، يصيح صيحات تعبِّر عن النشوة والفرح. كانت ثيابه غريبة تمامًا ــ قميص قطنيّ مزيَّن بحيوانات الكنغر، وبنطال قصير أخضر اللون مثل ثمرة البقليّات، وصندل جلدي يكشف عن قدميه المتورِّدتين والكثيفتي الشعر تمامًا ــ حركاته تتدفّق حيويّة ونشاطًا، مشيرًا بيديه عشرات الإشارات كي يتفوّه بكلمة واحدة، ومصطدمًا بالناس على الدوام، ويقلب الأشياء في طريقه، كثرة كلامه نادرًا ما كانت مبعث دهشة، وراح يطلق الوعود شَهِقًا أنّهما لن يفترقا مرّة أخرى، زاعقًا بعينين تترقرقان بالدمع كاشفًا عن

Twitter: @ketab_n

خطط ساذجة، و، يا للعنة، من دون أن يسكت أبدًا. وإذا ما أخذ المرء كلّ ما كان يقوله على محمل الجدّ، فيظهر أنّه كان يريد استخدام المال الذي أتى به رأس مال في جهد مشترك. وفي خضمّ العناق الدببي والقبلات الدبقة، لوّح بذراعيه يمينًا وشمالاً مثل لاعب بهلوان عديم الخبرة، يسير من فوق حبل مشدود محاولاً أن يستعيد توازنه حتى يظلّ على الحبل، مناديًا في وسط المطار: «ها هما أروع توأمين! لا يهمّ حقًّا ماذا تفعل، ما دمنا لن نفترق ثانية.. فإذا نجحنا، فسوف ننجح معًا، وإذا متنا، فسوف نموت معًا!

عند الحديث عن الموت، شعر جلال في غمرة ارتباكه وكأنّه راح حقًّا يحتضر، وتمنّى سرًّا أن يختفي من على وجه البسيطة إن كان الاختفاء من المطار خيارًا صعبًا. غير أنّه بدلاً من ذلك، وجد أنّ كلّ ما في وسعه أن يفعله هو أن يراقب بهِتًا بهْتًا شديدًا، وقلقًا أشدّ من ذلك، هذه النسخة غير المألوفة والأكثر غرابة من الغريب، المأخوذة عنه.

على الرّغم من أنّ جلال لم يكن من النمط الذي يتورَّط في أعمال تجاريّة تنطوي على المخاطرة، إلّا أنّ حماسة توأمه لا بدّ قد ليَّنت قلبه، لأنّه لم يتمكَّن من إبداء مقاومة شديدة. وعندما آن الأوان لكي يفكِّر في نوع العمل المشترك الذي يمكن أن يعثرا عليه، كانت في انتظارهما حقيقة مفاجئة: ففي المدَّة الزمنيّة التي كانا مفترقين، لا يعرف أحدهما ما يفعله الآخر، امتهنا المهنة نفسها، وإن كان ذلك لأسباب مختلفة وفي أماكن مختلفة. كان جلال مصفِّف شعر، وكان جمال قد أنفق بعض السنين في محلّ حلاقة مشترك لكِلاَ الجنسين. وسرعان ما ضاعفت هذه المصادفة بِشر جمال وسروره اللذين لا سبيل لكبح جماحهما، فما كان منه إلّا أن هتف بفخر واعتزاز: «مصفِّفا شعر توأمان!» ثم ردَّد بانفعال أشدّ كأنّه يعبِّر عن شيء مختلف: «توأمان مصفّفا شعر!»؛ وإذا ما رنا المرء إلى حالة الرضى والاطمئنان البادية على وجهه، لتخيَّل أنّ كلّ

Twitter: @ketab_n

أمنية من الأمنيات المدوَّنة على قائمة أمنياته قد تحقَّقت. وفي حين راح شقيقه الخامل يحسب «الإيجابيّات» و«السلبيّات» في افتتاح دار تجميل، كان جمال قد تبنّى المشروع، وبدأ يبحث عن مكان له. ولم يهتمّ كثيرًا بسبب عدم معرفته أيّ شيء عن مدينة اسطنبول، بل اندفع ليعثر على مكان بنفسه، وقبل أن يمضي أسبوع واحد كان قد استأجر شقّة، ودفع إيجار سنة مقدَّمًا. وكانت تلك الشقَّة في واحد من المباني العديدة التي شُيِّدت على نحو غير قانوني على سهول منحدرة تطلّ على البوسفور، وتحظى بإطلالة مدهشة على المضيق. إلَّا أنّ جلال بذل قصارى جهده عبثًا في اللحظة التي رأى الشقّة كي يوضح لشقيقه التوأم أنّ المنظر العام الذي يمكنه أن يقول إنّه السبب الرئيس الذي دفع بتوأمه إلى استئجار المكان ما من شأنّه أن يعني شيئًا لزبائنهما المستقبليِّين.

غير أنّهما انتقلا إلى ذلك المكان على أيّ حال. ولبثا من دون زبائن على مدى أشهر؛ ثم هطلت الأمطار غزيرة وفاضت الحجرة الرئيسة، أربع مرّات بالمياه، ومرّة واحدة بمخلوقات عرفا من الآثار التي خلَّفتها أنّها كانت قطط الشوارع. وفي نهاية الشهر الخامس، أزالا القاذورات وجمعا ما تبقَّى لديهما من المال الذي استثمره جمال استثمارًا متعجِّلاً، وما تبقّى من أثاث مبلّل ومغطّى بالشعر، وقرّرا أن يحاولا من جديد ـ لكن تقرّر أن يختار جلال بنفسه المنطقة هذه المرّة. وبعد بحث دام مدّة طويلة من الزمان، وازن فيه بعناية كلّ الخيارات المطروحة في ظلّ تلك الظروف، قرَّ رأيه على الشقّة الكائنة في طبقة الحديقة من مبنًى سكني شاحب اللون، قديم البناء إلى حدٍّ ما، يفتقر إلى الترتيب، ولكنَّه كان، على ما يبدو، مبنًى سكنيًّا عظيمًا في يوم من الأيّام، ويقع في حيٍّ سكنيٍّ تدبُّ فيه الحياة نوعًا ما، وعلى شارع مطروق يمتدّ إلى جادّة مزدحمة يكثر فيها المرور.

قال جمال في اليوم الأوّل من عملهما هنا:

Twitter: @ketab_n

ـ يا له من أمر غريب! صحيح؟ فأنا مهذار لا أتوقّف عن الكلام، غير أنّني عثرت على مكان في حيّ هامد لا روح فيه ولا حياة. أمّا أنت، فهادئ على الدوام، بيد أنّك على الرّغم من ذلك، اخترت مثل هذا المكان كثير الصخب. إذن، نحن لا نناقض بعضنا بعضًا فحسب، بل نناقض نفسينا أيضًا!

ومع ذلك، فإنَّ شخصيّتيهما المتناقضتين لم تنعكس في الصورة ذات البعدين المتمثّلين بخمسين سنتمترًا عرضًا وستّين سنتمترًا طولاً، المكبّرة والمؤطّرة عند المدخل بناءً على إصرار جمال، التي التقطت في «مسابقة مصفّفي الشعر السنويّة التاسعة عشرة لمنطقة مرمرة»، وكانا قد اشتركا فيها قبل ثلاثة أعوام. في ذلك اليوم، وعلى الرّغم من أنّ جلال ربح قميصًا قطنيًّا وعليه صورة ببّغاء جزريّ اللون، وربح جلال قميصًا خشن الملمس ذا لون أخضر ضارب إلى الزيتونيّ، وكان الأمر قد انتهى بكليهما وهما يتنافسان بالنموذج نفسه للشعر، إلّا أنّهما أُقصيا في المراحل قبل النهائيّة. كانت قصّة الشعر التي يهواها كلاهما أكثر من غيرها متمثّلة بخصلة شعر ذات لون نحاسيّ معقودة عند مؤخّر العنق بضفيرة سميكة ومربوطة ربطًا خفيفًا في هيأة كعكة. كان التشابه بين صورتيهما، وهما يصفّفان الشعر بالقصّة نفسها لعارضتين مختلفتين وفي وقتين متباينين، مذهلاً. وأحبّت الزبونات النظر باستمرار إلى الصورتين في محاولة منهنّ للعثور على الفروقات الكائنة بينهما، صورة في إثر صورة مرارًا وتكرارًا. إنّ التكرار جزء لا يتجزّأ من دور التجميل، حيث يكرّر كلّ شيء وكلّ فرد نفسه تكرارًا صارمًا. والزمان الذي يسارع خطاه في الخارج يغدو مرنًا هنا عند خفضه سرعته؛ وكما هو شأن العلكة القذرة الملتصقة بأسفل الحذاء، فإنَّ الزمان هنا يطول إذا ما سُحب، يطول إذا ما سُحب، ويطول. . . إنّ أفضل ما في التكرار يتمثّل في الألفة التي ينطوي عليها. فإذا ما أُحيط المرء بالتكرار، فإنّه يشعر بالأمن

Twitter: @ketab_n

والأمان، وكأنّه في مكان معروف جيِّدًا، وفي وسط رفاق قدامى. ويدين مصفِّفو شعر النساء في كِلال أبدانهم وخمول أذهانهم، وهما من الصفات التي لا تكون عادة موضع ترحيب في أيّ مكان آخر من أماكن العمل، إلى دوران عجلة التكرار عندهم من دون توقّف أو انقطاع. فكلّ ما تفعله الزبونات هنا لم تفعلنه على وجه التوكيد مرَّات ومرّات فحسب، بل قادرات على فعله أيضًا، وتكراره عددًا من المرّات التي لا تُعدّ ولا تُحصى في المستقبل. وعلى الرّغم من تماثل كلّ الكتب المصوّرة في دار التجميل، إلَّا أنّ كلّ كتاب منها يبقى موضع نظر مرارًا وتكرارًا. والمجلَّات النسائيّة التي تتنقّل من يد إلى أخرى، لا تُقرأ أبدًا حتى نهايتها، بل تُقلَّب صفحاتها تقلُّبًا متوحِّدًا يوقع الكآبة في النفس لا غير. ولا تشعر أيّ واحدة بأيّ ضرر إذا ما عادت إلى الصفحات السابقة مرّة في أثر مرّة. والنساء الجالسات أمام المرآة تواصل إحداهنّ تفحُّص الأخرى. ويستمرّ الحال على هذا النحو، حتى لو لم يكن ثمّة تغيُّر في مظهر المرأة الأخرى بين اللمحة الأولى واللمحة الثانية. كما لا تُقرأ الصحف صفحة فصفحة، بل تمرُّ عليها العينان مرورًا عابرًا دائمًا بدلاً من ذلك. والشاي الذي يُقدَّم لهنَّ يظلّ نصفه من دون أن تحتسيه أيّ واحدة منهنّ، فيبرد، ويُعاد ملؤه مجدَّدًا، ويبقى نصفه في الكوب ليبرد مرّة أخرى. والأحاديث المتّصلة تنقطع هنا وهناك، وتتغيَّر الموضوعات، ويتكرّر الحديث عن الأشياء نفسها، وتظهر أشرطة الموسيقى على التلفاز فتحظى بمشاهدة متقطّعة، وتخضع الأغاني نفسها والمغنِّين نفسهم إلى التدقيق والملاحظة مرّة بعد أخرى. الحياة سلسلة من التكرار المتواصل بلا بداية ولا نهاية. وإذا كان للعالم قعر يمكن الوصول إليه، وليوم الدينونة موعد متوقّف، فإنَّ في وسعك أن تكون متأكِّدًا من أنّ إسرافيل لن ينفخ في الصور في وقت تكون جالسًا في دار التجميل. يمكن لهزّة أرضيّة أن تحدث في اسطنبول في أيِّ وقت، في

Twitter: @ketab_n

أيِّ ثانية، ولكنَّها لن تحدث عندما تكون في دار التجميل على وجه التوكيد. ليس فيها.

كان العثور على الفروق بين الصورتين المعلَّقتين على الجدار متعة متكرِّرة للزبونات. فلنظرة الأنثى ميلٌ إلى تحديد الفروقات قبل التشابهات. أطلعْ رجلاً مدّة ثلاث ثوان على صورة خمس عارضات شابّات جميلات بملابس سباحة زرقاء اللون وبقصّات شعر بهيأة ذيل الحصان، وهنّ واقفات بجانب حوض سباحة. لعلّ ما يراه هذا الرجل في الصورة هو: عارضات أزياء شابّات في غاية الحسن والجمال بقصَّة شعر تشبه ذيل الحصان وبملابس السباحة مضروبة بِ ٥. ثم أطلع امرأة على الصورة نفسها. لعلّ ما تراه فيها هو خمس عارضات أزياء قرب حوض سباحة، تقف بعضهنّ وقفة جيِّدة، بينما لا يقف البعض الآخر منهنَّ وقفة جيِّدة، وبعضهنَّ ذوات قصَّات شعر جيِّدة بهيأة ذيل الحصان، والبعض الآخر ذوات قصّات شعر بهيأة ذيل الحصان ولكنَّها غير جيِّدة. ملابس السباحة الزرقاء تناسب أجساد بعضهنّ على أحسن ما يكون، في حين لا تناسب هذه الملابس الأخريات. كما أنّ بعضهنّ أجمل من البقيّة.

فإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ نظرة الأنثى إلى صورتي جلال وجمال الملتقطتين في مسابقة مصفِّفي الشعر التقليديّة التاسعة عشرة لمنطقة مرمرة، ستجد صعوبة فائقة في العثور على الفروق الدقيقة. وإذا ما تركنا الثياب جانبًا وملحقات جمال الفضِّيّة الزائدة، فإنّهما صورتان متشابهتان حتى في التعابير الواضحة على وجهيهما. فمن طريقة مَيلان رأسيهما نحو أحد جانبيّ الزاوية التي مالا فيها من فوق العارضات اللواتي صفَّفا شعرهنّ، ومن الطريقة التي عقدا فيها حواجبهما لتوكيد مدى الجدِّيّة التي كانا يأخذان بها ما يقومان به، إلى الطريقة التي كانا يحنّيان فيها أصابعهما... ومع هذا، فثمّة فارق طفيف لا يغيب عن العين، وهو أنّ

Twitter: @ketab_n

جمال كان يعضّ قليلاً على شفته السفلى ـ ربّما لأنّه كان يعلم أنّه ليس مصفِّف شعر بجودة أخيه، أو أنّه ليس كما كان يظنّ مغرمًا بكعكة الشعر ذات الضفيرة السميكة وخصلة الشعر النحاسيّ الملتفَّة من مؤخِّرة العنق. على نحو مغاير، لعلّ كلّ ما كان يستطيع التفكير فيه في تلك اللحظة هو إنهاء ما كان يفعله، كي يتمكّن من الذهاب والحصول على شيء ما يأكله. أمّا كيف تمكّن جمال بولعه الشديد بالطعام، وعدم توقّفه عن استهلاك كلّ أنواع المعجّنات منذ رجوعه إلى تركيا، من الاحتفاظ بالقوام نفسه الذي كان عليه جلال، الذي كان يأكل قليلاً قلّة أكل عصفور، ويعيش أساسًا على طبق من الشوربة، فذلك لغز من الألغاز، لم تعتقد حتى زبونات دار التجميل المنتظمات أنّهنّ قادرات على حلّه.

غير أنّ أوجه الشبه بين التوأمين تنتهي عندما يفكِّر المرء بالأسلوب الذي ينفِّذ فيه كلّ واحد منهما عديد المهامّ التي تتضمّنها مهنيّتهما. لهذا السبب، اختلفت زبونات جمال عن زبونات جلال. صحيح أنّ زبونة معيَّنة كانت تفضِّل في يوم ما أحد التوأمين على التوأم الآخر الذي كان يمثِّل خيارها الدائم. وكانت حتى الزبونات، اللواتي يعشقن الكلام مع جمال كلامًا عقيمًا غير ذي جدوى، تستوثقن أحيانًا من أنّ جلال هو الذي سيصفِّف شعرهنّ. وعندما يتعلَّق الأمر بأيّام مهمَّة مثل أيّام الخطوبة والزفاف والاحتفالات وغيرها من المواعيد التي لا غنًى عنها، فإنَّ الزبونات أجمعين كنّ يفضِّلن جلال. يضاف إلى هذه المناسبات الخاصّة، فإنّه كان أيضًا الخيار الذي لا يخطئ في الحالات الطارئة. أمّا اللواتي أفسدن شعرهنّ في البيت، وانتهى بهنّ المطاف إلى قصِّه قصيرًا ورثًّا، فيظهرن وكأنّ البرق أصابهنّ بسبب تجعيدة شعر رخيصة، تتحوَّل إلى عشّ عصفور مخضّب بلون شرّابة الذرة، عندما يحاولن تخفيفه بمادّة قاصرة أو تجفيفه بعلاجات شعبيّة سمعن بها نقلاً عن الأفواه... شعر صُفِّف نهارًا وكُره ليلاً، وضُحِّي به في تجارب قاصرة

Twitter: @ketab_n

يجرِّبها مصفِّفو شعر مبتدئون. . . كانت كلّ هذه الحالات الكارثيّة تُحال إلى يديْ جلال الماهرتين. في مثل هذه الحالات الصعبة، كان طبعه الهادئ الذي لم يكن ليشبه بأيِّ حالٍ من الأحوال طبع أخيه، يفعل فعله، مساعدًا إيّاه على أن يهدِّئ أشدّ الزبونات إحساسًا بالضيق والكدر. وكان الاتّفاق سائدًا على أنَّ ما من شعر مهما بلغ به الحال من سوء إلَّا وكان هو منفِّذه. لم تكن ثمّة مشكلة بين الأخوين بخصوص أيَّهما ينبغي له أن يهتمّ بهذه الزبونة أو تلك. ثمّة اتّفاق غير مصرَّح به قائم بينهما أيضًا. فلم يكن أيّ واحد منهما ليشعر بالإهانة ما دام توزيع الأدوار المتّفق عليه يظلّ سليمًا. وكانا في معظم الأوقات يفهمان سبب قلق أيّ امرأة بعد دقيقتين من دخولها الباب، فيلقيان عليها بالتحيّة على هذا الأساس. وإذا ما دخلت الزبونة متخبِّطة ومرتبكة، فتقرع الأجراس المثبّتة على الباب، ولاحت على وجهها نظرة يائسة، فإنَّ جلال يرحِّب بها، ويقدِّر في الوقت نفسه حجم المشكلة التي تنتظره. في هذه الأثناء، يأتي دور جمال في الترحيب بالزبونات اللواتي لا تستدعي حالاتهنّ أيّ عجالة. فيتوقّف عن الكلام الذي يتفوّه به على الأرجح، وينحني إلى الأمام مرحِّبًا بالزبونة بمستويات من الأدب لم يتمكّنّ قطّ من إتقانها. وإذا ما كانت الزبونة من معارفه، فإنّه لا ينسى التفوّه ببعض كلمات العتب، بسبب طول المدّة التي انقضت منذ رؤيتها آخر مرّة. وإذا كان الأمر متروكًا لجمال، فإنَّ من شأنه أن يطلب من كلّ امرأة أن تنفق ساعة على الأقلّ يوميًّا في دار التجميل.

غير أنّ ثمّة امرأة واحدة لم يصفّف شعرها منذ البداية سوى جلال وحده ـ امرأة تستمتع بالصمت الذي يغشى الدار قدر ما يغشاه، وهي السيِّدة العمّة. كانت هذه المرأة العجوز الضئيلة الجسم التي تسكن وحيدة في الطبقة العليا من قصر الحلوى وفي الشقّة رقم ١٠، تأتي مرّة واحدة كلّ أسبوعين بكلّ توكيد لتشذيب شعرها القليل والخفيف، ومرّة

Twitter: @ketab_n

واحدة في كلّ شهر لتخضيبه باللون الأصفر البلاتينيّ. غير أنّ ذلك اللون بات مصدر ضيق الزبونات المنتظمات اللواتي يأتين إلى دار التجميل وبلسمًا لألسنتهنّ. فقد كنّ يعتقدن أنّها بلغت من الكِبَر سنًّا لا يناسبها فيه استخدام اللون الأصفر البلاتينيّ أو أنّ اللون الأصفر البلاتينيّ لا يناسب سنّها. كانت في سنّ الثامنة والسبعين، سنّ لا تلائمها كي تكون شقراء. وفي ضوء استمرار اختيارها أن تكون شقراء، فقد سادت فكرة مفادها وجوب أن تزيل عنها تلك المسحة الجادّة، وألَّا تكون بهذه الصرامة أو مثل هذا النموذج للوقار. وإذا ما اختارت أن تكون امرأة فطنة، مضحكة قليلاً على الأقلّ، كثيرة الكلام وطلقة المُحيّا، ذات عينين تشعّان بآثار الحياة البوهيميّة التي عاشتها ذات يوم، لا تلتفت إلى المحرَّمات الأخلاقيّة أو إلى ما يقوله أيّ شخص، فإنَّ من شأن شعرها أن يكون مناسبًا لها. لكنْ، ها هي بعيدة البعد كلّه عن كونها امرأة «مكسالة»، مثلما هي بعيدة عن كونها جدّة لائقة مميَّزة، معتدلة وكأنّها مرسومة بمسطرة، ثقيلة وكأنّها حديد الصبّ، والأهمّ من هذا كلّه، شقراء بلاتينيّة، وهو أمر أكبر ممّا تتحمّله زبونات دار التجميل المنتظمات. أكبر ممّا تحمله، لأنّ القواعد واضحة، بيّنة في عالم الألوان وألوان الشعر المشقَّر. إذن، فاللون الأصفر ليس له إلَّا شأن قليل باللياقة وبما هو جدير بالاحترام. وليس في وسع المرأة الشقراء أن تنفذ من هذه القاعدة إلَّا بشرط واحد لا غير: إذا كانت شقراء حقيقيّة! إنّ الأصالة مشكلة حقيقيّة تواجه الشقراوات. أمّا النساء السمراوات وذوات الشعر الأحمر والمهقاوات البشرة، فيمكنهنّ صبغ شعرهنّ كما يشأن وبظلال مختلفة قدر ما يحببن. ومع هذا، لا يجدن أنفسهنّ مضطرّات إلى أن يواجهن خمسين مرّة في اليوم السؤال المتمثّل في مدى طبيعة لون ذلك الشعر. إنّ رغبة المرأة في أن تكون شقراء يهيّئ النساء إلى أن يكنَّ ماكرات خادعات، ويرغمهنّ على الكذب. إلَّا أنّ محاولاتهنّ في

Twitter: @ketab_n

التدليس والخداع سرعان ما تفسد وتُحبط. وفي حين يكنّ منشغلات في إقناع الناس، فإنَّ الحقيقة تكشِّر عن أنيابها تكشيرًا مخاتلاً خبيثًا من جذورهنّ. إنّ الشقرة تجعل المتحمِّس مضلّلاً غير أمين، والأصيل مضادًّا للعرف الاجتماعي، ونافرًا من الاختلاط بالآخرين.

إلَّا أنّ لون شعر السيِّدة العمّة ومساحيق تجميلها، وهي في هذه السنّ، لم يضعفا من احترام من هم من حولها لها، والواضح من اليوم الأوّل أنّها ستكون بوقارها وطبيعتها الهادئة زبونة جلال، وتظلّ هكذا على الدوام. وإذا ما حكمنا على الألق الواضح في عيونهما عندما يلتقي أحدهما الآخر، فإنّهما كانا منسجمين انسجامًا عجيبًا يفوق الوصف، وإن كانت تصعب معرفة الوسيلة التي ربطت بينهما، وبخاصّة أنّهما نادرًا ما فتحا فمويهما للتفوُّه ببضع كلمات. وإذا كان الأمر متروكًا لهما، فإنّه لا بدّ من تقنين الكلمات وتوزيعها شهريًّا على الناس. وعلى كلّ امرئ أن يعرف أنّ الكلمات المنطوقة تشبه ماء الشرب والتربة المحروثة، مصدرًا شحيحًا، كلّما تكلّم المرء نضبت حصّتها المحدودة.

إلَّا أنّ هدوء هذين المحبّيْن للصمت لم يتمكّن من الصمود في عصر هذا اليوم سوى أربع دقائق. فعلى حين بغتة، ارتجّ الباب ورنّ الجرس، إذْ دخلت دار التجميل امرأة شابَّة تخطو خطوات سريعة، ولكنَّها غير متعجِّلة، صحبة صوت بائع البطِّيخ الآلي الذي جعله يبدو وكأنّه يصدر الأوامر. وهنا التفتت ثلاث نساء متكاسلات، من زبونات جمال، وقد رُبطت برقابهنّ ثلاث صدريّات بلاستيكيّة مطرَّزة بالفهود، وهنّ جالسات الواحدة بجوار الأخرى على كراسي دوَّارة أمام المرآة الممتدّة على طول الجدار، وكانت رؤوسهنّ محتشدة باللفافات والدبابيس وقبَّعات الشعر ورقائق الألومنيوم، لمنح القادمة الجديدة نظرة من فوق لتحت. وعندما عرفن من هي، بحبّ استطلاع شديد، رشقنها مرّة أخرى بأنظارهنّ، ولكن من تحت إلى فوق في هذه المرّة. إنّها

Twitter: @ketab_n

لحظة تاريخيّة، لأنّ العشيقة الزرقاء لم تطأ قدماها دار التجميل.

اختلس جلال نظرة إلى الباب، وعاد إلى العمل. في تلك اللحظة، لم يكن مهتمًّا بأيّ شعر سوى شعر صديقته الأصفر البلاتينيّ، ومهما كانت صفة هذه المرأة الشابَّة، فإنّها لم يبدُ عليها أنّها من نموذج زبوناته في كلّ الأحوال. أمّا جمال، فلم يكن غير مهتمّ بها أو لا يعرفها مثل أخيه التوأم، بل على العكس من ذلك، كان قد استخلص معلومات وافية عن العشيقة الزرقاء من الأقاويل التي تتردَّد كثيرًا في دار التجميل، منذ الصباح وحتى هبوط الظلام. فعلى سبيل المثال، عرف أنّها كانت في الثانية والعشرين من عمرها، وترامى إلى مسامعه أنّها رمت بكلّ محتويات كيس النفايات، التي بدلاً من أن ترميها في مكبّ النفايات، راحت ورمت بها على رأس المهاجم الذي ضايقها عند بداية الشارع قبل نحو أسبوعين. يضاف إلى ذلك، ورد إلى سمعه أنّها تعمَّدت المشاجرة مع مدير العمارة المتديِّن تديُّنًا شديدًا حاجّي حاجّي، الذي وزَّع أجور الماء المشترك لسكن العمارة السكنيّة بحسب عدد الأفراد المقيمين في كلّ وحدة سكنيّة، ولكنَّه عدّ سكّان شقَّتها اثنين وليس واحدًا. ولم يكن بالخبر الجديد لدى سكّان العمارة أنّ العشيقة الزرقاء كانت استأجرت الشقَّة رقم ٨ بنفسها، موضحة أنّها سوف تقيم فيها بمفردها، إلَّا أنّ تاجرًا من تجّار زيت الزيتون، متجهّم الوجه، له من العمر ما يكفي لأن يكون والدها، كان يقيم وإيّاها أربعة أيّام في الأسبوع. كان جمال يعرف كلّ هذه التفاصيل، وكان يتحرَّق لمعرفة ما هو أكثر منها.

رشق جمال الزائرة غير المتوقَّعة بنظرة طويلة، بعد أن سلّم فرشاته للمبتدئ ذي البثور، واندفع إلى الباب وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة. نادرًا ما يمكن القول إنّها تملك جسدًا رائعًا، وإذا لم يكن مثل ثمرة كمثري تمامًا، فإنّه ما يزال يشبهها. كانت ترتدي ثوبًا شفّافًا بحمّالتين تخفيان أكثر ممّا ينبغي من جسد عشيقة. غير أنّ ساقيها كانتا

Twitter: @ketab_n

واضحتي المعالم من تحت نور الشمس المتسلّل من الباب الزجاجي، لأنّها لم تكن مرتدية تنُّورة تحتيّة. وبدت كأنّها تريد في الوقت نفسه أن تخفي جسدها وأن تكشفه، أو ربّما كانت مرتبكة لا أكثر.. ووجهها... وجهها كان الجزء الأكثر تشويقًا. فبعض وجوه الناس تشبه المغناطيس المغطّى بالجلد، حيث تكمن كلّ شوارد شخصيّاتهم، حلوها ومرّها، قلبًا وقالبًا. فهم يفكِّرون بوساطة وجوههم؛ يتحدِّثون ويتنزَّهون ويتشاجرون ويجوعون ويشعرون بالسعادة ويحبُّون ويمارسون الحبّ بوساطة وجوههم. أجسادهم ضروريّة، وإن كانت ركائز تفتقر إلى الروعة والعظمة، أُضيفت لكي تحمل وجوههم. إنّ مثل هؤلاء البشر ليسوا سوى وجوه سيَّارة أساسًا، وتبعًا لذلك، لا يمكنهم إخفاء مشاعرهم. أمّا وجه العشيقة الزرقاء الشاحب والصغير، الذي تزيِّنه خزامة لازورديّة، فقد أفصح بوضوح في تلك اللحظة بأنّها كانت تبذل قصارى جهدها كي لا تظهر كدرها. تقدّم جمال خطوة في اتّجاهها، وصافحها، وإن لم تكن تلك عادته، منتهكًا بذلك انتهاكًا صارخًا العرف السائد في الترحيب بالزبونات الذي يتّبعه مصفِّفو شعر النساء. وكما هو شأن المثليِّ الجنس قاطبة، الذين ينسجمون انسجامًا لا يصدَّق ويفوق الوصف مع الجنس الناعم، ولكنَّهم يتهكَّمون عليهم إلى حدٍّ ما، فإنّه كان بدوره مهتمًّا بخاصّة بأولئك النسوة اللواتي تحسدهنّ إلى حدٍ ما وتبغضهنّ إلى حدٍّ آخر غيرهنّ من النساء.

حاولت العشيقة الزرقاء أن تتجاهل النظرات الخبيثة والفضوليّة الموجَّهة إليها من مختلف أركان دار التجميل، فمشت بخطوات سريعة مرتبكة نحو الكرسيّ الدوَّار الذي أشار إليه جمال به. وبينما كانت تتّخذ مقعدها أمام المرآة الطويلة والعريضة رفقة بقيّة النساء، فإنَّ الأنظار الموجَّهة إليها تداخلتِ الواحدة في الأخرى وتضاعفت. الشقراء ذات الحَوَل الطفيف في عينها، والسمراء المذعورة، المفرطة في التدخين،

Twitter: @ketab_n

التي دأبت على نفض أصابع قدميها المشذّبة الأظافر من قطع القطن العالق بها، وصاحبة الشعر الأحمر القصيرة القامة والريّانة الجسد، الجالسة، ومن فوق عينيها خطّان سميكان بلون الجَزَر، وحاجبان بلون شعرها. وأخيرًا، ثمّة سيِّدة عجوز تشبه جنِّيّة في ركن الدار. رحن يحدِّقن إليها وكأنّهنّ ينتظرن التعارف.

شدّ المبتدئ ذو البثور الصدريّةَ البلاستيكيّة المطرَّزة بصور الفهود، والمبقّعة بقعًا لا يمكن التحقّق منها، إلى رقبة العشيقة الزرقاء، وحرص على ألّا يلمسها إلّا قدر المستطاع. حظٌّ سيّئ ومرهق للمبتدئ أن يعمل في دار تجميل في هذه المرحلة الحسَّاسة من عمره، مستمعًا إلى كلّ أنواع النكات البذيئة من النساء عن الأسلوب الذي يكشف فيه وجهه الخطايا التي لا بدّ أنّ يده تقترفها ليلاً. وبينما كان الفتى يعود القهقرى، وهو يخطو خطوات قلقة، لم يتنبّه للقطّ الذي انسلّ من دون صوت من النافذة المفتوحة. وانتقلت العيون كلّها إلى الحيوان، الذي أطلق مواءً عاليًا بعد أن داس المبتدئ على ذيله.

قطّ أسود بلون القارّ، كثيف الشعر، متجهِّم الوجه.. قطّ من تلك القطط التي تنظر إلى أيّ بشر تراه بعينين ضيّقتين، كأنّه ثمّة معركة حامية الوطيس تدور بين القطط والبشر منذ الأزل. ومع هذا، فإنَّ القطّ يلوح من أحد الجوانب جميلاً، على الرّغم من أنّ خصلة الشعر الدائريّة، التي تبدأ من جانبيْ أنفه وتمتدّ إلى أسفل ذقنه، تُظهره وكأنّ شخصًا ما غمسه في طاس لبن.

نادى جمال القطّ بصوت عالٍ، عندما أدرك أنّ العشيقة الزرقاء شغوفة به:

ـ تعال أيّها الزبالة! تعال هنا أيُّها المزعج!

فسألته العشيقة الزرقاء:

Twitter: @ketab_n

ـ لماذا تصف القطّ بالزبالة؟

سرعان ما أدرك القطّ من الذي سيركِّز عليه اهتمامه. فراح يحكّ بدنه بقدميِّ العشيقة الزرقاء التي أمسكت به ورفعته عاليًا، ووجَّهت السؤال نفسه في هذه المرّة إلى القطّ بنبرة عذبة تنقّط حلاوة، تلجأ إليها النساء عندما يُظهرن إعجابهنّ بالأطفال.

ـ لماذا يصفونك بالزبالة؟ أخبرني.. لماذا أيُّها الجميل؟ كيف يمكن للمرء أن يسمِّي مثل هذا القطّ الجميل زبالة؟

قال جمال مبتهجًا:

ـ ربّما لأنّ السيِّد زبالة لا يغادر مكبّ الزبالة.

بعد أن وفَّر القطّ الزبالة موضوعًا للكلام بينه وبين العشيقة الزرقاء، بدا له ذلك القطّ أكثر ظرفًا وجاذبيّة من أيّ وقت مضى، فاسترسل في القول:

ـ يُحتمل أنّه لا يوجد في اسطنبول قاطبة قطّ من قطط الشوارع السائبة محظوظ كهذا القطّ. فهذا القطّ لا يتّصف بجماله البديع. انظري إلى وجهه بحق الله. هل شاهدت يومًا ما قطًّا يملك مثل هذه النظرات القذرة؟ يبدو وكأنّه كان يريد أن يصبح ثعبانًا، ولكنَّه لم يعثر على الجلد المناسب له. ومع هذا، فإنّه ما يزال يجد الوسيلة التي يجعل بها الناس تحبّه. هل يملك سحرًا لا سبيل إلى مقاومته أم ماذا؟ كيف يتمكّن من نيل طعامه من أيّ شخص يزوره؟ لكن هل تظنِّين أنّه يشبع؟ أبدًا! إنّه يأكل حتى يشبع ثم ينتهي به المقام في مملكته: مكبّ الزبالة. أقسم أنّني ما كنت لأصدِّق لولا أنّني رأيته بأمِّ عيني. كنّا قد استأجرنا هذا المكان منذ وقت قصير، وكنّا في خضمِّ الترتيبات النهائيّة، في غاية التعب والإنهاك من كثرة العمل طوال اليوم، وكنّا جائعين مثل الذئاب. فقرَّرنا أن نطلب الطعام من مطعم الدجاج.

Twitter: @ketab_n

أنتِ تعرفين كم هي كبيرة الوجبة التي يقدِّمها المطعم. صحيح؟ رُزّ وسَلَطة وبطاطس مقليّة؛ كمّيّة كبيرة جدًّا. حسنًا، لننتقل إلى المطاردة. فقد حدث سوء فهم، إذ إنّ أهل المطعم أرسلوا لنا دجاجة إضافيّة. غير أنّنا لم نعدها إليهم لاعتقادنا أنّنا في وسعنا أن نأكلها هي الأخرى. إلّا أنّنا لم نستطع، إذ قلَّما استطاع أيٌّ واحدٍ منّا أن يُكمل أكل الطعام الذي أمامه، وبخاصّة جلال، إذْ راح يلتقط منه التقاط طائر. وبينما نحن منهمكون في تناول الطعام، احزروا من الذي اشتمَّ الرائحة وجاء إلينا؟ في ذلك الوقت، لم أعرف أنّهم كانوا يسمُّونه «زبالة»، غير أنّه جاء إلينا مباشرة يستجدي الطعام استجداءً، حتى ليُخيَّل إليك أنّ المسكين كان يتضوَّر جوعًا منذ أيّام. فما كان منا إلَّا أن وضعنا الدجاجة الإضافيّة أمامه، وإذا كنت كاذبًا، فلتحلّ عليّ لعنة الله، إذْ إنّه التهم تلك الدجاجة التهامًا وحشيًّا حتى لتظنّ أنّ مجموعة من كلاب الدوبرمان[1] كانت تطارده. لم يترك عظمة واحدة من خلفه. هل تتخيَّلين؟ لقد التهم طبق الدجاج بأكمله أمام أعيننا. لنعد الآن إلى «نبيّ القطط» الذي يقيم في الشقّة رقم ٢. هل سمعت باسمه؟ مجنون آخر! فهو يملك زهاء عشرين أو ثلاثين هرًّا. شقَّته تفوح منها رائحة بول القطط. ومع ذلك، فإنَّ تلك الرائحة أفضل من رائحة هذا «الزبالة» النتن. كنّا نتحدَّث عن ذلك قبل مجيئك. كنت أقول لجلال قبل قليل إنّنا نعيش في مكان تكثر فيه الزبالة، وسرعان ما سوف نلتقط منها الطعام وكأنّنا دِيَكة. صحيح يا جلال؟

هزَّ جلال رأسه موافقًا.

---

(١) الدوبرمان Doberman: كلب كبير الحجم إلى حدٍّ ما، ألماني الأصل والنشأة، يتّصف بصوفه الأسود عادة، القصير والناعم الملمس. الاسم مأخوذ أصلاً من لودفيغ دوبرمان مربّي الكلاب الألماني المعروف في القرن التاسع عشر، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ـ بعد كلّ ما التهمه سيّد زبالة هنا، توجَّه إلى طعام القطط عند نبيّ القطط، لكن يبدو أنّ عشيرة القطط ضربته ضربًا مبرّحًا ما دفعه إلى العودة إلينا وذيله بين قائمتيه يستجدي فضلات طعامنا. فما كان منّا إلّا أنّ قدَّمنا له البطاطس المقليّة التي تظاهر بأنّها لا تروقه، غير أنّه أتى عليها بالرّغم من ذلك. وعندئذٍ توقّفنا كلّنا عن العمل لنراقب الحيوان، ووضعنا رهانًا على الوقت الذي سوف ينفجر فيه.

لم تصطفّ النساء وحدهنّ قرب المرآة، بل انضمَّ إليهنّ مشذّبة الأظافر والمبتدئون الذين كانوا سمعوا هذه الحكاية أربعين مرّة على الأقلّ، فكانوا كلّهم آذانًا صاغية لجمال. قد لا يكون جمال مصفّف شعر ممتازًا مثل أخيه، لكن عندما يتعلَّق الأمر بالثرثرة، فإنّه يهزم الكلّ شرّ هزيمة. كانت ملكته اللسانيّة مدهشة. وإذا ما خرج من هنا، وأُنزل في بلد لا يستطيع أن يعثر عليه حتى على الخارطة، فإنّه سوف يتعلّم لغة ذلك البلد في لمح البصر كي يفهم ما يُقال من حوله. كما أنّه في غضون خمسة أعوام لا غير تمكّن من إصلاح لغته التركيّة التي كانت قد فقدت بريقها أثناء السنوات الطويلة التي أمضاها في أستراليا، وصقلها صقلاً جيِّدًا حتى باتت جديدة، إلّا أنّ مشكلته الوحيدة تمثَّلت في لكنته التحذيريّة. غير أنّ جلال لم يكن متيقّنًا إن كان شقيقه التوأم الذي يصغره بثلاث دقائق ونصف الدقيقة قد أخفق حقًّا في التخلُّص من لكنته، أم أنّه تعمّد الاحتفاظ بها، معتقدًا أنّ الزبونات معجبات بها.

ـ لقد أكل واستمرّ في الأكل، ثم نهض يتمطّى، وتحوّل الحيوان إلى بطن عملاقة! ولم يتمكّن حتى من السير على قوائمه، فكان يجرّ من ورائه تلك البطن. واندفعنا نحوه، وتبعناه إلى الخارج حيث وثب على جدار هذه الحديقة الجانبيّة... يا لها من وثبة! فقد ازداد ثقله ازديادًا، فتعثّر بمعدته.وكاد أن يسقط على الأرض. وساورنا الظنّ بأنّه سوف ينكفئ في مكان ما، وينام يومين متتاليين في أقلّ تقدير.

Twitter: @ketab_n

لكنْ ـ لا يُصدَّق! فعوضًا عن ذلك، قفز إلى الجهة الأخرى من الجدار. أتعرفين بأمر تلك الأكياس البلاستيكيّة التي يرميها الناس هناك؟ واأسفاه.. إنّنا نعيش في مكبّ نفايات! لقد عثر هذا القطّ على مجموعة من رؤوس الأسماك. صدِّقيني.. ليست لديَّ أدنى فكرة ما الذي كان في إمكانه أن يأكله في ذلك اليوم. أُصبنا بالغثيان ونحن نراقبه، كما تعرفين. أقسم لك أنّني أُصبت بالذعر والفزع من هذا القطّ منذ ذلك اليوم. لقد طرق سمعنا الشيء الكثير عن القطط تأكل أصحابها عندما يطغى عليها الجوع، أمّا هذا «الزبالة»، فإنَّ في وسعه أن يلتهمنا كلّنا حتى إذا كان شبعانًا. يُضاف إلى ذلك، أراهنك أنّ في مستطاعه أن ينهي كلّ ذلك بما يجده من طعام في القمامة!

وهنا هتفت المرأة ذات الشعر الأحمر والجسد الريّان والوجه الجامد، والتي تخشى أن تضحك خوفًا من ظهور التجاعيد على جبينها:

ـ أقسم أنّه فهم كلّ ما كنّا نتحدّث به عنه.

فقال جمال متذمِّرًا، وهو يهزّ مجفِّف الشعر في يده باتّجاه القطّ الذي كان يراقبه من وراء عينيه الضيّقتين:

ـ فليفهم، وهل كلامنا كذب؟ إنّه يملك سلّة زبالة بدلاً من بطن! لهذا كان اسمه: زبالة!

مجفّف الشعر! كان القطّ يدرك أنّ تعرُّضه لنفحات هذا الوحش المزعج أسوأ بكثير من السقوط في دلو مملوء بالماء، لهذا وثب فوق حضن العشيقة الزرقاء في غمضة عين وقفز إلى النافذة المفتوحة. وبعد أن لبث في مكانه بعض الوقت ليلقي نظرة فاحصة كئيبة على الحاضرين في دار التجميل، قفز إلى أقرب مكان خالٍ، وكأنّه دمية محشوّة بزهو وخيلاء بدلاً من حشوة القماش. إلّا أنّه قبل أن تصل كفّاه إلى أرض الحديقة سقط شيء غريب على رأسه، وهو ثوب طفلة لازورديّ اللون

Twitter: @ketab_n

مزيَّن برسوم عديد الحوريّات الصغيرة من جميع جوانبه، وفيه ياقة منشَّاة تهبط إلى أسفل مثل ورقة شجرة يابسة أو قصاصة ورقة، تسقط سقوطًا بطيئًا سرياليًّا من الطبقة العليا من قصر الحلوى على مدى خمس ثوانٍ لتحطّ على مسافة بضع لحظات من التربة وعلى رأس القطّ الذي كان قد قطع الممشى فيها. وسقط هو والثوب على الأرض في الوقت نفسه.

هتفت فتاة العناية بالأظافر في تحمُّس، وهي تبحث في الرفّ من أمام النافذة عن صبغ الأظافر الخمريّ اللون ذي الرقم ١١٣:

ـ آه، انظروا! انظروا!

اندفع جمال والمرأة ذات الشعر الأحمر والجسد الريَّان والشقراء ذات الحَوَل الطفيف في عينها والمبتدئان إلى النافذة من فورهم. بعد برهة وجيزة من الزمان، وتبعًا لإصرارهم، جاءت العشيقة الزرقاء أيضًا تخطو خطوات متردِّدة، والسمراء المذعورة وهي تعرج قليلاً في محاولة منها كي لا تطأ على أصابع قدميها المعالجتين. كانت الملابس تتساقط كالمطر من الأعلى، ملابس أطفال بكلّ الأنواع والألوان. ويبدو من خلال الحشد المكوَّن من ثمانية إلى عشرة أشخاصّ متجمِّعين على الرصيف أنّ ثمّة غيرهم من المتفرِّجين على هذا العرض غير المتوقَّع. والتفتوا برؤوسهم جميعًا وثبَّتوا أنظارهم على نقطة وحيدة، محاولين أن يروا الشخص الذي يرمي بالثياب على هذا النحو. بيد أنّ مدبِّرة الحادث رفضت الكشف عن نفسها، بل إنّ ذراع امرأة بيضاء كالثلج، عارية وبسيطة، استمرَّت في الظهور للعيان في أوقات منتظمة من وراء نافذة الشقّة في الطبقة العليا من قصر الحلوى، ولدى كلّ مرّة تظهر فيها، ترمي بقطعة أخرى من الثياب.

في الوقت الذي لبثت الثياب تتساقط كالمطر قطعة فقطعة، مدَّت فتاة العناية بالأظافر جسدها خارج النافذة للإمساك بالملابس المتساقطة، سعيدة سعادة من يحاول الإمساك بأوّل قطعة ثلج عند حلول موسم

Twitter: @ketab_n

تساقط الثلوج، وتمكّنت من دون كلّ الثياب والجوارب والكنزات والقمصان أن تحصل على شريط بلون الصمغ الأصفر.

قالت السيِّدة العمَّة التي ظلّت محافظة على رباطة جأشها وهدوئها طوال هذه المدّة:

ـ لا تفعلي هذا، فهو غير لائق.

كان صوتها يعلو ويهبط مثل جدار كثير النتوءات أو قصاصة ورق حادّة في حافّاتها.

تذمّرت فتاة العناية بالأظافر إذْ خابت خيبة أمل عظيمة لاضطرارها إلى أن تكون مستقيمة وعفيفة في الوقت نفسه الذي بدأت تستطعم حلاوة كونها شاهدة على جنون شخص آخر. اكفهرّ وجهها، وبان عليه الاستياء والامتعاض، عندما راحت ترمي الشريط من فوق كومة الثياب في الحديقة. لم يستغرق المشهد طويلاً، إذْ سرعان ما توقّف سقوط الثياب كالمطر من تلقاء نفسه، وكان المشهد الختاميّ لهذا العرض متمثّلاً في زيّ مدرسة أزرق غامق مائل إلى الأرجوانيّ، انفتح إلى أعلى مثل مظلّة خجول ليسقط في هدوء على ما سبقه من ثياب. أُغلقت النوافذ في الطبقة العليا محدثة ضوضاء، وانكفأت الذراع البيضاء كالثلج إلى الداخل. وفي حين أخذ المتفرِّجون على الرصيف بالتفرُّق واحدًا تلو الآخر، عاد المتفرِّجون في الداخل إلى أماكنهم أيضًا.

قال جمال للمبتدئ غير المصاب بالبثور:

ـ اصنع لنا قهوة يا بنيّ، فالله يعلم أنّ أعصابنا متوتِّرة. ثم تهالك من فوق الأريكة الكبيرة، وراوده شعور مفاجئ بالإعياء.

ـ لقد سئمنا ذلك ولم نعد نتحمّله. فمنذ أن انتقلنا إلى هذا المكان، أخذت الأشياء تتساقط كالمطر على رؤوسنا. إنّ المرأة المخبولة لم تترك شيئًا في المنزل، فهي تفتح النوافذ كلّما فقدت رشدها، وترمي

Twitter: @ketab_n

كلّ ما يقع تحت يديها إلى أسفل. في يوم ما، سوف ترمي جهاز تلفاز أو ما يشبهه، ومن يسقط على رأسه منّا، سوف يموت عبثًا.

على الرّغم من أنّ جمال لبث مستغرقًا في التفكير برهة وجيزة من الزمان، إلّا أنّه تمكّن من أن يستعيد رباطة جأشه بأسرع وقت، فقد كان يخشى دومًا أن يخيِّم الحزن من دون سبب ملحوظ.

ـ قدرة هائلة على الابتكار! إنّني لم أشاهدها من قبل وهي ترمي الشيء مرّتين. هل تتذكّر يا جلال كيف رمت في إحدى المرّات أربطة عنق زوجها، فظلّت عالقة بشجرة زهرة ألاكاسيا بضعة أيّام؟

الردّ الصادر من صميم قلب الشقيق كان هو آخر شيء يتوقّع جمال الحصول عليه في هذه اللحظة، لذلك لم يلتفت إليه، بل التفت إلى الزبونات، وأضاف:

ـ فما كان من جلال إلّا أن خرج وأنزل أربطة العنق من فوق الشجرة، لأنّه لم يدع الأطفال الصغار في الخارج ينزلونها خشية أن تنكسر أغصان الشجرة، وهكذا تسلّق بنفسه، ولو لم يتسلّق بنفسه لمكثت أربطة الرجل الأحمق متدلّية أيّامًا.

ابتسم جلال في جزع ملحوظ، وهمهم ليتهرّب من كونه موضوع الحديث:

ـ آمل أن يعمد شخص ما إلى جمع الثياب، فقد أخذ الظلام يرخي سدوله.. والله يعلم أنّ في وسع أحد ما أن يسرقها.

قالت فتاة العناية بالأظافر من غير تبصُّر:

ـ إنّها تجمع الثياب. فها هي المنظِّفة الجديدة تجمعها كلّها. يا للعار! لقد تورّد وجه المرأة المسكينة خجلاً وحياءً، وكأنّها هي التي رمت بالملابس إلى أسفل..

ـ لن يمضي وقت طويل حتى تترك هذه المرأة العمل بدورها.

Twitter: @ketab_n

قالت ذلك السمراءُ المذعورة، وهي تنفث أنفاسها متفحِّصة خصلات شعرها المتموِّجة التي أخذت تظهر من تحت اللفائف الأسطوانيّة الرقيقة، التي بدأ المبتدئ ذو البثور ينزعها.

قال جمال ملاحظًا:

ـ آه، هل يمكن لأيّ منظِّفة أن تتحمّل تايجين؟ إنّ كلّ من تأتي سرعان ما تهرب.

ضحكت الشقراء المُصابة بحَوَل ضحكة بلهاء، وقالت:

ـ هايجين تايجين! هايجين تايجين! إنّ هذه المرأة لم تخرج من بيتها منذ أربعة أشهر تمامًا. هل يمكنكم تخيُّل ذلك؟ إنّها لم تقدر على الخروج خشية أن تُصاب بمرض. مجنونة جنونًا تامًّا في هذه الأيّام.

قالت فتاة العناية بالأظافر بصوت عالٍ:

ـ بالله عليك، ماذا تعنين بكلمتي «هذه الأيّام»؟ إنّ الذين يعرفونها سيخبرونك من فورهم، أنّها مجنونة دائمًا. السيِّدة العمّة تعرف ذلك منذ اليوم الأوّل. صحيح أيّتها السيّدة العمّة؟

شعرت فتاة العناية بالأظافر، أسوة بالعديد من أندادها، بضرورة رفع صوتها عندما تكلِّم امرأة عجوزًا.

التفَّت الرؤوس جميعًا إلى هذه المرأة العجوز. الحقّ، لم يُعرف سبب وصفها بالسيِّدة العمّة، ولا إن كانت مسلمة أم لا، وإن كانت فرص الإجابة عن مثل هذا التساؤل من شأنها أن تؤكّد أنّها مسلمة وتركيّة أسوة بالأخريات. إنّ السبب الذي كان يدفع الأخريات إلى وصفها بالسيِّدة لم يكن متمثِّلاً في أنّ للأخريات شكوكًا عن ديانتها أو جنسيّتها، بل لإحساسهنّ أنّها مختلفة، وإن كان يصعب إيجاد تفسير لذلك. يُضاف إلى هذا، لم يكن السبب متمثِّلاً في تقدُّمها كثيرًا في السنّ (وإنْ كانت متقدِّمة حقًّا) أو لأنَّ تصرُّفاتها غريبة (لأنّها كانت غريبة حقًّا)، ولذلك

Twitter: @ketab_n

كانت مختلفة. كانت غرابتها أقلّ وضوحًا، إلّا أنّها كانت على الرّغم من ذلك محسوسة. ولمّا كانت طبيعتها تشبه قليلاً طبيعة الأخريات، فقد بقيت «سيِّدة». يُضاف إلى ذلك، لما كانت قد عاشت هنا سنوات طويلة، وكانت جذورها أعمق من جذور أيّ امرأة أخرى، فإنّها كانت الوحيدة التي ولدت ونشأت في اسطنبول. وفي حين كان معظم الجيران من المهاجرين، فإنّها أنفقت حياتها كلّها في هذا الحيّ. وعلى العكس من الأخريات، لم تظهر من العدم، بل كانت مولية ظهرها لمستقبل لا يأتي وماضٍ لم تتركه من ورائها. ها هي هنا، لا يجرّها الآخرون من ورائهم ولا تجرّهم من ورائها، وما سبب تسميتها «عمّة» إلّا لأنّ كيانها خلاصة ماضٍ لم يعشه غيرها.

خفضت السيِّدة العمَّة من رأسها مبتسمة ابتسامة باهتة. رنت إلى يديها الزرقاوين الأرجوانيّتين والخمريّتين اللتين تكسوهما بقع بنّيّة منتشرة هنا وهناك. وكانت البقع نفسها، وإن أصغر حجمًا وأكثر تلاشيًا، قد انتشرت انتشارًا اعتباطيًّا من صدغيها إلى وجنتيها. ولو كانت هذه البقع أكثر الألوان الصارخة على بشرتها، لبدت أسوة بعديد النساء اللواتي بعمرها، قد بلغن من الكبر حدًّا لا يمكن معه التقدُّم أكثر في السنّ. إلَّا أنّ لون قلم الحمرة البرتقاليّ الذي بدا منتشرًا أقلّ ممّا هو ملتصق، والاصفرار الشمسيّ لقرطيها الذهبيَّين اللذين يشبهان ورقتيّ شجرة، والتورُّد الظاهر على خدَّيها الذي جعل التجاعيد الدائريّة المتّحدة المركز تبرز خطًّا فخطًّا، والتدرُّجات الأرجوانيّة لظلال العينين التي تراكمت على جفونها طبقة من فوق طبقة، والوميض الأزرق البحريّ والرصاصيّ الذي تومض به عيناها الشذريّتان، قد فتحت كلّها ممرّات إلى المجهول، من ورائها وبعيدًا عن المظهر الكئيب. إنّ وضعها مثل هذه الكمّيّة الكبيرة من مساحيق التجميل بغض النظر عن عمرها، قد أسبغ عليها مظهرًا مضحكًا جدًّا. وكما هو شأنُ الجدّات المضحكات جدًّا، كان لها

Twitter: @ketab_n

بدورها جانب مرعب.

على هذا الأساس، كانت امرأة تتوقّد نشاطًا وحيويّة، شاطرة لا تعييها الحيلة، تضيف ألقًا إضافيًّا لكلّ حديث. وإذا ما كانت حاضرة في الجوار، فإنّه يصعب الحديث من وراء ظهور الناس أو الحصول على أيٍّ متعة من فنّ القدح في سمعة الآخرين أو المبالغة، إلّا أنّ العكس صحيح أيضًا. فقد كانت مسحة الجدّ والوقار التي تشوب السيِّدة العمّة تجعل بقيّة النساء في دار التجميل يتذكّرن المتعة المزدوجة التي كنّ قد تذوّقن طعمها آخر مرّة في سنوات المدرسة الثانويّة، عندما كنّ يتّخذن موقفًا موحّدًا ضدّ معلِّمة في غاية الاستقامة، في الوقت نفسه الذي كنّ يتشوّقن لانتزاع إعجابها. كانت أحاديثهنّ الملتوية مرتّبة ومنظّمة حتى يصلن الاتّساق الصحيح، وهنّ يتوجّسن من حولهنّ، ويقتحمهنّ من مختلف الاتّجاهات المبادئ التي كانت تصرّح بها والقيم التي كانت تدافع عنها. يُضاف إلى ذلك، كانت المتعة التي يحصلن عليها جرّاء ذلك تتضاعف عندما يقدرن في بعض الأحيان على إدراجها ضمن تطلّعاتهنّ، إذْ كانت المتعة عظيمة في جذب الأنقياء إلى أساليب فجّة، تفتقر البراعة لمعرفة أنّ أوجه شبههم بالآخرين لا تستحقّ إلّا الشيء الكثير.

لا بدّ أنّ السمراء ذات الجسد الريّان قد شعرت بالشعور نفسه، لأنّها لم تستطع المقاومة، فأيّدت فتاة العناية بالأظافر في محاولة جماعيّة لإقناع المرأة العجوز:

- يُقال إنّ هايجين تايجين لم تكن لتختلف عمّا هي عليه عندما كانت فتاة شابّة، إلّا أنّها ازدادت سوءًا مؤكّدًا بعد أن تزوّجت. إنّها مهووسة بما هو صحّي.

اعترضت السيِّدة العمّة باذلة قصارى جهدها لترك القضيّة من ورائهنّ:

Twitter: @ketab_n

ـ بالله عليك! هل هذا أمر في غاية السوء؟

صاحت فتاة العناية بالأظافر، بعد أن استمدّت الشجاعة من التعزيزات:

ـ ليس هذا إفراط في النظافة أيّتها العمّة، بل مرض، ربّما هو أسوأ. فعندما يكون المرء مريضًا، فإنّه يعرف به. فيذهب إلى الطبيب ويحصل على العلاج. صحيح؟ أمّا الهوس بالنظافة، فليس له علاج. وإذا كان ثمّة علاج واحد، فإنَّ الآنسة تايجين لن تبقيه في فمها، لأنّها ستجده قذرًا أكثر ممّا ينبغي!

قالت الشقراء الحولاء:

ـ يا للعار! طفلتها هي التي ستشتدّ عليها المعاناة أكثر من أيّ شخص آخر.

تمتمت السيِّدة العمّة:

ـ لا تقولي هذا القول. إنّ تايجين تهيم بابنتها، فكيف يمكن لأمّ أن ترغب في إلحاق الأذى بطفلها؟

هتفت فتاة العناية بالأظافر:

ـ حسنًا.. أيّتها السيِّدة العمّة، لكنْ أيّ حبّ يمكننا أن نفهمه من هذا؟ انظري، لقد رمت بكلّ ثياب الطفلة المسكينة!

قالت السيِّدة العمّة في دهشة:

ـ حقًّا.

هتفت فتاة العناية بالأظافر متحمِّسة، لأنّها قالت أخيرًا ما لا يمكن للمرأة العجوز أن تعترض عليه:

ـ إنّ كلّ تلك الثياب التي تساقطت على رؤوسنا سقوط المطر هي ثياب الطفلة المسكينة بلا أدنى ريب. هل لاحظت أنّها لم تقذف ملابسها الشخصيّة؟ المرأة مخبولة وليست مجنونة، ذات عقل سليم عندما

Twitter: @ketab_n

يتواءم الشيء مع مصالحها!

زمّت المرأة العجوز شفتيها الرقيقتين في ارتياب.

ـ حقًّا، لقد رمت بثياب الطفلة. إنّني أسأل: لماذا؟

ـ لماذا تتساءلين؟ إنّها مجنونة.

اكفهرّ وجه السيِّدة العمّة وأدركت أنّها بالغت في كلامها، فاضطرّت فتاة العناية بالأظافر إلى السكوت، ولكنَّها على الرّغم من ذلك كانت مسرورة، لأنَّها قالت كلّ ما كانت تريد قوله.

صاح جمال:

ـ آه، وما شأننا؟ إذا كانت مجنونة، فليكن..!

على الرّغم من أنّه كان يستمتع بالقيل والقال، إلّا أنّه قلق خشية أن يكون كلام فتاة العناية بالأظافر الذي لا معنًى له قد أزعج المرأة العجوز، وبالتالي أغضب جلال.

ـ هل ينبغي لنا أن ننزعج بمشكلات كلّ مجنونة؟ هل هناك في اسطنبول ما هو أكثر من المجنونات؟ أمامنا حشد كبير من المجانين، بقدر ما موجود من «برغل». وإذا ما تكلَّمنا عن كلّ واحد، فسوف نظلّ نتكلّم إلى أن تنتهي حياتنا. ماذا حدث للقهوة يا بنيّ! هيّا، اذهب وأحضرها، فقد جفّ ريقنا.

تدخّل جلال في محاولة منه لتغيير دفّة الحديث:

ـ لقد ازدادت رائحة القمامة مجدّدًا، وقد شكوْنا أمرنا إلى البلديّة من دون أن تساعدنا.

قال جمال من فوره، وهو المولع بإكمال جمل شقيقه الناقصة:

ـ ماذا قالوا؟ قالوا إنّهم حوَّلوا جمع الزبالة إلى شركة خاصّة. ثم وجدنا رقم هاتف الشركة.. لكنَّهم أجلاف وغلاظ الطبع أيضًا، فقد أرسلوا مركبتهم في خضمّ ساعة الزحام، عندما كان الناس في طريق عودتهم

Twitter: @ketab_n

من العمل، كأنّما بقصد الإغاظة؟

لخّص جلال الموقف قائلاً:

ـ إنّهم يأتون لجمع الزبالة في انتظام، وإن في وقت غير مناسب. إلّا أنّنا وأسفاه، ما نزال غير قادرين على التخلّص من هذه الرائحة.

قال جمال في حدّة:

ـ لا ريب، أنّنا غير قادرين على التخلُّص منها، إذْ بوجود هذه الكمِّيّة الكبيرة من «البرغل»، لا نستطيع التخلّص من الزبالة ولا من التخلُّف الثقافي. والآن، هل يمكنك أن تصدِّقي أيّتها السيِّدة العمّة، أنّنا ننفق الوقت في توبيخ الناس الذين يرمون نفاياتهم قرب هذا السور؟ إنّ كلّ النساء الجاهلات غير المتعلِّمات في هذا الحيّ يتركن نفاياتهنّ قرب سور حديقتنا، ودائمًا بالأساليب نفسها ـ عنيدات، ممعنات في خطئهنّ. إنّني تعبت من تكرار ذلك! ثمّة امرأة معيّنة لا ترغبن في معرفتها، ويقع منزلها في نهاية الشارع. إنّها لا تمانع في السير ثلاثمائة متر يوميًّا حتى تكبّ نفاياتها هنا. وقد فكَّرت طويلاً في السبب الذي يدفع أيّ شخص إلى ارتكاب مثل هذا العمل، وتوصَّلت إلى تفسير في نهاية الأمر، مفاده أنّه ربّما كانت ثمّة مساحة فارغة في هذه المنطقة قبل تشييد هذه العمارة السكنيّة. وفي تلك الأيّام، كانت جدّة هذه المرأة ترمي نفاياتها هنا. وأخيرًا، كانت لتلك المرأة ابنة ولمّا كبرت تلك الابنة، راحت ترمي بالنفايات أيضًا في المكان نفسه.. ثم أصبح لها ابنة بدورها. هذا هو «البرغل» الذي أتشاجر وإيّاه في كلّ يوم من أيّام الله. إنَّ اهتمامهنّ بالزبالة أمر موروث، ينتقل من ابنة إلى ابنة. إنّه نموذج من التراث العائلي! لكن لا تنسي، ماذا كان في وسعها أن تفعل؟ حسبها أن تفعل ما رأته سابقًا. إلّا أنّها بخلاف أسلافها، لا ترمي الزبالة من الدلو، بل تضعها في كيس بلاستيكي أوّلاً. «برغل» حديث!

Twitter: @ketab_n

بينما ضحكت الأخريات وتذمّر جمال، هزّت السيِّدة العمّة رأسها مستغرقة في التفكير. قالت:

ـ لكنْ يا جمال، هذه المنطقة لم تكن ساحة، فتحت هذا الحيّ برمّته مقابر...

لم يتوقّع جمال مثل هذا الاعتراض، فبلع كلّ كلماته التي كادت أن تنطلق من فمه. وبينما كان ينظر من حوله في جزع، وكأنّه بحاجة إلى نجدة، تربَّص به ظلّ صغير يتحرّك باستمرار في قعر النضد أمام المرآة. كان صرصارًا، تسلَّق سلّة لفائف الشعر، محرِّكًا مجسّاته كأنّه يستمع إلى الحديث. الشيء الجيِّد هو أنّه لم يجذب أنظار أحد حتى الآن. إلّا أنّه إذا قرّر الخروج من السلَّة والسير على امتداد النضد، فإنّه سرعان ما سوف يُستعرض من أمام كلّ زبونة. فما كان من جمال إلّا أن أمسك بفرشاة شعر كبيرة واقترب من الجهة الجانبيّة، يمشي مشية سرطان البحر، في الوقت نفسه الذي راح يتكلَّم بحماسة أكبر كي لا يكشف عن المكتوم.

ـ أقول «انظري إلى هنا أيّتها المرأة! هل أحضر إلى هنا وأرمي بقمامتي على سجّادتك؟ أيّ حقّ يبيح لك ترك قمامتك على سور شخص آخر؟ انتظري عربة القمامة عندما تأتي ليلاً، وعندئذٍ يمكنك إخراج القمامة خارج بابك، وسوف يرفعها عمّال القمامة». لا، إنّها لا تفهم أبدًا ـ بسبب ذلك «البرغل» الذي ذكرته.

سألت العشيقة الزرقاء، وهي تطلّ برأسها من فوق صفحة الأخبار الثالثة التي كانت تتوارى من خلفها بسبب نظرات المبتدئ ذي البثور المتواصلة:

ـ أيّ «برغل»؟

قال جمال من دون أن يرفع بصره عن الصرصار:

Twitter: @ketab_n

ـ آه، ألا تعرفين نظريَّتي الخاصّة «بالبرغل»؟ دعيني أخبرك بها الآن. إنّها نظريّة بسيطة حقًّا. والآن، هل ثمّة تخطيط سكّاني في تركيا؟ لا! آه.. الله يمنحكم إيّاهم، فاستمرُّوا في الولادة والإنجاب، واتركوهم سائبين في الشوارع. حسنًا. لنقل، إنّكنّ تتركونهم في الشوارع. ولكنْ، كيف ستطعمن مثل هذا العدد الكبير من الأطفال؟ واحد يأكل اللحم، وخمسة أشخاص يأكلون اللحم «والبرغل» وعشرة يأكلون البرغل فحسب. حسنًا. هل «البرغل» ضروريّ لذكاء الإنسان. لا! عندئذ، يمكنك الاستمرار في إخبار المرأة مرارًا وتكرارًا. أقول هيّا يا أختاه! لا ترمي القمامة في حديقتي! لكنَّها تحدِّق إلى وجهي بنظرة بلهاء. ثم تأتي في اليوم التالي، وفي الوقت نفسه، لترمي الزبالة مجدَّدًا كأنّها ساعة مملوءة. إنّها لا تفهم، وكيف تفهم وهي تملك عقليّة «البرغل»؟

سعل جلال سعالاً مرتبكًا، فتلقّى جمال الرسالة، إلَّا أنّه فضَّل مصلحة العشيقة الزرقاء على تصحيح توأمه السياسي، فلم يستسلم:

ـ في الشهر الفائت، واجهت بنفسي هذه المرأة. كان عصر يوم يشبه عصر هذا اليوم. كنّا متأخِّرين، نصفِّف شعر إحدى العرائس. كانت العروسة في جانب وأقرباؤها في جانب آخر. تسريحة الشعر على شكل كعكة اكتملت، والتسريحة الثانية توشك أن تبدأ. كنّا نقف على أقدامنا طوال اليوم، مرهقين الإرهاق كلّه. رنوت إلى الخارج، فشاهدت هذه المرأة تأتي مجدّدًا، تنوء مترنِّحة بحمل أكياس النفايات في يدها. فتحت النوافذ ودفعت رأسي وانتظرت، وفكّرت: «ربّما سوف تشعر بالحرج عندما تراني فتمضي في سبيلها». مستحيل! إذْ جاءت مخلوقة الله ونظرت إليّ مباشرة، ورمت بالزبالة. آه، لو تمكَّنت من الفهم! من ذا الذي أعلن أنّ سور حديقتنا مكبّ نفايات؟ من ذا الذي أخبر هؤلاء الناس وقال لهم: «تعالوا وارموا زبالتكم

Twitter: @ketab_n

أمام بيت جاركم؟» لم يستطع المبتدئون الحيلولة بيني وبينها. كنت أوشك أن أقطّع المرأة إربًا إربًا. ضيّعتها. كنت أصيح بصوت عالٍ، أقذف بالشتائم. قد يساوركم الظنّ أنّ المرء ربّما سيشعر بالقليل من الحرج، ويشعر بشيء من التردّد أمام جموع الناس. صحيح؟ احزروا ثانية! حملقت في وجهي في سذاجة غبيّة. أقسم بالله أنّها لم تفهم سبب غضبي. لا بدّ أنّها ظنَّت أنّني كنت هاربًا من مستشفى المجاذيب. قلت لنفسي: «حتى إذا كانت لا تفهم، فإنّها سوف تخاف من العودة مجدّدًا». ومع هذا، ألم تحضر مجدَّدًا في الوقت نفسه حاملة النفايات بيدها؟ ها هي، واسعة العينين، محملقة بنظرة بلهاء لتشاهد ما الذي سأفعله. سوف ترتكب جريمة في حقِّي. آه، يا إلٰهي الجميل! إنّ المرء لا يتدخَّل في شؤونك، لكنْ لماذا تخلق مثل هؤلاء البشر؟ الآن ماذا سنفعل بهذا «البرغل»؟ لا أعرف. وبسببهم، أصبحت الشقّة مكتنزة برائحة الزبالة. بحسب مجريات الأمور، ما من أحد سيأتي إلى هنا. سوف نفقد عملنا، وخبزنا اليومي. قليلاً من المعطَّر أيّها الفتى. حسنًا!

أمطرت رائحة معطِّر الجوّ العذب، وعليه صورة شاطئ مهجور تظلِّله أشجار النخيل وبحر سماويّ، ذرات صغيرة في أرجاء المحلّ وامتزجت بمختلف الروائح الأخرى. اختلس جمال نظرة إلى الصرصار بأمل أن يتسمّم بقاتل الحشرات، إلّا أنّه لم تظهر عليه أيّ آثار تنمُّ عن مفعول الذرّات المتساقطة عليه. كما أنّه نجح في الصعود إلى أعلى لفائف الشعر، وبات الآن على استعداد للتحرُّك نحو علبة دهن بريّانتين لتلميع الشعر المجاورة.

تدخّلت السمراء العصبيّة المزاج، وهي ترنو إلى طلاء الأظافر الخمري بالرقم ١١٣ وهو يُوضع على أظافر يديها، بعد أن كان قد جفّ قبل قليل من على أظافر قدميها:

Twitter: @ketab_n

ـ يعلم الله أنّك على صواب. إذْ سيهرب كلّ الزبائن منك. صحيح، أنّك نشأت وترعرعت وسط هذه الرائحة التي أصبحت معتادًا عليها، لأنّك هنا طوال النهار. عندما أدخل هذه العمارة السكنيّة، أجد نفسي أحيانًا وكأنّني موشكة على الاختناق.

هتفت فتاة العناية بالأظافر مسبّبة انسكاب طلاء الأظافر:

ـ النوافذ مفتوحة على مصاريعها طوال النهار، والنسيم يهبّ هبوبًا يبعث على السرور، إلّا أنّ الرائحة لا تزول. يقال إنّها تزداد كلّما ارتقيت إلى الأدوار العليا من العمارة. هل هذا صحيح أيّتها السيِّدة العمّة؟

تدخّل جمال:

ـ وتدّعي المرأة «البرغل» المقابلة لنا أنّنا نسرق زبالتها. الآن، انظري إلى هنا، هل أنتِ مجنونة؟ ما الذي سأفعله بزبالتك المثيرة للاشمئزاز؟

ثم نظر في حدّة إلى فتاة العناية بالأظافر، حتى تفهم انزعاجه من كثرة توجيهها الأسئلة إلى المرأة العجوز في كلّ فرصة.

قالت العشيقة الزرقاء وهي تأخذ استراحة من التذمُّر من إطلالتها الجديدة التي بدأت تلوح على المرآة:

ـ وكيف ذلك؟ ماذا يعني هذا الكلام؟

وكما هو شأن غيرها من النساء اللواتي يشهدن على تشذيب شعرهنّ الذي حاولن قصارى جهدهنّ كي يزداد طولاً، فقد راحت بدورها تشعر منذ الآن بالندم حتى قبل أن تنهض من على الكرسيّ الدوّار.

قال جمال:

ـ آه، ألا تعلمين أنّنا في حالة خصام مع المجانين الساكنين في الشقّة رقم ٤؟ كنت أظنّ أنّ ما من شخص إلّا وقد سمع بهم في يوم من

Twitter: @ketab_n

الأيّام. جاء هؤلاء الناس إليَّ، فقلت لهم: «مرحبًا!» وإلّا هل ثمّة سبب آخر يدفع الناس إلى المجيء إلى دار التجميل؟ ظننتهم جاؤوا إلى الدار لتصفيف شعرهم، لكنّ الظاهر أنّ تصفيف الشعر لم يكن غايتهم. هذه المرأة المخبولة في المقدِّمة، وزوجها المجنون يهذي من ورائها، وخادمتهما العجوز الابنة الأكبر سنًّا بجوارهما، والخادمة العجوز الابنة الأصغر سنًّا من ورائهم. كان الأربعة يقفون أمامي، بعد أن خرجوا لشنّ حملة أسريّة. أوّلاً، لم أفهم شيئًا ممّا كانوا ينطقون به. وتبيَّن لي أنّهم ربطوا أكياس زبالتهم ووضعوها أمام باب بيتهم، وعندما نظروا إليها بعد خمس دقائق، كانت زبالتهم قد توارت عن الأنظار! وقالوا لي: «أين هي زبالتنا؟» فقلت لهم مقترحًا: «ربّما أخذتها مريم». قالوا: «لا، يا سيِّدي، فقد ذهب بوّابو العمارة إلى قريتهم في ذلك اليوم». فقلت: «ربّما أخذها الزبّالون». فقالوا: «أيُّ زبّال هذا الذي يدخل عمارة سكنيّة؟» قلت: «وكيف أعرف أين هي زبالتكم؟» إلّا أنّهم استمرّوا في عنادهم قائلين: «أنت الذي أخذتها. أعد إلينا زبالتنا». يا له من حظّ! إنّنا من دون كلّ مناطق اسطنبول، فتحنا دار تجميل في عمارة سكنيّة تحتشد بالمجانين!

أدرك جمال، بعد أن استرسل في الكلام، أنّه ابتعد عن فريسته. وعلى الرّغم من أنّه استدار كي يمعن النظر إلى الموقف في حيطة وحذر، إلّا أنّ الصرصار كان قد توارى عن الأنظار.

قالت السمراء العصبيّة المزاج، مشعلة سيكارة أخرى:

ــ بالله عليكم! ليأخذ الزبالة من يأخذها. ما القضيّة المهمّة؟

نظر جمال إلى أسفل ومن حوله وبالقرب من سلّة اللفائف، قبل أن يقول موضحًا:

Twitter: @ketab_n

ـ هه! ليست القضيّة تافهة كما تظنّين. فالرجل مُصاب بجنون الارتياب، وزوجته أسوأ حالاً منه. من يعرف ما السيناريو الذي اخترعاه في رأسيهما؟ كنت أودّ أن أقول شيئًا ما، مثل أنّ الـ سي. آي. إيه هي التي أخذت أكياس النفايات، أو أنّ الإرهابيّين هم الذين سرقوها. إلَّا أنّني ابتلعت كلامي، وقلت بدلاً من ذلك: «انظروا الآن، من تظنُّون أنفسكم كي تتخيّلوا أنّ زبالتكم سُرقت؟» يا له من أمر محزن! أن تكون «برغلاً»، ولكنّك تظنّ نفسك نعمة كالفاصولياء.

راح المبتدئ ذو البثور يجمع أكواب الشاي المتراكمة على النضد، كلّ واحد منها ملطّخ بأقلام حمرة مختلفة الألوان. في حين حدّج جمال في ثبات كلّ كوب من أكواب الشاي خشية أن يظهر الصرصار من تحت أحد الأطباق، نظر المبتدئ إلى حلمتيْ العشيقة الزرقاء محدِّجًا إيّاها في ثبات أيضًا.

ما دام أنّ العشيقة الزرقاء كانت مشغولة تمعن النظر إلى تسريحة شعرها الجديدة، بعد أن تخلّصت من الصدريّة البلاستيكيّة، فإنّها كانت غافلة عن نظرات المبتدئ أو عن قلق جمال. لو أنّها تمكّنت من لَمّ ما يكفي من أطراف شجاعتها يومًا واحدًا، وقصّت شعرها قصيرًا جدًّا. . . إلَّا أنّ تاجر زيت الزيتون ما من شأنه أن يستحسن مثل هذا التغيُّر. فقد أكثرت من القول مرارًا وتكرارًا إنّه يحبّ الشعر الطويل عند النساء. الله أعلم! فهو سوف يتذمَّر كثيرًا، لأنّها شذّبت من شعرها على هذا النحو. رنت إلى ساعتها. لقد تأخّرت. تأخَّرت كثيرًا. ما تزال أمامها مشاوير ينبغي إنجازها. كان جمال يقف من ورائها مباشرة ممسكًا الفرشاة بيده، فظنَّت أنّ القلق الواضح على وجهه مردُّه عدم إعجابها بتصفيفة شعرها. ولأنّها أرادت أن تبعث السرور في نفسه، وأنّها قرَّرت أن تقول «مع السلامة» على النحو نفسه الذي لقيت فيه الترحيب، فقد صافحته مصافحة متحمِّسة، منتهكة عادة الزبون في مغادرة مصفِّف شعر النساء.

Twitter: @ketab_n

لم تكن يد العشيقة الزرقاء قد تخلَّت عن يد جمال عندما فُتح الباب الخارجي بخشونة مجدَّدًا. وفي حين اهتزّ الجرس اهتزازًا عظيمًا، مصحوبًا بصيحة بائع البطِّيخ الأحمر عند ناصية الشارع، الذي بدا الآن مصمِّمًا على كتم صوت منافسه باستخدامه مكبِّر الصوت، دلفت امرأة مهتاجة الاهتياج كلّه. مرّة أخرى، التفتت كلّ الرؤوس في دار التجميل إلى الباب لرؤية الإضافة الجدِّيّة إلى رتلهم. رنوا إليها، فصُعقوا وعقدت الدهشة ألسنتهم، وتجمّدوا في أماكنهم كأنّ أمرًا جديدًا صدر إليهم. أُغلق الباب، وتوقّف آخر ما تبقّى من صدى رنين الجرس من تلقاء نفسه، بعد أن تضاءل صوته وخلد إلى الراحة. لم يكن القادم الجديد سوى تايجين.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١
موسى ومريم ومحمّد

صاح محمّد من المكان الذي انحشر فيه:

ـ مستحيل، لن أذهب!

ثم ضرب بقبضة يده، وكأنّها مسؤولة عن كلّ هذا، على أقرب أريكة مخمليّة كان لونها بادئ ذي بدء بلون صفار البيض، ثم تحوّل إلى لون خمريّ ضارب إلى لون الكرز الحامض، ليصبح بعد ذلك أزرق ضاربًا إلى الخضرة، وبات اليوم لونًا مبهمًا تمامًا من تحت هذه الأغطية المزيّنة بالورود. كان من شأنه أن يفضّل رفساته على كلماته، بعد أن اعتاد مؤخّرًا رفس كلّ شيء يصادفه، إلّا أنّه في هذه اللحظة، وجد أنّ قوامه الهزيل بسنواته الستّ قد انحشر انحشارًا شديدًا بين الجدار والأريكة، فلم يعد في مستطاعه حتى أن يحرّك ساقيه حركة مناسبة. ولمّا رأى نفسه عاجزًا عن تحريك جسده، عمد بدلاً من ذلك إلى إطلاق أطول كلمتين من كلمات الشتائم التي عرفها، محاولاً أن تكون إحداهما في أعقاب الأخرى. فلمّا انساب إلى سمع مريم[1] صوته وهو يشتم

(١) الاسم مريم يعني ماري بالتركيّة. والأسماء الثلاثة مريم وموسى ومحمّد تشير إلى

Twitter: @ketab_n

مجدّدًا، دفعت بقدميها الأرائك الثلاث المصطفّة الواحدة بجانب الأخرى، وسمّرت ابنها الكافر على الجدار، في الوقت نفسه الذي راحت تحمي بطنها المنتفخة بيديها. بعد أن أصبح محمّد محصورًا في الزاوية، احمرّ وجهه من شدَّة الغضب، وفتح فاه ليشتم ثانية، إلَّا أنّه لم يتجرّأ على المضيّ إلى ذلك الحدّ. ولمّا كان الإذعان لأمّه من دون مقاومة يمثّل جرحًا لكبريائه، فإنّه عضّ غاضبًا على جانب الأريكة التي أخذت تؤلم خصره. كان غطاء الكرسيّ المزيَّن بالورود يقيها من مثل هذه الأنواع من الضغوط الخارجيّة. لكنْ، لعلّه كان يستطيع أن يترك آثار أسنانه إذا ما عضّ عضًا قويًّا...

كان تاريخ هذا الشجار الذي يتكرَّر في صباح كلّ يوم من أيّام الأسبوع يعود إلى خمسة أشهر وأسبوع واحد، ويرجع إلى التحاق محمّد بالشعبة ١ ـ ج من المدرسة الابتدائيّة الوحيدة في الحيّ. كلّ ما كان يستطيع تذكُّره من اليوم الأوّل من المدرسة هو أمَّهات قلقات وأطفال جزعون ووجوه معلّمين مكفهرّة. وبمرور الوقت، خفّ قلق الأمّهات وجزع الأطفال واكفهرار وجوه المعلّمين شيئًا فشيئًا، إلَّا أنّ هذا الشيء القليل الذي راح يخفّ، انتقل إلى محمّد بدلاً من أن يختفي نهائيًّا. وهكذا، وبعد مرور خمسة أشهر وأسبوع واحد حتى اليوم، كان محمّد ما يزال طفلاً قلقًا وجزعًا ومكفهرّ الوجه، وما يزال غير راغب في الذهاب إلى المدرسة.

كانت بداية التحاقه بالمدرسة قد تزامنت مع هوس أمّه بالأريكة. ففي ذلك الوقت تقريبًا، ترامى إلى مسامع مريم على نحوٍ ما أنّ قريبها المقيم في بلدة على شاطئ بحر إيجة، والذي يكسب رزقه من عمله في

= الأديان التوحيديّة الثلاثة. (والأسماء ماري وموسى ومحمّد هي أسماء أفراد الأسرة)، المؤلّفة.

Twitter: @ketab_n

تصليح القوارب مثل أبيه وجدّه اللذين سبقاه في هذه المهنة، قرَّر بغتة أن يستقرّ به المقام في مدينة اسطنبول، وأن يعمل في تجارة الأثاث. وبعد ستّ وثلاثين ساعة على سماع مريم هذا النبأ، جاءت إلى مشغل قريبها، وطلبت بعض الأثاث، وإن لم يسبق لها أن ناقشت لونه وطرازه مع أيّ شخص آخر. كان الاتّفاق بينهما على الوجه الآتي: القريب الذي لم يتلقّ بعد أيّ طلب لصنع أثاث من أيّ شخص آخر سوف يمنحها حسمًا عائليًا، وأن تسلِّمه مريم الأرائك القديمة ومبلغًا ضئيلاً من المال. غير أنّ الشيء الذي لم يعرفه أيّ من الجانبين في تلك الآونة، هو أنّ مريم كانت حبلى في شهرها الثالث. ولم تكن هذه المعلومة عديمة الصلة بالموقف كما تبدو أوّل وهلة، إذْ كما لوحظ، عندما كانت حاملاً بمحمّد، فإنَّ الحمل جعل من مريم صعبة المراس، ووجلة تمامًا «وغريبة الأطوار» إلى حدٍّ ما. عندما فرغ القريب من مجموعة الأرائك، كانت مريم قد دخلت في شهرها الثاني من الحمل، وازدادت قوَّة.

ولمّا آن الأوان، ذهبت إلى المشغل لمشاهدة ما انتهى إليه العمل، ونظرت إلى لون الأرائك، فتقيّأت. صفار البيض! ففي حين كان صفار البيض يكفي لجعلها تتقيّأ، فإنَّ لون الأرائك التي سوف تضعها في حجرة الجلوس يستحيل أن يكون بلون صفار البيض. وعندما حاول القريب أن يحتوي الموقف بتذكيرها أنّها هي التي اختارت هذا اللون، فإنَّ مريم لم تستطع منع نفسها من القيء من جديد. وهكذا راحت تتقيّأ مرارًا وتكرارًا قبيل الظهيرة، حتى حقّقت ما كانت تريده! وأصبح الاتّفاق الجديد على الوجه الآتي: يجب على القريب الذي لم يتلقّ بعد أيّ طلب لصنع أثاث أن يغيّر لون التنجيد، وسوف تعطيه مريم لقاء ذلك الأرائك القديمة ومبلغًا من المال أكبر من ذلك الذي كانا قد ناقشاه في البداية.

دخلت مريم الشهر الثالث من حملها، عندما أبلغها القريب أنّ

Twitter: @ketab_n

مجموعة الأرائك ذات اللون الخمريّ المائل إلى لون الكرز الحامض باتت جاهزة. في هذه الأثناء، كان الغثيان الذي يستبدّ بها صباحًا قد تلاشى إلى حدٍّ كبير، إلّا أنّها راحت تعاني بدلاً من ذلك جَيَشان عاطفتها. وعندما حان الوقت، ذهبت إلى المشغل لمشاهدة العمل المنجز، وسرحت ببصرها إلى لون الأرائك، وإذا بها تجهش في البكاء. لون خمريّ ضارب إلى لون الكرز الحامض! وفي حين كان منظر حبّة كرز حامض واحدة تسقط من الشجرة كافية لتذكيرها بموت سابق لأوانه، فإنَّ احتمال أن تكون الأرائك في حجرة الجلوس ذات لون خمريّ ضارب إلى لون الكرز الحامض لا يمكن حتى ذكره. ولمّا حاول القريب أن يدافع عن نفسه، وذكّرها بأنّها هي التي اختارت بنفسها هذا اللون، فإنَّ مريم لم تستطع منع نفسها من الإجهاش بالبكاء مجدّدًا. لقد بكت في عصر ذلك اليوم بكاءً مُرًّا حتى تمكّنت في نهاية الأمر من تحقيق ما كانت تريده. وكان الاتّفاق الجديد على الوجه الآتي: يجب على القريب الذي لم يتلقّ بعد أيّ طلب لصنع أثاث أن يغيّر لون التنجيد، وسوف تعطيه مريم لقاء ذلك الأرائك القديمة وضعف المبلغ الذي كانا قد اتّفقا عليه من قبل. إلّا أنّ اللون الذي لا يحدث ضررًا أكثر من بقيّة الألوان، سيتمّ اختياره لضمان رضى الزبونة، وهو اللون الزَبَرجَديّ.

ونجحت. فبعد أسبوعين، شاهدت مريم الأرائك ذات اللون الزبرجديّ ولم تتقيّأ، ولم تجهش بالبكاء. وفي تلك الليلة، نام القريب نومًا هانئًا أوّل مرّة منذ أيّام. وفي اليوم التالي، رمى الأرائك ذات اللون الزبرجديّ في شاحنة صغيرة وأحضرها إلى الشقّة رقم ١ من قصر الحلوى، رفقة حمّالَيْن اثنين هزيلَيْن استأجرهما في الدقيقة الأخيرة، لأنّ تلميذه الضخم والمفتول العضل داهمه المرض على حين بغتة. كانت مريم في الانتظار على أحرّ من الجمر منذ بواكير الصباح، تصيخ السمع

Twitter: @ketab_n

إلى جرس الباب، ويدها على بطنها التي لم تنتفخ بعد انتفاخًا شديدًا.

في حجرة الجلوس المكتظّة اكتظاظًا شديدًا والصغيرة أساسًا، والتي بات يستحيل تقريبًا السير في أرجائها، وبخاصّة بعد وصول الأرائك الجديدة، وثب الحمّالان والقريب من فوق طاولات القهوة، وجلسوا على ما استطاعوا أن يعثروا عليه من أثاث ليحتسوا فنجان قهوة يزيل تعبهم وإرهاقهم. وعندما آن أوان الانصراف، وضع القريب مبلغ المال المتّفق عليه في جيبه، وسمح للحمّاليْن بأن يحمل كلّ واحد منهما قطعة كبيرة من الأثاث القديم الأحمر الشبيه بلون البطّيخ الأحمر على ظهره. وسار الثلاثة في موكب باتّجاه الباب، إلّا أنّهم اضطرُّوا إلى التوقّف لسوء الحظّ على حين بغتة. مثل هذه الحوادث يقع دائمًا بين حين وآخر على الطريق العمومي. فعندما تشاهد مركبة تتوقّف فجأة أمامك، تعرف من فورك أنّ حركة المرور مزدحمة، إلّا أنّك بسبب عدم تمكّنك من النظر إلى أمام لرؤية ما حدث، لا تملك أيّ فكرة عن طبيعة المشكلة. وهنا تضطرّ إلى التوقّف. بيد أنّ القريب والحمّاليْن كانوا محظوظين أكثر، وهم تحت رحمة عبء ثقيل بسبب ما كانوا يحملون على ظهورهم. وعلى الرّغم من أنّهم يعرفون سبب الزحام أو مكانه، إلّا أنّهم تمكّنوا من معرفة سببه المباشر. فقد توقّفت مريم عند العتبة، تومض عيناها وميضًا لا يبشِّر بخير؛ وكان جسمها الثقيل وبطنها الكبيرة التي بدت وقد ازدادت حجمًا في الدقائق القليلة الماضية، يعطّلان الخروج ولا يدعاهم يمرُّون.

كان زوج مريم هو أوّل من أدرك طبيعة مشكلة زوجته. فما كان منه إلّا أنّ تنحّى جانبًا، مذعنًا إذعانًا صامتًا ومقدّرًا مجرى الأحداث. كان موسى يعاني قرحة في معدته. لهذا، فإنّه كلّما انزعج واستاء، فإذا بحرقة حامضيّة تستبدّ بمعدته. وهكذا، وجد أنّ الطريق إلى حياة هادئة يتمثّل في الرضوخ لزوجته كما هي. وكان مصمِّمًا، بخاصّة، على تحاشي

Twitter: @ketab_n

الشجار وإيّاها أثناء حملها. إلّا أنّه شعر بالرأفة والعطف تجاه الحمّاليْن، فرأى ثمّة ضرورة لإعطائهما تفسيرًا ما للموقف الذي وجدا نفسيهما فيه. فبدأ يقول: «إنّها لا تستطيع التخلّي عن أرائكها القديمة. أعرف أنّها لا تستطيع».

الحقّ أنّ كلمة «أعرف» أشبه ما تكون بإشعار مسبق، وهي أشبه ما تكون باقتراح مفاده: «لماذا لا تنسحبون وأنتم في بداية اللعبة؟» إلّا أنّ القريب والحمّاليْن لم يستطيعوا فهم الرسالة. وتبعًا لذلك، وضع الحمّالان الأريكتين على الأرض، وراحا يتجادلان جدالاً عنيفًا. إلّا أنّ غضبهما المتزايد زيادة مطّردة، لم يفعل شيئًا سوى أنّه دفع مريم إلى التمسُّك بقضيّتها تمسُّكًا أشدّ من ذي قبل. صحيح، أنّ الأرائك الورديّة بلون البطّيخ الأحمر الباهت كانت مستهلكة، إلّا أنّها ذات ماضٍ مشترك لأفراد الأسرة جميعًا. فقد جرى شراؤها عندما انتقل موسى ومريم إلى منزلهما الجديد في نهاية الأمر، بعد أن قضيا خمس سنوات عجاف صحبة والدة أمّ موسى وأبيه. وأنفق محمّد سنوات صباه عليها. وكان الثقب الأسود الصغير في ركن الكرسيّ المزدوج ذكرى رماد سيكارة أحد الأقرباء جاء لزيارة الرضيع الصغير. لم يعد ذلك القريب على قيد الحياة الآن. كان صوته الأجشّ يدخّن أحيانًا من حروق السيكارة التي تركها من ورائه. هكذا كان الماضي.. الماضي الذي لا سبيل إلى التنصُّل منه. الماضي الذي لا يشبه فتات طعام تناثر من فوق سجّادة، ولا يمكنك نفضها والتخلُّص منها من نوافذ مفتوحة.

قال القريب، وهو يضع إحدى الأرائك زبرجديّة اللون على كتفه:

ـ حسنًا، في هذه الحالة، سنعود بالأرائك الجديدة.

وما إن تقدَّم إلى أمام، حتى امتدَّت أيدي الحمّاليْن إلى القطعتين الأخريين من مجموعة الأرائك. فما كان من مريم إلّا أن رنت إليهم، وفاضت عيناها بحزن وأسًى، وكأنّها طفل صغير يشاهد حَمَلاً صغيرًا

Twitter: @ketab_n

أطعمته بكلّ الحبّ على مدى أيّام، وهو يؤخذ منها لكي يُذبح. حاول القريب والحمّالان في غضون الساعة التالية إقناع مريم من دون جدوى، وكان جدال القريب حاميًا، وجدال الحمَّالين يائسًا بعد أن أدركا الآن أنّهما قد لا يتلقّيان أيّ أجر في نهاية المطاف. ولمّا صعب اتّخاذ قرار بشأن الأرائك التي ينبغي أن تخرج من البيت والأرائك التي ينبغي أن تبقى فيه، فإنَّ الحاضرين لبثوا واقفين طوال هذا الجدال المستعرّ (باستثناء موسى) ما دفعهم إلى أن ينفجروا غيظًا على الأرجح (باستثناء موسى). وفاضت عينا مريم بالدموع مرّات ومرّات، وشعرت بالغثيان مرارًا وتكرارًا. ولمّا كانت تنظر إلى غثيانها، إن لم تنظر إلى دموعها، بوصفه رسالة مرسلة من الجنين الذي في رحمها، فقد سألت وهي تشبك يديها من فوق بطنها:

ـ هل رأيتك؟ حتى قلب هذا البريء الذي لم يولد بعد، لا يرغب في التخلّي عن الأرائك.

وهنا لجأت مريم إلى الجمع بين مهارتيها الاثنتين لتعظيم قوّتها، فراحت تبكي وتتقيّأ بكثرة في عصر ذلك اليوم، إلى أن حقَّقت الانتصار في آخر النهار. وغضب القريب من نفسه غضبًا شديدًا لانتهاكه أقدم قاعدة في تاريخ المهنة، وقال:

ـ لن أبيع وأشتري مع الأقرباء بعد اليوم.

وهكذا غادر الشقّة رقم ١ من قصر الحلوى رفقة الحمَّالَيْن اللذين كانا غاضبَيْن عليه لإخفاقه الواضح.

على الرّغم من خروج مريم منتصرة انتصارًا لا ريب فيه، إلّا أنّ مشكلة غير متوقَّعة كانت في انتظارها، وهي: كيف سيضعون طقمين منفصلين من الأرائك بطاولاتهما المخصَّصة للقهوة في آن واحد داخل شقّة الحارس الضيّقة أصلاً بسقفها الواطئ؟ إنّه تحدٍ للعقل فضلاً على

Twitter: @ketab_n

أنّه مؤذٍ للعين! إلّا أنّ ما من شأن مريم أن تستسلم. ففي استفادتها من كلّ سنتمتر مربّع متوفّر لديها، تمكّنت من جعل أريكتين لثلاثة أشخاص، وأريكتين لشخصين، وستّ أرائك لشخص واحد مناسبة في حجرة الجلوس البالغة مساحتها عشرين مترًا مربّعًا، وذلك بوضعها الواحدة بجانب الأخرى مثل عربة، ومن بينها طاولات القهوة. من هنا، تأتي الغلطة الفادحة التي اقترفها محمّد في صباح هذا اليوم، عندما صرّح لأمّه عن عزمه بعدم الذهاب إلى المدرسة باللوذ من وراء إحدى عربات الأثاث هذه.

قالت مريم، وهي تواصل دفع الأرائك بقدم واحدة والبدء بتحضير غداء ولدها:

ـ سوف تذهب، شئت أم أبيت.

مرّة أخرى، كانت قد أعدّت شطيرة جبنة بالخبز المحمَّص، تتألّف من شريحة من الجبنة البيضاء وشريحة من الطماطم وثلاث وريقات من البقدونس من بينها. وبحسب اليوم، كانت تضع أيضًا ثمرة واحدة ومبلغًا كافيًا من المال، من دون زيادة أو نقصان، لشراء زجاجة حليب بالزبدة، كان محمّد يشتريه من حانوت المدرسة. وكانت شطائر الجبنة بالخبز المحمَّص متوافرة في حانوت المدرسة أيضًا، وكانت بلا ريب أفضل وأكثر سخونة من تلك التي تُعدّ في المنزل، ولكن على الرّغم من أنّه أخبر أمّه مرارًا وتكرارًا ألّا تحضِّر له شطيرة الجبنة بالخبز المحمَّص، إلّا أنّه لم يتمكّن مرّة واحدة من جعلها تصغي له. لو كانت ثمّة وسيلة لمنعها من وضع الطماطم فيها، وإذا لم تكن ثمّة وسيلة لذلك، فالبقدونس على الأقلّ، لأنّه لم يستطع أن يفهم سبب وجوده في الشطيرة. لكن كلّما قرّ رأي مريم على شيء من الأشياء، متجاهلة بذلك كلّ العلامات المشيرة إلى الاتّجاه المعاكس، فإنّها كانت بكلّ بساطة تتوارى مثل حيوان بحريّ في صمت قاتل يشبه صمت الكهوف، رافضة الخروج إلى أن يستسلم

Twitter: @ketab_n

الطرف الآخر استسلامًا كاملاً، لأنّها ترى استحالة الابتعاد عن هذه الأشياء التي تعلَّمتها في مرحلة من مراحل حياتها لا يعلمها إلَّا الله: فقد كانت شطائر الجبنة بالخبز المحمَّص، على سبيل المثال، تُحضَّر بشريحة من الطماطم وثلاث وريقات من البقدونس. هذا ما كانت تفعله في صباح كلّ يوم من أيّام الأشهر الخمسة والأسبوع التي خلت، وما هذا اليوم بمستثنًى من ذلك. غير أنّ محمّدًا شعر كأنّه لا يحمل هذه الطماطم وهذا البقدونس إلى المدرسة كلّ يوم فحسب، بل كان يحمل أيضًا عين أمّه وأذنها. وإذا امتنع عن تناول هذه الشطيرة، أو إذا ما اقترف جريمة أكبر تتمثَّل في الغياب عن المدرسة، فإنّه كان يشعر مؤكَّدًا أنّ عين الطماطم الحمراء وأذن البقدونس الخضراء سوف تنقل الخبر إلى أمِّه من فورهما.

إلى أن بدأت المدرسة، كان يحمل قطع الخبز بيديه عن حبّ، وليس عن خوف. في تلك الأيّام، كان أنفا خبز وجبة الفطور يعودان إليه. وبما أنّ مريم أعطت الأنفين إلى ولدها، فإنّها لم تهمل نزع قصاصة الورق الصغيرة المرتبطة بأحد هذين الأنفين، وكانت تقول لمحمّد هذه القصاصة من الورق التي توجد عليها إشارات إنَّما هي رسالة من ابنة الخبَّاز، وينبغي أن تظلّ الورقة منتظرة جانبًا إلى أن يفرغ محمّد من تناول فطوره، وعندئذٍ فقط يكون محمّد قد حصل على حقّ معرفة ما هو مكتوب فيها. لذلك، كان من شأنه أن يأكل من دون إثارة أيّ جلبة. ولكنْ، حتى إذا اضطرّ إلى أن يفرغ من أكل بيضة مسلوقة واحدة كلّ صباح، فإنّه لأجل قراءة الرسالة، سينتهي فطوره من دون أن ينبس ببنت شفة. وعندما يحين الوقت، تستمتع مريم استمتاعًا خبيثًا في تنظيف المائدة تنظيفًا بطيئًا قدر المستطاع لزيادة فضول ولدها، ثم تصبّ لنفسها كوبًا من الشاي وتبدأ القراءة، محلِّلة الكلمات في فمها مثل قطعة من السكَّر.

كانت ابنة الخبّاز طفلة مستوحدة. فهي بلا صديقات أو شقيقات.

Twitter: @ketab_n

وفي الوقت الذي يقضي والدها ليله في المخبز، فإنّها كانت تجلس وحيدة بين أكياس الطحين، وتكتب سرًّا رسالة إلى محمّد. وكانت والدتها قد انتقلت إلى جوار ربِّها وهي ما تزال طفلة صغيرة، فتزوَّج والدها مجدَّدًا. وراحت زوجة الأب تسومها سوء العذاب باستمرار، لأنّ قلبها كان قُدَّ من حجر. فكانت البنت المسكينة تهرب من البيت كلّما سنحت لها الفرصة لتزجي الوقت في المخبز رفقة أبيها العزيز. كان الخبز الليِّن، الطيِّب المذاق، يُخبز في المخبز إضافة إلى السميط المقرمش. وفي حين واصلت مريم قراءة هذه الرسائل، فإنّه لم يخطر ببال محمّد أن يتساءل كيف أمكن حشر كلّ هذه الكمِّيّة من المعلومات في قصاصة ورق صغيرة، لم يتجاوز حجمها في إحدى المرّات ثلاثة سنتمترات مربَّعة. في عالم تلك السنين، كان الخبز مقدَّسًا، وكلّ قصاصة ورق عليها كتابة ما تظلّ لغزًا من الألغاز. وفي حين التقى سحر الاثنين المستغلق على رائحة الخبز، فإنَّ ابنة الخبَّاز كان من شأنها أن تترأرأ من تحت هالة السحر نفسه.

أراد محمّد أن يعرف كلّ شيء عنها: ما شكل المخبز، وماذا تفعل فيه، وهل ترغب في النوم صباحًا وتنهض ليلاً عندما يكون كلّ الأطفال في مثل سنِّها قد خلدوا إلى النوم مبكرين، وما الألعاب التي تلعبها.. والأهمّ من هذا كلّه، هل هي جميلة أم لا!! ووصفت مريم الفتاة على أنّها «شقراء ورقيقة مثل زنبقة الماء التي تتفتَّح في المياه». واحتفظت بشعرها طويلاً، فوصل خصرها في ضفيرتين، كلّ ضفيرة في جانب. وكان لمحمّد شعر طويل أيضًا، وكان الذين يشاهدونه في الشارع يظنُّون أنّه بنت.

كان أكثر ما تتحدَّث عنه ابنة الخبّاز في رسائلها هو الناس الذين كانوا يقفون قرب المخبز طوال النهار. وكان كبار السنِّ يأتون متّكئين على عصيِّهم، وكانوا يغمسون البسكويت الصلب الذي يشترونه في شايهم،

Twitter: @ketab_n

فيذوب في أفواههم الخالية من الأسنان من دون أن يُسمع لهم صوت. وكان من بين أولئك الناس بائعو السميط، الذين يفدون في وقت مبكر من صباح كلّ يوم حاملين صواني خشبيّة مدوّرة على رؤوسهم. كانت ابنة الخبّاز تريد أن تكون صديقة لهم، إلّا أنّ بعض هؤلاء كانوا أجلافًا، يتفوَّهون بكلمات غير لائقة. لكن على الرّغم من ذلك، ثمّة من كان يملك قلبًا من ذهب من بينهم. فعلى سبيل المثال، ثمّة صبي يعلو النمش وجهه في وسعه أن يقف على رِجْل واحدة ويدور، وفي كلّ يد من يديه قطع من سميط في عودين رفيعين. واستاء محمّد من كلام ابنة الخبَّاز بين آونة وأخرى عن مواهب ذلك الصبيّ، إلّا أنّه لم يعترض. وهناك أيضًا بائعو المعجَّنات الذين كانوا يتوقّفون بالقرب من مخبزهم رفقة عرباتهم التي يدفعونها باليد. وثمّة نساء يأتين لشراء خبز البيتة المسطَّح الرقيق الذي يخبزه المخبز. وكنّ يعاملن ابنة الخبّاز معاملة طيّبة.

وكنّ يعطين الابنة قطعة من خبز البيتة قبل أن يحملن صوانيهنّ الثقيلة، ويعدن أدراجهنّ إلى منازلهنّ. كانت ابنة الخبّاز تكتب عن هذه الأمور مطوَّلاً، وكانت تقرأها بحذافيرها، فيمضي الوقت بطيئًا. إلّا أنّ براءة البنت الشبيهة ببراءة طائر القاوند الهادئ سوف تتحطَّم وتتناثر في الخريف، عندما سُجّل محمّد في الشعبة ١ ـ ج من المدرسة الابتدائيّة الوحيدة في الحيّ. فشعره كان حليقًا، ولم يعد في وسع أحد أن يقول إنّه يشبه بنتًا من البنات. ثم أصبحت مدّة تناول طعام الفطور أقصر. وبعد مضيّ زمن قصير تعلَّم القراءة والكتابة، وعندئذٍ اكتشف أنّ تلك القصاصات الورقيّة الملتصقة بكلّ رغيف من الخبز ليست سوى علامات دالَّة على المخابز، وأن ليست ثمّة رسائل موجَّهة من ابنة الخبَّاز الشقراء. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد ثمّة رسائل تستوجب القراءة، ولم تعد ثمّة فتاة بوجه قمر كي تكون محبوبة. إنّ تعلُّم القراءة كان يعني ضياع سرّ الكتابة نهائيًا.

Twitter: @ketab_n

ـ مستحيل، لن أذهب!

هكذا صرخ محمّد زاعقًا، وعاجزًا عن رفع عينيه عن علبة الغداء. إلّا أنّ صوته كان هذه المرَّة أشدّ وهنًا؛ وفي غضون دقيقتين أدركت مريم عند سماعها أنينًا مكتومًا يشبه أنين كلب صغير، أنَّ ابنها قد استسلم وتوقّف عن دفع الأريكة. وبينما هو يخرج من ركنه مكتئبًا، مخيَّب الأمل، رشق والدته بنظرة شرسة.

لاح محمّد قرب جسم والدته الضخم ضئيلاً، وكأنّه نقطة من النقطتين الكائنتين من فوق الحرف «ة». وعندما يولد شقيقه أو أخته، فإنّه سيكون النقطة الثانية. على الرّغم من أنّ محمّدًا لم يكن قد تجاوز سنّ السادسة، ويعرف أنّ كلّ الأطفال الذين في مثل عمره أصغر من أمّهاتهم، إلّا أنّه بخلاف غيره من الأطفال، كان قد عرف منذ زمن بعيد، وتقبَّل حقيقة مفادها أنّه سيكون دومًا أصغر من أمّه مهما تقدَّم به العمر، ومهما بلغ من الكبر، ومهما حقَّق من مستقبل يتعذَّر تحقيقه. كان ما تملكه والدته من جبين عريض يتغضَّن عندما تنتابها سورة غضب، ووجه دائريّ وخدَّين متورِّدين ومتهدِّجين، وعينين بندقيَّتين واسعتين تتّسعان عندما تزداد عنادًا، ونهدين منتفخين مثل منطادين، وذراعين تعلوهما الغمّازات، وجسدٍ ريّان ينتفخ في منطقة الفخذين، وقدمين كبيرتين تشبهان قبر طفل، ومعتقدات خرافيّة لا أوّل لها ولا آخر، وطاقة عجيبة لا تصدّق، على درجة عظيمة من الضخامة، فتسحق كلّ عقبة أمامها وتحيلها إلى غبار... وتبقى كذلك على الدوام...

لهذا السبب، وضع لفافة طعامه من الخبز المحمّص والبقدونس في علبة غذائه، وسار من فوق جثّة الصرصار المسطّحة، التي سبق له أن وطأ عليها في صباح هذا اليوم، عند ركن الأريكة المزدوجة السماويّة اللون، يجرّ قدميه جرًّا، وانطلق في طريقه إلى المدرسة.

* * *

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٤

أبناء الطبع الناري

تذمَّر سكّان الشقّة الكائنة إلى جهة اليمين من مدخل قصر الحلوى، مثلما تتذمَّر كلّ الأسر القاطنة في الدور الأرضي من أنّهم دائمًا ما يقعون تحت أنظار الآخرين على نحو أكثر ممّا ينبغي. فعلى امتداد النهار، لم يتمكّن سكّان العمارة، ولا ضيوفهم على اختلاف مشاربهم، ولا الباعة الجائلون الذين يتنقّلون من باب إلى باب، والذين يخفقون دومًا في قراءة العلامة المدوَّنة التي تحظِّر مجيئهم إلى هنا، من منع أنفسهم من اختلاس نظرة إلى ما وراء نوافذ حجرة الجلوس الخاصّة بالشقّة رقم ٤. وإذا ما أضفنا إلى هؤلاء الناس زبائن دار التجميل الذين يستطلعون الأخبار خلسة من الجهة المقابلة، فإنَّ النظرات الخاطفة التي كانت تهدف إلى التسلُّل إلى حجرة الجلوس من خلال نوافذها تضاعفت عشرات المرّات، مثلما تضاعف قلق الساكنين داخلها.

قد ينتهي الأمر ببعض الأسر الساكنة في الدور الأرضي على اعتياد مثل هذه الحركة في مرور الناس. ووصل الأمر بعدد غير قليل من أفراد هذه الأسر من الاستفادة من هذا الوضع استفادة قصوى، فراحوا يراقبون مراقبة مستمرّة من الداخل أولئك الذين يراقبونهم مراقبة مستمرّة من

Twitter: @ketab_n

الخارج ـ متّبعين سياسة «العين بالعين» إلى حدٍّ ما! ولعلَّه ليس من باب المصادفة أنّ أكثر الناس اطّلاعًا ممَّن يمارسون أسلوب اختلاس النظر إلى الآخرين في خلوتهم في العمارات السكنيّة، يقطنون عادةً في شقق تقع في الدور الأرضي. إلّا أنّ أبناء الطبع الناري لم يكونوا من مثل هؤلاء الأشخاص. فهم لا يستطيعون أن يغفروا للآخرين القادمين إلى العمارة إذا ما نظروا إليهم، مثلما أنّهم لم يرغبوا في نقل أبصارهم إليهم والتجسُّس عليهم. كانوا يعتقدون أنّ العالم الكائن خارج منزلهم أرضًا لامتناهية من إزعاج ليس له أوّل ولا آخر. في واقع الأمر، عندما نُشر «قانون الألقاب» في تركيا لوضعه موضع التنفيذ، فإنّه لو لم يترك الخيار لكلّ أسرة كي تختار ما تريد من ألقاب، ووضع خصائص أفرادها موضع اعتبار، فإنَّ من شأن اسم أسرة «أبناء الطبع الناري» المثبّت قرب جرس الباب الرئيس للشقّة رقم ٤ أن يكون «أبناء الإزعاج الذي ليس له أوّل ولا آخر».

كانت النوافذ العريضة في الشقّة مغلقة بإحكام طوال النهار، ومغطّاة بدروع مختلفة، ولكنّها متشابهة من حيث عدم إمكانيّة اختراقها ـ أوّلاً بنسيج ناعم من الكتّان أو القطن، ثم بظلّة من القطن إذا ما توسَّطت الشمس كبد السماء. وعندما يرخي الظلام سدوله في الخارج، تسدل الستائر المخمليّة السميكة ذات اللون الشاحب الشبيه بلون العمارة. وبهذا تكون نوافذ حجرة الجلوس في الشقّة رقم ٤ بعيدة عن أنظار العالم الخارجي ومحميّة منه، مثل حيوان يقظ يموّه نفسه بلون التربة المحيطة به ليتفادى نظرات أعدائه. ومع هذا، حتى عندما تُسدل هذه الحواجز الثلاثة، النسيج الكتّاني والظلّة والستائر المخمليّة، فإنّه لا يبقى سوى شقّ يتسلَّل منه ضوء بسيط في جهة اليمين. هناك، في ذلك الركن، اتّخذ مجلسه ضياء ـ أحد أبناء الطبع الناري البالغ من العمر ستّة وخمسين عامًا الذي دأب على الجلوس في ذلك المكان، منذ اليوم

Twitter: @ketab_n

الذي طُرد فيه من محطّة المياه الحكوميّة بسبب تلقِّيه رشا. وكان أثناء مطالعته الصحف ومشاهدته التلفاز واحتسائه القهوة وتناوله حلوى اليقطين، يختلس النظر من هذا الشقّ في حذر شديد محتويًا ما يحيط به بعينين قلقتين ملؤهما الشكّ والارتياب، من دون أن يعرف تمامًا ما الشيء الذي يرنو إليه وما سبب ذلك. في تلك اللحظات النادرة التي ينهض فيها ضياء من على أريكته، تحلّ محلّه زيرين إحدى بنات الطبع الناريّ، معلّمة مادَّة الكيمياء العضويّة المتقاعدة والبالغة من العمر خمسة وخمسين عامًا. وكانت ترنو بدورها من هذا الشقّ من حين إلى حين، لا لكي تنظر إلى الخارج وإنّما لتطمئنّ على طائر الكناري وهو في قفصه المجاور للنافذة. وقد انشغل بال زيرين انشغالاً عظيمًا دائمًا، لأنّ هذا الطائر لم يغرِّد ولو مرّة واحدة بخلاف الطائر الذي سبقه. وواظبت على القول إنّها ستضطرّ إلى فتح النافذة حتى يغرِّد، ولكنَّها لم تجد في نفسها الشجاعة على هذا العمل. كانت ذكرى ذلك الصباح اللعين الذي وجدت فيه طائرها الكناري الأوّل ملطّخًا بالدماء ما تزال حيّة في ذهنها. وعلى الرّغم من أنّ المجرمين الذين ارتكبوا ذلك العمل قد تواروا عن الأنظار، عندما انتقل من قصر الحلوى ذلك الرجل التعس المدعوّ «نبيّ القطط» (وأخذ معه كلّ عشيرة القطط)، ما دفع بقطط الشوارع السائبة التي تحوم في الحيّ إلى أن تهزّ ذيولها، إلّا أنّها ما تزال حتى يومنا هذا جزعة جزعًا شديدًا بسبب احتمال أن ينتهي المطاف بطائر الكناري الجديد إلى النهاية نفسها التي لقيها الكناري الأوّل. وساورتها الشكوك من حول ذلك القطّ العملاق، الأسود بلون القارّ، والمكفهرّ الوجه، والذي يبدو وكأنّ جلده قد سُلخ وأُلبس فراء أربع قطط على الأقلّ.

الحقّ، أنّ زيرين لم يكن لديها أدنى اهتمام بطيور الكناري أو بأيّ طيور أخرى طيِّبة النشأة، إلى أن كسر زكريّا ــ أحد أبناء الطبع الناري (البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا) أنفه للمرّة الرابعة. منذ زمن بعيد،

Twitter: @ketab_n

كانت الحياة في غاية العذوبة وخالية من التعقيدات، عندما كان أنف ابنها نتوءًا بارزًا لطيفًا على غضروف طريّ لم يتّخذ له شكلاً بعد. ولكن ما إن دخل مرحلة المراهقة حتى زالت التقوُّسات الرقيقة من هذا الوجه الطفوليّ وحدث تغيّر غير متوقّع في أنفه، فازداد حجمه طولاً أوّل الأمر ثم تقوَّس إلى أسفل. في الأثناء، كانت زيرين تراقب هذا التحوُّل وقد استبدّ بها القلق، وكأنّها تتابع اقتراب غريب خبيث. كانت راضية مرضيّة بأنفها الدقيق، وبأنف زوجها وإن لم يكن يعدّ أنفًا جميلاً، إلّا أنّه على الأقلّ كان دقيق الملامح. وفي ضوء هذه الحقائق، ساور زيرين الإحساس بضرورة التسلُّق إلى أعلى شجرة العائلة، إذْ إنّها كانت تؤمن إيمانًا راسخًا بأنّ كلّ العيوب في العالم ناجمة عن الجينات. وعلى هذا الأساس، عندما أدركت إدراكًا مريرًا أنّ أنف ولدها قد أكمل تحوُّله ولن يعود إلى شكله السابق، بدأت تفتِّش وبيدها خارطة جينات كي تكتشف على الأقلّ الشخص المسؤول عن هذا الحظّ العاثر. عادت أدراجها متناغمةً، ورويدًا رويدًا، مركِّزةً على أصولها هي. فأخذت تراجع أوّل الأمر أسماء الأقرباء الذين تعرفهم، ولمّا لم تجد شيئًا، قلّبت صفحات كتب مصوَّرة قديمة، واحدًا تلو الآخر. لتعود من بعد رحلاتها التي لا تُعدّ ولا تحصى إلى خارطة الجينات بخفّي حنين. وبمرور الوقت، تخلّت عن عمليّة البحث.

ثم بلغ زكريا الرابعة عشرة من عمره، وهشّم أنفه عندما حلّق بسرعة المراهقة، وطار وهو على درّاجته الهوائيّة أسفل تلّ من التلال. ولمّا تلقَّت زيرين هذا النبأ، شعرت في أعماقها بارتياح لم تستطع أن تعترف به لأيّ شخص. لكنْ، على الرّغم من الآمال التي ساورتها بأنّ هذه الحادثة السيِّئة الحظّ من شأنها أن تكون بداية جديدة، تعمل على تقويم أنف ولدها وسلوكه في الوقت نفسه، إلّا أنّ كلّ شيء ازداد سوءًا بعد ذلك. فقد كشفت العمليّة الجراحيّة أنّ الأنف الذي كان قبيحًا من قبل

Twitter: @ketab_n

قد حدث فيه التواء بشع لا سبيل إلى تقويمه، وظلّ على تلك الحالة. ممّا يدعو إلى الاستغراب أنّ ميل زكريا نحو الأساليب الملتوية والمعوجّة حدث في الوقت نفسه تقريبًا. ففي السنوات التي أعقبت ذلك، سوف يعدل زكريا، كلّما واتته الفرصة، عن طريق الاستقامة الضيّق الذي أرشدته إليه أمّه، ويزجّ بنفسه في كلّ المنعطفات التي يجدها أمامه، فيضيّع طريقه إلى أن يصبح في نهاية المطاف مصدرًا شاملاً من مصادر الحرج والعذاب. ففي السنة التي كسر أنفه، راح يسرق النقود من والديه؛ وفي سنّ الخامسة عشرة، وهب كلّ ما يملك من فائض الوقت لممارسة العادة السرّيّة؛ وفي سنّ السادسة عشرة، راح ينظر إلى المدرسة بوصفها ساحة حيث يستطيع فيها أن يتغلّب على الضعفاء؛ وفي سنّ السابعة عشرة، أخذ يدخّن علبتي سكائر يوميًّا؛ وفي سنّ الثامنة عشرة، قرّر أن «يفعلها» بأسرع وقت ممكن وراح يلصق أنفه الذي أزعج أمّه أكثر فأكثر بكلّ ما استطاع أن يشمّه من قذارة. وعندما أضحت نتيجة عمليّة أنفه الثانية أسوأ من الأولى، وصلت مخاوف أمّه زيرين إلى ذروتها بينما هبطت آمالها إلى الحضيض.

عندما استجمع زكريّا قوّته أثناء النقاهة وله من العمر اثنان وعشرون عامًا، راح يخالط مختلف أنواع شبّان المافيا في ساحات وقوف السيّارات؛ وفي الثالثة والعشرين، عام بحبّ مطلّقة تعمل في أحد المصارف ولها طفلان صغيران؛ وفي الرابعة والعشرين، طعن بخنجر حارس المصرف الأمني الذي أرسلته في أثره عشيقته السابقة، فأُلقي القبض عليه؛ وفي سنّ السادسة والعشرين، انتقم انتقامًا فظيعًا وكسر أنف رئيس رابطة تجميل كوزغونجوك (الذي بدأ ينظّم أهالي الحيّ في جماعة تناهض تشييد ساحة وقوف سيّارات عامّة في الحديقة الخلفيّة لأحد البيوت العثمانيّة الكبيرة)؛ وفي سنّ السابعة والعشرين، توارى عن أنظار أسرته؛ وفي سنّ الثامنة والعشرين، ولدى العثور على مخبأه، زُوِّج

Twitter: @ketab_n

زواجًا سريعًا من ابنة أحد الأقارب كان وجهاء الأسرة قد وجدوها مناسبة له، فأنجبت له طفلاً في العام نفسه. ومع هذا، وتبعًا لرواية زوجته الرشيقة القوام التي غالبًا ما كانت تزور شقّة أبناء الطبع الناري لتشكو باكية، فإنَّ الزواج لم يُقوِّم سلوكه قيد أنملة. ولم يكن يهيم على وجهه في أنحاء المكان آناء الليل وأطراف النهار كسابق عهده، وإنَّما تحوّل بدلاً من ذلك إلى مريض عصبيّ يسهل إزعاجه. وفي إحدى نوبات الانهيار العصبيّ، عامل «معاملة خشنة» سائقة سيّارة قليلة الخبرة صدمت سيّارته عند اشتعال ضوء المرور البرتقالي اللون، وبعد أن ضربه زوج المرأة المفتول العضلات ضربًا مبرّحًا في اليوم الذي أعقب ذلك الحادث، اضطرّ إلى معالجة أنفه مجدّدًا.

في هذه الأثناء، كانت زيرين تنتظر على أحرّ من الجمر ولادة الطفل الذي كانت كنّتها حبلى به. إنّ الأطفال الذين يبدأ حمل أمّهاتهم بهم أثناء تعثُّر الحياة الزوجيّة ـ ويصبحون على علاقة طيّبة، في حين ما يزال الزواج عاجزًا عن النهوض من الكبوة التي سقط فيها على وجهه ـ يشبهون أكياس إسمنت: أكياس إسمنت صغيرة ترمِّم الصدوع الظاهرة للعيان، وتحافظ على أعمدة العشّ التي تربط وتعزّز هذه الزيجات التي تكون على شفير الهاوية. وعندما وُلد طفل زكريّا، فإنّه مثل أيّ كيس إسمنت، كانت له مهمّة أيضًا، مهمّة مزدوجة متمثّلة في الحيلولة دون تحطُّم أنف أبيه أوّلاً وزواجه ثانيًا.

وتحقّق بعض النجاح، وإن كان نجاحًا موقّتًا على الأقلّ. فقد مرّت سنة وخمسة أشهر ونصف الشهر من دون أن تحدث أيّ حوادث. ثم جاء الخبر المفجع الذي لم يصدم أحدًا. إذْ بينما كان زكريّا يحمل عربة الطفل، ويطوف بها داخل المنزل، هوى من على السلالم. وذهبت زيرين إلى المستشفى التي زوّدتها باسمها وعنوانها كنّتها أثناء اتِّصال هاتفي وسط النشيج والبكاء، وكانت على أهبّة الاستعداد لمواجهة

Twitter: @ketab_n

المنظر نفسه للمرّة الرابعة، وكان في كلّ مرّة منظرًا أشدّ إزعاجًا، ولكنَّه أقلّ إثارة للعواطف والمشاعر. اقتحمت الغرفة غاضبة، ورشقت ابنها بنظرة تنطوي على حيرة وذهول، حيث كان يقف أمامها وهو في حالة ممتازة. صحيح أنّ أنفًا قد عُرِّض للكسر في الحادث داخل البيت، ولكنَّه لم يكن أنف زكريّا هذه المرّة، بل أنف الطفل الصغير النائم في العربة التي تدحرجت أسفل السلّم. وعندما راحت تتفحّص الضمّادات التي ألِفت مشاهدتها على امتداد سنوات، لاحظت أنّ الراية الثابتة في وسط وجه ابنها، والتي ظلّت تنظر إليها على أنها راية التمرُّد الموجَّهة ضدّها وضدّ سلطتها، قد تحوّلت الآن إلى وجه حفيدها، فاقتنعت أنّ ثمّة تحوُّلاً وراثيًّا رهيبًا قد حدث، وأنّ ما من سبيل إلى إصلاحه. في ذلك الزمان والمكان، تخلّت عن كلّ آمالها بشأن ولدها وسلالته.

كان أوّل شيء أقدمت على فعله عند وصولها قصر الحلوى، وهي في حالة شديدة من اليأس وانعدام الأمل، أن أوصدت الباب من ورائها في غرفة النوم، وراحت ترتِّب محتويات الدرج في الخزانة الكستنائيّة التي كانت تحتفظ داخلها بمقتنيات الطفل وحاجيّاته. فنحن كلّما نقرّر أنّنا لم نعد نحبّ شخصًا ما، ينبغي لنا بادئ ذي بدء أن نفكِّر في ما سنفعل بمقتنياته وحاجيّاته. غير أنّ زيرين كانت لا تستطيع ولا تريد التخلّي عن كلّ ما من شأنه أن يكون ذا صلة بأسرتها، ولهذا السبب، فإنَّ أصعب ما يمكنها أن تظهره إنّما يتمثّل في إخراج مقتنيات ولدها، لتلقي نظرة فاحصة على كلّ واحدة منها قبل أن تُعيدها إلى مكانها مجدّدًا. وفي أثناء تقليبها كلّ محتويات الخزانة الكستنائيّة، ظهرت للعيان بغتة تلك الجينة الآثمة التي لبثت تبحث عنها سنوات طويلة، في كتاب قديم عن «الإتيكيت» محشور من وراء أحد الأدراج السفلى. ثمّة صورة لا يعلم أحد من حشرها، ومتى، في فصل من فصول كتاب كان يحتوي على صور إيضاحيّة في كلّ صفحة من صفحاته، وكان عنوان

Twitter: @ketab_n

الفصل «كيف يكلِّم المرء سيِّدة غريبة لا يعرفها في مقصورة قطار؟» كانت الإجابة التي تتحرَّق زيرين شوقًا إلى معرفتها متوارية في هذه الصورة الشاحبة. فالأخ الرابع لجدّ زوجها ـ وهو شخص مغناج ذو خصائص أنثويّة، لا قيمة له، اعتاد الأقاويل ونقلها من شخص إلى آخر باستمرار وكان مسؤولاً أصلاً عن عديد المشاجرات الأسريّة، حتى بات الآخرون يصفونه بأنّه «هدهد» ـ كان يملك أنفًا يشبه أنف زكريّا تمامًا. في هذه الصورة التي التقطت لحمدي الهدهد في أواخر سني عمره، يبدو معتمرًا قبّعة طراز فيدورا، ممسكًا بإحدى يديه ماسك سكائر طويلاً نوعًا ما، مدخِّنًا سيكارة محدِّقًا إلى الأفق البعيد بنظرة حالمة، يرسلها من فوق مناكب أفراد الأسرة. كانت صورته جانبيّة، وكأنّه يريد أن يُظهر بشاعة أنفه. لم تكن زيرين مهتمّة بحقيقة أنّ معجم الأسرة ارتكب خطأً فادحًا، لأنّ الطائر المسمّى بالهدهد لم يكن ناقل أيّ كلام سوى الكلام الذي نقله من سليمان إلى بلقيس. الشيء الوحيد الذي كان محطّ اهتمامها هو الرجل الذي يحمل هذه الصفة أو اللقب.

ورأت أنّه لظلم فظيع أن لا يرث ابنها الوحيد الذي ليس لها غيره، ابنها البكر، أنف أبيه أو أمّه، وإنّما ورث أنف رجل عجوز مصاب بالخرف لم يره في حياته مرّة واحدة، ويحمل أكثر الجينات المثيرة للاشمئزاز في الأسرة كلّها.

وهنا شعرت بحافز مفاجئ، فنهضت من مكانها ورمت هذه الوثيقة القبيحة والكتاب في القمامة. وعلى الرّغم من تذمُّر مدير المبنى حاجّي حاجّي مرارًا وتكرارًا، وتوكيده على ضرورة عدم رمي القاذورات في أوقات غير مناسبة كي لا يُخدش مدخل العمارة النظر، إلّا أنّها وضعت كيس القمامة الأصفر خارج بابها الرئيس.

بعد خمس، عشر، ثلاث عشرة... سبع عشرة دقيقة، إذ ما توخّينا الدقّة، ساور زيرين إحساس عميق بالندم. ففي خلال دقيقة واحدة،

Twitter: @ketab_n

فطنت إلى أنّها، بعد أن لبثت حتى هذا اليوم تجمع في حرص شديد كلّ ما من شأنه أن يخصّ أسرتها، فإنَّ الأمر كان يقتضي منها أن تحتفظ بهذه الصورة القديمة على الرّغم من بشاعتها. إلّا أنّها وجدت كيس القمامة قد اختفى بعد أن فتحت الباب. كانت قد سمعت من أمّها حكاية ذات يوم، فتذكّرتها بغتة. كان والدها ووالدتها قد وضعا القطّ الذي احتفظا به في البيت منذ زمن طويل داخل كيس، لأنّهما لم يرغبا في الاحتفاظ به بعد اليوم، وذهبا إلى أبعد جهة استطاعا التوجُّه إليها حتى يتركا الكيس في حقل مهجور خارج المدينة. ولمّا رجعا إلى البيت ليلاً، وجدا القطّ جالسًا أمام البيت ينتظرهما. وهنا، سرت في بدن زيرين قشعريرة عندما سرحت ببصرها إلى المكان الخالي الذي كان فيه كيس القمامة، وهي القشعريرة نفسها التي شعرت بها أمّها، عندما رأت ذلك القطّ المخطّط والمنقّط بالسواد. إنّ الخيبة التي تساورنا عندما نشاهد شيئًا ما ظننّا أنّنا قد تخلّصنا منه، والخيبة التي تجتاحنا عندما نلاحظ شيئًا نفترض أنّنا نستطيع استعادته في أيّ وقت، وإذا به ينسلّ من بين أيدينا، إنّما هما شيئان يذكّرنا كلّ واحد منهما بالآخر.

حدثت مثل هذه الأمور في العمارة السكنيّة منذ زمن. فقد سرقت أكياس النفايات على نحو غامض من أمام الأبواب، قبل أن تسنح الفرصة لمريم كي تأخذها، ولكن بما أنّ تلك الأكياس لم تكن مثار اهتمام كبير لزيرين، فإنَّ لغز السارق والغرض من سرقتها لم يُحيّرا لبّها. أمّا الآن، فهي تريد استعادة زبالتها. وعلى حين بغتة، تحوّلت في ذهنها الزبالة المفقودة إلى رسالة مكتومة ـ رسالة على درجة بالغة من الخصوصيّة، فلا يمكن للغرباء الاطّلاع عليها. إنّ زبالتنا تخصُّنا وحدنا ما دام أنّها ما تزال أمام بابنا: إنّها زبالتنا وحدنا وهي ملكنا. وفي اللحظة التي ينتهي بها المطاف إلى حاوية النفايات، تصبح مجهولة. إنّ الذين يكسبون قوتهم من الزبالة يستطيعون وضع أصابعهم في الحاويات

Twitter: @ketab_n

في وسط الشارع أو في أكوام النفايات التي تعلو وترتفع في نواصي شوارع بعينها، أو في مكبّات القمامة بالقرب من المدينة. أمّا إذا تجرّأ هؤلاء البشر على فتح الزبالة الكائنة أمام بابنا أو خطفوها، وهذا هو الأسوأ، فذلك يعدُّ انتهاكًا لخصوصيّتنا.

في الساعة التي أعقبت ذلك، صعدت زيرين سلالم قصر الحلوى وهبطت منها، تفتش في كلّ مكان يمكن أنّ يخطر ببالها، ملقيّة بظلال شكوكها وارتيابها على كلّ فرد. في إحدى المرّات، خمَّنت أنّ كلّ أكياس النفايات الموضوعة أمام كلّ باب يمكن أن ينتهي بها المطاف إلى المكان نفسه مثل جداول الأنهار التي تصبّ كلّها في النهر نفسه. فخرجت وبحثت في كومة الزبالة المتراكمة عند سور الحديقة، غير أنّ ثمّة صدعًا في الأرض انحشر فيه كيس النفايات الأصفر المعقود عقدة ذات عُرًى. ولمّا كان حرّاس البناية قد ذهبوا لزيارة قريتهم، فقد بقي احتمال واحد لا أكثر وهو دار التجميل المقابل! بيد أنّها عادت من رحلة البحث رفقة زوجها وابنتيها خالية الوفاض، فاقدة أعصابها ومتضايقة. كما أنّها تلقَّت عددًا من الإهانات من مصفِّف الشعر السليط اللسان جمال، وكأنَّ اختفاء كيس النفايات مع صورة حمدي الهدهد لم يكن كافيًا لها.

بعد تلك الحادثة بزمن قصير، اشترت زيرين طائر كناريّ. وقبل الكناريّ كان لديها أسماك من شتّى الألوان والأنواع...

الحقّ، أنّ زيرين لم يكن لديها أيّ اهتمام بالأسماك إلَّا بعد أن اقتنعت أخيرًا، وبعد إنكار شديد، بأنّ ابنتها الكبرى مُصابة بمرض عصابيّ. كانت تحبّ ابنتها الكبرى حبًّا جمًّا، بل شاءت في يوم من الأيّام أن تحبّها أكثر من أيِّ شيء آخر. ففي تلك الأيّام التي راح فيها ولدها يتبع طريقًا معوجًّا اعوجاج أنفه، راحت بدورها تصبُّ كلّ اهتمامها وتغدق حبّها على ابنتها الكبرى. في تلك الأيّام، كما في هذه

Twitter: @ketab_n

الأيّام، كانت زينب (في سنّ الحادية والثلاثين اليوم) أكثر حيويّة ونشاطًا ومرحًا من أخيها وأختها. ففي سنّ الحادية عشرة، أرادت أن تصبح مديرة في المدرسة التي كانت تشتغل فيها والدتها، وأن تعمل في الإطفاء كي ترشّ كلّ ما يتوافر من ماء في محطّة المياه الحكوميّة التي يشتغل فيها والدها، وأن تتسكَّع مثل شقيقها، وأن تَحْبك بإبرة معقوفة مثل شقيقتها الصغرى، وأن تصبح ممثِّلة مثل والد أعزّ صديقاتها في المدرسة ــ كلّ ذلك في الوقت نفسه. ولم يتغيّر فيها سوى الشيء القليل عندما بلغت سنّ الحادية والعشرين، إذْ كانت ما تزال ترغب في أن تكون أفضل بكثير ممّن هنَّ في محيط بيئتها. كانت توزِّع يومها إلى فترات زمنيّة محدَّدة وتحصر أيّ انشغال آخر بين تلك الأوقات. كانت تكرِّس نفسها لأشياء متعدِّدة، فتنجز أعمالها الواحد تلو الآخر. وممّا يبعث على الدهشة أنّها كانت تنجح في معظم تلك الأعمال. كان ذكاؤها يبلغ من الحدّة ما يجعلها تُشبع غرور والدتها الوراثيّ. إلّا أنّها كانت على الرّغم من ذلك مكتئبة وتعسة. فكلّ ما كانت تحصل عليه لم يكن كافيًا. الحقّ، لا شيء يكفي. فما من شيء واحد في الحياة كامل! وكانت ترى في «الكمال» كلمة جوفاء لا معنى لها في المعاجم. فعلى سبيل المثال، لا أثر للبحر، لأنّ البحر الواحد يشتمل على عدد لانهائي من البحور، يحاول كلّ واحد منها أن يجري في مجرًى آخر. وما نراه من ارتفاع الموج وتردُّده عند وصوله الشاطئ هو ما يتبقّى من حروب بحريّة داخليّة. وهذا الموج يتوزَّع في فقّاعات وذرّات. وينطبق الشيء نفسه على مدينة اسطنبول. فهي مدينة غير موجودة، بل ثمّة عشرات ومئات وآلاف وملايين الجماعات والجاليات والمجتمعات. وهكذا، تأخذ «الزيادات» ما هو «ناقص»، فتمنع الرياح المعاكسة كلّ واحد من الانجراف؛ ولمّا لم يكن لأيّ جماعة ما يكفي من العودة ما يجعلها تهيم على الأخرى. تمكَّنت المدينة في نهاية المطاف من الحفاظ على نفسها، وإنْ لم تتمكّن

Twitter: @ketab_n

من مقاومة عمليّة الاندثار المستمرّة. وكما هو شأن الأمواج، فإنَّ اسطنبول هي ما تبقّى من المجموع الكلّي: من بقايا ما قرضته الجرذان، وما مزّقته النوارس وطرحه السكّان، واستهلكته السيّارات، وحملته القوارب والهواء الأوّل الذي تنفّسه الأطفال، الذين لا يعلم إلَّا الله كم عددهم وهم يولدون في كلّ ساعة... والأجزاء المنثورة والمهشَّمة التي دائمًا ما تكون ناقصة، غير مكتملة... كانت زينب في الثانية والعشرين عندما أُصيبت بأوّل انهيار عصبيّ.

لم تتأثّر زيرين قطّ بما قاله الطبيب، لأنّها لم تنظر إليه ولا إلى كلماته نظرة جادّة، إذْ ليس في شجرة العائلة أيّ ورقة أو غصن يمكن للمرء أن يعثر فيهما على مثل هذا المرض. فحتى دماغ حمدي الهدهد، الذي هو أشدّ الأدمغة قتامة، كان في حالة ممتازة. وإذا ما تركنا هذا جانبًا، كانت ابنتها الكبرى أكثر أبنائها الثلاثة ذكاءً وموهبة. وما الأزمة التي مرَّت بها سوى إحباط في مرحلة مراهقة متأخِّرة.

كان شفاء زينب العاجل سببًا في اقتناع الأمّ اقتناعًا أكبر بأنّها كانت على حقّ. إلَّا أنّ ذلك الشفاء لم يكن نهائيًّا بل وقتيّ كما اتّضح بعدئذٍ. ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، ستغدو حياة الابنة الأكبر سنًّا في الأسرة موزّعة بين فصلين: فإذا كانت مريضة، يُخيّل للمرء أنّها لن تشفى من مرضها أبدًا، ولكن ما إن تتحسَّن حالتها الصحِّيّة حتى يظنُّ المرء أنّها لن تمرض مجدَّدًا. وهكذا، لم تكن ثمّة مرحلة وسط، ولم يستطع أحد أن يتنبّأ بالوقت الذي ستنتقل فيه من مرحلة إلى أخرى. وكان أكثر الفروق وضوحًا بين الحالتين يتمثَّل في ردّ فعلها للأخبار المزعجة. فعندما تكون مريضة، فإنّها لا تجد نفسها مهتمَّة إلَّا بنمط معيَّن من الأخبار، وكأنّها شخص مُصاب بعمى الألوان لا يمكنه معرفة سوى ألوان معيَّنة، فكانت تقرأ الصحف سعيًا وراء مثل هذا النمط من الأخبار: أطفال شوارع تهيج نفوسهم بسبب سوائل ترقّق قوام الطلاء، وجرائم شرف، وحوادث

Twitter: @ketab_n

انتحار، ونساء يُرغمنَ على ممارسة الدعارة، وانتحاريُّون، وأطفال يُختطفون من المستشفيات، وشبّان يتعاطون جرعات زائدة، وكلّ أنواع الحوادث المأساويّة. وكانت إضافة إلى قراءة الصحف، تحرص على البحث عن الأخبار بين أهل الحيّ: حفر تصريف مياه ثقيلة مكشوفة وأنابيب مياه مكسورة وزبالة متروكة وطرق مسدودة، ونشّالون متوحِّشون، ومحال معجّنات محتشدة بالقاذورات، وقصّابون يبيعون لحوم جياد، وبقّالون يبيعون مساحيق تنظيف مُهرَّبة، وعصابات ساحات عامّة لوقوف السيّارات، وبيوت خشبيّة عتيقة تأتي عليها النيران من دون معرفة الأسباب، وانفجارات في أنابيب الغاز، وتسرُّب الغاز... وفي غمرة عدم ارتياحها في متابعة هذه الأخبار التي تُصيب المرء بالجنون، فإنّها كانت تهوى سرد كلّ خبر من هذه الأخبار بكلّ تفاصيله لكلٍّ من تصادف في طريقها. ولمّا كانت لا تلتقي عددًا كبيرًا من الناس بسبب تزجية معظم وقتها في البيت رفقة والدتها، فقد راحت تروي الحكايات نفسها لأمِّها مرارًا وتكرارًا. وعندما تكون موفورة الصحّة والعافية، فإنّها تتغاضى عن أخبار الموت المصوَّرة. وكانت تبعًا لذلك الوحيدةَ من بين أفراد الأسرة التي تواظب على قراءة الأخبار باستمرار.

كلّما هيَّج صوت الابنة الكبرى المتحمِّس عند قراءة أخبار الكوارث والمصائب أعصاب والدتها زيرين، فإنَّ الأخيرة تأخذ بالإصغاء إلى حوض الأسماك الهادئ الذي ملأته بأسماك ملوّنة وملحقات أخرى فوسفوريّة التألُّق. وكانت ثمّة نباتات زينة من مختلف الأنواع والأشكال قبل مجيء الأسماك...

لم تكن زليخا في سنِّ الثالثة والعشرين صعلوكة مثل أخيها، مثلما لم تكن ذكيّة مثل أختها. الحقّ، مثلما لا يمكن لأحد القول بأنّها بدت منذ طفولتها شبيهة بغيرها من أفراد أسرتها، فإنّه لا يمكن القول أيضًا إنّها كانت تشبههم من حيث المزاج والخُلق ـ وهذا الفرق بات واضحًا

Twitter: @ketab_n

أشدّ الوضوح إذا ما قورنت بأختها. فقد ربطت زليخا نفسها بأختها متربِّعة فوق ركن من أركان حياتها، وكأنّها حبّة فطر ضخمة وممتلئة نمت بالقرب من نبتة بريّة خشنة ذات زهور تُسرّ النظر، واعتادت النبتة كي تمتصّ كلّ شمسها ومائها. كانت بينَ بينْ ومتردِّدة وخاملة، ولا تفي بأيّ غرض. يبدو أنّ رؤية أختها تتأرجح على الدوام بين قطبين قد شوّش فكرها تشويشًا بالغ السوء، ما أدّى بها إلى أن تقرّر التوقّف في مكان ما، متوسّط الموقع، عند عتبة آمنة. وفي حين كان شقيقها يتوق إلى «أن يكون شيئًا ما»، وكانت أختها تتوق إلى أن تكون «الكلّ في الكلّ»، فإنّها ظلّت على مدى سنوات لا ترغب إلّا في «ألّا تكون أيّ شيء».

كانت زليخا أقلّ أفراد الأسرة مقاومة للقلق الذي كان في نظر أولئك الأفراد شيئًا قادمًا من الخارج ينذر بالخطر والوعيد. وعلى الرّغم من أنّ أسبابه متباينة، إلّا أنّ العنوان ظلّ ثابتًا مثلما ظلّ العالم الخارجيّ ستائر مخمليّة ثقيلة وشاحبة. وحيثما اقتضى ذلك العالم، فإنَّ كلّ فرد كانت له شواغله الخاصّة به. واستبدّ خوف شديد بضياء من إعادة فتح ملفّ المحاكمة، فيؤدِّي إلى حبسه وما يعقبه من ظهوره في كلّ الصحف ليصبح من بعد ذلك حديث المدينة. وكان قلق زيرين الأكبر يتمثَّل في أولادها، ويأتي من بعدهم وبحسب التسلسل الآتي، تعاظم التشدُّد الإسلامي والتعرُّض لهجمات النشّالين في الشوارع وهزّة أرضيّة أخرى في اسطنبول. أمّا زكريّا، فكان من جهته يخشى أشدّ ما يخشى الفشل في الجماع، وعجزه في الحياة والناس الذين يدين لهم في لعب القمار، وأخيرًا الخوف نفسه، في حين كانت زينب رقّاص الساعة الذي يتأرجح من دون اهتمام بين ينابيع التوجُّس ــ القلق ــ الخوف من جهة، والبحار الهادئة ــ الخالية البال ــ الجريئة من جهة ثانية.

إلّا أنّ القلق كان في نظر زليخا شيئًا مجرّدًا، وهو موجود في كلّ مكان مثل الهواء، فضلاً عن أنّه غير ملموس تقريبًا. فأسباب تحديده

Twitter: @ketab_n

أصعب بكثير من إعادة فتح ملفّ قضيّة الرشوة، أو الاعتقال والحبس بسبب ديون في مقامرة أو تسلُّم المتطرِّفين مقاليد الحكم. بدايةً، لم يكن القلق عاملاً خارجيًّا للشخص بل كان الحيوان الذي تتجسّد / يتجسّد فيه. فالخوف والقلق والانزعاج مشاعر يغذِّيها «الهلع من احتمال أن يصبح كلّ شيء مختلفًا»، (فهنا البيت والأصدقاء والجسد والأسرة... فهؤلاء يمثّلونك أنت، لكن لسوء الحظّ يمكن انتزاعهم منك في يوم من الأيّام!) أمّا بخصوص التوجُّس، فهو إحساس يغذِّيه «الهلع من احتمال أنّ أيّ شيء لا يمكن أن يكون بشكل مغاير». (فهنا البيت والأصدقاء والجسد والأسرة... فهؤلاء يمثِّلونك أنت، لكن لسوء الحظّ يمكن أن يبقوا كما هم!) كانت زليخا في أيّام المدرسة المتوسِّطة تذهب إلى بيوت صديقاتها بضع مرّات. وكانت تلك الزيارات التي تمنحها الفرصة لرؤية الأمَّهات والآباء والأسر عن كثب فتراهم يختلفون عن أبيها وأمّها، أشبه بنقطة تحوُّل في حياتها، لأنّها كانت تعتقد أنّ ما تعنيه كلمات مثل «أمّ» و«أب» و«أسرة» إنّما هي أساسًا نسخة مطابقة لأمّها وأبيها وأسرتها. وازداد إحساسها بالحَرَج من أسرتها على مدى السنين، وتضاعف مثل نسبة فائدة على غرامة تزداد زيادة خفيّة.

تردّد صدى مقاطع الكلمات المتردِّد التي كان يتلفّظها الطبيب متلعثمًا في حجرة الدرس في أذنيّ زليخا. «لـ... لـ... لنربط كوبين يحتوي... ا... ا... ا... ن على مقدارين متساويين من سا... ا... ائل بالكثافة نفسها وبمس... ستوى واحد... لـ... لـ... لننتظر السا... ا... ئل وهو يتحوّل من كو... و... ب إلى آخر». ثم استرسل بعد ذلك قائلاً: «الحقّ لا... ا... ا... ينبغي لنا أن ننتظر عبثًا. لا... ا... ا... تنسوا أيّها الصغار من الأعلى إلى الأدنى دائمًا، من الأكثر إلى الأقلّ، وإلّا لن يحدث أيّ انتقال بين الأشياء إذا هي بمستوًى واحد». إذا كان الأمر كذلك، فإنَّ مستويات التوجُّس، كما

Twitter: @ketab_n

ظنّت زليخا، لكلٍّ من منزلها والعالم الكائن خارج قصر الحلوى هي واحدة ومتشابهة. وهذا يجعل من المستحيل عليها أن تلمّ أطراف شجاعتها للهروب من الشقّة رقم ٤ من غير رجعة أبدًا. كانت قد رسمت عديد الخطط حتى الآن، ولكن لـمّا كانت هذه خطط رحيل وليس هروب، فإنّها ما تزال لا تملك أيّ فكرة عن المكان الذي يتعيَّن عليها أن تلجأ إليه، أو ماذا تفعل إذا ما تركت المنزل وفي أيّ وقت تتركه.

على أيّ حال، لم تتوقّع زيرين إلّا القدر اليسير من ابنتها الصغرى التي كانت علامتها الفارقة، بحسب رأيها، هي أن تخرّ مغشيًّا عليها من فورها عند رؤيتها الدم أو أيّ شيء آخر يذكِّرها به. وعوَّضت عن افتقارها إلى الابنة التي تودّ أن تحصل عليها بنباتات زينة. إلَّا أنّ المشكلة الوحيدة تمثَّلت في أنّ مثل هذه النباتات تتطلَّب مقدارًا من شعاع الشمس أكبر كثيرًا من ذلك الذي قلَّما يتغلغل من بين الستائر.

بما أنّ ستائر الشقّة رقم ٤ كانت تحجب أشعّة الشمس، فإنَّ نباتات الزينة كانت تذبل واحدة في إثر الأخرى مثل نظرات الغرباء الخاطفة. كما عانت الأسماك في الحوض خسائر فادحة بمرور الزمن. ولقي طائر الكناريّ مصرعه على أيدي عشيرة بني القطط. وعلى الرّغم من مجيء طائر كناري جديد إلى القفص نفسه اليوم، إلَّا أنّه، لسبب يصعب تفسيره، لم يغرِّد تغريدة واحدة حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٣
مصفّفا الشعر جمال وجلال

عندما شاهد الحاضرون في دار التجميل المرأة التي كان الحديث يدور من حولها وهي تدلف إلى الدار، غشيهم صمت قلق يشبه صمت من ضُبط متلبِّسًا بجرم مشهود. فإذا ما واجهت أمامك مباشرة الشخص الذي كنت تغتابه اغتيابًا قاسيًا لا هوادة فيه قبل دقيقة واحدة، فإنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى حدوث شيء غامض. كذلك، بدا لهؤلاء الحاضرين في دار التجميل وكأنّ هايجين قد طرق سمعها ذكر اسمها من عالم الأرواح. ومع هذا، فإنَّ سبب الإحساس بالنرفزة العصبيّة التي راودتهم أمامها، لم تنبع أساسًا من عجزهم عن التفكير في كيفيّة تعديل ملامح وجوههم المتهدِّلة على نحو أخرق، أثناء تجاذبهم القيل والقال. وكانوا مشدوهين بالقدر نفسه عندما رأوا امرأة لم تخطُ خطوة واحدة خارج منزلها منذ شهور، ولكنّها جاءت الآن إلى مكان يُحتمل أنّه آخر مكان على قائمة الأماكن الرئيسة التي ينبغي لها التوقّف عندها، إذا ما حان الوقت المناسب يومًا للخروج من المنزل!

كان جمال هو أوّل من نفض عنه غبار هذا الجمود، إذْ توجَّه ناحية الباب، وقال بصوت مرح إلى حدٍّ كبيرٍ: «مرحبًا، تفضَّلي يا سيِّدة

Twitter: @ketab_n

تايجين!» ولم يتنبَّه إلى أنّه من غير اللائق أن يخاطب امرأة باسمها، وهو الذي لم يلتقها من قبل قطّ. هكذا هي الآثار الجانبيّة للإدمان على الغيبة والنميمة: فإذا ما لغط لسانك كثيرًا وفي معظم الأحيان عن شخص ما، فإنّك يُحتمل أيضًا أن تبدأ بالاعتقاد بأنّك تعرف ذلك الشخص معرفة شخصيّة منذ بعض الوقت. لو أنّ جمال لقي قليلاً من المودَّة نفسها التي أظهرها، لكان من شأنه أن يندفع أكثر في أوهامه، فلا يلقى إلّا التوبيخ من هايجين تايجين، وهو ما كان يُبديه لزبوناته المنتظمات إذا ما تأخَّرن عن زيارته. بيد أنّ ذلك لم يحدث. وهكذا، رمقته المرأة الواقفة أمامه بنظرة باردة من قمَّة رأسه إلى قدميه، فكشفت بذلك عن عدم اهتمامها بتحيَّته، والتفتت، وجالت بصرها من حولها. وتسمَّرت عيناها، شيئًا فشيئًا، على الشعر المتناثر على الأرض في انتظار من يكنسه، وكذلك على المناشف الرثّة التي فقدت لونها بسبب كثرة غسلها، وعلى البقع المنتشرة على الصديريّات البلاستكيّة المطرَّزة بالفهود والمشدودة إلى أعناق الزبونات، وعلى الصدع الصغير الذي يظهر على الجدار الذي ثُبِّتت عليه المرآة الكبيرة، وعلى البعوض الميت من حول حافّة النضد المجاور للمرآة، وعلى الغبار الذي يكسو الرفّ الذي اصطفّت عليه علب من النوع نفسه من مادّة الجِلْ والزيت ودهن التلميع، ولفائف الشعر المنحشرة في فَرَاشي الشعر والحشوات البارزة من شقوق المقاعد، وشحوب لون الأثاث والماء بفقّاعاته ومحتوياته المثيرة للشكوك على عربة أدوات العناية بالأظافر ذات الطبقات الثلاث. كان إحساسها بعدم الرضى ممّا شاهدته في غاية العمق، ورغبتها في مغادرة المبنى في غاية الوضوح، حتى إنّ جمال الذي شعر أنّ كلًّا من المكان الذي يشتغل فيه وشخصيّته تعرَّضا للتحقير والإذلال، ابتلع كلّ هتافات التحيّة التي كانت على طرف لسانه، وغَشِيه الصمت.

بيد أنّ هايجين تايجين لم تستدر وتهرب، وهو ما كان يخشاه

Twitter: @ketab_n

جمال، بل لبثت واقفة كالصنم بضع ثوان عاجزة عن الحركة، وكأنّها مسمَّرة في مكانها، وتوقّفت عن النظر نظرات متفحِّصة كي تشاهد بعد الآن العالم الشنيع المحتشد بالفوضى والمحيط بها، وأشاحت بنظرها إلى ما وراء النافذة المفتوحة. وهناك، رأت المنظِّفة التي هبطت إلى الحديقة لجمع الثياب. في تلك اللحظة أيضًا، رأتها المنظِّفة بدورها التي كان في وسع المرء أن يقرأ في عينيها ضعيفتي البصر تبرُّمها وامتعاضها لاضطرارها إلى جعل كلّ هذا العدد الكبير من الثياب التي أُلقيت من الأعلى بلا معنًى. كانت المنظِّفة متوتِّرة الأعصاب أصلاً بسبب أشغال التنظيف التي كانت تؤدِّيها طوال النهار، وبلغ بها الإعياء أشدَّه، حتى إنّها لم تكن تملك القوَّة لتسأل نفسها عمّا تفعله تايجين هنا في هذا المكان. فما كان منها إلّا أن تركت سلَّة الغسيل، وفيها كومة هائلة من الملابس على الأرض، وتوارت بجسدها العفريتيّ الصغير في الحديقة، وأطلَّت برأسها المغطَّى بحجاب عفن ليمونيّ اللون إلى داخل نافذة دار التجميل، وتمتمت بصوت يخلو من أيّ تعابير: «إنِّني ذاهبة يا سيِّدة تايجين؛ لديّ أسرة ويتعيّن عليّ الاهتمام بها». لكنّ الضيق تملَّكها في محاولتها إيجاد الصلة بين الموقف الذي كانت هي فيه والكلمات التي تفوَّهت بها، جعلها تشعر بضرورة إضافة بعض الإيضاحات، فأردفت:

- هذه هي السلَّة الأخيرة، لقد جمعت الثياب كلّها، وسوف أحملها وأصعد بها إلى الشقّة وأتركها فيها. لقد هبطت وصعدت خمس مرّات حتى الآن. لا تنتظريني في يوم الخميس المقبل، فقد أصبح هذا الحيّ غريبًا وغير مألوف في نظري.

عقدت تايجين حاجبيها إلى حدٍّ ما، وأومأت برأسها إيماءة صغيرة مستحسنة صنيعها؛ ولكن، على الرّغم من أنّ إمارات وجهها المشوَّشة لم تفصح عمّا كان يدور في خَلَدها، إلّا أنّ الكدر الذي شعرت به جرّاء

Twitter: @ketab_n

وجودها في هذا المكان، وفي وسط هؤلاء الناس الذين لا تعرفهم، كان واضحًا أكثر ممّا ينبغي. لبثت واقفة على تلك الحالة إلى أن اقترب جلال، التوّاق إلى إنقاذها من هذا العذاب لإصلاح الجسر الذي حاول شقيقه التوأم تشييده، ولكنَّه بدلاً من ذلك حطَّمه تمامًا، وسألها عمّا تريد منه أن يفعله بشعرها. وهنا، التفتت تايجين إلى جلال، وحوَّلت من نظرتها الخاطفة التي كانت موجَّهة إلى المكان الذي أخلته الآن المنظّفة، وتمتمت:

ـ لست أنا، بل ابنتي.

ثم تنحَّت جانبًا، كأنّما كانت تريد أن توضح كلامها.

في تلك اللحظة بعينها، شاهد الحاضرون في دار التجميل الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود الأبنوسيّ الجعد ونقيضه البشرة الشديدة البياض والعينين الواسعتين اللتين لا يشوبهما أيّ لون عدا اللون الأسود. كان شعرها مبلَّلاً، تساقطت منه قطرات الماء كي تترك بعض البرك الضحلة بمستوى كتفيها، وبدت وكأنّها وقعت في فخّ مطر خفيف من أمطار الصيف!

في أثناء انشغال جلال بإرشاد الزبونة صغيرة السنِّ إلى المقعد الكائن أمام المرآة، دعا والدة الطفلة إلى الجلوس على إحدى الأرائك الجانبيّة، متحمّلاً بإذعان كعهده المعاملة التي تلقَّاها منها. إلَّا أنّ هايجين تايجين لم تجلس من فورها، بل لبثت بضع ثوان واقفة، مسمَّرة في ضيقها وعدم ارتياحها. وأخيرًا، استسلمت وتربَّعت متراخية في عزيمتها على أقرب أريكة أُرشدت إليها. وعندما جاءت فتاة العناية بالأظافر، التي كان من دأبها أن تسأل كلّ زبونة إن كانت ترغب في العناية بأظافرها بعد ثلاثين ثانية من دخولها دار التجميل، واقتربت منها. كانت تايجين ما تزال جالسة من دون حراك، نظراتها مثبَّتة على بقعة على الأرض، منشغلة الفكر في مكان آخر. في اللحظة التي سمعت

Twitter: @ketab_n

السؤال موجّهًا إليها، جذبت يدها مشمئزّة وكأنّ جرذًا غير مرئي لمسها، وأخفتها وراءها. فما كان من فتاة العناية بالأظافر، التي لم تكن مهيّأة قطّ لمثل هذا التصرُّف الفظّ الغليظ، إلّا أن رجعت إلى مقعدها في حيرة وذهول، ولكنَّها ما إن جلست حتى عنّ على خاطرها وسواس راح يؤرقها. هل كان في وسعها أن تخاطبها بعبارة «السيِّدة هايجين» بدلاً من «السيِّدة تايجين؟» هل يمكن أن يكون ذلك هو السبب في انقلاب سحنة المرأة على حين بغتة؟ بعد أن فكّرت فتاة العناية بالأظافر في هذه الأمور، لم تستغرق وقتًا طويلاً حتى اقتنعت أنّها ارتكبت هفوة. ومع هذا، فالعقل ميّال إلى التشاؤم. فهو كلّما تأرجح بين خيارين متناقضين، وإذا به يختار الخيار السلبي. فكَّرت الفتاة برهة وجيزة أنّها يجب أن تعود إلى المرأة وأن تعتذر منها، إلَّا أنّ الشيء الوحيد الذي فعلته في نهاية الأمر هو أنّها انكفأت غير مرتاحة النفس وراء عربة العناية بالأظافر، وراحت تختلس النظرات من حولها لتتأكّد إن كان أحد ما قد سمع بهفوتها.

في هذه الأثناء، راحت سو، بعد أن أجلسها جلال أمام المرآة وبجانب المرأة العجوز، تدور بكرسيّها لمشاهدة ما حولها، يحدوها حبّ استطلاع حقيقيّ سببه وجودها أوّل مرّة في دار التجميل. إلّا أنّها اضطرّت لسوء الحظّ أن تتوقّف عن دورانها وفحصها المكان المحيط بها، لأنّها كلّما استدارت وجدت عيون الإناث تحدِّق إليها، وشفاهًا مطليّة بقلم حمرة تتجاذب أطراف الحديث من حولها. الشخص الوحيد في دار التجميل، الذي لم يكن ينظر إليها متفحِّصًا بمثل هذه النظرات الثابتة، هو المرأة العجوز الجالسة بالقرب منها، كما ظنَّت سو. كانت تعرفها، فهي الجارة الساكنة في الشقّة المجاورة، وكانت تصادفها في طريقها بين حين وآخر، وكانت لطيفة وإيّاها دومًا. أمّا الآن، فقد لاحت المرأة العجوز، بوجهها الصغير المكسوّ بمساحيق التجميل والبارز من

Twitter: @ketab_n

وراء الصديريّة البلاستيكيّة التي تغطّي جسمها كلّه حتى رقبتها، وكأنّها تمثال نصفيّ وُضع مائلاً فوق قاعدته، وطُلي طلاءً مقرفًا بكلّ الألوان.

عندما لاحظت السيِّدة العمّة نظرات الفتاة المصوَّبة في متّجهها، التفتت جانبًا ورشقتها بابتسامة. بدت وكأنّها توشك أن تقول شيئًا ما، إلّا أنّ جلال جاء في تلك اللحظة حاملاً لوحًا خشبيًّا مستطيل الشكل. كان الأخوان التوأمان يضعان هذا اللوح الخشبيّ على ذراعيْ الكرسيّ، كلّما جاءت طفلة صغيرة إلى دار التجميل، وذلك لرفعها قليلاً إلى أعلى. ولكن ما إن أدركت سو غرض جلال حتى هزّت رأسها من جهة إلى أخرى، وهي تنظر نظرات خاطفة في الوقت نفسه إلى المرأة العجوز. وأخيرًا، قالت محتجّة بصوت ثاقب:

ـ لكنّني أطول منها! فلِمَ لا تجلس هي على اللوح أيضًا؟

كان الاعتراض أكثر من كافٍ حتى يترك جلال معقود اللسان، وهو الذي لم يكن أصلاً رجلاً كثير الكلام. وعندما رأى السيِّدة العمّة غير مهتمَّة بتلك الإهانة، وراحت تضحك بدلاً من ذلك على ملاحظة الفتاة التي تجاوزت حدود الأدب، سلّم اللوح الخشبيّ إلى المبتدئ صاحب الوجه الخالي من البثور. غير أنّه راقب بعناية من خلال المرآة الملامح التي ارتسمت على وجهيْ زبونتيه الغريبتين، وكأنّه أدرك حكمة سرِّيّة في كلمات الطفلة. كانتا متشابهتين تشابهًا مدهشًا، وهما تجلسان جنبًا لجنب أمام المرآة الطويلة والعريضة، ومن حول رقبتيهما صدريّتان مطرّزتان بصور الفهود. الحقّ، أنّهما كانتا تقفان على قطبين زمنيين متناقضين، إحداهما في الحادية عشرة والأخرى في الثامنة والسبعين، إلّا أنّهما على الرّغم من ذلك موجودتان في منطقة ما على تخوم بَسطة الحياة البشريّة. كانت سو مخطئة، فهي لم تكن أطول من السيِّدة العجوز. الحقّ، أنّهما كانتا متساويتين في الطول وربّما في الوزن أيضًا. وعلى قدر ما ينطوي الأمر على غرابة، إذْ إنّ جسد المرء العجوز يبدأ

Twitter: @ketab_n

بالتضاؤل والانكماش حتى يتساوى وجسد الطفلة التي تأخذ بالنموّ، فإنّهما كانتا أشبه بمصعدين توقّفا في لحظة عابرة في مكان واحد، أثناء هبوط الأوّل وصعود الثاني. وبعد ثانية واحدة، ساعة، شهر... سوف تصبح إحداهما أطول ممّا هي عليه الآن، في حين تتّجه الأخرى نحو الاتّجاه المعاكس، وتفقد الاثنتان صفة التشابه الذي كان يجمعهما. فكّر جلال أنّ لقاءهما في هذه اللحظة من المساواة العابرة أمر غريب واستثنائيّ.

ما إن اكتشف جلال تشابهًا بين المرأة العجوز والبنت، حتى أدرك أنّه سوف يستغرق وقتًا طويلاً كي يستنسخ حبّه من أجل الأولى، وذلك باستحداث مودّة مشابهة للثانية. هذا هو السبب الذي دفعه شخصيًّا إلى أن يأخذ على عاتقه إعداد شعر الفتاة للقصّ فحسب، وإنّما عمليّة القصّ نفسها. فأرخى الشعر الأبنوسيَّ الكثيف والجعد الذي كان مشدودًا شدًّا عشوائيًّا إلى أعلى بشريط له لون الرايتنج الصمغيّ، وراح يمشّط في عناية الخصلات التي ما تزال تنقّط ماءً. في هذه الأثناء، لم ينس أن يسأل الطفلة عن اسمها، لأنّ من أساليب البالغين عند البدء بتجاذب أطراف الحديث مع طفل من الأطفال، فإنَّ الشيء الأوّل الذي يخطر على البال هو الاستفسار عن الاسم، ومن بعد ذلك الثناء عليه. وهكذا أشرق وجه جلال، وقال:

- يا لجمال اسمك!

إلّا أنّ سو لم تعره أيّ اهتمام على ما أبداه من إطراء، بعد أن استغرقت الآن في تصفُّح مجلّة نسائيّة تحتشد بإعلانات عن تسريحات شعر في كلّ صفحة من صفحاتها. وكان من شأنها أن تظلّ ملتصقة العين بصفحات المجلَّة بعض الوقت، لو لم تطرق سمعها صرخة والدتها التي يقشعرّ لها البدن.

كما هو طبع الكلاب التي تقترب من الذين يخافونها أكثر من

Twitter: @ketab_n

الآخرين، أو كما هو شأن الشعر الذي يتساقط في حساء شخص ما جالس من حول مائدة طعام، فينتابه شعور بالاشمئزاز المقرف جدًّا، فإنَّ صرصار جمال ضيّع طريقه منذ زمن طويل. فقرَّر أن يدخل في نطاق رؤية هايجين تايجين وحدها. وما كان من المبتدئ غير المصاب بالبثور إلَّا أن تدخَّل من فوره، مصمِّمًا على التمسُّح بأعتاب معلِّميه. وهكذا، تحوَّل الصرصار تحت فردة حذائه إلى فضالة مضغوطة تثير النفور والاشمئزاز.

قال جلال متلعثمًا لا يدري ما يقول:

ــ لقد احتلَّت هذه الحشرات الأماكن كلّها.

فقد شاهد قبل مدَّة قصيرة حشرات زاحفة، لم يستطع الاستدلال عليها قطّ. الواضح، أنّ تعدُّد أنواعها ازداد بزيادة أعدادها. وكان بعض منها تفوح منه رائحة كريهة، إذا ما سُحِقَ تحت الأقدام. وهنا هرع المبتدئ لإحضار معطِّر جوّ.

قالت السيِّدة العمّة متملِّقة، بعد أن لاحظت الذعر قد استبدّ على وجه السيِّدة تايجين:

ــ لا ينبغي لك الانتظار يا سيِّدة تايجين، ولا تقلقي من أجل ابنتك، فسوف نعود معًا بمعيّتها.

كانت هايجين تايجين في توق شديد لسماع مثل هذا العرض، لذلك لم تنتظر كي تكرِّر السيِّدة العمّة ما قالته. وهكذا، وفي غضون ثانيتين، وثبت من فوق جثّة الصرصار، وتركت ثمن تصفيفة الشعر على آلة تسجيل النقد واتّجهت إلى الباب. إلَّا أنّها توقّفت برهة وجيزة قبل أن تمضي في سبيلها لتلوّح بيدها للمرأة العجوز تقديرًا واحترامًا، ولابنتها مودَّة ومحبَّة.

ما إن خرجت المرأة من دار التجميل حتى هرعت فتاة العناية

Twitter: @ketab_n

بالأظافر، بعد أن لبثت جامدة في جلستها وقتًا طويلاً من دون أن تنمّ تعابير وجهها عن أيِّ انفعال، أو أيِّ قدرة على التحمُّل، ووثبت واقفة على قدميها، وزعقت وهي تلوي قسمات وجهها:

ـ السيِّدة لم تستطع التحمُّل. أراهنكم أنّها لم تستطع شرب القهوة، لأنّها وجدتها قذرة. لا بدّ أنّها لم يرقها أن تشتمّ رائحة القاصر فيها.

اندمجت المرأة ذات الجسد الريّان والشعر الأحمر والمرأة الشقراء الحولاء في حديث جانبيّ، في حين رفع جمال من صوت التلفاز، عندما شاهد المقطع الغنائي الذي ظلّ ينتظره طوال أيّام معروضًا على الشاشة. وجرى تقديم الشاي مجدَّدًا إلى كلّ الزبونات، وأشعلت السكائر واحدة تلو الأخرى.. وسرعان ما غرقت دار التجميل في خمود وكلال مألوفين فيها. فبعد أن تخلّصت النسوة من إثم الالتزام بالنظر إلى المرأة التي كانت دائمًا وأبدًا موضع غيبتهنّ المفضَّل، لم يجدن الآن صعوبة في العودة إلى الحديث حيث كنّ قبل قليل، ويمكن أن يُطلق على هذا التصرُّف «عودة المكبوتين بأقصى سرعة وأقصى تحكُّم». وكما تمتعض الطبيعة من الفراغ، فإنَّ هذا هو حال آلة الغيبة والنميمة التي تتوق إلى إكمال القطع المفقودة. إنّ وجود طفلة بينهنّ الآن لم يمنع المغتابات من الغيبة في دار التجميل، مثلما لم يمنعهنّ منها وجود طفلة تنتمي إلى المرأة التي يلهبنها بسياط النقد من وراء ظهرها، لأنّ النساء ميّالات إلى اعتبار أصواتهنّ غير مسموعة، أو أنّ أطفالهنّ يعانون الصمم إذا ما بدأن بالقيل والقال، لا من أجل الاستغراق في الكلام أو اجتراره بل المضيّ في الحديث على نحو موثوق به وغير متحفّظ.

أمّا بخصوص سو، فيصعب القول إن كانت على علم بالهمز واللمز الدائر من حول شخصيّة والدتها، لأنّها لبثت متوارية من خلف تلك المجلّة المبهرجة والصارخة الألوان. فقد كانت في تلك اللحظة ترنو إلى صفحة عليها صورة امرأة ناشئة عن عرقين مختلفين، عارية من منطقة

Twitter: @ketab_n

الخصر فأعلى، وشعرها القصير جدًّا مدبَّب مثل سنابل، وألوانه بتدرُّجات فوسفوريّة مختلفة.

سأل جلال منزعجًا من الأحاديث، وقلقًا على الطفلة:

ـ هل يروقك؟ يمكننا أن نصفِّف شعرك على هذا النحو إن شئتِ، وسيكون عندئذٍ حدثًا مثيرًا في المدرسة!

قالت سو متذمِّرة ومتجهِّمة الوجه:

ـ لا. ينبغي لشعري أن يكون أقصر.

اعترض جلال قائلاً:

ـ بالله عليكِ! لا ينبغي لشعرك أن يكون قصيرًا جدًّا. دعيه حتى يطول قليلاً.

رفعت سو رأسها من وراء المجلّة ورشقته بنظرة تقدير، في حين بَرق في أعماق عينيها وميض عابر متناه في الصغر والدقّة، واحتجّت بصوت يكاد يكون صراخًا:

ـ لا، لأنّ القمل لن يغادر رأسي عندئذٍ.

رفعت السمراء المذعورة حاجبها، بعد أن تخلّصت لتوّها من لفائف تموُّجات الشعر، ورنت إلى الشقراء الحولاء. إلّا أنّ سو رفعت من حدّة صوتها بعد أن تبيّن لها أنّ ثمّة جمهورًا حاضرًا أمامها:

ـ نادتني المعلِّمة في المدرسة، بعد أن كانت قد كتبت شيئًا ما على قصاصة من ورق، وقالت لي: خذي هذه القصاصة إلى والدتك، واحرصي على أن تقرأها. ثم أرسلوني إلى البيت، وعندما قرأت أمّي الورقة، استاءت كثيرًا وانزعجت، وقالت: إنّني مُصابة بالقمل، فذهبنا إلى الحمّام، وغسلته لي مستخدمة الدواء. استهلكنا عبوتين من الغسول. وقالت لي: ابقي في هذا المكان. وجلست في حوض الاستحمام، ثم أخرجتْ ثيابي من خزانة الملابس، ورمت بها كلّها

Twitter: @ketab_n

من النافذة، ورمت الملاءات أيضًا، وحقيبة ظهري.

غمغمت فتاة العناية بالأظافر متأمّلة، ومستاءة استياء من تغادر دار عرض سينمائي لتدرك بعدئذٍ أنّه فاتها أهمّ مشهد من مشاهد الشريط السينمائي:

ـ إنّنا لم نشاهد حقيبة ظهر.

قال جلال، محاولاً التغاضي عن الموضوع من غير اكتراث به:

ـ ربّما أصبت بالعدوى وأنت في المدرسة. هذا أمر يحدث دومًا.

هزّت سو كتفيها:

ـ لم أصب بالعدوى وأنا في المدرسة. يُضاف إلى هذا، ليس ثمّة مُصابة بالقمل في المدرسة سواي.

تبادلت النساء النظرات، وابتسمن ابتسامات ذات مغزى. فهنّ يعرفن أنّ هايجين تايجين تشبّثت بإرسال ابنتها إلى مدرسة باهظة التكاليف لا أحد غيرها يمكنه بدفع مصاريفها، وإنّها بإنفاقها النقود على هذا النحو ولهذا الغرض، إنّما لم تحطّم أعصاب زوجها فحسب، بل حطّمت أيضًا أركان زواجها.

ضحكت الفتاة ضحكة بلهاء، وقالت:

ـ ليس في الصفّ من هي مُصابة بالقمل غيري، وسوف ينتشر القمل الآن من رأسي إلى المدرسة عمومًا.

كانت ضحكة الفتاة تشوبها مسحة من شائبة غير واضحة المعالم، لأنّها ضحكة أغفلت ردود أفعال من هم حولها، صادرة عنها وحدها لتنساب إليها مجدّدًا، لا تعرف أين تتوقّف ومتى. ولعلّها لا تشير إلّا إلى تعطُّش للمتعة. وكانت غير واضحة المعالم، لأنّها ضحكة ازدادت سرعتها زيادة هائلة بعد أن حثّت نفسها على مواصلتها، فخرجت عن السيطرة عندما اكتسبت زخمًا عن التكيُّف في محيطها، منفصلة انفصالاً

Twitter: @ketab_n

تامًّا عن محتويات حديثها. كانت ضحكة أصعب وأثقل وأكبر ممّا ينبغي على طفلة في مثل سنِّها.

ـ تقول أمّي إنّ القمل مصدره أبي، الذي انتقل إليه من البغايا والمومسات، وانتقل إليَّ بعد أن عانقني.

اقشعرَّت أبدان النساء من قمّة رؤوسهنّ إلى أخمص أقدامهنّ وهنّ مصطفّات أمام المرآة الكبيرة، وكأن كلّ النوافذ فُتحت في آن على مصاريعها، واندفعت ريح عاتية من خلالها، لأنّ ما يثير الهلع هو الاستماع إلى أشدّ خصوصيّات الأسرة وهي تنطلق من فم طفلة، وهو أمر يشبه قطف ثمار حديقة جارك من دون أن تكون حقًّا قد سرقتها. فعلى الرّغم من انطواء الأمر على جريمة، إلَّا أنّ المجرم ليس في الجوار. ومنذ متى كان فتح الطريق لجريان الماء الموحل، الذي سيجري في كلّ الأحوال، يعدّ جريمة؟ كذلك، فإنَّ زبونات دار التجميل تنحَّين جانبًا والتزمن الصمت التزامًا تامًّا، ليتركن الطفلة تتكلَّم ملء فمها وبكامل حرِّيَّتها. كما تلوَّين نافدات الصبر وترقَّبن استماع ما هو أكثر، أكثر ما يمكن، من دون المشاركة أو التورُّط أو الإفساد. وتمكَّن جمال نفسه من البقاء صامتًا صمتًا كلّيًّا، على الرّغم من عجزه المتأصّل في البقاء ساكنًا أكثر من ثانيتين، وميله إلى دسّ أنفه في كلّ حديث يدور من حوله. السيِّدة العمّة وحدها هي التي شعرت بضرورة اتّخاذ موقف، حتى ينتهي هذا الموضوع الذي لا يبعث على السرور. ولكن، بما أنّها لم تستطع التفكير بما ينبغي لها أن تقوله، فإنَّ كلّ ما تفوَّهت به هو أنّها حذَّرت جلال بأن يفرغ من عمله بأسرع ما يستطيع، لتعود وتنكمش من بعد ذلك فوق مقعدها، وتظلّ ساكنة كالصنم. وبينما هي مستغرقة في أفكارها، جذبت قلادة العنق من تحت كنزتها ولاطفت وجه القدِّيس سرافيم الصارم.

دارت سو بكرسيّها دورة كاملة وبحثت في كلّ الوجوه، وكأنّها تريد

Twitter: @ketab_n

أن تقرّر حجم تأثير كلماتها. وعندما أكملت دورتها وعادت إلى وضعها الأوّل، التقت عيناها السوداوان سواد القارّ في المرآة عينيّ المرأة العجوز الزرقاوين الميّالتين إلى الرماديّ اللتين كانتا تلمعان مثل خرزة. وبينما أطلقت السيِّدة العمّة العنان من أنفها الصغير الحادّ الهواء الذي كانت قد تنشّقته بحزن، فقد ابتسمت ابتسامة تشفّ عن حرج وعن اعتذار في الوقت نفسه. كان من الصعب أن يعرف المرء إنْ كانت تعتذر لأشخاص معيّنين حاضرين بالإنابة عن الطفلة لما بدر منها من كلام، بل على العكس، تعتذر للطفلة بالإنابة عن المستمعات الفضوليَّات المحيطات بها. وعلى الرّغم من عدم قدرة سو على لغز معنى هذه الابتسامة الغامضة، إلَّا أنّها لم تستطع أن تمنع نفسها من ردّ الابتسامة لها.

نادى جلال المبتدئيْن الاثنين ليحضرا إلى جانبه، بعد أن أسرع في عمله. وفي غضون دقائق قليلة، استأنف الثلاثة العمل بهمّة عالية واضحة، وجفَّفوا شعر المرأة العجوز والبنت الصغيرة. وجعل المبتدئيْن يحملان مرآتين بيضويّتين إلى مستوى رقبتيهما، وساعدهما على رؤية منظر الشعر من الخلف. وهكذا، حاصرت المرايا المرأة والبنت من الأمام ومن الخلف، فتضاعف عدد صور البنت والمرأة العجوز، في حين ازداد التشابه بينهما وفقًا لتلك الزيادة واندمج.

إلَّا أنّ فارق العمر بينهما بات واضحًا وضوحًا يثير الأسى، بعد أن ودّعا جلال الذي أوصلهما إلى الباب، وبدأتا بارتقاء درج قصر الحلوى. فقد توقّفت الطفلة بين حين وآخر منتظرة المرأة العجوز، بل ذهب بها الأمر أحيانًا إلى هبوط الدرج من أجل اصطحابها في صعودها. وعندما وصلتا الطبقة الثالثة، وهما على تلك الحال، توقّفت السيِّدة العمّة لتلتقط أنفاسها. وبينما مالت سو إلى الباب، ووقفت على

Twitter: @ketab_n

رجل واحدة كأنّها عوقبت، فقد انتهزت هذه الفرصة لتشارك صديقتها العجوز الجديدة الحديث في أمور أخرى، فلاح الارتياح عليها.

ـ هؤلاء الطالبات في الصفّ يطلقن الأوصاف عليَّ، فيكتبن بحروف كبيرة على لواصق الدفاتر المدرسيّة «سو القملة». اسمي الحقيقيّ هو بنجيسو، ولكنّني أختصره إلى «سو».

غمغمت السيِّدة العمّة، على الرّغم من الضيق الذي كانت تحسّ به بسبب ضحكة الفتاة:

ـ أتدرين؟ كنت مُصابة أنا أيضًا بالقمل عندما كنت طفلة صغيرة.

قالت سو:

ـ حقًّا؟ هل أطلقن عليك أيّ أوصاف؟

وحاولت أن تخمِّن من هو «الجدّ» صاحب اللحية الحمراء المتدلّي من رقبتها.

ـ لا، إنّهنّ لم يطلقن عليَّ الأوصاف. كانت لدينا امرأة تغسل الثياب، وكانت ترغم أطفالها على الاصطفاف لتنزع عنهم القمل. فانتقلت عدوى القمل منِّي إليها. وأُصيبت أمِّي المسكينة بنوبة. كانت امرأة رقيقة، لا يمكنها معالجة مثل هذه الأمور. ذلك هو أسلوب تربيتها. ماذا في وسعها أن تعمل؟ فإذا ما ذبلت زهرة من زهور الحديقة، فإنّها تذهب إلى سريرها غارقة في الأحزان. وإذا ما شاهدت جرذًا نافقًا، لا تستطيع التماثل للشفاء إلّا بعد أيّام. أظنّها ولدت في زمن غير زمنها...

فقدت عينا المرأة الزرقاوان الماثلتان إلى اللون الرماديّ بريقهما برهة وجيزة، وشعرت بشعور غريب لا يملكه إلّا من منع نفسه منذ زمن عن تذكُّر أحداث بعينها وذكر أسماء محدودة، شعور مفاده أنّها توشك أن تدخل بستان ذكرياتها المحظور، فتراجعت من فورها. ثم بدت كأنّها

Twitter: @ketab_n

تشاطرها سرًّا من الأسرار، فغمزت عينها للطفلة التي لاح رأسها أشدّ صغرًا بعد قصّة الشعر. غمزة تشفّ عن مناكدة:

ـ لا تهتمّي لهنّ عندما يصفونك بـ «سو القملة»، أو بأيّ وصف آخر، فكلّ شخص يُصاب بالقمل في طفولته. ليس في الطفولة وحدها. فالناس تُصاب بالقمل عندما تكبر أيضًا. كيف يمكنك أن تعرفي مَن المصاب ومَن غير المصاب بالقمل؟ هل تستطيعين رؤية القمل بالعين المجرّدة؟ كلّ واحد يدّعي أنّه نظيف تمامًا، ولكن صدِّقيني لديهم قمل أيضًا في مكان ما من أبدانهم!

هرعت سو لتقرع جرس بابها فور وصولهما الطبقة الرابعة مقتنعة بحسن النيّة بما يكمن وراء الكلمات أكثر من الكلمات نفسها. وعندما فُتح الباب، زعقت:

ـ لقد عدت!

على الرّغم من أنّ هايجين تايجين بدت قلقة بسبب تأخُّرهما، إلَّا أنّها تخلَّصت من قلقها الأوّلي وهي تشكر جارتها. فما كان من السيِّدة العمّة إلّا أن ردّت:

ـ تبدو جميلة قَصَّة الشعر وأناقته.

ثم رنت إحداهما إلى الأخرى، يضغط عليهما الإحساس بضرورة قول شيء ما أكثر، إلَّا أنّهما لم تعرفا ماذا تقولان.

قالت هايجين تايجين متلعثمة:

ـ كان بودِّي أن أدعوكِ إلى الدخول، بيد أنّني لم أنتهِ من التنظيف. كلّ شيء يتعطّل عندما تترك المنظِّفة العمل.

بدت المرأة المجهدة والمرحة في دار التجميل، وقد توارت عن الأنظار وحلَّت محلّها نسخة أخرى، متحفِّظة مخلوعة الفؤاد.

ـ صحيح، صحيح. اذهبي وأكملي عمليّة التنظيف، ولكن إيّاكِ أن

Twitter: @ketab_n

تجهدي نفسك أكثر ممّا ينبغي. فقد كنتِ منهكة في هذا اليوم. استلقي في سريرك بعضًا من الوقت، فأنا أيضًا لديّ بعض الشواغل التي أريد إنجازها.

لم تكن إحداهما قد زارت منزل الأخرى حتى تلك اللحظة. وعندما تلتقيان قرب الباب تتبادلان عبارات المجاملة لا أكثر.

قالت تايجين بغتة:

ـ كيف يمكنني النوم؟ إنّني أعاني دوارًا بسبب هذه الرائحة المثيرة للاشمئزاز. يقول زوجي إنّني أبالغ. هل تذهبين مذهبه؟ أنت لديك الرائحة نفسها أيضًا. صحيح؟ أخبريني أيّتها السيِّدة العمّة، هل تشمِّين رائحة الزبالة؟

ظلّلت وجه السيِّدة العمّة غشاوة يصعب فهمها. وعندما أنشأت تتكلَّم مجدَّدًا، لاح صوتها خشنًا، وغليظًا، مثل يديها ذات العروق النافرة:

ـ سافر أخي قبل سنوات إلى القاهرة، وقال إنّ المرء يسمع «طنينًا» حال هبوطه من الطائرة. طنين القاهرة! لكنّ المطار كان بعيدًا تمامًا عن المدينة. وتبيَّن أنّ المدينة تنشر طنينها على بعد أميال. فكِّري أيّ مدينة هذه، وأيّ بشر يمكنهم العيش فيها ويزداد عددهم تلك الزيادة؟ أليست مدينتنا اسطنبول تشبهها يا سيِّدة تايجين؟ على الرّغم من أنّ القاهرة ينبعث منها الطنين، فإنَّ اسطنبول تنبعث منها الرائحة. الغرباء يدركون تلك الرائحة حتى قبل وصولهم المدينة. صحيح أنّنا لا يمكننا أن نشمّ رائحتها. يقال إنّ الأفعى يروقها الحليب كثيرًا، وإنّها تعثر على الحليب بفضل حاسَّة الشمِّ لديها، لكن هل في وسعها أن تتبيّن رائحة الحليب إذا كانت تسبح في قِدْر من الحليب؟ ربّما ما من شأن أهل القاهرة سماع الطنين، ولا من شأن أهل اسطنبول التعرُّف

Twitter: @ketab_n

إلى رائحة مدينتهم ـ فهاتان المدينتان موغلتان في القِدَم. عندما كنت صغيرة السنّ، لم أكن أعرف أنّ اسطنبول مدينة موغلة في القِدَم. صحيح أنّ الزبالة تزداد بتقدُّمها في السنِّ. إنّني لم أعد غاضبة. ولا ينبغي لكِ أن تغضبي يا سيِّدة تايجين.

لم تعرف هايجين تايجين ما تقول، فما كان منها إلّا أن رمشت بعينيها المدوذرتين الأبنوسيّتين برموشهما الطويلة، اللتين أورثتهما لابنتها. وغشي صمت موجع المرأتين. إنّ مثل هذه الحالات من الصمت المتقطّع والمشتّت تتكرَّر في أحاديث أولئك الذين لم يألفوا الحديث فيما بينهم، فتراهم يكرِّرون أنفسهم بفواصل محدَّدة. تكلَّمت الاثنتان بضع كلمات أخرى عن الزبالة، بضع كلمات أخرى عن مختلف الأشياء، وتمنّت إحداهما للأخرى يومًا سعيدًا. أُغلق البابان بعناية، مع الحرص على ألّا يحدثا دويًا قويًا، لكنّ المرأتين لم تستأنفا عملهما من فورهما، بل لبثتا واقفتين من دون أن يصدر عنهما أيّ صوت مدّة عشر ثوان، وأصاختا السمع في محاولة تتبيّن فيها كلّ واحدة من خلال الأصوات ما الذي ستفعله الأخرى. إلّا أنّهما بغض النظر عن الجهد الذي بذلتاه في تلك المحاولة، فإنَّ أيّ واحدة منهما لم تسمع أيّ شيء.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٥
حاجّي حاجّي وابنه وكنّته وأحفاده

ـ كان يا ما كان، في سالف العصر والزمان، عاش وليٌّ صالح، فهتف الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة:

ـ لكنّك قلت إنّ القصّة ستكون حقيقيّة في هذه المرّة، فلماذا بدأت بها وكأنّها حكاية من الحكايات الخرافيّة؟

بوّز حاجّي حاجّي في لوعة وكمد أمام هذا الصبيّ، الذي كان الوحيد الذي يُثير إزعاجه من بين أحفاده الثلاثة، لم يكن هذا الصبيّ بشرًا وإنّما جنّيًّا متلبّسًا لبوس البشر، أو، وهذا هو الأسوأ، صبيًّا هجينًا من جانّ وبشر. لهذا السبب جاء غريب الشكل، رأسه يشبه قنّينة واسعة الجوف ضيّقة العنق... لكن، في اللحظة التي تنبَّه فيها الرجل العجوز إلى نفسه، وهو يفكّر في مثل هذه الأشياء، شعر بالخجل. وسرعان ما ندم وطرد هذه الأفكار الشرّيرة من ذهنه. كان الندم يخلق بمرور الزمان أثرًا تلقائيًّا. وكلّما شعر بالخجل تراه يندم من فوره، مثل تشنُّج عضليّ لا سبيل إلى السيطرة عليه. وكان قد خجل ثلاث مرّات متتالية قبل الآن. فقد ندم أوّل مرّة عند محاولته أن يفهم، وأن يسأل بعقله البسيط، السبب الذي جعل الله يخلق البشر كما خلقهم؛ ثم ندم بعد أن ارتاب

Twitter: @ketab_n

مباشرة وعن غير عمد بطهارة كنّته، عندما اقتفى أثر سلالة حفيده إلى الجانّ؛ وندم أخيرًا، لأنّ مثل هذه الأفكار الفظيعة تساوره بشأن الصبيّ الصغير المريض. وقد تلفَّظ بندمه وتوبته بصوت عالٍ في هذه المرّة الأخيرة. فضيَّق الصبي البالغ سبعة أعوام ونصف العام من الفجوة بين عينيه الخضراوين بلون الطحلب، وأنشأ يراقب الرجل العجوز بعناية أكبر، وكأنّه فهم شيئًا ممّا قيل عنه. غير أنّ حاجّي حاجّي أشاح ببصره جانبًا. فإذا لم يكن هذا الولد جنِّيًا، فمن في وسعه أن ينكر أنّه شبيه بالجنِّيّ؟

لقد منح الله الجمال كلّه لأخيه وأخته، ولكنَّه حرمه منه، بيد أنّه أراد أن يؤكّد عدله وإحسانه، فوهبه ذكاءً أكبر من ذكاء أخيه وأخته، بل أكثر من أيٍّ فرد من أفراد الأسرة. كيف سيكون عندما يكبر يا تُرى؟ فانعدام التناسب بين رأسه وجسمه، وليس جسمه وحده، ازداد بمرور الأيّام. كم سيكبر رأسه بعد أن بات حتى الآن مرّة ونصف المرّة أكبر من حجمه الاعتيادي؟ كانت يداه تلتويان إلى الداخل وليس إلى الخلف، وكأنّهما يدا قرد. كم سيعيش بهاتين اليدين مُصابًا بمرض لم يستطع أيّ فرد من أفراد الأسرة أن يلفظ اسمه صحيحًا؟ وهنا، شعر وكأنّ شخصًا ما يجذب فجأة نياط فؤاده، فما كان منه إلّا أن اغتصب ابتسامة، وقال منفرج الأسارير:

- ليست هذه حكاية خرافيّة، بل هي حقيقة واضحة. فقد عاش الوليّ منذ زمن طويل، لهذا خرجت الحكاية من فمي، وكأنّها حكاية خرافيّة. لقد حدثت هذه الأشياء حقًّا، وقبره ما يزال شاخصًا، وإذا كنت لا تصدّقني، فيمكنك الذهاب ورؤيته بأمّ عينك.

في اللحظة التي تفوّه بمثل هذا الكلام، أدرك أنّه ارتكب هفوة، فحفيده الأكبر لم يعد قادرًا على مغادرة المنزل، وهذا أمر يصبّ في مصلحته. وعلى العكس من أنداده وأخويه، كان عالم الصبيّ برمَّته

Twitter: @ketab_n

يتألّف من هذا المنزل الذي تبلغ مساحته مائة وخمسة أمتار مربّعة. ربت الرجل العجوز على ظهر الصبيّ النحيل بمودّة مغلّفة بالرأفة.

ـ كان هذا الوليّ العظيم درويشًا قبل أن يصبح وليًّا. وعندما حاصر جلالة السلطان محمّد الفاتح مدينة اسطنبول، أسرع الوليّ لنجدته. فدكُّوا أسوار المدينة بالمدافع، وقاتلوا على مدى أيّام، ولكنّهم لم يستطيعوا إجبار الكفّار البيزنطيِّين على الاستسلام. ثم حظي الدرويش بمقابلة السلطان. وقال له: اسمح لي يا مولاي السلطان أن أفتح ثغرة كبيرة في هذه الأسوار، حتى يتمكّن جنودنا من الدخول من الثغرة وقطع رقبة الكفّار مثلما تقطع رقبة الدجاجة. فما كان من السلطان إلّا أن رمى الدرويش المهلهل الثياب الواقف أمامه بنظرة، وفكّر: ما الذي يمكن لهذا الرجل الذلول الرقيق الجانب أن يفعل؟ لهذا لم يصدِّقه وطرده من المقابلة. مرّت الأسابيع وما تزال الجيوش غير قادرة على الاستيلاء على مدينة اسطنبول. وأنهكت شدّة العطش والقتال قوى الجيش العثماني الضاربة. ثم تذكّر السلطان هذا الدرويش، وطلب أن يأتوا به إليه، وقال له: هذه هي موافقتي. هيّا. فما كان من الدرويش المبتهج إلّا أن قبّل يد جلالة السلطان محمّد الفاتح ورِدْنه، وودّع بقيّة الدراويش، وسار من حول أسوار المدينة مفكّرًا في النقطة التي ينبغي أن يتمّ الهجوم منها.. وفي نهاية المطاف، اختار نقطة معيّنة. كان ذلك الجزء من السور هو الأشدّ سماكة، علاوة على كثرة حرّاسه، لأنّ قصر الملك البيزنطي كان يقع وراءه. ثم قال الدرويش: الآن، ارموا بي على ذلك السور. فاستبدّ بهم العجب العجاب، بيد أنّهم نفّذوا رغبته، ووضعوه في المدفع وقذفوا به.

هتف الطفل البالغ من العمر سبعة أعوام ونصف العام:

ـ بالله عليك! لقد قتلوا الرجل!

Twitter: @ketab_n

رقّق حاجّي حاجّي من صوته بسبب كلّ الأشياء التي ندم عليها قبل قليل، وقال:

ـ لا، لم يقتلوه! فهو ليس مثلي أو مثلك، كما أنّه لم يصبح وليًّا عبثًا. لقد قذفوا الدرويش، وبتلك القوّة ذهب وربط نفسه بالسور، ولم يسقط. بل بسط يديه وقدميه، وتشبّث بذلك السور السميك وكأنّه عنكبوت. كان الجنود البيزنطيُّون محتشدين في تلك المنطقة مثل النمل. وعندما رأوا الدرويش، رشقوه بسهامهم المسمومة، ولكن ما من سهم أصاب هدفه. فرشقوه هذه المرّة بسهام ملتهبة فكانت النيران تتصاعد من كلّ مكان تسقط فيه. أحرقوا الحشائش والأعشاب وأضرموا النار في الأشجار، فامتدَّت ألسنة اللهب في كلّ مكان، وكأنّ ذلك اليوم يوم الحشر، ولكنّ الدرويش لم يُصَب بأذى، ولم تحترق شعرة واحدة من رأسه. وشمخ وسط النيران مثل السمندر[١]. اطمح بصره إلى جنود الفاتح وابتسم لهم من مكانه البعيد، ولبث يدعو ربّه حتى أرخى الظلام سدوله، وتوضّأ وقت غروب الشمس.

صاح الصبيّ البالغ من العمر سبعة أعوام ونصف العام بصوت حادّ:

ـ إذا كان ملتصقًا بالسور، كيف تسنَّى له إذن الوضوء؟

أجاب حاجّي حاجّي وهو يتفرّسه غاضبًا:

ـ توضّأ بعينيه. كانت جدّتك رحمة الله عليها تتوضّأ أيضًا بعينيها. هكذا يتوضَّأ من لا يتمكّن من الانحناء والنهوض. وعندما فرغ الدرويش من وضوئه، قال:

ـ خذ حياتي يا إلٰهي، وحوّلني إلى فراغ. فما كان من الله إلّا أن قبل

(١) السمندر salamander: عَظاءة خرافيّة، زُعم أنّها قادرة على العيش في النار، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

دعاءه، فلاح هزيم البرق في السماء. هل تتذكّر كيف رشقه البيزنطيُّون بسهامهم من الأعلى ومن مسافة قريبة منهم، ولكنَّهم لم يصيبوا هدفهم؟ أمّا الآن، فقد جاء البرق من السماء السابعة، وأصابه إصابة دقيقة، تحوَّل في إثرها الدرويش إلى رماد. وتحوَّلت البقعة التي كان متشبّثًا بها إلى فجوة عظيمة. فلم يصدِّق جنود الفاتح أعينهم، فالفجوة التي ظلُّوا عاجزين عن إحداثها طوال أيّام، باتت شاخصة أمامهم بفضل الدرويش. وهنا تدفَّقوا من تلك الفجوة وأعملوا السيف في رقبة قائد الكفّار، وفتحوا المدينة. وعندما استقرّ المقام بجلالة السلطان محمّد الفاتح، لم ينسَ تضحية الدرويش، وأراد أن يُشيِّد له ضريحًا، غير أنّ الدرويش لم يكن له أيّ جثّة. وقال الجنود متذمِّرين:

ـ إذا لم تكن ثمّة جثّة، فيكف يكون ثمّة ضريح؟

نظرت الطفلة البالغة من العمر خمسة أعوام ونصف العام، وكانت قد اعتادت الحصول على آخر قطرة من الامتيازات الممنوحة لها، نظرًا لكونها البنت الوحيدة والأصغر سنًّا، إلى جدِّها بعينين يغشاهما الخوف. كانت تجمع في «حقيبة النحو» المزركشة، التي تدوِّن فيها الكلمات الجديدة التي تتعلَّمها يوميًا، بعض المفردات الأخرى في مكان آخر منفصل عن بقيّة الكلمات، وتحتفظ بها في محفظة تقفلها محدثة فرقعة، كلمات مثل: «روح» أو «يوم القيامة» أو «شبح» أو «غول» أو «كلب الجحيم». كانت تقلِّب بين أصابعها كلمة «سمندر» التي سمعتها قبل قليل، فدوَّنتها هناك أيضًا. كان لهذه الكلمات كلّها معنى واحد لا غير: جنّ. أمّا بخصوص معنى كلمة جنّ، فإنّها لم تفهمه فهمًا تامًّا، ولكن كلّما شعرت بحاجتها إلى المعرفة، كانت تدسّ يدها في المحفظة التي تغلق محدثة فرقعة، وتأخذ الحقيبة الأنيقة المزركشة، ثم تأخذ كلمة ما على نحو اعتباطيّ. وهنا، في تجاويف دماغها، يتغذّى شبح الجنّ

Twitter: @ketab_n

المبهم الذي يتمتّع بعديد الأسماء المختلفة، وإن لم يكن موجودًا، الشفّاف مثل جناحيْ ذبابة رقيقتين، من كلّ جوانبه، فيزداد وزنًا وينشر كلّ يوم عابر مثل حجاب من دخان لا يعرف الخجل، ليخفي بذلك تضاريس أكبر مساحة. استأنف حاجّي حاجّي كلامه، بعد أن استراح قليلاً ورشف مقدارًا من شايه:

- عمدوا إلى الوضوء بالإنابة عنه غيابيًّا، ثم حملوا النعش الفارغ على أكتافهم، وبدأوا يسيرون. لكن ما وجهتهم؟ لم يتمكّنوا من اتّخاذ قرار بشأن المكان الذي سيدفنونه فيه. غير أنّ النعش اتّخذ له جناحين في هذه المرحلة، وبدأ يتحرَّك من تلقاء نفسه أمامهم مباشرة. اجتازوا عديد التلال وعبروا الأنهار، والنعش من أمامهم، والندّابون إلى الوراء قليلاً.. وصعدوا ستّ تلال من مجموع التلال السبع في اسطنبول وهبطوا منها. ولمّا وصلوا التلّ السابعة رنوا بأبصارهم، فشاهدوا قبرًا فارغًا على بعد مسافة: قبر حُفر عميقًا وتُرك مفتوحًا. وسرعان ما اندفع النعش في ذلك الاتّجاه، وراح يهبط من فوق قمّة القبر، وظلّ معلّقًا في الجوّ إلى أن امتدّت يد واحدة من القعر! ثم صكّت الأسماع صرخة مدوّية...

بلعت الطفلة البالغة خمسة أعوام ونصف العام ريقها بصوت عالٍ، إلّا أنّ حاجّي حاجّي لم يتنبّه لها في غمرة استغراقه في الحديث، لأنّ كلّ اهتمامه كان ينصبُّ حصرًا على الحفيد الأكبر سنًّا.

- هبطوا بالنعش إلى أسفل القبر الفارغ، ثم شيّدوا من بعد ذلك ضريحًا من فوقه، وأصبح اسم الوليّ هو «بابا فراغ». ودأب الزوّار على الترنّم بدعاء على روحه!

- لكنّ الرجل ليس في القبر! ألا يعلمون أنّه خالٍ؟ لمن يدعون يا تُرى؟

تمتم حاجّي حاجّي متظاهرًا بأنّه لم يسمع السؤال:

Twitter: @ketab_n

ـ النساء اللواتي لا يستطعن إنجاب الأطفال يتوجّهن لزيارته. وإذا ما ذهبت إليه عرائس غير حُبلى، وتوجّهن إليه بالدعاء، وجلسن وحيدات بالقرب من ضريحه طوال الليل من دون أن يغمض لهنّ جفن، فإنَّ دعواتهنّ سوف تُستجاب فجرًا، وسيرزقن بأطفال أصحّاء البدن في غضون سنة واحدة.

استجاب الأطفال الثلاثة لهذه الكلمات كلّ بحسب طريقته. فقد فتحت الطفلة البالغة من العمر خمس سنوات ونصف السنة محفظتها، ووضعت بحيطة وحذر كلمة «فراغ» بين الكلمات التي توائم كلمة «جنّ». وبدا الطفل البالغ من العمر ستّ سنوات ونصف السنة، الذي كان يهتمّ اهتمامًا خاصًّا بكلّ الموضوعات التي من شأنها أن تكون ذات صلة بالجنس، منشغلاً بما يخصّ العرائس أكثر من انشغاله بالأولياء. أمّا الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة، فقد كانت لديه أسئلة يودّ الإفصاح عنها، واعتراضات يريد البوح بها. إلّا أنّه على الرّغم من ذلك، لم ينبس ببنت شفة. فالوقت هو وقت نوم الظهيرة، وأنّ النوم باعتقاده لازم من اللوازم أكثر من تحديد الأخطاء الكثيرة في الأساس المنطقيّ الذي يعمل من وراء حكايات جدِّه.

كان الوقت في هذه الساعات من بعد الظهيرة يسري بطيئًا ورويدًا رويدًا في الشقّة رقم ٥. فالأشياء نفسها تتكرّر دائمًا يوميًّا، وعلى النسق نفسه. ففي الصباح الباكر، تذهب أمّهم إلى العمل ويذهب والدهم بحثًا عن العمل. وعندما يصبح الأطفال بمعيّة جدّهم، تبدأ المشاحنات بينهم في صباح كلّ يوم من أيّام الأسبوع بسبب التلفاز. كان حاجّي حاجّي يفضِّل ألّا يشاهد الأطفال التلفاز كثيرًا، ولكن إذا ما شاهدوه، فإنّه يُؤْثر أن يشاهدوا برنامجًا من برامج الأطفال التي لا روح فيها ولا حيويّة. ويُستحسن أن يشاهدوا برامج الرسوم المتحرِّكة التي تُعرض على شاشتي قناتين في وقت واحد. إلّا أنّ للأطفال خيارًا آخر، مغايرًا، يصرُّون فيه

Twitter: @ketab_n

على مشاهدة برنامج الصباح الذي تقدِّمه امرأة ثرثارة مغناج، ترتدي أزياء بحسب الوقت، ولكنَّها تكشف عن وشم برعم وردة حمراء على بطنها، أو عن منحنيات نهديها. وإذا لم تنفَّذ رغباتهم، فإنّهم إمّا أن يأخذوا فأس الحرب ويستمرُّوا في الهجوم، أو يزدادوا اهتياجًا ويرفضوا أن يكلِّموا جدّهم. وكان ردّ فعل حاجّي حاجّي مختلفًا كلّ يوم، فكان يتحمّل الموقف بين حين وآخر، وفي انشغال الأطفال بمشاهدة التلفاز، يواصل قراءته في أحد الكتب الأربعة التي يملكها ـ وقد ظلّ هذا العدد من الكتب من دون زيادة أو نقصان على مدى أعوام. وكان في بعض الأحيان يمسك جهاز التحكُّم عن بعد، ويثبِّت الشاشة على أوّل برنامج من برامج الرسوم المتحرِّكة يصادفه، على الرّغم من الاحتجاج والضجيج اللذين كانا يُثاران ضدّه. في أحيان أخرى، كان يحاول أن يجذب أنظار أحفاده بعيدًا عن الشاشة، وينهك خياله بابتكار مختلف الألعاب، كلّ لعبة أشدّ إنهاكًا من سابقتها. إلّا أنّه مهما فعل وبذل من جهد، يظلُّ عاجزًا عن تبديد قوّتهم وطاقتهم، وبخاصّة من أكبر أحفاده، إلى أن تحلّ الظهيرة. وبعد ذلك، تزداد الأمور سوءًا على الرجل العجوز، لأنّهم كانوا يعمدون، كدأبهم في كلّ يوم من أيّام الأسبوع على مدى الشهرين الماضيين، إلى تكديس الملاءات والوسائد والأغطية في وسط غرفة الجلوس ويبدأون بصنع «عثمان».

قبل شهرين من الزمان، كان حاجّي حاجّي قد قرأ أمام أحفاده الفصول الثلاثة الأولى من أحد كتبه الأربعة، بعنوان «كيف ولدت أمبراطوريّة عظيمة ولماذا انهارت؟» وعندما أراد أن يأخذ قسطًا من الراحة، حصل، كعادته، على ثلاثة ردود أفعال متباينة من أحفاده الثلاثة. فقد كان الحفيد البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة أذانًا صاغية، شديد الانتباه، وبات الآن مستعدًّا لإثارة موضوعين اثنين على درجة بالغة من الأهمِّيّة له:

Twitter: @ketab_n

ـ كم خيمة كانت لدى الأتراك يا جدّي عندما وصلوا الأناضول؟

فيجيب حاجّي حاجّي من فوره:

ـ ألف خيمة!

إلّا أنّ هذا الجواب لم يفلح في إرضاء فضول الصبيّ.

ـ وكم عدد الأشخاص في الألف خيمة؟

فيأتي صوت حاجّي حاجّي هادرًا:

ـ عشرة آلاف!

بيد أنّ الغضب الذي كانت تشفّ به إجابة الجدّ، دفعت بالحفيد الأكبر إلى إثارة أسئلة أخرى.

ـ ألم يكن هناك بشر في الأناضول عندما جاء إليها الأتراك؟

قال حاجّي حاجّي متذمّرًا:

ـ لا، لم يكن فيها بشر. كانت الأرض خالية. وإذا كان فيها من كان، فقد هرب.

ـ حسنًا، هل سكن الأتراك في منازل أولئك الذين هربوا أم واصلوا عيشهم عيشة التنقُّل والترحال بعض الوقت؟ وهل شيَّدوا مدنهم من الخيام أوّل الأمر؟ في تلك الحالة، هل كانت المدينة مدينة خيام؟ كيف يتسنَّى للمرء أن يرسم خارطة مدينة كانت تتطلّب التجوال من سكّانها؟ كيف...؟

فقد حاجّي حاجّي سيطرته ورباطة جأشه، وهو يردّ:

ـ إخرس!

الحقّ، أنّ الطفل صمت، لكن كلّ الأسئلة التي تجمَّعت على لسانه راحت تدور في فمه، ووجدت طريقها إلى أعلى في اتّجاه الأنف، وبدأت من هناك تنساب في مسالك دمعه، وهكذا ظلّت شرارة أسئلة اتّهاميّة، محبّة للاستطلاع وملحّة، تضيء وتخبو مثل ذباب يضيء ويطير

Twitter: @ketab_n

متنقِّلاً في ليالي الصيف.

حاول الرجل العجوز أن يتفادى النظر إليه، والتفت من دون أمل يذكر إلى الحفيد البالغ من العمر ستّ سنوات ونصف السنة، ولكنَّه من ملاحظته التعابير المختلفة التي لاحت على وجهه، فإنَّ الشيء الوحيد الذي احتفظ به من تلك الحكاية هو أنّها كانت تشتمل على عديد المحظيّات في جناح الحريم، وأنّه ليس أمرًا حسنًا أن يولد المرء وهو شقيق السلطان. في محاولة أخيرة، التفت حاجّي حاجّي إلى حفيدته الصغرى البالغة من العمر خمسة أعوام ونصف العام، فرأى وجهها مشرقًا بالتحمُّس، ورآها وهي تثب إلى حضنه وتلكزه بمرفقيها الأبيضين المتورِّدين، وتخاطبه بأسلوب متكلِّف ومصطنع، اعتادته كلّما أرادت شيئًا ما من البالغين:

ـ بالله عليك يا جدِّي! دعنا ننصب خيمة أيضًا!

لو لم يكن حاجّي حاجّي متكدِّرًا من حفيديه الذكرين، لكان قد تردَّد قبل أن يتقبَّل هذه الفكرة، ولكن بما أنّه أغدق بخفّة يده كلّ حبِّه لحفيدته الصغرى كي يعاقب الحفيدين الآخرين، فقد وجد نفسه بغتة وسط كومة من الملاءات والوسائد ينصب خيمة في وسط غرفة الجلوس. ستكون لهم خيمة مثل سلالة آل عثمان.

كانت الخيمة الأولى التي نصبوها بدائيّة إلى حدٍّ كبير مقارنة بالخيام التي أقاموها في أوقات لاحقة. فقد صنع الجدّ والحفيدة مساحة صغيرة من الأرض، ومغطّاة بعدد من الملاءات التي وضعت من فوق أربعة كراسي مرتَّبة على شكل مربّع، وملآ هذه المساحة بالوسائد. إلَّا أنّ الخيمة نجحت على الرّغم من بساطة شكلها في جذب انتباه الحفيدين الآخرين اللذين لم يشاركا في اللعبة، وظلّا إلى تلك اللحظة يراقبان في ريبة كلّ شيء وهما بعيدان عن المشهد. وبعد مرور مدّة قصيرة، لم يتمكّنا من المقاومة، وتحرَّقا لمعرفة هذا العالم اللّامرئي والمركز المشيَّد

Twitter: @ketab_n

في وسط غرفة الجلوس، فعمدا إلى فتح الملاءة التي كانت تقوم مقام الباب، وانضمّا إلى جدّهما الذي كان جالسًا وواضعًا ساقًا على ساق من فوق الوسائد. فساور حاجّي حاجّي، ويا للدهشة، إحساس بنوع من الاعتزاز الخالص الذي كان يحنّ إليه منذ زمن طويل. كان هذا الاعتزاز أو احتمال وجوده هو الذي أدَّى بالرجل العجوز إلى أن يتقبّل من صميم فؤاده هذه اللعبة. غير أنّ هشاشة الأسس وضعف السيطرة التي رسّخها مصادفة في هذا المنزل، ستّتضحان بعد يوم واحد لا أكثر.

ففي الوقت نفسه من اليوم التالي، جلست الطفلة البالغة خمس سنوات ونصف السنة في حضنه كما جلست سابقًا.

ـ هيّا يا جدّي، دعنا نصنع عثمان!

عندما سمع الرجل العجوز الاسم «عثمان»، وقف شعر رأسه فزعًا، لأنّه لم يتمكّن من التخلُّص من الإعياء الذي استبدّ به نتيجة تمرين الخيمة السابق، فأثّر في ساقيه القبيحتين وظهره المتشنِّج. واحسرتاه! لم تساعده تحذيراته العذبة، ولا غضبه المتأجِّج، في تعليم الفتاة أنّ الخيمة لا يفترض أنّ تُسمّى بالاسم «عثمان». هكذا كانت طبيعة البنت، إذْ ما إن تمزج كلمة بأخرى، فما من سلطة في العالم يمكنها أن تقطع الصلة اللغويّة في ذهنها. فمثلما كانت كلمات مثل أشباح وأرواح وغيلان وكلاب الجحيم توضع في قائمة «الجنّ»، فإنَّ الأمر ينطبق على الخيمة المسمّاة «عثمان».

أصبح عثمان بعد ذلك جزءًا أساسيًّا من حياتهم، إذْ يبدأ الأطفال في الوقت نفسه تقريبًا من كلّ يوم بالتصرُّف تصرُّفًا خبيثًا، مثل سكارى ينتظرون أن يحين موعد الشرب. وبعد نصف ساعة من الزمان، تتكوّم الملاءات وأغطية الفراش وحشايا الأسرّة والوسائد في وسط غرفة الجلوس. وعلى الرّغم من أنّ حاجّي حاجّي كان يأمل من دون طائل في أن يشبع أحفاده المتقلّبو المزاج والطائشون من عثمان، نظرًا لما عرف

Twitter: @ketab_n

عنهم من ميل إلى الضجر والسأم من كلّ الألعاب التي كانوا يمارسونها، إلّا أنّ الأمر لم يكن كذلك في هذه الحالة، بل على العكس، شرعوا رويدًا رويدًا يوسعون حدود الخيمة، مضيفين غرفًا وأقسامًا وتجاويف جديدة، ويحيون حياة الرحَّل في مساحة تبلغ ٥ × ٦ م². كانت الخيمة تنصب مجدَّدًا في ظهيرة كلّ يوم، وتبقى في وسط غرفة الجلوس حتى الأصيل. وعندما يرخي الظلام سدوله خارج الشقَّة، يرفعونها في غمضة عين قبل أن يحلّ موعد رجوع والديهما من العمل.

ثمّة حوادث أخرى تتكرّر يوميًّا من دون استثناء. فعلى سبيل المثال، كان الهاتف يرنّ في الوقت نفسه في حدود الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحًا، بعد الدقيقة الأخيرة التي يكون فيها روّاد المسرح قد اتّخذوا مجلسهم لمشاهدة عرض الظهيرة المسرحي. وكان الطفل الأكبر سنًّا هو الذي يردّ على الهاتف في كلّ يوم. فيتكلَّم عمّا فعلوه منذ الصباح، ويجيب بالإجابات نفسها على الأسئلة ذاتها: نعم، لقد فرغا من تناول وجبة فطورهما... لا، لم يكونا مشاكسين... نعم، إنّهما يشاهدان التلفاز... لا، جدّي لم يقصّ علينا قصّة... لا، لم يفتحا الغاز. لا، لم يعيثا في البيت خرابًا... لا، لم يتدلّيا من الشرفة... لا، لم يلعبا بالنار... لا، لم يدخلا غرفة النوم... الله يشهد على أنّ الجدّ لم يقصّ قصّة... وهلمّ جرّا.

على الرّغم من أنّ الكنَّة كانت في أعماقها ترتاب في نزاهة ولدها الأكبر وصدقه، ولا ترغب في الاتّصال هاتفيًّا بحميّها، فلا مناصّ من أن تقتنع بما سمعت. في هذه الأثناء، يكون الطفل البالغ سبع سنوات ونصف السنة يمسك بسمّاعة الهاتف في يده، ويردِّد إجاباته المألوفة التي يشفّ فيها صوته عن خبث ومكر، إلّا أنّ عينيه لم تغفلا لحظة واحدة عن النظر إلى جدِّه. وكان مدركًا الإدراك كلّه التوتّر المستمرّ بين البالغين، وأنّه اكتشف منذ زمن أنّ في وسعه أن يعزِّز قوّته بإيثار أحد البالغين على

Twitter: @ketab_n

الآخر، بحسب مقتضيات الحالة.

لم يقتصر وجودهم داخل الخيمة «عثمان» على تناولهم وجبات طعامهم فحسب، بل راحوا يستمعون داخلها إلى حكايات ميعاد النوم أيضًا. وكان ينضمّ إليهم أشخاص آخرون يوميًّا بعد وجبة الغداء، وقبل قيلولتهم: زوجات آباء جامدات القلوب، ويتامى عاثرو الحظّ، ونصّابون هاربون من جوف الأرض، وقطّاع طرق يتربّصون بالناس، وغاويات الرجال من إناث الجنّ، ومقاتلون أشدّاء، ومجانين ثبت جنونهم، وثعابين مجلجلة سامّة، وعجائز يضمرن الحقد والضغينة متهدِّلات الجلد، وشياطين وغيلان ليسوا أكثر من هياكل عظميّة حقودة وعيون جاحظة... اجتمعوا كلّهم من تحت الخيمة. وما إن يصلوا حتى يفقدوا الرغبة في الانصراف. وفي الوقت الذي ما تزال العبارات الأخيرة من الحكاية الخرافيّة تدخِّن في الأجواء، فإنَّ التعب والإرهاق يستبدّ بهم، فيتكوَّر كلّ واحد في مكانه، وكان حاجّي حاجّي أسرعهم في الاستسلام للنوم وأسهلهم، تعقبه الطفلة البالغة خمسة أعوام ونصف العام، ويليها الطفل البالغ ستّة أعوام ونصف العام. وبينما يملأ شخير الجدّ وأنفاس الأخ والأخت أرجاء الخيمة، فإنَّ الطفل البالغ سبع سنوات ونصف السنة ينهض من مكانه بهدوء، ويتوقّف أوّلاً قرب جدّه ويراقبه، وكأنّه يتفحّص مخلوقًا لم يعرفه، أو فاكهة مداريّة لم يتذوّقها، أو سمكة صدفيّة فيها كلّ المفاجآت، لحية حاجّي حاجّي الرماديّة والمدوَّرة تعلو وتهبط كلّما تنفَّس، وسبّحة الصلاة الكهرمانيّة اللون التي انزلقت من بين أصابعه، والشعر الأشيب الزاحف من صدره إلى رقبته. يراقب شفتيه المشقّقتين والتجاعيد الغائرة المتقاطعة على جبينه... لقد بدأ يراقب جدّه منذ عامين ونصف العام، وعمّا قريب سينهي اكتشافه.

كان اليوم المعتدل والفوّاح الذي التقى فيه الطفل جدّه أوّل مرّة نقطة تحوُّل في حياته، لأنّه صادف أيضًا آخر يوم من الأيّام التي كان

Twitter: @ketab_n

يتجوّل فيها خارج الشقّة. ثم اشتدّ عليه المرض وقَوِيَ على نحو سريع، وبات واضحًا جدًّا عليه، حتى إنّه لم يخرج إلى الشوارع مجدَّدًا.

في البقايا المتلاشية من الماضي البعيد، إذْ كان يعد أو يبدو في الأقلّ مثل طفل اعتياديّ، عندما اضطرّ والده ووالدته إلى التوجّه إلى المطار لاستقبال جدِّه، اصطحباه معهما أيضًا. وحتى ذلك اليوم، لم يكن قد تناهى إلى سمعه الشيء الكثير عن الرجل العجوز، وكلّ ما عرفه هو أنّ اسمه حاجّي، وأنّه يعيش رفقة زوجته في مدينة نائية، وأنّ حادثة مروريّة وقعت لهما عندما سافرا إلى اسطنبول لرؤية أحفادهما أوّل مرّة، وأنَّ الجدّة وافتها المنيّة في تلك الحادثة. وبكى الجدّ حاجّي مُرّ البكاء على أثر فقدانه زوجته، وأُدخل المستشفى بعض الوقت، وسافر إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ بعد خروجه من المستشفى مباشرة. وبعد أن أكمل فريضة الحجّ عاد من فوره. هذا كلّ ما عرفه الطفل البالغ سبعة أعوام ونصف العام عن جدِّه، عندما كان ما يزال عمره خمسة أعوام لا غير يومئذٍ. وفي الطريق إلى المطار، اكتسب معلومة أخرى مهمّة، من الآن فصاعدًا، سوف يعيش الجدّ حاجّي معهم في اسطنبول.

كان القسم المخصَّص من المطار لأقرباء المسافرين شديد الازدحام. وبعد أن يهبط المسافرون من الطائرة ويكملون مجموعة من الإجراءات البيروقراطيّة، يمرُّون من خلال باب أوتوماتيكي ما إن ينفتح حتى يجدوا أنفسهم وقد التقوا أقرباءهم الواقفين في انتظارهم. وبينما كان الطفل ينتظر وسط حشد الناس متشبِّثًا بقوّة بيديّ أمِّه وأبيه، راح ينظر نظرة متأنّية إلى كلّ شخص يمرّ به. كبار السنّ من الرجال العائدين من رحلة الحجّ كانوا، ويا للعجب، وكأنّهم نسخة مستنسخة عن بعضهم بعضًا. ولم يكن سبب ذلك التشابه مقتصرًا على كونهم يرتدون ثيابًا باللون نفسه فحسب، بل كانوا بالعمر نفسه والطول نفسه ولهم اللحى المدوَّرة الرماديّة اللون نفسها، وكانوا أيضًا يكرِّرون من دون الوقوع في

Twitter: @ketab_n

أيّ خطأ أثناء خروجهم من الباب الحركات نفسها وبالتسلسل نفسه: فعندما يُفتح الباب، يعمدون إلى تضييق عيونهم وكأنّهم يواجهون بغتة حزمة من الضوء، يرنون إلى الحشد، ويتقدَّمون خطوة واحدة، وهم في هذه الحالة، لتقع أعينهم من بعد ذلك على شخص ما. حينها يندفعون في اتّجاهه ويضعون حقائبهم على الأرض، ويعانقون معارفهم الذين يهرعون إلى لقائهم عناقًا تطفح فيه وجوههم بِشْرًا وسرورًا. ويقلِّد كبار السنّ عند المدخل بعضهم بعضًا تقليدًا أعمى، وبدلاً من أن تكون حمولة الطائرة مؤلّفة من ناس مختلفين، فإنّها تبدو وكأنّ الرجل نفسه يدخل من الأبواب الأوتوماتيكيّة ويخرج منها مرارًا وتكرارًا.

ثم ينفتح الباب مرّة أخرى، فيدخل رجل يخمِّن من ردود فعل أمِّه وأبيه أنّه جدّه. وعلى الرّغم من أنّ هذا الرجل يرتدي ثيابًا تشبه ثياب غيره من الحجّاج، إلّا أنّه لاحٍ، وكأنّه رجل غريب أخطأ طريقه فصار بينهم، وكأنّه ليس رجلاً مسنًّا، بل هو مقلِّد ناجح ولج غرفة تبديل الثياب في اللحظة الأخيرة، ولبس ثياب غيره من الناس. كان يبدو مثلهم تمامًا، ولكنَّه على الرّغم من ذلك يظلّ مقلّدًا، لأنّ ثمّة شيئًا ما مفقودًا.

رمش الطفل عينيه الخضراوين بلون الطحلب، ورمقه مرّة أخرى، فأدرك عندئذٍ مكمن الخطأ: فالرجل العجوز بلا لحية! وبدلاً من أن تكون لديه لحية بيضاء لامعة تخطف الأبصار ومقوَّسة مثل هلال، فإنَّ البقعة الكائنة في منطقة الهلال تلقَّت نصيبها من ضوء الشمس، فكان الجزء الأعلى من وجهه أسود اللون كالقارّ، في حين كان القسم الأسفل منه شاحبًا مثل صباح رائقٍ وصافٍ.

عانق الرجل ذو «الوجه الناقص» الحفيد عناقًا ينمّ عن شوق كبير، إذ كانت تلك هي أوّل مرّة يراه فيها. ثم عانق ابنه، وعانق الحفيد مجدّدًا وكنّته، ليعود بعدها ويعانق حفيده وابنه ثم حفيده مرّات ومرّات. في هذه

Twitter: @ketab_n

الأثناء، راح الناس من حولهم يعانق بعضهم بعضًا، وامتلأت قاعة الانتظار في المطار بمجاميع من البشر يبكون ويتبادلون القبلات، يحضن بعضهم بعضًا ويصطدم بعضهم بالبعض الآخر. عندما يشبع كبار السنّ العائدون من أداء فريضة الحجّ شوقهم إلى معارفهم، ينشغلون الانشغال كلّه بالتعارف بينهم، فيبدأون بالمصافحة هذه المرّة والعناق والأخذ بالأحضان من بين الناس. في خضمّ تلك الضوضاء والجلبة، يتنقّل الطفل الصغير من حضن إلى حضن مسجِّلاً ملاحظة أخرى في مذكّراته: فمن كان اسمه «محمّدًا» ويعود من الحجّ، يصبح اسمه «حاجّي محمّد» ومن اسمه «أحمد» يصبح اسمه «حاجّي أحمد». وسأل والده في طريق العودة سؤالاً طالما أقلق باله، وهو: «إذا كان على المرء أن يذهب لأداء فريضة الحجّ حتى يستحقّ لقب حاجّي، فكيف أصبح لقب جدّه حاجّي منذ الولادة، وقبل أن يذهب لأداء فريضة الحجّ أو قبل أيّ شيء؟ ولمّا كان اسمه حاجّي منذ البداية، فما السبب الذي أدّى به إلى الذهاب إلى الحجّ؟ وإذا كان وجهه ناقصًا، فإنَّ اسمه كان كاملاً أكثر ممّا ينبغي. وكان ردّ والده عليه مؤنّبًا «أيّها اللئيم». ولمّا كان ذلك الردّ لا يُغني ولا يُسمن، فإنّه عزّز من اعتقاد الطفل بأنّ جدّه لا يشبه أيّ جدّ آخر. ومنذ ذلك الوقت، فكّر أنّ جدّه كان «غريب الأطوار». فقد اضطرّ جدّه إلى حلق لحيته بسبب إصابته بحساسيّة قبل يوم واحد من عودته من مكّة، ولكنَّه سرعان ما أطلقها من بعد ذلك، وفي غضون مدّة قصيرة أصبح يشبه بقيّة الأجداد في المطار، ولكنَّه لم يقنع الصبيّ بما هو عكس ذلك.

الآن، وبعد كلّ هذه الأعوام، وعلى الرّغم من أنّه ما يزال يتفحَّص جدّه، إلّا أنّه راح يقلّل من تفحُّصه بمرور الأيّام، لأنّه لم يجده مثيرًا للاهتمام كسابق عهده. فما إن ينتابه السأم من مراقبة الرجل العجوز حتى يخرج من الخيمة «عثمان» من دون أن يُحدث أيّ صوت، ويبدأ المشي على أطراف أصابع قدميه من حول البيت. فوجوده في مكان عالٍ

Twitter: @ketab_n

حيث الكلّ نيام امتياز رهيب، ويكون المنزل وقتئذٍ أشبه بقلعة في حكاية «الأميرة النائمة». وكان الطفل البالغ سبعة أعوام ونصف العام على العكس من أخيه وأخته، يتذكَّر الحكايات الخرافيّة التي اعتادت أمّه أن تحكيها لهم في أوقات الصباح، قبل أن تبدأ عملها في دار عرض سينمائي في أحد مراكز التسوُّق بزمن طويل. تذكّر تلك الحكايات الخرافيّة، وفكّر في الفرق بينها وبين تلك التي كان يحكيها جدّه.

في الوقت الذي كان الآخرون قد خلدوا إلى النوم، فإنّه كان يذهب إلى المطبخ، ويشعل الفرن ويلعب بأعواد الكبريت، ويقلِّب صفحات كتب جدّه الأربعة التي ظلّ عددها ثابتًا على مرور السنين، ويتناول مقدارًا قليلاً من الطعام ويدخل غرفة نوم والديه، ويقلِّب محتويات ثياب الخزانة ويضع مجوهرات أمّه على السرير، ويعدّ النقود التي أخفاها والده في إحدى زوايا الخزانة... كان يفعل كلّ الأشياء الممنوعة. وعندما يقترب الوقت من استيقاظ الآخرين، يعود على أطراف أصابعه إلى الخيمة، ويستلقي في إحدى زواياها وينتظر بنفاد صبر. لم يكن مضطرًّا إلى الانتظار زمنًا طويلاً. ففي كلّ يوم، تدخل مركبة النفايات شارع الجبل في الساعة الخامسة والنصف مساءً تقريبًا. وكانت ضوضاء عمّال جامعي القمامة وقعقعة الصفائح الفارغة وحشرجة محرِّك المركبة توقظ كلّها النائمين. ثمّة عربات مركونة إلى جانبيّ الشارع، لهذا لم تكن مركبة النفايات قادرة على المناورة بسهولة في الطريق الذي سيزداد ازدحامًا مؤكَّدًا. وما إن تصل أصوات بوق المركبة الشقّة رقم ٥ من قصر الحلوى، حتى يجفل حاجّي حاجّي من نومه ويصرخ إلى حدٍّ ما. الحقّ، أنّ قصر الحلوى كان واحدًا من الأماكن، التي يستطيع أن يحظى فيها بإغفاءة مريحة هذا الرجل العجوز، الذي يحمل في تجاعيد جبينه ووجهه وقلبه آثار حادثة مروريّة مرَّ بها.

واستيقظ الأطفال بصرخة حاجّي حاجّي، وأوّل المستيقظين الطفلة

Twitter: @ketab_n

البالغة خمسة أعوام ونصف العام مغمغمة في جلبة. ثم يستيقظ الطفل البالغ ستّة أعوام ونصف العام متثائبًا في كسل. أمّا الطفل البالغ من العمر سبعة أعوام ونصف العام، فإنّه لا ينهض من فوره من المكان الذي استلقى فيه قبل دقيقتين، بل يعدّ في صمت إلى العشرين كي يمنح الآخرين ما يكفي من الوقت للاستيقاظ. ثم يقف على قدميه مترنِّحًا، ويفرك عينيه الخضراوين بلون الطحلب، مخفيًا بذلك بريقهما الوضّاء، ويقترب من النافذة المفتوحة، ويشرئبّ بعنقه لينظر إلى أبواب العالم الخارجيّ الحافل بالأسرار، التي يشعر بعمق أنّها أكثر إثارة للهلع من كلّ الحكايات الخرافيّة التي سمعها.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧

أنــــا

ممّا يبعث على الاستغراب أنّني استيقظت من دون مساعدة ساعة منبِّهة في هذا الصباح. ويبدو أنّ تلك الغرابة لم تكن كافية، لأنّني عندما استيقظت وجدت نفسي يقظًا قبل ذلك. كانت عيناي مفتوحتين كأنّهما استيقظتا تلقائيًّا، وبعد ذلك راحتا تجولان من حول السقف. لا يمكنني القول إنّ ما شاهدت راقني.

كلّما استسلمت للنوم في هذا المكان، كانت ساقاي تمتدّان من فوق الأريكة، لكن علاوة على ذلك، يبدو أنّني نسيت في هذه المرّة أن أخلع حذائي. كان رأسي قد انزلق من فوق الوسادة، وتشنّجت رقبتي. في المنطقة الممتدّة من فمي إلى أذني، لاحظت لعابًا ذا فقّاعات كالعجين ـ كأنّه لعاب كلب مسعور أو طفل يرجع طعامًا تناوله قبل قليل. كان قميصي مجعَّدًا من فوق بدني، واستبدّ ألم الاستلقاء مائلاً بظهري، وكان فمي يابسًا من شدّة الظمأ. كما كنت قد تقيّأت على ركن السجّادة. كنت على الأقلّ قد فكّرت في خلع بنطالي، لكن بما أنّ «أثيل المرأة» يروقها أن تتشدّق بقول آخر من أقوالها المأثورة: إذا كان الرجل عاريًا إلّا من جواربه وحذائه، فإنّه يكون جذّابًا مثل تفّاحة محلّاة،

Twitter: @ketab_n

أجزاؤها الخارجيّة عفنة كلّها . . . أو ما يشبه ذلك. إذا ما نظرنا للأمر من هذه الجهة، فإنّني يجب عليَّ أن أُعدَّ نفسي محظوظًا لأنّني استيقظت وحيدًا في صباح هذا اليوم، مثلما كنت أستيقظ تمامًا طوال الأعوام الستّ والستّين المنصرمة.

كلّ ذلك بسبب هذا البيت. فقد مرّ شهران وخمسة أيّام على انتقالي إلى هذا المكان، وبدأت أدرك أنّ المدّة التي يُقاس بها الزمن ليست، بالرّغم من صفتها التجريديّة واتّساعها، أكثر من قطرة ولا أقلّ منها. إنّني أعدّ كلّ يوم يمضي، كلّ نتفة منه. كان ينبغي لي بعد هذه المدّة الزمنيّة أن أكون قد استقرّ بي المقام، وأسَّست نظامًا ما في هذا المنزل. إلّا أنّني لم أخفق في الاستقرار فحسب، بل أعيش وكأنّني سوف أحزم أغراضي وأرحل في أيّ لحظة. الشقّة ما تزال غير مختلفة عن شكلها الأوّلي الذي رأيتها فيه أوّل مرّة عندما انتقلت إليها، وكأنّ ذلك سوف يسهّل عليَّ مهمّة الانتقال منها. فالصناديق مكدَّسة بعضها من فوق بعض، بعضها مفتوح، ولكن معظمها لم يفتح: مأوًى موقّتًا، لامباليًا، وسط ركام من طرود ورزم تحتاج إلى من يفتحها . . . النظام العابر يتبخّر تبخُّر معطّر جوّ الغرف . . . «بيت ــ ليغو» مشيَّد من أجزاء وقطع يمكن تفكيكها في أيّ لحظة . . . عندما يكون الفرد عازبًا، فإنّه يعيش وسط «مقتنيات ــ في ــ بيت». ماضي المرء وقيمته الشخصيّة وخطّ سيرة حياته، كلّها متجسّدة في ممتلكات ذات قيمة رمزيّة. وعندما يتزوّج المرء، فإنّه يبدأ العيش في «بيت مقتنيات» مؤسَّس على مستقبل وليس على ماضٍ، على آمال وليس على ذكريات، بيت مشكوك مدى ما يملكه فيه من أشياء شخصيّة. أمّا بخصوص الطلاق، واعتمادًا على ذهاب الشخص أو بقائه، فإنّه يشبه العيش في مخيّم مجدّدًا، إلّا أنّ هذه المرّة، إمّا يبقى خارج «بيت ــ ذهبت مقتنياته» أو يرحل حاملاً معه «مقتنيات ــ من ــ دون ــ بيت».

تنطبق الحالتان عليَّ بسبب هذا البيت، وبسبب «أثيل المرأة». في

Twitter: @ketab_n

اليوم الذي اضطررت إلى الانتقال إلى هنا، لم أتمكَّن من إقناعها على ألّا تتدخَّل وألّا تُفسد الأمور بمساعدتها، بالرّغم من قصارى جهدي التي بذلتها من أجل ذلك. وعندما تمكَّنت في نهاية الأمر من أن أتربَّع على المقعد الأمامي من الشاحنة العائدة لشركة النقل، التي وافقت على نقل الكتب والثياب والتحف زهيدة القيمة التي رفضت متعمّدًا أن أتخلّى عنها، لأنّها من مقتنيات بيت الزوجيّة المرتَّب ترتيبًا ينمُّ عن ذوق رفيع (فضلاً عن بعض الأثاث الزهيد الثمن والبسيط الذي كنت قد اشتريته مؤخّرًا للشقّة القابضة للصدر التي ستصبح قاعدة لمرحلة ما بعد زواجي)، لا أحد بالقرب منّي سوى أثيل. ويبدو أنّ وجودها لم يكن فيه ما يكفي من إثارة للذعر، إذْ جاءت رفقة سائق سيّارة بليد، أثارت ارتباكه الشديد بتقديمها سيكارًا من الطبقة الأولى وطرحها أسئلة وقحة تنافي الأدب، وحديثها في موضوعات غير معقولة ـ ومن ضمنها قائمة بأسماء أصعب الجيران مراسًا في اسطنبول الذين حلّوا أو رحلوا من هنا. وعندما وصلنا في نهاية الأمر قصر الحلوى، تدخَّلت في شؤون الحمَّالين، متجوّلة في الجوار في تحمُّس، ومرتدية تنّورتها التي يصعب تصوُّر أنَّها لم تكن بأطول من حجم منديل شحّاذ على تلك المؤخّرة الضخمة والقبيحة التي كانت تستمتع بعرضها الاستمتاع كلّه.

كانت تصرخ آمرةً، يمنة ويسرة، وتصدر التعليمات إلى الحمّالين عن مكان وضع الصناديق وعن ترتيب طرود الكتب، وعن رصّ الحزم المترنِّحة لمجموعة من الكتب يفترض أن تصبح مكتبة بيتيّة الصنع اضطرّتني إلى شرائها من أحد المتاجر الضخمة التي تزورها الأسر في عطلات نهاية الأسبوع. وكان للحمّالين ما يكفي من الحكمة كي يعلموا أنّ المرأة هي التي لها الكلمة الفصل في هذه الأمور، وبسبب حكمتهم تجاهلوني ـ أنا المالك الحقيقي ـ من دون أيّ إحساس بالخجل. إنّني لا أتذكَّر طوال اليوم أنّهم أصغوا إلى ما قلت، إلَّا عندما حان وقت دفع

Twitter: @ketab_n

أجورهم، حيث فضّلوني على أثيل. وحتى عندما ارتطم الصندوق المحتوي على كلّ أنواع الأقداح والأكواب والكؤوس ذات القواعد، فإنّني لم أكن أنا السلطة التي تحدَّثوا إليها، ولم أكن أنا الشخص الذي اعتذروا منه، في محاولة منهم للتقليل من شأن الحادثة، بل كانت أثيل هي التي أقامت الدنيا على رؤوسهم بشأن الأضرار المحتملة التي يمكن أن يكونوا قد تسبَّبوا فيها.

اضطررت طوال اليوم إلى الوقوف في إحدى الزوايا، مكتفيًا بمراقبة ما يعدّ أمرًا مناسبًا لي. ووصل إقصائي وتهميشي ذروته أثناء نصب سرير النوم الكبير، الذهبيّ القوس والذي يساعد على تقويم العظام، الذي تبلغ أبعاده ١٨٠ × ٢٠٠ سم ـ وكان واحدًا من غنيمتين رائعتين كنت قد تمكَّنت من انتزاعه من بيتي القديم. وعندما اتّضح بعد ستّ محاولات أنّ السرير لن يناسب فضاء الغرفة، التي لا شكل لها والتي قرّرت أثيل أن تجعلها غرفة نومي، نشب جدال بينهم، إذْ أرادت أثيل وضع السرير بمحاذاة الحائط، وإذا اقتضى الأمر، أن تضحّي برأس السرير المزوّق إلى حدِّ الإفراط. أمّا الحمَّالون، فكانوا يرون ضرورة وضع رأس السرير حتى ولو لم تبق أيّ مساحة للحركة من حوله. في تلك الأثناء، لم يسألني أحد عن رأيي، ولو سألني أحدٌ ما، لما عرفت ما أقول في كلّ الأحوال. وعندما اتّفقوا أخيرًا على وضع السرير جانبًا، من دون فسحة للحركة، فإنّني لم أعترض. على أيّ حال، كان السرير كبيرًا جدًّا قياسًا إلى حجمي. وتبعًا لذلك، لم أرقد عليه مرّة واحدة منذ أن انتقلت إلى هنا. فأنا يلائمني كثيرًا النوم على هذه الأريكة الضيّقة التي تؤذي قوامي وتؤلم ظهري. كانت أثيل في ما مضى من الزمان قد ألقت في موسمها المطوّل عن المثنوي(١) محاضرة عن الرومي، وكيف

(١) مثنوي المولوي جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣)، الشاعر الصوفي المولود

Twitter: @ketab_n

كان يحسب حسابًا لبدنه. ربّما أظهرتُ في هذين الشهرين الأخيرين قليلاً من الاهتمام ببدني، وإن لم يكن بهذه الطريقة الصوفيّة. ومع هذا، فأنا لا يمكنني الانفصال عن هذه الأريكة القاسية وغير المريحة، وكأنّني عاشق ولهان متعلّق تعلُّقًا شديدًا بمضطهده، أو تلميذ مبتدئ تعوَّد على التأنيب. وقبل نهاية الفصل، ينبغي لي أن أخصِّص موضوع «خطاب العبوديّة الطوعيّة» للقسم المخصّص ليوم الخميس.

ممّا لا ريب فيه أنّ التلفاز المقابل لي هو السبب الرئيس لإيثاري هذه الأريكة. فبعد أن تخلّيت عن ساعات النوم المنتظمة، رحت في هذه الأيّام ألوذ بالتلفاز، ولا أستطيع النوم إلّا إذا كان شغّالاً. ففي الليلة الماضية، وعلى أثر عودتي إلى المنزل في ساعة متأخِّرة من الليل، أظنّني أدرت جهاز التلفاز، فلاحت لي على الشاشة فتاة شابّة طائشة ترتدي قميصًا قصيرًا متعدِّد الألوان وبطيور مداريّة، ووشم قرمزيّ بلون برعمورديّ، كبير بقدر قبضة يد، على بطنها الريّانة. كان شعرها البرتقالي مشدودًا إلى أعلى قليلاً بأشرطة خضراء برّاقة، تشدو في مرح لا يتمتّع به عديد الناس في هذه الساعة المبكرة من الصباح. وعلى الرّغم من أنّ الفتاة لا تحرِّك بدنها كثيرًا، وتتكلَّم بكلام قوامه إشارات اليدين البسيطة، إلّا أنّ نهديها لبثا يتأرجحان على النحو الذي تعرفه

= في بلخ والمستقرّ في قونية. والمثنوي هو خزانة المسائل الدقيقة والعلوم المختلفة وغوامض أسرار الكون والخليقة والسبر في الحياة المادّيّة والمعنويّة لبني البشر وما شاكلها من الأشياء التي امتزجت بالمسائل الجزئيّة وبمعيشة الأفراد الخصوصيّة، وفصّلت وشرحت ووضّحت بأسلوب قصصي الآيات القرآنيّة وشرح الأحاديث. وفي كلّ موضع يستنتج جلال الدين الرومي نتائج عامّة وكلّيّة بمهارة وإحاطة تامّة، وبروح مرحة مبتهجة ونفس متفائلة منبسطة تختصّ بأكابر الصوفيّة العارفين. لمعلومات أكثر عن الرومي، انظر: رواية «قواعد العشق الأربعون» للمؤلِّفة أليف شافاك الصادرة بترجمتنا عن دار الآداب البيروتيّة، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

النسوة اللواتي يهرعن إلى اللحاق بالحافلة في الدقيقة الأخيرة. غير أنّ هذا ليس هو ذوقي. فأنا أرغب في النقيض، أرغب في نهدين صغيرين بحجم كفّ يد في جسم ضخم، أو نهدين عامرين في جسد صغير.

بعد عشرة أيّام، عندما عادت أثيل لتُلقي نظرة فاحصة إلى البيت، ولتطمئنّ إلى أنّ كلّ شيء بقي على حاله مثلما تركته، احتفظت بملاحظاتها لنفسها. ولم يتغيّر شيء بحلول الأسبوع الثالث، ولم تُفتح أيّ رزمة، ولم يُركَّب أيّ رفّ من الرفوف. ولمّا جاءت بعد مضيِّ شهر وخمسة أيّام، تمنّيت لو لبثت صامتة مرّة أخرى، إلّا أنّ أسارير وجهها انفرجت عن ابتسامة مقيتة مكروهة، وراحت تفرقع أظافر أصابعها الطويلة المطليّة بطلاء برّاق لتهدر بعدئذٍ بأسلوبها المعهود الذي تريد به توكيد أهمِّيَّة أيّ شيء تريد قوله:

ـ انظر لي يا قطعة الحلوى! ليس الشأن شأنك، لكنْ يستحسن بك أن تتوقّف عن معاملة منزلك الجديد كما عاملت زوجتك السابقة. لقد أهملت بيتك معتقدًا أنّه ملكك كلّه، وأنّه لن يؤخذ منك، لكنَّه قد يؤخذ منك، لا سمح الله، مثل زوجتك تمامًا.

إلّا أنّني لم أردّ عليها، إذ طالما كرهت الأظافر الطويلة المطليّة بطلاء برّاق.

تستخدم أثيل لسانها على النحو الذي تستخدمه الضفدعة في القبض على ذبابة. فكلّ ما يعنّ على بالها، تنطقه من غير تبصُّر، وقبل أن تتمكّن الضحيّة من انتهاز فرصة لتفهم الرسالة المقصودة، تقبض بلسانها الورديّ الخشن على الحيرة الموقّتة التي تكسو تلك الضحيّة، وتتجرّعها بمتعة كبيرة من دون أن تزعج نفسها بازدرادها. وعلى الرّغم من أنّني قلّما تردّدت بعد الطلاق بإنهاء عديد الصداقات في حياتي، إلّا أنّني لا أعرف، ولا أريد أن أعرف حقًّا، السبب الذي يجعلني مستمرًّا على صداقتي بها. إنّني لا أبذل أيّ جهود محدّدة من أجل رؤيتها، لكنّني لا

Twitter: @ketab_n

أتّخذ أيضًا أيّ خطوات للامتناع عن رؤيتها. القضيّة ليست متمثّلة في أنّها لم تعد تروقني بعد اليوم، لأنّها لم ترقني أكثر أو أقلّ ممّا تروقني الآن. لو أنّ رابطة ما ربطت بيننا طوال هذا الوقت، فإنّني لا أعتقد أنّها رابطة حبّ أو صداقة أو ثقة. فأنا وأثيل متوافقان توافق كلّ جناح في فراشتين مختلفتين موضوعتين جنبًا لجنب من تحت عدسة مكبِّرة لجامع فراشات. نحن متشابهان تشابهًا شديدًا في نقصنا، ولكنّنا نصفان مختلفان، كلّ واحد منّا له أهدافه وألوانه المميَّزة التي يطمح لها. وفي الوقت الذي تحملنا الريح وإيّاها، فإنّنا نصبح معًا، بل يلتصق أحدنا بالآخر، ولكن من دون أن يكمّله. وإذا لم أشاهدها شهرًا بأكمله، فإنّني نادرًا ما أشتاق إليها، بل يندر أحيانًا أن أدرك غيابها. ومع هذا، فعندما نلتقي بعد شهر واحد، فإنّني لا أشعر بأدنى كدر بقربها أو حتى أفكّر باختصار الوقت الذي نمضيه معًا. أثيل هي أثيل تمامًا، مثلما أنّ بعض الأشياء هي ما هي عليه. وعلى الرّغم من هذا، أو ربّما لهذا السبب، أجد نفسي كثيرًا ما أراها وأشاطرها بأشياء أكثر ممّا أشاطر أيّ شخص آخر. هكذا، كان الحال بيننا على مدى سنوات. قد تستمرّ هذه الصداقة السطحيّة على وضعها، أو تتفكّك تفكُّكًا عنيفًا يومًا ما مثل ظفر أصبع نازف. ويراودني أحيانًا هذا السؤال: إذا ما حدث مثل هذا الشيء، فمن منّا سيكون أوّل من يدرك أنّ الظفر قد انخلع، ومتى؟

أثناء نهوضي من فوق الأريكة، تعثَّرت قدمي بسلك الهاتف. وظهرت سمّاعة الهاتف من تحت وسادتي، وكأنّني كنت أحاول طوال الليلة الماضية أن أنتزع الحياة من الهاتف. أمر يثير القلق، فكلّ المعلومات المتوافرة تشير إلى أنّني كنت غير قادر على مقاومة الاتّصال بها في الليلة الفائتة قبل أن أستسلم للنوم.

ما من شأن أحد أن يعترض على خطورة قيادة السكارى المركبات. غير أنّ الاتّصالات الهاتفيّة التي يجريها المرء وهو ثمل، يمكن أن تؤدّي

Twitter: @ketab_n

إلى نتائج أكثر خطورة من القيادة في حالة سكر، لكن على الرّغم من ذلك، ليس ثمّة إجراءات قانونيّة لمعالجة مثل هذا الخطر المحدّد. فالسائقون المخمورون يصيبون أهدافًا عشوائيّة، مثل شجرة تعيسة الحظّ تظهر أمامهم على حين بغتة أو مركبة تسير في طريقها. . . في هذه الحوادث، ليس ثمّة هدف أو قصد، ومع هذا، فإنَّ الذين يستخدمون الهاتف وهم سكارى يذهبون ويصيبون أحبّاءهم.

يكفي عذابًا أن تدرك أنّك اتّصلت بحبيبك وأنت ثمل، إلّا أنّ الأسوأ من هذا هو ألّا تتذكّر إن كنت قد اتّصلت، وأن تحاول إقناع نفسك بخلاف ذلك عندما ترغم نفسك على التذكُّر. ظلّ هذا المشهد يكرِّر نفسه منذ طلاقي في أوقات منتظمة تقريبًا، إلّا أنّني لم أتّصل بآيشين على رقمها الجديد. ربّما لا تعرف أنّني أفلحت في الحصول على هذا الرقم، وهذا يعني بطبيعة الحال أنّنا ربّما لم نتحدّث في الليلة المنصرمة. . . ينبغي لي أن أكون متأكّدًا. ضغطت على زرّ الاتّصال. واحد، اثنان، ثلاثة. جاء الردّ بعد الاتّصال السادس. ها هي بدمها ولحمها! في الصباح، يبدو صوتها دومًا وكأنّه ينبعث من جوف بئر عميق. يروقها النوم. تفتقر افتقارًا شديدًا إلى الجاذبيّة عند استيقاظها، ولعلّها لا تقدر على أن تثوب إلى رشدها قبل أن تحتسي قهوتها المصفّاة. بلا سكّر، وبلا حليب. بدت لي كلمة «هالوو» التي نطقتها للمرّة الثانية أكثر هيجانًا من المرّة الأولى. أتريّث.

حاولت أن أستجمع أفكاري. فعلى الرّغم من كلّ شيء، ما يزال ثمّة أمل. إنّ اتّصالي بها لا يعني أنّنا تبادلنا الحديث حقًّا. ربّما لم يأت ردّ على الهاتف. لو ردّت آيشين على الهاتف في الليلة الماضية وتفوّهت ببعض الأشياء الجميلة أو السيّئة، لتذكّرت على الأقلّ شذرات ونتفًا ممّا قيل. وبما أنّني لم أتذكّر كلمة واحدة، فربّما لم يحدث شيء يستحقّ التذكّر، ولكن يستحيل عليّ أن أجد عزاءً في كنف هذه الفرصة الضئيلة.

Twitter: @ketab_n

وكان أكثر التفاسير مدعاة للراحة في عدم ردّ آيشين على الهاتف، في الليلة المنصرمة، يتمثّل في أنّها غير موجودة في البيت وقتئذٍ. وقتئذٍ، خارجة... خارجة، وقتئذٍ.

على أرضيّة الحمّام، صرصاران ميّتان تفصل بينهما مسافة نصف متر. ربّما كانا إنجازان حقّقتهما في الليلة الماضية، ولكنّني لا أستطيع، في خضمّ سجلّات ذاكرتي المثيرة للشكوك، أن أعثر على أيّ تفسير لهذه القضيّة. أخلع قميصي. تنبعث منه رائحة قويّة: رائحة لا تُحتمل، سببها روائح سمك التربوت المقلي بزيت غامر، والعدد الكبير من الأطباق الثانويّة، والعرق الذي شربتُ، والسيكار الراقي الذي دخّنتُ، التي اختلطت كلّها وتطهّرت بعدئذٍ تطهُّرًا شاملاً، وأصبحت غير واضحة المعالم بسبب الأحماض التي أطلقتها معدتي. غسّالة الملابس هديّة طلاق من أثيل. كانت امرأة واقعيّة على الدوام، مرتّبة وكريمة. أرمي بسروالي القطنيّ الأزرق في الغسّالة أيضًا. لقد أصبحت أعرق الآن. إنّ درجة الحرارة ينبغي أن تكون ٤٠ للملابس القطنيّة وأن تستخدم الدورة القصيرة الثانية. ولكنْ، حتى إذا استطعت أن أطهّر نفسي من رواسب الليلة الفائتة غير المريحة، فالواضح هو أنّني لن أقدر على تحرير نفسي من رائحة القمامة المقزّزة التي تخيّم على هذه العمارة السكنيّة. إنّني نادم الندم كلّه بسبب تصرُّفي المتعجّل أثناء إجراءات الطلاق في البحث عن سكن، لأنّه كان في وسعي أن أعيش بالمبلغ نفسه من المال في منطقة محترمة أكثر من هنا، لو لم أحاول أن أحطّ الرحال في أوّل شقّة رخيصة الثمن نسبيًا، ونائية بما يكفي بهدف الابتعاد بأسرع وقت ممكن. إنّني أشتاق إلى الراحة التي كان يتّصف بها منزلي القديم. القضيّة لا تنحصر في شوقي إلى الراحة المفقودة والجنّة المفقودة التي رتّبت شخصيًا سقوطي. كان البيت ملك آيشين في واقع الأمر، وإذا توخّينا دقّة أكبر، لقلت إنّه ملك أسرتها، ولكنْ بعد إقامة أَمَدُها ثلاثة أعوام ونصف العام،

Twitter: @ketab_n

راودني الاعتقاد بأنّ البيت بيتي أيضًا إلى تلك اللحظة المشؤومة التي جمعت فيها سراويلي الداخليّة وكتبي وملاحظات المحاضرات وشفرات الحلاقة، عندما عدت إليه لإلقاء نظرة أخيرة كي أطمئنّ إلى أنّني لم أنسَ فيه شيئًا. يا لها من كلمة صغيرة: «أيضًا!» مثل طفل يتوقّع متحمِّسًا أن يتلقّى أيضًا ما تلقّاه شقيقه: «أنا أيضًا، أنا أيضًا!» لكن يبدو أنّ أحد الطرفين في الزيجة يحصل على أكثر ممّا يحصل عليه الطرف الثاني، كما في العلاقات الأخويّة، في حين يمكن محو الأثر من المكان الذي عاشا فيه، أو اعتقدا أحيانًا أنّه ملكهما، عيشة سهلة سهولة تسلسل حبّات اللوبياء. إنّ ما وجدته صعبًا على الفهم، وما شدَّ الألم على بطني هو الجزء الخاصّ بالتسلسل، فقد كان يثير استيائي أن أفكّر أنّ آيشين تستمتع الآن وحدها في المنزل الذي كان يومًا ما منزلي أيضًا. صحيح أنّ على المرء أن يكون ممتنًّا على الدوام، لأنّ ثمّة ما هو أسوأ من السوء المتخيَّل: فقد تكون مستمتعة بوقتها ولكن ليس بمفردها...

وقفت مثل الصنم في الحمّام، متجمِّدًا أحيانًا أو مشويًّا أحيانًا أخرى من تحت الماء، الذي إمّا أن يكون ساخنًا أكثر ممّا ينبغي فيبرد من بعد ذلك ببرودة الثلج، أو يتحوّل إلى بارد ليصبح بعدئذٍ ساخنًا إلى درجة الغليان، فلا يصبح دافئًا قليلاً أبدًا. وعلى الرّغم من عدم وضوح كيفيّة التعرُّف على طريقي إلى البيت مسطولاً من شدّة الثمالة في الليلة الماضية، إلّا أنّني واثق بأنّني اتّصلت بآيشين برأسي الثمل الشبيه بالهلام. حسنًا، ثم ماذا؟ لو كنّا قد تحدّثنا، لبقيت من وراء ذلك الحديث ذكرى أو لحظة.. جملة... وفي حين كنت أغسل وجهي بالصابون، أرسل مركز القيادة في عقلي خبرًا مفاده أنّ الجملة المنطبقة على وصف المشتبه بها المطلوبة شوهدت تائهة وقُبض عليها: «ألا ترى أنّني لن أهتمّ بك تمامًا.إذا واصلت الاتّصال على هذا النحو؟» لم أشاهد أيّ شيء. وعلى الرّغم من أنّني حاولت أن أفتح عينيَّ المكسوّتين

Twitter: @ketab_n

بالصابون لحظة واحدة، إلَّا أنّني أغمضتهما مجدَّدًا عندما بدأتا توخزانني بسبب أثر الصابون. لا، لقد ثبت بطلان المعلومات. فهذه ليس هي الجملة التي كنت أنشدها. تذكَّرت. فأنا لم أسمع بها في الليلة الفائتة، ولكنّني سمعتها في وقت مبكر، قبل أن تحاول آيشين تغيير رقم هاتفها.

خطوت من تحت الماء الممسوس المنقبض عندما راح يؤثّر على قدرة تحمُّلي. الألم في معدتي لا يحتمل. المطبخ ليس صغيرًا أكثر من اللزوم، إلَّا أنّه أضحى ضيّقًا بعد وضع ثلّاجة ضخمة في الوسط، تجذب الأنظار بسبب حجمها الذي يوازي تقريبًا حجم الخيام التي يثبِّتها المصطافون من أصحاب الدخل المنخفض على امتداد سواحل البحار، ويحتشدون فيها رفقة أسرهم. وبدلاً من الإلحاح على أن آخذ من بيتي القديم هذا الثور المخصيّ الأميركي، والذي صُمِّم لإشباع الشهوات القبليّة التي تتمتّع بها أسر المجتمع الاستهلاكي النوويّة، بإزاء هذه المنازل الشبيهة بعنابر الطائرات، كان ينبغي لي أن أذهب وأشتري لنفسي واحدةً من تلك الثلّاجات الصندوقيّة التي يصل ارتفاعها إلى الركبة، والمستخدمة إمّا في غرف الفنادق أو الشقق في طوكيو. ربّما كان من شأني أن أفعل هذا الشيء لو لم تعترض آيشين بقولها: «لا تناسبك لأنّها كبيرة». لقد سمعت هذه الملاحظة مرَّتين في جدال: أوّلاً، بخصوص السرير الكبير الحجم، وثانيًا، بخصوص الثلّاجة. ولم أستطع أن أخمِّن أنّ ثمّة رجلاً آخر في حياتها، وأنَّ مكاني الشاغر سرعان ما سوف يُملأ، إلَّا بعد أن أدركت أنّ الشيء الذي لا يناسبني بسبب كبر حجمه إنّما يناسب آيشين. وهكذا، وعلى الرّغم من أنّني لم أسبِّب أيّ صعوبات في أيِّ قضيّة، وإنّني كنت خنوعًا ومذعنًا أكثر ممّا يقتضي الحال كي أعجِّل في إجراءات الطلاق، فإنَّ ما من أحد، بمن فيهم آيشين نفسها، تمكّن من فهم عنادي الذي لا يلين بخصوص السرير والثلَّاجة. كان من شأن غنيمتي أن تكون كبيرة، ولكنَّها جوفاء تمامًا. فهي تبدو خاوية مثيرة

Twitter: @ketab_n

للشفقة على ذلك الحال. فالثلّاجات الكبيرة أقرباء أبعدون للقاطرات القديمة التي تلتهم الفحم على امتداد الطريق. وهي مثلها تمامًا، لا تمتلئ أبدًا، وإذا ما امتلأت، تطلب باستمرار من يملأها أكثر. لننسَ أكياس الفحم. فثلّاجتي محرومة حتى من مجرفة مملوءة بغبار الفحم. ففي الرفّ الأعلى، ثمّة علبة مفتوحة تحتوي على جبنة بالكريما وعليها طبقة رقيقة من العفن. وفي داخل الباب، خمس علب من الجعة وزجاجة عرق كبيرة الحجم. وفي الحاوية المخصّصة للخضراوات، ثلاث حبّات من الطماطم وأوراق خسّ ذابلة.. هذا كلّ شيء. وفي الرفّ الأسفل شريحة بيتزا بالفطر أرسلتها الجارة العجوز. لقد شاهدت مرارًا من يرسل طبق البودنغ المعدّ من الرقيق والرزّ والسكّر وما أشبه، لكنّني لم أصادف من يصنع البيتزا ويوزّعها قطعة فقطعة. كنت أنوي رميها والتخلُّص منها، ولكنّني نسيت. أمّا الآن، ففي حين كانت جزيئات الكحول المتبقّية من ليلة الأمس تقضم قضمًا بطيئًا غشاء معدتي الرقيق، فقد مددت يدي إلى شريحة البيتزا بامتنان. واستغرق فرن المايكروويف ثلاث دقائق لتسخينها داخله، واستغرقت زهاء ثلاثين ثانية لإيصالها إلى معدتي. كانت بلا طعم، لكن ثم ماذا؟ فهي وجبة عظيمة في ظلّ الظروف الراهنة! وبعد أن أرضيت معدتي على هذا النحو، بكسرة صغيرة، رحت أُهيّئ دوائي، وكان يشتمل على إبريق من الحليب المنزوع القشدة وملعقتين مملوءتين من القهوة التركيّة وملعقة مملوءة من عسل الصنوبر، وكمّيّة كبيرة من القرفة، ومقدار صغير من شراب الكونياك. هذا هو دوائي السحريّ لعلاج الأثر البغيض الذي يخلّفه في المرء الإفراط في السكر، الذي ثبتت قدرته الشفائيّة بالتجربة. قد لا يناسب كلّ جسم، بل ينبغي لكلّ جسم أن يطوّر علاجه بالتجربة والخطأ. هكذا، وجدت علاجي. في ذلك اليوم، عمدت إلى زيادة المقادير أكثر ممّا هو مألوف، لأنّني كنت أريد أن أصحو بأسرع وقت

Twitter: @ketab_n

ممكن. كان اليوم هو الخميس، وكنت، منذ بداية الفصل الدراسي، أُلقي من بعد ظهر كلّ يوم خميس مادّة الدرس الذي أحبّه أكثر من غيره أمام الصفّ المدرسي الذي أحبّه أكثر من غيره.

بينما كنت أنتظر حتى يغلي الحليب، تصفّحت الكرّاسة التي دسَّتها أثيل بين يديَّ. ثمّة جامعة أهليّة أخرى قيد التأسيس في اسطنبول. كنت أعرف قدرًا من التفاصيل منذ زمن ليس بالقصير، مثل عمليّة التحضيرات الطويلة. إلَّا أنّ الشيء الذي لم أعرفه هو أنّ أثيل المرأة كانت على صلة بها. الحقّ، أنّها كانت في خضمّ الموضوع، وأخبرتني أثناء العشاء بمعلومات عنها أكثر ممّا كنت أريد أن أعرف. فبعد دقيقتين اثنتين على لقائنا، طرحت عليّ الموضوع بقوّة، ولم تتحدَّث تقريبًا عن أيّ موضوع مغاير إلى آخر الليل، عندما نهضنا وغادرنا مترنِّحين المطعمَ الذي لم يعد فيه غيرنا من الزبائن، تحت أنظار منهكة رشقنا بها النادل الكرديّ الذي شقَّ عليه أن يُبقي عينيه برموشهما السود الطويلة مفتوحتين. ظلَّت أثيل تتكلَّم من دون انقطاع على أنّ هذه الجامعة ليست استثمار ماليًّا بل هي استثمار أخلاقيّ، وكيف أنّها لم تؤمن من صميم قلبها بأيِّ مشروع منذ زمن بعيد، وأنّها تعرف شخصيًّا المؤسّسين، وأنّها في حقيقة الأمر واحدة من المستثمرين الثمانية المشاركين في المشروع، وأنَّها متأكِّدة من أنّها عندما ستنظر إليه بعد أن تبلغ من الكبر عتيًّا، فسوف تكون فخورة به الفخر كلّه طوال سنيِّ حياتها. وتحدَّثت عن كيفيّة تثقيف مجموعة من الشبَّان أكثر وعيًا ومعرفة من أبناء جيلهم في غضون خمس سنوات على الأقلِّ، وكيف سيزداد عدد أفراد هذه المجموعة سنة بعد سنة، وكيف سيؤثّرون بمجموعهم في قدر بلادنا المنهكة. وبينما كانت منهكة في الكلام، انهمكت بدوري في احتساء الشراب، إذْ لو شربت كمِّيّة أقلّ أو على نحو أبطأ، فإنَّ خلاصة تلك الليلة من شأنها أن تكون على الوجه الآتي: تكلَّمت أثيل، وضحكت أنا. غضبت أثيل وانفجرت أنا. صرخت أثيل

Twitter: @ketab_n

وتشاجرنا. وهكذا.. تكلَّمت أثيل وشربت أنا، كي لا نرغي ونزبد، وكي لا نعكِّر المياه من دون سبب وجيه، وكي لا تُفسد الليلة.

كانت المتحدِّثة بالكلمات هي التي أثارت استيائي أكثر من محتوى الكلمات نفسها. ممّا لا ريب فيه أنّ في وسع أثيل أن تواصل الكلام في هذا الموضوع التافه مع أيّ شخص تريد، وفي أيّ مكان تشاء؛ لكنْ، من دون الناس أجمعين، ما كان يتعيَّن عليها أن تتصرَّف مثل هذا التصرُّف معي. إنّني لا أنظر إلى المسألة نظرة شخصيّة، لأنّ القضيّة ليست شخصيّة، بل «لغويّة». ففي أثناء عشاء الليلة الفائتة، قرَّرت أثيل لسبب من الأسباب أن تخرج عن تقاليدنا، أو تنسى ببساطة اللغة التي كنّا نتكلَّم بها عندما نكون منفردين منذ زمن طويل على قدر ما أتذكّر.

«اللغة» هي إحدى أكثر الكلمات التي لا معنى لها في اللغة. وهي بحسب تعريفها شيء ما أكثر من مجموع الكلمات كلّها، إلّا أنّها في نهاية المطاف كلمة أيضًا. وإذا ما اقتضت ضرورة من الضرورات من أجل الربط بكلمة أخرى، ففي إمكانك أن تقول إنّ «اللغة» هي أشبه ما تكون بكلمة «وجبة». ثمّة معنًى ضئيل في أن نُسمّي كلّ شيء «وجبة» ـ التي تتغاضى تغاضيًا تامًّا عن خليط مختلف جدًّا من الأطعمة مع اختلاف في الذوق والقيمة الغذائيّة والسعرات ـ مثلما هناك معنًى ضئيل في أن نُطلق كلمة «لغة» على كلّ التعابير التي تعزف أنغامًا مختلفة تمام الاختلاف، وتتحدَّث عن مختلف الكلمات اعتباطًا، وتظهر بأساليب متعدِّدة ومتباينة. يتعيَّن عليّ أن أُضيف أيضًا أنّني، بهذه الملاحظة، لم أنظر بعين الاعتبار إلى الفروق «اللسانيّة» كالمطبخ الصينيّ والمطبخ التركيّ والمطبخ الإسبانيّ.. وهلمَّ جرّا، وألّا يتعيّن عليّ أن أضاعف كلّ هذه في مُعامل كوني. خلاصة القول، ثمّة مئات من «اللغات» التي تهيمن داخل «اللغة» الواحدة. فمثلما لا نأكل كلّنا «وجبة» الطعام نفسها في مطعم ما، فإنّنا لا نتكلَّم ولا نستطيع أن نتكلَّم «اللغة» نفسها مع كلّ

Twitter: @ketab_n

شخص طوال الوقت. ومثلما للوجبات فضلات، فإنَّ للغات بقايا وفضلات. فنجد أنّ مكبّ نفايات اللغة يتألّف من كلمات لا نستعملها يوميًا فحسب، وإنّما نتردّد في لفظها، كلمات نتجاوزها في صمت، كلمات بلا معنًى، نحتفظ بها لأنفسنا لأنّها غير لائقة، نقد عنيف يقف على أطراف ألسنتنا، ولكنَّنا نفتقر إلى الشجاعة كي نتلفّظها، همز ولمز نقطّعه إلى شرائح وقطع صغيرة على أطراف ألسنتنا كي نزدردها بعدئذٍ، لعنات تنفجر في أطباقنا قبل أن تسنح لنا الفرصة لسحب الصمّامة والقذف بها بعيدًا، تعابير محمَّلة بالمعاني بأكثر ممّا ينبغي، ونكات خفيفة على بيئتنا ووسطنا. قد تكون ثمّة بقيّة باقية من الاهتمام الذي نبديه، والفعل الذي نفعله، والعناية التي نوليها للآخرين عند كلامنا أو كتابتنا. يمكننا أن نطلق عليه لغة «نفايات صلبة متراكمة» Solid Accumulated Waste ومختصرها SAW. متراكمة في الممرّ الأنفي، بين سقف الحلق وتحت اللسان، إن لم تكن في القبو أو العلّيّة أو تحت الوسادة؛ لغة نملأ بها الكيس من بعد أن تكون قد تراكمت تراكمًا مناسبًا، فنشدّها ونرمي بها حتى نوقف انبعاث الرائحة الكريهة.

يتعيّن عليّ القول إنّني لا أترك في الجوار دليلاً على هذه اللغة، كما أنّني لا أستعملها أمام طلّابي في الصفّ مثلما لا يروقني سماعها منهم أيضًا. بيد أنّني أهتزّ طربًا أحيانًا مثل مراهق يدخّن خلسة في مكان منعزل من دون معرفة والديه، عندما «أجيب» ــ كما نقول أنا وأثيل ــ بهذه اللغة، عندما أفتح صندوقي في ركن مظلم ونتن لا تعرفه مبادئي الأخلاقيّة وضميري. في هذه المرحلة تمامًا، يكتسب حضور أثيل أهمّيّته، لأنّ «الإجابة» تشبه ممارسة الحبّ أو الشجار، تتطلّب شخصًا آخر يكون رفقتك في الوقت نفسه. قد تدخّن سيكارتك منفردًا، لكن أن تتكلّم بمثل هذه اللغة ــ الزبالة، يتطلّب رفيقًا بلا ريب.

كنّا نتكلّم، أو تعوّدنا على أن نتكلّم أنا وأثيل على مدى سنوات،

Twitter: @ketab_n

وكلّما كنّا منفردين بلغة (SAW) حتى يوم أمس، أصبحنا معًا، ومن دون أن نوضح أنّ على أحدنا أن يكون جادًّا كي يصف الآخر بالغباء، ومن دون الادِّعاء بالعدل أو المساواة، كنّا نحبّ أن ننتقص من قيمة كلّ شيء، ونقذف هذا الشخص أو ذاك بأقذع الشتائم على نحو طائش وغليظ. وكما هو شأن الشخص المتنمِّر، الذي يصدّ عنه هجومًا ليزجّ بنفسه في شجار وإلحاق الأذى كيفما اتّفق بأنوف خصومه وآذانهم، فإنّنا رحنا نهاجم الحياة الاجتماعيّة بألسنتنا القاطعة، ونبذل قصارى جهدنا لمعالجة أمراض وعيوب كلّ من صادف وجوده أمامنا.

من قال إنّك لا تستطيع أن تسخر من عيوب الآخرين. كانت الرماح في أيدينا، والنظّارات التي لا تسرِّب الماء على عيوننا عندما نغوص بغير رويّة في الأعماق السبعة لبحر الشوائب ـ الأخطاء ـ الإخفاقات، ونأتي بكلّ ما نصطاد من الأخطاء إلى اليابسة بقصد دراستها دراسة مطوَّلة وتمزيقها شرّ ممزّق. كنّا أحيانًا لا نرضى بهذا، لأنّ شهيّتنا كانت شهيّة عشّاق الحبّار، فنرفع صيدنا إلى أعلى، ونضرب به هذه الصخرة أو تلك طوال ساعات. وفي نهاية المطاف، لم يسلم أحد من لساننا، إلّا أنّ البعض تلقَّى منّا مجموعة من التعميمات أكثر ممّا تلقَّاها البعض الآخر. كان الفلّاحون والبروليتاريا المنبوذة والمعلنون والأكاديميُّون وربّات البيوت والمحامون... هدفًا لنا كلّهم، وإن اختلفت الأسباب. بيد أنّ قُطْر شبكتنا كان واسعًا إلى حدٍّ كبير، يكفي لأن يحتوي بسهولة كلّ النماذج البشريّة. و ثمّة فسحة لكلّ فرد فيها.

كنّا ننتقص من دون رحمة وبكلّ خشونة أولئك الذين كنّا نراهم متذبذبين، أو أولئك الذين حاولوا أن يظهروا بمظهر الأذكياء. كنّا ننزعج من أولئك الذين يلتفتون إلى مظهرهم، ولكنّنا كنّا نسخر سخرية لاذعة من أولئك الذين لا ينمّ مظهرهم عن ذوق أيضًا، ولا نحترم الأبطال الفحول المتّصفين بالرجولة من «أبناء الفقراء»، ولكنّنا كنّا نقف إلى جانب أنفسنا

Twitter: @ketab_n

غاضبين من أصحاب الأنفة المترفِّعين من «الأثرياء والموسرين». وكنّا نبدي الازدراء نحو أولئك الذين يهابون الموت، لنهين ضاحكين من بعد أولئك الذين لا يهمّهم أمر الموت. لم يكن في وسعنا أن نتحمَّل قراءة مقالة أو قصّة أو رواية مكتوبة كتابة بائسة، غير أنّنا كنّا نشوِّه أيضًا تلك المكتوبة كتابة جيِّدة. ولم ندوِّن ملاحظات عن أولئك الذين تحوَّلوا إلى متديِّنين في أعقاب جراحة خطيرة أو غيبوبة، ولكنَّنا أهملنا أيضًا أولئك الذين ظلُّوا في المستوى نفسه من الإيمان، إمّا متديِّنين أو بلا دين، طوال سنيّ حياتهم. ولم نغفر لمن هو موضع اعتبار واحترام بسبب لياقته وأدبه، بل انتزعنا النصب من النصّابين، ورحنا نرقص به. وطرحنا أرضًا ووطأنا بأقدامنا أولئك العلمانيين الساذجين والسليميِّ الطويّة الذين اعتقدوا أنّ النصرانيّة أقلّ اتِّباعًا لسياسة التدخُّل، أو أنّ اليهوديّة أقلّ اتِّباعًا لنظام الأبوَّة من الإسلام. وكنّا نضايق عن جذل أولئك الذين لم يدركوا الاختلافات الموجودة في الإسلام، ولكنَّنا كنّا أيضًا نضرب بقذائف مدفعيّة أولئك الذين تخيَّلوا أنفسهم متميِّزين، لأنّهم تزعَّموا حركات صوفيّة. ومزَّقنا شرَّ تمزيق أولئك الذين راحوا ينشدون مخلِّصين منتظَرين، هنودًا وصينيِّين وتبتيِّين لينقذوهم باسم الثالوث: «الوجود والسيرورة وتجاوز القداسة». واصطدمنا بأولئك المربِّين المتزوِّجين بأطفال، غير أنّنا ضحكنا ملء أشداقنا على أولئك الذين يرون أنّ عدم الزواج شكل من أشكال المقاومة السياسيّة. كما أنّنا لوَّثنا بالقطران، واستعرضنا عراة أمامنا أولئك الذين تصوَّروا مثليّتهم الجنسيّة هبة اجتماعيّة. «مرّة واحدة ـ ودائميّة»، ولكنَّهم اشتهوا عضّة صغيرة من تفّاحة اللواط، إضافة إلى أولئك الذين نظروا إلى مثليَّتهم الجنسيّة بوصفها خيارًا فرديًّا، ليجلسوا بعدئذٍ متكاسلين في واحات العزلة نائين بأنفسهم عن الناس أجمعين. إنَّنا لم نحبّ أولئك الذين نعرفهم معرفة شخصيّة، ولكنّنا استغنينا أيضًا متهوِّرين عن أولئك الذين نعرفهم معرفة حميميّة.

Twitter: @ketab_n

إنّنا لم نشعر بضرورة التعبير عن كلّ هذه الاتّجاهات والمعتقدات مطوّلاً، وكنّا مكتفين باستخدام الشفرات بدلاً من ذلك. وصنَّفنا واحتفظنا بكلّ واحد وبكلّ شيء واحدًا فواحدًا بدقَّة المؤرشف. وكنّا عن عمد ظالمين ظلمًا طائشًا كلّ واحد وكلّ شيء. على أيّ حال، لو فتّشت في القسم المخصّص للحرف (J) من المعجم المصوَّر الأساس للغة SAW، فإنّك لن تعثر أبدًا على كلمة «just» (عدل) أو «jurisprudence» (فقه أو تشريع)؛ مثلما لن تتمكَّن من العثور في القسم المخصّص للحرف «S» على كلمة «sacred» (مقدّس) أو «sacredness» (قدسيّة)؛ أو في القسم المخصّص للحرف «E» كلمة «exalted» (نشوان) أو exaltedness (نشوة). أمّا بخصوص «injustice» (ظلم)، فإنَّ التعريف الوارد في المعجم ينحو هذا المنحى:

١ ـ أن ترتكب غلطة في ما هو غلط (مثلاً، أن تأخذ معطفًا من الفرو من شخص ما في صحراء، أو أن تأخذ كأس الخمرة من أمام شخص ورع).

٢ ـ غزو غير مباشر لا ينجم عنه أيّ ضرر (مثلاً، أن تبصق على صورة شخص ما).

كلّما تكلّمت أنا وأثيل بلغة SAW، فإنّنا نلحق الظلم بهذا الشخص أو ذاك بالمعنى الثاني للكلمة الوارد آنفًا. فنحن لا نغلّف كلماتنا بالعسل عندما نكون منفردين. ومع هذا، ففي أثناء تناول العشاء في الليلة المنصرمة، وبينما كانت أثيل المرأة تتكلَّم على أهدافها العظيمة بخصوص هذه الجامعة الأهليّة المزمع إنشاؤها في اسطنبول، بدت وكأنّها فحصت لغتنا المشتركة في حجرة ترك المعاطف القريبة من المدخل، إذْ هتفت متعجّبة، وهي تطبق أسنانها بقوّة على ماسك السكائر ذي اللون الأصفر الفاتح:

ـ ألا تفهم؟ لقد تحقّق أخيرًا حلم حياتك.

Twitter: @ketab_n

ليس ثمّة تعيينات سياسيّة من جهات عليا، ولا عقم أو تشابه مألوف ناجم عن قيود في الميزانيّة في الجامعات الحكوميّة، بل سوف يجمعون أعلى الكلّيّات شأنًا في تركيا ويجذبون أذكى العقول التي خطفتها الجامعات الأجنبيّة. ويأتون إلى اسطنبول بعديد الخبراء الأجانب من مختلف أنحاء العالم. ثم أردفت ضاحكة ضحكة بلهاء، وكأنّها أبدت ملاحظة ذكيّة وخبيثة:

ـ حسبك أن تفكِّر. سوف نضع حدًّا لاستنزاف الأدمغة المزمن، وفي غضون الأعوام الخمسة الأولى، سوف نعكس التيَّار، وستكون الأدمغة الأوروبيّة في خدمتنا. سوف نعالج عقدة النقص في الأمّة.

لم يكن سبب ضحكتها البلهاء لغزًا في رأيي. فأنا معتاد على أثيل وهي تعزو مضمونًا جنسيًّا إلى كلمة «دماغ». وهي لم تختلف كثيرًا عمّا كانت عليه في أيّام دراستنا في الكلِّيّة، حيث كانت تضمر ضغينة مكوَّنة من عدّة طبقات تجاه غيرها من النساء، وتضمر شغفًا لا حدود له تجاه الأذكياء من الرجال... عندما أفكِّر الآن في هذا الأمر، أرى أنّ العدد الكبير من الطلَّاب الذكور الذين يفوقون عدد الإناث و«العقول» المحيطة بها، لا بدّ قد أدَّى دورًا مهمًّا في قرارها كي تتخصَّص في مثل هذا الميدان الصعب، ألا وهو الهندسة المدنيّة، وإن لم تكن قد وطَّنت عزمها على ممارسته. في تلك الأيّام، كان في بيت أثيل من هو الأفضل من بين العشرات ـ ولو عددناهم على مدى سنوات لكانوا أكثر من مائة ـ من الطلَّاب الذكور فائقي الذكاء من مختلف الأقسام. وفي وسع المرء أن يجادل أنّ المرأة أسهمت إسهامًا كبيرًا في التربية التركيّة، إذا ما أخذنا في الحسبان أنّ هذا المكان يعمل عمل نوع من أنواع مطاعم الفقراء، حيث يتمكَّن هؤلاء الطلّاب الذكور من إطعام أنفسهم، أو نوع من أنواع النوادي حيث يستطيع الأعضاء استخدام المكتبة بحسب هواهم. وعلى الرّغم من أنّنا بوصفنا زبائن منتظمين في بيت الفقراء،

Twitter: @ketab_n

ظهرنا من أوّل نظرة مختلفين عن بعضنا بعضًا، إلّا أنّنا متشابهان بخصوص قضيّة واحدة، وهي الأسلوب الذي استثمرنا فيه ذكاءنا. ففي تلك الأيّام، كان كلّ الطلّاب الذكور يطلقون عقولهم من عقالها وبنجاح إلى أقصى حدودها، لكي يهربوا من التعقيدات الناجمة عن توزيع الحياة توزيعًا ظالمًا، بغضّ النظر عن القسم أو الطبقة التي ينتمون إليها في جامعة البوسفور؛ وكانوا قد طرق سمعهم حتمًا اسم أثيل، ولمسوا جسدها على وجه التأكيد. وكانت الأغلبيّة الساحقة متمثّلة بأولئك الذين وهبوا أنفسهم للقراءة والدرس والبحث، واحتفظوا بمتطلّباتهم من الحياة في ثلّاجة توقّعاتهم المتجمّدة كي لا تذوب، إلى أن يحلّ «ذلك اليوم الكبير». كانت بعض أقوال أثيل المأثورة تركّز في هذا الموضوع: «مثلما يطوِّر الأعمى حواسّه الأخرى، فإنَّ الذكر القبيح الذي يمرّ من دون أن يراه أحد يطوِّر عقله».

من بين المفضَّلين لدى أثيل، الناجحين في تطوير عقولهم، هم أولئك الطلّاب الذكور الذين يعجزون عن إقامة صلات مع النساء أو رفضتهم كلّ النساء اللواتي كانوا يبدون اهتمامهم بهنّ، وتبعًا لذلك، تخلُّوا عن الحبِّ وعن ممارسة الحبِّ والمواظبة على الحبِّ. ويأتي من بعد ذلك المفلسون في المظهر، أولئك الذين يشعرون بخجل مزمن، الذين ساءت علاقاتهم بالجنس اللطيف لسبب أو لآخر، وبالآخرين. . . ويندرج في نطاق هؤلاء الآخرين كلّ من: اللاجنسيُّون الذين يدبِّجون المديح والإطراء والقصائد حبًّا بحياة من دون اتّصال؛ والهامشيُّون الطليعيُّون، والمثليُّون السّرِّيُّون والعلنيُّون؛ والنقّاد المحترمون احترامًا شديدًا؛ واللااجتماعيُّون الذين كرهوا الامتحانات، والذين كانت نشوتهم البالغة في تلك المرحلة من حياتهم مؤلَّفة من أداء الامتحانات؛ والذين وفدوا من الأقاليم وتاهوا في اسطنبول؛ والذين لم يتمكَّنوا من الخروج من قوقعاتهم ناهيك عن الخروج من اسطنبول؛ وخطباء الوداع الذين

Twitter: @ketab_n

أفلحوا في الحصول على تعليم بالرّغم من تحدُّرهم من أسر لا تناسبهم، يضاف إليهم «أصحاب المواهب الخفيّة» الذين يحصلون على تعليم في أقسام غير ملائمة بسبب أسرهم؛ وعباقرة العلوم الطبيعيّة النادرون؛ وخطباء العلوم الاجتماعيّة المتحمِّسون. . . الشبّان الأذكياء ذكاءً حادًّا، اليائسون التعسون غير القادرين على التكيُّف في وسطهم، الذين جاهدوا من أجل تدبير أمورهم مع المجتمع لمختلف الأسباب المادِّيّة والنفسيّة أو العصيّة على الفهم، كانوا ضمن نطاق اهتمام أثيل. لو كان الأمر بيدها، لما تركت أيّ أنثى ذكيّة تدخل بيتها. . . ولكن إن علمت أحيانًا وعلى نحوٍ ما، أنّ ثمّة ذكرًا تستهويه هي شخصيًّا وله صديقة، فإنّها لن تبوح بالمكنون وتدعوهما كليهما. على الرّغم من كلّ هذا، ولسبب من الأسباب، كانت تستبعد من غلواء كراهيَّتها المقيتة لبنات جنسها عددًا ضئيلاً من الصديقات الباقيات من أيّام المدرسة الخصوصيّة. كانت إحدى هؤلاء تتوقّف أحيانًا عند المعبد ـ البيت، وكانت في غاية الجاذبيّة، على نحو يجعل مقارنتها بأثيل أمرًا بعيدًا عن التصوُّر: فهي امرأة ذات ساقين رشيقتين وطويلتين، وبشرة بيضاء كالحليب لا تشوبها شائبة، وأسنان لؤلؤيّة، ونهدين مخلوقين تبعًا لقوانين الديالكتيك: ينبضان بالعافية في نطاق جسدها الممتلئ، وفي الوقت نفسه، من الصغر ما يكفي لوضعهما داخل كفّ. . . ومع هذا، فثمّة شائبة واحدة فيها. فهي أسوة بكلّ النساء اللواتي يفقدن طبيعتهنّ حالما يدركن مدى ما يحقّقن من إعجاب وإثارة في نفوس الآخرين، كانت تتظاهر بالقوّة وترتكب غلطة شائعة معتقدة أنّ إبقاء الرجل منتظرًا في المطهر[١]، ليس بعيدًا كلّ البعد ولا قريبًا كلّ القرب، سوف يطيل أمد الاهتمام الذي

(١) المطهر Purgatory: موطن تطهّر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود، وهذا الاعتقاد راسخ منذ قديم الزمان في الديانات، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

تحظى به. وحتى عندما كانت تخبر الناس عن اسمها، فإنّها كانت تبدو وكأنّها تعتقد نفسها صاحبة منّة في ذلك: «آي ـ شين».

ممّا يبعث على الغرابة إلى حدٍّ كافٍ أنّ بقيّة الرجال في المنزل لم يغرموا بهذه الجنّيّة المتغطرسة، بل أُغرموا بدلاً من ذلك بأثيل القبيحة على نحو بشع. الحقّ، أنّ عددًا كبيرًا منهم راقتهم آيشين على ما يبدو، إلّا أنّ الفعل «يروق» واهٍ ومهلهل، كما عبّر عنه أحد المتسابقين في مسابقة محكمة جدًّا أثناء سرده هواياته: «تروقني قراءة الكتب والاستماع إلى الموسيقى والتنزُّه ماشيًا على قدميَّ، فضلاً عن آيشين الطويلة الساقين، المشدودة الردفين». ومع هذا، فعندما يرد اسم أثيل، أقبح النساء على مرّ الأزمان، يتجاوزون مرحلة الرواق ويغرمون بغير رويَّة، والرغبة تشتعل في نفوسهم: إمّا بها أو بمنزلها أو بالاثنين معًا.

لم يكن البيت ـ المعبد مُلكًا لوالدة أثيل ووالدها أو أيٍّ فرد آخر من أفراد الأسرة اليهوديّة، وإنّما ملكها شخصيًّا. وفي حين كانت ثلّة الطلّاب من حولها يبقون، إمّا في بيوت والديهم ذوي النظرات غير المشوّقة أو شقق العزّاب المستهلكة، أو في نزل مكتظَّة لا يمكن للمرء أن يختلي فيها بنفسه إلّا إذا جلس داخل خزانة الثياب، فإنَّ المرأة كانت تملك فيلّا تقيم فيها بمفردها. وعلى الرّغم من أنّ هذا وحده يكفي لجعل الوضع سرياليًّا نوعًا ما، فإنَّ منزلها كان علاوة على ذلك عالمًا من عوالم الأحلام، وكما تغازل الأحلام من دون حياء أو خجل فنّ المبالغة، فإنَّ أثيل كانت أيضًا سريعة التأثُّر في زيادة القتل. حديقة تطلّ على البوسفور (كلّ مربّع فيها مغطّى بزهر النسرين والياسمين، فيبعث رائحة عطرة رقيقة ليلاً عند هبوب رياح دافئة، فتنساب مع رائحة المتعة)؛ حوض سباحته الصغير والجميل تطفو عليه المصابيح من كلّ الألوان ليلاً، مشروباته الجيِّدة النوعيّة وطعامه اللذيذ ومفروشاته مثيرة كلّ واحدة منها للمتعة أكثر من الأخرى؛ مجموعته الكبيرة من

Twitter: @ketab_n

الأسطوانات ومكتبته الغنيّة؛ ولا ننسَ السيكار الفاخر الذي يوزَّع باستمرار؛ إنّه مكان أشبه ما يكون بنسخة مصغَّرة من العالم إبّان حقبة التوليب في الأمبراطوريّة العثمانيّة ـ وهي الحقبة التي هاجم فيها المؤرِّخون المعاصرون الإفراط فيها بالهراوات وهشَّموها بإطراء مسرف.

إلَّا أنّك إذا سألتني عن وجهة نظري، فإنَّ الثروة لم تكن هي التي أذهلت الضيوف الذين كانوا يفدون إلى هنا، ولا المباهاة أو الترف والنعيم! الأمر الأكثر إثارة كان متمثِّلاً بـ «لانهاية» كلّ هذه الأشياء. فعلب السكائر المتناقصة سرعان ما كانت تُملأ من جديد، ومجموعة الأسطوانات كانت من الكثرة ما يجعلك تعجز عن عدّها كلّها، والمكتبة لم تفقد روعتها، حتى وإن كانت الكتب المعارة لا يُعيدها مستعيروها أبدًا. وعلى الرّغم من تناولنا الطعام بكمِّيّات كبيرة، غير أنّ خزائن المطبخ لم تفرغ قطّ، ومخزونات الأطعمة الجاهزة لم تتضاءل. كان يروقنا أن نتبادل المزاح في ما بيننا. وعندما بدأ العمل في الأرض لتشييد الڤيلّا، كان الرجل الصالح الخضر مصادفة واحدًا من العمّال، وأغدق بركاته على هذا المكان قائلاً: «ليتضاعف كلّ شيء ولا يقلّ أبدًا، ليمتلئ كلّ شيء من دون أن يطفح». وحتى الكهف السحري للأربعين حرامي، بما فيه من جرار مليئة بالذهب وصناديق تلمع بالمجوهرات ولفافات نسيج الساتان وبراميل من عسل وزبدة، ما كان في وسعه أن يضاهي البيت ـ المعبد الذي تملكه أثيل.

بقدر ما كان البيت ينعم بالترف والرفاهيّة، فإنَّ مضيفتنا كانت كريمة أيضًا. كانت أثيل تنظر نظرة اهتمام إلى الأشياء التي يستمتع بها ضيوفها الأعزّاء. وازدادت عروضها بازدياد القيمة التي تضفيها على الشخص. فعلى سبيل المثال، هل ثمّة من يروقه شراب الويسكي من بيننا؟ فإذا ما عرفت أثيل ذلك، فإنّها تبدأ بملء خزانة الشراب من فورها بأفخر أنواع هذا الشراب. وإذا ما أحبّ شخص آخر الأحجيات، فإنّها تأمر أحد

Twitter: @ketab_n

معارفها ممَّن يسافرون إلى خارج البلاد كي يأتي بأحجيات أشدّ صعوبة. غير أنّنا لم نهب أنفسنا معظم الوقت لمثل هذه الألعاب، وإنّما نقطع الوقت في إرهاق أنفسنا بمختلف الاجتماعات أو «اللقاءات». وكنّا نستكين على الأرائك المريحة في حجرة الجلوس، نتناول الطعام، نحتسي الشراب وندخّن، ونخاطب بازدراء هذا الشخص أو ذاك، وإنْ كان أحدنا يزدري الآخر في معظم الأحيان. وسرعان ما كنّا نحرِّر أنفسنا من ماضينا، ونركِّز في ماهيّتنا الآن، ونبوح بأحلامنا، ويجادل بعضنا بعضًا باستمرار. لم تكن مضيفتنا لتهتمّ قطّ بمحتوى أحاديثنا. الحقّ، أنّنا بوصفنا أفرادًا، لا أظنّ أنها كانت مهتمّة كثيرًا بنا، بل كانت تهوى المحيط الذي توفِّره لنا... وكانت تهوى أيضًا الألعاب الناريّة، لأنّ كلّ ضيف يندفع إلى هذا المكان، كان يشبه ألعابًا ناريّة تنطلق وسط ظلمة الليل البهيم. فكان مثل هذا الضيف ينزلق بخطوات مرتعشة ومتعثِّرة، وما إن يتأكّد من أنّه ارتفع ما يكفي من الارتفاع وأنّه أضحى منسجمًا مع المحيط، حتى ينفجر انفجارًا شديدًا محدثًا دويًّا هائلاً، غامرًا المكان بنوره المنتشر بإشعاعات زاهية الألوان كان قد أبقاها متوارية عن الأنظار حتى تلك اللحظة. وبينما نحن نستردّ قدرتنا على استعمال أصواتنا، كانت أثيل توفِّر كلّ أسباب الراحة وذلك بالسهر على خدمتنا. الجنِّيّ في المصباح والحوريّات في الجنّة وحتى جنِّيّة بيتر بان[1]... ما من شأن

(١) بيتر بان Peter Pan، أو الصبيّ الذي لا يكبر، إحدى مسرحيّات الكاتب الروائي والمسرحي الإنكليزي سير جيمس ماثيو باري (١٨٦٠ ـ ١٩٣٧) التي قُدّمت على خشبة المسرح العام ١٩٠٤، ونُشرت العام ١٩١١ بعنوان بيتر وندي. القصّة تدور على ثلاثة أطفال، هم أبناء السيِّد والسيِّدة دارلنغ، جون ووندي ومايكل، وكلب من كلاب نيو فاوند لاند يُدعى نانا. الطفل اليتيم بيتر بان والجنِّيّة تنكر بيل يأخذان الأطفال الثلاثة إلى بلد خياليّ بعد دخولهما منزل آل دارلنغ. وهناك، يقبض القراصنة على الجميع باستثناء بيتر بان، الذي يؤمِّن لهم بعدئذٍ طريق العودة بعد =

Twitter: @ketab_n

أيّ واحد منهم أن يخدم سيِّده بمثل ذلك الولع. في نهاية الأمر، عاجلاً أم آجلاً، انتهى الأمر بكلّ هؤلاء الضيوف ـ السادة إلى الهيام بمضيفتهم. بيد أنّ هذا الهيام كان سببًا في سقوطهم. فالذين كانوا يمتلكون الحرِّيَّة للسباحة كما يهوون في هذا البحر الشاسع، غالبًا ما كانوا يتحرَّكون بعيدًا جدًّا عن اليابسة ليدركوا بغتة، عند النظر إلى الخلف، أنّ اليابسة غابت عن أبصارهم. ولم تعد أثيل إلى جانبهم، إذْ فقدت اهتمامها بهم في اللحظة التي أصبحوا مفتونين بها، يحبُّونها حبًّا أعمى. العلّة الوحيدة في أن يكون المرء ضيفًا في هذا المنزل كان متمثِّلاً في سهولة تجاوز المرء لحقيقة أنّ كلًّا من مكانه الضيِّق والزيادة مؤقَّتان. من هنا، فإنَّ كلّ ضيف يخرج يحلّ محلّه ضيف آخر، تمامًا مثل التوفير الذي لا نهاية له لموادّ البيت ـ المعبد. لقد كان دعاء الوليّ الخضر طلبًا للزيادة، ينطبق على «عقول» أثيل أيضًا: فقد ظلّ عددهم يزداد زيادة مطّردة ولم ينقص قطّ.

أمّا أنا، فقد كنت مستثنًى. فمنذ البداية وحتى النهاية، كنت الزائر الوحيد المواظب على زيارة البيت ـ المعبد، كنت أشبه بعضو شرف. كنت طموحًا أكثر ممّا ينبغي بحسب البعض. بطاقة تقريري مملوءة بكلمة «بما» لسببين وجيهين جدًّا. فأنا أوّلاً طويل القامة (ثلاثة نجوم)، وعريض المنكبين (ثلاثة نجوم). وأنا، لن يبلغ بي التواضع حدًّا يدفعني إلى القول إنّ الآخرين «يعدّونني وسيمًا»، لأنّني كنت حقًّا أكثر الرجال بهاءً في الأماكن التي كنت أرتادها (أربع نجوم)، وكنت على الدوام نافد الصبر و«صعب المراس» (خمس نجوم). وبخلاف الآخرين، كانت لديّ خيارات. فممّا لا ريب فيه أنّني استمتعت بوجودي في هذا المكان، وإن

الخلاص من القراصنة. ثمّة تمثال يمثّل بيتر للنحّات سير جورج جيمس فرامتون (١٨٦٠ ـ ١٩٢٨) ينتصب في حدائق كنزنغتون بلندن منذ ١٩١٢، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كان في وسعي الرحيل عنه في أيّ لحظة. كان في وسعي أن أذهب بلا رجعة. وكانت أثيل مدركة هذا الأمر الإدراك كلّه، وهذا هو مبعث اعتزازها بي. بذرة الخلاف في منتصف السماء. كان حضوري يسعد أثيل ويقلق ضيوفها. إلّا أنّني لم أعر الأمر أهمِّيّة تذكر، إذْ كان اعتبار الذكور الآخرين لي مصدر تهديد لهم شيئًا قديمًا لي. ولو أبديت اهتمامًا بمثل هذه النظرات، لكنت فعلت ذلك منذ وقت مبكر: عندما كنت أسير في الممرّ المكدَّر، وأنا في الحادية عشرة من العمر، عندما كنت أحمل طبقًا مملوءًا بكعكة الزفاف بيديّ، مرتديًا لباسًا داخليًّا يستر جسدي النحيل، وكدت أصطدم قرب باب المطبخ بزوج أمِّي، وكنت في غاية الارتياح وجائعًا في دفء ليلة الزواج. حتى تلك اللحظة، كان الرجل المسكين يراني بوصفي الابن الأكبر للمرأة التي سوف يتزوَّج بها، الصبيّ الذي يعاني مشكلات، بيد أنّه متعطِّش أساسًا للحبّ وبحاجة ماسَّة إلى الحنان. ما كنت لأظلمه قطّ، فهو أراد أن يكون أبًا لي: صبيّ موهوب أنعم الله به على رجل في سنّ الخمسين وليس له ولد. لكنْ، في صباح ليلة الزفاف، عندما التقينا على نحو غير متوقَّع في الردهة، بملامح وجهي الموروثة عن والدي، والثياب القليلة التي كانت تستر جسدي وتشفّ عن أنّني أوشك أن أنهي مرحلة الطفولة، وشهيَّتي الشديدة التي كشف عنها ملئي طبقي (ما يشير أيضًا إلى أنّني سوف أنمو نموًّا سريعًا جدًّا)، لا بدّ أنّني ظهرت مختلفًا الاختلاف كلّه عن ذلك «الابن» الذي تخيّله. والتمع بريق يوحي بالتوجُّس في بؤبؤيه، واختفى. الشيء السيِّئ هو أنّ أمِّي أدركت بدورها هذا الأمر. فالتمعت عيناها بلمح البصر. بدت وكأنّها عثرت على بقايا تلك النظرة عندما كنست الأرضيّة في اليوم الذي أعقب ذلك. لم يكن هذا فألاً حسنًا في نظر الكثيرين، لأنَّ أمِّي كانت من أولئك الأمَّهات اللواتي يستوعبن التوتّرات التي ترتدّ بين الرجال في أسرتها، فتؤسِّس لتحالفات متذبذبة ومعقّدة،

Twitter: @ketab_n

وتحوِّلها على الدوام لمصلحتها حتى اللحظة الأخيرة، واحدة من أولئك اللواتي جعلن روح بسمارك(١) مغتبطة، بهيجة من دون أن تعرف اسمه... فقلّبت ولدها الأكبر ضدّ ولدها الأصغر، وقلّبت ولدها الأصغر ضدّ زوجها السابق، وزوجها السابق ضدّ زوجها الجديد، وزوجها الجديد ضدّ ولديها...

من هنا، كنت متعوِّدًا على المكر الصامت غير المصرّح به. فلم أعر نظرات الآخرين أيّ أهمِّيَّة، فقد كنت محبوب أثيل وعشيق آيشين، وكنت مولعًا بالتسكُّع حول البيت ـ المعبد، غير أنّ ذلك كان كلّ شيء. كانت لديّ خيارات أخرى وأشياء أكثر أهمِّيَّة يتعيّن عليّ إنجازها. كما قلت، كنت طموحًا، طموحًا جدًّا. لم أضيّع لحظة واحدة سدًى من بعد التخرُّج، فبدأت دراسة الدكتوراه في إنكلترا، وفرغت منها هنا في اسطنبول، في ميدان لا يدلّ بشيء على أسرتي: الفلسفة السياسيّة. واجتازت آيشين أيضًا، في محاولتها الثانية، امتحان الأستاذ المساعد في علم الاجتماع. كنت أنا وهي نبدو في حال حسن. أمّا أثيل فنادرًا ما تمكَّنت من اللحاق بنا. وعندما أفلحت في نهاية المطاف في التخرُّج، أقسمت بأغلظ الأيمان بألّا تدخل بوّابة الجامعة مرّة أخرى، ثم أحرقت دبلومها في احتفال أثناء حفلة أقامتها في بيتها ـ المعبد. وفي حين رحت أنا وآيشين نبني حياة كريمة لنا رويدًا رويدًا، حطَّمت أثيل حياتها بسرعة مخيفة. بداية، لم تعد تحيا حياة الجماعة، ثم تركت الڤيلّا وانتقلت للسكن في شقّة فوق سطح مبنى، مترامية الأطراف وجميلة، ولكنَّها غير مميَّزة مقارنة ببيتها السابق. ولم تعد تجمع في شقَّتها كلّ من هبّ ودبّ، ولم تنفق معظم وقتها في جذب الاهتمام لها

(١) أوتو فون بسمارك Bismarck: (١٨١٥ ـ ١٨٩٨) سياسيّ ألمانيّ، عمل على تحقيق الوحدة الألمانيّة، وأصبح مستشار الأمبراطوريّة بعد الانتصار على فرنسا في ١٨٧٠. جعل من بلاده قوّة أوروبيّة ودولة استعماريّة، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

في أوساط الحشود الكبيرة، بل راحت تتحمَّل عوضًا عن ذلك نزوات عشّاقها في مجموعات تتألَّف من شخصين اثنين، وعلى الرّغم من أنّها وهبت كلّ ما تملك من المال والحبّ والطاقة لهم، إلّا أنّها ظلَّت غير محبوبة على النحو الذي كانت تريد. وطرق سمعنا أنّ تجمّعها لم يكن سعيدًا بسلوكها، لكن أثيل كانت بدورها غير سعيدة بهم، إذْ كانت تتذمَّر من وراء ظهورهم كلّما سنحت لها فرصة وإن كانت تعلم أنّ كلامها سيصلهم في نهاية الأمر:

ـ ما دمتِ قد قرأتِ كتبًا أكثر ممّا قرأتُ، واخترتِ أن تصحبي عالمة اجتماع، فأرجو منكِ أن تجدي حلًّا لهذه الأحجية الصغيرة. فإذا لاحظتِ مجموعة كبيرة من البلدان من حول العالم، بدءًا بأكثرها ديموقراطيّة وانتهاءً بأكثرها قمعًا، فإنّك سوف تجدين فيها كلّها عددًا كبيرًا من الأدباء والرسّامين وما أشبههم من اليهود. يبدو الأمر وكأنّهم يجدون على نحوٍ ما سبيلاً لتطوير أدمغتهم مهما كانت الظروف المحيطة بهم، باستثناء بلد واحد! في أفريقيا والشرق الأوسط والولايات المتّحدة وأوروبا وروسيا... استمرّي في التعداد... في كلّ هذه البلدان. في تركيا وحدها، يبدو أنّ ثمّة خطبًا ما حلّ باليهود. ففي تركيا، ولسبب من الأسباب، لا يشعرون أنّهم في حاجة إلى استخدام عقولهم كثيرًا.

احتجّت آيشين وعقدت حاجبيها، وقالت:

ـ أنتِ مخطئة. العديد من أصدقائي هم من اليهود.

ضحكت أثيل ضحكة بلهاء، قاسية. فهي لا تغفر مثل هذه الأخطاء. أمّا أنا، فقد كنت منقسمًا إلى قسمين: القسم الأوّل منّي استمتع بالسذاجة التي أظهرتها آيشين في دفاعها عن اليهود أمام صديقتها اليهوديّة ـ ولا بدّ أنّ هذا هو القسم الذي يجعلني أحبّها. أمّا النصف الآخر، فرنا إلى آيشين في غضب يوازي غضبي، الذي يتملّكني بإزاء

Twitter: @ketab_n

أولئك الذين حاولوا تضخيم السجايا التي اكتسبوها بفضل نسبهم وهيكل الأسرة الاستثنائي الذي وُلدوا في أحضانه، والمدارس النخبويّة التي التحقوا بها، والأشياء التي أنعمت بها الحياة عليهم، وحاولوا من بعد ذلك أن ينقلوها على أنّها خصائص مميَّزة عملوا بأنفسهم على تطويرها ـ لا بدّ أنّ هذا هو القسم الذي جعلها تُغرم بي.

لم تكن آيشين تعرف ردّ فعل أثيل الثابت، ولا ردّ فعلي المنقسم إلى قسمين اثنين، لأنّها اندفعت بكلّ قوّة لتؤكِّد رأيها:

ـ دخلوا كلّهم أقسامًا جامعيّة محترمة، وتلقّى العديد منهم إعانات مدهشة، واليوم، احتلّوا مناصب مرموقة.

قالت أثيل، وهي تتكتك أظافر أصابعها:

ـ أقول لكِ ما يأتي: أنتِ تتحدّثين عن وظائف وأنا أتحدّث عن الموهبة. أنتِ تذكرين سيرة حياة وأنا أذكر العبقريّة. اقتصاديُّون وأكاديميُّون ومحامون وجرَّاحون... أتوسّل إليكِ، أرجوكِ اتركي هذه الأمور جانبًا وأسرعي. إنّني أتحدَّث عن موضوع آخر. لماذا لم يظهر من بينهم البوهيميُّون أو الشعراء المدمنون على الشراب أو أنصار مذهب اللذّة، المنحرفون، أو حتى منتجو الأفلام المخضَّبون بالدم ومن هم مثلهم؟ لماذا لا يؤلّف شعبي الموسيقى؟ وفي المناسبات النادرة التي يؤلِّفونها، فما السبب في أنّهم يغنُّون غناءً عذبًا دومًا الأغاني التقليديّة التي تقطر عسلاً لجدّاتنا اليهوديّات الشرقيّات، ولا يستطيعون تقديم شيء خبيث تمامًا مثل أغنية من أغاني الاحتجاج؟

كانت كلمة «شعبي» هي المرحلة الأخيرة: فقد كان دفاع آيشين الضئيل القدر، والذي لا يُعبأ به، يقابله هجوم أثيل الجليل والمهيب. فكلّما جرى نقاش عن موقع جماعة ما بين شخص ينتمي إليها وآخر لا

Twitter: @ketab_n

ينتمي إليها، فإنَّ حقّ الاختراع يأتي مباشرة على جدول الأعمال: نهاية الطريق، بئر كلّ المجادلات الناضب، الستارة الأخيرة... عندما ينسحب كلّ فرد إلى حيث ينتمي في نهاية الأمر. المتزوِّجون إلى بيوت أسرهم، الفلّاحون إلى بيوتهم القرويّة... عندئذٍ، أُشعل سيكارة بعد أن أكون قد جذبتهما إلى جانبي واتّكأت في جلستي. لا فرق عندي، فهما حبيبتاي في الوقت نفسه.

الرجال الذين يمارسون الزنى يجدون النوعيّة على درجة بالغة من الأهمِّيّة: فهم يستمتعون عندما يتلقّون من امرأة أخرى الحبّ الذي هو أصلاً يختلف عمّا يحصلون عليه من زوجاتهم. أمّا النساء اللواتي يمارسن الزنى، فإنّهنّ يجدن الكمِّيّة مهمّة: فهنّ يستمتعن عندما يتلقّين من رجل آخر الحبّ الذي هو أكثر من ذلك الحبّ الذي يحصلن عليه من أزواجهنّ. كانت خيانتي لآيشين مع أثيل تشبع غروري وزهوي. لقد استمتعت في تلك الأيّام استمتاعًا كبيرًا بملاحظة الفروق. أمّا إن كانت آيشين تخونني أم لا، فهذا ما لم أحاول أن أعرفه.

قالت آيشين من دون أن ترمي إلى التخلِّي عن الموضوع:

ـ حسنًا، ولكنَّ ثمّة سببًا لكلّ هذه الأشياء.

ثم انصرفت إلى العمل الجدِّيّ، وبدأت بإيضاح مفصّل. وفي محاولتها استخدام عبارات موضوعيّة، تحدّثت عن الخصائص العقليّة الواهية للأقلِّيّة، والإحساس الدائم بانعدام الأمن الذي تولده أزمة الانتماء والهيمنة التي لا تغذِّيها تهديدات فعليّة قدر ما تهدّدها أفكار مجرَّدة. ولم تفعل هذا لكي تكون ذكيّة أو لكي تُظهر اهتمامها بالحديث في موضوعات كبرى، وإنّما تكلّمت على ذلك النحو، لأنّ تلك اللغة هي لغة الحوار الوحيد التي تعرفها. ومع هذا، فإنَّ الحوار بلغة أكاديميّة أشبه ما يكون بالذهاب إلى الفراش رفقة امرأة لم تضع قطرة من شراب في فمها. يمكنك أن تطمئنّ إلى أنّها سوف تظلّ واقفة إلى آخر الليل، لا

Twitter: @ketab_n

تتجاوز قيمها ولا تتخلّى عنها. ومع هذا، ينبغي لك أن تقبل صراحة أنّك لن تقدر على الاسترخاء من حولها ولا أن تطلق صرخات وحشيّة، ولا أن تضرب المؤخّرة، أو ينام أحدكما في حضن الآخر. باختصار، لن تحظى بأيّ متعة أيًّا كانت.

لاحظت أثيل متقلّدة سيف الفروسيّة الذي شحذته قبل قليل:

ـ كلامكِ لطيف، ولكنَّه بلا فائدة تمامًا، إذْ لو ظهر من بين اليهود في تركيا أدباء متجهِّمون أو منتجون يفتقرون إلى الإتقان، أو رسّامون غير مرغوب فيهم اجتماعيًّا، فهل تعرفين ما التفسير الذي ستطرحه الأجيال التي ستخلفنا بعد خمسين أو مائة سنة من الآن؟ التفسير نفسه الذي تطرحين الآن. سوف... تقول الأجيال القادمة: نعم، كان كيت وكيت فنّانًا أو... مفكِّرًا عظيمًا. ما الذي جعله عظيمًا؟ ما الذي فصله عن البقيّة؟ وعندئذٍ يبدأون بطرح الأسباب التي أعطيتها: الخصائص العقليّة الواهية للأقلّيّة، والاغتراب عن اللغة، وانعدام الأمن وانعدام الحماية، وغيرها. وهكذا، فإنَّ كلّ ما تشاهدين الآن على أنّه عقبة من شأنه أن يكون سببًا للاختلاف، بل حتى للامتياز. هذا هو الأسلوب الذي تعمل به هذه الأشياء. فلو لم يتمكّن رجل أعرج من الرقص، فإنّنا نقول: أكيد لا يتمكَّن من الرقص لأنّه أعرج! ولكن لو أن الرجل نفسه كان خبيرًا في الرقص، فعندئذٍ نقول: أكيد، إنّه أفضل من الآخرين لأنّه أعرج!

جفلت آيشين، وكأنّها تتحاشى بائعًا متواقحًا، وهزَّت برأسها ويديها يمنةً ويسرة. كنت أعرف تلك الحركة معرفة جيِّدة، فهي تعني: شكرًا. ولكنّني لن أشتري هذا الهراء. في سنوات زواجنا الثلاث والنصف، كانت تُختتم كلّ نقاشاتنا تقريبًا بمثل تلك الإشارة.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٨
العشيقة الزرقاء

بعد أن ارتقت العشيقة الزرقاء السلالم بسرعة، فتحت باب الشقّة رقم ٨ مبهورة الأنفاس، فقد كانت متأخِّرة جدًّا. ويبدو أنّ الانزعاج لم يكن كافيًا، بسبب الوقت الطويل الذي استغرقته زيارتها لدار التجميل، فقد أنفقت أيضًا وقتًا أطول ممّا ينبغي بعد الزيارة في التسوُّق. وبعد أن دخلت الشقّة، أفرغت محتويات أكياس التسوُّق فوق نضد المطبخ. فالطعام يمكن أن ينتظر، أمّا مظهرها فلا يمكنه الانتظار. فما كان منها إلّا أن هرعت إلى الحمَّام. وبينما كانت تنظِّف أسنانها، نظرت نظرة فاحصة إلى تموُّجات شعرها، فلم تعجبها. لقد بدت هذه التسريحة الجديدة في مرآة مصفِّف الشعر أجمل بكثير ممّا تبدو هنا في حمّامها. ولمّا كانت واحدة من تلك النساء اللواتي يشعرن بالحسد إزاء الشعر الجعد تارة والشعر المنسدل تارة أخرى، فإنَّ شعرها كان طوال هذا الوقت متذبذبًا، غير قادر على الميل إلى أيّ اتّجاه. الآن، أقلق ذلك المصفِّف الثرثار هذا التوازن الدقيق، فجعله مجعّدًا أكثر وقصّره كثيرًا، أكثر ممّا طلبت. اختلستْ نظرة أخرى إلى المرآة الكبيرة وهي تخلع ثيابها في غرفة النوم، وشعرت أنّها ما تزال تحبّ مظهرها، وإن كان

Twitter: @ketab_n

ردفاها قد كبرا إلى حدٍّ ما مؤخَّرًا... آه لو كانت هذه النُدب غير مرئيّة إلى درجة كبيرة... ولو لجأت إلى استعمال كمّيّة من الكريما بلون بشرتها نفسه، وتمكّنت من إخفاء الندب مجدّدًا!

فتحت الأدراج واحدًا فواحدًا، وتوقّفت لحظة عابرة، ولكن لم يتعيّن عليها أن تفكِّر طويلاً في اختيار اللباس الداخليّ، ما دام تاجر زيت الزيتون لا يبالي بالفرق. لم تكن الحالة كذلك في بداية الأمر. ففي تلك الأيّام، أرادها أن ترتدي أكثر الألبسة الداخليّة خلاعة، فكان يشتريها ويقدِّمها «هديّة» لها. وكان يختار اللون نفسه على الدوام، وهو اللون الأزرق السماوي الصافي والبرّاق. كانت العشيقة الزرقاء تهوى هذا اللون. نعم، كانت تهواه حقًّا، باستثناء أن يكون لباسها الداخليّ وصديريّة النهدين زرقاوين. وعندما كان يأتي دور اللباس الداخليّ في مجموعة هداياها، كان القلق يساورها بسبب التنافر بين هدوء لونيهما وتهتُّك القصد من ورائهما. من شأن ربطة الجوارب أن تكون بلون يشعل الرغبة الجنسيّة كاللون الأحمر، أو أن تكون مثيرة للجنس كاللون الأسود أو خدّاعة كاللون الأبيض. بل حتى اللون البنفسجي بما ينطوي عليه من غزل، أو ورديّ بما ينمّ عن قلق... لكن لا يمكن أن يكون أزرق سماويًّا صافيًا وبرّاقًا. إنّ مزج ذلك اللون بذاته مع تلك المرامي المحدَّدة، كان أشبه بتخفيف الحليب بالماء، أو ممّا يزيد في الطين بلّة، إضافة الحليب إلى العرق. هذا لا يعني عدم إمكانيّة استمتاع الرجل بالاثنين، ما دام أنّه يمتنع عن شرب الاثنين معًا. أمّا تحوُّل الحملان إلى ذئاب أو الذئاب إلى حملان، فقد رأت الكثيرين، لكنّ الذين يحاولون أن يكونوا حملانًا وذئابًا في الوقت عينه هم الذين أنجبوا أفظع الشواذ معتقدين بأنّهم لم يحدثوا أيّ ضرر.

إنّ أكثر من ألحق بها الأذى هو نصف الحمل / نصف الذئب ـ وهو أكثر من الأذى الذي ألحقه بها أولئك الذين كان يروقهم تذكيرها

Twitter: @ketab_n

بالحدود المنيعة بين نساء للزواج ونساء للمضاجعة. إنّ أمثال هؤلاء الرجال كانوا يرغبون رغبة جارفة في من يحطّون من قدرها، ويحطّون من قدر من يرغبون فيها رغبة جارفة. في يوم من الأيّام، رأت العشيقة الزرقاء نصّابًا في الشارع يحتال على المارّة بثلاثة أكواب من صفيح موضوعة على صندوق من المقوّى. وبينما كان يغيِّر من مواضع الأكواب، انزاحت الخرزة المخفيّة من تحت أحد الأكواب أيضًا. في البدء، كانت الخرزة في الكوب الأوّل: «إخجل من رغباتك!» وفي غمضة عين، انتقلت إلى الكوب الثاني: «إخجل من المرأة التي تشتهيها!» وبحركة واحدة، كانت الخرزة تحت الكوب الثالث: «إرغب في المرأة التي تُلحق بك العار!». . وهذا يعني بدوره أنّ هؤلاء الرجال عاجلاً أم آجلاً سوف يبدأون بازدراء النساء اللواتي ضاجعوهنّ في الفراش.

لأجل ألّا يتكرَّر هذا النموذج الفاسد، ظلّ تاجر زيت الزيتون يُتبِّل علاقتهما بالتوابل، التي من شأن كفّتها أن ترجح على كفّة اشتعال الرغبة وفداحة العار. كانت العشيقة الزرقاء تحتفظ على الدوام بمفكِّرة يوميّات كبيرة، وكانت قد دوَّنت فيها على أثر أوّل لقاء جرى بينهما ما يأتي: «إذا ما أيقظ شخص ما رغبة فينا قد لا نريدها، فإننا نحاول ألّا نهوى ذلك الشخص. ولكن إذا أخفقنا في ذلك، فعندئذٍ ينبغي لنا أن نبحث عن شيء محبوب فيه، شيء ما فيه من الطيبة ما يكفي لجعل تلك الرغبة فيه أقلّ مدعاة للإزعاج، وأكثر قدرة على التحمُّل». وهذا يشبه ارتداء قفّاز سماويّ، بلون السماء الزرقاء اللامتناهية والصافية والبرَّاقة، كي لا نضطرّ إلى لمس ما هو قذر أو العبث أثناء الاستمتاع بالبحث في وسط الأنقاض.

ليس ثمّة أدنى أثر للشهوة في سلّة توابل تاجر زيت الزيتون، فيها شتّى الأنواع الأخرى؛ ولكن لسبب ما، ظلّ على مدى السنوات القليلة

Twitter: @ketab_n

الماضية يصطاد التوابل نفسها، والمتمثّلة بالحنان. كان يشعر بالحنان تجاه العشيقة الزرقاء، فهي ليست ذلك النموذج من الفتاة التي تعيش حياة كهذه الحياة. ثم جاءت أوقات شَعَر خلالها بحنان تجاه نفسه. فهو ليس ذلك النموذج من الرجل الذي يعيش حياة كهذه الحياة. كان في أغلب الأحيان يتحدَّث عن القدر، وكأنّها عاهرة شرِّيرة. أمّا العشيقة الزرقاء، فكانت ترى في الشهوة المغلّفة بالحنان شريحة خبز هلاميّة الشكل، وسخة وملوَّثة بالوحل ومرميّة على الأرض. لا رغبة لها فيها. في مثل هذه الأوقات، كانت تشبِّه وضعها بشعرها. فمن جهة أولى، هي زوجة تاجر زيت الزيتون، رقيقة ومنبسطة مثل شعر منسدل؛ ومن جهة أخرى، هي هذه العاهرة المسمّاة قدرًا غير منبسطة، مفتقرة إلى التوازن كالشعر ذي الموجة الدائميّة. ثم ها هي هناك، في سوط الاثنين، متأرجحة نحو إحدى النهايتين... شبه زوجة وشبه عاهرة... ماجنة وخليلة.

تعلم جيِّدًا كم تحطِّم قلب والديها عندما هربت من البيت من غير رجعة، ولكنَّها متأكِّدة من أنّهما ارتاحا من أعماقهما. فهما إنسانان طيِّبان، غير أنّ الشِّباك التي دأبا على رميها في بحر الأبوّة نادرًا ما اصطادت صيدًا ثمينًا. وإذا كانت لم تشعر بالراحة، وهما يغدقان حبّهما عليها، ونادرًا ما استطاعت أن تتحمّل اهتمامهما، فإنَّ جحودها كان صعبًا عليها أيضًا، فعجزت عن معالجته. كان في إمكانها أن تحصل على تعليم أفضل إن شاءت، وأن تتخرَّج على الأقلّ من مدرسة إعداديّة، ولكن بعد تلك «الحادثة»، لم تشعر بأيّ رغبة في العودة إلى المدرسة. وقبل أن تدرك ما حدث، كانت الندبة على وجهها قد رسمت حدًّا فاصلاً ورقيقًا رقّة شعرة بينها وبين أندادها أوّلاً، وبينها وبين العصر الذي كانت تعيش فيه ثانيًا. إنّها مضطرّة إلى الرحيل عن ذلك البيت. وإذا كان أمامها خيار، فإنَّ المكان الوحيد الذي يروقها أن تذهب إليه

Twitter: @ketab_n

هو بلا أدنى ريب الجامعة التي سكنها جدّها... جدّها الذي أحبّته حبًّا جمًّا، وفقدته قبل الأوان... وبعد أن فقدت جدّها، اقتفت آثارًا مشوّشة تركها كلّ أنماط البشر في اسطنبول، وحاولت أن تقتفي أثر أولئك الذين ينتمون إلى الدراويش.

تمكّنت من العثور عليهم، بالرّغم من الصعوبات التي واجهتها ـ منتشرين هنا وهناك على كِلا جانبي المدينة، وكانوا يتحلّقون من حول معلّميهم ـ فانضمّت إليهم. ولبثت على مدى عامين اثنين تشارك، أسبوعيًّا ومن دون انقطاع، في دروس ثلاث طرق دينيّة مختلفة في اسطنبول، تنشد السلوى في التشابه بين الكلمات التي تسمعها من دروسهم وتلك التي سبق لها أن سمعتها أثناء طفولتها من جدّها، ولكنّها لم تحقّق شيئًا، ولم يكن السبب في ذلك يرجع إلى أنّ الكلمات لم تذكّرها بكلمات جدّها، لأنّها كانت تذكّرها بها حقًّا. كما لم يكن السبب متمثّلاً في أنّ الناس الذين كانوا يتفوّهون بها لم يكونوا مخلصين، لأنّهم كانوا مخلصين حقًّا.. ولكن لسببٍ ما، لم تكن تبدو مثلها. وشيئًا فشيئًا، راحت تدرك أنّها في تلك الاجتماعات لم تكن الأحاديث هي موضع اهتمامها الحقيقي، وإنّما الأناشيد التي كانت تعقبها. كانت تجلس جنبًا إلى جنب رفقة غيرها من التلاميذ، في حين كان المعلّم يتكلّم. ولكنْ، بدلاً من أن تكون كلّها آذان صاغية مثل البقيّة، فإنّها كانت تنسحب إلى حالة من الصمم التامّ، ولا تُعيد فتح بوّابات أذنيها إلّا عندما يبدأ الإنشاد. كم أحبَّت تلك اللحظة حبًّا جمًّا، ذلك التخلّي التامّ والحقيقيّ للجسد، محاطة بسرمديّة التكرار مرّات ومرّات. ولم تنقلها بعيدًا عن عالمها الكلمات المنطوقة هناك، وإنّما قرع الطبول والكلمات التي ينطوي عليها اللحن. غير أنّها مهما ابتعدت كثيرًا، فإنّها لم تستطع أبدًا أن تنفض عنها ذلك الإحساس القديم بالنقص. وبعد برهة وجيزة، راحت تشعر وكأنّها منافقة. لماذا أصرّت

Twitter: @ketab_n

على أن تكون واحدة من أولئك الذين كانت تحسّ أنّها بعيدة عنهم البعد كلّه؟ وكان كلّ إنشاد تحضره يبعدها ميلاً آخر عن بقيّة التلاميذ. ومثلما كانت غير ناجحة في مبادلة والديها الحبّ، فإنّها لم تعثر على السكينة بالقرب من أولئك الذين كانوا باستمرار يقولون بها.

واعترفت لنفسها في خشوع وهيبة: «إنّني لا أعرف كيف أقتنع بما لديّ، لأنّني غير قادرة على إظهار الامتنان». وبدلاً من أن يثير هذا الاعتراف استياءها، فإنّه كان سببًا في إحساسها بالارتياح. كانت تعاني علَّة أولئك الذين أدركوا، وهم أطفال صغار، كم جميلة هي طفولتهم؛ علَّة أولئك الذين بدأوا الحياة بطموح عالٍ... ثم كان مقدَّرًا لكلٍّ الذين التقتهم من بعدُ أن يبقوا في ظلِّ جدّها، في حين أنّ أكثر الأشياء متعة في حياتها كانت تجسِّد إحساسًا مريعًا بالغياب. بيد أنّ مثل هذا النقص لم يعرفه الآخرون تمامًا، وهنا مكمن المشكلة: الكلِّيّة المطلقة للطيبة. فالذين آمنوا من غير تحفُّظ بطيبتهم وسموّ أخلاقهم كان مقدَّرًا لهم الفشل أكثر من الأشرار، لأنّهم كانوا مزهوِّين بكمالهم. ليس ثمّة سقوف يتسرَّب منها الماء في صروح شخصيّاتهم، ولا ألواح خشبيّة متداعية في أرضيّاتهم، ما من ثقب يحتاج إلى ملء، ولا من ثلم يحتاج إلى إصلاح. لقد وجدتهم العشيقة الزرقاء ناقصين ملء أفواههم، إلَّا أنّها في عجزها عن التعبير عن هذا الأمر، انكمشت رويدًا رويدًا بعيدًا عن الطيِّبين، ونأت بنفسها شيئًا فشيئًا عن قوانينهم عالية المستوى وعقيدتهم الصالحة. وهكذا، بدأت ترتاب في مكان ما من أعماق روحها، حيث كانت تميل إلى الحرمان والانحلال الخلقي. وقبل أن يمضي وقت طويل، كانت قد قطعت كلّ ما يربطها من صلات وأواصر بالطرق الدينيّة الثلاث. ولمّا كان الأمر كذلك، فإنَّ الابتعاد عن المؤمنين لم يهزّ هزَّة واحدة معتقداتها. فالإيمان في رأيها لم يكن معناه أن تحيا تبعًا لقواعد لا تتغيَّر أملاها الله، أو أن تنضمّ إلى صفوف جماعة حيّة الضمير، وإنّما هو

Twitter: @ketab_n

ذكرى طفولة مشرقة وعذبة. ولمّا كانت ذكريات طفولتها صحبة جدّها هي أفضل لحظات حياتها، فقد ظلَّت مصرَّة إصرارًا قويًّا على أن تظلّ مؤمنة مخلصة. وحتى إذا لم تكن مفعمة بالإيمان، كما هو حالها في طفولتها، فإنَّ إيمانها احتفظ بمنحاه الطفولي.

ومع هذا، ليس ثمّة منزل تريد الرجوع إليه، مثلما ليس لديها من المال ما يكفي للمضيّ في طريقها. في تلك الأيّام، بدأت تعتاد على اهتمام الرجال الذين تقدَّمت بهم الأيّام تقدُّمها بأبيها، وتمكَّنت من ألَّا تظلّ غير مبالية بالاهتمام الذي اعتادته. فقد اكتشف هؤلاء الرجال، الذين ظنُّوا أنّهم يملكون كلّ شيء، في مرحلة ما النقص الكامن في حياتهم، وأصبحوا فيما بعد منجذبين إليها انجذابًا ملؤه الشوق، وكأنّها هي الوحيدة ووحدها القادرة على وضع الحقّ في نصابه وتصحيح الخطأ. على أيِّ حال، كونها خليلة بداية طيِّبة في ضوء الابتعاد عن كمال الطيبة المبتذل، الرتيب، كانت بدايةً ماجنة ثم خليلة، ولكن ثمّة أوقاتًا تذبذبت فيها بين الاثنتين. وعندما استأجر تاجر زيت الزيتون الشقّة رقم ٨ من قصر الحلوى، توقّفت نهائيًّا عن التذبذب بين كونها ماجنة وخليلة، لتصبح الاثنتين معًا. وما إن وفّر الرجل بيتًا لها حتى تغيَّر سلوكه تغيّرًا جذريًّا، إذْ ازداد خشونة. لقد كان من ذلك النمط، واحدًا من «المتذمِّرين من الزواج منذ أمدٍ طويل»، قسم «الذين لا ينهون الزواج» وشعبة «أريد تغييرًا بلا خسارة»، وقد تصرَّف على نحو طبيعي طبقًا لذلك.

ثمّة نمط آخر من المخلوقات تعيش على الأرض، عالمها مزدحم ازدحام عالم البشر، ولا يقلّ عنه تعقيدًا: البقّ. فقد نجح في الانتشار في كلّ حدب وصوب والبقاء على قيد الحياة بالرّغم من كلّ شيء. ويُظهر البقّ تنوُّعًا رائعًا، بل إنّ نوعًا معيّنًا من البقّ يمكنه أن ينتج عشرة أنواع أخرى، ويصل أحيانًا إلى آلاف الأنواع. ويُفترض أنّ مجموع

Twitter: @ketab_n

أنواع البقّ كلّها أكثر من مليون في الوقت الراهن. وبالرّغم من هذا التعقيد المريع، فإنَّ عالم العلوم لا يتوقّف عن تصنيفها، حيث يقسمها إلى: مراتب عليا، وأصناف، وأصناف دنيا؛ أقسام عليا، وأقسام، وأقسام دنيا. فعلى سبيل المثال، تنتمي دودة الشجرة إلى طبقة البقّ، «طبقة الاستبدال الفرعيّة، قسم أعلى بأجنحة غمديّة، وقسم ببطون مختلفة، وقسم فرعيّ من أكلة الأعشاب». وتكمن الغالبيّة العظمى من خيبات الأمل التي تمرُّ بها النساء في علاقاتهنّ مع الرجال، في عدم رغبتهنّ في الموافقة على أنّ البشر، شأنهم شأن البقّ، هم على أنواع؛ ولهذا السبب، فإنَّ الرجال الذين هم في صحبتهنّ ينتمون أيضًا إلى نوع من الأنواع ـ باختلاف واحد: فالبقّة لا يمكنها أن تحدِّد نوعها وتنتقل من نوع إلى آخر. فعلى سبيل المثال، لا يمكن لذبابة النُعرة التي تمتصّ دم الخيل أن تتحوَّل في أيِّ مرحلة من مراحل حياتها إلى حشرة فرس النبي، بل تظلّ على نوعها. أمّا أبناء آدم وبنات حوّاء، فيمكنهم في حقيقة الأمر أن يكملوا هذا التحوُّل. فالعلاقة المسجَّلة للكائن البشري تتجسَّد في ملكة الانحراف عمّا كان عليه أصلاً في أوّل الأوّل وأن يخون نوعه. وتبعًا لذلك، فإنَّ جدول أنماط الإنسان الحديث أقلّ تعقيدًا، ولكنَّه أكثر التواءً من البقّة البدائيّة. ومع هذا، فإنَّ عمليّة القيام بالانتقال بين المراتب ليست بسيطة، لأنّ الأنواع كلّها، من دون استثناء، لا تجعل أفرادها متشابهين تمامًا فحسب، بل تثبِّتهم في ذلك الشكل أيضًا من أجل الاحتفاظ باستقرارها وبوجودها. إنّ تاجر زيت الزيتون ينتمي إلى المرتبة العليا من نوع البشر «المتذمِّرين من الزواج منذ أمدٍ طويل»، وإلى شعبة «أريد تغييرًا من دون خسارة»: إنّه نموذج مؤذٍ كيفما نظرت إليه.

في أوّل ليلة يقضيانها معًا في هذا المنزل، قال لها، وهما يحتسيان صامتيْن الشراب من على مائدة العرق:

Twitter: @ketab_n

ـ أنت خطيبتي.

كان يروقه أن يشرب، وغالبًا ما كان يشرب ليلاً. لم يكن واحدًا من أولئك الذين يكتفون بحفنة من المشهّيات ونصف قالب من الجبنة وشريحة من البطّيخ، بل كان يلحّ دومًا على أن تكون المائدة عامرة بما لذّ وطاب. ولم يكن كلّ طعام من الأنواع الجاهزة، بل لا مناصّ من إعداده في البيت من البداية. كان طبقه المفضّل الدجاج بالفول السوداني في تلك الليلة، وبينما هو يستخدم قطعة من الخبز ليمسح بها من فوق طبقه ما تبقّى من الدجاج بالفول السوداني، قال ملاحظًا:

ـ ديننا أيضًا يسمح للرجل أن يتزوّج أربع نساء شريطة أن يعدل بينهنّ.

ضحكت العشيقة ضحكة مكتومة تنمّ عن نرفزة وانزعاج. أمّا هو، فقد التوت عضلات وجهه، لأنّها نهضت وتركت المائدة: إذ كانت تعرف جيّدًا الآية المذكورة في القرآن بأكملها، على العكس منه.

اختارت ثوبًا أخضر اللون، شفّافًا، من خزانة الثياب، وارتدته في غمضة عين، وهرعت عائدة إلى المطبخ لتفتح الرزم التي أحضرتها من متجر البقالة. فوضعت أوّل الأمر الحمّص في طاس، وزيّنته بورق النعناع؛ ثم رتّبت أنواعًا أخرى من المقبّلات في الأطباق: يخنة الفاصوليا اليابسة وحساء الباذنجان والفاصوليا الخضراء بزيت الزيتون وكبد ببصل مطبوخ على نار خفيفة... كما وضعت الفطائر بالجبنة على حِدَة عازمة على قليها لدى وصوله. وكانت هناك أيضًا السَلَطة الروسيّة التي أرسلتها السيّدة العمّة بالأمس رفقة ابن الحارس. الحقّ، أنّها وجدتها غريبة لأنّها لم يسبق لها أن رأت ربّة بيت ترسل سلطة روسيّة إلى الجيران وما أشبه، بيد أنّها خمّنت أنّ تاجر زيت الزيتون قد تعجبه ويستمتع بها على مائدة العرق. في وسعها أن تضعها على الطاولة، وكأنّها هي التي أعدّتها بنفسها. وبعد أن ألقت نظرة فاحصة أخيرة إلى الأطباق، دعكت لفافة الرزمة حتى أصبحت كالكرة ورمت بها في

Twitter: @ketab_n

الزبالة. ثم شدَّت كيس القمامة وحملته خارجًا. وعندئذٍ، تذكَّرت الحديث الذي دار في دار التجميل. لم تذكر هذا لأيّ شخص، لكن زبالتها سُرقت مرّتين من أمام عتبة دارها. وبعد أن أنعمت النظر في كيس الزبالة في شكّ وريبة، وحيطة وحذر، رجعت به إلى الداخل مرّة أخرى كي تضعه خارجًا في وقت لاحق، عندما يحين موعد عودة مريم لجمع الأكياس كلّها.

بعد أن حضّرت العشيقة الزرقاء اللقم الشهيّة، حملتها ووضعتها على المنضدة ذات الغطاء اللازوردي. ثم وضعت المناديل ذات اللون المناسب لغطاء المائدة، والأطباق، ثم الأقداح. كما أخرجت من الثلّاجة العرق ونكَّهته بنكهة المصطكاء، وصبَّته في دورق ماء بلُّوري ذي مقبض شذريّ اللون. وأخيرًا، صبَّت في طاس بلون الكميت مقدارًا قليلاً من زيت الزيتون القويّ الرائحة الذي أتى به التاجر، ورشّت عليه الفلفل الأحمر والريحان الحلو والزعتر. وعلى الرّغم من أنّ الوقت ما يزال مبكرًا، إلّا أنّها لم تستطع مقاومة إشعال الشمعة الشبيهة بالزنبقة الطافية على طاس زجاجيّ نصف مملوء بالماء. ابتسمت ابتسامة رقيقة تنمُّ عن الرضى، وهي تنعم النظر إلى المائدة وإلى كلّ ما حولها. كانت معجبة بمنزلها، لكن آه.. لو كان ممكنًا التخلُّص من الرائحة الكريهة التي تفوح من العمارة السكنيّة!!

أشعلت عود بخُور برائحة التفَّاح الأخضر، ووضعته في وسط غرفة الجلوس. وبينما راح الشذا ينتشر في الجوّ، رشّت أوّلاً على نفسها، ثم على كلّ زوايا المنزل نصف زجاجة من العطر. كانت في الآونة الأخيرة قد بدأت تنفق مقدارًا لا بأس به من مالها على العطور. وبينما أخذت رائحة الزبالة التي تطوف بالعمارة السكنيّة بالازدياد، فإنَّ نفقاتها على العطور أضحت في ازدياد أيضًا. وكانت تتوقّف غالبًا عند متجر أنيق في نهاية الجادّة لتشتري منه زجاجات عطور من المحلّ نفسه، وإن كانت

Twitter: @ketab_n

تعلم جيِّدًا أنّها لا تتمتَّع بمستوى معيشة النساء اللواتي يتبضّعن منه. كانت تروقها روائح الفواكه أكثر من أيّ شيء آخر. مزيج من البرقوق والبطِّيخ الأحمر وثمر البابايا الأصفر ـ وإن كانت لا تملك أيّ فكرة عن البابايا، إلّا أنّها كانت ترى الاسم جذّابًا.

كان العطر الذي تشتريه يدوم عشرة أيّام في أكثر الأحايين، إذ كانت ترشُّه في كلّ مكان: على ثيابها وعلى الوسائد والملاءات، والستائر والكراسي ذات الأذرع، ولعبها من مختلف الأحجام والأنواع، وعلى عيون الحسد التي كانت تعلّقها في أنحاء المنزل كافّة. كان في وسعها بدلاً من كلّ هذه النفقات أن توفِّر المال أو أن تشتري لنفسها بعض الحاجيات التي تدوم زمنًا طويلاً. لا بدّ أنّ التاجر أدرك هذا الهدر في المال الذي تبذِّره عشيقته الصغيرة، لأنّه قلَّص من مقدار المال الذي كان يعطيه لها. غير أنّ العشيقة الزرقاء دأبت على التصرُّف على هواها، ولم تعرف، ولم تحاول أن تفهم سبب ذلك التصرُّف. الشيء الوحيد الذي كانت تعرفه هو أنّها سوف تشتري خمسة أضعاف ما تشتريه من زجاجات عطر، إذا ما تضاعفت النقود التي تتسلّمها إلى خمسة أضعاف.

بدت المائدة جميلة، ولطيفة، وتنمّ عن ذوق رفيع. أرسلت له رسالة من خلال هاتفها الخلوي تسأله عن موعد قدومه. وبينما هي تنتظر ردّه على رسالتها، ضغطت على جهاز التحكُّم عن بعد، واختارت قناة على نحو عشوائيّ. ظهرت على الشاشة امرأتان تنظر إحداهما إلى الأخرى نظرات شزر وامتعاض. كانت إحداهما ترتدي بذلة أنيقة ذات لون بنفسجيّ فاتح، وتتقلَّد أربع قلائد من اللؤلؤ، وتشبك يديها على صدرها وتقول ناخرة:

ـ اعترفي يا لوريتا. إنّني أنا التي يحبّها.

أمّا المرأة الثانية، فكانت سمراء طويلة الشعر ترتدي ثوبًا يذكِّر

Twitter: @ketab_n

المرء بحقل زهور الأقحوان، كما أنّها وضعت واحدة من تلك الزهور على شعرها؛ وفتحت عينيها الخضراوين على سعتهما، وقالت متلفِّظة مقطعًا فمقطعًا:

ـ ولكنّك لا تحبِّينه!

ثم جذبت قلّادتها موشكة أن تقطعها، في حين ردّت المرأة الأخرى:

ـ ليس هذا من شأنك يا لوريتا، ليس من شأنك أبدًا.

وهنا قالت العشيقة الزرقاء متذمِّرة:

ـ يا ليت تمطر السماء حجارة كبيرة بحجم لوريتا على رأسيكما.

على الرّغم من أنّ «لوريتا» كلمة من نمط كلمة «بابايا»، إلّا أنّها لم تبدُ جذّابة تمامًا.

وبينما هي تمدّ يدها إلى جهاز التحكُّم عن بعد، رنّ هاتفها الخلوي مسجِّلاً وصول رسالة من كلمة واحدة: الليلة. يا له من وقت طويل ومعقَّد. تنهَّدت وغيّرت القناة. فظهرت امرأة في خريف العمر، عريضة الجبين، ممتلئة الخدّين، لم تفكِّر في إزالة شاربها أو لم تهتمّ بإزالته أصلاً. كانت تدوّن مقادير لطبخ السبانخ بالجبن المبشور.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧

أنـــا

خرجت إلى الشرفة وأشعلت سيكارة. الشرفة هي المكان الوحيد الذي أستمتع به في هذا البيت، فهي منفصلة عن البيت من الداخل، ومهما كان نوع اتّصالها بالشقّة، فإنّه يبدو تصادفيًّا كأنّها لا تنتمي إلى هذا المكان. ألاحظ بقّة بلون الآجرّ تطوف من حول الحاجز الحديديّ. يبدو أنّ وجودي هنا يؤرق مضجعها، مثلما أنّ وجودها يؤرق مضجعي. ثمّة بقّ في كلّ مكان، ينتشر من خزانات المطبخ ومن تحت الثلّاجة وشقوق الجدران...

في لحظة عابرة، أفكِّر في الاتّصال بأثيل لأطلب منها مساعدة، لتكتشف إن كنت قد كلّمت آيشين أم لا في الليلة الفائتة، إلّا أنّني سرعان ما تخلّيت عن الفكرة. بما أنّني تحمّلت ما هو أكثر من حصّتي العادلة من نزوات المرأة، فإنّ طلبي منها أن تخبرني برقم هاتف آيشين الجديد، وأن أطلب منها مرّة أخرى أن تساعدني، من شأن ذلك كلّه أن يكون بلا طائل، اللّهمّ إلّا النفخ في كبريائها المنفوخ أصلاً أكثر ممّا ينبغي. إنّني لا أتحمّل سماع تذمُّرها وشكواها مرّة أخرى: «سوف أفقد صديقتي المفضّلة بسببك يا قطعة الحلوى». لو كان الأمر بيدي، لقدّمت

Twitter: @ketab_n

خدمة كبيرة للاثنتين، وذلك بوضع حدٍّ لتلك العلاقة المهلكة شرّ مهلك القائمة بينهما، ولكن لماذا أنزعج؟

كانت هاتان الاثنتان، الصديقتان الحميمتان في المدرسة الثانويّة، تلتقيان بكلّ تأكيد مرّة واحدة في كلّ أسبوعين لتناول طعام العشاء، في نوع واحد من المطاعم. وبعد خطوبتنا، لم تستغرق آيشين وقتًا طويلاً لتقنع نفسها أوّلاً، ولتقنعني أنا ثانيًا، أنّه يُستحسن بي أن أنضمّ إلى هذا الموعد غير الجذّاب. وبدأت أثيل تأتي برفاقها إلى هذه الوجبات، في محاولة منها كي لا ترجِّح كفّة هذا التوازن. وقبل مرور وقت طويل، كان هؤلاء الرفاق يضفون شرفًا على مائدتنا، واحدًا تلو الآخر، من دون تناغم أو تشابه بينهم، شأنهم شأن الأرقام الفائزة في يانصيب. وقبل أن نجد الفرصة للتعرُّف إلى رقم واحد، نلاحظ أنّ آخر قد حلّ محلّه. في تلك المرحلة، كانت غراميّات أثيل تتّسم بعدم اكتراث وبسرعة زوال، على نحو جعلنا لا نشعر بضرورة إخفاء دهشتنا عندما ينجح أحد العشّاق في حضور ثلاثة مواعيد متتالية. كنّا نتفحَّص أمثال هؤلاء الرفاق الاستثنائيين طوال وقت تناول وجبة الطعام بإعجاب ممزوج بالرهبة. في ذلك الاستعراض الطويل للعشّاق الذي امتدّ ثلاثة أعوام ونصف العام، عرّفتنا أثيل إلى رفاق على اختلاف مشاربهم وأحجامهم. وإذا كان ثمّة عامل مشترك بين كلّ هؤلاء الرجال، فلا بدّ أن يكون متمثِّلاً في عجزهم عن إنهاء ما بدأوا به. فكلّهم شديد الحساسيّة تجاه كلّ ما هو تقليدي، مهووس بأنّه أصيل، وذلك بالإقدام على أعمال لم يُقدم عليها أحد من قبل، ولديه مشروعات طموحة تخلّى عنها في منتصف الطريق لسبب أو لآخر. وتشاء المصادفات أن يكونوا متحمِّسين تحمُّسًا هائلاً بشأن مختلف المشاريع، وإن كانت المشكلة الرئيسة متمثِّلة في أنّهم كانوا عاجزين عن استكمالها بعد مرحلة البداية. وكما هو شأن الحيوان البحريّ الرخويّ المعروف بالاسم بِـ: بلح البحر، وهو في صدفه، فقد

Twitter: @ketab_n

توقّفوا في مشاريعهم التي لم تكتمل بعد، منتظرين من يأتي وينتشلهم من أيديهم كي يستمرُّوا فيها. في تلك المرحلة بالذات، ظهرت للعيان أثيل المرأة، إذْ غاصت وجذبتهم على غير هدًى بأظافر أصابعها الطويلة المطليّة بطلاء غير سائغ فنِّيًا أو جماليًّا. كانت ترمي ما لا يروقها في الماء. واسطنبول، في كلّ الأحوال، ميدان كبير لِ «بلح البحر»، وكانت هي صيّادًا ممتازًا لهذا البلح.

فعلى سبيل المثال، ثمّة كاتب سيناريو شابّ، متوتِّر الأعصاب، يصغر أثيل سنًّا بما لا يقلّ عن عشرة أعوام، وكان يشتغل في إعداد سيناريو، أكّد أنّه يجب إرساله إلى منتجين أوروبيّين، لأنّه يعتقد اعتقادًا جازمًا أنّ المنتجين في تركيا لا يستحقّونه. وزعم أنّ السيناريو جاهز لو تمكَّن من اتّخاذ قرار بشأن الطريقة التي يضع فيها نهاية للفيلم. تناولنا العشاء وإيّاه مرّة واحدة. وفي حين راحت آيشين تشكو وتتذمَّر، وأثيل تضحك ضحكة بلهاء، جمعنا رأسينا معًا ووضعنا ـ ونحن نكرع العرق المثلَّج ونأكل المقبّلات الباردة أوّلاً فالحارّة من بعدها، ومن المقبّلات الحارّة إلى الطبق الرئيس ومنه إلى الحلويات والقهوة ـ ما مجموعه أربع نهايات مختلفة لفيلمه، وكنّا نفتخر بها كلّها، ثم هناك عشّاق آخرون: مصوِّر يغذِّي الحقد والضغينة على مديريّ الصحف التي كان يعمل بها، وعلى عمّالها، وحتى على القرّاء؛ ومعلنٌ متشامخ لا يجد ضررًا في الادّعاء بأنّ كلّ شخص يحتفظ بتلفاز في بيته إنّما هو مغفَّل وأحمق؛ وممثِّل هاوٍ لم يعتقد أنّ ثمّة مسرحيّة واحدة قدّمت على خشبة المسرح في تركيا أصابت النجاح، ولهذا السبب تنقَّل من باب إلى آخر ينشد إعانة ماليّة لتأسيس فرقة مسرحيّة خاصّة به؛ وهناك كاتب ساخر، بذيء اللسان، سليطه، اشتهر بترك كلّ شيء بدأه من دون أن يكمله، وبهذا عجّل في إفلاس كلّ الصحف التي ارتبط بها؛ وثمّة طبيب نفساني مدمن على تعاطي المشروبات الكحوليّة، وكان مرضاه كلّ مثقّفي المدينة الذي

Twitter: @ketab_n

دأبوا على مراجعته، وإن كان كلّ واحد منهم يعلم علم اليقين أنّه لا يستطيع أن يمسك لسانه عندما يمثِّل، فيكشف بذلك عن أعمق أسرار مرضاه. . . كنت أحيانًا لا أستطيع أن أحول بيني وبين التفكير بأنّ أثيل كانت تأتي بهؤلاء الرجال لتناول الطعام لأجل إغاظة آيشين. وإذا كان الأمر كذلك، فقد نجحت حتمًا. وعلى الرّغم من أنّ آيشين لم تفكِّر قطّ بإنهاء علاقاتها بهم لهذا السبب، فإنّها كانت دومًا تحمل وجهة نظر مخيفة عن الحياة التي تسلكها أثيل. كانت تعرف أنّني لم أكن أستحسن أسلوب أثيل في الحياة أيضًا، إلّا أنّ ما لا تعرفه زوجتي هو أنّ استهجان عادات امرأة ما وسلوكها لم يكن يمثِّل عائقًا أمام مضاجعتها.

الحقّ، أنّ أثيل كانت تشكِّل خطرًا على كلّ عشّاقها. فكانت تمدّ لهم يد العون، وتعطيهم المال سخيًّا، مشعلة في الوقت نفسه شرارة «لن أكون الرجل الذي أنا هو عليه الآن لو اختلفت الظروف»، التي من شأنها أن تحرق الأكواخ الخشبيّة لشخصيّاتها. وإذا ما التقى هؤلاء الرجال ــ الذين أخفقوا لسبب أو لآخر في تحقيق أهدافهم، ولكنَّهم تقبَّلوا كلًّا من أنفسهم وقدرهم بوصفه مكتوبًا عليهم ــ أثيل مصادفة، في منعطف غير متوقّع من منعطفات حياتهم وانتفخوا بالمال والتملُّق، فإنَّ من شأنهم أن يتخلّوا عن مشاريعهم المزمنة ويسعوا وراء مشاريع أخرى تنمّ عن جشع أكبر. وسرعان ما تعمَّدت أثيل من بعد ذلك التخلِّي عنهم وهجرهم من دون سابق إنذار، وهو ما فعلته تمامًا قبل سنوات بضيوفها في البيت ــ المعبد. ومثلما لم تكن تحبّ نفسها، فإنَّها لم تحبّ الرجال الذين حوَّلتهم إلى عشَّاق لها أيضًا. . .

كان عازفًا على آلة الناي. في الأيّام التي انقسمت فيها الطريقة المولويّة الرئيسة، بخصوص الجدل القائل: هل يجوز للدراويش من الذكور والإناث الرقص معًا؟ فقد اتّخذ موقفًا معارضًا من كِلَا الجانبين، وانعزل في صدفته مكرّسًا منذ تلك اللحظة نصف يومه لائذًا بالنوم،

Twitter: @ketab_n

والنصف الآخر هاربًا من أحلامه. أنا، شخصيًّا، ليست لديّ أيّ فكرة كيف التقته أثيل وفي أيّ وقت من أوقات النهار، ولكنّ الشيء الوحيد الذي أعرفه حقًّا هو أنّها غطّست يديها في الماء مجدَّدًا لكي تجذب حيوانًا رخويًّا آخر، وما إن فتحت الصدفة لتنظر داخلها، حتى وجدت ما لم تكن تتوقَّعه إلَّا قليلاً: لؤلؤة خجولة! ولبثت تمنحه بعض الوقت ما كانت قد منحته للآخرين: مساعدةً ماليّة واهتمامًا مغرمًا وحبًّا خانقًا... ولكن على العكس من الآخرين، لم يطرأ تغيير واضح في طبيعة هذا المولويّ الكبير الأنف، الشارد الذهن، الذي أثقل النعاس جفنيه. اليوم هو أطول مدّة زمنيّة في تقويم هذا الرجل، وكلّما حاولت أثيل أن تخطّط شيئًا ما، كالذهاب في نزهة بعد أسبوع أو الزواج في الربيع مثلاً، فإنَّ الردّ الوحيد الذي كانت تتلقّاه من عشيقها إنّما هو: «دعينا نشاهد ذلك اليوم أوّلاً عندما يحلّ علينا». كانت وجهة نظره تُفيد بأنّ المرء لا يمكنه الوصول إلى الأيّام، ناهيك عن أن يحطّ عليها، بل إنّ الأيّام هي التي تأتي إلى الناس، وعندما تأتي حقًّا، فإنّها تأتي بشيء ما دومًا معها. كان أكثر الرجال افتقارًا إلى الطموح والتفكير والاهتمام بالمستقبل، وكان أستاذ الطريقة المضادّة للطريقة الوحيدة التي عرفتها في حياتي. ممّا لا ريب فيه أنّ من شأنه أن يحتلّ مكاني على العرش في حرم أثيل، لو لم يُنتزعْ من عندنا بغتة.

ـ أنا وأنت نقف على ساحل البحر، ندلي بأرجلنا في الماء يا أثيل.

أنتِ تقولين: هيّا بنا نسبح معًا حتى الموجة الخامسة والخمسين.

أنظر كم هي جذّابة تلك الموجة! وأسألك: أيّ موجة؟ ولكن قبل أن أتمكّن من إنهاء سؤالي، تغيّر الموجة التي أشرت إليها مكانها.

أنظري، إنّها لم تعد في المكان الذي قلتِ إنّها فيه! إنّها ليست الموجة الخامسة والخمسين، بل ربّما الموجة الخامسة والثلاثين. ها هي تقترب. إنّها تتحرَّك نحونا وحدها. وبينما هي تقترب، تأتي حاملة أشياء كثيرة معها. البحر كما هو، فلم يعد أمامكِ سوى

Twitter: @ketab_n

خيارين يا أثيل: نسيان موضوع الموج والغوص في البحر حتى تصبحي قطرة فيه، أو الجلوس قرب الساحل والانتظار فحسب. راقبي الموج وهو يلطم الشاطئ ويتحطَّم، فتتحوَّل كلّ موجة إلى قطرة أمام عينيك. يعيش المرء الحياة وفق إحدى الطريقتين إن كان أهلاً لها أو جديرًا بها: إمّا أن تكوني غير مرئيّة داخل الحياة، أو أن تجعلي الحياة غير مرئيّة داخلك.

كم أنتِ مشينة يا أثيل المسكينة! لا مناصّ من أنّها لعنة كلّ عشّاقها الذين ضيّعتهم. وبينما هي تصغي في حيرة وذهول إلى كلمات المولويّ المدهشة، رفستني من تحت الطاولة، ورشقتني بنظرات تنمُّ عن قنوط متوسِّلة أن أمدَّ لها يد العون. صحيح أنّها قادرة على المناورة والالتفاف من حول كلّ مداخل ومخارج اللغة اليوميّة الاعتياديّة، إلّا أنّها تبدو عديمة الخبرة في هذه التجريدات الروحيّة، ولا حول لها ولا قوّة بوصفها طفلة. بعد برهة وجيزة، أنشأت تلوم نفسها. كان ينبغي لها أن تعرف هذه اللغة. كيف تابت الآن، وشمخت بأنفها بإزاء محاولات جدَّتها في تعليمها أسس الصوفيّة اليهوديّة. وبدأت تعوّض عن هذا النقص بالقراءة في عصبيّة، والتهام الكتب التي أُعطيت لها عندما كانت طفلة أوّلاً، ثم بقيّة الكتب لاحقًا. كان اهتمامها المتزايد بتراث الكابالا(١) جسرًا، راودها الأمل في

---

(١) الكابالا أو القبالة cabbala، والوارد في النصّ الإنكليزي الذي نترجم عنه Kabala: نظام يهوديّ صوفيّ في اللاهوت والميتافيزيقا يرجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وإن كانت جذور هذا النظام واردة في تعاليم الفلسفة الأفلاطونيّة المحدثة والفيثاغورسيّة المحدثة، وكانت تهدف إلى إظهار ما هو نهائيّ ولانهائيّ الناجم عن الوجود المطلق. وقد عولجت، وفق الكابالا، نصوص من العهد القديم بوصفها نصوصًا رمزيّة، اعتمد تفسيرها على أهمّيّة الأعداد. أهمّ كتاب في هذا المعتقد هو كتاب Zohar الذي يرجع إلى القرن الثالث عشر، وإنْ كان يعتمد على موادّ سابقة لذلك التاريخ، وبخاصّة فلسفة فيلون عن المفارقة الإلٰهيّة التي صارت فيما بعد من سمات عقيدة الكابالا. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أن يقودها إلى كلّ تلك الأشياء التي دأب حبيبها عازف الناي على الهذر بها. لم يكن من شأنها أن تذهب هنا وهناك من دون كتابين على الأقلّ في متناول اليد، بضمنها على وجه التوكيد نسخة من المثنويّ. وكانت غالبًا ما تتردَّد على بائع كتب مصاب بالخرف في منطقة بايزيد، فتفاوضه من وراء النضد همسًا، وكأنّها تفتِّش عن مخطوطة مبهمة مكتوبة بخطّ اليد. وكانت في كلّ مرّة تخرج فيها من المكتبة محمَّلة بأكياس مملوءة بالكتب. وكان سماحها على نحو جادّ منح قلبها أن باتت مستعدّة إلى الذهاب إلى أيّ مكان، وأن تستقرّ في أيّ منطقة يريدها عشيقها. وعلى حين بغتة، لمحت أثيل الغراب القبيح أثناء انزلاقها في السماء سليمة الطويّة، شيئًا لامعًا على الأرض، فأرادت أن تمسك به، وتأخذه بعيدًا وتجعله ملكًا لها. لماذا لم يتجوَّلوا طوال عامين، مثلاً، في أنحاء أكثر المدن التصاقًا بالصوفيّة، كالقدس والتبت ودلهي، أو يذهبوا بحثًا عن ضريح شمس[١] المفقود؟ لقد رأيت ناسًا تشوّش فكرهم، لكنَّ أثيل فقدت هويّتها حقًّا. ومع هذا، ومهما قرأتْ، لم تستطع إقناع محبوبها بالقيام بهذه الرحلات الغريبة، إذْ كان المولويّ الهادئ ميّالاً إلى فكرة القيام برحلة قدر ميل القطّ إلى الاستحمام.

لمّا كانت الأمور كذلك، تبيّن أنّ هذا الشابّ غير الراغب في

(١) شمس تبريز، أو شمس التبريزي هو شمس الدين محمّد بن علي بن ملك داؤود التبريزي، كتب عنه جلال الدين الرومي ديوانه المعروف «كلّيّات شمس تبريز» المشتمل على عدّة آلاف بيت مشحونة بمدح شمس الدين التبريزي. لم يكن من أهل العلم كما يستفاد من كتب تراجم العارفين. وكان في سيرته وكلامه ذا خشونة ومرارة، يذكِّرنا من هذه الناحية، ومن نواح أخرى، بسقراط الحكيم في الهيام والفقر والثورة والحرارة والصراحة في القول واللهجة النابية في احتقاره العلوم الصوريّة والشؤون الظاهريّة ومخالفة عادات أهل الظاهر ورسومهم والاطمئنان بقوّة النفس وقدرة الجاذبيّة النفسيّة والموت غير الطبيعي وغيره، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الذهاب إلى أيّ مكان، كان متعجِّلاً جدًّا في تغيير عوالمه. فقبل أسبوع من حلول عشيّة رأس السنة من ذلك العام، كان واحدًا من أربع ضحايا استهدفتهم قنبلة انفجرت في إحدى حاويات النفايات في شارع الاستقلال، وهو انفجار لم تعلن أيّ منظَّمة ثوريّة مسؤوليّتها عنه.

أنا، شخصيًّا، لا أعتقد أنّ أثيل ذرفت الكثير من الدمع على أيّ شخص، ولا حتى على أمّها وأبيها، باستثناء البكاء ربّما على أخيها الأكبر الذي فقدته منتحرًا وهي في سنّ الرابعة عشرة.. كان الشخص الوحيد الذي يحتمل أن تكون قدْ أحبَّته حبًّا جمًّا...

تزوّجتُ بآيشين بعد شهرين ونصف الشهر، وحضرت أثيل مراسم الزفاف وحدها.

قبل يوم واحد من حلول موعد الزفاف، كانت مستلقية وهي عارية تمامًا. كان مكشوفًا أمام أنظاري كلّ جسدها البدين، الضخم جدًّا، الشبيه بجسد محارب جبّار. عندما تحوَّل جسدها إلى كتلة من لحم أبيض، كانت وحمة الولادة المحمرّة والمكسوّة بالشعر منتشرة من أسفل عنقها إلى أعلى نهديها على نحو واضح جدًّا. كان في وسعها أن تلجأ إلى إزالتها إنْ شاءت، مثلما كان في وسعها أن تتخلّص من شحوم جسدها وتصلح من شأن أنفها، أو أن تشذّب أو تشدّ بعض أجزاء جسمها كما تفعل الكثيرات من النساء. إنّ النساء القبيحات مثل أثيل، والثريّات أيضًا، ينفقن كلّ ما يملكن على عمليّات التجميل والمساحيق وارتياد العيادات من أجل أن يصبحن جميلات. أمّا أثيل، فقد وضعت ثروتها قاطبة في خدمة قبحها. فهي لم تعمد إلى مقاومة قبحها فحسب، بل لم تهتمّ أصلاً بتجميله ولا حتى إخفائه. كانت أبواب خزانة ثيابها، التي تمتدّ على جدارين كاملين من جدران غرفة نومها، مغطّاة على امتدادها بالمرايا. وكان من دأبها أن تظلّ في الفراش بعد ممارسة الجنس. تتمطّى وتتيه في التطلّع إلى نفسها. كانت أحيانًا تسرح ببصرها

Twitter: @ketab_n

إلى صورتها المنعكسة برغبة شديدة، تجعلني أتساءل عمّا تراه فيها. وبينما هي تكشف عن جسدها، كانت لا تتصرَّف تصرُّف امرأة ترغب في أن يستحوذ عليها رجل، وإنّما تصرُّف رجل يرغب في ما ينظر إليه. يبدو أنّ الإعجاب بها لم يكن يعني أيّ شيء في رأيها. وكان هدفها بكلّ بساطة متمثِّلاً في الكشف عن جسدِها كي تثير الوجل والحفيظة. ومع هذا، فبينما كان ضحايا الوميض الضوئيّ المتقطِّع يهربون وهم يصرخون، فإنَّ ضحايا أثيل ظلُّوا يرجعون إلى غرفة نومها بأقدامهم. ثمّة استثناءات على وجه التأكيد: وكان عازف الناي المولويّ أحدهم، وكذلك أنا.

كانت توضح بلباقة:

ـ آه، يا قطعة الحلوى. إنّك ترتكب هفوة كبيرة، وسوف تندم عليها. لقد وافقت وأنا متجهِّمة الوجه على حقيقة، مفادها أنّ الحياة من الآن فصاعدًا لن تأتي إليّ بمن هو أفضل منك، وهنا مكمن مشكلتك. إنّك لم تدرك بعد أنّني أفضل ما يمكنك أن تحصل عليه. حسنًا، ما الذي يمكن عمله باستثناء انتظارك حتى ترى الحقيقة؟ واصل طوفانك وتنقّلك، وداعب بعض المؤخّرات الأخرى، واسقط مرّتين أخريين. وفي نهاية المطاف، سوف تتوقّف وتعترف أنّني كنت على حقّ منذ البداية. عاجلاً أم آجلاً، سوف تضرب رأسك بالجدار، وتقول نادبًا: لماذا لم أتزوّج بأثيل يومئذٍ؟ أنظر. لقد سجّلت هذا هنا.

كشَّرت عن أسنانها، وهي ترسم خطًّا رفيعًا على الطاولة الجانبيّة، فانبعث منها صوت ظفر أصبعها الطويل المطليّ بطلاء أزرق كوبالتي برّاق، ووضعت سيكارة في ماسك السكائر المصنوع من خشب الياسمين الذي كانت تضيّعه على الدوام وتعوّض عنه بواحد آخر، وانتظرت كي أشعلها لها.

Twitter: @ketab_n

ـ لماذا؟ هل لأنّكِ أغنى امرأة أقابلها؟

لعلّي لم أستطع معرفة مدى غناها، حتى وإن كان لديّ جردٌ بممتلكاتها الدنيويّة. وعلى الرّغم من أنّ الأغنياء لا يستطيعون معرفة ذلك، إلّا أنّ ثمّة عتبة في ذهن من هم غير أثرياء تثبت فيها الثروة. وما أن يتمّ تجاوز تلك العتبة، بغض النظر عن مدى ذلك التجاوز، فمن شأن تلك الثروة أن تظلّ بالمقدار نفسه: مقدارًا كبيرًا! تمامًا مثلما تثبت الحكايات الشعبيّة الخاصّة بالذين لا يملكون شروى نقير ثروة تاجر في قرن معزاة خياليّ مليء بالثمار، يتّخذ رمزًا للوفرة بالعدد ١٠٠٠. ولو سألتني عن ثروة أثيل لقلت إنّها تمتلك «ألف» ملكيّة.

ـ لا يا قطعة الحلوى! ليس لأنّني أغنى امرأة سوف تقابلها، بل لأنّني امرأة سيّئة. صحيح أنّني لست بأسوأ منك، لكن عندما يتعلّق الأمر بالسوء، لا يمكن أن تكون ثمّة كمّيّة. ما رأيك؟ ليس الشرّ دقيقًا يمكن قياسه بالكوب. دعني أوضح ما يأتي: أنا وأنت من النوع نفسه، غير أنّ آيشين المسكينة ليست واحدة منّا. حسنًا، قد لا تكون امرأة طيّبة، ولكنّها ليست سيّئة أيضًا. إنّها في الأعمّ الأغلب امرأة شابّة متقلّبة الأطوار، ذات نزوات؛ الابنة الوحيدة في أسرة من عِليَة القوم، مخلصة في معاملتها وأمينة أكثر ممّا ينبغي، وأحيانًا، وهو ما يتوجّب عليّ الاعتراف به، مملّة أكثر من اللزوم. غير أنّها ليست سيّئة مؤكّدًا. هل تعرف ما الشيء المحزن فيها؟ إنّها تحاول أن تدافع عن نفسها عندما تعاملها معاملة خشنة. بداية، تجدها تنافسك منافسة منطقيّة. تجهد نفسها كي تجعل من الموضوع قضيّة. بيد أنّ الإحباط يستبدّ بها فتنفجر باكية، وينتهي بها الأمر إلى الاعتقاد أنّ ظلمًا كبيرًا حاق بها؛ وكلّما جعلتها تعيسة وهشّمت اعتدادها بنفسها، فإنّها لن تدرك أنّ القضيّة موضوع البحث ليست هي القضيّة التي تجادل فيها. أنت تعرف جيّدًا مثلما أعرف أنّ آيشين هي أيضًا واحدة من هذه الأصناف،

Twitter: @ketab_n

الصنف التوّاق للانحناء أمام الله من دون معرفة الشيطان أوّلاً . . .

كانت أثيل تحبّ تلك الملاحظة، وتتفوّه بها باستمرار. راودني الشكّ في أنّها سرقتها من أحد رجالها الأذكياء ـ ربّما من عازف الناي ـ إلّا أنّها كانت تناسبها تمامًا. التوّاقون للانحناء أمام الله من دون معرفة الشيطان أوّلاً، الذين لم يدر في خَلَدهم سؤال عن مصدر عاصفة الدمار التي تحطّم الأغصان المحمَّلة بالفاكهة، وتدمِّر مفارش الزهور في الحديقة التي ولدوا فيها لحسن الحظّ، فلا ينظرون نظرة خاطفة إلى العالم الخارجي، كانوا كلّهم واثقين ثقة عمياء بأنّهم عاشوا في أكثر الأماكن الصالحة للسكن على وجه الأرض. ولم يساورهم القلق مرّة واحدة بشأن عدد الغرف أو المنافذ في البيت الذي يعيشون فيه، ولم يجدوا ضرورة في الهبوط إلى أسفل، وفتح الباب الخشبيّ المتعفِّن في الدور الأرضي حيث حجرة حفظ الأطعمة، على الرّغم من الضوضاء التي كانت تصكّ أسماعهم ليل نهار. إنّهم نماذج بشريّة تعتقد أنّها على صواب، بسبب الحقوق الممنوحة لهم أساسًا . . . لم تكن أثيل على خطأ. أمّا آيشين فكانت واحدة من أولئك المخطئات.

إنّ ممّا يثير الكدر ويقبض الصدر هو أنّني تذكّرت مرارًا هذه الكلمات أثناء زواجي، بيد أنّني لم أعترف بها أمام أثيل كي لا أشبع غرورها الذي كان يتسامى إلى الذرى. في الليلة الفائتة، وبينما كنّا نحتسي الشراب معًا، لم أتنبَّه بما يكفي، فزلّ لساني بهذا الاعتراف. استمعت إليّ بلذّة سافرة. وعندما نهضت من مجلسها، رنوت إلى عجيزتها العظيمة، وهي تتأرجح وتتمايل في طريقها إلى الحمّام. كانت تملك أقبح عجيزة تقع عليها عيناي. لا يمكن بأيّ حال من الأحوال الإمساك بها. لا تشبه أيّ شكل من الأشكال. كانت عجيزة أثيل اللزجة والريّانة والهلاميّة رخوة، وليست صلبة. إذا ما أطلقت العنان لها فقد تجفّ. سبق لي أن رأيت من العجيزات ما هو أسمن منها بكثير، بل

Twitter: @ketab_n

ومفتقرة إلى التناسق والانسجام أيضًا، فيها من التكتُّلات الدهنيّة والبثور والجروح والشعر النامي نموًّا إمّا غير ضروري أو في أماكن غير مناسبة. لكن كلّها كانت تتمتّع بشيء ما، شيء واحد يثيرني جنسيًّا. أمّا عجيزة أثيل، فلم يكن فيها ما يثيرني، لا شيء أبدًا...

عندما رجعت أثيل إلى الطاولة، بدت لحسن الحظّ، وقد تغلّبت على البهجة التي كان سببها اعترافي، إذْ إنّها سرعان ما غاصت من جديد في أكثر الموضوعات المثيرة لاهتمامها في هذه الأيّام: مشروع الجامعة. وأخيرًا، أطلقت المعلومة التي أبقتها طوال هذا الوقت مخفيّة عنّي. فقد جرى تقديم عرض لآيشين أيضًا، ووافقت عليه. وعلى الرّغم من أنّها كانت تعلم علم اليقين أنّني، حتى لو كنت في أشدّ الحاجة إلى المال، فلا يمكنني أن أعمل في المكان نفسه الذي تعمل فيه آيشين، إلّا أنّها استمرَّت في الإلحاح، وهي تنظر إليَّ نظرة مباشرة:

ـ هيّا يا قطعة الحلوى! لم لا تصدّقني مرّة واحدة في حياتك؟ انضمّ إلينا. تعال إلى الجامعة. في وسعك أن تتفلسف قدر ما تشاء. ولن يتدخَّل أحد في شأنك. نحن على استعداد لكي نخدم عقلك أيّها الأستاذ.

أثارني ذلك الربط المنافي للآداب العامّة الذي اتّخذته كلمة «عقل» في فم المرأة. وبقدر ما يبدو شاذًّا وغريبًا عن المألوف أنّني كنت حتى أثناء زواجي بآيشين أضاجع أثيل بانتظام، إلّا أنّنا لم نمارس الجنس منذ طلاقي. لا أتذكّر لماذا افترقنا عند عودتنا في الليلة الماضية، بل لا أعرف أيضًا كيف وصلت البيت. ربّما مارست أثيل لعبة، فغيَّرت رأيها في اللحظة الأخيرة، إلّا أنّني لا أظنّ ذلك، لأنّه ليس أسلوبها. في أفضل الأحوال، لا بدّ أنّها رأتني عاجزًا عن مضاجعتها، فقرّرت أن توصلني إلى مكان قريب من البيت. هذا هو الأقرب إلى سلوك أثيل.

مددت ساقيَّ إلى حاجز الشرفة وأشعلت سيكارة أخرى. ظلّت البقّة

Twitter: @ketab_n

بلون الآجرّ تحت قدمي. كان لديها فرصة سانحة للهروب، ولكنَّها لم تهرب. لاحظتُ امرأة هزيلة القوام، داكنة البشرة ترمي أكياس الزبالة على الركام أمام سور الحديقة. في الوقت نفسه، هدر صوت وأرغى وأزبد من مكان ما في الشقق السفليّة. فتسمّرت المرأة في مكانها مدّة ثانيتين، ثم هرعت شاردة الذهن ومن غير اكتراث وكأنّها تحلم، وراحت تعدو مبتعدة. يثير هذا المكان حفيظتي. لا مناصّ لي من أن أغادره بطريقة أو بأخرى. ربّما أشبّه قصر الحلوى بنفسي، شقّة ساخطة ومستاءة فقدت الرفاهيّة التي اعتادت عليها يومًا ما. إنّني مضطرّ إلى الانتقال في يوم من الأيّام إلى مكان آخر، بيد أنّني لا أملك المال لذلك. فطوال مدّة زواجي، حافظت أنا وآيشين على تقسيم العمل، وهو عبث لا أدركه إلَّا الآن. ولمّا كان المنزل الذي عشنا فيه يعود لوالديها، وبالتالي لها، فإنّني كنت أتولّى دفع بقيّة النفقات. كم أنا نزق، مشتّت الفكر وذو نزوات! كما أنّني لا أملك أيّ مبلغ مدَّخر من المال «من أيّ عمل جانبي». وعندما كنت أواجه نفقات غير متوقّعة ومضطرًّا إلى دفع الإيجار، كان مرتّبي يتضاءل تضاؤلاً مضحكًا. ممّا لا ريب فيه أنّني أستطيع أن أقترض بعض المال من أثيل، لكن هذا ما لن أفعله، لأنّ مثل هذه الخطوة سوف تزعزع النسق القائم في علاقتنا. يُستحسن بي أن أبدأ من فوري بجني بعض المال.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٦
متين جتين جفيز وزوجته ناديا

ـ ليس هذا من شأنك يا لوريتا. أقول لك ليس من شأنك.

فجأرت المرأة ذات الأقحوان، وهي تضيّق عينيها في حقد وضغينة:

ـ أنت مخطئة يا حبيبتي، فكلّ ما يخصُّه يخصُّني أنا أيضًا.

كرّرت زوجته ناديا في محاولة للفظ الكلمات بلغة تركيّة، مثلما سمعتها تمامًا:

ـ كلّ ما يخصُّه يخصُّني أنا أيضًا.

كانت الدراما العائليّة التي تشاهدها بعنوان «زهرة الحبّ». وكانت تُذاع في عصر كلّ يوم من أيّام الأسبوع قبيل نشرة الأخبار المسائيّة، ولكن عندما تبيّن أنّ فرصها ضئيلة في أن تصبح على رأس قائمة المسلسلات، جرى تغيير موعد عرضها بلمح البصر، وحلَّت محلّها دراما أخرى، أكثر مباهاة. حظيت هذه الدراما، بخلاف سابقتها، على نجاح منقطع النظير، وجذبت اهتمامًا إعلاميًّا كبيرًا منذ الأسبوع الأوّل، ودار لغط كبير من حولها، وبخاصّة عندما سافر أبطال المسلسل الرئيسون جوًّا إلى اسطنبول لتوقيع صور لمعجبيهم بعد مؤتمر صحافي مبهرج. بيد أنّ زوجته ناديا لم تكن تهمّها هذه الدراما، ولا أيّ دراما

Twitter: @ketab_n

أخرى. كلّ ما كان يهمّها هو «زهرة الحب»، فكانت تتّخذ مجلسها في الساعة نفسها من عصر كلّ يوم على الديوان البنفسجي والمطرّز تطريزًا خمريًا، والذي طالما دأبت على تأجيل إعادة تنجيده. وتشاهد المسلسل وهي منشغلة على الدوام بعمل آخر. وبحسب الأيّام، فقد كانت تضع في حضنها صينيّة مملوءة بالرزّ أو الفول، تنزع عنه قشوره أو تتطلّع إلى صور قديمة في ألبومات صور قديمة، أو تحاول أن تتسلّى بالكلمات المتقاطعة بالرّغم من قلّة مفرداتها التركيّة، أو تُعيد قراءة الرسائل المرسلة إليها من عمّة الأب أو تكتب لها ردًّا. ولكن غالبًا ما كانت الصينيّة تصبح ثقيلة، والكلمات المتقاطعة صعبة متعذّرة على الحلّ، وتشابه الصور ورتابة الرسائل محبطة. في مثل هذه الأوقات، كانت زوجته ناديا تهرع إلى المطبخ، وتأتي بعدد من حبّات البطاطس وتنحت منها مصابيح أخرى أثناء مشاهدتها الدراما. كان المنزل مملوءًا بمثل هذه المصابيح، إلّا أنّها لم تستطع منع نفسها من صنع مصابيح جديدة. على أيّ حال، يمكن للمرء أن يحتاج إلى مصابيح بطاطس في أيِّ وقت، نظرًا لانقطاع التيّار الكهربائي المتكرِّر في قصر الحلوى.

أمّا بخصوص عدم قدرتها على مشاهدة «زهرة الحبّ» من دون أن تفعل شيئًا آخر في الوقت نفسه. فهناك سببان: الأوّل، هو أنّها وجدت الدراما تُصيب العقل بالخدر على نحو لا يمكنها تحمُّله من دون أن يصرف انتباهها عنه. والثاني، عندما تُبقي نفسها مشغولة بعمل آخر في الوقت نفسه، فإنّ الانزعاج الخفيّ كونها أصبحت مشاهدة مبتذلة لدراما مبتذلة يميل إلى التضاؤل. غير أنّ الشيء الأهمّ هو أنّها ببقائها منشغلة بأشياء أخرى، يمكنها أن تثبت لنفسها مدى استخفافها بالدراما من جهة، والممثّلة المؤدِّية دور البطولة فيها، وهي لوريتا، من جهة ثانية.

كانت دراما «زهرة الحبّ» تُعرض شأنها شأن كلّ المسلسلات الدراميّة خلال أيّام الأسبوع فقط. لكن، على الرّغم من أنّ كلّ

Twitter: @ketab_n

المسلسلات الدراميّة كانت باستمرار أمام أنظار المشاهدين، من خلال مقاطع تعرض عن الحلقات المقبلة والأقاويل المتداولة على ألسنة الناس حول حياة الممثِّلين الحقيقيّة والتي تحتشد بها الصحافة، فإنَّ سطرًا واحدًا منها ـ خيرًا أم شرًّا ـ لم يظهر حتى اللحظة، لا عن ممثِّلي «زهرة الحبّ» عمومًا ولا عن لوريتا بخاصّة. ولم تكن الصحف وحدها هي التي بقيت غير مكترثة بهذه القضيّة، بل إنّ فردًا واحدًا من بين المعارف الذين تعرّفت إليهم زوجته ناديا في اسطنبول لم يسمع بالبرنامج، ناهيك عن تحوُّله إلى مشاهد منتظم. وبدت البلاد كلّها، وقد تجاهلت تجاهلاً جماعيًّا «زهرة الحبّ». الحقّ، أنّ عدم أخذ أيّ شخص هذه الدراما على محمل الجدّ، لم يكن بأيِّ حال من الأحوال ليبعث السرور في نفس زوجته ناديا مع كلّ ما سبق، إذْ لو أُريد للقدْح أو القذف أن يحظى بأيّ قيمة مهما كانت، فإنَّ موضوع القدْح ينبغي على الأقلّ أن يكون ذا قيمة لبعض الجمهور في المقام الأوّل. وفي ظلّ هذه الظروف، لم يكن الحظّ من قدر لوريتا ما يبعث على الزهو أو السرور. وهكذا، احتفظت زوجته ناديا بأفكارها لنفسها، ولم يعرف أحد أيّ شيء عن هوسها بهذه الدراما... ولا حتى زوجها.. على الأقلّ هو.

لمّا كانت الأمور كذلك، فإنَّ عدم ذكر الصحف أيّ شيء عن الحلقات المقبلة من مسلسل «زهرة الحبّ»، لم يكن بالشيء المريع في نظر زوجته ناديا، إذْ ليس ثمّة الشيء الكثير كي تدسّ أنفها فيه أو تستطلع أخباره ما دام أنّ كلّ حدث مقبل، بما في ذلك الأسرار اللازمة كلّ اللزوم، كان يجري الكشف عنها في الحلقات الأولى. لهذا السبب، ربّما لم تكن الأحجية الحقيقيّة متمثِّلة في محاولة معرفة شكل النهاية قدر ما هي متمثِّلة في معرفة كيفيّة الوصول إلى النهاية المعروفة أصلاً. وإذا كان هناك أحد ما يزال يعرف الأسرار المحبوكة في الدراما الاجتماعيّة، فإنَّ ذلك ليس هو المشاهد بل لوريتا نفسها. وفي الحريق الذي اندلع في

Twitter: @ketab_n

الحلقة الخامسة، لم تفقد منزلها الذي كانت تقطن فيه ولقبها بوصفها سيِّدة فحسب، وإنّما فقدت ذاكرتها أيضًا. ومنذ ذلك الوقت، أجهدت نفسها في تذكُّر هويّتها، وكانت تخطئ في امرأة مجهولة فتظنُّها والدتها. ولم تستطع أن تدرك أنّ الطبيب الذي ظلَّت تشاهد صوره منشورة في الصحف كان يومًا ما، وما يزال حقًّا، زوجها. ولمّا تدهورت حالتها في الحلقات المقبلة، بات لزامًا الآن إدخالها إلى مصحّة ـ وهي خطورة قدّر لها أن تزيد في تعقيد الأمور أكثر من ذي قبل في ضوء حقيقة أنّ طبيبها ـ الزوج / زوجها ـ الطبيب يعمل هناك مصادفة.

كانت زوجته ناديا مولعة من صميم فؤادها بأن تكون مطّلعة على كلّ هذه التفاصيل، التي كانت ما تزال لغزًا في نظر لوريتا نفسها. كلّما انعطفت لوريتا انعطافة غير صحيحة مخفقة في ملاحظة الحقيقة الكامنة من وراء التعقيدات التي واجهتها، تهتزّ زوجته ناديا طربًا، سرًّا. في مثل هذه اللحظات، تتداخل حياتها وحياة المرأة في الدراما الاجتماعيّة، إحداهما في الأخرى. في هذين العالمين المتباينين تباينًا تامًّا، تبرز لوريتا بوصفها القاسم المشترك، والمعبر من عالم إلى آخر. فمن الناحية الجسديّة، هي حاضرة في حياة الدراما الاجتماعيّة؛ وصوتيًّا هي حاضرة هنا في حياة زوجته ناديا. في نهاية الأمر، ثمّة امرأتان منفصلتان في الجوار: الممثِّلة الأميركيّة اللاتينيّة التي أدَّت دور لوريتا من جهة، والمتكلِّمة التركيّة التي عبّرت عن لوريتا من جهة أخرى. وعلى الرّغم من أنّ أيّ واحدة منهما لا تحمل الاسم لوريتا في الحياة الحقيقيّة، فإنَّ زوجته ناديا تصوَّرت في ذهنها الاثنتين بالاسم نفسه. لم تكن لديها أيّ مشكلة مهما كان نوعها مع لوريتا الأولى، إذْ لم تكن مهتمَّة بالممثِّلة الأميركيّة اللاتينيّة. ولم يكن هدفها الرئيس متمثِّلاً في لوريتا التي كانت تشاهدها، بل لوريتا التي كانت تسمعها. كان الصوت هو ما سعت إليه منذ زمن طويل، صوت من غير وجه... صوت مخمليّ رخيم، دبّت فيه

Twitter: @ketab_n

الروح في رضفة ركبة معجرة منتفخة انتفاخ خوخة... ومع هذا، طالما أنّ كلّ صوت يتطلّب وجهًا، وكلّ وجه يتطلّب صوتًا، فإنَّ الصوت الذي سمعته والوجه الذي رأته، وهي تشاهد واقفة «زهرة الحبّ»، يسهل اندماجهما اندماجًا يجعل زوجته ناديا تُخطئ الهدف من فورها، وتنقل تركيزها من المرأة التي تؤدِّي الصوت إلى الممثّلة الأميركيّة اللاتينيّة على الشاشة. وعندئذٍ، لا يمكنها إلّا فعل الشيء القليل للحيلولة دون مشاهدة الدراما الاجتماعيّة بنظرة شزرة، مستمدّة المتعة من المناظر التي تظهر فيها لوريتا معذَّبة، يساورها شعور بضيق الصدر كلّما سارت أمورها على ما يرام.

كانت لوريتا على الشاشة سمراء رشيقة القوام ذات عينين خضراوين وساقين طويلتين. وعندما بكت، انحدرت الدموع المدوَّرة كالبازلّاء على وجنتيها. أمّا المرأة التي كانت تؤدِّي صوت لوريتا، فإنَّ زوجته ناديا لم تستطع أن تخمِّن شكل قوامها، لأنّها لم تتمكَّن من إلقاء نظرة فاحصة عليها في ذلك اليوم المشؤوم، عندما التقت الاثنتان. لا بدّ أنّها كانت واحدة من أولئك الجميلات العابرات، كما فطنت زوجته ناديا، عابرة ورقيقة مثل وهج شمعة. وبقدر ما كانت متألِّقة ومشرقة بإشراقة الشباب ونضارته في الوقت الراهن، فإنَّ جمالها سرعان ما ينطفئ بريقه عاجلاً أو آجلاً، بعد خمسة أعوام في الأغلب. وعندما يحين ذلك اليوم، يتعيَّن عليها أن تستجمع رباطة جأشها، وتتوقّف عن ملاحقة الرجال المتزوِّجين. ومع هذا، فإنَّ خمسة أعوام زمن طويل ـ طويل بما يكفي ـ لأن يسبِّب الهمّ والغمّ لزوجته ناديا، لأنّها سوف تضطرّ إلى مواجهة احتمال كلّ الأشياء التي يمكن أن تحدث حتى ذلك الوقت.

كانت محض مصادفة هي التي جعلت زوجته ناديا تعرف بصوت لوريتا قبل ثلاثة أشهر خلت. ففي صباح ذلك اليوم السيِّئ الطالع، كانت في المطبخ لتحضير طبق العاشوريّة. كانت العاشوريّة التي تعدّها ليست

Twitter: @ketab_n

بالجودة التي كانت تريدها ــ أو كان متين جتين جفيز يريدها، على الرّغم من أنّها طوّرت مهاراتها في الطبخ إلى حدٍّ كبير. فقد انتهت تجارب لا تُعدّ ولا تُحصى بالفشل الذريع، إذْ كانت تحتوي إمّا على كمِّيّة أكبر أو أقلّ من اللازم من مادّة السكَّر، أو مفتقرة إلى بعض المقادير المحدَّدة. وإذا لم يكن هذا هو السبب، فإنَّ خطأً ما سيحدث أثناء مرحلة الطبخ، حتى وإن كانت المقادير مخلوطة خلطًا جيِّدًا. وعندما تطبخ العاشوريّة مدّة مناسبة من الوقت، فإنّها ترفعها من فوق الموقد وتوزِّعها بتقتير في أكواب ورديّة باردة. وكانت تبذل قصارى جهدها في تزيين كلّ كوب بِحَبِّ الرمّان، متطلِّعة إلى أن تكون قد أعدَّتها إعدادًا صحيحًا في هذه المرّة. في البدء، كانت قد دأبت على المبالغة في هذا، لأنّها كانت غير راضية عن الزينة المبتذلة التي تلجأ إليها ربّات البيوت التركيّات. ولمّا كانت تهفو إلى كلّ ما هو جديد، فإنّها كانت ترشّ بضع قطرات من شراب الكونياك، أو تضع الكرز الحامض المنقوع بشراب الرمّ بدلاً من مقدار قليل من مسحوق جوز الهند والبندق المحمَّص أو مسحوق السكَّر. في تلك الأيّام، كانت مهتمَّة بأسطورة العاشوريّة أكثر من اهتمامها بكيفيّة استهلاك الأتراك لها.

كانت العاشوريّة في الأسطورة تمثّل ذروة انتصار، عُدَّ متعذِّر التحقيق. وأعدَّت كلّ المخلوقات التي ركبت معًا الفلك، الذي صنعه نوح زوجين زوجين للهروب من يوم الدينونة، الطعامَ في وقت لم يستطيعوا أن يتحمّلوا بعد ذلك الرحلة، إذْ حاصرهم الماء من الجهات الأربع، وكانوا معرَّضين لخطر الموت نتيجة نفاد غذائهم والطريق الطويل الذي ما يزال أمامهم. فما كان من كلّ حيوان إلّا أن قدّم ما تبقّى لديه من طعام. ومن هنا، ظهرت هذه الأكلة المدهشة التي امتزجت كلّ الأطعمة التي ما من شأنها أن تمتزج ويناسب أحدها الآخر. وإذا لم يكن ثمّة شكّ كبير في محتويات العاشوريّة في يومنا هذا، فإنَّ محتوياتها

Twitter: @ketab_n

غير واضحة تمامًا، ويمكن إضافة مقادير أخرى لها في أيِّ وقت. الحقّ، أنّ عدم وجود وصفة محدَّدة تمامًا لصنع العاشوريّة هو الذي جعل منها مختلفة الاختلاف كلّه عن غيرها من الحلويّات. فلم تكن المقادير محدَّدة لا نوعًا ولا كمًّا. وتبعًا لذلك، كانت تشبه مدينة كبرى لا يستثنى فيها الأجانب، وفي وسع القادمين في وقت متأخِّر أن يختلطوا بسرعة مع السكّان الأصليين. كانت العاشوريّة أكلة لا حدود لها، نتاج خيارات محدّدة، وفرة ناجمة عن شحّ، وأنواعًا مختلفة بدأت بالظهور والنمو من لا شيء.

كتبت زوجته ناديا لعمّتها مطوَّلاً عن هذه التفاصيل كلّها ـ وكانت هذه امرأة عجوزًا، تغطِّي أوردة بنفسجيّة مُصابة بالدوالي وشعر أحمر كالجحيم ساقيها. كتبت زوجته ناديا في رسائلها عن التغيّر الجذري الكبير الذي طرأ عليها منذ وصولها تركيا، والوقت الذي تخصّصه للطبخ، وإقرارها بتشبيهات عمّتها بين وجبات الطعام والآيات في الكتاب المقدّس. كانت عمّتها على درجة كبيرة من الورع والتقوى، ومقتدرة في الطبخ اقتدار طبّاخ، تؤمن إيمانًا راسخًا، إن لم يكن متشامخًا ينمّ عن تفوّق رغم اصطناعها اللطف، أنّ هاتين الصفتين اللتين تتّصف بهما ترقيان إلى الشيء نفسه: «يُشَبَّه ملكوت السماوات بخميرة أخذتها امرأة وأخفتها في ثلاثة مقادير من الدقيق، حتى اختمر العجين كُلّه». (الإنجيل كما دوَّنه متّى ٣٣: ٤)(١). وكانت تضع الوجبات التي تطبخها لأسرتها على طاولة الله، وتراقب أطفالها وهم يلتهمونها، فتشعر بالسعادة والبهجة كأنّها كانت تطعم الله.

---

(١) خطأ في المصدر، والصحيح: (٣٣: ١٣) من الإنجيل كما دوَّنه متّى، لأنّ آخر آية في القسم الرابع هي الآية (٢٥: ٤) ولا وجود لآيات أخرى من بعدها. لذا اقتضى التنويه، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانت العمّة مولعة بالقول:

ـ ثمّة وصيّة من الله في كلّ وجبة طعام نستهلكها. من نافلة القول، إنّ ثمّة استثناءً في الوجبات المعدّة من غير اكتراث، والتي تطبخها أولئك النسوة العابثات اللواتي لا يملكن الوقت كما يبدو للطبخ، ويفهمن الحرّيّة على أنّها إهمال بيوتهنّ، مفضّلات الإطراء الذي يتلقّين من رؤسائهنّ على امتنان أطفالهنّ!

كتبت زوجته ناديا الآن في رسائلها إلى هذه العمّة، أنّ وحدها العاشوريّة من بين كلّ الأطعمة في العالم، التي يمكن مقارنتها ببرج بابل الوارد ذكره في الكتاب المقدّس. فكما هو الحال في برج بابل، فثمّة أنواع مختلفة من الطعام أيضًا، ما من شأنها أن تجتمع سويًّا، ولكنّها اختلطت هنا من دون أن يذوب بعضها في البعض الآخر. ومثلما أخفق العمّال في البرج في فهم لغة بعضهم بعضًا، فإنَّ كلّ محتوى في القدر احتفظ بخاصّيَّته في نطاق ذلك التحمُّس العامّ. فعلى سبيل المثال، ما يزال التين في العاشوريّة يحتفظ بنكهته الخاصّة به، على الرّغم من خضوعه لشتّى العمليّات، ومن بينها غليه مدّة طويلة. وفي الوقت الذي كانت تغلي كلّ المحتويات من فوق الموقد، فإنّها كانت تتكلّم موحّدة، وإن كان كلّ محتوى يتكلَّم بلغته الخاصّة به.

من هنا يمكن على الدوام إضافة موادّ أخرى لهذه المجموعة. فإذا كانت ثمّة فسحة في العاشوريّة لإضافة الحمّص، لماذا لا تضُاف أيضًا حبّات الذرة؟ وإذا كانت الأكلة تحتوي على تين، فيمكن إضافة الإجّاص أيضًا، ولماذا لا يُضاف الخوخ مع الجزر، ومعكرونة الباستا مع الرزّ..؟ كانت زوجته ناديا في الأشهر الأولى التي قضتها في قصر الحلوى، ما تزال، لسبب من الأسباب لا تعرف كنهه، تشغل نفسها بمثل هذه التجارب. ومع هذا، وبعد اصطدامها في كلّ مرّة بردود متين جتين جفيز الحادّة، كانت في غمضة عين تستهلك جرأتها بخلطات

Twitter: @ketab_n

أخرى. وبصرف النظر عن فلك نوح والمغامرة الكائنة من خلفه، وعندما كان الأمر يخصّ وضع التعليمات موضع تطبيق، فإنَّ العاشوريّة تتحوّل إلى أكلة لا تنطوي على مجازفة تمامًا. ولم ترحِّب بالابتكار. ولا بدّ أنّ عمّتها التي لم تطبخ العاشوريّة طوال سني حياتها، قد توصّلت إلى النتيجة نفسها، لأنّها شعرت بضرورة أخذ الحيطة والحذر في رسائلها، إذْ مثلما لا يستطيع المرء أن يعدِّل في آيات الكتاب المقدَّس على هواه، فإنّه يستحسن عدم العبث بالموادّ كما يحلو له. في نهاية المطاف، تخلّت زوجته ناديا عن محاولاتها، وراحت تطبخ العاشوريّة بحسب الطريقة المألوفة. ولمّا كان الأمر كذلك، فإنَّ الناتج النهائي أخفق في تلبية متطلّباتها طوال هذا الوقت، ربّما لأنّها كانت في أعماقها ما تزال تحنّ وتشتاق إلى تنوُّع بلا حدود، ولم تتمكَّن أبدًا من الاقتناع بما لديها من موادّ في متناول اليد.

على الرّغم من ذلك، ثمّة مناسبة واحدة حدثت في ذلك اليوم المشؤوم عندما اقتنعت قناعة ضمنيّة بعاشوريّتها. فبعد أن فرغت من الطبخ، وضعت القدر، كدأبها، جانبًا كي يبرد، وهيَّأت الأكواب الورديّة الباردة، وراحت تنتظر في لهفة عودة زوجها إلى المنزل. وبعد أن أنجزت الآن المهمَّة التي تاقت إليها منذ أمد طويل، توقّعت أنّ تحظى أخيرًا بتقدير متين جتين جفيز. إلَّا أنّها سرعان ما لاحظت أنّ حقيبته الكهرمانيّة النتنة ليست في موضعها، وهذا يعني شيئًا واحدًا لا غير، وهو أنّ متين جتين جفيز سيذهب مباشرة إلى عمله الثاني في هذا المساء، والذي ربّما سيعود على أثره إلى المنزل في حدود منتصف الليل. كان منجزها في إعداد العاشوريّة قد أثارها كثيرًا، حتى إنّها لم يعد في إمكانها أن تنتظر مدّة أطول. لهذا قرّرت أن تفعل شيئًا آخر لم يسبق أن فطنت إليه، وهو أن تزور استديو متين جتين جفيز حاملة كوبًا من العاشوريّة. على الرّغم من مرور أربعة أعوام على مجيئها إلى

Twitter: @ketab_n

اسطنبول، إلّا أنّ هذه المدينة بقيت لغزًا هائلاً في نظرها. فهي لم تشاهد من المدينة إلّا قليلها حتى الآن، ولا تعرف الاتّجاه الذي تقع فيه شوارعها، ولا تفهم بنيانها. ربّما تُعزى جسارتها التالية إلى الجهل، وليس إلى أيّ شيء آخر. وبهذه الحالة، هرعت إلى الاستديو في الجانب الآسيويّ. على الرّغم من أنّ عبورها البوسفور استغرق منها زهاء ساعتين، إلّا أنّ العثور على العنوان كان سهلاً على نحو غير متوقَّع. تركت بطاقة هويّتها عند المدخل، وتلقّت التعليمات من الاستقبال، واستخدمت المصعد للصعود إلى الطبقة الخامسة، وسارت نحو الغرفة ٥٠٥، واختلست نظرة إلى الداخل، فتسمَّرت في مكانها. كان متين جتين جفيز يجلس، وقد التصقت ركبتاه بركبتيّ امرأة، واضعًا إحدى يديه على رضفة ركبتها المعجّرة والمنتفخة انتفاخ خوخة. كانت المرأة تزمّ شفتيها كما لو تخشى عيبًا ما يبدو واضحًا تحت الضياء. أمّا يده الأخرى، فقد استخدمها في تحريك فنجان قهوة صغير، وراح يقرأ طالع المرأة. لا بدّ أنّه كان يخبرها بخبر سارّ، لأنّ ثغرها افترَّ عن ابتسامة مشرقة كشفت عن غمّازتيها. ثبّتت زوجته ناديا من أنظارها على زوجها، ولم تستطع أن ترنو إلى المرأة قدر ما كانت تريد. ولم تكن الخيانة هي السبب الذي جعلها تلتزم الصمت، وإنّما النظرة العاطفيّة المرتسمة على وجه متين جتين جفيز. لم تكن المرأة الجالسة في الغرفة، ولا اليد التي كانت تداعب ركبتها، مشهدًا مريعًا كمشهد الملامح العاطفيّة الواضحة على وجه زوجها، إذْ كانت رقيقة ولطيفة لا تنطبق على زوجها.

كانت زوجته ناديا قد غفرت حتى الآن كلّ غلطة من أغلاط متين جتين جفيز، وتحمّلت بطريقتها المنهكة غيرته وطيشه، وحتى صفعاته التي ما كانت لتنتهي يومًا ما، معتقدة أنّه كان يتصرَّف على ذلك النحو بشكل غير إرادي، وفي أغلب الأحيان، بالرّغم من تلك الإرادة. نعم،

Twitter: @ketab_n

لقد عاملها زوجها معاملة وحشيّة أحيانًا ـ بمعنى غالبًا ـ بمعنى باستمرار ـ وسبب هذا يرجع إلى عدم معرفته بأيّ طريقة أخرى. إنّ ديمومة زواج ملؤه الشوائب تتطلّب، أساسًا، إيمانًا بالصلابة والعناد، وليس إيمانًا راسخًا بالزواج، فنحن يمكننا أن نتحمّل الشخص الذي نحبّه، وهو يعاملنا معاملة وحشيّة، إن كان في وسعنا أن نقنع أنفسنا أنّه لا يعرف طريقة أفضل، وأنّه غير قادر على التصرُّف تصرُّفًا مخالفًا لذلك.

كان البروفسور كاندينسكي قد اعتاد القول: «ليس الحبّ سوى آلة كيمياء عصبيّة، وإنّ أشدّ العشّاق وفاءً هم أساسًا مغفّلون. وإذا ما التقيت امرأة متزوّجة منذ سنوات وما تزال تعشق زوجها، وغارقة في حبّه حتى أذنيها، فتأكّد أنّ ذاكرتها تعمل عمل عصفور صغير».

بحسب البروفسور كاندينسكي، ينبغي للذاكرة أن تكون فانية إذا ما أريد للحبّ أن يكون خالدًا. الحقّ، أنّ الذاكرة لا بدّ أن تكون قادرة على الموت والانبعاث باستمرار، شأنها في ذلك شأن الليل والنهار، والربيع والخريف، والخلايا العصبيّة في منطقة ما تحت المهاد البصري لهذه العصافير الصغيرة. إنّ هذه الطيور بما تملكه من عقول بسيطة وأجسام هشّة وضعيفة، مضطرّة إلى أن تتذكّر كلّ عام مجموعة من المعلومات الضروريّة، بضمنها المكان الذي خبّأت فيه بيوضها، والسبيل إلى النجاة من برد الشتاء القارس والمكان الذي تجد فيه الطعام. ولمّا لم تكن ذاكرتها كبيرة بما يكفي لكي تحتوي شتّى المعلومات، فإنّها، بدلاً من أن تحاول خزن كلّ تجربة بتكديس كلّ مفردات المعرفة الواحدة فوق الأخرى، فإنّها تعمل في كلّ خريف على تنظيف موسميّ في تجاويف أدمغتها. من هنا، فهي مدينة في قدرتها على الاستمرار في العيش في ظلّ مثل هذه الظروف الملتوية، لا من أجل التشبُّث تشبُّثًا عنيدًا بذاكرة واحدة محدَّدة، وإنّما من أجل تحطيم ذكرياتها السابقة وخلق ذكريات أخرى جديدة. أمّا بخصوص الزواج، فإنَّ قدرتها على

Twitter: @ketab_n

فعل الأشياء نفسها على مدى سنوات متّصلة غير ممكنة، إلّا إذا احتفظت بالقدرة على نسيان قدرتها على فعل الأشياء نفسها على مدى سنوات متّصلة. لهذا السبب، تجد أنّ الذين يتمتّعون بذاكرة ضعيفة وسجلّ مشوّش، يقدرون على ضماد الجروح التي تصيبهم على امتداد تاريخ قضاياهم، في حين أنّ الذين يواصلون باستمرار وبثبات التفكير بالأيّام الجميلة الخالية، ويشتاقون إلى من تزوّجوا بهم / بهنّ، من شأنهم أن يمرّوا بوقت عصيب حتى يدركوا حقيقة أنّ «اليوم» لن يكون مثل «الأمس». إنّ تركيبة الحبّ العجيبة ينبغي أن تكون لها ذاكرة فانية، ذاكرة متذبذبة ومرتعشة باستمرار.

إلّا أنّ زوجته ناديا، التي وقفت قرب الباب حاملة كوبين مملوءين بالعاشوريّة، لم تستطع إبعاد معلومة محدّدة طواها النسيان منذ زمن، عند رجوعها إلى وعيها. تذكّرت. فبينما هي واقفة في ذلك المكان، تراقب زوجها يغازل امرأة أخرى، تذكّرت كم كان ولهانًا بها في يوم ما أيضًا. بمعنى، أنّه كان رجلاً مختلفًا جدًّا يومئذٍ. الأسوأ من هذا التذكُّر هو ملاحظة أنّ رقّته لم تكن شيئًا من الماضي، وأنّه ما يزال في وسعه أن يكون مجاملاً. كان قادرًا تمامًا على التمثيل، إن لم يكن قد تغيَّر حقًّا. لو كان البروفسور كاندينسكي هنا، لربّما وجد في الحادثة قدرًا كبيرًا ممّا ينافي الآداب، فلا ينزعج بها. إنّ الاستعداد الطبيعي لتجديد الذاكرة بمحو معلومات مخزونة سابقًا كانت مزيّة ذات صلة وثيقة بالعصفور الصغير، وليس بالنساء المتزوّجات زواجًا يفتقر إلى السعادة.

خطت زوجته ناديا خطوة داخل الغرفة، حائرة النظرات، وإن لمدّة دقيقة واحدة، على العاشقيْن اللذين لم يتنبّها بعدُ لمجيئها، ولم يتوقّفا عن قراءة الفنجان، يضحكان ضحكات بلهاء ويتغازلان. وبينما هي مندهشة، أوّلاً من كليهما، وثانيًا من المرأة وحدها، وجدت نفسها مستغرقة في جدال علميّ مثير للريبة، قوامه انشغال عميق بها: إذا ما

Twitter: @ketab_n

نظرت نظرة اهتمام إلى امرأة ما غير قادرة على رؤيتك، وغير مدركة لوجودك، فتأكّد أنّها سرعان ما سوف يستبدّ بها ضيق الصدر، فتستدير فجأة وتشاهد عرّافها.

غير أنّ متين جتين جفيز هو الذي سوف يشاهد زوجته ناديا واقفة هناك، قبل أن تسنح الفرصة للمرأة الأخرى أن تلتفت وتشاهدها واقفة في ذلك المكان. فما كان منه إلّا أن جزع جزعًا واضحًا، ووثب على قدميه واقفًا، وبذل جهدًا كبيرًا ليعدِّل من قوامه الذي كان يبدو عليه الارتياح والغبطة، ليلائم هذا التحوُّل العنيف. وسار بضع خطوات، وهو يعرج، حتى وصل منتصف الغرفة حيث توقّف وقفة نهائيّة. وفي محاولته ليجعل من جسده حاجزًا يحجب بين المرأتين، وقف في مكانه مرتعشًا برهة وجيزة من الزمان، لا يدري إلى أين يتّجه، ولم ينقسم دفاعه إلى قسمين اثنين فحسب، بل ووجهه أيضًا، وهو يجهد نفسه كي يبتسم ابتسامة تملُّق ومداهنة لعشيقته التي طالما ظلّ يعاملها معاملة رقيقة، ويعبس في وجه زوجته التي طالما ظلّ يعاملها معاملة فظّة. وفي غمرة عجزه عن التشبُّث بهذه المهمّة المزدوجة، أمسك حقيبته الكهرمانيّة النتنة ويد زوجته، وحثّ خطاه للخروج. لم يكن شجارهما في تلك الليلة أكثر سوءًا من السابق باستثناء أنّه استغرق وقتًا أطول. كانت زوجته ناديا حتى اللحظة تخشى في مختلف الحوادث أن يقتلها زوجها، إلّا أنّها شعرت للمرَّة الأولى الآن أنّ في وسعها هي أن تقتله أيضًا. بيد أنّ الغرابة تكمن في أنّ هذا الشعور المخيف لم يبدُ مخيفًا قطّ.

إنّ ما كان يبدو مخيفًا حقًّا لزوجته ناديا هو أنّها ما كانت تريد أن تعرف أيّ شيء عن هذه المرأة الأخرى. ولمّا لم يكن لديها من تعرفه من بين معارف متين جتين جفيز، فإنَّ الحصول على هذه المعلومة الثمينة من شأنه أن يكون أشقّ ممّا ظنّت. ممّا يثير الذهول، أنّها لم تستطع حتى وصفها لأيّ شخص، لأنّها مهما حاولت إلى ذلك سبيلاً، فإنَّ وجه

Twitter: @ketab_n

المرأة ظلّ مبهمًا في ذاكرتها. ومع هذا، لم تستسلم، بل وضعت خططًا عديدة، كلّ خطّة أشدّ تعقيدًا من سابقتها، ودأبت على الاتّصال بالاستديو معتذرة باعتذارات جديدة تحت أسماء مختلفة في كلّ مرّة. وعندما عجزت عن الحصول على أيّ شيء مثل ذلك، بدأت تذهب إلى الاستديو يوميًّا مضيّعة أربع ساعات في الطريق لمجرّد الطواف من حول المبنى. كانت تعرف مؤكَّدًا أنّ زوجها سوف يكسر ساقيها إن هو شاهدها في الجوار، إلَّا أنّ هذا الخطر المحدق نفسه لم يدفعها إلى الكفّ عن الذهاب.

«إنّ أعظم ضرر ألحقه علم الأدوية النفسيّة بالبشريّة يتمثّل في هوسه بتطهير الدماغ من مراوغاته».

استنادًا إلى البروفسور كاندينسكي، فإنَّ دماغ الإنسان يعمل عمل ربّة البيت الغيورة التي تتباهى بإفراطها في التدقيق. فكلّ من يخطو داخل بيته، فإنّه سرعان ما يستحوذ عليه، متيقّظًا يقظة مدهشة من أجل الاحتفاظ بنظامه. إلَّا أنّ هذه المهمّة ليست سهلة، ما دام أنّ الدماغ، شأنه شأن كلّ ربّات البيوت الغيُّورات، لديه عدد من الأطفال شديدي المراس، عُمِّد كلّ واحد منهم باسم نقص دفاعي واضح. ومتى ما بدأ أحد هؤلاء الأطفال يزحف من حوله وينثر الفتات، ويشيع الفوضى في أرجاء المنزل، فإنَّ من شأن الدماغ أن يتصدّع متوجِّسًا وقلقًا بسبب انعدام النظام. في هذه المرحلة بالذات، يتدخّل علم الأدوية النفسيّة، ويحاول في مسعاه لحلّ هذا المأزق أن يوقف الطفل الصغير، وإذا ما أخفق، يمسك الطفل من أذنه ويجرّه خارجًا وهو يخاطبه: إذا شئت أن تسيطر على حركات لا سبيل إلى السيطرة عليها، توقّف عن الحركة تمامًا! وإذا شئت أن تحول من دون وقوع الضرر الذي قد تحدثه الأفكار، اجعل مريضك في حالة لن يفكِّر فيها بعد ذلك! لقد هدفت مئات الأدوية وعشرات الممارسات إلى هذه النتيجة باستمرار. إنّ عالم

Twitter: @ketab_n

الطبّ الذي اشتهر بسوء سمعته، عندما جعل الطبيب الذي ابتكر شقّ فصوص المخّ الجبهيّة جراحيًّا جديرًا بجائزة نوبل، وكتم صرخات حادّة وحوَّلها إلى صمت مطبق، وآثر الموت على الحياة بأن أخذ من يديٍّ الدماغ الأطفال المفعمين بالحيويّة والنشاط الذين كانوا مزعجين حقًّا وأعزّاء في الوقت نفسه. وبحسب البروفسور كاندينسكي، ثمّة مكسب لا حدود له في الاعتراف اعترافًا صريحًا أنّ المرء لا يمكنه أبدًا التخلُّص من هواجسه، وكلّ المحاولات المبذولة بخلاف ذلك، من شأنها أن تلحق ضررًا أكبر من النفع. ليس ثمّة خطأ في ولوج بيت الدماغ واللعب بحسب قواعده، ما دامت الحركة داخله غير مقنَّنة، وإنّ ما يعود إليه لم توضع اليد عليه.

صحيح أنّ الدماغ لا يستطيع مسامحة رؤية نظامه وقد انقلب. ومع هذا، ما دام أنّ هناك أكثر من غرفة في بيته، وأكثر من ذاكرة في نطاق ذاكرته، فإنّه يستطيع مؤكّدًا أن يخلط بين ما وضعه والمكان الذي وضعه فيها. فالداخل يشبه مجموعة أدراج، حيث توجد في الدرج الأعلى الثياب التحتيّة، وفي الدرج الذي يليه مناشف مطويّة وملاءات سرير نظيفة من تحتها. وعلى أساس هذا النسق، وحيث يكون مكان كلّ هوس وكلّ جنون مقرّرًا سلفًا، فإنَّ المرء لا يتعيّن عليه أن يجهد نفسه كي يتخلَّص خلاصًا نهائيًّا من تعلُّق مطلوب على نحو ما. ويمكن للمرء أن يأخذ بمساعدة العلم أو الشرود المتعمّد شيئًا من درجه ويضعه في الدرج الأعلى، لأنّ ربّة البيت المفرطة في التدقيق التي كان عليها الدماغ، سوف تبحث مؤكَّدًا عن المنشفة في الدرج الرابع، وليس في الدرج الخامس الذي يحتوي على الملابس التحتيّة. اطوِ بعناية المناشف التي تأخذها من الفصّ الأمامي، واتركها بعدئذٍ في المركز الكائن تحت القشرة. ولا تحاول أبدًا محو هواجسك، لأنّ ذلك غير ممكن، بل يكفيك أن تضعها في مكان لا تستطيع أن تجدها فيه. اتركها في الدرج غير المناسب. وسرعان ما سوف

Twitter: @ketab_n

تنسى أمرها، إلى أن يعثر عليها دماغك مصادفة مرّة أخرى في يوم ما، بينما أنت منهمك في البحث عن شيء آخر...

على الرّغم من أنّ زوجته ناديا كانت مدركة الإدراك كلّه أنّها جعلت عظام أستاذها البروفسور تقشعرّ في القبر، إلّا أنّها ما تزال ترفض انتزاع هواجسها من الدرج المناسب ووضعها في درج آخر. في الأيّام التي أعقبت ذلك، أجرت بضعة اتّصالات هاتفيّة في الاستديو الذي يشتغل فيه زوجها، جاعلة إيّاه تحت سمعها على مدى ساعات طويلة. وأخيرًا، ردّ عليها صوت في يوم ما لم يسبق لها أن سمعته، بيد أنّها استدلّت عليه من فورها استدلالاً غريزيًّا. إنّه صوتها، يسألها برقّة:

ـ هالو، كيف يمكنني مساعدتك؟

فما كان من زوجته ناديا إلّا أن هتفت بصوت يخلو من العصبيّة، ولكنّه ينطوي على حدَّة:

ـ من أنت؟

كان هذا السؤال ملفوظًا لفظًا خشنًا، محتدًّا، ما دفع المرأة إلى أن تخبرها من فورها باسمها بعد أن فوجئت به. في أغلب الأحيان، تشبه الهويّة انعكاسًا ما ـ فتصبح أشبه بردّ فعل غير إراديّ على حافز. لهذا السبب، عندما يُطلب من عدد غير قليل من الناس الإفصاح عن هويّتهم، تجدهم، وقد انتهى بهم الأمر إلى التعريف بشخصيّاتهم على نحو غير إراديّ، بدلاً من أن يردّوا متسائلين: ومن أنت بحقّ الجحيم؟

عندما سمعت زوجته ناديا الاسم وقد تفوّهت به المرأة، توقّفت هنيهة. فبعد أن عرفت اسم ضرّتها والمكان الذي تشتغل فيه، بات سهلاً عليها اكتشاف بقيّة الأمور. وقبل أن يمضي وقت طويل، كانت تملك مجموعتين من المعلومات عن المرأة التي أصبحت الآن تمتلك تفاصيل عنها. أوّلاً، وقبل كلّ شيء، وكما هو شأن متين جتين جفيز، كانت تؤدّي

Twitter: @ketab_n

الأصوات في البرامج التلفازيّة. ثانيًا، كانت في الوقت الراهن تؤدِّي الصوت عن الشخصيّة الرئيسة في الدراما الاجتماعيّة «زهرة الحبّ».

في اليوم الذي أعقب ذلك، وقبل نشرة الأخبار، كانت زوجته ناديا قد جلست على الديوان البنفسجيّ المطرّز تطريزًا خمريًّا ـ والذي كانت تؤجّل على الدوام إعادة تنجيده ـ وراحت تشاهد في هدوء وسكينة تامّين حلقة «زهرة الحبّ». وعندما انتهت، قرّرت أنّها حلقة تثير الاشمئزاز، لأنّ الحبكة غير معقولة، والحوار مرتبك بدا فيه الممثّلون تحت طائلة مشقّة لا تُطاق. ومع هذا، جلست في اليوم التالي، وفي الوقت نفسه، أمام التلفاز مجدّدًا. ومنذ ذلك اليوم، ومع انتهاء كلّ حلقة من الدراما الاجتماعيّة، ازداد التزامها إن لم يكن هوسها، بها. الحقّ أنّ الأكاديميين الذين يجرون بحوثًا عن إدمان ربّات البيوت على الدراما الاجتماعيّة ميّالون إلى تجاهل هذا الأمر، لكنَّ ثمّة أسبابًا مختلفة تدفع المرء إلى أن يكون مشاهدًا لها، وإن كان بعض تلك الأسباب غير مستساغ أبدًا. لقد أصبحت زوجته ناديا مشاهدة منتظمة للمسلسل «زهرة الحبّ» قبل أن تدرك شيئًا. وسرعان ما تبوّأت الدراما الاجتماعيّة مكانة بارزة في حياتها اليوميّة، فلم يعد في وسعها تحمُّل عطلات نهاية الأسبوع التي لا تعرض فيها. نادرًا ما سألت عن سبب تعلُّقها، ونادرًا ما حاولت أن تتغلّب عليه، بل راحت تشاهدها ببساطة ليس إلَّا... على ذلك النحو... وبعد مرور بضعة أشهر، وبينما كانت تجلس لتشاهد الحلقة السابعة والثمانين، لم تستطع تحمّل اختلاط صوت لوريتا وصورتها في عقلها.

على الرّغم من أنّ «الإخفاق المرضي» كان أردافًا خُلفيًّا، إلَّا أنّ في الحياة نجاحات غير مُرضية. كان البروفسور كاندينسكي مولعًا بالقول إنّه كان «غير راضٍ» و«ناجح» في الوقت نفسه، وهذا أفضل من كثيرين آخرين، برأيه، وبخاصّة أولئك الذين هم راضون وناجحون: لأنّ تلك

Twitter: @ketab_n

الحالة بعينها ذات صلة وثيقة، إمّا بالمغفّلين أو المحظوظين حظًّا استثنائيًّا، ولمّا كان الحظّ المفرط يسبّب الغباء، فإنَّ النتيجة النهائيّة متشابهة. ومع هذا، تذوّق البروفسور في آخر أيّامه طعم الانهيار، فقد استبدّ به كلّ من عدم الرضى والإخفاق الناجمين عن السبب نفسه، وهو: «نظريّة عتبة عبور الأنواع»، وهو مشروع كان يشتغل عليه منذ أربعة أعوام.

يحتفظ البقّ بمناعة مذهلة تجاه أيّ شيء يهدِّده بالانقراض التامّ، حتى لو كان ذلك الشيء كارثة فيمحوه محوًا. ففي نحو العام ١٩٤٦، بدا وكأنّه يتمتّع بمناعة ضدّ نوعين من مبيدات الحشرات، في حين طوَّر بحلول نهاية القرن مقاومة لأكثر من مائة نوع من أنواع هذه المبيدات. وهكذا اجتازت الأنواع التي قهرت التركيبة الكيمياويّة العتبة، وانتهى الأمر بالبقّ، على المدى البعيد، إلى إنتاج أنواع جديدة، إذْ لم يتأثَّر بالسموم الذي قضت على أسلافه. وزعم البروفسور كاندينسكي أنّ القضيّة الأساسيّة ليست متمثِّلة باكتشاف الكيفيّة التي اكتسب فيها البقّ هذه المعرفة المتميِّزة، وإنّما اكتشاف المعرفة برمّتها. وبحسب رأيه، فإنَّ هذه الأحاسيس الغامضة التي كانت مصدرًا من مصادر الخيبة في نفوس مفكّري حركة التنوير[1]، الذين عدّوا العلوم الاجتماعيّة والطبيعيّة على أنّها وحدة واحدة، سوف تثبت صحَّتها في القرن الذي يوشك أن يُقبل،

(١) التنوير Enlightenment: هو الاسم الذي أُضفي على اتّجاه أدبي وثقافي في أوروبا بين (١٦٩٠ ــ ١٧٩٠)، وإن كان هذا الاتّجاه قد عرف في إنكلترا بعصر العقل The Age of Reason. وقد تميَّز بشيوع أنماط من النقد الفلسفي الراديكالي ضدّ النظام القائم. وما الكتابات التي دوّنها كلّ من لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) ومونتسكيو (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) وفولتير (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨) وديدرو (١٧١٣ ــ ١٧٨٤) وروسو (١٧١٢ ــ١٧٧٨) إلّا نموذجًا لمثل هذا النقد. وقد أدّى الاتّجاه إلى نموّ النزعات الربوبيّة والمادّيّة والإنسانيّة، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

مع ما فيه من كوارث. أمّا البشر، فإنّهم عاجلاً أم آجلاً سوف يجتازون هذه العتبة، ليس لأنّهم عبيد الله المحبوبين، كما كان يظنّ الورعون، ولا لأنّهم كانوا يمتلكون الطاقة العقليّة المناسبة، كما كان يدَّعي العقلانيُّون، بل لأنّهم كان محكومًا عليهم بـ «دورة المعرفة» نفسها مثل الله والبقّ. لقد ارتبطت الطبيعة المجتمعيّة لحياة البقّ والطبيعة الحدسيّة للحضارات البشريّة ببعضها بعضًا، وفي نطاق السلسلة المستديمة نفسها: علم الأحياء الاجتماعيّ. وتبعًا لذلك، ومثلما أنّ الفنّانين لم يكونوا تلقائيّين على النحو المفترض بهم، فإنَّ الطبيعة لم تكن بمنأًى عن الحرفة اليدويّة. وهكذا، راح الأدباء والصراصير يأخذون الماء من بركة المعرفة نفسها والحدس، كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً من أجل البقاء على قيد الحياة.

كان البروفسور كاندينسكي قد هدر بصوت عالٍ عندما جاءه خبر رفض تقريره:

ــ إنّني أشكّ في أنّهم قرأوا الصفحة الأولى منه.

حدث ذلك قبل أسبوع واحد من وفاته. كانوا قد جلسوا جنبًا لجنب على درجات باب الخروج الذي لم يستخدم إلَّا قليلاً، والعائد إلى المختبر الذي كانوا يشتغلون فيه ــ وهو مبنى في غاية الضخامة كان يشتغل فيه علماء أحياء روس يتمتَّعون بمواهب عالية، على مدى ثلاث عشرة ساعة في اليوم الواحد. ومع هذا، كانت تصعب معرفة ضخامته بدقّة من على مسافة بعيدة، لأنّه كان يتألَّف من ثلاث طبقات مشيَّدة تحت الأرض. ولمّا كان الشعور بالانتماء إلى جماعة مختارة سببًا لجعل الناس يقتربون من بعضهم بعضًا، فقد كان الموجودون في الداخل يحترمون غيرهم احترامًا شديدًا. إلَّا أنّ البروفسور كاندينسكي كان وحده الذي لم يتأثّر بجزيئيّات الرقّة التي تشيع في الأجواء. فهو لم يأنف من الابتسام في وجه الآخرين فحسب، بل كان يزمّ شفتيه إلَّا إذا أُرغم على

Twitter: @ketab_n

التفوُّه ببضع كلمات. كان لا يسامح الناس إلَّا قليلاً، الاستثناء الوحيد في ذلك يتمثّل في ناديا أونيسيموفنا التي كانت تعمل مساعدة له طوال تسع سنوات، وحظيت بثقته بخضوعها خضوعًا يماثل كدّها ودأبها. كان البروفسور كاندينسكي مشاكسًا ومتحفِّظًا مثلما هو متجهّم، كالح الوجه ونافد الصبر. كانت ناديا أونيسيموفنا يساورها شكّ دفين في أنّه ليس شخصًا على النحو الذي يبدو فيه، وإذا كان كذلك، فلعلّه تحوَّل إلى حطام من الأعصاب، لا لشيء إلّا لأنّه كان يجري تجارب مشحونة بالكهرباء ليلاً ونهارًا على مدى سنوات. غير أنّها لم تستطع، حتى في تلك الأيّام، أن تحول دون البحث عن مسوّغات مقبولة للسلوك الفظّ الذي يسلكه أولئك الذين تحبّهم.

ـ إنّهم لا يعرفون ما الذي يفعلونه بي! الفشل ليس جرثومة أعرفها! أنا ليس لديّ مقاومة لها.

ثمّة حارسان أمنيّان يدخِّنان في أقصى السور الرماديّ المحيط بالحقل المترامي الأطراف للمختبر. كانت العاصفة الهوجاء تهبّ قويّة، فلا يملك دخانها البقاء في الجوّ ثانية واحدة.

ـ أحيانًا أسمع البقّ يضحك منِّي يا ناديا، غير أنّني لا أستطيع أن أراه. في أحلامي، أهيم على وجهي في حجرات فارغة لحفظ الأطعمة في بيوت فارغة. يتمكّن البقّ من الهروب قبيل حدوث الصاعقة أو بداية الزلزال. يهاجر جيوشًا جرّارة. والآن، وبينما نحن نتكلَّم، تجدينه على مقربة منّا. إنّه لا يتوقّف أبدًا.

بعد مرور أسبوع، عُثر عليه ميتًا في منزله: تسرّب في الطاقة الكهربائيّة نهاية هادئة، بلا ضجَّة أو ضوضاء... وظنَّت ناديا أونيسيموفنا دومًا أنّه مات في أكثر اللحظات المناسبة. لحسن الحظّ، لن يعرف ما الذي حدث لمختبره. أوّلاً، توقّفت التجارب بسبب القيود الماليّة، ثم رُفد من العمل عدد لا يُحصى به من العاملين فيه. وتلقّت

Twitter: @ketab_n

ناديا أونيسيموفنا نصيبها من هذه الفوضى. وعندما التقت متين جتين جفيز، كان قد مضى عليها ثمانية أشهر وهي عاطلة عن العمل.

كان متين جتين جفيز شخصًا مزعجًا للآخرين، ومصدر ضيق وأذًى، كان واحدًا من آخر النماذج التي يروق أيّ امرأة أن تهيم به. لسوء الحظّ، كانت ناديا أونيسيموفنا امرأة غير محنّكة، ينقصها المران في معاملة الرجال، وبالرّغم من أنّها أنفقت ساعات وإيّاه، إلّا أنّها ظلّت غير مدركة أنّها كانت رفقة واحدٍ من آخر النماذج التي يروق أيّ امرأة أن تهيم به. على أيّ حال، في تلك الليلة، أُصيبت بالذهول عندما رأت ضخامة المرقص المتعذّرة على الفهم، وهدير ضوضائه التي لا تتوقّف وحشده السفيه، وهو المرقص الذي تدخله أوّل مرّة في حياتها، وتقيّأت كلّ المشروبات التي تناولتها. وبهذا، لم تعد حالتها تسمح لها بإدراك ما يجري من حولها. كانت هناك مصادفة، بعد أن جذبتها إحدى صديقاتها، وكانت تعلّق الآمال على اقتراض مبلغ من المال بحلول آخر الليل. كان متين جتين جفيز في صحبة مجموعة من رجال الأعمال القادمين من اسطنبول. وبعد مرور عشر دقائق على لقائهما، وقبل أن تتمكّن ناديا أونيسيموفنا من إدراك ما الذي يجري، ضمّت الطاولات بعضها إلى بعض، وانضمّت نساء لا تعرفهنّ إلى هؤلاء الرجال الذين لم تعرفهم، ونودي على سيل من المشروبات. وفي حين كانت بقيّة الطاولة مبتهجة وضاحكة من كلّ شيء، انكفأت هي في ركن من الأركان، واحتست من المشروبات ما لم تحتسيه من قبل طوال سني حياتها. وبعد مدّة قصيرة، وعندما جرى الحاضرون أزواجًا إلى حلبة الرقص، شاهدت رجلاً أسمر اللون ما يزال جالسًا في مكانه، في كدر وضيق، وحيدًا مثلها، فابتسمت له وابتسم لها، وتبادلا بضع كلمات بعد أن تشجّعا بتينك الابتسامتين. كان الاثنان يتكلّمان اللغة الإنكليزيّة على نحو بشع، لكنّ الإنكليزيّة هي اللغة الوحيدة في العالم القادرة على إعطاء الانطباع بإمكانيّة التحدّث بها

Twitter: @ketab_n

بشيء من الاندماج، حتى وإن لم يكن المتحدّث لا يملك إلّا معلومات قليلة عنها. وهكذا، جال الاثنان بأبصارهما في غضون الساعات المقبلة، وكأنّهما متشبّثان بأمل هبوط الكلمات التي ينشدانها من السقف، وفرقعا أصابعهما، ورسما صورًا وهميّة بأيديهما في الهواء، وشخبطا على غطاء الطاولة، وخطّطا رموزًا على كفّي بعضهما بعضًا، ضاحكين ضحكة بلهاء من حين إلى آخر كلّما توقّفا. ويبدأان مجدّدًا كلّما ضحكا وهزّا رأسيهما باستمرار إلى أعلى وإلى أسفل. وغرقت ناديا أونيسيموفنا ومتين جتين وجفيز في حديث طويل وعميق.

ـ أودّ أنّ ألعق منفضة سكائر مملوءة وأنا خاوية المعدة كلّ صباح، بدلاً من أن أتزوّج رجلاً تركيًّا.

ردّت ناديا أونيسيموفنا في خبث:

ـ في وسعك أنّ تلعقي ما تشائين. «ليس ما يدخل الفم ينجّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هو الذي ينجّس الإنسان»[1].

صاحت بها عمّتها وهي تنفخ المغرفة التي كانت تحرّك بها الحساء المائل إلى الخضرة في الدقائق الخمس عشرة الماضية:

ـ لا تنثري في مطبخي وأنت متهوّرة تعاليم يسوع، وكأنّها أقوال مأثورة لأستاذك غير الجدير بالثقة.

فغمغمت ناديا أونيسيموفنا هازّة كتفيها:

ـ أنت لا تعرفين شيئًا عنه. إنّه تحامل...

فتكلّمت عمّتها، وكأنّها معصومة عن الخطأ، وهي تذرّ الملح في دوائر متّحدة المركز في القدر:

---

(١) انظر: الإنجيل كما دوّنه متّى (١١: ١٥)، المترجم.

Twitter: @ketab_n

ـ يمكنني أن أطمئنك بأنّني أعرف ما أريد معرفته يا حبيبتي. وإذا لم تكوني قد هدرتِ أجمل سنوات عمرك تطاردين النمل من أجل رجل غريب الأطوار لا فائدة منه، فأنتِ أيضًا سوف تعرفين ما أعرف.

ثم جذبت كرسيًّا قرب الفرن، واستمرَّت في تحريك الحساء مع وقع رنّات أساورها. كانت لا تقوى على الوقوف أكثر من عشر دقائق بسبب الدوالي، وقالت مضيفة:

ـ على الأقلّ، ينبغي لك أن تعرفي أنّ الأتراك لا يشربون الخمرة.

قالت ذلك في ذهول، وإن كانت تصعب معرفة ما الذي سبّب ضيقها أكثر: هل هو موضوع الحديث أم الحساء الذي ما يزال يرفض أن يغلي.

كانت ناديا أونيسيموفنا توّاقة إلى الاحتجاج، فبدأت تحصي، وإن بقدر من المبالغة، زجاجات الويسكي والجعّة والفودكا التي سبق لزوجها المقبل أن شربها في المرقص، ممتنعة عن ذكر خلطة تلك المشروبات والنتيجة التي أعقبت ذلك.

ـ الويسكي قصّة أخرى. هل يشربون الخمرة؟ أخبريني عن ذلك. لا، إنّهم لا يشربونها! إذْ لو كانوا يشربونها لما حطَّموا نافورة ليون الحكيم عندما استولوا على زافيغورود، ودكّ الأتراك النافورة دكًّا عندما استولوا عليها بعد أن كانت تتدفّق بالخمرة طوال ثلاثمائة سنة. لماذا دمَّروا تلك النافورة العظيمة؟ لأنّها كانت تتدفّق بالخمرة بدلاً من الماء! وحطَّم الأتراك جدرانها بالفؤوس. أغبياء! ظنُّوا أنّهم سوف يكتشفون سردابًا يحتشد ببراميل الخمرة في مكان ما في الأسفل. لكن أتعرفين ما الذي عثروا عليه؟ عنقود من العنب! اسمعيني يا ناديا. أقول: عنقود من العنب! ولم يُعصر من ذلك العنب سوى ثلاث حبّات. الواضح، أنّ حبّة واحدة جعلت الخمرة تتدفّق من النافورة قرنًا كاملاً من الزمان.

Twitter: @ketab_n

ماذا فعل الأتراك عندما شاهدوا المعجزة؟ هل قدّروها حقّ قدرها؟ مستحيل! بل حطّموا الجدران وحطّموا النافورة، وحطّموا معها عنقود العنب. إنّهم لا يقدِّرون الخمرة، ولا يقدِّرون الأشياء المقدَّسة، ولا يقدِّرون الحكمة.

وهنا هزّت المغرفة في وجه ناديا، وهي ما تزال تتذمّر.

ـ ولا يقدِّرون المرأة في كلّ الأحوال.

عندما جاءت ناديا أونيسيموفنا إلى مدينة اسطنبول، لم تتخيّل قطّ البيئة التي تنتظرها. وعلى الرّغم من ذلك، لم تستطع الحيلولة دون إحساسها بخيبة الأمل لمّا رأت قصر الحلوى أوّل مرّة. ولم يكن سبب خيبتها يتمثّل في أنّ العمارة السكنيّة، التي سوف تقطن فيها من الآن فصاعدًا، رثّة ومتداعية أكثر من الأماكن التي سبق لها أن سكنت فيها حتى الآن، بل على العكس، كانت العمارة شبيهة بتلك الأماكن إلى حدٍّ ما. هذا هو جوهر الموضوع، التشابه. إنّ الانتقال إلى مكان جديد، فتجد فيه الصورة الشاحبة نفسها لحياتك القديمة، يعدّ سببًا وجيهًا لخيبة الأمل. زد على ذلك، ليس ثمّة شاطئ رمليّ قريب ولا وظيفة لعالِم حشرات، إلّا أنّ المشكل المقلق والخطير كان يتجسَّد في متين جتين جفيز نفسه. فمن جهة أولى، كذب عليها، وليست لديه وظيفة لائقة، وهو يقيم أوده من أداء الأصوات الثانويّة في فواصل زمنيّة غير منتظمة لمختلف القنوات التلفازيّة. يُضاف إلى ذلك، كان يتردّد أحيانًا على حفلات الزفاف والختان، أو حفلات عيد الميلاد التي تقيمها أسر ثريّة لكي يؤدّي دور قره قوز في مسرح الظلّ. وكان يحتفظ بالدمى الجلديّة ذات الرائحة الكريهة في حقيبته الكهرمانيّة اللون، غير أنّ قصر الحلوى راحت تنبعث منه مؤخّرًا رائحة غاية في النتانة، بحيث إنّ رائحة الدمى الجلديّة كانت تمثّل لا شيء مقارنة برائحة الزبالة المحيطة بالعمارة السكنيّة.

Twitter: @ketab_n

الأسوأ من هذا كلّه، أنّ زوجته ناديا سرعان ما أدركت فداحة الغلطة التي اقترفتها عمّتها. فقد كان متين جتين جفيز يعبّ عبًّا خمرة رخيصة الثمن، ورديئة بنسبة لا يستطيع حتى عنب ليون الحكيم المدهش أن يعوِّضه عنها. وإذا ما ثمل، فإنّه لا يفقد مزاجه فحسب، وإنّما يفقد معه قدرته على العمل. فإذا ما انهمك في أداء صوت، تراه ينسى النصّ، وإذا ما كان منشغلاً في تمثيل مسرح الظلّ، فإنّه يثير جلبة بجعل الدمى ترطن وتتشدّق بكلمات جوفاء مطعّمة بالعاميِّة والقذف. وفي حفلات الزفاف التي يحضرها، كان يحتسي كلّ مشروب في متناول يده من وراء حاجز الظلّ أثناء تحريكه الدمى، جالبًا العار والشنار وضياع الكرامة في نهاية المطاف. وذات مرّة، طُرد من الحفل على أثر تفوّهه على لسان دمية يُقال لها «حكواتي» نكات بذيئة مثيرة للشهوة وتلميحات سمجة عن العريس أمام الضيوف. ولمّا لم يمنحه أولئك الذين شهدوا فضائحه أيّ عمل مجدّدًا، فقد اضطرّ اضطرارًا إلى إقامة علاقات عمل جديدة.

لم تعد ناديا أونيسيموفنا أدراجها إلى الآن، بل لبثت في قصر الحلوى. ولم تتمكّن هي نفسها من أن تفهم كيف ومتى أضفت الصفة الذاتيّة على دور ربّة البيت الذي راحت تؤدِّيه موقّتًا، معتقدة أنّ أمده لن يستمرّ بعد أن تعثر لها على وظيفة لائقة. في يوم من الأيّام، جذبت انتباهها الكتابة المدوَّنة على بطاقة دعوة لحضور زفاف: «نتمنّى مشاركة متين جتين جفيز وزوجته ناديا في أسعد أيّامنا». حدّقت إلى الحروف في ذهول، إذْ أدركت عندئذٍ أنّها لم تعد ناديا أونيسيموفنا بعد الآن، ولا ناديا جتين جفيز، وإنّما زوجته ناديا. اختضّت لهذا الاكتشاف، بيد أنّها ما تزال لم تبذل أيّ محاولة لإجراء أيّ تغييرات مهمّة في حياتها. كان يستحيل عليها أن تفصل بين الأيّام منذ زمن طويل، وكأنّ الأيّام كلّها ليست سوى مستنسخات عن يوم معيّن مضى وانقضى منذ عهد بعيد. كانت تطبخ وتنظّف المنزل وتشاهد التلفاز وتتطلّع إلى صور قديمة، وإذا

Twitter: @ketab_n

ما شعرت بالسأم يدبّ في نفسها، فإنّها كانت تصنع شيئًا آخر، ربّما لا تعرف عنه ربّات البيوت الأخريات الشيء الكثير: مصابيح البطاطس التي تضيء من دون إشعالها. لقد ظلّ البروفسور كاندينسكي و«أنواعه العابرة للعتبة» وراءنا في حياة أخرى.

قالت لوريتا متأوِّهة، وهي تدير بين يديها زهرة الأقحوان التي كانت مثبّتة على شعرها قبل دقيقة واحدة:

ـ لماذا لا أقدر على تذكُّر ماضيَّ؟ ليتني عرفت من أنا؟ لماذا لا أقدر على التذكُّر، لماذا؟

زعقت زوجته ناديا، من دون أن تتنبَّه إلى أنّها ردَّدت الإشارة على الشاشة، وتدير بين يديها آخر مصباح بطاطس صنعته:

ـ إنّك تبحثين في الدرج غير الصحيح يا حبيبتي! أنظري إلى الدرج الذي من تحته، الدرج الذي من تحته!

في تلك اللحظة بالذات، انساب إلى سمعها صوت بالقرب من الباب. إنّه قادم. مبكرًا على غير عادته. يُحتمل أنّه سيأكل لقمة ويغفو قليلاً، ثم يخرج مجدّدًا في المساء، حاملاً حقيبته ذات الرائحة الكريهة. لا يمكنك أن تعرف متى يأتي ومتى يخرج، غير أنّه لم يحرص قطّ على قرع جرس الباب بغضّ النظر عن الوقت!

بينما كان المفتاح يدور في القفل، أمسكت زوجته ناديا بجهاز التحكُّم عن بُعد، وضغطت على الزرّ. عندما لاح متين جتين جفيز قرب الباب، كانت لوريتا قد حلّ محلّها قبل قليل برنامج مخصّص عن الطبخ. ثمّة امرأة عريضة الجبين، مدوّرة الوجه وذات شارب مدهش، منشغلة بتناول أكلة السبانخ المطبوخ بالجبن المبشور، والذي أخرجته توًّا من الفرن.

* * *

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١

موسى ومريم ومحمّد

ضمّت مريم بذراعيها ذواتيّ الغمّازتين بطنها المنتفخة، وتنهَّدت تنهيدة عميقة وهي ترنو إلى الباب منتظرة محمّد. ففي ذلك اليوم، وُفِّقت مجدّدًا في إرسالها ولدها إلى المدرسة، لكنّ الله وحده يعلم كيف سيكون حاله لمّا يعود إلى البيت. كان محمّد متعوِّدًا في البداية أن يحكي لها في إسهاب وتفصيل عن كلّ ما يحدث في المدرسة، خيرًا كان أم شرًّا. بيد أنّه بمرور الوقت كان يغرق في صمت محض. غير أنّ ما لم يفصح عنه ولدها بالكلمات، فإنَّ مريم كانت تدركه من عينيه القلقتين أو من فتق درزة زيّه المدرسي وانخلاع أزراره، أو من الكدمات الواضحة على ذراعيه. وبلغ بها القلق مبلغًا وهي تستمع إليه. ففكرة احتمال ضرب أحدهم ولدها، سواء أكان طفلاً أم بالغًا، تُصيب منها مقتلاً. لم يكن والده قد ضربه ولو ضربًا خفيفًا حتى هذه اللحظة، بخلاف مريم التي كانت وحدها التي تصفعه بضع مرّات ـ غفر الله لها فعلتها ـ وتقرصه أحيانًا أيضًا، غير أنّ هذا كان شيئًا مختلفًا. الحقّ، منذ أن اكتشفت مريم أنّ الآخرين يعاملون ابنها معاملة خشنة، امتنعت عن توجيه مثل هذا الانضباط البسيط. وعندما كانت تتخيّل الأطفال يمطرون

Twitter: @ketab_n

ولدها بوابل من الضربات، فإنَّ الدم كان يفور في عروقها. وفي وقت من الأوقات، فكَّرت أنّ ذلك ليس أكثر من مشاجرة بين الصبيان، بيد أنّ الأسابيع والأشهر مرَّت من دون أيّ تغيير نحو الأحسن. وكان أكثر ما يغيظها عدم اكتراثه رويدًا رويدًا بالضرب وليس ضرب أنداده له.

مرّت مريم بوقت عصيب، لا تفهم سبب اعتداء الأشقياء المتواصل عليه. هل لأنّه ابن حارس؟ لكنّها جسَّت نبض الأقرباء في الحيّ الذين يعملون في الوظيفة نفسها، ولكنَّها اكتشفت أنّ أطفالهم لم يواجهوا مثل هذا الخطب النحس في المدرسة. ما السبب إذًا؟ فمحمّد لم يكن أسمن ولا أقبح ولا أغبى من غيره من الأطفال. فما السبب في عجزه عن الوقوف في وجه الأشرار؟ رنت مريم إلى بطنها المنتفخة في يأس. فهي تعرف الجواب معرفة تامّة، وهو واضح أمامها: السبب هو موسى. يقولون إنّ الدم يحذو حذو الدم، وإنّ محمّدًا شبيه بأبيه، وإنّه مذعن وخَنوع على نحو ضعيف، ولم يرث شيئًا، ولو ضئيلاً، من ضخامة أمّه الهائلة. فهو في غاية الصغر وفي قصر القامة وفي نحول البنية. وقد دأبت أمّه على إطعامه طوال سنوات خمسَ مرّات في اليوم الواحد رغمًا عنه، وجعلته يأكل البيض المسلوق سلقًا خفيفًا في صباح كلّ يوم، ولكن بلا طائل. فهو لم يزدد طولاً ولا وزنًا فحسب، بل ظلّ يبدو أصغر من أنداده بسنتين في أقلّ تقدير. صحيح، أنّ محمّدًا كان على الدوام صغيرًا، ولكن قوامه انكمش انكماشًا واضحًا منذ أن بدأ بالالتحاق في المدرسة الابتدائيّة، وراح يرتطم بحاجز سخرية أنداده وازدرائهم إيّاه.

عندما ارتدى محمّد زيّ المدرسة الذي جاءت خياطته على وفق مقاس أكبر من مقاسه، كي يتمكّن من ارتدائه في سنوات مقبلة أيضًا، حاملاً على كتفيه حقيبة القماش الضخمة، فإنّه بدا ضئيلاً على نحو واضح، ما دفع كلّ من رآه في تلك الحالة إلى تأنيب مريم، لأنّها لم تنتظر سنة أخرى قبل أن ترسله إلى المدرسة. وأصبحت ضآلة محمّد

Twitter: @ketab_n

مقارنة بأقرانه مثيرة للانتباه، وكأنّه تحت عدسة مكبّرة. كان أصغر تلاميذ صفِّه، وأصغر تلاميذ المدرسة مؤكّدًا. ولو كان هذا هو المشكل الوحيد، لما جعلت مريم من الأمر قضيّة، بل لكانت أصلحت من شأن حنينها إلى ابن متين البنية، مفتول العضلات مثل شجرة صنوبر، مهيب، يلقي الروع في القلوب مثل زورق سلطان؛ ابن يستطيع استخراج الماء من صخرة، ويجعل كلّ من يقطّب في وجهه ترتعد فرائصه، ولكنّه على الرّغم من ذلك، يملك قلبًا رقيقًا يستطيع أن يعتني بأمّه المصابة عندئذٍ بالخرف. بالرّغم من هذه الأحلام التي كانت تراود مريم، فإنَّ محمّدًا لم يبرهن على أنّه شبيه بأبيه من حيث قوامه البدني فحسب، بل بدأ يكتسب عاداته أيضًا. وممّا يبعث على ما يكفي من الغرابة، وعلى الرّغم من أنّه ظلّ لصيقًا بأمّه من المهد إلى المدرسة، ولبث طوال الوقت نائمًا ــ أو ــ ناعسًا كأنّه أب، فإنَّ هذا المحمّد انتهى به الأمر بعد أن خرج من رعاية أمّه إلى أن يعتني بشخص واحد لا غير، ولم يكن ذلك الشخص إلّا أباه بلحمه ودمه، ما أدّى إلى اضطراب مريم اضطرابًا شديدًا، إذ كانت تعتقد اعتقادًا جازمًا في آخر الأمر أنّ الفضل كلّه يرجع إليها، إذا كان موسى يحظى بمأوى يلجأ إليه وعمل يقيم أوده. لقد تمكّن موسى حتى هذه اللحظة من الوقوف على قدميه، لأنّه وضع مقادير نفسه كلّها في يد زوجته. ماذا سيحدث لو لم يكن ابنه محظوظًا؟ ماذا سيحدث لو أنّ الحياة لم توفّر لمحمّد مريم أخرى؟ عندئذٍ، يستحيل عليه البقاء حيًّا في اسطنبول، لأنّ هذه المدينة ستوسعه ضربًا أشدّ إيلامًا وقسوة من الضربات التي يتلقّاها الآن من أقرانه.

بدأت مريم تحرق الأُرم منهمكة في التفكير، وهو ما لم تلجأ إليه إلّا نادرًا في هذه الآونة، وبخاصّة عندما تكون مضطّربة ومرتبكة. ومع هذا، كانت تحرق الأُرم كثيرًا في الليل ما يدفعها إلى إيقاظ كلّ من في المنزل. كانت جدّة الجدّة ما تزال على قيد الحياة يومئذٍ، على قيد

Twitter: @ketab_n

الحياة ومتقدّمة في السنّ، على نحو جعل بدنها النحيف مطهّرًا من داء التشاؤم والقلق على مصير البشريّة والعجالة. وفي يوم من الأيّام، أجلست مريم لتحذيرها من أنّها لن تتمكّن من التوقّف عن حرق الأُرم إلّا بعد أن تكون قد تعلّمت الصبر، وإلّا لن تكون ذات نفع في الحياة، ومثلما حرمت الناس من نومهم اليوم، فإنّها سوف تحرمهم من راحة البال والطمأنينة غدًا. وما سبيل تعلُّم الصبر إلّا من خلال تعلّم كيفيّة ملء «حقيبة صبر». وهذا يتطلَّب كيسًا خاويًا، وينبغي تركه في مكان عالٍ ومشدودًا من طرفه بعصا وكأنّه راية. أصغت مريم التي لم تكن أكبر سنًّا من محمّد يومئذٍ لهذه النصيحة باهتمام ويقظة، وصعدت بسرعة الأرنب إلى سطح قبو الفحم في الحديقة، حيث علّقت كيسًا خاويًا بمكنسة بمشقّة بالغة. وكان هبوب الريح يدفع بمختلف الأشياء داخل الكيس، لكي يمتلئ شيئًا فشيئًا بمرور الوقت. وتبعًا لذلك، فإنَّ الشيء الوحيد الذي كانت مريم تتوقّع أن تفعله إنّما هو الانتظار، ولا شيء غير الانتظار، فانتظرت كي تتأكّد من أنّها لم تنسَ ما كانت تنتظره. هذا ما يسمِّيه الناس «الصبر».

غير أنّ مريم كانت، وهي في تلك السنّ، تنقاد للنزوات الطارئة، ناهيك عن ذكر ضيق صدرها وقصر أناتها على نحو مفزع. فكلّما واجهت تحدّيًا ما، فإنّها تبذل كلّ ما في وسعها كي تقهره. ولم يكن «ملء الكيس» استثناء من ذلك. ففي الأيّام التي ستأتي من بعد ذلك، تجدها تذهب لفحص الكيس أوّلاً في صباح كلّ يوم، غير أنّها كانت تهبط السلّم خائبة الأمل في كلّ مرّة. كان عبء عدم فعل أيّ شيء لا يُطاق، حتى إنّها كانت ترى فيما يرى النائم أنّها تحمل الدلاء لملء الأكياس بالتربة، واحدًا فواحدًا. وتحوّلت الليالي إلى كابوس لجميع أفراد الأسرة، لأنّ هذا العمل في الحلم جعلها تصرّ على أسنانها أكثر من ذي قبل. وأصبحت جدّة جدّتها قانطة يائسة، وجدّتها ذاهلة مرتبكة،

Twitter: @ketab_n

ووالدتها هائجة تستشيط غضبًا. واسترسلت النساء الثلاث يتحدّثن عن نبيٍّ اسمه أيُّوب.

أرادت مريم أنّ تعرف المدّة، فسألت:

ـ حسنًا، سوف أنتظر، لكن أخبروني إلى متى؟

قالت جدّة جدّتها ملمِّحةً:

ـ إلى أن يمتلئ الكيس من تلقاء نفسه.

ردّت جدّتها بشراسة وخشونة:

ـ إلى أن تكوني مستعدّة.

واختتمت أمّها قائلة:

ـ إلى أن يمتلئ الكيس وتكوني مستعدّة.

في تلك الأثناء، كان والدها قد أنزل السلّم الخشبيّ من موضعه، وهو الرجل المريض الذي أضنته أربعة أجيال من النساء في المنزل، وقضيّتهم المتعلّقة بهذا الكيس التي لم تنته بعد. لم تستطع مريم أن تتحمّل إلّا مدّة أسبوعين اثنين، من دون ارتقاء السلّم وإلقاء نظرة داخل الكيس، بعد أن راحت «تنتظر لا شيء غير الانتظار»، وهو ما لا يساوي شيئًا في دفترها. وبعد مرور أسبوعين، كان المنزل خاليًا من أفراد الأسرة، فما كان منها إلّا أن أخرجت طاولة المطبخ إلى الحديقة، ووضعت كرسيًّا من فوقها ووثبت إلى سطح قبو الفحم، وحشرت رأسها داخل كيس الصبر. وعندئذٍ، شاهدت نتيجة ما كانوا يسمّونه صبرًا: أوراق نباتات يابسة وأعشاب شائكة وأغصان متكسِّرة وفراشتان نافقتان... هذا هو جزاء الذين يصبرون: إمّا حفنة من أغصان يابسة أو جروح النبيّ أيُّوب القاتلة.

هنا ينتهي الموضوع. فبعد ذلك اليوم، توقّفت مريم عن اختلاس النظر إلى الكيس، ولم تعد تفكّر فيه أبدًا. إنّها ليست من النمط الذي

Twitter: @ketab_n

ينتظر انتظارًا متساهلاً ومتسامحًا. ولو لم تكن القضيّة على ذلك النحو، لما تزوّجت مريم بموسى، بل لكانت انتظرت عيسى بدلاً من ذلك، وهو الأفضل من بين الذين تقدَّموا لخطبتها، والعودة من اسطنبول. على أيّ حال، فإنّها عوضًا عن انتظار عودة عيسى، التي لا يعلمها إلَّا الله، كانت قد اتّخذت قرارًا بالمجيء إلى اسطنبول بنفسها، وتزوّجت لهذا السبب موسى بعد أن جذبته وإيّاها. لسوء الحظّ، ما إن عادا إلى المدينة، حتى أدركت أنّ الأمور لا تسير وفق ما تشتهي. فبعد أن أدركت أنّ موسى لن يتمكّن من التكيُّف في اسطنبول، وجدت نفسها تتذكّر بعد كلّ تلك السنوات كيس صبر جدّة جدّتها. يستحيل عليها أن تجلس منتظرة الريح حتى تملأ الكيس، وموسى حتى ينضج، والحياة حتى تأتيهم ببضع فراشات نافقة أو أغصان يابسة. وقرّرت بدلاً من ذلك أن تتولى زمام مصيرهم. وهكذا، أخمدت مهارة الزوجة ودأبها وقوّة إرادتها حماسة موسى وبرّدت همّته، وجعلته ضعيف الإرادة وخاملاً، ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود. ونتيجة لذلك، ما إن حلّ موسى ومريم في اسطنبول حتى تحوّلا إلى تيّارين متضادّين، مثل مياه البوسفور تمامًا. وقد انعكس هذا التناقض في طبعهما أكثر فأكثر على مظهريهما. ففي الأعوام التي ستعقب ذلك، ازدادت مريم الفارعة القدّ، الخشنة العظام، وزنًا بكرور الأيّام، في حين انكمش موسى مثل كنزة محبوكة يدويًا وُضعت في غسّالة لتغسل من دون تحديد الدورة الصحيحة لها.

لم تكن مريم تتوقّع أيّ شيء من زوجها، بعد أن أسلمت نفسها لما آل إليه هذا الزوج. وفي الليل، وقبل نصف ساعة من وصول مركبة النفايات، كانت تجمع أكياس النفايات من شقق قصر القمل، وتوزّع على سكّانها في الصباح خبزهم وصحفهم. وكانت تفرغ من مهمّتها الأخيرة في وقت مبكر من الصباح، فيتبقّى لها من الوقت ما يكفي لتتشاجر مع محمّد، إضافة إلى قراءة البخت. كما كانت تتلكّأ قبل

Twitter: @ketab_n

الذهاب إلى العمل متناولة قهوتها، لكن ما إن تشرع في التوجُّه إلى العمل تجدها لا تتوقّف بسهولة. كانت تذهب لتنظيف خمس شقق مختلفة خمسة أيّام في الأسبوع. وعلى الرّغم من أنّها كانت في الشهر الخامس من حملها، إلّا أنّ مجموع النشاطات التي تمارسها لم تقلّ ولو قيد شعرة. ربّما كانت ترتقي درجات السلالم في هذه الآونة متباطئة، متمهّلة، لكن هذا هو كلّ شيء. كانت طاقتها تشبه وزنها؛ فمهما هرعت هنا وهناك، فإنَّ طاقتها لم تكن لتنقص شيئًا. كذلك، كان صبرها يشبه طاقتها؛ إذْ ظلّت تدير عجلاتها باستمرار، وكأنّها آلة في حالة حركة دائمة.

كان يخطر ببالها من حين إلى آخر أنّ من شأن أحوالها أن تكون أحسن وأفضل، لو لم يكن موسى موجودًا. ولو تلقّت نبأ موت موسى بحادثة سيّارة لذهلت وارتبكت، واستبدّ بها الهمّ والغمّ، غير أنّ حياتها لن تزوغ؛ الحقّ، أنّ حياتها لن تتغيّر. لكنْ، إن كانت هي التي قد تتعرّض إلى صدمة، فإنَّ من شأن موسى أن يتهشّم إلى فتات، وكأنَّ السيّارة لم تصدم جسد زوجته بل صدمت قلبه النابض والقوّة الدافعة في حياته ورزقه. على الرّغم من أنّ مريم بذلت قصارى جهدها كي لا تفكِّر في مثل هذه الأمور المنذرة بالشؤم، إلّا أنّها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً... وكلَّما تقدَّم بها الحمل، ازداد تركيزها في الأفكار المريعة التي تستعرض بكلّ قوّتها في عقلها.

ازدادت مؤخّرًا جزعًا من الهواجس الغريبة، وانتابتها الكوابيس، كابوسًا في إثر كابوس، مستيقظة صباح كلّ يوم بقلب يدقّ دقّات عنيفة متتالية، تعذِّبها فكرة احتمال حدوث ما ينذر بالنحس في أيّ لحظة. وفي ضوء ما جرى لها في حادثة كيس الصبر، كيف يمكن أن نتوقّع منها أن تنتظر مستسلمة، ومن غير مقاومة الشرّ حتى يعترض طريقها؟ لهذا السبب، اتّخذت مريم الاحتياطات. لو صادف الباحثون، الذين يجرون

Twitter: @ketab_n

تحليلات إثنولوجيّة على ما ينطوي الولادة من عادات ومعتقدات في تركيا، مريم في طريقهم بدلاً من إجراء مسح لكلّ قرية وبلدة، فإنَّ من شأنهم حقًّا أنّ يحصلوا على المعلومات والمعطيات نفسها بكلفة وجهد أقلّ.

كانت مجموعة الاحتياطات ذات الصلة بالولادة تشتمل على ثلاث مجموعات:

١) لا تقل الأشياء التي لا ينبغي فعلها أبدًا.

٢) كن حذرًا في فعل الأشياء التي تحتاج إلى حيطة وحذر.

٣) افعل الأشياء ذات الوقع الحسن في النفوس قدر المستطاع.

إنّ «الأشياء التي لا ينبغي فعلها أبدًا» ليس لها تفسير ولا مسوّغ لترتيبها. فكما لا يتعيّن على المرء تقليم أظافره ليلاً، فإنّه لا ينبغي له أن يفسِّر الأحلام في ذلك الوقت أيضًا. ولمّا كانت أسرار الأحلام متعذّرة على الفهم إلى حدٍّ بعيد، حتى في ضوء النهار الساطع، فكيف يمكن للمرء أن يفسِّرها في جوف الليل البهيم؟ رنّ مريم لم تترك قطّ قلّامات أظفارها في الجوار، بل كانت ترمي بها على الدوام في المرافق الصحّيّة حتى تتأكّد من عدم حصول أيّ شخص عليها. كما أنّها كانت تتفحّص الشعر، وتجمعه من على فراشي الشَّعر لتحرقه من بعد ذلك. وإذا ما سقطت شعرة واحدة من رأسها مصادفة في مكان ما خارج منزلها، فإنّها سرعان ما تلتقطها وتحتفظ بها في صدرها. كانت حسّاسة على وجه الخصوص في قضيّة الشَّعر والأظفار، مؤمنةً بالاعتقاد القائل بأنّ هذه الأشياء هي الوحيدة من بين أعضاء جسم الإنسان التي تظلّ على قيد الحياة بعض الوقت، حتى بعد مفارقة الجسد الذي تنتمي إليه الحياة. وتبعًا لمريم، لا ينبغي لك أن تأخذ السكّين من يد شخص آخر، ولا أن تترك المقصّ مفتوحًا، أو أن تورد على طرف لسانك اسم الأحياء أثناء

Twitter: @ketab_n

مروركَ بمقبرة، ولا أن تتكلّم على حيوانات وأنت في حجرة فيها القرآن، ولا أن تتمتم بأغنية. وإذا كان ممكنًا، فلا يتعيَّن عليك أن تفتح فمك عند استيقاظك وذهابك إلى المرافق، حيث يجتمع الجانّ ليلاً ولا أن تقتل العناكب. إنّ قائمة الأشياء التي ينبغي لك أن تتحاشى فعلها ممتدّة امتدادًا لا نهاية له، والولادات تحظى بمكانة مميّزة في هذه القائمة. ولا مناصّ من مراقبة النسوة أثناء الحمل، وعلى امتداد الأيّام الأربعين التي تلي الولادة مراقبة تامّة، ويجب دفن مشيمة الجنين في أعماق الأرض. صحيح أنّ مريم لم تقدر إقناع ذلك الطبيب ذي النظّارات، اللامبالي وغير الودّي، في حفر حفرة لدفن مشيمة محمّد في حديقة المستشفى التي أنجبته فيها، إلّا أنّها خرجت منتصرة في نهاية الأمر بفضل الممرِّضة البلهاء. الموت حسّاس حساسيّة الولادة، فعندما كانت مريم تزور شخصًا ما يحتضر على فراش الموت، فإنّها تخاطبه بمختلف الأسماء، الواحد تلو الآخر، كي تحتال على ملك الموت. وإذا لم تقدر على تضليل عزرائيل وخداعه، ومات المريض، فإنّها تعمد إلى إعطاء كلّ قطعة من ثياب الميِّت إلى بائع ثياب عتيقة جائل، لم يسبق لذلك الميِّت أن التقاه. وإذا ما ارتكب البائع الجائل هفوة وتفوّه ببضع كلمات، على سبيل المجاملة، عن الراحل، فإنّها سرعان ما تستعيد الثياب منه وتعطيها لآخر.

على أيّ حال، يكمن خفاء الهويّة في جوهر مهنة البيع الجائل. إذْ ينبغي على المرء ألّا يعرف أبدًا ما البضاعة التي بقيت على عربة البائع الجائل ومن الذي تركها. الحقّ، يتعيّن على المرء ألّا يفكِّر أبدًا أنّها كانت يومًا ما من مقتنيات شخص من الأشخاص. وقد كانت المسؤوليّة النبيلة ملقاة على عاتق البائع الجائل في تسليم ثياب يعرف من هم أصحابها إلى ناس مجهولين لا يعرفهم. وفي نهاية المطاف، في حين كان الناس الذين أعطوا هذه الثياب مضطرِّين إلى التخلُّص من ماضيهم،

Twitter: @ketab_n

فإنَّ الذين اشتروها ما كانوا يريدون أن يعرفوا أيّ شيء عن ذلك الماضي. وكان الباعة الجائلون يتوسَّطون هاتين المجموعتين من الناس، يخلِّصون المقتنيات الشخصيّة من كلّ الذكريات التي مرّوا بها، والنهايات المثيرة للحزن والألم التي انتهوا إليها، كي يتمكّنوا من البدء بحياتهم من جديد. هكذا، ينبغي أن تكون الأمور كي يتمكَّن الكبار من إنجاب الصغار، وتُبعث الحياة من الموت. الحقّ، لو أنّ مريم طُلب إليها أن تذكر أقدس المهن على وجه البسيطة لذكرت مهنة البائع الجائل قبل ذكرها مهنة المعلِّم أو الطبيب. هذا لا يعني أنّها كانت ترغب في أن يصبح محمّد بائعًا جائلاً، غير أنّها كانت تشعر بمودّة عميقة تجاه هؤلاء الرجال الذين يحملون على عرباتهم بقايا منزل متناثر، أو رحيل أحد المعارف، ليأتوا بعد ذلك بمقتنيات آخرين من مناطق بعيدة، وبهذا يخلطون خلطًا آنيًا ومطّردًا بقايا ونتفًا من تلال اسطنبول السبع ومن مختلف الجماعات.

أمّا فيما يخصّ «الأشياء ـ التي تحتاج ـ عناية»، فالأفضل عدم القيام بها نهائيًّا؛ ولكن، إذا اضطررت إلى ذلك، فينبغي لك على الأقلّ أن تتّخذ الاحتياطات اللازمة. فعلى المرء أن يمتنع عن خياطة قطعة قماش على جسد شخص مثلاً. وبدلاً من ذلك، يمكن للمرء أن يأتي بشيء ما يمكنه أن يوازن أيّ حدث مكروه يمكن للإبرة أن تجلبه. هذا هو السبب الذي دفع مريم إلى وضع ملعقة خشبيّة في فم المرأة التي تريد أن تخيط القماش على جسدها. وإذا ما كسرت مرآة مصادفة، فإنّها تذهب من فورها وتشتري مرآة أخرى بدلاً منها. ولمّا كانت النار تقاوم النار، فيمكن أيضًا كسر مرآة إلى قطع صغيرة أيضًا. ومع هذا، كانت تُؤْثر أقلّ علاقة ممكنة مع المرايا، لأنّ كلّ مرآة ليست سوى بوّابة فضّيّة مغلقة نحو المجهول. ولمّا كانت ترى أنّ نظر المرء إلى وجهه باستمرار في المرآة ينذر بالشؤم، فإنَّ المرآة الوحيدة المتوافرة في بيتها كانت

Twitter: @ketab_n

تواجه الجدار دومًا. أمّا بخصوص الأبواب الاعتياديّة، فكانت تتوخّى الحيطة والحذر كلّما مرّت من خلالها. ولم تبثّ المقابر الخوف والهلع في نفسها قدر ما كانت تبثّه العتبات. فإذا ما كانت تجتاز بابًا من الأبواب، فإنّها لا تطأ العتبة أبدًا، بل تباعد ما بين ساقيها إلى أقصى درجة ممكنة، حتى تدخل مقدِّمةً رِجلها اليمنى أوّلاً. وكان تمييزها رِجلها اليمنى عن اليسرى مسألة تشغل بالها باستمرار. وإذا ما تحلَّقت من حول مائدة الطعام، فإنّها تضع قطعة من الخبز إلى يمينها لإطعام أولئك الذين ينظرون بعين الحسد إلى نعماء مائدتهم. وكانت تحتفظ بيدها اليسرى لإنجاز أشدّ الأعمال قذارة، وتحرص حرصًا شديدًا على الانعطاف من يمينها، إذا ما نادى أحدهم عليها وهي في الشارع، وتنشر ثيابها من اليمين إلى الشمال مثل الكتابة باللغة العربيّة، وتتأكَّد دومًا من النهوض من الجانب الأيمن من سريرها. على الرّغم من أنّ هذا كان يعني أنّ على موسى أن ينهض من الجانب الأيسر حتمًا، إلَّا أنّه لم يبدُ عليه أنّه كان يبالي كثيرًا بهذا الأمر، ما دام أنّ أحدًا لا يكدِّر عليه نومه.

كانت مريم تجمع طوال اليوم الهواجس وتقرأ العلامات، وأنّه لمن الفأل الحسن أن ترفّ عينها اليمنى، غير أنّها كانت تتوخّى الحذر إن رفّت عينها اليسرى. وإذا ما سمعت رنينًا في أذنها اليمنى، فذلك خبر سعيد، إلَّا أنها سرعان ما تبدأ بالقلق وتشعر بضيق الصدر خوفًا على مستقبلها، إذا ما جاء الرنين من أذنها اليسرى. الحكّة في القدمين علامة على قرب القيام برحلة. أمّا الحكَّة في الكفَّين فدليل على المال، والبحَّة في الحنجرة تشير إلى مكان محكم. وإذا ما أُصيبت مريم بالقشعريرة، فإنّها ترتاب في وجود الجنّ على مقربة منها. أمّا أوراق الشاي... فإذا ما انسلَّت ورقة من تلك الأوراق من مصفاة الشاي، ولاحت في كوب شايها، فإنّها تتوقَّع زيارة في ذلك اليوم. ويمكنها أن تستنتج من شكل ورقة الشاي هويّة الضيوف، ومن لونها مقاصدهم وأغراضهم. وإذا ما

Twitter: @ketab_n

نبح كلب بعد منتصف الليل، فإنّها تستنتج حزينة موت شخص ما عمّا قريب. إلَّا أنّها لم تعد متأكِّدة من هذه الظاهرة مثلما كانت متأكِّدة منها في الأيّام الخالية، منذ أن انتقل طالب في كلِّيَّة الطبّ، هزيل القامة، بليد الذهن، للسكن في الشقّة المقابلة لشقّتها رفقة كلبه المارد الشرِّير.

كانت مريم تلجأ إلى فنجان القهوة لتكتشف المصائب التي لا تقدر على استيعابها. كانت قهوة الصباح مخصَّصة لقراءة الطالع، وقهوة المساء للاستمتاع بشربها لا أكثر. وأصبحت لديها مؤخّرًا عادة شرب القهوة المضاف إليها مقدار قليل من شراب كحوليّ معطَّر بنكهة الموز. وكانت العشيقة الزرقاء الساكنة في الشقّة رقم ٨ هي التي عرَّفتها بهذا النوع من الشراب الكحوليّ. كان لديها مختلف أنواع الشراب الكحولي المصطفّة بإزاء قناني زيت الزيتون من شتَّى الأحجام. وجعلت مريم تتذوّق من كلّ صنف، فكان التوت الأحمر لذيذًا شهيًّا، والنعناع يترك من ورائه طراوة لذيذة في فم المرء. أمّا شراب الموز، فكان أكثر الأصناف التي استطعمتها مريم، وكان في وسعها أن تحتسي كمِّيّات كبيرة جدًّا منه، لو لم تكن قلقة على احتمال إلحاق الضرر بالجنين. وضحكت العشيقة ضحكة بلهاء معتقدة أنّ سبب تردّد مريم يرجع إلى خوفها من الإقدام على ارتكاب معصية، وقالت لها: «من قال إنّ هذا الشراب كحوليّ؟» وسرعان ما تشبَّثت مريم بهذا التفسير، فالشراب ليس كحوليًّا. وحثّتها العشيقة قائلة: «إذا أحببتِ هذا الشراب حبًّا جمًّا، فما عليكِ إلَّا أن تأخذي معكِ شراب الموز». ففي كلّ الأحوال، كان عشيقها يأتيها بكمِّيّات منه؛ وكانت مريم قد شاهدته مرَّتين اثنتين، رجلاً متقدِّمًا في السنِّ يكاد يكون في مقام أبيها، إضافة إلى أنّه متزوّج أيضًا، غير أنّها لم تقل شيئًا بخصوص هذه القضيّة، لأنّها كانت تنظر إلى القضايا الخصوصيّة على أنّها خصوصيّة حقًّا.

إلَّا أنّ ثمّة أمورًا أخرى لم يكن في وسعها أن تنأى بنفسها عنها

Twitter: @ketab_n

مهما بذلت من جهد، كعين الحسود على سبيل المثال. فهي أشبه بصدًى. فمثلما لا يتمكّن المرء من تحديد الصوت الأوّلي من وراء الصدى، فإنّه لا يقدر أيضًا على تعقُّب مصدر عين الحسود. ولمّا كانت تخشى هجومًا من أربع جهات مختلفة بأربعين وسيلة مختلفة، فقد عمدت إلى تزويد كلّ ركن من أركان البيت بإجراءات احترازيّة، وقائيّة. فعلّقت على الجدران خرزات عين الحسود وأدعية وحوافر جياد. وكانت ترشّ مياه زمزم المكِّيَّة، وتضع مقادير من الملح أو بزور الكمّون الأسود تحت الوسائد ووراء الأبواب، ولا تنسى وضعها في جيوب محمّد. وكانت تحتفظ بأصداف ظهور سلاحف، وقوائم سرطان وكستنة الحصان من فوق العتبات، فضلاً عن رُقًى مكتوبة على اللوز والتمر والأواني النحاسيّة ومختلف أنواع الأوراق وجلود الحيوانات. وأصبح اليوم كلّ من موسى ومحمّد متعوِّديْن على الحياة بهذه المجموعة المتباينة من الموادّ الآخذة بالازدياد التي تتغيّر مواقعها باستمرار. ومع هذا، لم تتمكّن أيّ من هذه الإجراءات الاحترازيّة في التخفيف عن مخاوف مريم من عين الحسود ولو بمقدار ضئيل. ففي أوقات مختلفة من النهار، تعمد إلى كسر طبق من الأطباق في حوض غسيل الأواني، عندما يداهم قلبها حزن مفاجئ يثير كدرها. وإذا ما تصدّع فنجان زجاجيّ، استنتجت أنّ لعنة عين الحسود قد حلّت على أسرتها، فترشّ الملح على النار. وإذا ما التقت شخصًا ما، تنذر زرقة عينيه بوقوع خطر وشيك، فإنّها تغطِّي وجه محمّد خلسة بيديها؛ وإن كان محمّد في مكان آخر مصادفة، فإنّها تغمض عينيها وتفكِّر فيه. كان الرعب يجتاحها من احتمال أن تحلّ لعنة عين الحسود على ولدها. وهكذا، عاش محمّد منذ نعومة أظفاره حياة، وهو ينتقل من مكان إلى آخر حاملاً التمائم والرقًى المثبّتة إلى قميصه التحتاني وبزور الكمّون الأسود المباركة في جيوبه، والأوراق المغطّاة بخربشات مريم تحت وسادته، ومستلقيًا من تحت ملاءة مرّة في كلّ

Twitter: @ketab_n

عشرة أيّام، بعد أن تمسك أربع نساء بها من زواياها الأربع، في حين يُصبّ الرصاص الذائب بالماء البارد من فوق رأسه لطرد السحر وفكّه. كان محمّد يتحمّل، وهو على أهبّة الاستعداد، كلّ هذه الأشياء طالما لا يجبره أحد على أكل البيض.

نشأت مشكلة صغيرة أمام محمّد بخصوص البيض، بعد أن أمضى المدّة الزمنيّة من ستّة أشهر إلى ستّ سنوات، وهو يُرغم على أكل البيض المسلوق سلقًا خفيفًا في صباح كلّ يوم لعين. ووجد محمّد أنّ الأسوأ بكثير من مذاق البيض هو القشور التي كانت تستخدم لكتابة التماسات شكوى. ففي صباح كلّ يوم، وما إن يفرغ من أكل البيضة ويبدو قشرها نظيفًا لامعًا من الداخل، حتى تبدأ أمّه مريم بالكتابة على قشرتها أيّ شكوى ترجع إلى اليوم السابق: «بالأمس، كذب محمّد على أمّه، ولكنَّه لم يكذب بعدُ اليوم». «بالأمس، صبّ محمّد لعنته على العمّة التي سكبت الرصاص، ولكنَّه لن يفعل كذلك مرّة أخرى...». كانت تلك القشور الفارغة تُرمى في كلّ مرّة إلى الطيور، حتى تأخذ هذه الشكاوى إلى الملكين اللذين يدوّنان في سجلّاتهما السماويّة كلّ الآثام والمعصيات وأعمال الخير التي تُرتكب على الأرض. وكان محمّد يتطلّع من خلال النافذة لمشاهدة مخبريْه المجنّحين إلى أن التحق بالمدرسة الابتدائيّة. إلّا أنّه في كلّ مرّة كان ينظر من النافذة، لم يستطع أن يرى من الطيور إلّا تلك العصافير المغرِّدة المتربِّعة على أغصان ورد الأكاسيا في الحديقة، أو الغربان القبيحة المنظر التي تقطع الشوارع في طيش وتهوّر. ثم هناك طائر الكناريّ في قفصه داخل نافذة الشقّة رقم ٤، غير أنّ ذلك الطائر لم يكن يقوى على خفق جناحيه، ناهيك عن طيرانه وتحليقه.

ارتاب محمّد في طيور البحر، إذْ شاهدها وهي تنبش في أكياس الزبالة المتراكمة بجانب سور الحديقة. وكانت تلك الطيور ترسم دوائر

Twitter: @ketab_n

وسط أنفاس الريح الرطبة وهي تهبط إلى أكوام النفايات، وبدت لمحمّد أنّها كلّما حصلت على معلومة ثمينة، تعود وتحلّق عاليًا في السماء مصدرة أصواتًا تنمّ عن السرور. وفي الليالي، كانت تتجمّع فوق السطوح لتراقب الآثام والمعاصي المرتكبة في العمارات السكنيّة في اسطنبول. فكّر أنّ النوارس لا تنام أبدًا، بخلاف أبيه.

Twitter: @ketab_n

شـقة رقـم ٢
سيدار وغابا

فتح الباب مكفهرّ الوجه متجهِّمًا. غير أنّ انزعاجه لم يكن بسبب ارتباكه في الإجابة في امتحان التشريح، وإنّما لأنّه كان قد أخذ على عاتقه أن يؤدِّي امتحان التشريح في المقام الأوّل، وهو يدرك إدراكًا جيِّدًا أنّه سوف يخفق فيه. وندم الآن ندمًا شديدًا، لأنّه عندما استيقظ في صباح هذا اليوم، انطلق مهرولاً خارج المنزل، ودفع لسائق الأجرة زيادة على التعرفة، بدلاً من أن يضرب الوسادة بعدما اكتشف أنّ الساعة المنبِّهة أخفقت في الرنين. وندم ندمًا أشدّ، لأنّه بعد أداء الامتحان التحق بأصدقائه الذين تجمهروا مثل اليمام المحتشد من حول القمح، لكي يعرف كيف أجاب كلّ واحد منهم عن كلّ سؤال من الأسئلة، وليتذمّر الكلّ من بعد ذلك ويشكوا أمرهم من الأستاذ ومن مجمل هيكل الجامعة. يضاف إلى ذلك كلّه، فإنّه ما إن انضمّ إليهم حتى انتهى به المقام إلى تزجية ذلك اليوم في المقاهي وسط ثرثرة لا نهاية لها. وها هو الآن يندم على كلّ الطاقة التي بدَّدها من غير طائل. كان سيدار يعتقد أنّ الطاقة سلعة نهائيّة، شأنها شأن محلول العين في قطّارة صغيرة الحجم. وتبعًا لذلك، لم يستعمل أكثر من قطرتين يوميًّا، الأولى كي

Twitter: @ketab_n

يستيقظ في الصباح، والثانية كي يخلد إلى النوم في الليل.

وجد نفسه في لجّة الظلام، بعد أن أغلق الباب الخارجي من ورائه من دون أن يضيء نور الردهة. لا مناصّ من أنّه نسي إزاحة الستائر جانبًا لدى خروجه متعجّلاً في الصباح. غير أنّ ذلك لم يكن ليشكّل فرقًا كبيرًا لأنّ النوافذ الصغيرة كانت بمستوى الأرض، ولم يكن في ميسور هذه الطبقة تحت الأرضيّة، الضيّقة والشبيهة بالجحر أن تحصل إلّا على بصيص من النور. تهادى سيدار في سيره، وهو يستنزل اللعنات على الغبيّ الذي وضع زرّ النور على بعد مترين اثنين من المدخل. إلّا أنّه لم يستطع المضيّ في طريقه، لأنّ ظلّه الطويل الظاهر من ورائه كان حجر عثرة أمامه، وكان الاثنان يصطدمان ببعضهما بعضًا ما جعل سيدار يفقد توازنه، ويميل إلى أمام ليرتطم رأسه بالأنبوب السميك في وسط حجرة الجلوس. انخلع فؤاده عندما وصل إلى الزرّ... وعبس في وجه غابا... من جهة أخرى، لمّا كان غابا قد حصل على بغيته، فقد راح يلوك قطعة السميط التي اختطفها من جيبه، فرحًا سعيدًا.

فرك سيدار رأسه متّكئًا على أريكة، فقد كان رأسه يصطدم على الدوام في البقعة نفسها، لأنّ الأنبوب القذر المغبرّ كان يمرّ بمستوى أذنه وسط حجرة الجلوس ـ التي كانت تمثّل حجرة نومه وطعامه ودراسته أيضًا. وفي هذا الصباح، بينما هو ينطلق لمغادرة المنزل، صدم رأسه مجدّدًا، وإذا ما استمرّ الحال على هذا النحو، فإنَّ من شأنه أن يكون له حاجز هناك. لحسن الحظّ، تلاشي استياؤه عندما استلقى على الأريكة. كان يستمتع الاستمتاع كلّه عندما يكون في المنزل، إذْ يمكنه أن يبقى هنا بعيدًا عن الضوضاء الذي ابتليت به كلّ زاوية من زوايا اسطنبول. وما دام أنّه في المنزل، فإنَّ في وسعه أن يظلّ ساكنًا وهادئًا تمامًا، على العكس من العالم الخارجي، شأنه شأن غابا بعد أن يتخم معدته.

في أوقات العصر، بخاصّة، تصبح العزلة المهيمنة على الشقّة رقم ٢

Twitter: @ketab_n

أشدّ وضوحًا. ففي مثل هذا الوقت تقريبًا من كلّ يوم، يبتلع قصر الحلوى توقّف تامّ ومؤلم. وإذا كان محيط القصر المجاور يكتسب ضوضاء أرض معارض وصخبها، التي تتميّز بهدير أبواق السيّارات المنحشرة في ازدحام حركة المرور، وزعيق الأطفال وهم يلعبون في المتنزّه وصيحات الباعة الجائلين ـ فإنَّ خليط الأصوات غير المتجانسة يتسلّل من خلال شقوق قصر الحلوى وتصدُّعاته، ويهيمن على كلّ شقّة باستثناء هذه الشقّة. ولم يكن الضجيج وحده الذي يفشل في اختراق الشقّة رقم ٢، بل إنّ موجات الحرارة لم تتمكّن من اقتحامها أيضًا. ولمّا كانت أشعّة الشمس غائبة عنها تقريبًا، فإنَّها تحافظ على برودتها وكأنّها قبو في أيّام الصيف، في حين تشتعل بقيّة الشقق من شدَّة الحرّ. كما أنّ رائحة الزبالة الحامضة التي تعذِّب كلّ النزلاء الآخرين، تكون في أدنى مستوياتها هنا.

الحقّ، أنّ الشقّة رقم ٢ كانت مخصَّصة عند البدء بتشييد قصر الحلوى لتكون مخزنًا وليس للإقامة، وظلّت تستعمل لذلك الغرض زمنًا طويلاً. لكنْ، بعد وفاة مالك العمارة وانتقال ملكيّتها إلى ابنته، التي آثرت أن تهتمّ بكلّ شيء من مسافة بعيدة، فقد حظي هذا المخزن بنصيبه من التغييرات التي حدثت والتي كان كلّ واحد منها أشدّ إشكالاً من سابقه. ففي أثناء الفوضى التي عمّت، اندلعت مثل هذه المشاجرات الكبيرة عندما حاول كلّ جار أن يضع مقتنياته الشخصيّة غير المستعملة في هذه المساحة الضيِّقة، ولم يحالف الحظّ أيًّا منهم في استعمالها زمنًا طويلاً في نهاية الأمر، وبناءً على تعليمات وصلت من فرنسا، أُجِّرت هذه الطبقة تحت الأرضيّة، الضيِّقة والصغيرة، والمحتوية على حجرة واحدة، بنصف قيمة إيجار بقيّة الشقق. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، أوى إليها شتّى أصناف البشر، بشر يختلف أحدهم عن الآخر اختلافًا واضحًا، ولكنَّهم يستوون في أمرين اثنين، هما: الفقر والعزوبيّة. ومن

Twitter: @ketab_n

بين أولئك الناس، كلّ من (بحسب الترتيب الآتي): مذيع أخبار في محطّة إذاعيّة محلِّيَّة يعتاش على شطائر الدجاج ثلاث مرّات يوميًا؛ محاسب مهموم سلبه أقرب أصدقائه كلّ حسابه المصرفي وزوجته التي عاش وإيّاها ثماني سنوات؛ هارب من الجيش كان يترك التلفاز يصدح بأعلى صوته أثناء شهر رمضان تاركًا الناس يستمعون إلى الخطب والتراتيل الدينيّة؛ شخص مريب لم يستطع أحد معرفة طبيعة مهنته أو يتجرّأ على سؤاله عنها؛ وفنّان غريب الأطوار استخدم المكان ليكون استديو يرسم فيه السيقان والكواحل والأحذية التي يشاهدها من النافذة... ومن بين كلّ النزلاء الذين شوهدوا في الشقّة رقم ٢ إلى هذا اليوم، وهو نبيّ القطط الذي انتقل إليها لاحقًا، هو ذلك الذي ترك من ورائه أكثر ما يمكن من الأثر والرائحة.

وبعد نبيّ القطط، ظهر للعيان سيدار رفقة كلبه، من نوع السَّنْبِرنار الضخم والذكي والسويسري الأصل. ولمّا كان لا يملك أيّ مقتنيات على العكس من النزلاء السابقين، وإن كانت مملوءة تمامًا في سابق الأيّام، فإنَّ الشقّة رقم ٢ راحت تمرّ اليوم بأشدّ مراحل حياتها جُدبًا وعُقمًا.

كان غابا كلبًا خارجًا على المألوف، نقيضًا سائرًا، مقارنة بسلالته التي عرف عنها قدرتها على قضاء أيّام طويلة من دون ماء أو طعام وإحساسها بالخطر الدائم وإضفاء الأمن والأمان على مالكيها، واقتفاء أثر المخدّرات المخفيّة في زوايا منعزلة، وإنقاذ ضحايا من تحت الأنقاض، ومصاحبة الأطفال والعميان وكلّ من يحتاج إلى عون ومساعدة صحبة وفاء وإخلاص. وإذا كان ثمّة شيء واحد في العالم، لا يقدر غابا ربّما على تحمُّله، فهو الجوع. فمعدته لا قرار لها، وشهيّته لا تشبع. وإذا ما تُرك من دون طعام مدّة ساعتين اثنتين، وليس يومًا كاملاً، فإنّه يشيع الفساد ويبثّ الفوضى والاضطراب، ويلوك كلّ من يقترب من مخالبه، سواء أكان ذلك كتابًا في التشريح أم كرسيًّا خشبيًّا أم دلوًا

Twitter: @ketab_n

بلاستيكيًا. . . ويلجأ إلى ممارسة شتّى أنواع الحيل من أجل الحصول على لقمة إضافيّة. إلَّا أنّه ما إن يملأ معدته حتى يستلقي في الزاوية، ضخمًا، ثملاً وساكنًا سكون الموتى وكأنّه دبّ محنَّط، من دون أيّ أثر لتلك «الحيويّة والحماسة» اللتين أبداهما قبل لحظة واحدة. وربّما كان امتناعه عن إبداء أيّ حماس، مهما كان قليلاً تجاه الطعام، هو الذي جعله لا يستمتع بأيّ نشاط، ولا حتى الخروج للنزهة. وتملّك سيدار شكّ في أنّ غابا راح يعاني الصمم بتقدُّم سنِّه، إن لم يكن السبب راجعًا إلى حقيقة أنّه لا يبدو أمام أيّ صعوبة في سماع الأصوات المهمّة له، مثل صوت طعام الكلب الذي يُوضع في طاسة، وصوت فتح علبة طعام معدنيّة أو وقع أقدام مريم وهي آتية بالخبز في الصباح.

ساور سيدار شعور عميق بالذنب، لأنّه أحضر هذا الكلب الرائع من جبال جورا[1]، ليُقيم في هذا القبو النتن في عمارة سكنيّة متداعية في واحد من أشدّ أحياء اسطنبول ازدحامًا، وعلى هذا الأساس، كيف يمكنه أن يتوقّع من الكلب أن يتصرَّف تصرُّفًا طبيعيًّا؟ إذا ما أردنا قول الحقّ، فإنَّ جزءًا من هذا الذنب مصدره اعتقاده بأن كلّ أنواع المعجّنات المحتوية على خشخاش الأفيون والكعك المحتوي على الحشيش التي كان يطعمها لغابا ــ بقصد المزاح والعبث أوّل الأمر ولأنّه بات مدمنًا عليها بعدئذٍ ــ قد يكون لها دور في فتور همّة الكلب وخمول بدنه، ناهيك عن تأثير الدخان من الدرجة الثانية طوال هذه الأعوام. هكذا، كانت الحدود القصيرة لوخزات الضمير التي نخرت في أعماق سيدار.

كان غابا لا يضاهيه أيّ شيء في عينيّ سيدار، فهو «الواحد الأحد». والحقّ، أنّ هذا البيت لا يحتوي إلَّا على شيء واحد من كلّ

---

(١) جبال جورا Jura: سلسلة جبال تمتدّ من فرنسا وسويسرا وغربي ألمانيا، ١,٧٣٢ م. تكثر فيها تربية الماشية وإنتاج ألبان وأجبان مشهورة، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

شيء: غابا واحد وسيدار واحد وحاسوب واحد وأريكة واحدة وكرسيّ اعتيادي واحد وكرسيّ بذراعين واحد وطاولة واحدة ومصباح واحد وقِدْر واحد وملاءة واحدة وقلم رصاص واحد. . . وإذا ما استُهلك أحد هذه الأشياء أو قُرئ الكتاب أو أصبح القرص المدمج مُملًّا، فعندئذٍ يؤتى ببديل ويُرمى القديم من فوره، أو يُترك لغابا كي يلوكه فيتلف.

بيد أنّ بساطة المكان تتوقّف بغتة في السقف، وكأنّ ثمّة سكّينًا جرت عليه. فقد لصق سيدار على هذا السقف أو ثبّت بالمسامير أو الدبابيس صورًا بالأسود والأبيض، الواحدة من فوق الأخرى، بعد أن كان قد اقتطعها من مختلف الصحف. وكانت الصور تشتمل على بعض رسائل مرسلة من أبويه، وقصيدة ناظم حكمت «موكب جنازتي» ومجلّات جمعها من هنا وهناك، ومجلّات صنعها بنفسه ومقاطع من شريط «ماوس»، وملصق عملاق يمثّل آل كندي الراحلين، وصورة سفينة تحاول أن تشقّ عباب البحر وسط الضباب (مأخوذة عن صورة قديمة واستُخدمت لتكون غلافًا لقائمة الأطعمة في مطعم تناول فيه عشاءه مرّتين لدى وصوله اسطنبول، وقرّر ألّا يرتاده أبدًا بعد أن عرف الفرق في الأسعار بين اسطنبول وسويسرا، فأدرك كم هي غالية) وصفحات مقتطعة من مسلسل «الرجل الوطواط: ليلة مظلمة»، وقميص قطنيّ أسود اللون طُبعت عليه من الأمام كتابة مفادها «إيصال عن رحلة كراهيّة في الديانة السيّئة»، وملصق إعلاني عن حملة مناهضة للمخدّرات، وعليه كتابة مكتوبة بحبوب المخدّرات تقول: «حياتي علبة مختلفة»، وصورة غابا وهو صغير، وصورة مستنسخة ومكبَّرة عن لوحة غويا «البعبع قادم»، وكولّاج بمقتطفات مأخوذة من مقالة سيوران عن إيكهارت، وصورة تخطيطيّة لإلٰهة الصحّة هايجين ذات النهدين العامرين والبطن الريّانة، والتي تحيط بخطوط عنقها أفعًى كبيرة، مأخوذة عن قصيدة «قادش» للشاعر «آلن غنسبرغ»، وقول مأثور: «الإنسان المتحضِّر لا يبصق على

Twitter: @ketab_n

الأرض، فعليك ألّا تبصق أنت أيضًا!» (كتب على علامة معدنيّة شقّ عليها خلعها في ليلة ما تعرّض فيها للضرب بالحجارة)، وصورة فيتغنشتاين التقطت له قبيل وفاته بوقت قصير، وصورة باهتة الملامح لأوتو وينجر، وملصق عن الرجل العنكبوت جالسًا ليشاهد المدينة من قمّة أحد برجيْ مركز التجارة العالميّة، وبجانبها صورة تمثّل لحظة الانفجار عندما نفذت الطائرة الثانية إلى البرجين في أيلول ٢٠٠١، وكلمات أغنية فريق «ذِس مورتال كويل» ولوحة بورتريه للفيلسوف التركي نيزين توفيق، وعليها بطاقة تقول «لا شيء» معلّقة على عنقه، وقصاصات صحف عن روبي فاولر، وعن امتحان منتصف الفصل تفيد: «تعال وقابلني على الفور»، مكتوبة بالحبر الأحمر، ونسخة مطبوعة من الحاسوب وباهتة من «زرادشت يلتقي صورته في الحديقة» للكاتبة ليونارا كارينغتون، ومجموعة كولّاجات بمختلف الوصفات وصناديق زاناكس، وإعلان كتبت عليه عبارة: «لا تبدّد مستقبل ولد، فالختان يتطلّب حساسيّة، والحساسيّة اسمنا الأوسط. اترك لنا كلّ ما يخصّ ختانك»، إضافة إلى صورة جواز سفر لخاتن علميّ كثّ الشارب وكثيف الحاجبين (وهو ملصق أصلاً حصل عليه مصادفة أثناء تجواله في شوارع الفاتح، ولمّا لم يقدر على إزالته من على الجدار، فقد اضطرّ إلى اقتنائه من العنوان المثبّت عليه)، وأغلفة أشرطة تسجيل من تسجيلات كينو سبق له أن أعدّها، وصورة قطار تحوّل إلى حطام وبات مقبرة جماعيّة لأربعمائة شخص في مصر سنة ٢٠٠٢، وملاحظات وولتر بنيامين من «مذكّرات موسكو»، ونماذج مستنسخة من مخطوطات «أغاني البراءة» لوليم بليك[١]، ورسوم متحرِّكة عن

(١) وليم بليك William Blake (١٧٥٧ ـ ١٨٢٧): فنّان تشكيلي وشاعر إنكليزي، وُلد في لندن لأب يبيع لوازم الخياطة، درس في أكاديميّة الفنون وفي الرابعة من عمره، تتلمذ على يد النحّات والنقّاش جيمز باسير. في ١٧٨١ تزوّج بابنة بستاني تجهل القراءة والكتابة، فعلّمها المهارتين وكيفيّة مساعدته في أعمال النقش. =

Twitter: @ketab_n

سلجوق[١]، مأخوذة من «أسلوب في الرأي»، وإحدى صور فرويد[٢] الأخيرة التي لا يحدّق فيها مباشرة إلى عدسة التصوير، وصور ونقوش عن زلزال لشبونة، وبطاقات بريد اسطنبوليّة، وصورة عائليّة التقطت قبل ثلاثة عشر عامًا في محطّة قطار حيدر باشا قبل مغادرته تركيا، وملاحظات تحتوي على أرقام هواتف أو رسائل، وأخيرًا وليس آخرًا قلادة فضّيّة ذات حجر كريم شفّاف معرَّق باللون الأسود، كانت تذكارًا من ناتالي التي بات يضنيه حبّه لها وإن لم يضنهِ حبُّها له.

عندما انتقل سيدار للسكن هنا، كان معتادًا شأنه شأن كلّ المتحضّرين أن يزيّن جدران سكنه بصورة وملصقات عزيزة عليه. وقبل مرور وقت طويل، أدرك غابا أنّ هذا مستحيل، وكان الكلب قد أغمي عليه في الطريق من سويسرا إلى اسطنبول، داخل مقصورة القطار التي كان مربوطًا إليها، وأطلق صيحة رهيبة، وكأنّ ثمّة من يقطّع بدنه إربًا إربًا، ورفض أن يخلد إلى الهدوء والسكينة على الرّغم ممّا قُدِّم له من

بواكير أشعاره ظهرت في ديوان «تخطيطات شعريّة»، ١٧٨٣، على نفقة صديقيه فلاكسمان والسيّدة ماثيو. في ١٧٨٩، نشر مجموعته «أغاني البراءة»، وفيها تخطيطاته، فظهر فيها منحاه الصوفيّ. القصائد بسيطة، ولكنّها تظهر قوّة خياله وأسلوبه المباشر البعيد عن الميوعة العاطفيّة، كما يؤكّد فيها أنّ الفرد والمجتمع هما اللذان يحطّمان البراءة في نفس الإنسان، فالفرد أنانيّ والمجتمع لا يكترث والمؤسّسات مدمّرة. الواضح، أنّ أفكار هذه القصائد مستمدّة من حالات الفقر والوحشة التي شهدها الشاعر في حياته. من أشهر قصائده الأخرى «الوردة المريضة»، رمز الجمال، و«النمر» رمز الجمال والأهوال، ورمز القوّة المدمِّرة، (المترجم).

(١) سلجوق: زعيم تركماني ينتسب إلى قبائل الغزّ، وهو جدّ السلاجقة، (المترجم).

(٢) سيغموند فرويد (١٨٥٦ ــ ١٩٣٩): طبيب نمساوي، مؤسّس علم التحليل النفساني، درس أهمّيّة الدوافع والعواطف «اللاشعوريّة» والعوامل الجنسيّة، لاسيّما في طور الطفولة. من كتبه: «تفسير الأحلام» و«قلق في الحضارة» و«ثلاثة أبحاث في الجنس»، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

طعام كلّ عشر دقائق. وفي اللحظة التي وطأت قوائمه أرض اسطنبول، كانت أعصابه في غاية التوتّر، فاضطرب ولم يعد يدري أين ينظر وعلى من ينبح. وفي نهاية الأمر، عندما بات ملتصقًا بهذه الشقّة الصغيرة، راح يعتاد على مهاجمة الجدران، ويلوك أيّ قطعة ورق يجدها أمامه بسبب الجوع أو سهولة الانزعاج والتهيُّج حبًّا ببلده. فما كان من سيدار إلّا أن أخذ يلصق الصور والملصقات الإعلانيّة في مكان أعلى قليلاً وهو في غمرة يأسه. ومع هذا، فإنَّ هذا «المكان العالي قليلاً» لم يكن من العلو ما يحول من دون وصول غابا إليها، علمًا أنّه أطول من أيّ مواطن تركي اعتيادي، إذا ما وقف على قائمتيه الخلفيّتين. وهكذا أخذت كلّ الصور والملصقات تهرب شيئًا فشيئًا من بين أسنان غابا الحادّة هروب لاجئين يتّجهون إلى التلال هربًا من حرب تدور في وطنهم، وراحت تعلو رويدًا رويدًا ناحية الشمال، حتى تجاوزت أخيرًا حدود الجدار واندفعت كلّها إلى السقف. استمتع سيدار بهذا الابتكار غير المتوقّع استمتاعًا شديدًا، دفعه إلى أن يوسع من مدى هذا العمل بكرور الوقت، وملأ الجزء الأعلى بكلّ أنواع الموادّ المكتوبة والمرئيّة التي كان يعتزّ بها. وفي الآونة الأخيرة، راح هذا الجنون اليوميّ الآخذ بالازدياد، بالامتداد امتداد الكروم المفعم بالحيويّة والنشاط، إلى سقف المطبخ من جهة وإلى سقف الحمّام من جهة أخرى.

كان سيدار يستلقي على ظهره من فوق الأريكة الوحيدة في حجرة الجلوس، وبيده لفافة تبغ، مثبّتًا عينيه على السقف على امتداد ساعات. وفي حين كان الدخان يسري بأقصى سرعته في دورته الدمويّة، كان السقف يكتسب حيويّة مدهشة. في مثل تلك الأوقات، كانت صورة فيتغنشتاين بالأسود والأبيض تكتسب احمرارًا، ويتورَّد وجه الفيلسوف، وتقفز الشخصيَّات المصغَّرة في الرسوم المتحرِّكة في سلجوق، وتثب من حول السقف. وكان الرجل العنكبوت يتدلّى من خيط، فيصعد ويهبط،

Twitter: @ketab_n

في حين تبدأ الهالات في مخطوطات بليك بالوميض، وكأنّها تروي حكايات مشفّرة. أمّا ساحر كارينغتون الأمرد، فذاب في صورته واختفى، وخلع بعبع غويا بغتة الملاءة البيضاء ليكشف عن وجهه، ولاحت ابتسامة قاسية على وجه الخاتن العلمي، وتنهّدت هايجين في انفعال، وتلاشت الشخصيّات من صورة محطّة قطار حيدر باشا واحدة فواحدة. وقبل أن يمضي وقت طويل، يشعر سيدار بالدم في عروقه فضلاً عن انسحاب قطرتين من الطاقة كان يملكهما من جسده، فيستسلم لبحر من النشوة الغامر. وعندما كان غابا يأتي أيضًا ويتكوَّر تحت ساقيه، فإنَّ الشقّة رقم ٢ وساكنيها الاثنين السابحين في السكينة يشكّلون كلًّا متكاملاً لا شائبة فيه.

ثمّة شيء واحد كان سيدار يستمتع في إطالة التفكير فيه، وهو الموت. والحقّ، أنّه لم يكن يفعل ذلك عن وعي، لأنّ الوعي لم يكن قضيّة هنا قطّ، فلم يوجّه دعوة للأفكار، وإنّما كانت تتدافع إلى ذهنه من تلقاء نفسها. لم يكن هوسه بالموت خيارًا، لأنّه كان على هذه الحال منذ طفولته، ولم يجد الموت مثيرًا للهلع بما يكفي لإثارة حزنه، ولا محزنًا بما يكفي ليخاف منه. كلّ ما كان يبغيه هو أن يفهمه فهمًا كاملاً وصحيحًا. وكلّما التقى أُناسًا لم يعرفهم من قبل، كان أوّل شيء يثير فضوله قبل أيّ شيء آخر هو موقفهم من الموت، مثلاً، هل كانوا يخشون الموت أم لا، وهل فقدوا عزيزًا، وهل مات أحد ما أمام أعينهم، وهل ساورهم شعور بأنّ في وسعهم قتل شخص ما، وهل يؤمنون بالحياة الآخرة... ثمّة أسئلة لا تُعدّ ولا تُحصى. ينبغي له أن يطرحها، غير أنّه نادرًا ما استطاع طرحها. لقد آمن منذ زمن بعيد باعتقاد مفاده أنّه يتعيَّن عليه أن يكفّ لسانه عن هذا الموضوع بالذات. أمّا إن كان في مقدوره أن يهوى امرأة أم لا، ويشعر بالراحة في بيت من البيوت، ويحبّ بطلاً من أبطال أحد الأشرطة السينمائيّة، وما رأيه في

Twitter: @ketab_n

مؤلّف كتاب قرأه، وما رأيه في المغنِّين الذين يستمع إليهم، فتلك أمور تعتمد كلّها على صلتها بالموت. في وسعه أن يقدِّر أحد السَفَلة، لا لسبب سوى أنّه مات ميتة جميلة، أو شمخ بأنفه أمام رجل محترم إذا ما انتهى بنهاية عاديّة. وما دام اهتمامه ظلّ يهيمن على معرفته، ومعرفته على اهتمامه، فإنّه امتلك أرشيفًا مهمًّا عن الموت في عقله. فهو لم ينسَ قطّ كيف مات، وأين نجوم الأشرطة السينمائيّة، وأبطال الكتب والأبطال القوميُّون والفلاسفة والعلماء والشعراء، وكذلك القتلة بخاصّة. وقد كلّفه هذا الفضول ثمنًا باهظًا في المدرسة الثانويّة، إذْ كان يكرهه كلّ مدرِّسي مادّة التاريخ: «الإسكندر الكبير[1]، آه، نعم. مات بمرض لعين، فإمّا أنّه انفجر، أو أنّه أصيب بالإسهال ومات بعد يومين من إقامة مأدبة طعام على شرفه». ولم تكن مداخلاته في درس الفلسفة مختلفة: «إلّا أنّ روسو ذكر في رسائله إلى ڤولتير نفسه زلزال لشبونة الذي تسبّب في مصرع مئات الناس. وفكَّر، أنّ مثل هذه الأعمال التي تطيح بكلّ شيء ضروريّة في ضوء نوع السكّان وعددهم».

وهكذا كانت شذرات المعرفة التي ينشرها سيدار تشيع الفوضى والاضطراب في كلّ درس. وبعد أن عرف التلاميذ أنّ الإسكندر لفظ نفسه الأخير بسبب الإسهال، اضمحلَّت عظمته وتضاءل شأنه إلى حدٍّ كبير؛ وتحوَّل روسو في نظر التلاميذ إلى إرهابيّ من إرهابيّي العصر

(١) الإسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م): من أشهر الغزاة الفاتحين، لُقِّب بذي القرنين. ابن فيليبس ملك مقدونيا، خلف والده ٣٣٦ ق.م. اجتاح إمبراطوريّة الفرس فهزم داريوس الثالث في إيسوس ٣٣٣ ق.م. أخضع صور بعد حصار دام سبعة أشهر، واحتلّ مصر والإسكندريّة ٣٣٢ ق.م. وتعقَّب داريوس وقضى عليه في معركة كوكميلة قرب أربيل بالعراق ٣٣١ ق.م. مات بالحمّى في بابل بالعراق. تقاسم إرثه قوّاده أنتيغونس وبطليمس وسلوقس، فنشأت الممالك الهلنستيّة، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الحديث في حين لم تلق فلسفته إلّا أذانًا صمّاء؛ وفقد رجل دين مصداقيّته عند مواجهة الموت، وهو المعروف عنه تقديمه النصح والإرشاد لمريديه عن التقشُّف والزهد، عندما لم يتمكّن من البقاء حيًّا حتى الصباح على إثر تناوله ليلاً طعامًا حتى التخمة؛ كما أنّ سياسيًّا محترمًا ومسنًّا فقدَ احترام الناس له ولفظ نفسه الأخير على فراش الزوجيّة، في الليلة نفسها التي تزوّج بزوجة جديدة لا تتجاوز نصف عمره؛ كما أنّ قائدًا من قادة أحد السلاطين العثمانيّين أغار على الحانات، وطارد وشنق كلّ من شرب الخمرة ولو بمقدار قطرة واحدة، ليلقى حتفه بسبب تليُّف الكبد؛ وسُحقت كرامة عالم انسحاق بقّة أثناء محاولته عبور أحد الشوارع من دون أن يتنبّه... مات هؤلاء ميتة شنيعة... وكانت حالات الموت في الشرق منافية للآداب، شأنها شأن حالات الموت في الغرب. الحقّ أنّ الموت في ذاته كان منافيًا للآداب.

ـ ما دمت لا تعير أهمِّيَّة لتحذيري الثالث والأخير، فهل يمكنك التفضُّل بالخروج من الصفّ؟

لم يشاطره معلِّموه آراءه قطّ. وكان في كلّ مرّة يُطرد من الصفّ، إلّا أنّه على العكس من بقيّة التلاميذ الذكور الذين كانوا يطردون من الصفّ، لم يصبح قطّ بطلاً في عيون التلميذات، ربّما يرجع السبب إلى أنّهنّ، أسوة بالمعلِّمين، لم يجدن الموت منافيًا للآداب.

توقّع سيدار أن تكون الأحوال مختلفة في تركيا، لأنّ الموت أمر سهل جدًّا هنا، لأنّه يتكرّر بأعداد كبيرة وأنّ الحياة قصيرة الأمد. واحسرتاه! مهما بذل من قصارى جهده، كانت ملاحظاته عن الموت مهملة الشأن عمومًا. وساوره الاعتقاد بأنّ السبب يرجع إلى لغته التركيّة، التي ربّما لم يستطع أن يعبِّر بها عن نفسه تعبيرًا واضحًا وصحيحًا. إلّا أنّه بفضل جهود أمّه العنيدة، التي عملت معلِّمة لغة تركيّة إلى اليوم الذي اضطرّوا فيه إلى الهروب من البلاد واستبدّ بها القلق

Twitter: @ketab_n

خشية أن يغترب ابنها عن لغته الأمّ، لا من خلال انجرافه وراء اللغة الفرنسيّة فحسب بل وراء اللغة الكرديّة التي حاول والده أن يعلّمه إيّاها من غير كفاءة ـ لقد كانت السنوات الطويلة التي أنفقها سيدار بعيدًا عن تركيا سببًا في نكوصه درجتين اثنتين. ولم تكن المشكلة متمثّلة في كيفيّة التعبير عن نفسه، وإنّما بالشيء الذي يعبّر عنه.. فقد تنبّه سيدار إلى وجود عدد من الاختلافات بين سويسرا وتركيا في قضيّة المفهوم، وكان كلّ اختلاف قد دوّنه على قصاصة ورق صغيرة الحجم ضمن بقيّة القصاصات الملصقة على السقف.

١) لم يحبّ الأتراك أن يثار الموت بوصفه موضوعًا (تمامًا كما هو الحال في سويسرا).
٢) كلّما ذكر الأتراك موضوع الموت، فإنّهم كانوا يتكلّمون على الموت الفعلي، وليس على فكرة الموت المجرَّدة (وهو ما يختلف عن سويسرا إلى حدٍّ ما).
٣) لم يستطع الناس في تركيا أن يدركوا الموت بوصفه شيئًا مجرّدًا (وهو ما يختلف اختلافًا كبيرًا عن سويسرا).

إلّا أنّ اسطنبول، بخلاف سكّانها، لم تقلق البتّة بشأن أوهام الموت. فهي لم تتجنّب بأيّ شكل من الأشكال هذا الموضوع، وفي أحد الدروس التي لم يطرد فيها سيدار من الصفّ، راح يصغي باهتمام إلى كيفيّة وضع الحمقى في الغرب على ظهور السفن ونفيهم من المدن. وشبّه المقابر في سويسرا بتلك السفن التي تحمل مسافرين غير مرغوب فيهم، على الرّغم من فارق واحد متمثّل في أنّها (المقابر) ألقت مرساتها ولم تعد قادرة على الإبحار. ومع هذا، فإنّها معزولة أيضًا عن حياة المدينة. في وسع المرء أن يذهب لزيارة القبور في أيّ وقت يشاء، بيد أنّ القبور نفسها كانت تفرغ من أمواتها لتتحوّل إلى جزء من المدينة. على أيّ حال، لقد نسيت اسطنبول أن ترشد سفنها إلى المقابر، أو أنّ

Twitter: @ketab_n

القبور هربت من سفنها لتنتشر في الشوارع معتمرة بالعمائم وعلى أذرعها صخور رخاميّة. إنّها في كلّ مكان. منتشرة في كلّ أنحاء المدينة مثل غبار الطلع الذي تذروه الريح في زوايا الأسواق المحلّيّة التي تقام كلّ أسبوع، وفي وسط مراكز التسوُّق الكبرى، وفي الشوارع المزدحمة بالناس، وفي الطرقات البعيدة عن الأماكن المطروقة، وفي الميادين التي يمارس فيها الأطفال اللعب، وعلى السفوح المطلّة على البحر، وفي أفنية تكايا الدراويش، وبجانب الأسوار والتلال والأسيجة النباتيّة، وفي كلّ حدب وصوب.. يبرزون أمام الناس بهيئة شواهد قبور وعقود أو قبور متعدِّدة محصورة بين العمارات السكنيّة. وكان المارّة يجتازونها أثناء مرورهم بها أثناء نزهاتهم أو عَدوِهم أو سيرهم أو تسوُّقهم... في هذه المدينة، يسكن الموتى جنبًا لجنب صحبة الأحياء.

من هنا، وبعد فاصل زمني بلغ ثلاث عشرة سنة، أنفق سيدار عامه الأوّل في اسطنبول يكتشف القبور والمقابر، وكان أحيانًا يطوف عن وعي من حول الأحياء المهجورة من أجل هذا الغرض وحده، وأحيانًا أخرى يعثر مصادفةً على مقبرة فيتجوَّل في أنحائها. وتبيّن له أنّ السير في أرجاء مقابر غير المسلمين أصعب بكثير من التجوال في مقابر المسلمين، لأنّ كلّ مقابر غير المسلمين كانت محاطة بأسوار عالية ومغلقة إلّا في أيّام بعينها. وفي إحدى المرّات، وبينما كان يسير في حديقة إحدى الكنائس الأرثوذكسيّة سأل عن معنى نقش يمثِّل حبّ الرمّان المنثور على أحد الأضرحة، وما الكتابة المدوَّنة من تحته، غير أنّ الحارس هزّ رأسه من جهة إلى أخرى، في يأس، لا يحير جوابًا. فهو لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الإغريقيّة. على أيّ حال، لم يكن الحارس يونانيًّا، بل كان أرمنيًّا أرثوذكسيًّا، وأنّه لبث يعمل في هذه الكنيسة سنوات طويلة أثناء أيّام الأسبوع، وأنّه كان يذهب إلى كنيسته في عطلات نهاية الأسبوع لحضور الشعائر الدينيّة. ومنذ ذلك الوقت، لم

Twitter: @ketab_n

يعد سيدار يفترض أنّ كلّ الناس الذين يراهم في المقابر الأرثوذكسيّة في اسطنبول هم من الأرثوذكس، ولا الذين يراهم في المقابر اليهوديّة يهودًا، ولا الذين يراهم في المقابر الأشوريّة هم من الأشوريّين. . .

كان يسهل التجوال في مقابر المسلمين لما تتمتّع به من أسوار واطئة وبوّابات مفتوحة دائمًا. وكان معظم هذه القبور مهملاً، وبدت وكأنّ المقابر نفسها، وليس حياة المسلمين، هي الفانية. وولّدت المقابر التي ترجع إلى زمن أحدث انطباعًا، مفاده أنّ الموتى قد ينهضون من أجداثهم في أيِّ لحظة، ويهاجرون إلى منطقة أخرى. لقد التقى سيدار حتى الآن بشتّى أصناف البشر أثناء تجواله من حول هذه الأماكن: حرّاس أجلاف، ورجال يرتِّلون القرآن طمعًا في المال قرب القبور، وأطفال مهملون في هندامهم يحملون جرارًا من فخّار في أيديهم، ويقتفون أثر الزوّار يستجدون الفلوس. ثم هناك أولئك الذين جاءوا بكامل أفراد أسرهم وسلالهم المملوءة كأنّهم في نزهة، والذين حضروا وحيدين وجلسوا مستغرقين في التفكير، فضلاً عن السكارى الذين يتعاطون الشراب على مقربة في الليل، والنشّالين المنتشرين في الأماكن التي يكثر فيها زحام الناس، وقرّاء البخت والمنجِّمين الذين تتجمّع من حولهم النساء الشابّات والعجائز، الريفيَّات واللواتي ينتمين إلى المدن، فيتبعونهم. . . وبمرور الوقت، عرف سيدار كيف يميّز بين هؤلاء جميعًا. فزوّار قبور المسلمين ينقسمون على طائفتين: الذين يأتون ويتركون أثرًا من خلفهم، والذين يأتون من أجل السير في أعقاب أحدٍ من الناس. كانت الطائفة الأولى تزور الأقرباء في أوقات منتظمة، ثم ترحل تاركة من ورائها أدعيتها ودموعها وجرارها المملوءة بالماء والزهور. وكان أفرادها مسالمين، لا ضرر من ورائهم، رابطيّ الجأش وهادئين مقارنة بأفراد الطائفة الأولى. أمّا الذين يأتون لاقتفاء أثر الزوّار، فكانوا منحوسين وسيِّئي الطالع، فهم يجيئون إلى هذه الأماكن

Twitter: @ketab_n

لسرقة مقتنيات الناس وانتزاع الأموال منهم، وممارسة السحر وجمع العلامات... بمعنى، أنّهم يفدون إلى هنا للحصول على شيء ما من المقابر، ولا يغادرونها إلّا بعد أن ينالوا ما كانوا قد جاؤوا بسببه. وكان من بين أفراد هذه الطائفة، أولئك الذين ينشدون عملاً أو ثروة أو مكانة أو ماضيًا من المقبرة، فضلاً عن الراجمين بالغيب والمجانين واللصوص... إضافة إلى كنديّين متخصِّصين بالأمراض النسائيّة.

التقى سيدار كنديًّا متخصِّصًا بأمراض النساء رفقة زوجته الحسناء في إحدى مقابر المسلمين، أثناء بحثهما عن قبر جدّة الرجل الكنديّ التركيّة، ولم يكن يبدو على كليهما أيّ معرفة بتركيّا أو الأتراك. وتبيَّن أنّ الزوجين طافا على امتداد ساعات رفقة حارس مقبرة مهتمّ بتقديم المساعدة لهما، وبينما هما خارجان من المقبرة ليحاولا أن يجرِّبا حظهما في مقبرة أخرى، لم يستطع سيدار أن يقاوم رغبة عارمة تملَّكته في أن يطرح عليهما سؤالاً عن السبب الذي دفعهما إلى القيام بهذه المحاولة. فما كان من الرجل إلّا أن ردّ عليه بعينين مشرقتين:

ـ كي تكون لديّ شجرة عائلة أتركها في المستقبل.

في هذه الأثناء، رسمت زوجته إشارة الصليب على صدرها وابتسمت رافعة يديها إلى أعلى كالأغصان، وكأنّها تحمل ذلك الشيء الذي أسمياه شجرة العائلة في يديها.

تذكَّر سيدار إطار الصورة النحاسيّ المصنوع بهيئة شجرة عائلة في بيتهم، وكان واحدًا من الأشياء القليلة التي أخذوها معهم عندما هربوا من تركيا. إطار يمكنه أن يتّسع لعشر صور بأُطُر دائريّة كبيرة بحجم الخوخ، ومتدلٍّ من خمسة أغصان منفصلة، صورتان من كلّ غصن. كانت أمّه قد قرّرت أن تعلِّق صور كلّ أفراد الأسرة هنا، بدءًا بأمِّها وأبيها. ولمّا كان ملء كلّ الإطارات قد بات مشكلة، لعدم إمكانيّة وصول العدد إلى عشر صور، فقد عمدت إلى تجاوز هذا العدد بإدراج

Twitter: @ketab_n

صور عدد من الأقرباء الأبعدين. ولحلّ هذه المشكلة، وضعوا صور اثنين من أكثر الأقارب الذين يشعرون نحوهم بالحبّ والمودَّة. ولمّا كانت الإطارات صغيرة أكثر ممّا ينبغي، فقد اضطرّوا إلى تصغير حجم الصور في عناية، محتفظين برأس صغير لا أكثر. ولبثت رؤوس أفراد الأسرة تتأرجح على الإطار النحاسيّ على مدى سنين، وكأنّها ثمار شجرة الواق واق الأسطوريّة ذات الثمار الشبيهة بالبشر، التي سرعان ما تتعفَّن صارخة إذا ما قطفها أحدهم:

ليس دمي مثل دمكم. وما ولادتي في أسرتكم إلّا صدفة محض. إنّني واحد من الأطفال الذين مُنحوا الحياة ليهدِّئوا من روع الخوف من الموت. إنّني واحد من الأطفال الذين تتركونهم لتنجبوا طفلاً آخر عندما تدركون أنّكم ما زلتم غير قادرين على الهروب من الموت. إنّني أقذف سائلي المنوي على الأرض. ولا أريد إخصاب أحد... ولمّا كان ذلك هو السبيل الوحيد كي لا ننهي مصادفة حيوات بدأت أصلاً مصادفة، فإنّني لا أبارككم، بل انتحروا...

تسبّب اهتمام سيدار بالموت تأنيبًا كثيرًا من الاسطنبوليّين. ونصحه الأهالي الذين استشارهم أن يرتِّل سورة الفاتحة من القرآن، بدلاً من أن يقدِّموا له جوابًا آخر. لكنَّه لم يمتثل لنصيحتهم، لأنّه لا يعرف أصلاً ترتيل أيّ شيء، كما أنّه لم تكن لديه أيّ معلومات عن الإسلام، ولم يكن ناويًا على تعلُّم أيّ شيء. فهو لم يعتقد بأنّ أيّ دين يملك الحقّ في أن يتوقّع منه الطاعة، ما دام أنّ ذلك الدين مستمرّ على تحريم الانتحار.

ومع هذا، فإنّه لم يكن جاهلاً، قليل المعرفة بالإسلام كما يظنّ، إذْ أدرك بين حين وآخر أنّه كان يعرف أشياء لم يعرف حتى إنّه كان قد تعلَّمها. فالذاكرة أشبه براكب درّاجة هوائيّة ينحدر أسفل التلّ بسرعة كبيرة، وبعكس اتّجاه الريح: كلّ المعلومات التي تحملها الريح تتشبّث بك، تدخل فمك أو شعرك وتلتصق بجلدك... قليلاً من الأدعية

Twitter: @ketab_n

والصلوات، أركان الإسلام، فصول من حياة النبيّ. إنّه يعرف كلّ هذه الأشياء وإن كانت معرفة واهية. يقولون إنّ أيّ لغة يتعلّمها المرء وهو طفل لن تُنسى أبدًا. لم يكن سيدار متأكّدًا من هذا، ولكن في وسعه أن يدافع دفاعًا سهلاً عن زعمه بأنّ الدين الذي يتعلّمه المرء وهو طفل لن يُنسى.

اضطرّ سيدار لدى تجواله في أنحاء المقابر إلى ترك غابا قرب البوّابة. وعند رجوعه، وجده إمّا ينفق وقته بالغطيط، أو يأكل السميط من يد الحارس. ولمّا كان مفلسًا لا يملك شروى نقير، ولمّا كان سوّاق الحافلة الكبيرة أو الصغيرة أو سيّارة الأجرة لا يرغبون عمومًا في السماح لغابا بالركوب، فإنّهما غالبًا ما كانا يرجعان إلى البيت سائرَيْن على الأقدام. ولم يزورا أيّ شخص مثلما لم يحظيا بزيارة أحد ـ باستثناء مرّة واحدة، حيث رحّبا بضيف في منزلهما، وكانت للمصادفة أنثى.

كان سيدار قد التقاها في أحد المشارب في شارع الاستقلال، وكانت صديقة لصديق صديق التقاه قبل مدّة قصيرة. وكانت للفتاة علامتان فارقتان فضلاً عن شعرها النحاسيّ، وهما: عيناها ومقدرتها على احتساء الجعّة وكأنّها إسفنجة. وعندما أغلق المشرب أبوابه في وقت متأخّر من الليل، لحقت بسيدار إلى قصر الحلوى من تلقاء نفسها. وما إن دخلت الشقّة، حتى راحت تجيل الطرف في محاولة يائسة للعثور على شيء ما يمكن أن يكون صلة بين الضيف والمضيف. لم يكن ثمّة موضوع لحديث يتبادلانه، لكن كان غابا هنالك.

عندما لاحظ غابا الفتاة، وهي تقدّم له من محفظتها قطعة بسكويت بالبندق، سار نحوها متدحرجًا وكأنّه كرة من الفرو. وكما هو شأن كلّ المخلوقات المتينة البنية، لم يكن يعرف شيئًا عن الأساليب المهذّبة في التعبير عن حبّه. فما كان منهما إلّا أن انقلبا من فوق الأرضيّة، وراحا

Twitter: @ketab_n

يمارسان نوعًا من أنواع اللعب هنا وهناك. في تلك الأثناء، كان سيدار يراقبهما من إحدى الزوايا، مقطّبًا بإزاء حيويّة غابا غير المتوقّعة، وملتهمًا بنظراته بطن الفتاة التي تبدو للعيان كلّما انزاح قميصها القطنيّ قليلاً إلى أعلى. وعلى حين بغتة، وكما هو شأن الرجال في حكايات ألف ليلة وليلة الذين يجنّ جنونهم غضبًا عندما يجدون المرأة التي كانوا يرمقونها بنظرات غراميّة غير مكترثة بهم، ولكنَّها مكترثة بحيوان من الحيوانات، عمد إلى مقاطعة اللعبة وإيقافها، وطرد غابا بعيدًا، وجذب الفتاة نحوه. كان نهداها أيضًا كالحليب في بياضهما، شأنهما شأن بطنها، وسرت فيهما قشعريرة أثناء القبلات.

هوى غابا مباشرة من قمّة النشوة التي كان متربّعًا من فوقها قبل قليل، بعد أن وجد نفسه حبيسًا في الحمّام. وبعد برهة قصيرة، تحوّل نباحه المرتبك إلى عواء غاضب أوّل الأمر، ليصبح بعد قليل عواءً متواصلاً لا نهاية له. فشاطرته الفتاة أحزانه، في حين مرَّ سيدار بأسوأ تجربة جنسيّة، وضاعت عليه نشوته.

عندما فُتح الباب، رفض غابا أن يتحرَّك قيد أنمله، ولبث مستلقيًا قرب المرحاض، ساكنًا، لا يظهر اكتراثًا، وكأنّه ليس هو الذي يخرمش الباب ويثير كلّ تلك الضجّة طوال هذا الوقت. وبقي في مكانه في ذلك اليوم وفي اليوم الذي أعقبه والذي تلاه. وفي محاولة سيدار استمالته إليه، عمد إلى شراء أفضل الطعام له، مضحّيًا بذلك ببعض المال الذي سبق له أن ادّخره ووضعه جانبًا لدفعه ثمنًا لاستهلاك الطاقة الكهربائيّة. اشتمّ غابا على مضض رائحة اللحم والجبنة والنقانق التي وُضعت أمامه، وظلّ ملتصقًا بمكانه قرب المرحاض، وإن كان يرشق الطعام بسهام عينيه. إلّا أنّه عندما اشتمّ رائحة الأرنب المشويّ بعد ثلاثة أيّام من ذلك، وكان قد كلّف سيدار ما تبقّى لديه من مال ادّخره لدفع ثمن استهلاك الطاقة الكهربائيّة، عاد إلى وضعه الطبيعيّ. أصغى سيدار إلى

Twitter: @ketab_n

صوت الكلب وهو يلتهم الطعام، ولاحت على وجهه ابتسامة، كأنّه يصغي إلى عبارات شكر وامتنان أخّاذة. كان خوف سيدار من أن يضيع منه غابا مفزعًا، فقرّر ألّا يأتي بأيّ ضيف إلى منزله مستقبلاً.

ظلّ وفيًّا بوعده. فالانغماس في قضايا الحبّ والغرام لا ينسجم والحياة التي دأب عليها. فالمرء بحاجة إلى حياة رصينة لمثل هذه الأشياء، فضلاً عن أنّها تحتاج إلى المال والطاقة. وهو لا يملك المال، وطاقته محدودة. أمّا بخصوص الوقت، فقد بات قصيرًا. وبدا له العام ٢٠٠٢ وقتًا مناسبًا للموت من خلال إكمال دورته ـ بالانتقال من عدميّة الصفر إلى وفرة الاثنين والرجوع من الطريق نفسه ـ كما أنّ اسطنبول التي تكثر فيها الزلازل، والتي تفوح منها رائحة الموت العفن مثل لشبونة في القرن الثامن عشر، بدت له أيضًا مكانًا ملائمًا جدًّا للموت. ظلّ سيدار يحمل في رأسه، في المنطقة التي ظلّ يرتطم فيها رأسه بالأنبوب القذر المغبرّ في حجرة الجلوس، ثورته وغضبه مثل ورم خبيث يكبر يومًا إثر يوم، فتبوء خططه بالفشل في أسرع وقت.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٩
هايجين تايجين وسو

تنقسم جلسات أعمال التنظيف المنزليّة إلى قسمين: الأوّل، يتمثّل في تلك الأعمال التي ترجع إلى الأمس وتستمرّ إلى الغد؛ والثاني، للأعمال التي ليس لها أمس ولا غد. وهكذا، فهي تختلف اختلافًا كبيرًا إحداها عن الأخرى في ضوء الأسباب والنتائج، حيث إنّ اسم أحدهما لا يظهر إذا ما كان النوع الأوّل هو الظاهر. وتبعًا لذلك، فإنَّ النساء اللواتي ينظّفن البيوت، ينقسمن أيضًا إلى قسمين: النساء التقليديّات اللواتي يملكن إحساسًا قويًّا بالأمس والغد، والنساء المتشدِّدات اللواتي لا يملكن إحساسًا بأيٍّ منهما.

عندما تنظِّف التقليديّات بيوتهنّ، فإنّهنّ يعرفن معرفة جيِّدة أنّ هذا التنظيف لن يكون الأوّل ولا الأخير. إنّ التنظيف الذي ينجز في لحظته ليس سوى حلقة مهمّة، وإن كانت اعتياديّة في سلسلة طويلة تتقدّم في مراحل مختلفة.

وقد أنجز آخر تنظيف منزليّ قبل أسبوع (أو خمسة عشر يومًا) وسوف يُكرَّر بعد أسبوع (أو خمسة عشر يومًا). من هنا، فإنَّ كلّ تنظيف جزء من عمل رتيب وثابت، ويكاد يشبه التنظيف الذي سبقه. فهو يبدأ

Twitter: @ketab_n

وينتهي على الدوام بالطريقة نفسها: ففي بداية الأمر، تُنظَّف النوافذ، ويُنفض السجّاد، وتكنس الأرض بدءًا من أوّل غرفة ومرورًا بالبقيّة بحسب تسلسلها. أمّا الأثاث، فينفض عنه الغبار من دون تغيير في الأولويّات، ويحظى المطبخ باهتمام بالغ، ويتمّ تناول الشاي ووجبات الطعام في أوقات منتظمة تقريبًا، وأخيرًا، وفي المرحلة الأخيرة، يتمّ التنظيف عندما يكتمل تنظيف الحمّام. ولمّا كانت للنساء التقليديّات مثل هذه العلاقة الوثيقة بالماضي، وأنّ ثقتهنّ بالمستقبل لا تقلّ عنها وثوقًا وقوّة، فلا ضير من ترك الأجزاء غير المنجزة إلى مرحلة التنظيف المقبلة.

إنّ عمليّة التنظيف التي تؤدّيها النساء التقليديّات ليست نشاطًا وحركةً في العمل يؤدّينها باسم الاحتفاظ بترتيب البيت ونظافته، وإنّما هي دليل على النظام نفسه.

أمّا التنظيف في نظر النساء المتشدِّدات الأقلّ عددًا، والنزقات وذوات النزوات، فإنَّ كلّ عمليّة من عمليّاته فريدة ومطلقة. ولا يهمّ قيد شعرة إن كنّ قد أنجزن التنظيف قبل يوم واحد. ويظلّ التنظيف قائمًا ما دام لا يوجد في خارطة حياتهنّ، ولا حتى أيّ جسر معلّق، يربط يوميّ التنظيف المنفصل أحدهما عن الآخر. وهكذا، يفحصن بيوتهنّ فحصًا دقيقًا، وكأنّما لم يفحصنها من قبل. ويبدأن في العمل وكأنّهنّ مسؤولات عن تنظيفه أوّل وآخر مرّة، وكأنّما يرغبن في جعل وكر رطب ومهجور، ولم يقطنه أحد منذ زمن طويل سوى الجانّ، مكانًا صالحًا للسكن. يصعب كثيرًا توقُّع المكان والزمان اللذين سيبدأن التنظيف منهما، ما دام يمكن لأيّ دافع في أيّ لحظة أن يدفعهنّ إلى العمل: سواء أكان ذلك بذرة من بذور البطّيخ على زرّ الكهرباء، أو سخامًا على الستائر، أو آثار ليمون على حوض الغسيل، أو قطرات زيت على سفرة المائدة، أو عصيرًا منسيًّا في قعر قدح فانقلب إلى فطريّات، أو شيئًا من الوحل على

Twitter: @ketab_n

الأرض... إنّ أصغر التفاصيل يمكنها أن تحفّز المتشدِّدات على البدء بعمليّة تنظيف شاملة. وعلى هذا الأساس، فإنَّ أعمال التنظيف تختلف من امرأة إلى أخرى، طالما لا تعرف أيّ واحدة، بضمنهنّ أنفسهنّ، من أين تبدأ التنظيف وكيف تواصله. ربّما لا يعرفن في البداية حقًّا الشروع في مهمّة أخرى من مهامّ التنظيف. ويمكن أن يجدن أنفسهنّ وهنّ ينظِّفن المطبخ بأكمله، في حين يُفترض فيهنّ أن يغسلن قدحًا لا أكثر، أو الحمّام كلّه عندما ينظِّفن حوض الغسيل، أو البيت برمَّته عندما يمسحن زرًّا كهربائيًّا. ليس لتنظيفهنّ «قبل» أو «بعد». النساء التقليديَّات ينظرن إلى التنظيف المنزلي بوصفه نشاطًا من تلك النشاطات المتعدِّدة، بينما تنظر النساء المتشدِّدات إليه على أنّه النشاط الأوّل والأخير.

إنّ عمليّة التنظيف التي تؤدِّيها النساء المتشدِّدات هي السبب الرئيس من وراء الفوضى الضاربة أطنابها في المنزل، بدلاً من أن تكون سببًا لتحقيق النظام فيه.

كانت هايجين تايجين واحدة من النساء المتشدِّدات. ولعلّها كانت تتحلّى بتلك الصفة دومًا، إلّا أنّ تشدُّدها بلغ في السنوات الثلاث المنصرمة مستوًى يبعث على القلق في نفوس من حولها. فهي لم تكن قادرة وحدها، أو بمساعدة منظِّفة، من قلب المنزل رأسًا على عقب فحسب في أيّ وقت من الأوقات، بل كانت قادرة أيضًا على أن تكرِّس يومها بأكمله في أوقات أخرى لإزالة بقايا الشحوم المحترقة في مقبض مقلاة واحدة، وسواء أكانت تلك البقايا بقعًا أو صدءًا، غبارًا أو سخامًا، فتاتًا أو فضلات، فطريّات عفنة أو قذارة. لم تكن قادرة على رؤية أيٍّ من تلك الأشياء. وعندما يساورها الظنّ بأنّ قطعة ما لا يمكن تنظيفها تنظيفًا كافيًا، فقد اعتادت مؤخّرًا على فتح النافذة ورميها إلى الخارج. لمّا كانت مؤمنة إيمانًا راسخًا بأنّ القذارة غزو تشنُّه الجراثيم، فإنَّ ما كانت تريد التخلُّص منه في مثل هذه اللحظات المنقادة للنزوات

Twitter: @ketab_n

الطارئة، لا يتمثّل في الأشياء التي رمت بها وتخلّصت منها، بل الجراثيم الناجمة عنها. فأصغر القاذورات حجمًا لن تبقى ساكنة من دون حراك، بل سوف تعمد إلى توليد جراثيم تزداد ثلاث أو خمس مرّات في كلّ دقيقة. لهذا السبب، رمت بهذه الخليّة من الجراثيم خارج المنزل. ولم يكن نزلاء قصر الحلوى وحدهم الذين كانوا يشهدون سقوط الأشياء، التي ترمي بها هايجين تايجين أثناء مرورهم مصادفة في الشارع في وقت غير مناسب، فحسب، بل شهدها أيضًا عدد غير قليل من المارّة. بداية، كانت قد رمت قِدرًا مسودًّا من شدّة احتراقه خارج النافذة، بعد أن أخفقت في التعامل مع الشعور بأنّها لن تكون قادرة أبدًا على إزالة البقع السود التي تدلّ على الرزّ الأبيض بياض الثلج. ثم رمت بسجّادة قديمة، بعد أن ظلّت تنفضها طوال ساعات، وذلك عندما استبدّ بها التوتُّر لإدراكها أنّها لن تقدر على التخلُّص من الغبار بين شراريبها. وكما هو أسلوبها في التنظيف، فإنَّ عادتها في قذف الأشياء والحاجيات كانت تفتقر إلى الاتّساق والتناغم. فعندما كانت ترمي شيئًا ما، فإنَّها تنساه نسيًا تامًّا، تاركة إيّاه في الحديقة لمصيره، في حين أنّها في أوقات أخرى تندم من فورها أشدّ الندم على ما فعلت وتطالب بإعادته إليها، وعندئذٍ تقع المسؤوليّة، إمّا على ابنتها أو زوجها أو منظّفتها المنهمكة في العمل في الهبوط إلى أسفل وإحضار ذلك الشيء، لأنّها لم تخرج من الشقّة رقم ٩ قرابة أربعة أشهر.

لم يكن سوى شخص واحد استطاع أن يتحمّلها: مريم. كانت علاقتهما تتراوح بين مدٍّ وجزر، وغالبًا كانت هايجين تايجين تسيء إلى مريم بانتقاداتها وبنزواتها المستمرَّة، على الرّغم من أنّ مريم لم تنزعج يومًا من كثرة الأعباء الملقاة على عاتقها، ولكنّها كانت في غاية الحساسيّة تجاه المعاملة التي كانت تلقاها. وعندما تركت مريم العمل، اضطرّت تايجين إلى تشغيل عدد كبير من عاملات التنظيف على أساس

Twitter: @ketab_n

يوميّ، وانتهى بها المطاف إلى التحسُّر والحنين لعودة مريم، وهو ما نجحت فيه بتوسُّلاتها وزيادة أجرها. في هذه الأيّام، وقّعت مريم هدنة مجدَّدًا. وعلى الرّغم من السلم الذي يسود بينهما الآن، إلّا أنّ هايجين تايجين كانت قلقة بشأن تقدُّم حَمْل أكثر مجنّداتها نظافة وجدارة بالثقة، والتي كانت مضطرّة إلى ترك العمل قبل مضيّ وقت طويل، أسبوعين على الأكثر.

إلّا أنّ رائحة الزبالة الكريهة المخيّمة على قصر الحلوى أقلقت هايجين تايجين أكثر من فكرة بقائها من غير مريم. لم تكن تطيق تلك الرائحة. وندمت الندم كلّه، أكثر من أيّ وقت مضى، على الزواج بزوجها من دون مراعاة لنصيحة أبويها، فضيَّعت بذلك مقدارًا من الإرث فضلاً عن الرفاهيّة التي كانت تحيا ذات يوم في ظلِّها. كما ازداد بؤسها وشقاؤها يومًا إثر يوم مع رائحة الزبالة. ففي صباح كلّ يوم، كانت تستيقظ على هذه الرائحة، فتشعر بالغثيان وتفتح كلّ النوافذ على مصاريعها، من دون أن تعلم أنّها بهذا التصرُّف إنّما تُثير فزع كلّ من هم من تحتها لاعتقادهم بأنّ مجموعة أخرى من الأغراض سوف تنهال عليهم. وقبل مرور وقت طويل تجد نفسها وقد أغلقت النوافذ مجدَّدًا، لأنّها لا تعرف إن كانت النوافذ المفتوحة سوف تقلِّل من الرائحة داخل شقَّتها أم لا، وتُعيد الفتح والغلق عشر مرّات يوميًّا على الأقلّ.

كانت أعصاب هايجين تايجين قد تقطَّعت، وهي المتوتِّرة أصلاً إلى آخر مداها بسبب رائحة الزبالة، وذلك في اللحظة التي قرأت الرسالة المرسلة من إدارة المدرسة. والتمست المعلِّمة التي حرَّرت الرسالة من تايجين أن تُسدي معروفًا لبقيّة التلميذات، بامتناعها عن إرسال ابنتها سو إلى المدرسة إلى أن تتأكَّد من خلاصها من القمل. ومنذ ذلك اليوم، راحت الغسَّالة تعمل ليل ونهار، وكانت ثياب سو تنقع بالقاصر، وساد نظام غسيل رتيب وصارم في المنزل. كان جنود هايجين يحاربون حربًا

Twitter: @ketab_n

ضروسًا في عشرات الجبهات عدوًّا كثير العدد، لا يُرى بالعين المجرّدة. بيد أنّ ميليشيا التنظيف كانت منتشرة أيضًا في كلّ حدب وصوب، واتّخذ كلّ فرد من أفرادها موقعه في موضع منفصل عن الآخر. ثمّة سوائل للتنظيف، بعضها بهيئة رذاذ وبعضها الآخر سائل، وبعضٌ ينبغي تركه حتى يجفّ (مع منظِّفات خاصّة للشبابيك والمعادن والأخشاب والمرمر والملاط)، وثمّة فرش متنوِّعة، لتنظيف مغسلة الصحون والمرحاض وحوض الاستحمام. ومزيلات الحوامض والصدأ والبقع وشمع الأرضيّات، وملمِّع الفضِّيَّات وسبل تصريف مياه مغسلة الصحون، ومضخّة المرحاض، ومكنسة كهربائيّة (بملحقاتها المختلفة للسوائل والغبار والستائر والكراسي والسجّاد والزوايا وفلاتر الهواء)؛ ومكنسة السجَّاد وماسحة ومزيلة الغبار ودلو وفرشاة وإسفنجات وإسفنجات مغلّفة (للسطوح الملساء والسطوح الخشنة)؛ ومنظِّفات بنكهة التفّاح والليمون والليلك وجزر المحيط الهادئ؛ ومعقِّمات قويّة؛ وقطع قماش للأرضيّات والجدران وإزالة الغبار؛ وكرات العثّ وأكياس حفظ ورد الخزامى وأكياس للملابس وقوالب صابون. حُشدت كلّ هذه الموادّ، فضلاً عن أنواع معيَّنة من الغسول من الصيدليّة للدفاع عن الشقّة رقم ٩ من قصر الحلوى ضدّ القمل ـ كتفًا للكتف، في كلّ ركن محتمل.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٥
حاجّي حاجّي وابنه وكنَّته وأحفاده

كرّر الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة، وهو ينظر جانبيًّا إلى أخيه وأخته:

ـ أرجوك يا جدِّي، أرجوك...

كان الطفلان الآخران مسمَّران إلى التلفاز، وكان البرنامج الذي يشاهدون قد انتهى قبل زهاء عشر دقائق، إلَّا أنّهم لم يتمكَّنوا من عزل أنفسهم عن الفراغ الذي خلّفته من ورائها المذيعة المغناج ذات الوشم الذي يمثِّل برعم زهرة. ومع هذا، فقد عدّ حاجّي طلب حفيده الأكبر رغبة مشتركة لكلّ الأطفال. فقال، وهو يضع جانبًا كتبه الأربعة ـ التي لم يتغيَّر عددها منذ سنوات ـ وكان عنوان ثانيها «تأويل الأحلام وتفسيرها»:

ـ حسنًا، لا بأس، دعوني إذن أحكي لكم حكاية الصيّاد سليمان. كان في قديم الزمان، أيّام الأمبراطوريّة العثمانيّة، يعيش صيّاد اسمه سليمان، وكان قد بلغ به الفقر مبلغًا شديدًا، حتى إنّه لم يلمس النقود ولا حتى في أحلامه. لكنَّه كان يملك قلبًا من ذهب. وكان يعيش بمفرده من دون أن يختلط بأحد أو يتدخَّل بشيء، ولم يؤذِ حتى

Twitter: @ketab_n

نملة. كانت تلك الأيّام هي أسوأ أيّام العثمانيّين، وكان العهد عهد «حكم النساء»، حيث وصلت فيها البلاد إلى الحضيض. وكانت المحظيّات في القصر يقمن بآلاف الحيل من غير وجل في كلّ يوم. وخُنق عديد الأبرياء بسببهنّ، وكانت جثث الضحايا تُلقى من نوافذ القصر إلى البحر، لتطفو منتفخة أيّامًا طويلة، حتى إنّها كانت تعلق في شباك صيّادي الأسماك.

ابتلع الطفل البالغ من العمر ستّ سنوات ونصف السنة لعابه، وكأنّه يريد أن يتخلَّص من طعم كريه، غير قادر على التكيُّف مع روح حكاية جدّه بعد مشاهدته البرنامج الصباحي الذي تدفَّق حيويّة ونشاطًا. أمّا البنت الصغيرة الجالسة بجانبه، فقد مالت برأسها إلى أمام وبوّزت شفتها السفلى، وجلست ساكنة، متحجِّرة إلى حدٍّ ما.

ـ وفي ليلة من الليالي، خرج سليمان إلى الصيد، ولحسن الحظّ، اصطادت الشبكة أعدادًا كبيرة من الأسماك، لكن شدّة طيبة قلبه جعلته يعجز عن قتل أيّ سمكة، ولهذا أعادها جميعًا إلى الماء، واحدة فواحدة.

نقَّ الطفل البالغ سبع سنوات ونصف السنة:

ـ أيُّ صيّاد سمك هذا الرجل؟

استرسل حاجّي حاجّي في حكايته، ولم يكن يدر في خَلَده أن يتشاجر وإيّاه في هذا الصباح:

ـ وهكذا، كان المقرّر أن يعود سليمان إلى كوخه خالي الوفاض، غير أنّه لاحظ بغتة نتوءًا أبيض ظاهرًا على الماء. صحيح أنّ الظلام كان قد أرخى سدوله، ولكنّ القمر كان يلقي شعاعه على المكان. فما كان منه إلَّا أن جذّف زورقه باتّجاه ذلك الشيء، ولمّا اقترب منه وجده جثّة طافية على الماء. لو كان هناك صيّاد غيره، لترك الجثّة

Twitter: @ketab_n

وشأنها طافية في ذلك المكان، طُعمًا للأسماك! لكنَّ سليمان كان رجلاً طيّبًا، فلم يستطع تركها. وبعد جهد قليل، تمكَّن من سحب الجثّة إلى الزورق بمساعدة مجذافه، وكشف اللثام عنها، فوجد أمامه امرأة شابّة في غاية الحسن والجمال! وكان ثمّة خنجر مغروس بين نهديها، ولكنْ، إذا ما نظرت إلى وجهها لظننت أنّها ما تزال على قيد الحياة! كانت تبتسم ابتسامة عذبة، وكأنّها غير غاضبة من قتلتها، شفتاها مثل حبّتي كرز، رموشها مثل السهام، وأنفها محبرة منضديّة. أمّا شعرها، فكان ملتفًّا إلى كعبيها. وهنا، لم يستطع صيّادنا سليمان أن يشيح ببصره جانبًا عن رؤية هذا الجمال.

رنّ جرس الهاتف، فانقطع سرد الحكاية، وأمسك الطفل البالغ سبع سنوات ونصف السنة السمّاعة بيدين راحتا تتكوّران إلى الداخل بمرور الأيّام، وقال:

ـ نعم، لقد فرغا من تناول فطورهما. لا، إنّهما ليسا مشاغبين. نعم، لقد شاهدا التلفاز. لا، لم يقصّ عليهما جدّي حكاية من حكاياته. لا، لم يفتحا الغاز. لا، لم يخلقا الفوضى في المنزل. لا، لم يتأرجحا من الشرفة. لا، لم يلعبا بالنار، لا، لم يدخلا غرفة النوم. أقسم أنّ الجدّ لم يحك حكاية.

لا بدّ أنّ أمّه ساورها شكّ مؤرق في ذلك اليوم، لأنّها أصرَّت قائلة:

ـ إذا كان جدُّك يحكي لكم حكاية، فحسبك أن تقول له: «الجوّ حارّ اليوم»، وسوف يفهم.

التفت الطفل البالغ سبع سنوات ونصف السنة، ورمق الرجل العجوز بنظرة، فوجده ينظر إليه مليًّا. فتمتم الطفل بوضوح من دون أن يرفع بصره عن العجوز:

Twitter: @ketab_n

ـ لا . . يا أمّاه، الجوّ ليس حارًّا اليوم.

ثم وضع سمّاعة الهاتف في محلّها، وانتظر ثانيتين اثنتين كي يستمتع بهذه اللعبة التي يمارسها في كلّ يوم، وحرَّك رأسه الكبير الذي لم يكن ثمّة سبيل لوقف نموّه، وحثّه بابتسامة غير واضحة المعالم:

ـ هيّا يا جدّي! أكمل لنا الحكاية!

في هذه المرّة، لم يبدُ صوته وكأنّه يريد أن يلتمس شيئًا ما، بل وكأنّه يُعرب عن موافقته على إكمال الحكاية.

استأنف حاجّي حاجّي حكايته باذلاً قصارى جهده ليطرد قلقه من الاحتماء بعواطف حفيده:

ـ لم يكن ممكنًا للصيّاد سليمان أن يترك جثّة هذه الحسناء الغامضة في المياه. فما كان منه إلّا أن أخذها إلى كوخه، وراح يراقبها طوال الليل كسير القلب، مهمومًا. وفي الفجر، حفر قبرًا عميقًا في حديقته، وإنْ لم يكن يرغب في مفارقتها أبدًا، ولكنْ، لم تكن في يده حيلة، فالأموات يسكنون باطن الأرض والأحياء يعيشون على سطحها. هكذا، ستظلّ الأمور إلى يوم الحساب عندما نجتمع كلّنا معًا.

قالت الطفلة البالغة خمس سنوات ونصف السنة دامعة العينين:

ـ ألم يكن في وسعه عدم دفنها.

تدخَّل الطفل البالغ سبع سنوات ونصف السنة قائلاً:

ـ لا، إذا لم تُدفن الجثّة، فسوف تنبعث منها رائحة بغيضة، وستكون رائحة لا تُطاق . .

قالت الطفلة البالغة خمس سنوات ونصف السنة متشاكية ومتباكية، ومبوّزة شفتها السفلى أكثر من ذي قبل:

ـ لكنّ الرائحة كريهة في هذا المكان أيضًا.

Twitter: @ketab_n

هدر حاجّي حاجّي، وهو يشاهد الخناجر أمام حفيده الأكبر:

ـ لا توجد جثّة هنا، كلّ ما هنا هو رائحة الزبالة، فلا عجب إذا ما انبعثت رائحة كريهة ما دام الجيران كلّهم يرمون زبالتهم في حديقتنا! ومع هذا، وبصفتي مسؤولاً عن إدارة المبنى، فإنّني حتمًا سأجد حلًّا لهذه المشكلة، فلا تقلقوا.

ثم أجلس البنت الصغيرة في حضنه، ومضى يقول:

ـ اسمعوا! إنّ المرأة الحسناء في الحكاية لم تمت بعد. فقبل أن يدفنها الصيّاد سليمان في التربة، قال: لأنتزع الخنجر من صدرها. وفي اللحظة التي جذب فيها الخنجر، تأوّهت المرأة. فهي لم تكن قد ماتت على أيّ حال، فالخنجر وصل العظم ولم يصل القلب.

ابتسمت الطفلة البالغة خمس سنوات ونصف السنة ابتسامة ملتوية في محاولة للعثور على سلوى في هذا التفسير غير المتوقّع، وتكوّرت في حضن جدّها، وكان من شأنها أن تشعر براحة أكبر لو لم تشعر بنظرات أخيها الأكبر سنًّا يحدّق إليها.

ـ إنّ موتنا مكتوب على جباهنا. فحتى لو غرس أحدهم خنجرًا في قلبك، فإنّك لن تموت إذا كان ذلك غير مكتوب على جبينك. وعندما بُعثت المرأة المسكينة إلى الحياة مجدَّدًا، طلبت من الصيّاد سليمان كوبًا من الماء. ثم بدأت تتكلَّم. الواضح أنّها كانت محظيّة من محظيّات القصر، وكان السلطان يهيم بها أكثر ممّا كان يهيم بغيرها، غير أنّ بقيّة المحظيّات نهش الحسد قلوبهنّ التي تلوّثت بالشرّ، فقرّرن أن يقتلن هذه الروح البريئة التي لم تلحق الأذى بأحد، فدفعن رشوة لخصيان الحريم، وجعلنهم يسدِّدون طعنة إلى صدر المحظيّة الجميلة الأبيض. حكت هذه الحكاية وهي تذرف الدموع، إلى أن قالت: «إذا ما عدت بي إلى القصر، فإنَّ مولانا السلطان

Twitter: @ketab_n

سيجازيك بأكداس من الذهب». وعندما سمع صيّادنا سليمان كلّ هذا الكلام، استغرق في تفكير عميق. فهو لم يُرد ذهبًا ولا أيّ شيء، لأنّه كان أُغرم بهذه المرأة. وفي تلك الليلة، نامت هذه المحظيّة الحسناء على سريره في الكوخ، غير أنّ الصيّاد سليمان نام في زورقه خارج الكوخ. وفي منتصف الليل تقريبًا، وسوس له الشيطان قائلاً: «لا تعد هذه المرأة، إذْ كيف يمكن لرجل أن يُعيد مثل هذه المرأة الجميلة؟ واجعلها لك. وفي وسعها أن تبقى هنا، فتغسل ثيابك وتطبخ طعامك وتكون زوجتك». هكذا وسوس له الشيطان.

أنعم حاجّي حاجّي النظر في أحفاده صامتًا، كأنّه كان يريد منهم أن يضعوا أنفسهم في مكان البطل. ومع هذا، فإنَّ تلك الابتسامة العنيدة على وجه الطفل البالغ من العمر ستّ سنوات ونصف السنة أوضحت أنّ عقله لم يكن مركّزًا في المعضلة الأخلاقيّة التي تنطوي عليها الحكاية، بل في تلك الأجزاء المنطوية فيها على جنس موعود. أمّا الطفلة البالغة من العمر خمس سنوات ونصف السنة، فكانت مشغولة بإضافة كلمة «محظيّة» إلى مخزونها من الكلمات الجديدة التي تعلّمتها. وهكذا لم يبق مرّة أخرى سوى الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة. فعندما حوّل جدّه من بصره إليه، خلط في كلامه وقال ساخرًا:

ـ المؤكَّد أنّه لم يرجعها إلى القصر.

غير أنّ حاجّي حاجّي هدر صوته مجدّدًا، وهو يقول:

ـ بل المؤكَّد أنّه أرجعها إلى القصر، وسلّمها بنفسه إلى هناك. وفرح السلطان فرحًا شديدًا، وقال له: «يمكنك أن تطلب منّي ما تشاء»، إلّا أنّ الصيّاد سليمان لم يطلب شيئًا، وغادر بوّابات القصر فقيرًا مثلما كان قد دخل منها.

Twitter: @ketab_n

في هذه الأثناء ران صمت مُغيظ. وأخيرًا، هتف الطفل البالغ من العمر ستّ سنوات ونصف السنة بعد أن اقتنع أنّ الحكاية انتهت:

ـ إنّني أتضوّر جوعًا!

وهنا، أغلقت الطفلة البالغة من العمر خمس سنوات ونصف السنة محفظتها العقليّة، ووثبت من فوق حضن جدّها، وقالت:

ـ عثمان أوّلاً! عثمان أوّلاً!

في الوقت الذي كان القِدْر يُسخَّن فوق الموقد، انهمكوا في نصب الخيمة وجمع الملاءات والوسائد والأغطية في وسط غرفة الجلوس؛ إلّا أنّ الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة لبث جالسًا في مكانه وحيدًا حيث كان، محتفظًا بهدوئه ورباطة جأشه، إذْ كان قد أمسك بقصّة مصوَّرة وتظاهر بقراءتها باهتمام، غير أنّ عينيه الخضراوين خضرة الطحلب اللتين لاحتا منكمشتين لعدم القدرة على النموّ بما يوازي نموّ رأسه، فقد كانتا ثابتتين على جدّه وأخويه. كان نفوره منهم يزداد بمرور الأيّام.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧

أنـــا

غزا النمل شرفتي في هذا اليوم ــ أو ربّما أنّني في هذا اليوم وحده تنبّهت إلى أنَّ النمل غزا شرفتي، لأنّه لا يبقى ساكنًا من دون حراك. بخطوات موزونة لا يستطيع إلّا هو أن يسمعها، وبصفوف منتظمة خمريّة اللون راح يتّجه إلى الأمام وإلى الخلف، بين الشقوق الجداريّة المعتمة، وسندويشة السجق الساخن الذي نسيته فوق طاولة القهوة. لا أستطيع أن أتكهّن بالمكان الذي يأتي منه، ولا كيف وصل إلى الطبقة الثالثة. إنّ هذه العمارة السكنيّة موبوءة بكلّ أنواع الحشرات. وفي الليالي، ترافقني عندما أعبّ بضع كؤوس من الشراب.

أعتقد أنّها لعنة أبي. أمّا لعنته أو جيناته. في تلك الأيّام، عندما كنت أفترض أنّ عادتي في المشروب لا صلة لها بعادته، فكَّرت أنّ مشكلة أبي العظمى في الحياة لم تكن متمثّلة في أسلوب شربه. ومنذ أن أدركت إلى أيّ حدّ تشبه عاداتي السيِّئة في المشروب عاداته، بدأت أعتقد بأنّ المشكلة لم تكن في شربه بل في عدم معرفته متى يتوقّف عن المشروب. فهو لم يستطع أن يمسك عن المشروب. هكذا بكلّ بساطة. بدايةً، لم يستطع أن يعرف متى يتوقّف، وفي اللحظة التي يصل إلى تلك

Twitter: @ketab_n

النقطة، فإنّه يغدو منفلتًا انفلاتًا لا يهتمّ بعده بالتوقّف. وبعد أن يكون قد كرع مقدارًا ضئيلاً، فإنّه لن يستغرق وقتًا طويلاً حتى يثمل. وقبل أن يمضي وقت طويل، كانت عيناه المتّقدتان تبحثان عن علامة من علامات الطريق. علامة واضحة، محذِّرة تحذيرًا صارمًا: «خفّض السرعة، انتهاء الطريق المبلَّط بعد عشرة أمتار! «أو» طريق زلق! منعطف حادّ! طريق ممهّد!» في تلك الأوقات، كان في مسيس الحاجة إلى شخص ما يأتي إليه، ويخبره عن شكله من الخارج. نحن فقط في وسعنا. ليس لأنّنا الأقرب منه، إلّا أنّنا لم نحاول ذلك قطّ. فأنا ووالدتي، كنّا نتحلَّق من حول المائدة وإيّاه، نملأ أطباقنا بالمقبّلات، نقشِّر التفّاح ونقطّع البرتقال إلى مكعّبات، ونصنع المصابيح من قشور البرتقال، وننتظر ببساطة ليحدث ما يحدث. كانت والدتي قد أقنعت نفسها، ثم أقنعتني، بعدم إزعاج أبي أثناء تناوله المشروب. كانت عديمة الثقة بنفسها عندما تكون قريبة منه، وربّما كانت على حقّ في ذلك، لكن حتى في تلك السنّ، كنت أعلم أنّ ذلك ليس هو السبب الوحيد لسلوكها. فعلى الرّغم من أنّها كانت تتألّم بالتأكيد، وهي تشهد على انهيار والدي، فإنّني لم أستطع منع نفسي من التفكير بأنّها كانت تستمتع بذلك خلسة ومن دون أن تدري. وكانت تبتهج عندما تشاهده يبدِّد كلّ ليلة البهاء الذي ما كان له أن يبدِّده لحظة واحدة في النهار. لهذا السبب، كانت تعدّ موائد العرق السخيّة بالمقبّلات والمزّة، كلّ طبق منها أروع لذّة من الآخر، في كلّ ليلة... كلّ ليلة طوال اثنتي عشرة سنة...

على أيّ حال، كان أبي مبالغًا في كلّ شيء، بهيَّ الطلعة وخفيف اليد ومتزمّتًا ومعقّدًا صعب الفهم، ومغرورًا مفرطًا في التحدُّث عن نفسه، وبعيدًا عن التهيُّج والاضطراب، فيه الشيء الكثير من الرعونة والطيش... صعبٌ عليَّ وصعبٌ على أمّي، وصعب على المجمّع السكني حيث عشنا، وعلى الجيش الذي خدم فيه، والبلدات التي عُيِّن

Twitter: @ketab_n

فيها، وعلى الحيوانات التي أخفق في معالجتها... بل كان صعبًا على الحياة التي عاشها... إنّني لست متيقّنًا من القول إن كان ثمّة وقت أحببته فيه، إلّا أنّني أتذكّر حقًّا أنّني افتخرت به ذات مرّة. فعندما كنت طفلاً صغيرًا، كنت أفتخر به لأنّه كان فارع القدّ، بهيَّ الطلعة، أكثر ممّا ينبغي. في تلك الأيّام، راحت قصص لا تُعدّ ولا تُحصى عن أطفال اختطفهم وربّاهم الغجر، وأتذكّر أنّني فكّرت في أن يكون أبي واحدًا من الأطفال المختطفين، وشاءت الظروف والمصادفات أن يختلط بنا. فهو لا يشبه أيّ واحد منّا. فنحن نمتلك ملامح متشابهة وشعرًا يميل إلى اللون البنّيّ، وقامة معتدلة الطول، وضحكة متماثلة. وإذا ما انزعجنا، فإنّنا نتحاشى النظر مباشرة، بل لاحت أشدّ لحظاتنا العاصفة هادئة، وكنّا صبورين واعتياديين ورقيقيِّ الجانب، نساءً ورجالاً على حدٍّ سواء، لكنَّه كان حاضرًا بيننا، في وسطنا، بقامة لا يناسبها المرور من الأبواب، برأس يتحوّل لون شعره إلى أشقر تحت أشعّة الشمس، بعينين ثاقبتين بندقيّتيّ اللون تزدادان حلكة أثناء الحزن، وترنوان إليك مباشرة كأنّهما تستفهمان منك عن سبب أفعالك، وبمزاج يتأرجح بين قطبين متضادّين وسجلّ حافل بالجيشان والأخطاء والإخفاقات المتراكمة يومًا إثر يوم، فضلاً عن الآثام.

لو لم يكن أبي وسيمًا وحسن الصورة، متين البنية ومعتدًّا بنفسه، لربّما كانت أمّي مرتاحة البال، مطمئنّة. فقد راح ذلك التشاؤم الماكر ينخر في هنائها وبهجتها نخرًا مستترًا وخفيًّا، ويلقي ظلالاً على عينيها ـ ظلالاً يمكن فكّ رموزها حتى في صور خطوبتها، إذْ كانت تقف مبتسمة ابتسامة قلقة ومضطربة، مرتدية ثوب خطوبة زبرجديَّ اللون ثُبِّتت على ياقته زهرة كبيرة. لا مناصّ من أنّها اشمأزّت من نفاق الزمان. ثم رُزقت بي أوّلاً، وبأخي ثانيًا، وعانت حالتيْ إسقاط، الواحدة تلو الأخرى، إلى أن وُلدت أختي في نهاية الأمر، وكانت تنتظرها على أحرّ من

Twitter: @ketab_n

الجمر، فربّتها تربية فيها الشيء الكثير من الدلال، وتحوَّلت أخيرًا إلى نسخة منها... كنت دائمًا أرى ما يبعث على الأسى في سلوك النساء المتقدِّمات في السنّ، اللواتي كنَّ يومًا ما حسناوات، عندما يُنفِّسن عن غضبهنّ على استحياء تارة واحتقار تارة أخرى، وكيف كان حسنهنّ وجمالهنّ لمّا كنَّ في ريعان الصِّبا، فيطلعن كلّ واحدة وفي كلّ مرّة على الصور القديمة نفسها ليضيفنّ مصداقيّة على زعمهنّ. وممّا يدعو إلى أسًى أكبر وأشدّ من كلّ ذلك هو عندما يُطلع أطفالهنّ، وبخاصّة أولادهن الأقارب وخاصّة النساء اللواتي يُحببن على الصور نفسها الخاصّة «بماما... البالغة الحسن... في شبابها» في استحياء، ولكن بطريقة تنمّ عن ازدراء. أمّا نحن، وبسبب أبي، أو ربّما ينبغي لي أن أقول بفضله، لم تستطع أمّي أن تمارس هذه اللعبة، ولا أخي، ولا أنا.

لو كان أبي مختلفًا، بأيِّ شكل من الأشكال، فلربّما وجدت أمّي سهولة في التعامل مع اضمحلال الشباب وزواله ـ شأنها شأن كلّ ربّات البيوت من حولها اللواتي رُزقن بطفلين أو ثلاثة أطفال ويتمتّعن بدخل متوسِّط وحياة متوسِّطة الحال، ويقطر سمّ تبكيت ضمائرهنّ المتواصل إمّا من ألسنتهنّ أو نظراتهنّ المحدِّقة. كانت أولئك النساء وأزواجهنّ بشرًا عاديين، غير أنّ حالة أبي كانت هي البعيدة البعد كلّه عن كلّ ما هو اعتياديّ. كانا متزوِّجين، وكانت حياتهما وأولادهما وأموالهما وإحباطاتهما ومنزلهما وماضيهما متماثلة كلّها، بيد أنّ السنوات المنصرمة عاملت أمّي وأبي معاملة مختلفة جدًّا. ففي حين هدّ التعب والإنهاك والدتي من فورها، فإنَّ أبي ظلَّ حتى بعد عقود من الزمان يبدو حسن الصورة، ومفعمًا بالحيويّة والنشاط تمامًا مثلما كان يبدو في صور خطوبتهما. إنّني لا أستطيع أن أنحو باللائمة على أمّي لإخفاقها في الإذعان لزوال شبابها، في حين كان على مقربة منها شابٌّ لم ينطفئ أواره قطّ. لم تكن في يدها حيلة، وبمرور الزمن، باتت العدسات التي

Twitter: @ketab_n

كانت تنظر من خلالها إلى نفسها غائمة أكثر فأكثر. ولمّا كان من شأن الصور التي تعرضها للبرهان على جمالها يومًا ما أن تكشف لا عن التغيُّر الهائل الذي حدث لها فحسب، وإنّما الافتقار الكامل أيضًا للتغيير في والدي، على العكس من غيرها، من ربّات البيوت اللواتي رُزقن بطفلين أو ثلاثة أطفال ويتمتّعن بدخل متوسّط وحياة متوسّطة الحال ويقطّر سمّ تبكيت ضمائرهنّ المتواصل إمّا من ألسنتهنّ أو نظراتهنّ المحدِّقة، فإنَّ أمّي لم تحتفظ بأيّ ألبوم صور في غرفة الضيوف.

بما أنّني كنت دائم الانشغال بالاعتزاز بأبي وتقليده، لا بدّ أنّني فشلت منذ زمن طويل في ملاحظة طبع أمّي المرتبك. لقد راقبت أبي معجبًا به من فوق كلّ غصن من أغصان العمر تربَّعت عليه على مدى سنين. فعندما كان يرتدي بزّته، كان وجهه يكتسب صرامة متعمّدة، شأنه شأن وجوه كلّ بقيّة الجنود. إلّا أنّ تعمُّده كان، بخلافهم من النوع الذي يتبدّد، وصرامته من النمط الذي يمكن أن يزول في أيّ لحظة. إنّ مفاتيح هذا التحوُّل كانت متوافرة أثناء النهار. فقد كانت نظرته الجامدة ـ التي كانت شاخصة كأنّه يريد أن يبرهن على أنّه كان يهتمّ برعاية الحيوانات ليس لأنّه كان يحبّها، بل لأنّ واجبه يحتّم عليه ذلك ـ تلين، حتى وإن لحظة واحدة من الزمان، عندما كان يعالج مهرًا صغيرًا، أو يخفّف من ألم قطّ ماع فكّه في حفرة مملوءة بحامض بعد أن سقط فيها، أو يعطي ابن عرس هاجمه الكلاب الأمان الأخير الذي كان يتطلّع إليه. كنت في أيّ لحظة من تلك اللحظات قادرًا على أن أتصوّر كم كان سئمًا من كثرة ما كان يخلع وجهًا ويلبس وجهًا آخر، متناقضين كلّ التناقض، وهو ما كان ينعكس في المهنتين اللتين كان يمتهنهما في آن واحد: طبيب بيطريّ وجنديّ.

بينما كان يطوف النهار كلّه في الإرجاء، مصدرًا الأوامر يمينًا وشمالاً بتلك المسحة المهيبة المعروفة عنه، فإنّه أيقظ في نفوس النساء

Twitter: @ketab_n

إعجابًا مشوبًا بالحسد، وفي نفوس الرجال حسدًا مشوبًا بالإعجاب. إلَّا أنّه ظلّ محتفظًا داخل بزّته بشخصيّة أخرى، وكأنّه كان يحمل معه حيوان النيص الشائك والصغير، ولم يستطع معالجته: كان شخصًا يرمي إلى أن يحيا حياة تتجاوز الحزن واللذّة، ولكنَّه كان يخشى الموت خشية كبرى، ولم يستطع تحمُّل الإصابة بألم، ولم يستطع بسهولة أن يستردّ صحّته وعافيته إذا ما واجه ظلمًا، شخصًا كان يعرف غريزيًّا وليس عقليًّا، أنّه محكوم عليه بأن يفسد كلّ شيء في وقت ما وفي مكان ما، فهو شخص متذبذب ورقيق، مضطرب لا يؤتمن، متشائم ومتهيّج، اعتدائي ومدمن على تعاطي المشروبات... ما دامت السماء مشرقة في كبد السماء، وأنّه يؤدِّي واجبه، فإنَّ في وسعه أن يخبّئ النيص الشائك والصغير، أنّه مذهل، يأسر الألباب في بعض الأحيان ما يجعل أمِّي نفسها تحبّ أن تمسك بواحدٍ منّا، نحن الثلاثة، وتذهب إلى محلّ عمله بعذر قديم. كنت أنا وشقيقي نتحمّس لنكون بجواره أثناء النهار، لكن واحسرتاه! كنّا لا نراه كفاية في تلك الأيّام. ثم يهبط الليل، وتفقد هالته بريقها، ويفقد وجهه جاذبيّته، ويتحوّل أبي إلى شخص آخر.

كانت أمِّي قد لجأت إلى تقسيم العمل، لكنِّني لم أفهم أساسه المنطقيّ ولا سببه الجوهريّ. وتبعًا لخطّتها، فإنَّ لكلّ واحد منّا مهمّة ينبغي القيام بها، وأدوارًا يؤدِّيها أثناء انشغال أبي بتعاطي المشروبات الروحيّة. كان يتعيّن على أخي وأختي مشاهدة التلفاز والخلود إلى النوم مبكرين. أمّا أنا وأمِّي، فكنّا نبقى جالسين من حول الطاولة ونتصرّف بوصفنا شهودًا. ولمّا كان أبي يكره أن يكون جالسًا وحده من حول مائدة الشراب، فقد رحنا نراقبه في مناوبة. كان دوري هو الأوّل. فما أن يجلس من وراء المائدة حتى أجلس قبالته. وعندئذٍ تكون أمِّي منهمكة في قلي المعجّنات وخلط مرق كرات اللحم، أو حاملة إلى المائدة المقبِّلات التي أعدّت كلّ نوع منها إعدادًا أشدّ إنهاكًا وتعقيدًا من النوع

Twitter: @ketab_n

الآخر. في هذه الأثناء، كنت ألبث جالسًا إلى المائدة، وأُجيب عن أسئلة أبي. كان دائمًا يوجّه الأسئلة نفسها، وهي كلّها أسئلة عن المدرسة، ويقاطع أجوبتي بأجوبة يتحدّث فيها دائمًا عن حياته. لم يكن ثمّة ضير لي من ذلك. الحقّ، أنّ هذه المرحلة الأولى من المساء هي أكثر الأوقات إثارة للمتعة في مناجاة أبي نفسه. وبعد أن يحتسي نصف الكأس الأولى، يبدو عليه الانشراح ويكثر من الثرثرة، وكنت على الرّغم من معرفتي حرفيّة كلّ ما من شأنه أن يحدث بعد ذلك، لا أستطيع أن أحول بيني وبين الإحساس بالنعمة في جلوسي هناك برفقته. ثم تأتي أمّي وتجلس بجانب أبي، من دون أن تفصح أمارات وجهها عن الأفكار التي تدور في ذهنها. وبينما ينشأ الاثنان بالحديث عن أحداث اليوم بصوت رتيب قوامه الغمغمات، فإنّني أذهب إلى غرفتي لإنجاز فروضي المدرسيّة. وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات، أعود إلى المائدة لأجد الوقت قد انقضى، وتهدَّلت عينا أمّي يغالبها النعاس، والحديث بلغ منتهاه منذ زمن. وهكذا تبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة من المساء ـ مرحلة يفسد فيها كلّ شيء رائع فسادًا سريعًا... مرحلة ينطلق فيها النيص الصغير إلى المائدة، وأشعر أنا بالاستياء لدى لمسي ريشه...

كانت أمّي تتمشّى حول المنزل متذمّرة، بحسب الأيّام، أو تنكمش على نفسها باكية قرب أختي، وتنام في تلك الليلة عندها، أو تغسل الأطباق في المطبخ تدندن بأغنية مرحة إن كانت الأمور على ما يرام. لكنْ، مهما ارتأت ما تفعل، فإنّها لا تعود أدراجها إلى المائدة، وتعهد إليّ بمهمّة مرافقة أبي إلى نهاية المرحلة الثالثة، وهي المرحلة الأطول زمنًا، الأطول زمنًا والأشدّ إنهاكًا بلا منازع. فالثلج في الدلو يكون قد تحوَّل الآن إلى ماء فاتر، مضبّب يطفو عليه رماد السكائر وفُتات الخبز، وتكون كرات اللحم قد بردت وتحجّرت، والبصل المقطّع إلى قطع صغيرة في السَلَطة قد تشتّت وانبعثت منه رائحة كريهة، ومنفضة السكائر

Twitter: @ketab_n

مملوءة عن آخرها. أمّا المقبّلات المتبقّية، فتكون قد فقدت لذّتها، وشرائح البطّيخ فقدت نضارتها، وفقد أبي هيبته.

عندما أفكّر في هذا الأمر، بعد كلّ هذه الأعوام، يبدو غريبًا أنّني وإن كنت الطفل الوحيد من بين الأطفال الثلاثة الذين شهدوا على أكثر لحظات أبينا المخزية، فإنّني أنا الذي اكتسبت عاداته السيّئة. فأخي الأصغر سنًّا يتعاطى المشروبات، ويدخّن بين فترات متقطّعة من الزمان عندما يكون رفقة غيره ممَّن يشربون ويدخّنون. أمّا بخصوص أختي الأصغر سنًّا، فقد انتهى بها المطاف بأن أصبحت واحدة من أولئك النسوة اللواتي لا يذهبن إلى الأماكن المحتشدة بالدخان، وتعبس، وينتابها الوجوم عندما يدخّن أحد من حولها، وتنظر إلى السكّير في فزع وإلى مدمن الخمر في اشمئزاز، وإلى الصعلوك فتغيّر من طريقها، وإلى كلّ مخمور على أنّه متشرّد. زِدْ على ذلك كلّه، عمدت إلى نقل هذه العادات الفاسدة برمّتها إلى ابنتها. وكلّما حاولتُ أن أشعل سيكارة في بيتها فإنَّ ابنتها الصغيرة تصدر ردّ فعل، وكأنّها إنسان آلي صغير الحجم ثمّة من ضغط على أزراره، ثم تلوي أنفها في نفور واضح، وكأنّها رأت من فورها جرذيًّا نافقًا، وتبدأ بإلقاء كلمة حفظتها عن ظهر قلب عن مخاطر التدخين. إنّ ممّا يثير أعصابي أن أرى الناس، وبخاصّة الأطفال، يؤمنون بمثل هذا الحماس الشديد، ببيان ليس هو بيانهم أبدًا. ففي بيتهم لا توجد حتى منفضة سكائر واحدة، يمكنني استخدامها. وفي الخزانة المصنوعة من خشب الجوز اللافتة للأنظار في حجرة الجلوس، يجد المرء فيها كلّ أنواع المشروبات القويّة والأقداح المختلفة التي تناسب كلّ نوع من هذه المشروبات، إضافة إلى عشرات منفضات السكائر الخزفيّة والمرمريّة والبلّوريّة والفضّيّة والمطليّة بالذهب والشبيهة بالتماثيل والشبيهة باللعب والخشبيّة والمزيَّنة بالخرز والصغيرة ذات الرسوم والمعدنيّة والبرونزيّة والرخيصة الثمن أو الغالية جدًّا المزيَّنة

Twitter: @ketab_n

بصور مدن ومصايف أجنبيّة سبق لهم أن زاروها. ولكن، عندما يتعلّق الأمر بقيامي بنفض رماد سيكارتي، لا توجد منفضة سكائر واحدة قيد الاستعمال. ويستبدّ بي السؤال: هل أنّ أمّي كانت تبعدني عن أشقّائي وتقرّبني من أبي في الليالي، لأنّني كنت أنا الوحيد من بين الأطفال الثلاثة الذي أشبهه؟ أم على العكس من ذلك، هل انتهى بي الأمر من دون الأطفال الثلاثة إلى أن أشبه أبي، لأنّها كانت تبعدني عن أخويَّ وتقرّبني منه ليلاً؟ لنضع السؤال بصيغة أخرى: هل هذه هي لعنة أبي بسبب ذلك اليوم الذي تركته فيه وحيدًا حول المائدة أثناء «مرحلة ثالثة» أخرى، عندما تعذّر عليّ أن أتحمّل عباراته غير اللائقة والمرتجلة؟ أم أنّ السبب يرجع إلى أنّنا ـ أنا وهو ـ لسنا سوى حلقات في السلسلة الوراثيّة نفسها، حيث تسير جينات لا تُعدّ ولا تُحصى بكلّ دأب في أرتال منتظمة بلا نهاية طبقًا لقوانين مقرّرة سلفًا؟

لا بدّ أنّني كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، عندما أُصيب أخي بمرض التهاب الغدد النكافيّة، فحجرنا على أنفسنا داخل المنزل على مدى أيّام، نأكل الزيزفون ونشاهد التلفاز مسمّرين على كراسينا، لا نفارقها إلّا من أجل الذهاب إلى الحمّام. وشاهدنا في أحد الأفلام التركيّة القديمة في تلك الأيّام ممثّلة رئيسة مغرمة سرًّا برجل، كانت أختها توشك على الزواج به، وراحت تتقيّأ دمًا على المناديل البيض كالثلج ذات الحافّات المزركشة بأشغال الإبرة، وتبيّن أنّها كانت مُصابة بمرض السلّ. في المشهد الذي أخبرها الطبيب أنّها ستموت من فورها، انفجرت أنا وأخي ضاحكين، باصقين ذرور الزيزفون. كان الفيلم على غاية من السخف والسذاجة فضلاً عن أنّه سورياليّ، إذْ لم يعد ممكنًا الاعتقاد بموت الممثّلة على الشاشة بهذا المرض، وهي ممتقعة الوجه بسبب مساحيق التجميل، وبيضاء الشعر بسبب الطحين، وأرجوانيّة العينين، مثلما لم يعد ممكنًا تصديق موت أبي بتليُّف الكبد قبل ستّة أشهر.

Twitter: @ketab_n

وبحلول نهاية الفيلم، جاءت أمّي من السوق رفقة شقيقتي. ولمّا لم تكن أيّ واحدة منهما مصابة بالتهاب الغدد النكافيّة، فقد كان يفترض بهما البقاء بعيدًا عن أخي. إلّا أنّ أمّي جلست بيننا مباشرة مبتسمة ابتسامة حبّ ووله، وأمسكت بأيدينا بين راحتي كفّيها، وتمتمت بصوت متلعثم، ولكنّه هادئ أنّها سوف تتزوّج مجدَّدًا. على الشاشة، تعثّرت الممثّلة المصابة بمرض السلّ، عندما حاولت أن تهبط الدرج لتنضمّ إلى حشد من الناس يحتفلون بزواج الرجل الذي أحبّته بشقيقتها. انهارت وهي تسعل، فما كان منّي ومن أخي إلّا أن انحنينا إلى أمام وانفجرنا ضاحكين، فضحكت أمّنا بدورها. كانت أختي ما تزال واقفة قرب الباب، فراحت تحدِّق إلى أمّي في دهشة سرعان ما حلّت محلّها الدموع. فضحكنا من جديد، إلّا أنّ أمّنا لم تنضمّ إلى ضحكنا، بل أشاحت بوجهها المتغضّن جانبًا، ومسحت أنفها بمنديلها الأبيض كالثلج ذي الحافّات المزركشة بأشغال الإبرة. ربّما لم يكن ثمّة منديل، بل خُيِّل إليّ أنّه منديل في ذاكرتي، لأنّ ذلك هو ما كنت أريد أن أتذكّره. وكان ما بصقناه من ذرور الزيزفون قد حملته ريح عاتية مفاجئة، ورحنا ندور وندور في وسط الغرفة مثل عاصفة ثلجيّة شفّافة، ازدادت غضبًا إلى أن أصبح متعذِّرًا على أحدنا رؤية الآخر. ثم أمطرت السماء مطرًا خفيفًا، فتشكّلت من فوقنا ظلّة صفراء. كان كلّ شيء سورياليًّا كبقيّة الأشياء.

عندما يتوفّى أحد أفراد الأسرة وفاة غير متوقَّعة، فإنَّ مقتنياته تضفي الطابع السورياليّ، لا على الموت أو الله الذي يرى في الموت حدثًا مناسبًا فحسب، بل على حياة الباقين من ورائه. ولمّا كان شقيقي وشقيقتي قد أنفقا وقتًا أقلّ ممّا أنفقته مع والدي، وأنّهما لم يشاهداه محاطًا بمقتنياته في عشّه قدر ما شاهدته أنا، فإنّهما ربّما لم يعيشا هذا التحوُّل قدر ما عاشته أمّي وعشته أنا. فعندما كان الظلام يرخي سدوله، وتُعدّ المائدة، فإنَّ أمّي تبدأ طواعيّة إعداد المقبّلات المعهودة، بينما

Twitter: @ketab_n

أتّخذ أنا مكاني في مجلسي المعتاد دائمًا وفي الساعة نفسها، بإحساس بارد بالواجب. عندئذٍ كانت مقتنيات أبي تمنعنا من الإقرار بأنّ الفراغ الجالس على الكرسي قبالتنا كان هو الموت، وكان الموت حقيقيًا. ولم يمنع ذلك دورق العرق اللولبيّ بلون الزمرّد الأخضر، ولا محفظته الجلديّة المزيَّنة برأس حصان، أو قدّاحته المنحوتة نحتًا التي كانت تومض على الدوام وميضًا غير متّسق حتى عندما تكون قد ملئت بالغاز مجدّدًا، وحجرها قد بُدِّل. ولم تكن أيضًا علبة السعوط المزيّن غطاؤها بصورة بوم بنفسجيّ الجسم وخمريّ الجناحين، وجعلته عيناه المتقاربتان لا يبدو نذير شؤم ولا حكيمًا، ولكنَّه حائر في أغلب الأحوال. طالما بقيت غرفة الجلوس والبيت ثابتين، ولا نقدر نحن على الانصراف، فثمّة على الدوام جانب سورياليّ في موت أبي. في نهاية الأمر، عندما أصبح واضحًا الوضوح كلّه أنّنا بقدر ما كنّا لا نستطيع الانتقال إلى بيت آخر، وأنّنا لم نقدر أيضًا على درء هذا الارتباك، فقد انتهى المطاف بي وبأمّي إلى شراكة ضمنيّة، تنطوي على إلباس شبح والدي الثياب، وجعله يجلس من حول الطاولة معنا ليلاً. إلّا أنّ هذا التعاون السرِّي الذي كان من شأنه أن يقرِّبنا أكثر، فرّق بيننا في النهاية فراقًا لا رجعة فيه.

إنّ ما فعلته من بعد ذلك لم يكن أكثر من كونها معكّرة صفو الآخرين ومتّعتهم تمامًا. ففي حين كانت تسهر على خدمة شبح أبي من حول المائدة، راحت تصوّره على نحو متزايد كما كانت تريده أن يكون، وليس كما هو عليه حقًّا. ولمّا كانت ربّة بيت طيّبة، فقد تطلّعت إلى محو كلّ سجايا زوجها الميِّت التي لم ترقها في المقام الأوّل من ذاكرتنا. ولمّا فرغت من عمليّة إزالة تلك السجايا، كانت تجلس وإيّانا من حول المائدة هذه النسخة عن رجل بلا حياة ولا بريق، كأنّه مرثاة تدندن ــ رجل عمل دومًا من أجل خير الأسرة، ولم تكن لديه أيّ متعة سوى متعة الجلوس صحبة زوجته ليلاً، ليشرب كأسًا أو كأسين من

Twitter: @ketab_n

الشراب، محتفظًا بكلّ ما يمكن أن يملكه من ضغينة في نفسه، لا تثبط عزيمته ولا يتذمّر. بدا وكأنّه قُدَّ من لحم وأعصاب. لقد أحبّت أمّي حبًّا جمًّا هذا الشبح الكاذب، وآمنت به إيمانًا صادرًا من صميم قلبها، بحيث إنّها عندما قرّرت أن تتزوّج مجدّدًا بعد مرور ستّة أشهر، كان الرجل الذي اختارته زوجًا لها يشبه شبهًا تامًّا الشبح الجالس من حول المائدة.

على امتداد هذه المدّة الزمنيّة، كانت كلّ معلومة أزالتها من ذاكرتها قد بدأتُ أنا بجمعها واحدة تلو الأخرى، ليس بدافع حبّي لأبي بل بدافع غضبي من أمّي. إلّا أنّ الشبح البديل الذي خلقته أنا لم يصبح في نهاية المطاف قريبًا من الحقيقة، شأنه في ذلك شأن الشبح الذي ابتكرته هي. على وجه العموم، لم يكن أبي شخصيّة بارزة على النحو الذي أقنعت أمّي نفسها به لاحقًا، ولا عارًا أو شنارًا كما زعمتُ أنا على الضدّ منها. ومع هذا، فقد تقبّل كلانا تقبُّلاً ثابتًا وهمنا الشخصي. الحقّ، لا يمكن عدُّ ذلك بوصفه خداعًا تامًّا، ما دام أنّنا كنّا نوفِّر ببساطة غطاء لظلم أحدنا الآخر الجزئيّ بعدلنا الجزئيّ، وكأنّ الميِّت نفسه مسجّى في قبرين مختلفين. القبر الأوّل، يضمّ صباحات ربِّي، ويضمّ القبر الثاني لياليه. ومتى ما أردنا أن نستدعي ذكراه، فإنَّ أمِّي تزور قبرًا وأزور أنا القبر الآخر.

بعد مرور سنوات، عندما أجرت آيشين مسحًا رفقة زميل بريطاني في ثلاثة أحياء اسطنبوليّة عن كيفيّة صياغة الإسلام الشعبي الحياة اليوميّة، ذكرت في دهشة أنّها شاهدت ضريحين للوليّ نفسه، وتلك حقيقة لم يجد فيها أيّ من العيِّنات التي اختارتها للمسح غرابة. ولم أجد أنا أيضًا أيّ غرابة في ذلك.

في ذلك الوقت تقريبًا، وافقتُ أخيرًا على طلبات كلّ من آيشين وأمِّي المتواصلة في أن تلتقيا. وعند عودتنا من زيارة أمِّي، كانت آيشين

Twitter: @ketab_n

ـ غير القادرة على معرفة «الأب» الذي سمعت عنه منّي و«الزوج الأوّل» الذي سمعت عنه طوال النهار من أمّي ـ قد توصّلت إلى نتيجة (وهو ما يحدث دومًا في مثل هذه الحالات) مفادها أنّ أحدنا كاذب، وأنّ هذه الكذبة كانت موجّهة إليها بالذات. وبعد تردّد قصير الأمد، حاولت فيه أن تتعقّب أثر شخصيّة المتوفّي «الحقيقيّة»، انتهت إلى رأي مفاده أنّني أنا الكاذب، وأنّني لجأت إلى ذلك الكذب لتبرير «حالتي».

المقصود بكلمة «حالة» هو استهلاكي الكحول بكمّيّات أكبر. إلّا أنّ ما لم تعرفه آيشين هو أنّني ليست لديّ مثل هذه المشكلة، إلى أن تزوّجنا. إنّني لا أقصد بذلك توجيه اللوم إليها بسبب زواجنا، لأنّني لا أستطيع أن أقرّر نقطة البداية أصلاً، بل إنّ كلّ ما أعرفه هو أنّ حياتي، بعد مدّة قصيرة، راحت ترسم دائرة من الوهم تعود إلى نقطة البداية، ووجدت نفسي على الكرسيّ الذي كان أبي يجلس عليه ذات مرّة. إلّا أنّ ثمّة فروقات مهمّة. فأيشين ليست مثل أمّي، فهي لا تعدّ مائدة عامرة بالأطباق لي، مثلما أنّها لم تحافظ على هدوئها، بل كانت تتظاهر بصرف النظر عن حالتي من دون اهتمام أو اكتراث، ولكنّها كانت تستاء من بعد ذلك. . . وحاولت أن تبذل قصارى جهدها، وبكلّ وسيلة يمكن أن تفكّر فيها، مكافحة إدماني على المشروب، يتخلّل ذلك إحساسها بالاستياء من حين إلى آخر. وبذلت أنا أيضًا قصارى جهدي كي أبعث السرور في نفسها. أعتقد أنّني شعرت بالامتنان لها، وبخاصّة في البداية. وأكّدت تدخُّلاتها حقيقة مفادها أنّها كانت، بخلاف أمّي، لا تبتهج إذا ما رأت زوجها يتعثّر، كما أنّ زواجنا لم يكن يشبه زواج والديَّ. حاولت بامتنان حقيقيّ أن أبذل جهدي، وسار كلّ شيء على ما يرام مدّة خمسة أشهر تقريبًا. وأفلحت في التقليل من استهلاكي المشروبات، لكن قبل مرور وقت طويل، حوّلني هذا التقدُّم المستحقّ الثناء إلى خصم لنفسي. في البدء، عندما بالغت في الأمر، ثم عندما

Twitter: @ketab_n

رحت أشرب أكثر ممّا ينبغي. وأخيرًا كلّما تعاطيت الشراب، وجدتها تؤنّبي، وتوبِّخني توبيخًا ساخرًا لعجزي عن تكرار نجاحي الأوّل. قالت آيشين:

ـ إنّنا نعلم أنّ في وسعك أن تفعل ما هو أفضل من هذا. إنّنا نعلم ذلك. صحيح؟

ثمّة شيء ما في صيغة ضمير المتكلِّمين يشبه لبّ قطعة حلوى حاذق الطعم... راسب لذيذ المذاق... حمم بركانيّة محرقة وحارقة مهووسة بالنصر نابعة من مصدر واحد، عازمة على الانتشار في كلّ حدب وصوب، مكتسحة في طريقها كلّ شيء من تحت ذيل سترتها فلا يبقى شيء خارجها... إنّ الله على هذا النحو في الكتب المقدّسة، يخاطبنا بضمير المتكلِّمين «نحن»، عندما يقصّ علينا قصص الخلق والدمار والعقاب والثواب. الأمّهات أيضًا يتكلّمن بالصيغة نفسها مع أطفالهنّ. فتراهنّ يتساءلن: «هل نحن جياع؟» أو ينتهين إلى رأي مفاده: «بالرّغم من مشاكستنا اليوم، إلّا أنّنا أحسنّا التصرُّف». صحيح أنّ القرار المتّخذ والخيار الأخير يعودان أوّلاً وأخيرًا لهنّ، إلّا أنّهنّ يعمدن إلى ضمّ حدود وجود الآخرين إلى حدود وجودهنّ، وكأنّ ثمّة شخصيّتين منفصلتين هناك. صيغة «نحن» التي يستخدمها الله في القرآن، والأمّهات عند مخاطبتهنّ أطفالهنّ. أمّا صيغة آيشين عندما تتحدّث عن مشكلتي في الإدمان على المشروبات، فإنّها ليست (نحن = أنا + أنت) وإنّما (نحن = أنا + أنا). ولأجل البقاء خارج مثل هذا المحو والإلغاء، فإنّ «نحن» مستحيلة تمامًا.

أنا، شخصيًّا، لا يمكنني أيضًا البقاء خارجًا. لقد توقّفت مرّات عديدة عن تناول المشروبات، بداية في تحمُّس وحظيت ربّما بشيء من النجاح، ولاحقًا باهتمام بطيء إلى حدٍّ ما، ثم بجهد ضعيف، وفي نهاية الأمر، من دون أمل. في كلّ مرّة، أعددنا جداول جديدة: جداول

Twitter: @ketab_n

بالأيّام وليس بالسنين، شكّلت عندنا نقاط تحوّل، كان الوقت يُقاس فيها بوعود لا يمكن الوفاء بها. وكنّا نرسم في مربّعات دقيقة جداول شهريّة، وكلّما انحرفت عن الخطّة، أقنع آيشين بصعوبة بالغة ألّا تؤشّر ذلك على ورقة وكأنّها لطخة، بل أن تعدّ خطّة جديدة من البداية. بخصوص جداولي، كانت كلّ حادثة تمثّل فرصة مناسبة، وكلّ يوم مميّز تكوينًا. وهكذا، فعندما حصلت على شهادة الدكتوراه، عشيّة رأس السنة الجديدة، في عيد مولدي الثالث والثلاثين، ومع أوّل تساقط للثلوج، عندما أفلحنا في النجاة من حادث مروريّ طال مقدّمة سيّارتنا، في ذكرى زواجنا، في عيد مولد آيشين الحادي والثلاثين، عندما علمت أنّ المشرف على أطروحتي مُصاب بسرطان الرئة، في الليلة التي تشاجرنا فيها أنا وشقيقتي شجارًا خشنًا حتى خرجت أحشاؤنا من جوفنا، في اليوم الذي تلقّيت فيه نبأ وفاة زوج أمّي، في كلّ أنواع التجمّعات التي تقرّر وتعترف بقيمة الحياة، بذريعة أنّني وآيشين سنذهب إلى خارج اسطنبول لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، في الطرقات والحفلات والفنادق والشواطئ... فإنّني أمـ... سـ... كـ... ت، أمـ... سـ... كـ... ت عن الشراب، وفي كلّ مرّة ساندتني زوجتي سندًا عظيمًا!

حقّقت نجاحًا، ولكنّه ليس كافيًا. ما دام أنّني أفلحت ذات مرّة في عدم وضع قطرة من الكحول في فمي على مدى عدّة أسابيع، فإنّ كلّ كأس من بعد ذلك كان يعني خطوة إلى الوراء. كنت أنا شخصيًّا النموذج المحتذى الذي طالما تطلّعت إليه، المثال الذي انسلّ من بين كفّي مثل قطعة زلقة من الصابون، الذي لبثت أسعى وراءه، ولكنّني لم أستطع الحصول عليه حتى عندما أمسكت به من ساق بنطالي. بعد مدّة قصيرة، بدأت آيشين أيضًا تخلط بين ما هو «غير كافٍ» وما هو «فشل ذريع». منذ تلك النقطة، مال سبب تدخّلاتها إلى الضبابيّة. ولم يعد قلقها بشأن صحّتي سببًا يدفعها إلى الضغط عليّ كي أتبارى مع نفسي. لقد فقدت

Twitter: @ketab_n

الكلمات والأفعال معانيها الابتدائيّة، وبات كلّ شيء علامة تدلّ على شيء آخر وإن بأساليب ملتوية. وأصبحت جداولي الآن بارومترًا، تقيس به آيشين كم أحببتها بعدد الأيّام التي أمضيتها من دون تعاطي المشروبات. لكنْ، عندما يخصّ الأمر الحبّ، فإنَّ الأعداد والنسب لا تسبِّب سوى المتاعب. وتصبح كلمة «جدًّا» صفة ضعيفة كلّما كانت كلمة «أكثر» هي الممكنة. لقد أحببت آيشين حبًّا جمًّا، إلَّا أنّنا كنّا نعلم كلانا أنّ في وسعي أن أفعل ما هو أفضل من ذلك. فثمّة سوء تفاهم بيننا، أدّى بآيشين إلى الاعتقاد بأنّ من الضروريّ لي ألّا أخفِّض كمِّيّة الشرب، بل التوقّف عن البرود، وأنّني لا يمكنني بلوغ هذه الغاية إلَّا بمساعدة الحبّ، حبّها هي. لو كان في مستطاعي أن أحقِّق هذا الأمر، لكان ذلك «في مصلحتها». كنت في فخّ. فقد أرادت مبدئيًّا أن أقلِّل من تناولي المشروبات من أجل صحَّتي أنا، ثم من أجل علاقتنا. . وأخيرًا، وقبل أن أدرك الأمر، وإذا بإدماني على الشراب يغدو مشكلتها وليس مشكلتي.

في يوم من تلك الأيّام، رسمت علامة x كبيرة وقرمزيّة اللون على جدولي. إنّ هذه الولادة الجديدة والأخيرة التي جاءت مصادفة في اليوم الثاني والعشرين من الشهر الثاني، كانت مختلفة عن الولادات السابقة من ناحيتين اثنتين: أوّلاً، ففي حين توقّفتُ حتى ذلك الحين عن تناول المشروبات صراحة، فإنّني توقّفت الآن عن تناولها صراحة. ثانيًا، على العكس من إيماني السابق، فقد لبثت صادقًا في هذه المرّة حتى النهاية. فمن ٢٢/ ٢/ ٢٠٠١ إلى ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٢ عندما حكمت المحكمة بطلاقنا من أوّل جلسة سماع، لم أضع قطرة من المشروبات الروحيّة في فمي بحضور آيشين.

راقبت برهة وجيزة هذا التطوُّر السريع والمحدّد، في قناعة واطمئنان تشوبهما نظرة شكّ وارتياب. إلّا أنّها على الرّغم من ذلك، لم تتجاوز ذلك، بل راحت تؤدّي دور المخبر السرِّي للكشف عن الحقيقة.

Twitter: @ketab_n

وإذا كانت قد أخضعتني دومًا لمراقبتها وإشرافها عندما أكون في صحبتها، فإنَّها لم تحاول أن تعرف ما الذي أفعله في الزوايا المعتمة خارج نطاق رؤيتها. إنّني أتساءل إن كان الوليّ صاحب الضريحين قد خطر ببال آيشين أثناء تلك الأيّام، لأنّ دائرتي عند هذا التقاطع قد دارت مرّات أخرى، وافترضت بدوري، كما والدي، أنّني أملك شخصيّتين منفصلتين في جزأي اليوم المنفصلين. ثمّة فرق واضح بيننا على أيّ حال. فقد كان أبي ممتنعًا امتناعًا تامًّا عن تناول المسكّرات أثناء النهار، وسكِّيرًا أثناء الليل. أمّا أنا، فقد كنت بعكسه، وهو ما اقتضته الظروف: فقد كنت صاحيًا أثناء الليل ومخمورًا أثناء النهار.

يختزن جسم الإنسان داخله ساعة لا تعمل من اليمين إلى الشمال فحسب، بل بالعكس أيضًا، وهذا يعتمد على ما تريده أنت. وقد أصبحت متكيِّفًا تكيُّفًا تامًّا مع هذا النظام الجديد في غضون أسبوعين على الأكثر. إنّ العمل في الجامعة من دون ساعات عمل منتظمة نعمة. ففي وقت النهار، لم أضيِّع أيّ فرصة أجدها في طريقي، فأحتسي الشراب حتى الثمالة، أمّا في الليل، فما إن أرجع إلى البيت حتى أصحو، وكأنّني تلقّيت على وجهي دلوًا مملوءًا بماء مثلج، وألبث صاحيًا طوال الليالي. وما إن تخرج آيشين إلى عملها في الصباح، حتى أبدأ الشراب عند الفطور. الخلاصة النهائيّة، لم يكن ثمّة فرق كبير بين الليل والنهار: وكنت إذا أردت السيطرة على أحدهما، فإنّه يتعيّن عليَّ أن أعبث بالثاني. وبخلاف ما كنت أخشى، لم يثقل هذا الترتيب معدتي أو ضميري. لعلّ المرء يعتاد كلّ شيء ما دام يعرف أن لا بديل في الأفق.

إلّا أنّني عند إعداد هذا النظام، تعمّدت إغفال حقيقة أنّ لكلّ شيء دورة حياتيّة خاصّة به ـ إشارة كان يعلم بها أبي طوال تلك السنين. فساعات الصباح لم تكن ملائمة لإخفاء الأسرار. ولأنّنا نختلط بالناس طوال النهار، وأنّ لدينا واجبات ينبغي القيام بها أمام أنظار الكلّ، فإنَّ

Twitter: @ketab_n

ثمّة شيئًا ما في فترة النهار، شيئًا دخيلاً، مخاتلاً وخبيثًا، يحوّل المدينة إلى غابة مفتوحة من كائنات غير مرئيّة. في اللحظة التي وضعت قليلاً من الأسرار في تجويف شجرة، فإنَّ شخصًا ما سوف يختلسه. وكلّما التفتُّ، رأيت بين الأغصان، والأوراق والسيقان الصغيرة التي تحيط بي، مئات العيون التي شخص بصرُها بسبب نور الشمس، ضوء ساطع يجعل من المستحيل معرفة من الذي يراقب، ومن أيّ مكان، ولأيّ غاية. في ذلك النور الخانق للنهار، ترنّحت وسط الهمسات عاجزًا عن الاستدلال على الوجوه من وراء الأصوات. كان في وسعي أن أشعر بأنّ الآخرين اشتمُّوا رائحة المشروبات الروحيّة المنبعثة منّي، وفي كلّ مرّة، لساني يتلعثم بالكلمات أو يتشتّت ذهني. في وسعي أن أحسّ بكلّ ذلك، إلّا أنّني لم أستطع معرفة من هو القريب منّي الذي يعرف سرّي وإلى أيّ مدى.

كنت في هذا الحال عندما جاءت أثيل وتربّعت على حياتي بكلّ ثقلها. كانت قد انصرمت سنتان لم يلتق فيها أحدنا الآخر. فبعد أن فقدت عازف الناي المولويّ، وقذفتْ ما يكفي من السموم كي أستمرّ وإيّاها إلى النهاية، والحيلولة من دون زواجي بآيشين، سافرت إلى الولايات المتّحدة للاستقرار هناك رفقة جرّاح باكستاني ذكيّ ونشيط، متخصّص بجراحة الدماغ. ثم عادت أدراجها، بالسرعة نفسها وعدم التروّي اللذيْن سافرت بهما، مقتحمة حياتي مصادفة في لحظة كنت في مسيس الحاجة إليها أو إلى من يشبهها. كنت قد نسيت أنّ متعة أثيل الكبرى في هذه الحياة، إنّما تتمثّل في السير على قدميها الملطّختين بالوحل على السجّاد الثمين في حجرات الجلوس النظيفة التي لا تشوبها شائبة في بيوت نساء مثل آيشين. وسرعان ما جعلتني أتذكّر ذلك. ولم تستغرق وقتًا طويلاً لتكتشف إدماني على تعاطي المشروبات الروحيّة. وعندما اكتشفت ذلك، لم توبّخني ولم تحاكمني، ولم تضيّق الخناق

Twitter: @ketab_n

عليَّ بأسئلة تنطوي على أجوبة داخلها.

عوضًا عن ذلك، سلَّمتني خارطة مرسومة رسم خبير ـ ما زلت حتى اللحظة لا أعلم كم من السنين استغرقت في رسمها، وما خبرة سنوات الحياة التي اعتمدت عليها ـ وذلك من أجل أن أتمكّن من التجوال في غابة من عيون بلا أجساد، وأصوات بلا وجوه بأقلّ ما يمكن من الأضرار. كانت خارطتها متقنة من الناحية الفنِّيّة، وكانت تشتمل على فترات قصيرة لتناول الكحول تناسب ساعات عملي، ومقدار قليل من شراب قويّ في ثنايا ترامس جميلة، ومفاتيح صغيرة عمّا يمكن أن يقضي على رائحة مشروبات معيّنة، معزّزة بعقارات من شأنها أن تساعدني في جمع أفكاري، ومضادّات الأكسدة والڤيتامينات والمعادن وحبوب الخرشوف لتهدئة كبدي واسترضائه. وأعدّت أفضل برنامج ممكن ومتوافر في ظلّ الظروف إعدادًا جادًّا ودؤوبًا، يماثل إعداد مدرّب موسمي يدرّب استعدادًا لألعاب عالميّة رياضيًّا شابًّا بأقلّ ما يملك من الوسائل المتاحة له، ولكنَّه يملك أحلامًا وطموحات لا حدود لها. الحقّ، أنّها فعلت ما هو أكثر من ذلك. فعلى امتداد تلك الأعوام، وفي كلّ فرصة متاحة لها، ظلّت ترافقني وتشاركني في تناول المشروبات.

بيد أنّ واحدة من أشدّ ضربات سوء الحظّ التي يمكن لامرأة متزوّجة أن تواجهها، في وقت يكون زوجها منشغلاً يبحث عن أساليب لانتهاك قوانين الحظر التي وضعتها زوجته، هي أن تضع أمامه الحياة شريكًا في صورة امرأة أخرى. ما إن وقعت مثل هذه الحادثة، حتى وجدت نفسي في حجرة مملوءة بمرايا مشوّهة، جعلت آيشين تظهر أمامي بعيدة وأثيل قريبة أكثر ممّا هما عليه فعلاً. إلّا أنّ النتيجة لم تكن واضحة الوضوح الذي ظننت، فعندما بدأت آيشين إجراءات الطلاق بعد مرور بضعة أشهر، لم يكن سبب هذا القرار أثيل ولا إدماني السيِّئ على المشروبات.

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ٨

العشيقة الزرقاء

كانت العشيقة الزرقاء جالسة من دون أن تشيح ببصرها عن خطوط الزيت المتبَّل الرفيعة والقرمزيّة التي كانت تنزُّ من دجاجة مطبوخة بالجوز، أُكل نصفها وبقي نصفها الآخر في حالة يرثى لها. لم يكن في وسعها عمل أيّ شيء، بل لم ترغب حتى في الكلام، ناهيك عن إبداء اعتراضات. على أيّ حال، لم يكن ثمّة كلام كثير ينبغي قوله، فقد وقعت في فخّ العشق النهائي: الأطفال!

إنّ كون المرأة عشيقة رجل متزوّج معناه أنّها تعرف أكثر ممّا ينبغي عمّا يتعيَّن بقاؤه مجهولاً، من دون أن تعرف ماذا تفعل بهذه المعرفة الزائدة. العشيقات مطّلعات على أكثر الأسرار الدفينة والمخزية لعدد معيّن من بنات جنسهنّ، لم يسبق أن التقينهنّ. ومن المرجّح، أنّهنّ لن يلتقين بهنّ بعد الآن. وفي حين لا تعرف الزوجات إلّا القليل عنهنّ، وعلى الأرجح غير مدركات لوجودهنّ، فإنَّ أولئك العشيقات جمعن منذ عهد بعيد شتّى أنواع المعلومات... شائكة وبلا معنى، وتفاصيل متهافتة... إذا كانت للمذكورات آنفًا عادة وضع الكريما على وجوههنّ قبل الخلود إلى النوم ليلاً، مثلاً، فإنَّ العشيقة تعرف أيضًا ما رائحة تلك الكريما. كذلك، سوف يعرفن ذوقهنّ في اللباس وبمساحيق التجميل

Twitter: @ketab_n

وصفاتهنّ كأمّهات، ونوع المجوهرات التي يتزيّنّ بها، والساعة التي يأوين فيها إلى الفراش وينهضن منه، وعاداتهنّ في المأكل وفضولهنّ الذي لا يتوقّف، وهوسهنّ البشع وجفاءهنّ ونفاقهنّ وعقدهنّ، فضلاً عن ردود أفعالهنّ المحتملة إذا ما علمن بالحقيقة. العشيقات يعرفن كلّ الأجوبة من دون أن يسألن عن مثل هذه الأشياء. ولا ينشدن أسرارًا موثوقة، بل إنّ الأسرار هي التي تأتي إليهنّ. وسبب ذلك يرجع إلى أنّ الرجال الذين هم «متذمّرون منذ زمن طويل من الزواج، الذين ما زالوا لا يضعون حدًّا للزواج»، والذين «يريدون التغيير من دون خسارة»، ويريدون إعطاء عشيقاتهم الدليل على الضوضاء التي يعيشون في خضمّها، إنّما يطرحون عناوين بارزة، كلّ واحد منها أكثر حدّة وأشدّ استفزازًا من سابقه، مثل صحيفة يوميّة شعبيّة زريّة وتافهة ينتهي بها الأمر إلى حضّ نفسها أثناء محاولتها إضرام النار في مشاعر قرّائها. وعلى العكس ممّا تفترضه الزوجات، فإنّ أولئك اللواتي يتقوّلن تقوّلاً خبيثًا ومشاكسًا عليهم لسن العشيقات أنفسهنّ، بل الأزواج شخصيًّا. إنّ العشيقات لسن سوى مستمعات جيّدات، فهنّ لا يمسكن عن إبداء أيّ جهد، ولو كان ضئيلاً جدًّا في معرفة ما هو أكثر فحسب، بل لا يلمسن أصلاً هذه المعلومات غير السارّة المكدّسة على أحضانهنّ ما دمن واثقات من قوّتهنّ وراضيات مرضيّات بامتيازاتهنّ. فهنّ يبحثن ويسامحن ويحمين عدوّاتهنّ اللواتي لن يتردّدن في الوقت نفسه من إغراقهنّ في بوصة من المياه.

على أيّ حال، لأخيل نفسه نقطة ضعف[1]، كما أنّ لملاءات

(١) في الأصل Achilles' heel: بمعنى عقب أو كعب أخيل، وهو أعظم أبطال الإلياذة. وحكاية الكعب هي أن ثيتس، أم أخيل، أمسكت بولدها صغيرًا من كعبه وغمرته بماء نهر ستايكس لتجعل منه بطلاً لا يقهر. إلّا أنّ كعب أخيل ظلّ بيدها عندما أنزلته الماء ولم يبتلّ. وفي المعركة، أصاب سهم أطلقه باريس كعب أخيل فصرعه. من هنا أصبح الكعب رمزًا لنقطة ضعف الإنسان. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الساتان ثقبًا من ثقوب العثّ في مكان ما، ثقبًا هوائيًا يبدّد طاقة العشيقات بهسيس. إنّ الرجال الذين هم «متذمّرون منذ زمن طويل من الزواج والذين ما زالوا لا يضعون حدًّا للزواج» والذين «يريدون التغيير من دون خسارة» يبدأون منذ لحظة اتّخاذهم عشيقات لهم بإغداق الحبّ على أطفالهم، وكأنّهم لم يشعروا نحوهم بالحبّ من قبل. إنّه حبّ صادق مثلما هو حالة من الحالات المرضيَّة. ومثلما غطّى آدم عريه بورقة عنب(١)، فإنَّ الرجال «المتذمّرين منذ زمن طويل من الزواج، الذين لا يضعون حدًّا للزواج» والذين «يريدون التغيير من دون خسارة» يغطُّون كلّ عيوبهم بحبّهم لأطفالهم. وفي حين تمضي السنون، ويزداد عدد العشيقات، يزداد حبّهم، وينتشر في كلّ حدب وصوب. ومثلما اضطرّت حوّاء إلى الحصول على ورقة العنب، فإنَّ العشيقات مضطرّات إلى تقدير ارتباط عشّاقهنّ بأطفالهم، وهو ارتباط يزداد زيادة مطّردة، ويغدو أكثر حساسيّة بهذه الزيادة، ويكتسب مناعة أثناء ذلك.

رفعت العشيقة الزرقاء من نظرتها التي كانت سدّدتها إلى خطوط الزيت الرفيعة والقرمزيّة التي كانت تنزّ من الدجاجة المطبوخة بالجوز، التي أُكل نصفها، وبقي نصفها الآخر في حالة يُرثى لها، ورنت إلى تاجر زيت الزيتون مرهقة إرهاقًا يصل درجة الهيجان. فقد اضطرّت ابنته البالغة من العمر اثني عشر عامًا إلى ملازمة الفراش بعد أن داهمتها الحمّى. وزجرته زوجته عندما حاول أن يؤنّبها لإهمالها الطفلة، قائلة له:

---

(١) في القرآن الكريم: ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة﴾، والمراد بورق الجنّة بحسب المفسّرين هو ورق التّين (انظر تفسير الطبري، المجلّد التاسع / الجزء السادس عشر في تفسير سورة طٰه، الآية ١٢٠)، وانظر كذلك: العهد القديم، سفر التكوين (٧ : ٣): «وأدركا أنّهما عريانان، فخاطا لأنفسيهما مآزر من أوراق التّين»، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ـ إذا كنت تحبّ ابنتك حبًّا جمًّا، فحاول ألَّا تذهب إلى عشيقتك في هذه الليلة!

أُصيب تاجر زيت الزيتون بالذهول والارتباك حقًّا، إذْ كان حتى تلك اللحظة واثقًا من إخفاء علاقته غير الشرعيّة عن زوجته. ثم نشب من بعد ذلك شجار عنيف في البيت، وسمعت الطفلة كلّ شيء.

نهضت العشيقة الزرقاء من على الكرسيّ، وعانقت الرجل عناقًا دافئًا، وأخبرته بصوت رقيق موجع، أن لا شيء يستدعي القلق، وأنَّ ابنته سرعان ما سوف تتماثل للشفاء، وأنّ قلبها الكسير يمكن أن يأخذ في التحسُّن ما دام أنّها تحبّ والدها الحبّ كلّه. تفوَّهت بما هو متوقَّع منها أن تتفوّه به تمامًا، لا أكثر ولا أقلّ. فما كان من تاجر زيت الزيتون إلَّا أن رمق عشيقته بنظرة تنمّ عن امتنان فيه نكد، غير أنّه لاح الآن أنّه قد سمع ما كان يتوقّع أن يسمعه تمامًا.

عندما ودَّعته العشيقة الزرقاء إلى الباب، ابتسم تاجر زيت الزيتون أوّل ابتسامة منذ ساعات. وما إن كاد يخرج حتى أشار بيده إلى المائدة التي تركها من ورائه، وقال:

ـ أحسنتِ!

هزّت العشيقة الزرقاء كتفيها، وقالت:

ـ لست أنا الذي أعدّ كلّ شيء. فقد اشتريت كلّ شيء من السوق.

كان يصعب أن تعرف من نبرة صوتها إن كانت غاضبة أو لا!

وقف تاجر زيت الزيتون في مكانه برهة وجيزة، وكان يصعب أن تعرف من نظرته المحدِّقة إن كان مندهشًا أم لا.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٢
سيدار وغابا

في ظلّ الإعياء المخيّم على الشقّة رقم ٢، فيقطع كلّ صلة لها بالعالم الخارجي، راح غابا يشخر، كلّ مخلب من مخالبه يشير إلى وجهة مختلفة. ولمّا لم يكن منكمشًا في نطاق الهدوء المهيمن على المنزل فحسب بل على رفيق المنزل أيضًا، فإنّه لا مجال في أن يتململ سيدار إلّا بعد أن يستيقظ غابا. غير أنّ سيدار لم يمانع في ذلك، لأنّه كان يحبّ أن يبقى هادئًا من دون أن يفعل شيئًا ما، ولا حتى أن يحاول أن يفعل أيّ شيء، بطاقته المحدودة وشعوره بالكسل والسذاجة، متقوقعًا في الحيرة، وبجانب المخلوق الذي أحبّه أكثر من أيّ شيء في العالم... وفي بقائه على تلك الحالة، بقائه لا أكثر ولا أقلّ، فقد استسلم بدوره للنوم.

وقف سيدار في حديقة واسعة مملوءة بالأعشاب ومسيّجة بسياج حديديّ مزخرف، محدّقًا إلى شابّة كهرمانيّة الشعر، لفّت نفسها بقماش من تول شفّاف ومستلقية على أريكة. بدت الفتاة شبيهة شبهًا مدهشًا بواحدة من شقيقاته، إلّا أنّها كانت أكثر حسنًا وجمالاً. كانت تشير إليه أن يتقدّم نحوها، فما كان منه إلّا أن تأكّد من أنّ غابا ما يزال نائمًا عند

Twitter: @ketab_n

المدخل. على الرّغم من أنّه كان يعلم علم اليقين أنّ غابا لا ينبغي تركه بمفرده هناك، إلّا أنّه دفع بوّابة المدخل الضخمة جدًّا من دون أن يشيح ببصره عن الفتاة، ودخل. كانت الحديقة أكثر خضرة ممّا بدت عليه من الخارج، غير أنّ المسبح الكائن في وسطها كان ناشفًا كالحطب لسبب من الأسباب. وكان البقّ الذي تبلغ حجم الواحدة منه حجم قبضة اليد يطير من حوله. نهضت الفتاة وابتسمت، فأدرك سيدار بغتة أنّها أطول منه قامة إلى حدّ كبير. زد على ذلك، لم تتوقّف الفتاة عن النموّ، بل تطاولت في اتّجاه السماء. وكان الحذاء الذي تحتذيه ذا كعبين عاليين جدًّا. وعلى حين غرّة، تعثّرت. وبينما كانت تحاول استعادة توازنها، ضربت قدمها على الأرض محدثة ضجّة بدا كأنّه صوت: «توك»، فهتف سيدار من فوره: «لا!» إلّا أنّ رجاءه خلق ردّ فعل معاكسًا في نفس الفتاة، فقد راحت تضرب برجلها الأرض كالمجنونة: «توك، توك، توك!».

زعق بها سيدار، إذْ ساوره القلق من احتمال استيقاظ غابا:

ـ توقّفي عن هذا الضرب. أأنتِ مجنونة؟

ثم استدار ليطمئنّ إلى نوم غابا، إلّا أنّه وجد البوّابة الضخمة ذات السياج الحديديّ مغلقة ونائية، بعد أن كانت مفتوحة قبل ثواني معدودة. وفي حين راحت الفتاة تدقّ وتدقّ على الأرض: «توك، توك، توك»، فإنّ مخاوف سيدار وقلقه تحوّلا إلى حقيقة، إذْ بدأ غابا بالنباح حتى كاد يقطع أوصاله. رشق سيدار الفتاة بنظرة مريرة، وهرول مسرعًا نحو البوّابة، فوجد في تلك اللحظة نفسه يعدو ذاهلاً في اتّجاه باب الشقّة رقم ٢ من قصر الحلوى. ثمّة صوت يصمّ الآذان في كلّ الجهات. ففي الوقت الذي كان غابا ينبح، رجّ الباب رجّة قويّة. وفي الوقت الذي رجّ الباب، نبح غابا نباحًا أشدّ.

عندما فتح سيدار الباب أخيرًا، وجد أمامه محمّدًا واقفًا وقفة

Twitter: @ketab_n

اعتزاز، لأنّه جعل رفساته وركلاته تتكلّم. سرح الطفل ببصره إليه من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، وقدّم له طبقًا مغطًّى بمنديل سفرة، وقال:

ـ أرسلت لك السيِّدة العمّة هذا الطبق!

سرعان ما حرّر سيدار نفسه من ترنُّحه وابتسم ابتسامة ضعيفة. لقد تحقّقت النكتة، فقد وصلته في الوقت الملائم تلك الحلاوة التقليديّة التي توزّعها عجائز الحيّ من بيت لبيت، وصلته في وقت كان يحنّ إلى الحلوى بعد رحلة فظّة، غريبة. وكان سيدار قد أطلق، هو وأصدقاؤه، عبارة «التراث يخترق ما هو غير تقليدي» على هذا الشيء فيما بينهم. عبّر عن شكره للطفل، متلعثمًا في كلمات الشكر والثناء مسرورًا ومبتهجًا. ثم أمسك بالطبق، وأغلق الباب بقوّة من ورائه. وهنا توقّف غابا عن النباح بعد أن اشتمّ رائحة الطعام الذي تسلّمه سيدار قبل قليل. وانتظر في لهفة وشوق، رافعًا خطمه المبتلّ إلى أعلى. فغمزه سيدار غمزة تنطوي على مشاكسة ونكد، ورفع المنديل ووقف ذاهلاً، لأنّ ما رآه لم يكن حلاوة، بل قطعتا حلويّات يكسوهما الدقيق. حلويّات بدقيق وحافّات مهشّمة قليلاً وسكّر مطحون منسكب من فوقها. امتقع وجه سيدار.

لقد تذكّر.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧
أنا

بينما كنت جالسًا في شرفتي أحتسي مشروبي، سألتني أثيل، وهي تمسك السياج بأظافر مطليّة بلون المشمش المجفّف:

ـ لِمَ لا تفكّر في شيءٍ ما لإيقاف هؤلاء الناس؟

لاحظت في المكان الذي أشّرت إليه امرأة ترتدي وشاح رأس، وهي ترمي زبالتها بجانب سور الحديقة.

هززت كتفيَّ. لم يعد ثمّة فرق إن فتحت النوافذ أو أغلقتها. فمع اشتداد حرارة الطقس بمرور الأيّام، ازدادت رائحة الزبالة سوءًا. وإذا ما صادف المرء هذه الرائحة الكريهة وهو في الشارع، فإنّه يزيد من سرعة مشيه. وإن كان في سيّارة، فإنّه يغلق نوافذها. لكنْ، إذا كنت في المنزل الذي تعيش فيه، فإنّك ستجد نفسك صباحًا عندما تستيقظ، وليلاً عندما تخلد إلى النوم، وستجد الجدران والنوافذ والأبواب وكلّ اتّجاه تلتفت إليه، كريه الرائحة. عندئذٍ، تكون قد وقعت في الفخّ. ليس ثمّة وسيلة للابتعاد عن طغيان الرائحة. فعندما أعود في كلّ ليلة إلى البيت، أجد تلًّا آخر من الزبالة المغلّفة جاثمة بجانب سور العمارة السكنيّة. في كلّ ليلة، هضبة جديدة من الزبالة تنتظرني، مؤلّفة من أكياس بلاستيكيّة

Twitter: @ketab_n

مملوءة مختلفة الأحجام، وعليها علامات دالّة على البقّالين والأسواق في الحيّ. . أكياس مشدودة من الأعلى، ولكنَّها ولسبب ما، مثقوبة أو ذات فتحة في أسفلها؛ وعلب من المقوّى مرميّة هنا وهناك؛ ومقتنيات لا يعلم إلَّا الله من هو صاحبها، وسحب سوداء من ذباب طنّان يحطّ ويطير من عصائر البطِّيخ الأحمر المتسرِّب ومن فُتاته. وقطط أيضًا. . . عشرات القطط التي تحوم هنا وهناك. . . بعضها هزيل البنية، وبعضها يميل إلى البدانة، وكلّها غير مكترث بالمارّة، طريحات الفراش في مملكتها التي تفوح منها رائحة القطط، ومستلقيات تحت أشعّة الشمس طوال النهار، تحت أكياس الزبالة وداخلها، بينما يزداد عددها زيادة مرعبة لا تتوقّف.

أراقب تلّ الزبالة في ساعات مختلفة من النهار. فقبل الظهيرة، ثمّة كومة كبيرة تزداد اتّساعًا أثناء بقيّة النهار. وبحلول المساء، يأتي غجريّان، أحدهما يافع والآخر أكبر سنًّا، رفقة عربتيهما ويلتقطان الموادّ من الزبالة ــ علب الصفيح الفارغة والصحف والقناني الزجاجيّة، ويضعانها في أكياس منفصلة ليأخذاها معهما. تبدو الحياة في هذا المكان السفلي مرتكزة على تكرار لا نهاية له، يكمل كلّ جزء منه الجزء الآخر: القطط تنبش الأماكن التي يُركّز الذباب عيونه عليها، والغجر يلتقطون ما تنبشه القطط، وتأتي مركبة الزبالة التي تدخل الشارع مساء كلّ يوم في ساعة الذروة لحمل ما تبقّى ممّا تركه الغجر، أمّا الأشياء التي تتناثر من على مركبة الزبالة، فإنَّ الذباب والقطط والنوارس تتكفّل بها من فورها مجدّدًا. . وسرعان ما تتجدّد الموادّ التي تتلاشى في ظلّ هذه الحركة الدائريّة، ولا تتلاشى أبدًا تلك الرائحة الكريهة.

سألت:

ــ ماذا تريدين منّي أن أفعل؟ هل ينبغي لي أن أقف حارسًا في ظلّ السور؟

Twitter: @ketab_n

قالت منهيّة كأس مشروبها من العرق، قبل أن أنهي كأسي:

ـ افعل شيئًا حازمًا، فلا يرمي أحد زبالته هنا مرّة أخرى أبدًا. هيّا يا قطعة الحلوى. فكّر! سوف تفكِّر في شيء ما.

تراجعت إلى الخلف، وأنا أشعل سيكارة. الغريب في الأمر هو عدم وجود أيّ نمل في هذه الليلة. وبينما تكوّرت سحب دخان مثل قطعة شاش في الجوّ، عنّت على خاطري فكرة صغيرة بحجم قملة.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٢
سيدار وغابا

عندما شاهد سيدار كلبه غابا يلعق فُتات الحلوى بلسانه الورديّ الخشن، لم يستطع أن يحول بينه وبين تذكّر يوم معيّن من أيّام طفولته. كان ذلك اليوم يوم سبت تتساقط فيه الثلوج. وكانوا قد أدّوا زيارة للجدّة، كدأبهم في صباح كلّ يوم سبت، ولكنَّ زيارتهم في هذه المرّة كانت أقصر من المعتاد لسبب من الأسباب. ومنذ أن غادروا منزل المرأة العجوز، راح والده ووالدته يسيران متأبّطيّ ذراع أحدهما الآخر، ويتهامسان همسًا قليلاً ومتكتِّمًا. وكان سيدار الذي لم يتوقّع أحد أن ينمو هذا النموّ، فيصبح فارع الطول في تلك الأيّام ونحيفًا، متدثِّرًا بطبقات من الثياب، ويسير واثبًا وثبات غير منسجمة مثل كرنب، بيريته المصنوعة من صوف حيوان الرنَّة القطبيّ منكّسة إلى أذنيه، ولفّاعه باللون نفسه يلفّ عنقه. وبينما راحت المسافة الفاصلة بينه وبين والديه السائرين سيرًا بطيئًا جدًّا تكبر وتتّسع، فقد أطلق الحرِّيّة لنفسه في الخوض في كلّ ما صادفه في طريقه من برك مائيّة. وهكذا، كان في وسعه أن يقدِّر خطورة الشجار الهادئ بين والديه. إنّ الشيء الوحيد الذي يمكن للأشخاص البالغين أن يفعلوه لجعل أطفالهم يحسُّون بنذر الشؤم تخيّم

Twitter: @ketab_n

في الجوّ، من دون أن يعلنوا صراحة عن الموضوع، إنّما هو عدم الغضب من الأشياء التي تثيرهم دائمًا. وتبعًا لذلك، شعر سيدار أنّ ثمّة شيئًا خطأً، لأنّه إذا أراد أن يقتنع بأنّ هذا اليوم كان شبيهًا بكلّ يوم، فإنّه يتحتّم عليه أن يعثر على بركة ماء عميقة وقذرة وموحلة، فيخوض فيها. وعند هذا، يتلقّى التوبيخ والتأنيب من أمّه فضلاً عن احتمال تلقّيه صفعة من أبيه.

قبل أن يمضي وقت طويل، صادفه، في طريقه ما كان يريده، حفرة قذرة خمريّة اللون مملوءة بالوحل، وربّما لا يستطيع تقدير عمقها حقّ التقدير. فما كان منه إلّا أن ضربها بقدمه بقوّة وعناد؛ وكان من شأنه أن يواصل تقدُّمه إلى أمام لو لم يصمّ مسامعه صوت زمجرة وهدير في تلك اللحظة. جفل في مكانه، وفحص المكان من حوله، إلّا أنّه لم يتمكّن من رؤية أيّ شيء. خُيِّل إليه أنّ الصوت كان صادرًا من تحت قدميه... كأنّ الوحل أُصيب بأذًى عندما دقّ قدمه عليه... ربّما كان ذلك الصوت تحذيرًا يحثّه على البقاء بعيدًا. ربّما كانت هذه الحفرة أمامه واحدة من حفر الموت سيّئة الصيت، التي حفرتها البلديّة ثم نسيت أن تُعيد ملأها مجدّدًا: حفرة موت قذرة، بنّيّة اللون، لا قرار لها... أفزعته، إلّا أنّ الهيبة من الموت لم تكن، كما شعر سيدار أوّل مرّة، مخيفة. وهكذا تقدّم إلى أمام.

ازدادت ضربات قلبه عنفًا. ما عمق الحفرة؟ أين قعرها؟ ربّما ستبتلعه بعد خطوتين!.. وتخيّل أمامه الموت! بعد أن تبتلعه الحفرة، من دون أن تترك من ورائه شيئًا سوى بيريته الغزاليّة الحمراء المطرّزة. وتصوّر أمّه وأباه يمرّان من فوق الحفرة، وهما ما يزالان يتكلّمان كلامًا مضطرم الأحاسيس، ثم يعودان أدراجهما، سالكيْن كلّ الطرق التي مرّا بها بحثًا عن ولدهما الوحيد. كلّما فكّر في هذا الأمر، ازداد استمتاعه بجعل كلّ فرد يدفع ثمن إساءات سابقة: افتراءات جرحت مشاعره،

Twitter: @ketab_n

مشاجرات سبّبت له آلامًا نفسيّة، أكثر من ظلم أصابه... كما يتلذّذ عندما تخيّل أصدقاءه وأقرباءه المسؤولين كلًّا على حدة، عن واحدٍ من هذه الجروح، وهم يعبّرون عن ندمهم لمّا يسمعون بموته.

إلّا أنّه قبل أن يتمكّن من الوصول إلى منتصف أحلامه، وصل نهاية البركة. فما كان منه إلَّا أن خرج منها حانقًا، وهو ما يزال يضرب بقدمه فيتساقط منه الطين كتلة فكتلة، وانعطف عند ناصية الشارع ليتوقّف هناك ذاهلاً مرتبكًا، وحائرًا في أمره. فقد شاهد قبالته، وعلى مقربة من الرصيف، كلبًا صغيرًا مستلقيًا. إنّ تلك الأصوات القويّة لم تكن صادرة عن حفرة الموت العائدة إلى بلديّة اسطنبول، وإنّما من هذا الكلب الصغير، النحيل الجسم والأسود العينين. لم يكن ثمّة أثر لدماء على بدنه، ولا لأيّ جرح. وكانت تصعب ملاحظة آثار عجلات الحافلة الصغيرة التي دهسته. وهنا، امتقع وجه سيدار، وأدرك أنّ الموت الذي كان يحلم به كثيرًا قبل دقيقة واحدة بات قاب قوسين، ولكنَّه بعيد عنه، فشعر بالغباء. كانت كلّ تلك الرؤى التي حملته بعيدًا متنافرة وغريبة، وكلّ التطلّعات التي رسمها بلا طائل. الأشياء الحقيقيّة الوحيدة في نظره كانت متمثّلة في تلك اللحظة بالوحل الملطّخ به بنطاله، الذي راح يجفّ قبل قليل، وبالألم الممضّ الذي يأخذ بتلابيب هذا الكلب الصغير. أمّا فيما عدا ذلك، فكلّه هراء، بلا أيّ معنًى. لديه أسرة، ولكنَّه كان مستوحدًا. وكان الآخرون يقتنصون من شأنه باستمرار. ولم يعرف كيف يمكنه أن يكون سعيدًا، ولم يعتقد بأنّ في وسعه أن يتعلّم كيف يكون سعيدًا. لقد تجاوز سنّ الحادية عشرة، ولكنّه ما يزال طفلاً في عيون الآخرين. فلم يسأله أحد عن رأيه في أيّ قضيّة، وإذا ما سألوه فإنّه ليست لديه أيّ فكرة، على أيّ حال.

ممّا لا ريب فيه، أنّه كان يتعيّن عليه العودة وطلب مساعدة أبويه أو غيرهما، وأن يتقدّم ويساعد الكلب بنفسه، إلَّا أنّه لم يستطع أن يفعل أيًّا

Twitter: @ketab_n

من هذه الأشياء. كلّ ما فعله هو أنّه دسَّ يديه في جيبه، وراح ينتظر ببساطة. كان قنوط والديه يقترب خطوة فخطوة من الجانب الخلفي: هذه هي الحياة. فأمامه كلب صغير راح ينزلق انزلاقًا سريعًا من مرحلة الألم إلى مرحلة النسيان: ذلك هو الموت. أمّا بالنسبة إلى سيدار، فإنّه لم يرغب في الانضمام إلى أيّ من الطرفين، بل أن يبقى بعيدًا قدر ما يستطيع عن كلّ من الموت الذي استبعده، وعن الحياة التي استبعد نفسه منها. حسبه لو كان في وسعه أن يتراجع إلى ما وراء جفونه، ويتوارى مثلما هو مخفيٌّ الآن من تحت المعطف والقفّاز والبيريه واللفّاع. استغرق في التفكير، ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك ما الشيء الطريّ في جيبه الشمالي. إنّه قطعة حلوى.

كانت جدّته قد قالت، وهي مستغرقة في التفكير صباح ذلك اليوم:

ـ سوف تبقى البنات معي. أمّا الولد، فيجب أن يبقى بجانب أبيه.

عندما دخل سيدار المطبخ، كانت المرأتان موليتين ظهريهما له، وكانتا تضعان قطع الحلوى بالدقيق المعدَّة قبل قليل في أطباق من الخزف، صُفّت فوق النضد. وتمتمت الجدّة:

ـ لا تتركيني من دون خبر. وعندما يتمّ ربط هاتفك الجديد، فعليكِ أن تتّصلي بمتجر الحلويّات أوّل الأمر.

عندما يربط هاتف جديد بمنزل جديد، فإنَّ الاتّصال الأوّل هو الذي يحدّد طبيعة بقيّة الاتّصالات. لهذا السبب، ينبغي للمرء الذي لديه هاتف جديد أن يتصل اتّصالاً عشوائيًّا بمتجر الحلويّات، قبل أن يتّصل بالأصدقاء والأقارب، حتى تنتهي كلّ الاتّصالات من ذلك الهاتف نهاية جميلة. وبعد أن يكون المرء قد اتّصل بمتجر الحلويّات، فإنَّ في مستطاعه أن يتّصل بمصرف أو محلّ صيرفة أو جوهريّ من أجل الحصول على مال في المكالمات المقبلة، وبوكيل عقارات للحصول

Twitter: @ketab_n

على منزل، أو وكيل بيع سيّارات للحصول على سيّارة.. وهلمّ جرّا. إلّا أنّ الممتلكات وما أشبهها لا تهمّ كثيرًا، وإنّما المهمّ هو أن تسير الأمور على ما يرام. وعلى هذا الأساس، فعندما يعتمد الاتّصال بالآخرين على هوى الشخص، فإنَّ الاتّصال بمتجر الحلويات يمثّل نوعًا من الواجب.

كان سيدار قد استبدّ به الضجر في مكانه على النحو الذي كان يستبدّ به في صباح كلّ يوم سبت. لحسن الحظّ، أنّهم لم يبقوا زمنًا طويلاً هذه المرّة. ففي حين كان البالغون يتمايلون وتتهدّج أصواتهم بسبب احتدام عواطفهم ومشاعرهم، والأطفال لم يفهموا حتى الآن مدى اختلاف صباح هذا السبت عن غيره من الصباحات، فقد اجتاح الكلّ المكان حتى الباب الخارجي، يشملهم تيّار من كلمات وداع لا تنتهي، حتى أصبح متعذّرًا معرفة من يقبّل الآخر وما سبب تقبيله! إلّا أنّ الشيء الواضح الوحيد هو أنّ البنات سوف يبقين رفقة الجدّة. لم يكن لدى سيدار أيّ اعتراض على هذا البقاء، فهو مسرور السرور كلّه لأنّه سوف يقضي عطلة نهاية الأسبوع بعيدًا عن ثرثرة شقيقاته، مثلما لم يعترض على توجيه أمّه له باعتمار تلك البيريه المصنوعة أصلاً من أجل الفتيات. وفي اللحظة التي كاد أن ينصرف وهو متدثّر على تلك الحالة، جذبته جدّته إليها جذبًا سريعًا، ولصقته بنهديها اللذين كانا يلامسان بطنها وضمّته بقوّة، وملأت جيوبه بمختلف الأشياء، وقالت له: «سوف تأكل هذه الأشياء في طريقك». ثم نخرت بعد أن تنشقت الهواء بأنفها الأحمر، وأشارت بذراعها إلى نقطة ما في السماء، كأنّ الطريق الذي تعنيه موجود هناك في مكان ما. وظلّت واقفة كالصنم على ذلك الحال قرب العتبة، مثل امرأة تحوّلت إلى تمثال ضخم من حجر. وبعد أن اعترضت الطريق على ذلك النحو، اصطفّ كلّ أفراد الأسرة، الواحد وراء الآخر في الممرّ الضيّق، مثل ثياب منسيّة مثبّتة على حبل غسيل،

Twitter: @ketab_n

وتركت لتتجمّد في برد الليل.

كان سيدار يرتبك على الدوام إذا ما واجه مثل هذه التعابير المفرطة في الحبّ، إلّا أنّه أفلح أخيرًا في الهروب من قبضة نهديّ جدّته اللذين كانت تفوح منهما رائحة قليل من العرق وكثير من عطر الليمون وقليل من رائحة خبز طازج. ذلكم هو المخرج. منذ تلك اللحظة فصاعدًا، ظلّوا يجوبون الشوارع: هو في المقدّمة، وأمّه وأبوه في المؤخّرة.

توقّف الكلب عن الأنين في اللحظة التي شاهد الكعكة الصغيرة المحلّاة، بعد أن أخرجها سيدار من جيبه. وقفا يرنو أحدهما إلى الآخر لحظة عصيبة من الزمان. وشعر سيدار بدافع من الكراهيّة يفور من أعماقه، لأنّه لم يستطع أن يحول بينه وبين الاشمئزاز من الحيوان الذي كان يشارف على الموت؛ ومع هذا، تتملّكه الرغبة في أن يلتهم كعكة صغيرة تومض مثل وهج متذبذب في عينيه السوداوين اللتين فقدتا بريقهما.

بعد مرور دقيقتين، انعطف والداه من حول الناصية، واقتربا وشاهدا ابنهما يقضم الكعكة من غير اكتراث أمام كلب صغير يحتضر. وهنا أفلتت أعصابهما تمامًا، عندما شاهدا مثل هذه القسوة المفتقرة إلى أيّ إحساس، بعد أن تمدّدت إلى أقصى حدّ تحت تأثير الموضوع الذي كانا يتحدّثان عنه. وفي حين زعقت أمّه، صفعه والده على وجهه.

أخيرًا، تحقّقت أمنيته. وتبيّن أنّ كلًّا من أمه وأبيه قد عادا إلى وضعهما الطبيعي، إلّا أنّ ذلك الشعور الخبيث الذي مزّق سيدار من أعماقه لم يخفّ أو يهدأ ولو قليلاً. وبينما راح يجهش بالبكاء، شعر أنّ توبيخ أمّه أو صفعة أبيه ليسا هما اللذان جرحا مشاعره أيّما جرح، بل إنّ اعتقاده في ذلك الصباح الأخير من يوم السبت، ومفاده أنّ الحياة

Twitter: @ketab_n

التي اعتادها سوف تستمرّ على النحو الذي سارت عليه إلى الأبد، قد زال مرّة واحدة وإلى الأبد.

في تلك الليلة، سافر سيدار جوًّا أوّل مرّة في حياته. وسوف يدرك بكرور الأيّام السبب الذي دفع والده ووالدته إلى الاهتياج قبل المرور بضابط الجوازات، والسبب الذي أدّى بهم إلى مغادرة تركيا على جناح السرعة. وفي نهاية الرحلة التي قضاها في النظر إلى مضيفة حسناء، تنفرج أساريرها بالابتسامة نفسها في وجه كلّ المسافرين، وعندما أخذت الطائرة تحطّ في المطار، رأى أمامه مدينة تنشر أضواءً ساطعة من دون ظلال في ظلمة هادئة: سويسرا!

بعد مرور نحو شهرين، وبعد أن رحلوا عن قاعة النوم في المدرسة التي جرى ترتيبها لإيواء أولئك الطالبين اللجوء السياسي، واستقرّ بهم المقام في المنزل الذي سوف يشاطرون أسرة آشوريّة لاجئة أيضًا، فإنَّ أوّل شيء فعلته أمّه هو أنّها هرعت إلى الهاتف، وراحت تكلّم بناتها وهي تسفح الدمع، وتكرّر باستمرار العبارات نفسها، مرّات ومرّات: ليس دكّان معجّنات، ولا دكّان حلويات، ولا معمل شوكولا... ربّما لأنّهم سبق لهم أن استخدموا هاتفهم بالاتّصال بالأسرة أوّلاً، وإجراء حديث محتدم العواطف، فإنَّ كلّ مكالمة تلقّوها على مدى سنوات طويلة، كانوا يخشون أن تحمل خبرًا مزعجًا من اسطنبول. وحتى وفاة الجدّة بعد خمسة أعوام ووصول البنات إلى سويسرا، فإنَّ الأمر لم يتغيّر، ففي كلّ المكالمات التي سوف يتلقّونها، ثمّة خبر ما من اسطنبول، وإن لم يكن كذلك، فثمّة ألم ممضّ ومستمرّ.

ولمّا كان الأمر كذلك، فقد كان سيدار الوحيد من بين أفراد الأسرة الذي رجع إلى اسطنبول، بعد مرور أحد عشر عامًا ونصف العام ويوم واحد...

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ٤

أبناء الطبع الناري

كانت زليخا، أحد أفراد أسرة أبناء الطبع الناري، قد أوصدت الباب من ورائها، وجلست واضعة ساقًا على ساق فوق سجّادة، على مقربة من صرصار سحقته. وكانت في نصف الساعة الماضية تحدِّق إلى المرآة، التي كانت تمسك بها في حزن واكتئاب ووقار، وكأنّ ظلمًا ما حقًّا قد حاق بها وهي تشاهد وجهها على تلك الحالة. كان وجهها حتى وقت قريب مضى شاحبًا، وكأنّها صادفت في طريقها شبحًا في الليل، وكان مدوّرًا وكأنّه صينيّة معجَّنات. لكنْ، منذ خمسة شهور وحتى هذا اليوم، انتشر على وجهها طفح صغير أحمر اللون، وكأنّه طفح حراريّ من دون أن تعلم. وقال طبيب الأمراض الجلديّة صاحب الضحكة النابعة من قلبه والعينين العمشاوين الذي زارته، إنّها لا تعاني حَبّ الشباب ولا حساسيّة، بل تعاني ما يعرف بظاهرة السيكوسوماتي الدالَّة على تفاعل بين الظواهر البدنيّة والنفسيّة. وزعم الطبيب بأنّ الجلد يمكن له أنّ يتحوَّل في ظلّ القلق الشديد إلى ما يشبه منديل مائدة منقَّط. ولمّا رأى الطبيب زليخا تضحك ضحكة قصيرة، وجَّه إليها صفعة على ظهرها، وهدر بصوت عالٍ:

Twitter: @ketab_n

ـ بالله عليكِ، إذا كنت قلقة في مثل هذه السنّ، فإنَّ الأمر سينتهي بك وأنت تحطّمين أعصاب زوجك بعد الزواج. استرخي يا ابنتي، استرخي!

إذا كان ثمّة شيء واحد في هذه الحياة يتضاعف نكايةً وكيدًا، وينتشر من باب أولى، في اللحظة التي يُراد منه بها أن يخفّ ويقلّ، فهو القلق بلا أدنى ريب. فالخوف نفسه له نهاية، له نقطة إشباع. وعندما يتمّ الوصول إلى تلك النقطة، فإنَّ ما من شأن المرء أن يخاف، بل يمكنه أن لا يخاف بعد ذلك حتى إذا كان غارقًا في الخوف. الإفراط في الخوف يفقد الإحساس به. أمّا القلق، فهو ماء الحقد والضغينة في بئر لا قرار له، فهو بلا جرعة مضافة ولا جرعة مضادّة، لأنَّ مصدر القلق غامض ومجرّد، مثلما أنّ مصدر الخوف واضح وملموس. ولمّا كان الأمر كذلك، فإنّه لا سبيل لمعرفة سبب القلق المتواصل، حتى إذا لم تكن للمرء أيّ مشكلة في تحديد السبب الكامن من وراء الخوف. فإذا ما سلّمنا بذلك، فإنَّ تحذير شخص يتملّكه القلق، وهو منهك أصلاً من محاربة جيش كيماويّ وليس جيشًا ذا وجود ماديّ، من أشياء خبيثة قد تحدث له إن لم يهدّئ من روعه، فإنَّ ذلك لن يفيد إلّا في خلق أثر مضادّ، فيزداد القلق.

إنّ زليخا لم تعرف كيف تسترخي فحسب، بل لم تعتقد أنّ في وسعها أن تتعلّم أيضًا. وعندما اكتشفت أنّ سبب كلّ هذه البثور لا يرجع إلى حساسيّة جلديّة معيّنة، وإنّما إلى قلق غامض، زاد من تشاؤمها أكثر فأكثر. ليس ثمّة صابون أو كريما أو محلول على وجه الأرض يمكنه أن يشفيها. ليس للقلق أيُّ حلّ كامن في مستحضرات التجميل. إنّ البثور المنحصرة الآن في جبينها وذقنها ازدادت بمقدار الضعف، وانتشرت في عموم وجهها.

على حين بغتة، انساب إلى سمعها صوت موسيقى من الشقّة في

Twitter: @ketab_n

الطبقة السفلى، فجثت على ركبتيها، ووجهها ناحية الصرصار الميِّت، ولصقت أذنها بالأرض. كانت قد اعتادت الآن على أن تسترق السمع على الشقّة الكائنة من تحتها في أوقات مختلفة من النهار. كانت غرفتها تقع فوق حجرة الجلوس في شقّة الرجل النحيل الذي يقطن الشقّة تحت الأرضيّة. كانت أحيانًا تسمع صوتًا غريبًا، وكأنّه يسير على السقف، أو أنّه أُخذ رهينة ووُضع في تلك الشقّة وأنّه يحاول الآن أن يخرج منها متسلِّقًا، أو ربّما كان يرسل إليها رسالة مشفَّرة... وترامى إلى أذنها في أحد المرّات صوت آهات ممتزجة بنباح كلب. وانتظرت في ذلك اليوم صابرةً قرب شبّاك غرفة الجلوس لتتبيّن شكل هذه الضيفة. وشاهدتها. فتاة صغيرة ذات شعر نحاسيّ سبايكيّ قصير، وبنطال فضفاض يبدو وكأنّه سوف ينزلق عن جسدها في أيّ لحظة. وما إن غادرت الفتاة قصر الحلوى حتى أشعلت سيكارة في منتصف الطريق. لم تكن لديها أيّ بثور، وبالتالي، ليس لديها أيّ قلق.

قال الحكماء: «كلّ امرأة تنفق حياتها باحثة عن صورتها حتى تتوحَّد بها ولتعثر على نفسها فيها.» لكن حتى لو كان الأمر كذلك، مثلما انقلبت شجرة التوبة في الجنّة رأسًا على عقب، حيث أصبحت جذورها إلى أعلى في الهواء وأغصانها تحت التربة، فإنَّ بعض أنواع المرايا تقلب ما هو منشود رأسًا على عقب. لقد رأت زليخا في الفتاة التي خرجت من شقّة سيدار نقيض صورتها. لو كان في وسعها، لتخلّصت من نفسها وتحوَّلت إلى تلك الفتاة.

ـ ما الذي تفعلين على الأرض بحقّ الجحيم؟

نهضت زليخا مسرعة من على الأرض ووقفت على قدميها، وعبست في وجه أخيها الذي اندفع إلى غرفتها من دون أن يزعج نفسه بالطرْق على الباب أوّلاً. كان زكريّا قد جاء لتناول العشاء في تلك الليلة رفقة زوجته وطفله. فخرجت زليخا من الغرفة ثقيلة الخطوات، صامتة،

Twitter: @ketab_n

فرأت الكلّ جالسين من حول المائدة في غرفة الجلوس، وهم يحتسون الشوربة ويشاهدون نشرة الأخبار. في أحد طرفيْ المائدة، ثلاث قطع من الحلوى، كانت الأرملة العجوز الساكنة في الشقّة رقم عشرة قد أرسلتها لهم.

عندما تربَّعت زليخا من فوق الكرسيّ في الزاوية، جذبت أنظارها شاشة التلفاز. ثمّة أمّ في السادسة عشرة من عمرها تحاول إخفاء وجهها عن عدسات التصوير، بعد أن كانت تركت طفلتها الرضيعة البالغة من العمر ثلاثة أيّام في مكبّ أحد المتاجر. ولبثت الطفلة النكدة الطالع نائمة في برميل وسط الزبالة هادئة طوال النهار، إلّا أنّ المارَّة تنبَّهوا لها وأنقذوها، بعد أن أجهشت بالبكاء ليلاً. وبعد أن أخذ رجال الشرطة الطفلة من الزبالة إلى مخفر الشرطة وأرضعوها، أطلقوا عليها الاسم «قدر».

وعلى حين بغتة، لاح وجه قدر على الشاشة، صغيرًا ومتورِّدًا. وظلت تبكي وتبكي، وتزداد احمرارًا عند كلّ بكاء. وهنا انفجرت زليخا تتصبَّب عرقًا. كان لون الطفلة في غاية الاحمرار. وعلى الرّغم من أنّها حاولت أن تبعد نظرتها عن ضغط اللون القاسي، إلّا أنّ الأوان كان قد فات. ففي حين راحت أحضان رجال الشرطة تتلقَّف الطفلة قدر، واحدًا فواحدًا، وهي مسودَّةٌ اسوداد اللون الأحمر القانيّ ـ كانت زليخا قد أغمي عليها.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧

أنا

استيقظت على صوت زعيق الساعة المنبِّهة في الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحًا، وبدت الفكرة التي استطابت لي في الليلة الماضية فكرة سخيفة تمامًا. كان بودِّي أن أضرب الوسادة وأخلد للنوم مجدَّدًا، لو استطعت إلى ذلك سبيلاً. إلَّا أنّني عوضًا عن ذلك، نهضت ونظرت إلى خارج النافذة. كان الظلام ما يزال يخيِّم، وشعرت كأنّني أريد أن أجرِّب خطّتي وأضعها موضع التنفيذ، فهي ستوفِّر لي على الأقلّ شيئًا يثير ضحكي رفقة أثيل ـ المرأة. حملت الحقيبة التي كنت حضّرتها في الليلة الفائتة، وتسلَّلت تسلُّل شبح وهبطت الدرج. كانت العمارة السكنيّة غارقة في صمت مطبق. وما إن فتحت باب المبنى حتى لطمني نسيم الصباح البارد على وجهي، ثم هاجمتني رائحة الزبالة المميَّزة. لقد بدأت قبل قليل. من يدري؟ ربّما ستكون الخطَّة ذات فائدة إلى حدٍّ ما. وإذا ما أفلحت في إقناع شخص واحد ألَّا يرمي زبالته هنا، لنظرت إلى نفسي، لا بوصفي قد أسديت خدمة لنزلاء قصر الحلوى فحسب، بل للمدينة برمّتها.

لاح الشارع الذي انتقلت للسكن فيه عظيمًا في نظري أوّل مرّة، على الرّغم من بؤسه ووحشيّته. ووثب كلبان مفتولا العضل من كلاب الشارع من الناصية، وتقدَّما في سيرهما المتعرِّج من رصيف إلى آخر ووقفا وجهًا

Twitter: @ketab_n

لوجه، وخفضا من سرعتهما لمّا وصلا سور الحديقة وتشمّما الزبالة متردِّدين، ثم ابتعدا بعد أن أخفقا في العثور على شيء ذي قيمة. وبينما كنت أنظر من ورائهما، راودني إحساس ما في لحظة عابرة أنّ ثمّة عينين ترنوان إليَّ. إلّا أنّني عندما انعطفت، رأيت قصر الحلوى غارقًا في الظلام باستثناء الشقّة رقم ٩. وسرعان ما مرّ ظلّ من وراء نوافذ غرفة الجلوس في الطبقة العليا، وأُضيئت الأنوار في كلّ الغرف في الاتّجاه الذي تحرَّك الظلّ؛ ولكنَّها، لسبب ما، أُطفئت من فورها بالترتيب نفسه. شعرت بالارتباك. وبينما كنت أتفحّص المكان المحيط بي، أحسست بالانزعاج من سخافة ما كنت أريد أن أفعله. إلّا أنّ ثمّة شيئًا ما في أعماقي رفض التخلِّي عن الفكرة. صحيح أنّ خطّتي سخيفة لا معنًى لها، لكنْ، ربّما كان الأفضل أن تكون كذلك. أحيانًا، يكون الأسلوب الوحيد في إيقاف السخف المتواصل متمثِّلاً في الردّ عليه بشيء آخر موازٍ له في سخفه، بدلاً من التصدِّي له بقوانين عقلانيّة أو حظر تامّ.

عندما وصلت الرصيف وأصبحت قبالة سور الحديقة، اعترضتني عينان واجمتان. سبق لي أن رأيت هذا القطّ، فهو يحدِّق إلى بني البشر بحقد وضغينة تامَّين. . واضطرب وارتبك لدى رؤيته إيّاي، فنهض من موضعه، وسار إلى نهاية السور بخطوات تنمّ عن غباء وراح يراقبني. أخرجت صفيحة الطلاء من كيس النفايات، وفتحت غطاءها بصعوبة. كنت لمّا اشتريت صفيحة الطلاء بالأمس قد طلبت من البائع «اللون الأخضر الإسلامي» ليلائم المناسبة، إلّا أنّ ما ظهر من تحت الغطاء كان لونًا أخضر بلون الفستق ــ وهو على وجه التأكيد لون غير مناسب للحياة الآخرة. زد على ذلك، انزعجت ثانية عندما أصبحت قبالة السور، وبيدي الفرشاة. كنت أعرف ما نوع الرسالة التي أريد أن أكتبها، إلّا أنّني لم أفكِّر كثيرًا في كيفيّة صياغتها الصياغة المثلى والأقوى أثرًا. مرَّت من ورائي مركبة الخبز محدثة ضوضاء، وواصلت طريقها، بعد أن تركت قفصًا مملوءًا بالخبز أمام دكّان البقّال في الجانب المقابل من الشارع. وعندما أدركت مدى ضيق

Twitter: @ketab_n

الوقت الذي تبقّى لي قبل أن تنهض المدينة برمّتها من نومها، تعجَّلت في كتابة أبسط عبارة خطرت ببالي، وراجعت كلّ حرف من حروفها مرّتين. وبينما كنت أعمل بوحي من ضمير حيّ، كان القطّ اللعين يراقب كلّ حركة من حركاتي، هازًّا ذنبه الأسود الذي تركه متدلّيًا من فوق السور.

وعندما فرغت، تراجعت إلى الوراء وتفحّصت ما كتبته. لا بأس. على الرّغم من أنّ الأخضر الفستقي كان لونًا زاهيًا أكثر ممّا ينبغي، وأنّني أخفقت على ما يبدو في حصر الكتابة وتركيزها في الوسط. لكن لا بأس.. فالكتابة كانت كبيرة الحروف ومقروءة ما يكفي لقراءتها من منتصف الشارع. غمزت بعيني للقطّ، وحملت الطلاء والفرشاة وعدت أدراجي إلى قصر الحلوى.

في اللحظة التي كنت أوشك أن أدخل، رأيت شخصًا ما يستعدّ للخروج.

كانت المرأة البالغة من الكبر عتيًّا، والساكنة في الشقّة رقم ١٠، هي آخر شخص توقّعت أن أراه في هذه الساعة المنسيّة من الصباح، لكن يبدو وكأنّها شعرت أيضًا بشيء من الارتباك لهذه المواجهة، مثلما شعرت به أنا أيضًا. وبينما رحت أحاول أن أخفي محتويات الكيس في يدي، فإنَّ أكياسها جذبت نظري. كانت تحمل أربعة أكياس كبيرة بدت فارغة. أكياسها خفيفة خفّة ريشة، وهي أيضًا خفيفة خفّة ريشة.. أمسكتُ الباب بعد أن فتحته لها، فانكمشت بجسدها الصغير، وانسلّت خارجة، بعد أن توّجت ابتسامتها الساخرة بعبارة نطقتها بأدب جمّ:

ـ شكرًا لك.

عندما أصبحت داخل الشقّة، توجَّهت من فوري إلى الشرفة. على رغم أنّني كنت مصمِّمًا على أن أتربّع هناك، لأرى بأمّ عيني تأثير كتابتي، إلّا أنّ النوم الذي لم أكمله غالبني، وتشبَّث بي مثل دائن دبق.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٩

هايجين تايجين والصرصار

بعد أن تفحّصت هايجين تايجين كلًّا من المطبخ وغرفة الجلوس والممرّ والغرفة الخلفيّة، أطفأت الأنوار أخيرًا، واستلقت من فوق السرير منهكة. وفي هدوء الظلام الشامل وسكونه المطبق، الذي راحت تباشير الفجر تنساب إليه رويدًا رويدًا، التفتت وحدَّقت في حبّ استطلاع إلى الجسد الممدّد بجانبها، وكأنّها تراه للمرَّة الأولى. صحيح أنّها كانت تحدِّق، إلَّا أنّ ما شاهدته لم يكن جسدًا قدر ما كان قطعًا صغيرة متعدِّدة. كان شغفها بالتنظيف، الذي تحوَّل منذ زمن بعيد إلى مستوًى مزمن، قد أثّر بعد مرحلة معيّنة في بصرها مثل مرض خبيث. كانت عيناها الآن تقطّع كلّ ما تراه، تقسِّم كلّ شيء إلى أقسام، والأقسام إلى تفاصيل، والتفاصيل إلى شذرات. عندما أرخت بصرها إلى السجّادة المفروشة في غرفة الجلوس، مثلاً، فإنَّها لم تكن تشاهد السجّادة، بل نقوشها والبقع المنتشرة عليها وذرّات القذارة الملتصقة بهذه البقع. وبينما كان بصرها قد بلغ من الحدّة ما يساعدها على رؤية التفاصيل، التي يتعذّر التفرقة بينها ومطاردة الطفيليّات التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجرَّدة، فإنَّها، بخلاف ذلك، فقدت القدرة على فهم أيّ شيء بقضّه

Twitter: @ketab_n

وقضيضه. وعلى هذا الأساس، عندما انقلبت إلى الجانب الآخر من السرير وشاهدت الجسد بجانبها، فإنّها لم تشاهد زوجها، بل شاهدت قطرتين جافّتين من اللعاب عند زاويتيْ فمه، والرمل الذي تراكم في عينيه، وبقايا الطعام بين أسنانه، وصفار النيكوتين على أنامله، والقشرة في جذور شعر رأسه. وفي غمضة عين، أشاحت بوجهها بعيدًا كي لا تضطرّ إلى مشاهدة هذا المنظر مجدّدًا، إلّا أنّ الأوان كان قد فات. فالاشمئزاز استبدّ بها.

ليس الاشمئزاز شعورًا عاديًّا، فهو منتشر انتشارًا كبيرًا بين كلّ الكائنات الحيّة على وجه البسيطة. بدايةً، هو خاصّ بالبشر وحدهم. والنساء أكثر اشمئزازًا من الرجال. وبعض النساء أكثر اشمئزازًا من غيرهنّ. وكلّما شعرت هايجين تايجين بالاشمئزاز، تتهدّل زوايا فمها، وتتجمّد ساقاها كالصنم، ويساور جسدها كلّه إحساس بالوخز ليتحوّل من بعد ذلك إلى حكّة عنيفة. تتكوّر مثلما يتكوّر الجنين في بطن أمّه، وتحكّ جسمها من دون توقّف، في حين ينساب الإحساس بالاشمئزاز إلى أصابع قدميها، وينتشر من هناك إلى الأقسام العليا من جسدها، موجة في إثر موجة.

باتت حتى يومنا هذا مشمئزّة مرّات لا تُعدّ ولا تُحصى لمختلف الأسباب، إلّا أنّها شعرت في هذه المرّة أنّ الاشمئزاز لا يوخز أطراف أصابع قدميها فحسب، وإنّما فوديها أيضًا. وازداد الوخز في غضون ثانيتين ليشمل رأسها كلّه، ثم يسريِ إلى عنقها، فيضغط على الجانبين، يمينًا وشمالاً، وكأنّه يعبر جسرًا، وعندما يخلّف الجسر من ورائه، يبدأ بالهبوط هبوطًا متقطّعًا ومنظّمًا. لم يكن من خلف هذا الجيش المعبّأ تعبئة سريعة سوى دماغ هايجين تايجين. كان دماغها يتصرّف على هواه، بعد أن يكون قد توقّع مسبقًا العواقب الوخيمة المحتملة لنفورها المفاجئ من زوجها.

Twitter: @ketab_n

في بعض الأحيان، يُدرك دماغنا قبل أن ندرك نحن النتائج المحتملة للأفعال التي سنقدم عليها، وإذا ما رأى الضرورة تقتضي، فإنّه يبدأ باتّخاذ الاحتياطات من تلقائه. وهكذا، قرّر دماغ هايجين تايجين بوحي منه أن يتولّى زمام الأمور، لأنّه يستطيع أن يتصوّر أنّ هذا الاشمئزاز لا يشبه النوبات السابقة، وأنّها عندما بدأت تشمئزّ من الرجل الذي تزوّجته يومًا ما، مجازفةً بذلك بحدوث مواجهة مع والديها، فإنَّ الموضوع يمكن أن يتحوّل إلى استنطاق الحياة برمّتها. في غضون الدقيقتين التاليتين، شعرت هايجين تايجين بتقلُّص عضليّ رهيب في معدتها، لأنّ هذه المنطقة هي التي واجه فيها المتمرِّدون المقاتلون باسم «الاشمئزاز ــ من ــ الزوج» قوى «الوفاء ــ للزوج»، وقد انتصر الفريق الأخير، ونجح الدماغ في قمع تمرُّد آخر. وبعد أن تخلّصت هايجين تايجين من تشنُّجات معدتها، تنهَّدت وتوجَّهت إلى الحمّام تجرُّ قدميها جرًّا. أضاءت النور، فبدا المكان أبيض كالثلج. سكبت بضع قطرات من القاصر على منديل ورقيّ، ومسحت مقعد المرحاض مسحًا شاملاً. وبينما هي تنظر، راحت تتفرَّس في كلّ ما يحيط بها، فلم تجد في نطاق رؤية بصرها أيّ شيء يمكنه أن يخترق هيمنة البياض المطلقة... لونها المفضَّل.

ثمّة هالة من لون معيّن تحيط كلّ شخص استنادًا إلى كرّاس سبق لها أن شاهدته ــ كرّاس خاصّ بمنظّمة أُسِّست في كاليفورنيا، كان أعضاؤها لا ينادي أحدهم الآخر باسمه، وإنّما بلونه، واتّفقوا على تشكيل مقاييس لونيّة مثل مجموعات الألوان المائيّة المدهشة، إلّا أنّ هذه المنظّمة اضطرّت إلى أن تحلّ نفسها بنفسها، عندما بدأ الأعضاء ينقسمون على جماعات وفرق استنادًا إلى تدرُّجات اللون. لعلّ العكس كان صحيحًا أيضًا. «ثمّة هالة لشخص ما تحيط بكلّ لون. وإذا كانت الحالة كذلك، فإنَّ هالة الأشخاص المحيطين باللون الأبيض سوف

Twitter: @ketab_n

تتألّف بلا أدنى ريب من ربّات البيوت. إنّ اللون يضفي الكبرياء والهيبة على ربَّات البيوت. أمّا بخصوص هايجين تايجين، فإنّه لا يضفي عليها سوى الطمأنينة وراحة البال.

بعد أن سمحت بتدفُّق الماء في المرحاض، سكبت بضع قطرات من القاصر على منديل ورقيّ، ومسحت المقعد. وبما أنّها انهمكت في هذه المهمَّة، فقد راحت تنظِّف غطاء مقعد المرحاض ومن تحته ومن حوله. ثم انتقلت إلى تنظيف مشجب المنشفة والمغسلة وحوض الاستحمام. ولمّا عجزت عن التوقّف عن العمل، جذبت الغسّالة إلى أمام كي تنظِّف الأرضيّة من خلفها. وقبل أن تخرج، استدارت متعبة إلى حدٍّ ما وراضية إلى حدٍّ ما لتلقي نظرة شاملة وأخيرة إلى الحمّام. أغلقت الباب من ورائها، إلَّا أنها لبثت واقفة من دون حراك. الدماغ لا يتّجه دومًا إلى أمام، ولكنَّه يأتي أحيانًا من الخلف على هذا النحو.. وقرّر دماغ هايجين تايجين أيضًا متلكِّئًا بضع ثوان أنّه شاهد شيئًا ما أسود اللون، شديد السواد، يتجوّل في مكان ما ضمن البياض الذي يكسو الحمّام برمّته. ففتحت الباب مجدّدًا. إنّها ليست مخطئة. فثمّة مجسٌّ أسود اللون، مقزِّز، يُثير الاشمئزاز ويتقدَّم تقدُّمًا سريعًا على البلاط الأبيض. اقتربت هايجين تايجين جزعة مذعورة، تخطو خطوات جانبيّة حذرة، ولم تستطع أن تدرك إلَّا بعد أن دنت دنوًّا شديدًا حقًّا أنّ ذلك الشيء الذي كانت ترنو إليه بكلّ تفاصيله، ولكنَّها أخفقت في رؤيته بكامله، لم يكن مجسًّا أسود اللون مقزِّزًا يثير الاشمئزاز، وإنّما هو صرصار أسود يثير الاشمئزاز.

قبل أن تندّ عنها صيحة، كان صاحب المجسّ الأسود المقزِّز قد توارى عن الأنظار في جحر في جدار الحمّام.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١

موسى ومريم ومحمّد

استيقظ موسى مبكرًا على غير عادته في صباح هذا اليوم نتيجة شجار تافه. وما إن دخل غرفة الجلوس حتى رأى محمّدًا منحشرًا بين كرسيٍّ ذي مرفقين والجدار، فتظاهر بأنّه لم يشاهد توسُّلات ابنه من أجل مدِّ يد العون له تومض في عينيه، وجلس إلى مائدة الإفطار. دفع بقطعة كبيرة من الجبنة في فمه دفعًا فيه الشيء الكثير من النقمة والحنق، وبسط ذراعه إلى إبريق الشاي، ولكنَّه انكفأ في مكانه ناقمًا وحانقًا أكثر من ذي قبل، لأنّ الشاي كان، ويا للأسف، قد برد ثانية. ألمح إلى زوجته بإشارة إلى إبريق الشاي، إلَّا أنّ مريم لم تعره اهتمامًا، فقد كانت منشغلة جدًّا بدفع الكرسيّ ذي المرفقين بإحدى ساقيها، في حين كانت تحشو نصف رغيف من الخبز بالكرفس. أذعن موسى مكفهرّ الوجه، متجهّمًا، بعد أن أدرك أنّه ينبغي له أن يأخذ الأمر على عهدته، وراحت نظراته الخاملة تتفرَّس من حوله، وترنو إلى نظرات ولده اليائسة والباعثة على القنوط، وتتفحّص كلًّا من الكراسي ذات المرافق وطاولات القهوة الصغيرة والمقاعد المصطفّة اصطفافًا يشي بثقل وزنها. وبعد أن أكمل دورة كاملة في غرفة الجلوس، ركَّز أخيرًا في زوجته مجدّدًا، فلاحت له

Twitter: @ketab_n

بطن مريم أكبر في هذا الصباح.

انصرف موسى من المنزل من دون أن ينبس بكلمة، بعد أن التهم نصف الجبنة الموجودة في الطبق وثلاث شرائح من الخبز، وكلّ ما تبقّى من زيتون في الطاس وبأسرع ما يمكن. في مثل هذه الساعة من النهار، اتّجه إلى دكّان البقالة المقابل، لأنّه المكان الوحيد الذي استطاع أن يفكِّر في الذهاب إليه. إلّا أنّ البقّال لم يكن موجودًا، وهو الرجل المعروف عنه جلوسه محدودب الظهر على الكرسيّ نفسه وفي المكان نفسه، مختلسًا النظر طوال الوقت إلى المارّة. وكما هو شأن عديد دكاكين البقالة في اسطنبول، فإنَّ الذي جعل من هذا الدكّان مختلفًا عن غيره من الدكاكين لم يكن متمثّلاً في نوعيّة الموادّ التي يبيعها، قدر ما تمثّل في سجايا البقّال وصفاته. فقد تماهى الدكّان تماهيًا شديدًا بصاحبه البقّال المحدودب الظهر، الذي وجد منذ زمن طويل استحالة تقبّل حقيقة بسيطة مفادها إمكانيّة فتح البقالة في غيابه. ولكنَّه، على الرّغم من ذلك، وبعد أن رأى أنّه سيواجه خطر خسارته زبائنه إذا ما ظلّ يغلق مصاريع الدكّان الخشبيّة كلّما ذهب إلى المسجد لأداء الصلاة، فقد اضطرّ إلى أنّ يأتمن صبيَّه النَمِشْ على دكّانه.

كان الصبيّ ابن شقيقه.. لكنْ، بما أنّ البقّال الأحدب كان مؤمنًا إيمانًا راسخًا بضرورة أن يبقى العمل والقرابة منفصلين بعضهما عن بعض ـ انفصال الماء عن الزيت، فقد راح يعامل الصبيّ الصغير لا بوصفه ابن أخيه، بل بوصفه صبيًّا لا مناصّ من معاملته استنادًا إلى عمله. أمّا الصبيّ، فلم يستطع أن يفهم قطّ كيف أنّ عمّه الذي كان ينهال عليه بالأوامر الصارمة والتعنيف القاسي مدّة ستّة أيّام في الأسبوع، يمكنه في اليوم السابع، ولدى قيامه بزيارة عائليّة يوم الأحد، أن يتحوّل إلى شخص مغاير تمامًا، حاملاً له أنواع الشوكولا التي ما من شأنه أن يسمح له بالاقتراب منها في الدكّان. ففي هذه الآحاد، كلّما سأله عمّه ـ

Twitter: @ketab_n

وكأنّهما التقيا مصادفة أوّل مرّة منذ أسابيع، وكأنّه ليس هو الذي كان يشتم الصبيّ في الدكّان في ذلك الصباح على مرأى من الزبائن ـ «قل لي يا ابن أخي: ماذا تفعل في أوقات فراغك بعد خروجك من المدرسة؟» فإنّه كان في تلك اللحظات العصيبة يتمنّى لو كان في ميسوره أن يتوارى من على وجه البسيطة. كانت شراسة ما حدث في عيد الأضحى الماضي ما تزال حيّة في ذاكرته. ففي ذلك اليوم، التأم شمل كلّ الأقرباء وضحَّوا بكبش سمين في بواكير الصباح، ثم أنفقوا النهار كلّه يحتسون الشاي، ويلتهمون فطيرة اللوز واللحم المشويّ وشراب اللبن و«الحبيّة[1] المسلوقة» باللحم واللبن والأرزّ، ونقانق لحم البقر والمشمش المجفّف والبيلاف باللحم والأرزّ والتوابل، والشاي مرّة أخرى، والبقلاوة المحشوّة بالفستق، والحلوى المصنوعة من السميد من أجل أرواح الموتى، والعنب والبطّيخ الأحمر، والبقلاوة المحشوَّة بالفستق من جديد، والقهوة، لينتهي الأمر كلّه بعسر الهضم الشاقّ ليلاً. وفي صباح اليوم التالي، عندما يكون الصبيّ قد وصل دكّان البقالة متأخّرًا على غير عادته، وما يزال شاحبًا ممتقع الوجه، يصرخ به عمّه ويتوّج كلّ تعنيف بمحاضرة عن مسؤوليّة الصبيّ في أن يخلد للنوم مبكرًا وينهض مبكرًا، فكان الصبيّ يعجز عن تصوُّر البقّال المنرفز في البقالة ومقارنة بالعمّ الأبويّ الذي كان يصادفه في المناسبات العائليّة، فراح بكرور الوقت يتخيّله شخصين مختلفين. إلّا أنّ الحلّ الواضح سبّب مشكلات قائمة في ذاتها. ففي كلّ مرّة، كان والداه يطلبان منه أن يسلّم رسالة شفويّة إلى عمّه في الدكّان، فإنَّ شيئًا ما داخليًّا في نفس الفتى يصبح مثل ماس كهربائيّ، لأنّه دائمًا ما كان ينسى تسليمها.

---

(١) الحبيّة المسلوقة هي القمح الذي يُسلق بالماء المغليّ، وتطبخ مثل الأرزّ، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

عندما اقترب موسى من الدكّان، كان الصبيّ النمش قد وضع القرآن على النضد، وراح يحفظ مقاطع منه، يرنو بعين إلى الباب ويحشر يدًا في علبة الفول السوداني، ويلتهم المكسّرات التهامًا.

لم يسبق لموسى أن استيقظ في مثل هذه الساعة المبكرة، والواضح أنّ رجاءه خاب عندما شاهد الصبيّ بدلاً من البقّال، ففكّر في توزيع الخبز على العمارة السكنيّة في هذا الصباح. وفي اللحظة التي خطا فيها باتّجاه الخزانة الزجاجيّة التي اصطفّ فيها الخبز، توقّف في مكانه، مذهولاً ذهولاً حقيقيًّا. فقد أصيب بدوار وكاد يتجمّد في موضعه، لأنّ ما شاهده من تلك الزاوية كان سور حديقة قصر الحلوى الذي سرعان ما أشار إليه أمام الصبيّ النمش. وقف الاثنان جنبًا إلى جنب ينظران مليًّا إلى الكتابة المدوّنة عليه باللون الأخضر الفستقي.

هتف موسى:

ـ أرجو ألّا تشاهد مريم هذه أبدًا.

ثم ضحك ضحكة خافتة، كأنّه سُرَّ من نكتة رواها لنفسه، فكشف بذلك عن أسنانه المتسوّسة.

تجهّم وجه الصبيّ النمش بعد أن تاهت عن فمه حبّة من حبّات المكسّرات، كان قد رمى بها إلى أعلى، وقال:

ـ ولِمَ لا؟

ـ لِمَ لا؟ ماذا تظنّ؟ لأنّها بكلّ بساطة تقبّلتها مثل حقيقة واقعة!

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١٠

السيِّدة العمّة

بعد أن أفرغت السيِّدة العمّة كلّ كيس من الأكياس التي أدخلتها، فتحت الباب المزدوج وخطت نحو الشرفة. كانت سطوح المباني السكنيّة المقابلة لها قد احتضنت أسرابًا من النوارس، تحدّق كلّها في الاتّجاه نفسه، وكلّها متجهّمة تجهُّمًا متشابهًا، وكأنّها تحت وطأة تأمّل مبهم. وبينما راحت السيِّدة العمّة تركّز نظرها فيها، عمدت مشتّتة الانتباه إلى مسك الحليّ التي تزيّن قلادتيّ عنقها، اللتين لم تنزع واحدة منهما قطّ. ثمّة مفتاح يتدلّى من القلادة الطويلة، ووجه القدّيس سرافيم الزاهد من القلادة الثانية.

فكّرت أنّ اسطنبول تشبه امرأة تنوء بحملها الثقيل ـ امرأة في الأشهر الأخيرة من حملها، فازداد وزنها زيادة لا طاقة لها بها. فمع كلّ خطوة، كان الماء يرتفع في موجات من بطنها المنتفخة منذ زمن بأبّهة. وعلى الرّغم من أنّها كانت تأكل بنهم كلّ ما تستطيع أن تضع يدها عليه، إلّا أنّها لم تعد قادرة على معرفة مدى استفادتها ممّا تأكل أو استفادة حشود الكائنات الصغيرة، النهمة والحسّاسة النامية في جسدها يومًا بعد يوم. كم تتمنّى لو كان في وسعها أن تتخلّص من هذا العبء المنهك،

Twitter: @ketab_n

غير أنّ كلّ ما كان في إمكانها أن تفعله هو أن تنتفخ بمرور القرون. فالموادّ الغذائيّة التي كانت تلتهمها دفعة واحدة، تنقل إليها بوساطة السفن والقوارب والسيّارات والشاحنات والحمّالين المرتعشي السيقان والقوافل، آثارها كلّها ضائعة منذ زمن في الطريق. لو لم يكن في استطاعة اسطنبول أن تلفظ كلّ شيء بهذه الشهيّة التي لا تشبع، لانفجرت منذ أمد طويل مسبِّبة موتها وموت كلّ أولئك الذين يعيشون فيها. ممّا يبشِّر بالخير أنّها قادرة دومًا على لفظ الأشياء، مطهّرةً جسدها المنهك، شأنها شأن الشخص الذي يستخدم مقشعًا لطرد الغازات الكريهة وسوائل الجسم، ويتقيّأ كي يعيش ويبقى على قيد الحياة. كانت اسطنبول تقذف القيح الناضح من جروحها المتعفِّنة في تلال من الزبالة. ويعود الفضل في مواظبتها إلى الزبالة المرتفعة أكداسًا من فوق أكداس، حتى عندما تُدفن عميقًا في حفر ويخرج منها الرماد، حتى لو أحرقت مجرفة فمجرفة، ولا تنتهي حتى إذا ما نقلت بعيدًا. إنّ اسطنبول قادرة على المضيّ قُدمًا بفضل الزبالة العظيمة.

على هذا الأساس، ليس مكبّ النفايات غاية، فالحياة لا تنتهي هناك، بل تغيّر من جوهرها ومن شكلها. فالأشياء التي تُرمى في النفايات، وكأنّها خارجة من الجدران غير المرئيّة التي تحيط بالمدينة تتحلّل عندئذٍ إلى مكوِّناتها، وتصنّف وتُحرق وتُكبس وتُدفن ـ إلّا أنّها لا تموت كلّها. فكما هو حال الهارب المطارد، تنسلّ الزبالة في نهاية الأمر، وتعود إلى اسطنبول ـ من خلال التربة والماء، وأحيانًا الهواء، بمساعدة جامعي النفايات، أو النوارس أو الرياح.

بدت النوارس تشاطر السيِّدة العمّة في أفكارها. فهذه الطيور، آكلة اللحوم نظريًّا والتي لا وجهة لها أصلاً، أضحت في الوقت المحدّد معتادة على أكل نفايات اسطنبول، على نحو جعلها تندمج اندماجًا كاملاً في هذه الدورة المعديّة الأبديّة، فتحصل على النفايات

Twitter: @ketab_n

في الحياة، وعلى الحياة من النفايات.

كانت السيِّدة العمّة تجلس في كلّ صباح وفي كلّ مساء في شرفتها، تسرح ببصرها بعيدًا وقريبًا على التلّ الخمري اللون، حيث تراكمت البيوت المتواضعة الشأن ذات الواجهات المطليّة طلاءً سطحيًّا متعجِّلاً فامتلأ بها، في حين تصغي باهتمام يماثل اهتمام نورس يعبد الصمت إلى همهمات المدينة التي جمعها الإعصار وفرّقها ثانية. ممّا لا ريب فيه أنّ السيِّدة العمّة سوف تختار أن تولد هنا في اسطنبول، ولكنَّها مقنعة مثل نورس، إذا ما مُنحت في هذه المرحلة الأخيرة من حياتها أن تولد مجدَّدًا في أيّ مكان تريد، شريطة أن تكون من غير البشر.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧

أنا

كان الوقت يقترب من الظهيرة عندما استيقظت من النوم. فحشرت في حقيبتي ملاحظاتي عن محاضرة اليوم، فضلاً عن كتاب آخر عن كيركغارد[١] لإيتشي، التي كانت تفضّل أن تستعيره منّي على أن تشتري نسختها الخاصّة بها. وخرجت مسرعًا. في الوقت الذي خرجت من الشقّة، كانت جارتي تدخل شقّتها، الرقم ٨، مسرعة كعهدها دومًا.

(١) سورين كيركغارد Soren Kierkegaard (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) فيلسوف ولاهوتي دانماركي، أنفق حياته محبطًا وحزينًا، ولكنّه كتب في مدّة قصيرة من الزمان عددًا كبيرًا من الكتب في شتّى الموضوعات. وعلى الرّغم من أنّ شهرته اليوم تستند إلى كتابات بشّرت بالتيّارات الوجوديّة في الفلسفة الحديثة، إلّا أنّه كتب أيضًا أعمالاً مهمّة في الدين وعلم النفس والأدب، وأصبح بفضل مواهبه الساخرة ناقدًا اجتماعيًّا بارزًا، لاسيّما كتابه «العصر الراهن». مميّزات كتابته تتمثّل في عدم إيمانه بالعقيدة المجرّدة، والتوكيد الموضوعي على قضيّة محدّدة، وانشغاله بالأشكال التي تتمظهر بها شخصيّة الإنسان ودوافعه، وإيمانه المطلق بقيمة الخيارات الفرديّة، ما جعله يرفض فلسفة هيغل التي تميل إلى إلغاء عنصر الالتزام الفردي. لعلّ توكيده على حرّيّة الفرد، بوصفها حالة لا مهرب منها في الحياة، هو أوضح صلة بين أفكاره الفلسفيّة والاتّجاهات التي جاء بها الوجوديّون من بعده، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

بدت وكأنّها قد جعلت شيئًا ما بشعرها، لأنّه كان أفضل حالاً في ما مضى، وإن كان ما يزال يبدو جميلاً، بل في غاية الجمال. حيَّتني تحيّة حذرة بإيماءة من رأسها مشيحة ببصرها جانبًا، إلّا أنّني رأيت تلك النظرة العابرة في عينيها. إنّها ليست مخلوعة الفؤاد على النحو الذي بدت به. مثلما أنّها لم تكن غير مكترثة بالعالم المحيط من حولها. في الطبقة الأرضيّة، كان باب الشقّة رقم ٤ مفتوحًا إلى حدٍّ ما. وكانت تلك المرأة المزعجة واقفة عند عتبة الباب تطلب من مريم أن تخدمها. وعندما شاهدتني، ابتسمت لي ابتسامة غلٍّ وحقد، وقالت من غير تبصُّر:

ـ هل سمعت بما حدث لعمارتنا المسكينة أيّها البروفسور؟ لقد تبيّن أنّ وليًّا كان موجودًا في حديقتنا!

كنت قد نسيت كلّ شيء عن الوليّ، فقلت من دون أن أفقد هدوئي:

ـ لست مندهشًا أبدًا. ثمّة حقيقة معروفة عند الناس بأنّ أعدادًا لا تُحصى من القبور ظلّت في مكانها منذ عهد العثمانيين والبيزنطيين في كلّ حدب وصوب من مدينة اسطنبول.

ثم استرسلت في كلامي، من دون أن أشيح ببصري عن ساعتي:

ـ هل نزعم أنّ كلّ الموتى في هذه المدينة دفنوا في نطاق المقابر الحاليّة؟ لا، على وجه التأكيد! لا بدَّ أنّ آلافًا من القبور غير المكتشفة ما تزال في أماكنها. هل ثمّة شيء معقول أكثر من أنّ بعض هذه القبور تعود لناس يُنظر إليهم بوصفهم أولياء مقدّسين؟

رنت إليّ زيرين، وتفحّصتني من قمّة رأسي إلى أخمص قدميّ، في محاولة لكي تفهم إن كنت أسخر منها أم لا. عندما تبوِّز شفتيها، فإنَّ الغضون على جبينها تجعلها تبدو متوتّرة أكثر.

فتنهّدت، وقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ أكاديميُّون!

ثم شبكت يديها على صدرها، كأنّ هذه الكلمة ـ الواحدة حوّلت الحديث كلّه لمصلحتها. ولبثت صامتة، ولبثت أنا صامتًا أيضًا.

انتقلت تحديقة زيرين الحافلة بالمصاعب إلى مريم التي كانت واقفة بجوارنا، مصغية لحديثنا وعليها أمارات الألم، وأطبقت شفتيها وكأنّها خائفة من احتمال أن تفلت كلمة ما لا تريد انفلاتها. وفي لحظة عابرة، بدت لي وكأنّ بريقًا مبهجًا لمع في أعماق عينيها لدى سماعها ردّ فعلي، إلَّا أنّها في اللحظة التالية، أسرعت للتخلُّص من كلينا، إذْ أمسكت بقائمة أعمالها الشاقّة، وخرجت مسرعة قبلنا.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٥
حاجّي حاجّي وابنه وكنّته وأحفاده

سألت الطفلة البالغة من العمر خمس سنوات ونصف السنة متعجِّبة:

ـ لكن ماذا سيحدث يا جدّي لو أنّني وطأتُ عليهم عن غير قصد؟

هدر الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة:

ـ لو وطأت عليهم، فسوف يقبض عليك الجانّ، ويشوِّهون صورتك.

ـ فيصبح رأسي مثل رأسك العملاق.

تدخّل حاجّي حاجّي قائلاً:

ـ لا تقولي مثل هذا القول لأخيك الأكبر منك سنًّا، فلا الجانّ ولا الله يحبّان أولئك الذين لا يحترمون من هم أكبر منهم سنًّا.

مالت الطفلة البالغة من العمر خمس سنوات ونصف السنة برأسها، وجذبت تنّورتها الورديّة ذات الثنيات، ولبثت ساكنة لا تتحرّك مدّة قصيرة من الزمان. رنت إلى أخيها الأكبر سنًّا من طرف عينها لتجده مبوِّزًا ناحيتها. فما كان منها إلّا أن لاذت أكثر من ذي قبل بجدِّها..

قال حاجّي حاجّي:

Twitter: @ketab_n

ـ للجانّ سلطان، يسمُّونه بعلزبوب، لا يملكون جرأة على عصيان أوامره، لكن ثمّة أوقاتًا عندما يتورَّطون في شتَّى أنواع الدسائس من دون علمه. إنّ عصابة الجنّ تأتي بمختلف الأشكال، وهم يشبهون بني البشر، بعضهم طيِّب وصالح وبعضهم الآخر شرِّير وطالح. بعضهم يتّصف بالورع والتقوى والبعض الآخر كافر وملحد. وهم على ثلاثة أنواع: بعضهم بهيئة الأفاعي والحشرات، والبعض الآخر بهيئة الريح أو الماء، والأخير وليس آخرًا قسم يتّخذ له شكل البشر. وهذا النوع الأخير هو الأكثر خبثًا وضررًا من بقيّة الأنواع! ولا يمكن أن يعرف المرء إن كان هؤلاء من البشر أم من الجانّ. فهم يقيمون احتفالات الزفاف التي تمتدّ حتى تباشير الفجر، يأكلون ويشربون ويرقصون على إيقاع الطبول «والزرنة». وإذا ما صادفت زفاف جنِّي في وقت متأخِّر من الليل، فعليك أن تدير رأسك، ولا تحاول أبدًا أن تختلس نظرة! وعندما تضطرّ إلى الذهاب إلى الحمّام ليلاً، فلا تخطُ خطوة واحدة من دون ذكر اسم الله بصوت عالٍ! وينبغي الاهتمام بخاصّة بالعتبات، لأنّها الأماكن المفضّلة التي يتسكَّع عندها الجانّ. الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله لتحاشي الجانّ هو عدم الإتيان بأيِّ عمل من دون ذكر اسم الله. وإذا ما فشلت في ذلك، فالمؤكَّد أنّ الجانّ سيأتون إليك ويعبثون بحياتك.

وهنا اتّكأ حاجّي حاجّي على إحدى الوسائد المكدَّسة على الأريكة لصنع الخيمة عثمان بعد ذلك. تكوَّرت البنت الصغيرة الجالسة بجانبه، وتحرَّكت على إيقاع حركته وكأنّها ملتصقة بالرجل العجوز.

استرسل حاجّي حاجّي في كلامه:

ـ إنّ أكثر الجانّ إيقاعًا للرعب في النفوس هي الجنِّيّة المعروفة بالاسم «البغيّ القرمزيّة»، التي إذا ما راودت امرأة رُزقت بطفل من فورها، فإنَّها لن تترك ضحيّتها تذهب وشأنها. وتظلّ طوال الليل متربِّعة من

Twitter: @ketab_n

فوق صدر الأمّ الجديدة وكأنّها تمتطي جوادًا، ولا تتخلّى إلّا عند طلوع الفجر عن المرأة المسكينة، بعد أن تكون الأخيرة قد تصبَّبت عرقًا وارتعدت خوفًا. ولكنَّها تعود من جديد في الليلة التالية مهاجمة هذه المرّة المهد، فترمي الرضيع إلى أعلى في الهواء وكأنّه كرة قدم.

قال الطفل البالغ من العمر سبعة أعوام ونصف العام من غير رويّة، وهو يحدِّق إلى أخيه وأخته:

ــ آه، إنّني أتذكّرها. لقد جاءت عند ولادتهما!

ــ صحيح. إنّ والدتك استدعت جدّتك الراحلة بدلاً من أن تنجب على طريقتها الخاصّة بها. لا مشكلات. كان في وسع جدّتك رحمة الله عليها أن تتخلّص من «البغيّ القرمزيّة»، إلّا أنّ المسكينة فارقت الحياة من دون أن ترى حفيدها.

انزعجت الطفلة البالغة من العمر خمسة أعوام ونصف العام من ردّ جدّها، في حين ارتعد خوفًا الطفل البالغ من العمر ستّة أعوام ونصف العام. وبينما تهدَّلت شفة الطفلة الصغيرة إلى أسفل، راح الولد يمصّ إبهامه الذي هزل كثيرًا من كثرة مصّه إيّاه.

ــ ويستحسن التزام جانب الحيطة والحذر من «المرأة السوداء» أيضًا التي لا تعرف الرحمة أبدًا... فهي تتنكّر بزيّ امرأة عجوز، تطوف الشوارع، منتظرة ضحيّتها في كلّ ناصية، وتطرح الأسئلة على المارّة: «من أين جئت؟» و«إلى أين تذهب؟» و«إلى أيّ أسرة تنتمي؟» وإذا ما صادف أحدكم مثل هذه المرأة، فلا خيار أمامه سوى الإجابة عن أسئلتها، باستعمال كلمة «أسود» في كلّ مرّة. فعلى سبيل المثال، «أنا من السود» أو «جئت من البلدة السوداء». وفي تلك الحالة لا غير، تترك المرء يمضي في سبيله. وفي كلّ مرّة تستفسر عن عنوان ما. فإذا لم تعرف العنوان، فإنّني أرثي لحالك، لأنّها

Twitter: @ketab_n

تأخذ عصاها وتضربك على رأسك ضربًا مبرّحًا إلى أن. . .

أمسك عن الكلام عندما رنّ الهاتف، فما كان من الطفل البالغ من العمر سبعة أعوام ونصف العام إلَّا أن التقط السمَّاعة من دون عجالة. نعم، لقد فرغا من تناول وجبة فطورهما. . . لا، لم يكونا مشاكسين. نعم، شاهدا التلفاز. . . لا، جدّي لا يقصّ علينا قصّة. . . لا، لم يفتحا الغاز. . . لا، لم يعيثا في البيت خرابًا. لا، لم يتدلّيا من الشرفة. لا، لم يلعبا بالنار. لا، لم يدخلا غرفة النوم. حقًّا إنّ جدّي لم يقصّ علينا قصّة.

لا بدَّ أنّ أمّه كانت بحاجة إلى توكيد في ذلك اليوم، لأنّها أصرَّت قائلة:

ـ إذا كان جدُّك يقصّ قصّة، فقل له: «الطقس بارد»، وسوف يفهم.

تردّد الطفل البالغ من العمر سبعة أعوام ونصف العام لحظة وجيزة، وانساب وميض معتم من عينيه الخضراوين بلون الطحلب. ثم ران صمت موجع. وعندما اختفى الوميض، كان قد غيّر من رأيه، إذْ ردَّ بصوت نمّ عن غير اكتراث من دون أن يشعر بضرورة خفض صوته، أو إشاحة بصره عن جدّه:

ـ لا يا أمّاه. الطقس ليس باردًا، ولكن على الرّغم من ذلك، ما يزال جدّي يحكي لنا حكايات تقشعرّ لها الأبدان.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧

أنا

غرّدت إيتشي الجالسة في الصفّ الأمامي بصوت في غاية اللباقة والحلاوة:

ـ تبدو اليوم مفعمًا بالحيويّة والنشاط أيُّها البروفسور!

كانت ترتدي السواد من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها، كعادتها: قلم شفاه أسود وطلاء أسود وعينان سوداوان بارزتان بروزًا شديدًا بفعل قلم الرصاص الأسود الخاصّ بالعيون. أخرجت نسخة كتاب «مرض حتى الموت» من حقيبتي، ووضعته على طاولتها.

قلت لها:

ـ صحيح، أنّني جئت إلى الصفّ مفعمًا بالحيويّة والنشاط، لكن إذا بقيت على هذه الحالة أم لا، فإنّها تعتمد عليك، لنتأكّد إن كانت المقالات قد قُرئت.

ثم بدأت بمقدّمة نموذجيّة لمحاضرة الخميس النموذجيّة.

قالت إيتشي:

ـ قرأنا من «دفاعًا عن الحماقة» للمؤلِّف إيرازموس[١]. وقد قارنّا

(١) ديزيديريوس إيرازموس Desiderius Erasmus (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦): فيلسوف =

Twitter: @ketab_n

الجزء الذي ذكر فيه إلٰهة الحظّ بإلٰهة الحظّ عند ماكيافيلي[1]. قرأناه كلّه وحلّلناه وحفظناه.

سألت، وأنا أبذل جهدًا كبيرًا في ألّا أوجّه كلامي إلى إيتشي، وإنّما إلى الصفّ كلّه:

ـ حسنًا. هل يمكن لأحدكم رجاءً أنّ يخبرني عن إلٰهة الحظّ؟

قدّمت إيتشي إجابة تنمّ على ما يبدو عن سرور للتغلُّب على أيّ تبصّر أزعمه:

ـ أكيد. أنثى. تتجسَّد إلٰهة الحظّ عند كلّ من ماكيافيلي وإيرازموس بوصفها شخصًا وأنثى. ولمّا كانت أنثى، فإنّه ليس ممّا يبعث على الدهشة أنّهما لا يريان أنّها موثوقة. وقد شاطر آباء الكنيسة هذا الرأي ـ ونحن الأتراك لا نختلف عن ذلك. إنّنا نقول إنّ القدر[2] إمّا

هولندي ممَّن آمنوا بالحركة الإنسانيّة في الفلسفة، جاء إلى إنكلترا أكثر من مرّة ورحّب به كبار الفلاسفة والمثقَّفين في ذلك العصر، وبخاصّة توماس مور (١٤٧٧ ـ ١٥٣٥) وجون كوليه (١٤٦٧ ـ ١٥١٩) ووليم غروسن (١٤٤٦ ـ ١٥١٩)، وحثّه جون فيشر (١٤٥٩ ـ ١٥٣٥) رئيس جامعة كوينز كوليج بكيمبردج على إلقاء محاضرات عن الإغريق في الجامعة. أهمّ مؤلّفاته «دفاعًا عن الحماقة» الذي ألّفه بتشجيع من توماس مور، فكان أهجية لاذعة برجال الدين والكنيسة. بشّرت كتاباته بالإصلاح الديني، ودعا إلى الاعتدال والوسطيّة في الدين، وأنكر على مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) استخدام العنف، (المترجم).

(١) نيكولو ماكيا فيلّي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧): سياسي وأديب وفيلسوف إيطالي، ولد في فلورنسا وتولّى مهامّ دبلوماسيّة. واعتزل السياسة بعد انتصار أسرة مديتشي. اشتهر بكتابه «الأمير»، وفيه عرض مذهبه السياسي وآراءه في الحكم، ودعا إلى نظام جديد حرّ دينيًا وأخلاقيًا. تُنسب إليه الماكيافيليّة التي أصبحت مرادفة للدهاء السياسي والمكر والخداع، وللمبدأ القائل «إنّ الغاية تبرِّر الوسيلة»؛ وله «المطارحات» و«مقالة في العقد الأوّل لتيت ليف» و«فنّ الحرب»، (المترجم).

(٢) الملاحظ أنّ المؤلّفة تشير إلى القدر بوصفه أنثى، وعند النقل إلى اللغة العربيّة لا يستقيم مثل هذا التصنيف، لذا اقتضى التنويه، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أعمى أو عاهرة. فإذا كان أعمى فإنّه لا يستطيع أن يرى ما يعطيه لكلّ فرد، ولهذا لا يتوقّع منه أيّ إنصاف. أحيانًا، ثمّة عجلة في يد القدر، وفي أحيان أخرى يصبح القدر نفسه عجلة عندما تدور ثيابه. من هنا جاء التعبير «عجلة الحظّ»، إذْ لا يعلم أحد متى أو أين سوف تتوقّف، فضلاً عن عدم معرفة من الذي تنقله وإلى من؟ واستنادًا إلى فهم ماكيافيلي، فإنَّ إلٰهة الحظّ تسيطر على نصف حياتنا، وليس في مقدورنا أن نفعل شيئًا إزاء هذا النصف. إلّا أنّ من الممكن، وإن جزئيًّا، جعل إلٰهة الحظّ تنفّذ طلباتنا. ولمّا كان كلّ رأس من رؤوس الفلسفة السياسيّة ذكرًا، فيبدو أنّهم يبحثون جميعًا في شخص إلٰهة الحظّ عن وسائل لجعل النساء مطيعات.

قال جَم من غير رويّة، ومن دون أن تكون لديه أيّ مشكلة في الكشف عن جهله بالمقالات المقرّرة:

ـ هه! إذْ هذه الإلٰهة التي تتحدّث عنها هي قدرنا الطيّب العجوز؟

في الدقائق الخمس عشرة المقبلة أو ما يقاربها، تحدّثوا عن قدرنا الطيِّب العجوز، يقاطع أحدهم الآخر باستمرار.

ـ أعتقد أنّ من الظلم أن ننتقد ماكيافيلي من وجهة نظر المفاهيم النسويّة المعاصرة.

قالت ذلك الفتاةُ المجعَّدة الشعر ذات النظّارة، والتي دائمًا ما أنسى اسمها، وأعلم أنّها لا تروقها إيتشي ولو بمقدار ذرّة، وإن كانت تجلس من ورائها على الدوام. واسترسلت موضّحة:

ـ الموضوع هو: هل تعتقد أنّنا نحيا حياة رسمت لك وهي سابقة لأوانها؟ هل حياتك مقدّرة سلفًا؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي الإجابة عنه. إنّ الإنسان في نضاله ضدّ القدر ينسجم انسجامًا واضحًا مع الدين. ولولا الابتعاد عن الحظّ، أو إخضاعه إن شئت، لما أصبح

Twitter: @ketab_n

التنوير أو التقدّم ممكنًا.

تمطّت إيتشي وشدّت بدنها، ووضعت ساقًا على ساق، وهو ما كانت تلجأ إليه دومًا لعلمها علم اليقين بجمال ساقيها. إنّني لم أشاهد حتى الآن أيّ زميل يعاني ضررًا أكاديميًّا خطيرًا بسبب تشوّشه بنمط من أنماط علاقات غراميّة مع طالبة من الطالبات. وإذا ما جرت ملاحقة شخص ما لهذا السبب، فإنَّ مردَّه يتمثّل في أنّه كان يريد أن يُلاحق في كلّ الأحوال. على أيّ حال، إنّني لا أبادل إيتشي اهتمامها بي، ليس لأنّني قلق من احتمال وصول الأمر إلى مسامع زملائي، لأن القضيّة المهمّة لا تنحصر في تظاهر الأكاديميين بعدم معرفة الشيء، وإنّما بتظاهر الطلّاب بمعرفته، لأنّ الطالبات يتكلّمن دومًا، ولا يمكنهنّ مسك ألسنتهنّ، ولكلّ واحدة صديقة تأتمنها على أسرارها. هكذا هي الحال. إزالة الغشاوة عن العيون تمامًا! وعلى حين بغتة، تجد أنّك لست ذلك البروفسور «المحترم والمجهول» الذي كنت عليه فيما مضى، والذي تراقبه دائمًا عيون شرسة من على بعد مسافة، وإنّما أنت بشر فانٍ واعتياديّ تُعرض أمامهم نقاط ضعفك وجنونك ولغوك وتعلُّقك الغريب. إنّ رفقة فتاة شابّة يمكن أن يوفّر حافزًا بهيجًا لاحترام الذات عند الرجال الذين يصلون خريف العمر، غير أنّ لهذا ثمنًا باهظًا، وهو موقع متذبذب من شأنه أن يتحطَّم في أيّ وقت. وقد ينقلب بسهولة من أوّل ضربة. وعندئذٍ، سوف تؤرقك كلّ الرسائل التي حرّرتها، والاعترافات التي أدليت بها، والأسرار التي سمحت لها أن تنكشف بزلّة لسان. وسيكون أداؤك الجنسيّ حديث المدينة، وقبل أن تعلم، ستجد نفسك هزأة وأضحوكة. لا يستحقّ الأمر كلّ ذلك. إنّني لم أفكّر يومًا ما أنّ أيّ طالبة من طالباتي تستحقّ كلّ هذا، ولا حتى إيتشي.

قالت إيتشي وهي تراقب كلّ حركاتي وسكناتي في تلك اللحظات:

ـ لِمَ لا نعترف ببساطة أنّنا لا نقدر على السيطرة على حياتنا؟ قد أكون

Twitter: @ketab_n

مسؤولة عمّا أفعل، ولكن لا يمكن توجيه اللوم بسبب ما أشعل من حرائق. فأنا منذ ولادتي، ابنة هذا الشخص أو ذاك. وأنا لا أستطيع أن أختار أبي ولا وطني، ومؤكّدًا، لا ديني ولا لغتي. لو سُئلت عن رأيي لفضّلت أن أكون قد وُلدت في بيئة أخرى. وإذا ما رُفض طلبي البديل، فأفضِّل ألّا أكون قد وُلدت أصلاً. هكذا بكلّ بساطة. فلو وُلدت في مكان آخر، فستجد على عنقك صليبًا وليس حجابًا على رأسك.

هكذا انطلقتْ في الحديث، وعلى الرّغم من أنّها التفتت إلى الوراء، إلّا أنّه لم يكن واضحًا أيّ الفتيات الثلاث المحجّبات كانت هي المعنيّة بكلماتها.

قالت سيدا الجالسة دومًا في وسط الطالبات الثلاث المحجّبات:

ـ أنا أيضًا أؤمن بالقدر.

فقالت إيتشي الثرثارة متذمِّرة:

ـ لكنْ، ليس هذا هو الموضوع الذي كنت أتحدّث فيه. أنت تؤمنين بالعدل الإلٰهي. الأشياء كما هي عليها في هذه اللحظة، ولكنّك تعتقدين أنّ كلّ فرد سيكون يومًا ما مسؤولاً عمّا فعله في الحياة. فالفاسقون يعاقبون في نار جهنّم، والمصدقون يُجازون بالجنّة.. وهكذا. أنت تحتفظين بمفهوم العدل في دماغك، وإلّا سوف يتحطّم إيمانك. أمّا إلٰهة الحظّ، فهي على العكس من ذلك تمامًا، لأنّها ليست لها صلة بالآخرة بل دنيويّة بكلّ ما في الكلمة من معنًى!

قاطعها جم، وقرَّب كرسيّه من الجدار، وكأنّه على استعداد للطيران من خلال النافذة:

ـ بصراحة، أيّها الزملاء، أنا لا أعرف سببًا يدفعكم إلى هذا التعلُّق بإلٰهة الحظّ. القضيّة الأساسيّة لا تخصّ إلٰهة الحظّ أو ما أشبهها، ولكنَّها تخصّ الاختلاف بين حظّ ودائرة. فلو آمنتم بأنّ هذه الحياة التي

Twitter: @ketab_n

تعيشونها خطّ مستقيم، ففي وسعكم الافتراض بأنّكم سوف تنتصرون على الماضي وتصلون المستقبل. لكنْ، إذا كانت حياتكم تشبه دائرة، فتأكّدوا من عدم وجود أيّ شيء يُسمّى «تقدّم». هل ترضون بالتكرار أم لا؟ هذا هو الموضوع الجوهريّ. إنّ رجلاً مثل ماكيافيلي لا يمكنه أن يرضى بالتكرار، لأنّ التكرار يتطلّب منه القبول بحقيقة حزينة، مفادها أنّ الحياة التي تعيشونها اليوم، سوف تعيشونها مرّات ومرّات، وأنّ الغد لن يكون مختلفًا عن اليوم ـ وهو السؤال الذي طرحه نيتشه[١] على روسّو[٢]. فعندما تكونون وحيدين، في أشدّ ساعات حياتكم

---

(١) فردريش فيلهلم نيتشه Freidrich Wilhelm Nietzsche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠): فيلسوف وشاعر ألماني، عُيِّن منذ شبابه أستاذًا في الفلسفة الكلاسيكيّة بمدينة بازل شمالي سويسرا على نهر الراين، إلّا أنّه استقال بسبب اعتلال صحّته. وفي العام ١٨٨٩ عانى انهيارًا عقليًا لم يقدر على الشفاء منه شفاءً تامًّا. أفكاره الرئيسة تتخلّص في فكرة الإنسان الأعلى (السوبرمان) ورفض الأخلاقيّة المسيحيّة وإيمانه الراسخ بالتطوُّر، وأنّ الحياة ليست سوى تنازع البقاء وبقاء الأصلح، وروّج لمذهبه في «إرادة القوّة» والعقيدة الألمانيّة وضرورة «مراجعة كلّ القيم». بدأ حياته تلميذًا للفيلسوف آرثر شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠)، إلّا أنّه رفض فلسفته التشاؤميّة. أعجب بالشاعر والموسيقي الألماني ريتشارد فاغنر (١٨١٣ ـ ١٨٨٣)، بيد أنّه لم يستطع تقبُّل العناصر الشوبنهاوريّة في منجزه، ما شكّل مرحلة حاسمة في حياته، (المترجم).

(٢) جان جاك روسّو Jean - Jacques Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) كاتب فرنسي وفيلسوف اجتماعي، وُلد في جنيف ابنًا لصانع ساعات. عاش حياة تعيسة ووصفها في كتابه (الاعترافات) الذي نُشر بعد وفاته. مؤلّفاته أثارت الانتباه إليه أوّل الأمر، عندما نادى بالتمرّد على النظام الاجتماعي السائد. ويشكّل كتابه «العقد الاجتماعي» (١٧٦٢) فلسفته السياسيّة، في حين كان قد ناقش قبله في روايته «الويز الجديد» ١٧٦١ الذي ناقش فيه ضرورة عودة الفرد إلى الطبيعة وحرّيّة الجنس ما دفع السلطات الفرنسيّة إلى إدانته. كان يعاني إحساسًا بالذلّ والهوان ما دفع الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) إلى أن عرض عليه النزول في أحد المصحّات العقليّة في إنكلترا، فقبل به ووصل لندن العام ١٧٦٦. كان =

Twitter: @ketab_n

وحدة، وشاء بغتة شيطان صغير أن يهبط من جهنّم ليقول لكم زاعمًا: «لا تخافوا، فأنا أؤكّد لكم عدم وجود أيّ شيء اسمه الموت، وإذا ما حدث ما يشبه الموت، فإنّه ليس سوى تكرار، وسوف تعيشون مرّات ومرّات كلّ ما عشتموه حتى هذه اللحظة، وتعيشونه مرّات ومرّات... إلى الأبد». ما شعوركم عندئذٍ؟ كم واحدًا منّا يمكنه أن يسامح بالعيش في حياتنا حدّ الثمالة مرّات ومرّات؟ إنّ الذين يستطيعون تحمُّل نزوات الحظّ لن يصابوا بالجنون. وعندئذٍ فقط، يمكن لفكرة التقدّم أن تظهر، ويظهر معها مفهوم الفردانيّة.

رنوت إلى ساعتي: لم يبق سوى خمس دقائق حتى تنتهي الساعة الثانية من المحاضرة. فما كان منّي إلّا أن تمتمت وأنا أخرج علبة سكائري مشيرًا إلى استراحة، وقلت:

ـ مرّة أخرى، لقد تمكّنتم من مفاجأتي بقدرتكم على الابتعاد عن صلب الموضوع. وفي الأسبوع القادم، ينبغي لكم أن تكونوا قد أنهيتم كلّ القراءات، وعندئذٍ لن نتكلّم إلّا عمّا قرأتم، ولن يثرثر أحدكم من دون أدلّة.

في غضون الساعة الثالثة من المحاضرة، تحدثت، فأصغوا إليّ من دون ملاحظة. وفي حين كان الآخرون يدوّنون ملاحظاتهم، نظر جم خارج النافذة، وقضمت إيتشي نصف لوح من الشوكولا المرّة، فالتصقت ذرة منها، تكاد تكون سوداء اللون، على جانب شفتها وكأنّها شامة مشاكسة.

روسّو يعزو الشرّ إلى المجتمع وليس إلى الخطيئة، وأنّ الإنسان الطبيعيّ سعيد وطيّب القلب في جوهره، فعكست أفكاره ثورته على اللامبالاة تجاه البؤس الإنسانيّ، وبشّرت بالثورة الفرنسيّة. قال عنه غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) في ڤولتير نرى نهاية العالم، وفي روسّو بداية عالم جديد، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٥
الكنّـة وأطفالها

تأوّهت الطفلة البالغة خمس سنوات ونصف السنة قائلة:

ـ لماذا تأخذيننا معك يا أمّاه؟

قالت الكنّة، وهي تمسك بقوّة يدي الطفلين، مرغمة إيّاهما على تعديل سرعتيهما لتناسب سرعة وقع خطواتها:

ـ بالله عليكما، ألا تشعران بالروعة، وأنتما ذاهبان لرؤية مكان عمل والدتكما؟

لم تكن قد فكّرت بعد كيف ستسيطر على الطفلين في شبّاك التذاكر طوال اليوم. زد على ذلك، كانت وجلة من مديرها، إلّا أنّها كانت أيضًا منزعجة جدًّا في التفكير تفكيرًا عقلانيًّا بعد الشجار الذي نشب بينها وبين والد زوجها. وعندما اقتربوا من نهاية شارع الجبل، خفّضت من سرعتها ونظرت إلى الوراء من فوق منكبها. على الرّغم من نظرات بعض المارّة الفضوليّة، إلّا أنّه لا بدّ قد شعر بسعادة غامرة على أثر خروجه من قصر الحلوى بعد مرور عامين. سرعان ما طرد الغمّ، الذي كانت الكنّة تستطيب له عند النظر إلى ولدها الأكبر، آثار القلق المتزايد في ذهنها. على الرّغم من أنّها كانت تعلم علم اليقين أنّ من شأن ولدها الأكبر أن

Twitter: @ketab_n

يكون أقصر أطفالها عمرًا معها، وهو الذي كانت متعلّقة به تعلُّقًا شديدًا، أكثر من بقيّة أطفالها. فالأطفال الذين يولدون مصابين بمرض قاتل، ينتمون إلى أمّهاتهم، ويبقون كذلك، على العكس من أندادهم وإخوانهم.

في ناصية شارع الجبل، وفي اللحظة التي طلبت فيها الكنّة من ولدها الأكبر أن يغذّ في سيره، امتدّت يد نحيفة، سمراء اللون، ونقرت ببطء على كتفها.

ـ كيف يمكنني أن أصل إلى هذا العنوان يا طفلي؟

كان السؤال موجّهًا من امرأة عجوز محدودبة الظهر، ترتدي معطفًا واقيًا من المطر ذا لون بنّي فاتح وممزّق الأوصال. ومدّت يدًا تعلوها الثآليل وفيها قصاصة ورق مجعّدة. كانت تبدو تائهة.

لم تتنبّه الكنّة إلى الرعب الذي بان على وجهيْ طفليها، وجذبت يديها من يديْ الطفلين، وركّزت نظرها في العنوان المدوَّن على الورقة. لم تتبيّن الحروف جيّدًا، فأعادت القصاصة إلى العجوز وهي تهزّ رأسها.

قالت الطفلة البالغة من العمر خمس سنوات ونصف السنة:

ـ لم تتمكّني من الإجابة عن السؤال يا أمّاه!

وانهمرت الدموع من مآقيها. ولم يكن الطفل البالغ من العمر ستّ سنوات ونصف السنة أحسن حالاً، فقد كرّر الكلمات نفسها وهو يمصّ إبهامه:

ـ كيف يمكن ألّا تعرفي؟ كيف يمكن ألّا تعرفي؟

فزمجر الطفل البالغ من العمر سبع سنوات ونصف السنة، وهو يقترب من الخلف وقد فهم الموقف من فوره:

ـ لم تتمكّن.

Twitter: @ketab_n

في اللحظة التي فرغ من التفوُّه من كلامه، راح الطفلان الآخران يبكيان في حرقة.

قالت الكنّة متلعثمة:

ـ ماذا تقول؟ ما الشيء الذي لم أتمكّن من معرفته؟

ثم رنت إلى أطفالها، وبعدها سرحت ببصرها إلى المرأة العجوز التي مضت في سبيلها. لكن بدلاً من الإجابة التي كانت تتوقّع صدورها عن أطفالها، وجدتهم قد أجهشوا بالبكاء، وتناهى إلى سمعها أيضًا صوت أحدهم يمصّ إبهامه بعصبيّة.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧

أنــا

يصعب العثور على طاولة في الحانة بوجود الحشد المألوف في ليلة الجمعة. وعندما أصبحت إحدى الطاولات شاغرة في مكان ما وسط الحانة، تشبّثتُ بها وطلبت كأسًا مزدوجةً مباشرة. كان سهلاً عليّ تمامًا احتساء الكأس الثانية من العرق، ولكن بعد الكأس المزدوجة الثالثة، ظهرت المرأة قرب الباب وعلى وجهها ابتسامة عريضة. قالت إنّ الطريق كان مزدحمًا، إلّا أنّ هذه المعلومة لم تقدِّمها بوصفها شرحًا لتأخّرها، وإنّما لتكون بعض التفاصيل في سردها للعبة كرة القدم التي أصغت إليها رفقة سائق سيّارة الأجرة ــ إذْ تبيّن مصادفة أنّهما من مشجّعي الفريق نفسه ــ وهما يشقّان طريقهما المؤدّي إلى هذا المكان. وعلى الرّغم من أنّ فريقها كان متأخِّرًا كثيرًا في الشوط الثاني من اللعبة بمقدار ٢ ــ ٠، إلّا أنّه ربح في نهاية الأمر ٣ ــ ٢، ولم أقل شيئًا بدوري عندما فشلت في ملاحظة أدنى إشارة تدلّ على أنّ أثيل كانت معترضة على تأخُّرها عن موعدنا خمسين دقيقة. الحقّ، أنّني لا أستطيع أن أنكر إعجابي بمعلوماتها الكرويّة (التي تأكّد من عمقها خبراء اللعبة مرّات ومرّات) وثرثرتها التي لا نهاية لها مع سائقي سيّارات الأجرة، ومقدرتها على أن تعرف في كلّ مطعم نتناول فيه عشاءنا أسماء كلّ النادلين وأشجار

Twitter: @ketab_n

عوائلهم، وقلقهم، في وقت لا يزيد عن عشر دقائق من بدء تقديم خدماتهم لنا، لتحوّل على أثر ذلك كلّ طلب لنا إلى فرصة للحديث... مثلما أنا مندهش تمامًا بتفنيدها النسويّة في كلّ المناسبات بموقف مباشر... طالما كانت كذلك. كانت صداقة آيشين وأثيل منذ أيّام الدراسة في المدرسة الثانويّة، بكلّ ما فيها من مقاصد وأغراض، تقريرًا متمثّلاً في أطروحة ونقيضها، وقد كشف هذا الجوهر الحيويّ عن طبيعته عندما أصبحت بينهما. إنّني أرتاب في أنّ حبّ أثيل لكرة القدم يصل إلى هذه المستويات العالية جدًّا، لو كانت آيشين تستمتع أقلّ استمتاع باللعبة أو تؤيّد فريقًا لمجرّد التأييد.

تمتمت، وأنا أملأ كأسها:

ـ لقد توصّلت إلى حلٍّ نهائي لمشكلة الزبالة في قصر الحلوى.

ثم بدأت أخبارها، ببطء وتوكيد، بالكتابة التي كتبتها على سور الحديقة. لم تكن تتوقّع أن أخبرها بمثل هذا الكلام الفارغ، لأنّها لاحت ذاهلة أوّلاً، وإن لبضع ثوان، ثم جعلتني من بعد ذلك أخبرها بالقصّة بحذافيرها مرّات ومرّات، وهي تضحك ضحكات عالية من صميم قلبها. وكلّما استرسلت في حكايتي، وجدتها أكثر إمتاعًا. فحرّضتني على وصف نفسي وأنا واقف هناك مع تباشير الفجر الأولى، أمام سور الحديقة حاملاً الطلاء والفرشاة بيد أخرى، وانفجرت ضاحكة. إمّا أنّها ثملت بأسرع من المألوف في هذه الليلة، أو أنّها جاءت إلى الموعد مبتهجة أصلاً. غادرنا الحانة في الساعة الواحدة، بعد أن صافحت أثيل النادلين فردًا فردًا وودّعتهم. كما لم تنسَ، استنادًا إلى المعلومات التي تلقّتها منهم، أن ترسل بتحيّاتها إلى أسرهم، وختمت حديثها بكلمات تطمئنهم فيها عن قلقهم مستقبلاً. ولمّا وصلنا الشارع في نهاية الأمر، وصحونا قليلاً بتأثير نسيم الليل، أصرّت على أن آخذها إلى سور الحديقة لتشاهد الكتابة بنفسها.

Twitter: @ketab_n

ركبنا سيّارة أجرة، فتحوّلت ضحكة أثيل العصبيّة التي ردّد المطعم أرجاءها، وازدادت علوًّا عندما رحنا نتمشّى على الرصيف، ثم إلى هستيريا تمامًا في سيّارة الأجرة. فقد استمرّت في القهقهة، وشنّت هجومًا في أثر هجوم، محاولة طوال الوقت أن تفكّ أزرار بنطالي، في حين أجهدت نفسي كي أبعدها عنّي، إلّا أنّني سرعان ما توقّفت عن مقاومتها. وبينما راحت أصابعها تداعبني، واصلت مراقبة السائق الذي بدا وكأنّه يبلغ السنّ المسموح بها لقيادة سيّارة. فقد كان وجه الرجل بلا لحية وخاليًا من أيّ تعابير مهما كانت، ولم يكن سهلاً أن أعرف إذا كان في وسعه أن يرى ما الذي يجري في المقعد الخلفي أم لا. في هذه الأثناء، كانت أثيل قد وصلت هدفها، وأصبح أمامها مجال يكفي لحشر إحدى يديها، بعد أن فكّت الزرّ الثالث. كنت أوشك أن أغطّي بسترتي ما كانت تهدف إليه يدها، عندما انطلقت في فمي صرخة حادّة. طالما كرهت أظافرها الطويلة. في الوقت نفسه، انفرجت أسارير السائق عن ابتسامة خبيثة، كاشفة بذلك عن إدراكه ما يجري هنا. أمسكت يد أثيل بقوّة، لأنّني كنت أخاف من مخالبها، فجفلت وتذمّرت وكشّرت.. وفي هذه اللحظة، أشعلت سيكارة. وهنا، سألنا السائق في الوقت المناسب عن الوجهة التي يريد أن نتّجه إليها، بعد أن تبيّن لنا أنّه كان يراقب عن كثب كلّ ما كان ينطوي عليه فعلنا في المقعد الخلفي من جاذبيّة ونفور. فما كان من أثيل إلّا أن نفثت دائرة من دخان ماسك سيكارتها، وهتفت:

ـ إنّنا ذاهبان لزيارة وليّ الحلوى! وليّ أصحاب الأفئدة الكسيرة، وكلّ الذين انفصلوا عن أحبّائهم، والمشهور عنه إفساده كلّ شيء!

رشقنا السائق، الذي أدركت أنّ ملامحه الشابّة ترجع إلى عدم وجود شعر في وجهه وليس إلى عمره، أنا وأثيل بنظرة تنمّ عن عصبيّة، كأنّه كان يقدّر مدى خطورة ما ستؤول إليه الأمور. غير أنّ أثيل من شأنها أن تترك الرجل وحده، فعرضت عليه سيكارة، وانهالت عليه بوابل

Twitter: @ketab_n

من الأسئلة. مستفسرة عن المنطقة التي جاء منها، وهل هو مؤمن بالأولياء أم لا، وهل هو متزوّج أم لا، وهل سيلجأ إلى تعليم ابنته مستقبلاً إذا ما تزوّج ورزق بابنة، وهل سيتبرّأ من ابنه إذا ما انقلب مثليًّا جنسيًّا.. وأخيرًا سألته عن فريق كرة القدم المفضّل لديه. وشاء الحظّ أن يكون مشجِّعًا لفريقها نفسه.

قال السائق في اللحظة التي وجد السكون مخيِّمًا وسط سيل الأسئلة التي وجّهتها أثيل إليه:

- في يوم من الأيّام، استقلّ سيّارتي رجل وامرأة، ولم يكونا أقلّ منكما جنونًا.

وهنا، أطلقت أثيل سيلاً من الضحكات يرافقها سعال عالٍ، وكأنّ عظم سمكة انغرز في مكان ما من بلعومها.

واسترسل السائق:

- في تلك الأيّام، كنت حديث العهد بالسياقة في النوبات الليليّة، ولم أكن أعرف شيئًا عن زبائن الليل. وهكذا، استقلّ الرجل والمرأة السيّارة وهما يتشاجران من دون توقّف. ولبثت المرأة تصرخ وتصيح وتسبّ وتلعن. أمّا الرجل، فلم يفعل شيئًا لترضيتها، بل راح بدلاً من ذلك يكيل لها الشتائم. وكان القذف والطعن الموجّه من أحدهما إلى الآخر من القباحة ما لا يمكنني أن أذكره الآن! ومع هذا، فالواضح أنّهما كانا عاشقين. وتبيّن لي أنّ الرجل عزم على السفر خارج البلاد من أجل عمل. أمّا المرأة فلم تصدّق أنّه سيرجع يومًا ما، وأنشأت تقول له: «إذا سافرت فلن تعود أبدًا». وأجهشت بالبكاء. وقبل أن أعرف ما الذي يجري، طفقت تقرصه. ممّا لا ريب فيه أنّها كانت ثملة جدًّا. على أيّ حال، انطلقنا إلى العنوان الذي ذكراه لي. وكانت الخطّة تقتضي أن أوصل المرأة أوّلاً ثم الرجل. وهكذا مضينا في

Twitter: @ketab_n

سبيلنا إلى منزل المرأة، إلّا أنّها لم تحرّك ساكنًا، إذْ لم ترغب في مبارحة السيّارة. وعلى حين بغتة زعقت: «بالله عليك، لنذهب ونزور تلّ بابا!» ظلّت متشبّثة بالمقعد وهي تردّد: «لن أذهب إلى أيّ مكان قبل أن أزور تلّ بابا!» وفي نهاية الأمر، رضخ الرجل لها. أمّا أنا، فكنت مقتنعًا أصلاً. صحيح أنّ تلّ بابا يبعد مسافة طويلة عنّا، لكن هل يهمّها ذلك؟ في تلك الأيّام، كنت معتادًا على القول: «مستحيل، فأنا لن أشتغل ليلاً». وهكذا تريان كيف يغيّر المرء من رأيه بكرور الأيّام. على أيّ حال، لم يرغبا في ركوب سيّارة أجرة أخرى، بل عرضا عوضًا عن ذلك دفع ضعف الأجرة الاعتياديّة. وهكذا، انطلقنا بسرعة خاطفة في منتصف الليل. وعندما وصلنا المنطقة توقّفنا، فترجّلت المرأة من السيّارة، وفتحت محفظة نقودها، وفتّشت عن شيء ما، ثم ارتبكت في ظلمة الليل البهيم. كنت أنا والرجل ننتظر في السيّارة. وبعد مرور عشر دقائق أو زهاء ذلك، عادت المرأة مولولة مخاطبة الرجل بقولها: «احنِ رأسك!» فما كان من الرجل إلّا أن امتثل لها وجذبت خصلة كبيرة من شعره. فزعق الرجل في ذعر وألم، وراحا يتشاجران مرّة أخرى. غير أنّ المرأة انصرفت بفضل الله بعد أن عثرت على قطعة من القماش، لا يعلم مصدرها إلّا الله! وشدّت شعر الرجل إلى شجرة، وراحت تتضرّع وتجلس وتتضرّع وتنهض من مكانها. وهكذا، تركناها تفعل ما تريد. وفي نهاية الأمر، هدأت قليلاً، وتمتمت هامسة: «سوف أزور تلّ بابا في المرّة القادمة، وأنا أضع على وجهي خمار الزفاف». فهدأ الرجل أيضًا ورقّ. ثم عانق أحدهما الآخر، وطلبا منّي اسمي ورقم هاتفي لدعوتي لحضور حفل زفافهما.

قالت أثيل بصوت هادر، وهي تهزّ رأسها نحو السائق في وقت راحت تشنّ هجومًا ثانيًا على أزرار بنطالي:

ـ إنّني متأكّدة من أنّهما تزوّجا، وخنق أحدهما الآخر في غمضة عين.

Twitter: @ketab_n

قال السائق، وهو يلوي عضلات وجهه ويهزّ رأسه في حكمة:

ـ لا، يا أختاه! بل حدث ما هو أسوأ من ذلك. فبعد مرور سنتين، كان الوقت شتاءً، وأثناء هبوب عاصفة ثلجيّة عنيفة، فلا تستطيع أن تتبيّن شيئًا أمامك، وإذا بالرجل يستقلّ سيّارتي مجدّدًا. لكنَّه كان في رفقة امرأة أخرى! هل كانت زوجته أم عشيقته؟ يستحيل أن أعرف. لقد استدللت على الرجل من فوري، كما أنّه استدلّ عليّ من فوره. وشعر كلانا بالهول. وأشاح بنظره خارجًا، وأشحت بنظري خارجًا أيضًا، ولم تكن المرأة الجالسة بجانبه تعلم شيئًا ممّا يدور، بل كانت تهذر وتثرثر، فيقع كلامها على آذان صمّاء. وقبل أن نتمكّن من السير مسافة عشرة أمتار، أوقف الرجل السيّارة وترجّل منها. فما كان من المرأة إلَّا أن لحقت به ذاهلة.

عقدت أثيل يديها في حضنها، وتنهّدت تنهيدة حزينة مهمومة. آه، لو فهمت فهمًا قليلاً سبب انتقال المرأة ومتى انتقلت. تكاثف صمت مليٌّ من حولنا، ولم يتكلّم أحد كلمة واحدة إلى أن انعطفنا إلى ركن شارع الجبل، لكن ما كدنا نتوقّف أمام قصر الحلوى حتى اندفعت أثيل من السيّارة مبتهجة. واندفع سائق السيّارة وراءها، وهو عاجز عن مقاومة اندفاعها. في الساعة الواحدة والنصف صباحًا، كنّا نقف نحن الثلاثة مصطفّين اصطفافًا مهيبًا، منبهرين بالكتابة المدوّنة على سور الحديقة:

«تحت هذا السور

يرقد وليّ صالح

فلا تكبّ زبالتك هنا!»

سألت السائق:

ـ ما رأيك؟

فقال مجيبًا بنبرة، لا تميّز فيها الجدّ من الهزل:

Twitter: @ketab_n

ـ لا بأس، كما أظنّ، ولكنَّها منحرفة عن المركز، فضلاً عن أنّني لا أحبّ هذا اللون أيضًا.

تلوّت أثيل من الألم، وكأنّها توشك أن تتقيّأ. وفي لمح البصر، تركت العنان لنفسها وانفجرت ضاحكة حتى فاضت عيناها بالدموع. وأحدثت جلبة كانت من الشدّة ما دفع بسكّان بعض الشقق في العمارة السكنيّة إلى إضاءة الأنوار. دفعت أنا والسائق المرأة، كلّ من جانب، إلى داخل السيّارة. وفي الطريق، تحوّلت قهقهاتها المتلاشية شيئًا فشيئا إلى نشيج بكاء متزايد زيادة مطّردة. لقد مضى زمن طويل منذ أن شاهدت أثيل تبكي هذا البكاء المرَّ. وعندما وصلنا منزلها، لم أشعر برغبة البقاء وإيّاها. واستسلمتْ لنوم عميق، في اللحظة التي وضعت رأسها على الوسادة على أيّ حال. لبثت بسيّارة الأجرة منتظرًا، وجلست في المقعد الأمامي أثناء العودة. كانت أجرة الركوب قد ارتفعت ارتفاعًا كبيرًا. كنت منذ طلاقي أدفع نصف مرتّبي لقاء الإيجار، والنصف الآخر على مثل هذه الليالي التي أفرط فيها الشراب. قدّمت سيكارة للسائق، فأشعل سيكارتي أوّلاً، ثم أشعل سيكارته، غشينا صمت أخويّ في ظلّ غيابها.

تمتمت:

ـ آسف لكلّ تلك الضجّة.

هزّ كتفيه:

ـ لا بأس أيّها الأخ. يا ليت كانت هذه الأشياء مشكلتنا الوحيدة.

أثناء الانتظار أمام الضوء الأحمر، بدأ الكرب يجتاحني على حين غرّة. مرقت بجانبنا سيّارة شرطة، وأمامنا ثمّة مركبة زبالة وقد قبض زبّالان اثنان هزيلا البنية مؤخّر المركبة، كلّ منهما بيد واحدة، في حين راحت اليد الثانية لكلّ واحد منهما تتأرجح بكلّ حرّيّة. وأثناء مرورهما من تحت نور مصابيح الشارع، بان وجهاهما من بين الظلمة، وإن لثواني معدودة. كان أحدهما يبتسم للآخر ابتسامة حائرة كما بدا لي، ولم تكن

Twitter: @ketab_n

ثمّة مركبات أخرى على الطريق. وفي اللحظة التي تحوّل الضوء إلى الأخضر، تبدّد كربي وحزني، وطلبت من السائق أن يستدير ويمضي في الاتّجاه الثاني من الشارع. وبعد مرور عشر دقائق، كنّا أمام منزل آيشين، إلّا أنّني لم أترجّل من السيّارة، فقد كانت الستائر مسدلة والأنوار مطفأة. وبينما أنا واقف محدِّقًا إلى بيتي القديم، راح السائق اللطيف الوجه ينتظرني صابرًا من دون أن ينبس بكلمة.

في طريق العودة، أدار المذياع، فاستمتعت، ويا للغرابة، بكلّ أغنية من الأغاني الصادحة. وأخيرًا، وبعد أن اكتسبت سيّارة الأجرة صفرًا آخر عن الأجرة، وصلنا قصر الحلوى. وتحت أنوار السيّارة الكاشفة، أومأنا برأسينا خارج النافذة، كلّ من على جانبه، وراودنا إحساس لا نعلم له سببًا بالنظر إلى الكتابة على السور مجدّدًا.

قال السائق، وهو يناولني باقي الأجرة:

ـ هه.. أيّها الأخ! لقد كتبت الآن ما كتبت على السور، ولكن هل تساءلت عمّا سيحدث إذا ما صدّق بها أحد ما؟

ضحكتُ ضحكة صغيرة، وقلتُ:

ـ آه، بالله عليك! من ذا الذي سيصدّق هذا الكلام؟ ولكن إذا صدّقوا الكلام، فذلك أفضل على أيّ حال. أرجو أن يتوقّفوا عن رمي زبالتهم الكريهة الرائحة في هذا المكان.

فخلط في كلامه، وهو يقول ماسحًا بأصابعه شفته العليا، كأنّه يجذّب شعيرات شارب غير مرئي:

ـ نعم، حسنًا، كلّ ما هنالك هو أنّ سكّان هذه المدينة غريبو الأطوار إلى حدٍّ ما، وبخاصّة النساء، فهنّ غريبات على نحو مضحك.. أيّها الأخ. وقد شهدت على ذلك بنفسك. إنّ سؤالي تحديدًا هو: ما الذي سيحدث لو أنّ شخصًا ما آمن بما كتبت إيمانًا صادقًا؟

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١

مريم

الإيمان هو أصلاً مسألة توقيت، شأنه في ذلك شأن جدول مواعيد قطار ما. فالساعة العاجيّة الكبيرة والمدوَّرة المثبَّتة في محطّة القطار تدقّ في ساعات معيَّنة ومختلفة من حياة البشر. والقطار يغادر محطّته في ساعات محدَّدة. ثمّة قطار واحد لا أكثر قبل الظهر: قطار يستقلّه أولئك الذين استوعبوا نظام إيمان منذ أن كانوا أطفالاً. وثمّة قطار آخر يغادر بعد الظهر، حاملاً وإيّاه مسافرين مضطربين في عمر المراهقة. وبعد ذلك لا يوجد قطار مباشر إلّا ليلاً. وعندئذٍ، عندما تظهر حالات الندم القاهر في حياة المرء، وتُقَرُّ عدم إمكانيّة التكفير عن أخطاء سابقة؛ عندما تبدأ بالانهيار أقوى الأعشاش المبنيّة وتحدث أوّل التعقيدات الصحّيّة الخطيرة، يغادر القطار للمرّة الثالثة. ولسبب مجهول، يستقلّه المسافرون في الدقيقة الأخيرة. وعندما يقترب منتصف الليل، وبعد عمليّات جراحيّة دقيقة، وعند مشارف تجارب موت قريب، ثمّة قطاران آخران أحدهما وراء الآخر. ويشاء هذان القطاران أن يكونا مزدحمين ازدحامًا شديدًا. فهما يسيران من دون توقّف أمام أيّ محطّة، ويتّجهان مباشرة إلى الله؛ قطارا شفاعة سريعان. وعلى العكس من ركّاب قطار

Twitter: @ketab_n

النهار، فإنَّ قطاري الليل يأتيان إلى رصيف المحطّة مبكرين أكثر ممّا ينبغي، كي لا يفوت على أحدٍ من الناس. وبعد طول انتظار، وعندما تدقّ الساعة معلنة منتصف الليل، وتكتمل الدورة، لا يبقى من تلك الحشود الحاشدة سوى حفنة من غير المؤمنين.

لمّا كانت مريم مسافرة في القطار الأوّلي، فإنَّ إيمانها لم يكن محسوبًا حسابًا أقلّ من حساب الآخرين فحسب، وإنّما أقلّ من «الكتاب» أيضًا. يصعب القول إن كانت ستفعل الشيء نفسه، لو لم تكن حبلى في الوقت الذي ظهرت الكتابة على السور. وبما أنّ الحمل جعلها غريبة الأطوار إلى حدٍّ ما، فقد ذهبت في صباح ذلك اليوم إلى الحديقة حاملة في يدها جرّة فارغة كي تضع فيها مقدارًا من تربة الوليّ المجهول الاسم. ولم يكن ذلك الإجراء الذي أقدمت عليه نابعًا من إيمانها بوجود وليّ حقيقيّ مدفون في الحديقة، ولكن بحسب ما أوضحه البروفسور الجامعيّ في ضوء حقيقة وجود قبور موغلة في القدم من تحت كلّ أرصفة مدينة اسطنبول، فإنَّ المرء لا يسعه التنبّؤ بما سيظهر من أيّ مكان. وإذا ما اتّضح أنّ الكتابة كاذبة ومصطنعة، فإنَّ كلّ ما سيتبقّى عندها هو ملء جرّة من التراب. هذا كلّ شيء. لكن إذا كان ثمّة وليّ حقيقيّ تحت شجرة ورد الأكاسيا في حديقة قصر الحلوى، فعندئذٍ لا يبقى أمامها سوى أن تدعو دعاءً واحدًا أمامه، وهو: أن يمدّ محمّدًا بالشجاعة، ولو كانت قليلة.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٢
سيدار وغابا

عندما رنّ جرس الباب، هرع سيدار مؤملاً أن يكون محمّد قد جاء إليهم مجدَّدًا حاملاً شيئًا يؤكل. إلّا أنّه لم يجد أمامه عند فتحه الباب المبعوثة الصغيرة التي أرسلتها السيِّدة العمّة، وإنّما الفتاة المخبولة ذات الشعر النحاسيّ. إمَّا أنّ هذه الفتاة قد تغيَّرت تغيُّرًا جذريًّا منذ أن شاهد أحدهما الثاني آخر مرّة، أو أنّ ذاكرة سيدار عنها أصابها العطب. إلّا أنّ عينيها كانتا، كما يتذكّرهما، هادئتين هدوءًا جميلاً. اندفعت إلى أمام مبتسمة ابتسامة ذاهلة من دون أن تنتظر دعوة للدخول. واتّجهت وكأنّها مرهقة متعثّرة نحو الأريكة، وطلبت من مضيفها الذي لبث مسمّرًا في مكانه أن يقدّم لها شيئًا تشربه. فهرع سيدار إلى المطبخ وهو يحكّ رأسه، وفتح كيس القهوة الوحيد في الخزانة، وصبّ الماء الذي كان قد سخَّنه في الغلّاية الوحيدة في المنزل، في الكوب الوحيد الذي كان على الرفّ.

ـ ألن تشرب شيئًا؟

هزّ رأسه، وقال: .

ـ لاحقًا. على أيّ حال، ليس لديّ سوى كوب واحد.

Twitter: @ketab_n

أخرجت الفتاة ثلاث قطع من البسكويت بالبندق من حقيبة ظهرها، وسرعان ما انفتحت شهيّة غابا. غير أنّه رفض أن يتحرّك من مكانه.

ـ ما اسم الكلب؟

قال سيدار متذمّرًا، وراوده الشكّ لأنّه سبق أن أخبرها باسمه في زيارتها السابقة:

ـ غابا.

ـ ما معناه.

ـ إنّه مختصر لمصطلح gamma-amino-butiric acid وهو مثبّط الإرسال العصبيّ، وذو صلة بمركز القلق في الدماغ. إنّ الحبوب المضادّة للتشنُّج والمضادّة للقلق، وكذلك الكحول، تقلِّل من هذا الداء. وبهذا يشعر المرء بقلق أقلّ.

قالت الفتاة متحمِّسة، قبل أن تستلقي من على الأريكة:

ـ اهدأ! أنت تتكلَّم الألمانيّة وكأنّها لغتك الأمّ. صحيح؟ كم لبثت خارج البلاد؟

عندما رأت الفتاة السقف، رمشت بعينيها في دهشة. ولمّا لم تعرف ما تقول، رمشت بعينيها مرّة أخرى.

قال سيدار مصحّحًا كلامها، متوتّرًا:

ـ الفرنسيّة.

الواضح، أنّ الفتاة لم تتذكّر كلمة واحدة ممّا تتفوّه به في المرّة السابقة، وإذا كانت لا تكترث بالإجابة، فما السبب الذي يؤدّي بها إلى طرح هذه الأسئلة؟ كما بدت ناعسة لا تقوى على فهم كلمة واحدة. وكانت عيناها توشكان أن تغمضا وهي تصغي للإجابة الثانية، وللثالثة على أكثر تقدير. ما السبب الذي يجعلها تطرح الأسئلة، سؤالاً في إثر سؤال، في وقت كان الواضح تمامًا أنّ الأجوبة ستظلّ ناقصة، وأنّها،

Twitter: @ketab_n

حتى لو علمت أكثر شيء يمكن لها أن تتعلَّمه في أقلّ مدّة زمنيّة ممكنة، فلن تحصل إلَّا على أجزاء متخلّفة ونتف غير واضحة، وليس على أعمق جوانب حياته؟ إنّ الرغبة البسيطة لمعرفة شخص ما هي تعهُّد أجوف وعبء كبير! ولا بدّ للشخص أن يصغي وأن يلاحظ ويتحسَّس ويجوس ويكشف ويحشد على مدى ليالٍ وأسابيع وسنوات حتى يتمكّن من أن يزيل الجرب، ويتحمّل رؤية الدم ينضح من تحته. وإذا كان الشخص غير قادر على تحمُّل كلّ هذا، فيستحسن، بل والأشرف له، أن يعلن استسلامه ويكفّ عن الكفاح من فوره.

أنا لا أعني أنّني هنا كنز لم يقدِّره أحد، مخزون في صندوق ينتظر من يكشفه تحت نور الشمس. إنّ كلّ الأسئلة التي تطرحين عنّي متوارية قبل الآن داخلك. أنا لا أريدك أن تتمنّي اكتشافي، أو أن تفكِّري بأنّ في وسعك أن تكتشفيني.. فنحن لسنا مضطرّيْن إلى أن يعرف أحدنا الآخر، في حين أنّنا لا نعرف إلَّا النزر اليسير عن أنفسنا. إنّ جمع المعلومات عن الآخرين أشبه بجمع الطعام من الزبالة. ما فائدة ترك الموادّ تتعفّن في أدمغتنا، إذا لم نستطعمها في وقتها؟

قطع غطيط النوم الجزئي سلسلة أفكار سيدار، فقد استسلمت الفتاة للنوم فاغرة فاها. أخذ سيدار نَفَسًا أخيرًا من لفافة التبغ التي كان قد لفّها وقت الظهيرة، وتكوَّر بجانب ضيفته. أمّا غابا الذي كان يراقبهما قلقًا مضطربًا من المكان الذي كان قد جثم فيه، فلا مناصّ من أنّه اقتنع أخيرًا بأنّ ما من أحد خارج المنزل سوف يأتيه، لأنّه اقترب وهو يعرج قليلاً. وفي لحظة واحدة، التهم قطع البسكويت بالبندق، وتقدَّم وهو يلعق ويتلمَّظ بشفتيه، وتكوّر من فوق الأريكة. وانساق الثلاثة يحلمون أحلامًا متباينة، في الوقت الذي تخلّلت أضواء السيّارات المارّة خارج المبنى النوافذ الصغيرة، راسمة بذلك ظلالاً على الجدار.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٨

أنا والعشيقة الزرقاء

بعد أن تملّك التعب العشيقة الزرقاء في غدوها ورواحها من المطبخ إلى غرفة الجلوس، رمت المائدة بنظرة أخيرة. لاح كلّ شيء جاهزًا. فأشعلت الشمعة الشبيهة بالزنبقة الطافية من على طاس زجاجيّ مملوء بالماء، ووضعت المناديل الزرقاء بجانب الأطباق الزرق، إذْ كانا قد اتّفقا على اللقاء في الساعة السابعة. فرنّ جرس الباب في السابعة إلَّا عشر دقائق.

قالت بصوت رقيق:

ـ أهلاً وسهلاً.

كانت تحتذي حذاءً ذا كعبين عاليين، إلَّا أنّ شعورًا غريزيًّا انتابها كي تعلو بقامتها على رؤوس أصابع قدميها. وأضافت:

ـ هل تصل مبكرًا دومًا هكذا؟

قلت لها مبتسمًا:

ـ بذلت قصارى جهدي كي لا أصل مبكرًا، ولكنْ، اتّضح لي أنّ المسافة بين شقّتي وشقّتك لا تعدو أن تكون سوى ثلاث خطوات ونصف الخطوة!

Twitter: @ketab_n

ضحكت ضحكة متقطّعة، وقالت:

ـ نعم، لديك ساقان طويلتان.

واحمرّ وجهها عند نهاية الجملة، وكأنّها أبدت ملاحظة جنسيّة مثيرة.

وقفنا قرب المدخل في حيرة تشبه حيرة شخصين توقّفا على حين بغتة، بعد أن رغب أحدهما في الآخر منذ زمن طويل، وذلك في اللحظة التي أدركا كم اقتربا حقًّا من الحصول على ما كانا يتوقان إليه توقًا شديدًا. على الرّغم من أنّ قوّة تعارفنا وتكراره كانت محدودة بمصادفة بعضنا بعضًا بين آونة وأخرى، وتجاذب أطراف الحديث عن هذا الموضوع أو ذاك، إلّا أنّني كنت أدرك الإدراك كلّه منذ مدّة زمنيّة بعيدة كم كانت منجذبة إليّ. فأمامي وجه لا يستطيع إخفاء الأسرار. إلّا أنّني رغمًا عن ذلك، لم أتوقّع أن يجري هذا «الشيء» مجراه بهذه السرعة وهذه السهولة...

أمسكت وجهها براحتيْ يديّ، ومسّدت تلك الخزامة الصغيرة الشذريّة اللون.

ـ أعددت لك طبق الدجاج بالجوز.

قالت ذلك، وهي تتراجع إلى الوراء في محاولة لحثّي على الاستمرار في الحديث المتحفّظ الذي نشأ بيننا، وليس على الاستمرار من حيث توقّفنا في تبادل القبلات.

وأضافت:

ـ أتمنّى أن يعجبك الطعام.

تجاهلت تحفّظها المتكلّف، وتجاهلت مائدة الطعام، وقدتها إلى غرفة النوم. ولدهشتي البالغة، وجدتها سهلة الانقياد، وكنت سهل الانقياد أيضًا، رجل وامرأة يتمتّعان بما يكفي من الحكمة، فلا يعلّق

Twitter: @ketab_n

أحدهما على الآخر كثيرًا من الآمال المستقبليّة، فيحتفظان بشيء ما عند ممارستهما الحبّ. ومع هذا، ففي ذلك الوقت المتأخّر من الليل، عندما تحلّقنا من حول المائدة، راودنا الإحساس بأنّ ماضينا مشترك، وإن كنّا بلا مستقبل مشترك، كأنّنا كنّا نعيش معًا منذ عهد بعيد، في البيت نفسه... وبدا لي أنّنا استمتعنا بهذا الوهم في أعماقنا... إذْ، بغض النظر عن موقفك من الموضوع، فإنَّ الرجل الذي تهجره زوجته، والعشيقة غير السعيدة في رفقة زوج امرأة أخرى، لديهما حاجة مشاعة في أسوأ الأحوال: أن يطمئنّا إلى أنّ خيبتهما المستمرّة بمؤسّسة الزواج لا تنبع من فشلهما، وأنّ في وسعهما أن ينجحا رفقة شخص آخر.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١

محمّد

ثمّة سبع عشرة درجة عند بوّابة دخول المدرسة. ولمّا وصل محمّد الدرجة السادسة عشرة وهو يعدّها بصوت عال، التفت قليلاً يراوده بصيص أمل ضعيف... لكنّ المعجزة التي كان يتطلّع إليها أخفقت في الحدوث. فأمُّه لم تغب عن الأنظار، بل لبثت واقفة تنتظر بثبات وإصرار في المكان نفسه، متّكئة على بوّابة الحديقة المغلقة بالمزلاج، ببطنها المنتفخة وكلّ ثقلها، ترنو إليه بأنظارها بحزن مؤثّر، وكأنّها على رصيف مرفأ تودِّع محبوبها الواقف في زورق الفراق. في اللحظة التي شاهدت محمّدًا يرمقها بنظراته، أشرق وجهها وانفرجت أساريرها عن ابتسامة قوامها الحنان والفخر والرقّة، ولوَّحت بذراعيها في آن واحد، حركاتها أشبه بحركات رياضي متميِّز. من يراها وهي تبذل كلّ ذلك الجهد، يظنّ أنّها تحاول أن تجذب اهتمام ولدها من بين جمع حاشد. ومع هذا، ومنذ الأسابيع الأخيرة للفصل الدراسي الثاني، كانت الأمّ الوحيدة من بين أمّهات التلاميذ، البالغ عددهم ثمانمئة وثمانية وأربعين طفلاً في المدرسة الابتدائيّة، التي أصرَّت على إحضار طفلها إلى المدرسة في الصباح، والانتظار بجانب البوّابة إلى أن يقرع الجرس ــ وتلك سياسة

Twitter: @ketab_n

سارت على نهجها منذ أن تلقّت خبرًا مفاده أنّ ولدها محمّد يتغيّب عن المدرسة من دون إِذن، ما يعني أنّ توزيع الخبز والصحف على سكّان قصر الحلوى سوف يتأخّر ابتداءً من اليوم فصاعدًا مدّة خمس وعشرين دقيقة. لم يتذمّر أحد حتى الآن، فالسيِّدة العمّة لم تكن تشتري الخبز بأيّ حال من الأحوال، إذْ كانت لا تأكل إلّا النزر اليسير وكأنّها طائر. أمّا هايجين تايجين، فكانت تُنْزِل من نافذتها في صباح كلّ يوم سلّة يضع فيها صبيّ البقّال خبزًا مغلّفًا لم يلمسه أحد، في حين لا تأكل العشيقة الزرقاء أيّ خبز كي لا يزداد وزنها، بينما لم يتوقّع البروفسور العازب الساكن في الشقّة رقم ٧ أيّ خدمات منتظمة، ما دام أنّه هو نفسه لا يعرف، كما يبدو، متى يأتي ومتى يخرج. ولم يكن سيدار يملك مالاً، في حين أنّ مصفّفيّ الشعر اللذين أسّسا نظامًا خاصًّا بهما، لم يعترضا على هذا التأخير. وبهذا، تبقّى أمامنا شقّتان، ولا تريد مريم المخاطرة بتعليم ولدها من أجل نزلاء تينك الشقّتين.

انكمش محمّد على نفسه أكثر فأكثر كلّما لوّحت له أمّه، وكأنّ هناك من يضربه على رأسه، إلى أن وصل الدرجة السابعة عشرة، واندفع داخل باب المدرسة الابتدائيّة الشديد السواد. كانت حقيبة الطعام ثقيلة في يده، وحقيبة الظهر أشدّ ثقلاً، فسرح ببصره من حوله بلا طائل باحثًا عن شيء ما يركله بقدمه. في الوقت الذي دقّ الجرس للمرّة الأخيرة، دخل قاعة درسه ليأخذ مكانه بين الاثنين والثلاثين تلميذًا.

مرّ الدرس الأوّل من دون حادثة، خلافًا لمخاوفه. كان زميل مقعده الشقيّ أمامه قد ولّاه ظهره، مركّزًا التركيز كلّه على الكتابة المدوَّنة على السبّورة، ساكنًا، رابط الجأش، وكأنّه ليس هو الذي اعتاد أن يصفع محمّدًا مرّتين يوميًا على الأقلّ. أطرح محمّد بصره على هذا الظهر الذي يبلغ حجمه ضعف حجم ظهره ممتنًّا، وتمنّى لو بقي على تلك الحالة دائمًا. آه.. لو كان زميل مقعد لهذا الظهر، وليس لهذا

Twitter: @ketab_n

الطفل الضخم! تهدَّل كتفاه وهو ينكمش من وراء الظهر المفتول العضلات والمتين البنيان مطمئنًا، لأنّه يعرف أنّ أحدًا لن يشاهده من تلك الزاوية، وراح يجيل الطرف من حوله. كانت نوافذ قاعة الدرس مطليّة باللون الرمادي إلى منتصفها للحيلولة دون نظر التلاميذ إلى الخارج، غير أنّ في وسع المرء أن يشاهد السماء الزرقاء من خلال قشور الطلاء وشقوقه. ثم حوّل من بصره إلى أشرطة الفتاة القريبة من السبّورة، وأظافر المعلِّمة الورديّة المدبَّبة والتي كانت تنتفخ أوردتها كلّما زعقت بأعلى صوتها. فكَّر أنّ الفتاة القريبة من السبّورة والمعلِّمة منسجمتان إلى أبعد الحدود. فإذا أخفقت الفتاة في إعطاء الإجابة الصحيحة، وغرزت المعلّمة مجدّدًا واحدًا من أظافرها الطويلة في شحمة أذن التلميذة البائسة، فلا فرق، لأنّ أذنيّ الفتاة مثقوبتان أصلاً. وعلى الرّغم من هذا، فإنَّ أكثر الذين تُجرُّ آذانهم هم من الصبيان. فأذنا محمّد جُرَّتا حتى الآن عديد المرّات، ولم يكترث للألم في كلّ مرّة، ولكنَّه كان يكترث حقًّا إذا ما انتهى به الأمر وقد ثقبت أذنه رغمًا عن إرادته. فبعد أن أنفق السنوات الستّ من حياته على وجه الأرض طويل الشعر مثل بنت من البنات، فإنّه لا يريد الآن أن يقضي بقيّة حياته مثقوب الأذنين مثل بنت أيضًا. جفل بعد أن تصاعدت مخاوفه إلى أعلى درجاتها، وعندئذٍ، فكَّر بأنّ كلّ ما حدث قد حدث وبات شيئًا من الماضي. وعلى حين بغتة، التفت الظهر القريب منه الذي تحوَّل الآن إلى وجه مكفهرّ، منتفخ الأوداج وأحمر مثل البنجر، وكشّر في صفاقة، فانسحق محمّد.

منذ بداية المدرسة، ومن دون أيّ استثناء، راود محمّد حلم الهروب، إلَّا أنّه صرّ أسنانه متألِّمًا، لأنّه لم يكن راغبًا في الهروب فحسب، بل حنّ إلى الموت نفسه. وتمنّى لو أنّ كارثة حدثت في تلك اللحظة، هزّة أرضيّة مدمِّرة حقًّا على سبيل المثال، فتنفلق الكرة الأرضيّة

Twitter: @ketab_n

إلى فلقتين، لا تترك معها حجرًا من فوق حجر ولا رأسًا على جسد، محطّمة علامات الامتحان في دفتر المعلّمة، والنجومَ الذهبيّة لتلك الفتاة الواقفة أمام السبّورة، وأطراف زميله على المقعد الدراسي ومرفقيه وصفعاته وإهاناته. . . آه، لو تناثرت كلّها في كلّ حدب وصوب، فلا تتّحد من جديد. . .

بينما أغمض محمّد عينيه، وراح يحلم بأسوأ كارثة يمكن تخيُّلها، تمزّق السكون صافرة مدوّية، وتناهى إلى مسامعه صوت جلبة وضوضاء وأشخاص يهرعون ويركضون ويندفعون خارج الأبواب إلى الممرّات، وأصوات أبواب تصمّ الآذان. لبثوا كلّهم ساكنين بلا حراك في وقت راحت المعلِّمة تحدِّق إلى التلاميذ، والتلاميذ يحدِّقون إلى المعلِّمة. وفي لمح البصر، اندفع الباب وفُتح على مصراعيه، ودخلت امرأة أنيقة تنظر نظرات ثاقبة من وراء نظّارات من دون ذراعين. ابتسمت أوّلاً في وجه المعلِّمة ثم في وجه التلاميذ، مجاملة صافية مرّت من خلال منخل رقيق المسامات. وقالت، وكأنّها تذيع نبأً سعيدًا: «عزيزتي المعلِّمة. . أحبّائي التلاميذ. . . كان هذا تمرينًا زلزاليًّا».

ما إن فرغت المرأة الأنيقة من إكمال عبارتها حتى اندفع داخل الصفّ الدراسي ثلاثة رجال متشابهين تشابهًا يدعو إلى العجب العجاب، فهم مفتولو العضلات، متينو البنيان، متهدّلو الشوارب. وكانوا يعتمرون خوذًا صفراء اللون، ويرتدون قمصانًا قطنيّة كُتب عليها: «التقصير هو القاتل وليس الهزّة الأرضيّة». كانوا رشيقيّ الحركة على نحو مدهش، وهم يُخرجون مختلف الأدوات التي كانوا يحملونها في حقائبهم، وثبّتوا الملصقات ذات الأحجام المختلفة على كلاليب السبّورة. أُسدلت الستائر، وبدأ جهاز عرض يضيء على الجدار. أمسك محمّد أنفاسه، وهو يتابع ذاهلاً متحمّسًا الصور التي باتت حيَّة، الواحدة تلو الأخرى، وشعاع الضوء المغبرّ الذي كان يشقّ طريقه وسط الظلمة.

Twitter: @ketab_n

بعد عرض الصورة الأخيرة، فُتحت الستائر، وصفّقت المرأة الأنيقة بيديها لتعلن عن كيفيّة إجراء التمرين. يتألّف التمرين من مرحلتين. ففي المرحلة الأولى، سوف يُطلب من التلاميذ أن ينحشروا من تحت المقاعد وينتظرون، متظاهرين بأنّ كلّ شيء من حولهم يهتزّ اهتزازًا عنيفًا، هادئين، رابطيّ الجأش، واضعين رؤوسهم بين أذرعهم. أمّا المرحلة الثانية، فالهدف منها تعليمهم كيفيّة الخروج من أيّ مبنًى بأسرع وقت ممكن. انطلقت الصافرة، وإذا بكلّ التلاميذ الاثنين والثلاثين ينكمشون من تحت المقاعد الخشبيّة، يضحكون ضحكات صغيرة لا تتوقّف.

كوّر محمّد نفسه مثل كرة حتى ينحشر في مكان صغير تبقّى له من تحت مقعد زميله. وبعد مرور بضع دقائق، خرج رفقة بقيّة التلاميذ من تحت المقاعد ليقفوا في صفّ طويل زوجًا زوجًا استعدادًا للخروج من قاعة الدرس. ولمّا لم يهتمّ زميله بمسك يده، كما يفترض بزملاء المقعد، فإنَّ محمّدًا لم يتمكّن من الانضمام إلى سلسلة التلاميذ. وهكذا، لبث الطفلان واقفين في ركن القاعة بعيدًا عن بقيّة التلاميذ، فجذبا بتصرّفهما أنظار المرأة الأنيقة، لأنّها على حين بغتة، هدرت بصوت عالٍ ينمّ عن اغتباطها:

ـ هلّا تقدّمتما إلى هنا، أنتما أيّها التلميذان. إنّنا نبحث عن ولدين شجاعين.

في حين انطلق كلّ التلاميذ خارج قاعة الدرس وساروا في نظام تامّ، رنا محمّد بشوق وحنين إليهم، وبان القلق في عينيه. وعندما فرغ الصفّ من التلاميذ تمامًا، أدرك أنّ المرأة الأنيقة والمعلّمة قد خرجتا من قاعة الدرس أيضًا. وقبل أن يتمكّن من العثور على شيء ما ليصب جامّ غضبه عليه من جرّاء بقائه خارج اللعبة، وحيدًا رفقة الشقيّ، زميل مقعده فضلاً عن ذلك، اندفع الرجال الثلاثة أصحاب الشوارب إلى

Twitter: @ketab_n

العمل من فورهم. فأخذ أحدهم محفّة، وأخرج الثاني حبلاً طويلاً، بينما أفرد الشخص الثالث دثارًا، ثم وضعوا الطفلين على المحفّة جنبًا لجنب، وغطّوهما بالدثار وربطوهما ربطًا محكمًا. رُبط حبلان من الحبال الأربعة بكلاليب، وأنزلا من النافذة، بينما رُبط الحبلان الآخران بمقبض باب قاعة الدرس.

قال أحد الرجال بصوت أجشّ ومبحوح:

ـ لا تخافا!

ثم خفّض من صوته، وكأنّه يفشي سرًّا من الأسرار:

ـ سوف ننزلكما من النافذة!

بعد مرور خمس دقائق، تمكّن محمّد أخيرًا من أن يلمّ ما يكفي من الشجاعة وفتح عينيه، فوجد نفسه على محفّة تبعد مسافة ستّة عشر مترًا عن سطح الأرض، مشدود اليدين والساقين داخل دثار تفوح منه رائحة كريهة، جنبًا لجنب صبيّ لا يروقه إلّا أقلّ ما يمكن في هذا العالم. وكان التلاميذ متجمهرين في الحديقة، يراقبونهما من تحت، مهلّلين دفعة واحدة. كانت السماء زرقاء صافية، مرّت سحابة كبيرة في كسل من فوقهم. وبينما كان الرجال يدلون بالمحفّة من أعلى، فإنَّ المحفّة راحت تهبط متأرجحة، ولكن بغض النظر عن المسافة التي كانت تتقلّص بينها وبين الأرض، إلّا أنّها لاحت وكأنّها لن تقترب من سطح الأرض أبدًا.

نقَّ زميله:

ـ أراهنك على أنّك قد أفرغت أمعاءك في بنطالك.

كان وجه الصبيّ الأحمر كالبنجر قريبًا من محمّد قربًا شديدًا، مكّنه من تنشّق رائحة أنفاسه. وفتح فاه ليعلن أنّه ليس خائفًا أبدًا، ولكن قبل أن تسنح له فرصة للتفوّه بأيّ كلمة، امتلأ فمه بالبصاق، فانفجر الصبيّ ضاحكًا، ولكن محمّدًا تمكّن في محاولته التخلُّص من البصاق أن

Twitter: @ketab_n

يبصق، لا إلى جانبه الأيمن، بل إلى جانبه الأيسر حيث وجه غريمه.

لم يكن الصبيّ يتوقّع هذا الشيء أبدًا، وبعد أن تغلّب على ارتباكه الذي استبدّ به أوّل الأمر، ردّ على هجوم محمّد بهجوم بدأه ببندقيّة بصاق آليّة ردًّا على هجوم بندقيّة البصاق الاعتياديّة. صحيح أنّهما اقتربا الآن من سطح الأرض، إلّا أنّ أحدًا ممّن كان يتجمهر من تحت لم يتنبّه إلى ما كان يحدث فوق المحفّة، التي كانت تبعد ثلاثة أمتار ونصف المتر عن سطح الأرض.

زأر صاحب الوجه الأحمر كالبنجر:

ـ انتبه إلى ما سيحدث الآن. سوف تهبط وسط الجموع، وعلى وجهك بصاق أخضر اللون!

أسرع محمّد ليبعد رأسه، لكنّ الأوان كان قد فات. وشعر بكرة صغيرة تلتصق في وسط جبينه، وتلبث في موضعها ثانية أو ثانيتين، وتأخذ بالانحدار إلى أسفل وتجري نحو أنفه. كاد أن يتقيّأ، وانخفضت المحفّة نصف متر آخر. وأصبح الآن في وسع الواقفين رؤية وجهيْ هذين التلميذين من أماكنهم على الأرض. كان الأطفال يهتفون فرحين ببطليهما الهابطين من السماء. أمّا محمّد، فقد بذل قصارى ما في وسعه عبثًا ليحرّر نفسه من الحبال، وراوده إحساس في أن يجهش بالبكاء. حاول بكلّ ما أُوتي من قوّة أن يقنع نفسه بأنّ السائل الذي انحدر إلى أنفه لم يكن بصاقًا، وأنّ الفتى ذا الوجه البنجري قد خدعه، إلّا أنّه لم ينجح في مسعاه. وهبطت المحفّة نصف متر آخر، وهبّت سحابة، فأعرب محمّد عن أمنية مفادها أنّ الأرض، إنْ كان لها وتد تستند إليه، فيستحسن أن ينهار ذلك الوتد وتحلّ نهاية العالم... ولكن قبل أن يكمل رغبته، قُذف الولدان بقوّة، وكأنّهما سوف ينقلعان من مكانيهما، فيتّجهان أوّل الأمر إلى الأمام ثم إلى الخلف، وإلى الأمام من جديد. صكّ الصياح والصراخ الأسماع من تحت، وأغمض محمّد عينيه، فقد

Twitter: @ketab_n

انقطع الحبل من جهة الشمال، وانقلبت المحفّة رأسًا على عقب، وسقطت على الأرض سقوطًا عموديًا من على ارتفاع مقداره مترين ونصف المتر. وندّت عن الفتى البنجريّ الوجه صرخة.

صاحت معلِّمة الصفّ ذات الأظافر الورديّة والأوردة المنتفخة من على عنقها:

ـ هل لقيا حتفهما؟ هل لقيا حتفهما؟

حاول مسؤولو إغاثة الهزّات الأرضيّة أن يكبحوا جماح الأطفال الذين تجمهروا من حول الضحيّتين مثل دجاج يهرع للطعام، وعدّل أحد أصحاب الشوارب المتهدِّلة المحفّة بعناية، ليشاهدا زوجين من العيون مفتوحين على سعتهما، مثل طبقين، زوج ملؤه الخوف وزوج ملؤه الألم.

سأل محمّد عندما أفلح أخيرًا في الكلام:

ـ هل ثمّة بصاق على وجهي؟

حدَّق الموظّف ممتقع الوجه ومنشغل البال إلى وجه الطفل تحديقة مشتّتة، أقرب إلى الحلم، وهزّ رأسه. في تلك اللحظة، شعر محمّد بالحيويّة والنشاط يتدفّقان من أعماقه. لقد كانت خدعة إذن! وعندما تمّ حلّ الحبال والدثار الكريه الرائحة، جلس على المحفّة بكلّ فخر واعتزاز. وبينما نُقل الفتى البنجريّ الوجه إلى المستشفى وهو على المحفّة نفسها، إذْ كانت ساقه كُسرت، راح محمّد يستمتع بمذاق الشجاعة العذب أوّل مرّة في حياته.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٣
مصفّفا الشعر جمال وجلال

ـ آه، إنّني أتحرّق لمعرفة الرجل الذي كتب كلمات الوليّ على السور! هل تراه يحاول أن يضلّلنا أم تراه فقد عقله؟ آه لو عرفت! أقسم بالله، إنّني لا أستطيع الانتظار حتى أرى ما الذي سيحدث من بعد ذلك. في الليلة الفائتة، لم تظهر للعيان صديقتي الطيّبة «البرغل». كنت أنتظرها، وأعتقد أنّني أصبحت معتادًا على قذفها الزبالة في أفواهنا، وسوف أشتاق إليها إذا لم تأت بعد اليوم. إنّني أسأل نفسي إن كانت قد أخذت هذه الكتابة المدوَّنة على السور على محمل الجدّ. هذا ليس بالشيء المستحيل. فهذه البلاد هي تركيا! وانتهى الغرب من استكشاف القمر منذ زمن طويل، وهو الآن يقسِّم المرِّيخ إلى أجزاء صغيرة، وسرعان ما سوف يستنسخ البشر. لكن ماذا عنّا نحن؟ ما الذي كنّا نفعله أثناء ذلك؟ العثور على الأولياء الصالحين في الأفنية الخلفيّة! بارك الله به، لكن هل هو وليّ من الأولياء أم زهرة من الزهور نبتت من تحت التربة؟ وبعد ذلك، ترانا نطرح الأسئلة من دون طائل عن سبب امتناع الاتّحاد الأوروبي على انضمامنا له! ما السبب الذي يجعلهم يريدوننا؟! إنّ الأوروبيين لن

Twitter: @ketab_n

يطلبوا منّا الانضمام إليهم إلّا عندما يقلّ عدد الأولياء لديهم.

انسابت بضع قهقهات واهية من بعد ذلك، إلّا أنّ جمال لم يبدُ عليه أنّ إهانة لحقت به بمثل هذا التأييد البسيط من جمهوره.

ـ أقسم بالله، لن أُفاجأ إذا ما عقدنا في يوم من الأيّام اجتماعًا طارئًا في قصر الحلوى: اجتماعًا طارئًا، وعلى رأس جدول أعماله «موضوع الولي الصالح»، في منزل مدير مبنانا السيِّد حاجّي حاجّي! لماذا لا ترشّ قليلاً من معطّر الجوّ يا بني؟

كانت رائحة معطِّر الجوّ القاتل الذي يقضي على البقّ، والذي استعمل في الليلة الفائتة في كلّ أنحاء المكان، ما تزال منتشرة. وفي الصباح، شاهدوا عشرات البقّ النافق على الأرضيّة، فجرى تنظيف المكان ورمي البقّ في سلّة الزبالة، قبل أن تأتي أوّل زبونة إلى دار التجميل.

عبّر جمال عن رؤيته بعد أن أفرغ السلّة الخيزرانيّة من لفائف الشعر، وقلبها رأسًا على عقب:

ـ إذًا نحن هنا في شقّة السيِّد حاجّي حاجّي، بعد أن اتّخذنا مجلسنا من حول الطاولة جنبًا لجنب. كلّنا هنا، لطيفون وأنيقون وجاهزون للعمل. أقول لكم، حتى هايجين تايجين تمكّنت من الخروج من ملاذها وتربّعت على زاوية كرسيّ، وعلى استعداد للانفجار في أيّ لحظة.

أمسك جمال علبة مثبّت الشعر ذات الحافة الذهبيّة اللون، ووضعها منتصبةً من فوق السلّة.

ـ وها هو الطالب المفلس الساكن في الشقّة تحت الأرضيّة، وبجانبه كلبه الضخم. إنّهما لا يهتمّان بالوليّ، بل إنّ حضورهما يتمثّل في ملء معدتيهما مجّانًا.

Twitter: @ketab_n

حشر مشطًا رفيع الأسنان في ثقب في السلّة ووضع بجانبه لفافة شعر، ليمثّل بذلك غابا، وكانت قطعة مثلومة وجزريّة الشكل.

تساءلت الشقراء الحولاء، التي كانت تأتي مرّة واحدة في الأسبوع لصبغ شعرها، ولم تكن مقتنعة أبدًا بضرورة صبغه مرارًا:

ـ آه، ما الذي سيقدَّم لنا؟

وراحت تتفحَّص السلَّة الخيزرانيّة بفضول، وكأنّها تنتظر طفلاً بحجم الإبهام ليقفز من فوقها ويسلِّيها.

قال جمال في حدّة:

ـ يبدو أنّ الأمور اختلطت عليكِ، فظننت الاجتماع حفلة تناول شاي يا عزيزتي.

قالت العشيقة الزرقاء محتجّة من مكانها الذي تجلس فيه في الزاوية:

ـ لكنْ، إذا كنت تلفّق قصّة، فإنّنا نرغب في سماع التفاصيل أيضًا.

قال جمال بصوت هادر، يساوره شعور بعدم ضرورة إخفاء اغتباطه في نجاحه بجذب اهتمام العشيقة الزرقاء:

ـ حسنًا، حسنًا. ليكن كذلك. لقد أعدَّت لنا كنَّة السيِّد حاجّي حاجّي البورك المحشو بالسبانخ، وسيقدِّمونه لنا مع سماور من الشاي. فهل أنتم راضون الآن؟

أومأت النساء برؤوسهنّ ضاحكات:

ـ نعم، نعم.

لكن ما إن أبدين موافقتهنّ حتى صدر اعتراض:

ـ لا، ليس حسنًا.

كان ذلك صوت الموظَّفة في المحكمة الجنائيّة، التي كان الكلّ ينظر إليها على أنّها أكثر نساء الحيّ علمًا، وتحصل على المال من كتابة

Twitter: @ketab_n

أبرز الملامح الإجراميّة لأشدّ الخصوصيّات في حياة الناس؛ وكانت تأتي مرّة واحدة في الشهر لصبغ شعرها باللون الكستنائيّ الغامق. وعندما تأكّدت من أنّها باتت مركز الاهتمام، اتّكأت إلى الخلف، وراحت تقرأ الحيثيّات باستخفاف واحتقار:

ـ فالكنّة تعمل في شبّاك قطع التذاكر في دار السينما من الصباح الباكر حتى وقت متأخّر من المساء، ولمدّة خمسة أيّام في الأسبوع. بهذا لا تملك الوقت لصنع المعجّنات، وحتى لو كان لديها وقت كافٍ، فاسمحوا لي أن أؤكّد لكم بأنّها لن تفعل ذلك. لا بدّ أنّ تلك المرأة تميل إلى آثامها أكثر ممّا تميل إلى حميِّها، بل لا تمدّ له يد العون أبدًا.

عبس جمال لدى سماعه هذه الزبونة التي تعلم الشيء الكثير:

ـ إذا كان الأمر كذلك، ليس ثمّة معجّنات على الطاولة. شاي حارّ ولذيذ لا أكثر. ما رأيكنّ؟ هل يمكنني أن أمضي الآن في موضوعي الرئيس؟

قالت العشيقة الزرقاء بابتسامتها الأنيقة، مصمِّمة على الضغط على حدود إعجاب جمال بها:

ـ لكنْ، لا معنى لذلك. ثم إنّ ذلك سيتمخّض عن خطأ منطقيّ في الرواية. لقد زعمت أنّ الطالب الساكن في الشقّة تحت الأرضيّة وكلبه الضخم، جاءا لملء بطنيهما. لهذا عليك أن تطردهما الآن.

حدّق جمال غاضبًا إلى لفافة الشعر المثلومة والجزريّة الشكل والمشط بأسنانه الرفيعة والطويلة، وكأنّه يريد أن يقرّر مصيرهما. فقال متلعثمًا، وهو يغمز للعشيقة الزرقاء:

ـ حسنًا، إنّني أستسلم!

ثم هرع إلى المطبخ، وعاد حاملاً نصف قطعة سميط كان قد

Twitter: @ketab_n

اشتراها في الصباح، ووضعها فوق سلّة لفافة الشعر.

ـ لقد أحضر مديرنا المحترم السيِّد حاجّي حاجّي لاجتماعنا الخاصّ هذا علبة لكلّ فرد من علب الحلوى بالجبن المالح من محلّ المعجّنات. كما أنّه صفّ أصابع السمسم في أطباق بيضويّة. هل في هذا ما يكفي لبثّ السرور؟ والآن، هل أنتنّ راضيات؟

قالت النسوة ضاحكات:

ـ نعم، نعم.

ثم رمقت إحداهنّ الأخرى بنظراتها، قبل أن ينظرن إلى موظَّفة المحكمة الجنائيّة لإبداء الموافقة الأخيرة.

قالت المرأة، وهي ترفع من حاجبها الرفيع جدًّا:

ـ صراحة، أنا لن أصدِّق أبدًا، في هذه الحياة، أنّ الرجل الكريه سيذهب كلّ هذا المذهب في الإنفاق! لكن، لنفترض أنّه سيذهب، من أجل القصّة.

بعد أن حصل جمال على إذن كامل، دخل اللعبة متحمِّسًا وعمد إلى ترتيب بقيّة الجيران: كانت عبوة رغوة الشعر الكبيرة الحجم الخالية من الموادّ الكحوليّة والمحتوية على ڤيتامين بي المغذّي هو البروفسور الجامعي الساكن في الشقّة رقم ٧. وكان مجفِّف الشعر هو السيِّدة العمّة من الشقّة رقم ١٠، ومجعّد الشعر الكهربائيّ ربّة البيت الروسيّة في الشقّة رقم ٦، وفرشاة التلوين والمقصّ الزوج والزوجة اللذين يتزعّمان أسرة أبناء الطبع الناري في الجهة المقابلة، وكانت أداة برد الأظافر ابنتهما الشابّة القانطة.

بعد توقّف قصير، رأى جمال أنّ الفرشاة ذات المقبض العظمي مناسبة لمدير العمارة. وأخيرًا، أحضر العبوة الشفّافة المتألِّقة المحتوية على جِلْ أزرق لامع بداخلها. وقال متودِّدًا:

ـ وهذه هي السيِّدة الشابّة الأنيقة الساكنة في الشقّة رقم ٩.

Twitter: @ketab_n

في الوقت الذي ردّت العشيقة الزرقاء على هذا الإطراء بابتسامة هادئة، تململت بقيّة النساء في أماكنهنّ تململاً ينطوي على ضيق.

ـ آه، لا ينبغي لي أن أنسى أين أضع نفسي وجلال. لا بدّ أن نكون متشابهين.

التقط جمال من على الرفّ كيسين صغيرين من بين مجموعة الموادّ الخاصّة بالعناية بالشعر، يحتويان على ڤيتامينات متنوِّعة لإصلاح الشعر بالكيراتين، ووضعهما جنبًا لجنب.

ـ نعم، هكذا رتَّبنا الأشياء تمامًا. إنّ السيِّد حاجّي سيوضح سبب عقدنا هذا الاجتماع الخاصّ.

ثم أمسك بالفرشاة ذات المقبض العظميّ، وسعل سعالاً مصطنعًا لإسكات جمهوره.

ـ دعوني أخبركم، إذا كنتم لم تتنبّهوا حتى الآن، بأنّه عُثر على قبر من قبور الأولياء في حديقتنا. وفي ضوء هذه الحالة، ينبغي لنا أن نعدَّ ترتيبات جديدة منذ الآن.

قال أحد مصلِّحي الشعر بالڤيتامينات المتعدِّدة والكيراتين:

ـ هم.. م.. م. لكن هل يمكن لوليّ صالح أن ينبت في الأرض مثل وردة؟

استدار جمال إلى زبائنه، وقال من فوق منكبه هامسًا:

ـ هذا أنا!

قالت النساء بصوت واحد:

ـ نعم، لقد خمَّنّا ذلك.

قالت الفرشاة ذات المقبض العظميّ:

ـ أنتم، كأفراد، أحرار في ما تعتقدون أو لا تعتقدون. ونحن غير مضطرِّين إلى إقناعكنّ أيضًا بوجود الأولياء. لكنْ، إن أردتم أن

Twitter: @ketab_n

تزدهر الديموقراطيّة في هذا البلد، فلا مناصّ أمامكم من إظهار قدر من الاحترام لمعتقدات الآخرين. فإذا كنّا كلّنا نؤمن بالفكرة نفسها عن هذا الموضوع، فثمّة قضايا على جدول الأعمال ينبغي وضع حدٍّ لها من دون ضجّة أخرى. القضيّة الأولى على جدول أعمالنا، تتمثّل بالسؤال الآتي: من الوليّ الصالح الراقد في حديقتنا؟ لا يمكن وصفه على هذا النحو والانتهاء من الموضوع. فكلّ وليّ يساعد قسمًا معيّنًا من الناس في بلدنا. فالبعض منهم أولياء البحّارة في البحر، والبعض الآخر يهتمّ بالجنود على الأرض. عدد من الأولياء يعملون على شفاء النساء اللواتي لا يستطعن الحمل، وعدد آخر منهم يساعد المجذومين. لا مناصّ من أن يذهب المرء دومًا إلى وليّ معنيّ أساسًا بمشكلته الخاصّة به. فإذا ما زارت خادمة عجوز خطأً وليّ من هو طريح الفراش، فإنَّ أقصى ما يمكنها الحصول عليه هو وثبة أو قفزة إضافيّة.

قالت موظّفة المحكمة الجنائيّة رافعةً من حاجبها:

ـ ينبغي للمرء أن يُدوِّن كلّ هذا في دفتر محاضر الجلسات.

قال جمال:

ـ لا بأس.

وبعد تفكّرٍ قليل، عيَّن أداة برد الأظافر لأداء المهمّة، قال مضيفًا:

ـ سجِّلي هذا: الموضوع الأوّل على جدول الأعمال هو العثور على والد هذا الوليّ الشريف.

اعترضت العشيقة الزرقاء:

ـ كيف لنا أن نعرف ذلك، ربّما كان الوليّ امرأة!

زمجرت الفرشاة ذات المقبض العظميّ:

ـ كلام فارغ.

Twitter: @ketab_n

سألت العشيقة الزرقاء في عناد، من دون أن تشيح ببصرها عن عبوة الجل التي تمثّلها:

ـ لماذا؟ ألا يمكن للمرأة أن تكون وليًّا؟

بما أنّ دورها كان قد حان للكلام، فقد ألقت خطبة في ذلك الوقت وذلك المكان:

ـ لقد ظهر عدد كبير من الأشخاص الورعين من بين النساء، ولنذكر على سبيل المثال عائشة وفاطمة صاحبتيْ المقامين الرفيعين. ثم هناك رابعة العدويّة، والأمّ خديجة صاحبة الشأن المعروف، وكذلك كاريا غدي خاتون وخمه خاتون والدة السلطان محمّد الفاتح، ومولاتنا الأمّ مؤمنة خاتون مثال آخر... ناهيك عن «البنات السبع».

التفتت النساء المصطفّات أمام المرآة ناحية العشيقةِ الزرقاء في دهشة وذهول. فهي تملك من المعلومات في الشؤون الدينيّة بأكثر ممّا ينبغي، وتلك صفة لا تتلاءم وطبيعتها بوصفها عشيقة! وبدا جمال أكثر الحاضرين إعجابًا، ففغر فاه أمامها متعجّبًا، كأنّ المحظيّة جاناياكن التي لا تضاهيها محظيّة أخرى، والتي أثارت دهشة كلّ شخص في حضرة الخليفة هارون الرشيد لا بحسنها وجمالها فحسب، بل وفي حكمتها، وقد ولدت مجدّدًا في قصر الحلوى ـ من دون كلّ الأماكن الأخرى في اسطنبول سنة ٢٠٠٢.

قالت الفرشاة ذات المقبض العظميّ لأداة برد الأظافر:

ـ لنكتب هذا أيضًا أيّتها الآنسة. إنّ أوّل موضوع في جدول أعمالنا هو العثور على والد هذا الوليّ أو والدته. ولأجل الشروع بالبحث الضروريّ، نأمل من بروفسورنا الجامعيّ الكريم ألّا يبخل بمساعدته لنا.

تململت عبوة رغوة الشعر الخالية من الكحول، الكبيرة الحجم،

Twitter: @ketab_n

الحاوية على ڤتيامين بي المغذِّي، وبدت سعيدة بالمهمّة الملقاة على عاتقها.

ـ والآن، لننتقل إلى الموضوع الثاني في جدول الأعمال، سيِّداتي سادتي. بما أنّ ثمّة وليًّا في حديقتنا، فينبغي لنا أن نضفي حرصًا أكبر على تصرُّفاتنا اليوميّة. وبإزاء هذا الهدف الذي يشغل ذهني، فقد أعددت بنفسي قائمة، قائمة بالأشياء التي يتحتَّم علينا الامتناع عن القيام بها. أستميحكم عذرًا، وسأقرأ بصوت عالٍ:

المادّة الأولى: يُمنع على النزلاء السير في اتّجاه الوليّ ليلاً. ولا بدّ من تحويل هذه المناطق ذات الممشى المواجه للحديقة بأسرع وقت.

المادّة الثانية: يُمنع على النزلاء السير عراة في شققهم.

المادّة الثالثة: يُمنع من الآن فصاعدًا نشر السجّاد والبسط المحتاجة إلى الضرب خارج النوافذ المواجهة للحديقة، كما يمنع رمي أيّ شيء من تلك النوافذ أيضًا.

احتجّت عبوة مثبِّت الشعر ذات الحافّة الذهبيّة اللون:

ـ كيف يمكن ذلك؟

فوبّختها الفرشاة ذات المقبض العظميّ:

ـ أرجوك عدم المقاطعة.

المادّة الرابعة: من الآن فصاعدًا، يُمنع نشر الثياب كي تجفّ من النوافذ المواجهة للحديقة.

المادّة الخامسة: من الآن فصاعدًا، يُمنع قصّ الشعر ضمن حدود هذا المبنى.

قالت واحدة من عبوتيْ إصلاح الشعر بالكرياتين الحاوية على ڤيتامينات متنوّعة:

ـ لكنْ أرجو أن تنظر إلينا بعين العطف يا سيِّدي، فإذا لم نقصّ الشعر،

Twitter: @ketab_n

فسوف نتضوّر جوعًا. هذا رزقنا.

فهمس جلال بملاحظة أخرى غامزًا لزبوناته:

ـ كان ذلك جلال.

فأنشدت النساء في صوت واحد:

ـ هذا ما خمَّنَّاه.

ـ هذا غير ممكن. تذكّر أنّ شقّتك هي الوحيدة من بين كلّ شقق المبنى، التي هي الأقرب إلى قبر الوليّ الصالح. وعلى هذا الأساس، فإنَّ أقصى درجات الاحترام والتوقير تقع على عاتقك. ولهذا، لا يمكنك بعد الآن فتح النوافذ لغناء أغاني شعبيّة، أو تنفض الشعر أو تقلّم الأظافر، مثلما لا يمكنك قصّ الشعر أو حفّ الحواجب وأنت تنظر إلى مرقد الوليّ. فإذا لم تجد القدرة على الامتثال للقواعد، فاذهب وافتح لك دار تجميل في مكان آخر.

المادّة السادسة: من الآن فصاعدًا، يُمنع إدخال لحوم الحيوانات وشعرها وريشها وما أشبه، كالجياد والحمير إلى هذه العمارة السكنيّة... وهذا ينطبق على الكلاب أيضًا...

قال المشط ذو الأسنان الرفيعة من غير تبصُّر، وهو من أعلى سلّة لفافات الشعر:

ـ هل يمكنني أن أسأل عن سبب ذلك؟

قالت الفرشاة ذات المقبض العظميّ مقاطعة في حدّة:

ـ إنّه السبب نفسه الذي دفع بدِيننا إلى جعل الكلاب مكروهة ومستقبحة.

حدّق جمال إلى العشيقة الزرقاء متوسِّمًا العون، عندما أدرك أنّ هذه النقطة لا يملك عنها أيّ معلومات لتأييد زعمه. فتكلّمت معبِّرة عن رأيها، وكأنّها كانت تنتظر الفرصة حتى تسنح لها:

Twitter: @ketab_n

ـ أنظرن إلى سورة الأعراف[1] في القرآن: «كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث». يُضاف إلى ذلك، لا تنسوا أنّ مولانا أيضًا يسمِّي جشع الإنسان جشعًا كلبيًّا.

صاح المشط ذو الأسنان الرفيعة:

ـ هذه الأشياء لا تنطبق على كلبي. فغابا ليس تركيًّا، بل هو سويسري!

رنت النساء المصطفّات أمام المرآة إلى لفّافة الشعر المثلومة والجزريّة الشكل في عطف.

قالت العشيقة الزرقاء مستعطفة:

ـ لكنْ، كما تعلم يا سيِّد حاجّي حاجّي، فإنَّ النائمين السبعة في الجنّة كان لديهم كلب[2] أيضًا.

قالت الفرشاة ذات المقبض العظميّ مستسلمة:

ـ حسنًا، حسنًا، لكن من الآن فصاعدًا، يجب أن يستحمّ ذلك الكلب يوميًّا، وألَّا يكون مُصابًا بقملة واحدة. يمنع القمل في الشقّة! ناهيكم عن القول: يمنع البرغوث أيضًا. كما يتحتّم علينا أن نتخلَّص من هذا البقّ أيضًا. وسوف تطهّر بالتدخين كلّ الشقق، من الأعلى إلى الأسفل.

المادّة السابعة: من الآن فصاعدًا، يُمنع دخول الشحّاذين والباعة الجائلين وباعة الملابس وباعة المعجّنات وما شابه إلى العمارة السكنيّة.

قال الزوج والزوجة المؤلّفان من فرشاة التلوين والمقصّ:

ـ حسنٌ جدًّا يا سيِّدي.

---

(١) سورة الأعراف (١٧٦ : ٧)، (المترجم).

(٢) إشارة إلى أهل الكهف: «ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم» (سورة الكهف ١٨ : الآية: ٢٢)، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ـ وأخيرًا وليس آخرًا...

المادّة الثامنة: من الآن فصاعدًا، تُرفع الزبالة من قصر الحلوى بانتظام. وسوف ترسم دائرة قطرها ثلاثون مترًا من حول مرقد الوليّ الصالح، ويُمنع منعًا باتًّا رمي ذرّة واحدة من الزبالة فيها. وسوف يحظى باهتمام بالغ موضوع المحافظة على نظافة المبنى الذي سيكون محيطه في غاية الترتيب والأناقة، وأنّ كلّ ما يتوجَّب عمله للتخلُّص من هذه الرائحة التي تعمّ أرجاء قصر الحلوى، سينفّذ حالاً. لقد بقينا حتى الآن مختنقين بهذه الرائحة البغيضة. دعونا نضمن عدم شعور الوليّ الصالح بالمعاناة مثلما عانينا.

على حين بغتة، أدرك جمال أنّه نسي أن يدرج مريم في هذه الأمور. فما كان منه إلّا أن وضع لفافة رموش الشعر على السلّة. ولكن في الوقت الذي كاد أن يجعلها تتكلّم، وتعبِّر عن رأيها، انطلق صوت يصمّ الآذان من مكان خلفيّ. فسقط مجفّف الشعر من بين يديْ جلال الذي كشف وجهه عن مدى استمتاعه باللعبة المتواصلة. وعندما رنت إليه كلّ العيون، تورّد وجهه حرجًا. فأسرع إلى الباب متلعثمًا من دون أن يرفع مجفّف الشعر عن الأرض.

ـ سوف أخرج. أنا بحاجة إلى بعض الهواء النقيّ!

قالت الشقراء الحولاء بعد أن أُغلق الباب من وراء جلال:

ـ مع كلّ احترامي لك يا جمال، ربّما لا يوجد توأمان بمزاجين متباينين مثلكما أنتما الاثنين. آه لو كان لديكما شيء واحد مشترك!

في الوقت الذي خيَّم انزعاج يثير الكدر، وكأنّه رذاذ مطر، على دار التجميل، انقلب مؤدّو الأدوار من حول السلّة إلى موادّ جامدة كما كانوا.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٧

أنا والعشيقة الزرقاء

إنّني متأكّد من أنّني لم أكن أتوقّع مجيء العشيقة الزرقاء. وتبيَّن لي أنّها رشَّت قاتل البقّ في جميع أرجاء المنزل، فسألتني إن كان في وسعها أن تبقى في شقَّتي حتى تزول الرائحة. فقلت لها إنّني شديد الامتنان للبقّ، فضحكت، وتحوَّلت ابتسامتها العريضة إلى أخرى ساخرة عندما شاهدت طبق الجبنة الكبير وسمك السلمون المدخَّن على الطاولة في داخل الشقّة.

قلت لها:

ـ لقد أصابتني ثروة. فقد جاءتني مريم في هذا الصباح، وكانت المرأة الساكنة في الشقّة رقم ٩ قد أرسلتها مبعوثة إليَّ، تطلب منِّي أن أُلقي دروس اللغة الإنكليزيّة على ابنتها. في البدء، لم أكن مهتمًّا بالموضوع، إذْ كانت آخر مرّة أُلقي فيها مثل هذه الدروس عندما كنت طالبًا بدوري، بيد أنّني لسبب من الأسباب أجهله تمامًا، عرضت المرأة أجرًا عاليًا عن كلّ ساعة.

ـ لعلّها تكره فكرة خروج ابنتها من العمارة السكنيّة.

ـ مهما كان السبب، سوف أبدأ بإلقاء الدروس في بيتهم.

Twitter: @ketab_n

ـ ربّما كانت تفضّل أن يكون المعلّم من داخل المبنى.

انفرجت أساريرها قبل أن تلتهم قطعة كبيرة من الجبنة، واسترسلت قائلة:

ـ أو لعلّها هامت بك هي الأخرى، مثلما همت أنا بك!

ابتسمت، فلاحت الندبة على خدّها الأيسر أكثر وضوحًا. يروقني كثيرًا أن ألمس تلك الندبة. جذبت يدها ببطء، وأخذتها إلى الداخل. يروقني المذاق الذي يتركه لسانها على لساني.

غمغمت، وهي تمسك بأصابعي التي كانت تمسّد خدَّها، وجذبتها إلى شفتيها:

ـ أتدري أنّ جدّي هو الذي ربّاني؟

أشعلت سيكارة واتّكأت إلى الخلف. طالما كنت أستمتع بحديث الوسادة. وبفضل العشيقة الزرقاء، شرعت بعد كلّ ذلك الوقت بالنوم مجدّدًا في السرير الذي كان كبيرًا أكثر ممّا ينبغي عليَّ.

ـ كان شخصًا ذكيًّا ومهذَّبًا. أمّا أبي وأمّي، فلم ينسجما في حياتهما قطّ، وكانت المشاجرات تنشب بينهما على الدوام في البيت، وحصل الطلاق بينهما وأنا في سنّ الرابعة. وفي غضون عام واحد، تزوَّج كلٌّ منهما مجدَّدًا. ثم قال جدّي لأمّي: «اسمحي لي أن أربّي هذه الطفلة المسكينة. أمّا أنتِ، فابدأي بتأسيس بيتك وتعالي لمشاهدة ابنتك كلّما أردت». فقبلت أمّي، وكم كنت سعيدة لأنّها قبلت. أحببت جدّي حبًّا جمًّا، ولو لم توافه المنيّة وهو في مقتبل العمر، لكنت في مكان آخر الآن، مختلف الاختلاف كلّه. على أيّ حال، وبعد وفاة جدّي، بقيت وحدي رفقة جدّتي. أحببتها هي الأخرى، ولكن ليس مثل حبّي لجدّي. فعدت إلى بيت أمّي. كان الكلّ يسخر من السيّدة تايجين بسبب عدم قدرتها على الخروج من

Twitter: @ketab_n

منزلها، إلَّا أنّني لم أخرج من المنزل بدوري وأنا صغيرة السنّ، لم أخرج منه على مدى سنتين طويلتين. أتصدّق ذلك، ولم يكن السبب هو مرض النظافة أو ما أشبّهه. صراحةً، أنا شخصيًّا لم أعرف السبب في عدم استطاعتي الخروج من المنزل. كنت لا أستطيع أن أخطو إلى الشارع خطوة واحدة، ناهيك عن الذهاب إلى المدرسة. ولم أكن غير محبّة لمعرفة العالم الخارجي من حولي، بل أخمِّن أنّني كنت مغرمة في معرفة مكان من نمط آخر. بذلت أمِّي وزوجها كلّ ما في وسعهما من أجل تشجيعي على الخروج. غريب، صحيح؟ الحقّ، أنّ صغار السنّ يشعرون عادة أنّهم محدودو الحركة بسبب ضغوط والديهم. أمّا في منزلنا، فكان الوضع على العكس من ذلك. على أيّ حال، في صباح يوم من الأيّام، وكنّا متحلِّقين من حول مائدة الفطور، عندما كانت أمِّي وزوجها يتحدَّثان عن كيفيّة دفع أجور الهاتف، وسمعت نفسي وأنا أقول: «أعطني القائمة وسوف أسدِّدها». فاتّسعت عيونهما دهشة، وأخذت القائمة ورميت بنفسي في الشارع. كان قد مضى زمن طويل منذ أن خرجت من المنزل آخر مرّة. ثمّة صفّ طويل. فلبثت أنتظر وأنتظر، وأخيرًا لم يبق أمامي سوى بضعة أشخاص. في تلك اللحظة، شاهدته أوّل مرّة. كان هو الموظَّف المسؤول عن تسلُّم القوائم من وراء زجاج. ولم يكن وسيمًا بهيَّ الطلعة مثلك، لكنَّ عينيه كانتا لا مثيل لهما. هل يمكن لبؤبؤيْ امرئٍ ما أن يكونا بمسحة أرجوانيّة؟ هكذا كانت عيناه. وعندما حان دوري في نهاية المطاف، طلب منِّي القائمة، فأخرجتها له، ثم ناولني بقيّة المبلغ، وختم القائمة ورمقني بنظرة اهتمام كأنّه يريد أن يخترقني بعينيه. فشعرت بقشعريرة تسري في أوصالي، وقال لي: «طاب يومك». لم أستطع أن أتفوَّه بكلمة واحدة. عدت إلى الدار وأنا في تلك الحالة. وفي صباح اليوم التالي، خرجت من

Twitter: @ketab_n

المنزل مسرعة، وذهبت مباشرة إلى دائرة البريد. ثمّة صفّ من الناس الواقفين حتى في تلك الساعة المبكرة. ولمّا حان دوري، أمسكت القائمة التي كنت قد سدّدتها وأنا مروَّعة ترويعًا شديدًا. رشقني بنظرة تنمّ عن ذهوله، كما سرحت بنظري إلى عينيه لأتأكّد إن كانت عيناه أرجوانيّتين، فرأيتهما كذلك حقًّا. وراح الناس الواقفين من ورائي يبدون تذمُّرهم، وصعب عليه كثيرًا إخفاء سروره.

لم أستطع منع نفسي من التفكير في آيشين، لأنّها لا يمكنها أن تغرم طول حياتها برجل ما لأنّ في بؤبؤيه مسحة أرجوانيّة اللون. إنّ حبّ آيشين أشبه بإدارة البيروقراطيّة. فهي تبعث بمراسلاتها وتحسب الحسابات وتدوّن البيانات وتطرح النفقات من الداخل، فتحفظ بذلك بملفّ ضخم. ولا تنسى شجارًا، كما أنّها لا تتّصف بعدم النسيان فحسب، وإنّما تتأكّد من عدم النسيان أيضًا. ولو كنّا متزوّجين، لتساءلت برهة وجيزة إن كانت العشيقة الزرقاء تشبهها. غير محتمل. فثمّة مظهر مشاكس إلى حدٍّ كبير، يشبه مظهر الحيوان، في أسلوب حياتها. لكنَّها في الثانية والعشرين، ومن شأنها أن تتغيّر. ربّما ستتحوّل بسرعة إلى نسخة من آيشين بعد زواجها مباشرة.

سألتها:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ ما حدث بعد ذلك عديم القيمة. فقد خرجنا معًا، وجنَّ جنون أمّي، ولكن من يصغي لها؟ الحقّ أنّني لا أعرف إن كنت قد أحببته أم لا، ولكن، لا بدّ أنّني كنت متيّمة به إلى أبعد الحدود. أراد أن نتزوّج مباشرة، ولكن على الرّغم من أنّني لم أكن أريد أن أتزوَّج، فإنّني أخمّن بأنّني كنت أفتقر إلى الشجاعة لرفض الزواج، كبسولة الحيّ المتمرِّغة في القيل والقال: كيف يمكنك الامتناع عن الزواج برجل تواعدينه؟ على أيّ حال، تمّت الخطوبة، وعندئذٍ بدأ يتغيّر، حتى

Twitter: @ketab_n

أصبح شخصًا مختلفًا تمامًا. كان إنسانًا تعيسًا ومكتئبًا، وكنت أنا أيضًا تعيسة ومكتئبة أيضًا، على الأكثر، إلّا أنّ يأسي وقنوطي كانا موجّهين إلى نفسي، في حين أنّ تعاسته كانت موجّهة إلى كلّ فرد وكلّ شيء باستثناء نفسه... لكنَّه لم يكن ماكرًا أو خبيثًا... تلك هي المشكلة في كلّ الأحوال. فهو لم يكن مخادعًا، ولكنَّه كان يتوق ليصبح كذلك. ولم يعد يخاطبني بكلمة واحدة تبعث على السرور في نفسي. كان دائم التذمُّر من دائرة البريد ومن مديريها ومن القوائم المترتّبة الدفع. ومع هذا، فلم يكن ذلك هو السبب في انفصالنا.

تقوّست شفتاها عن ابتسامة تنمُّ عن توتُّر أعصابها، وأضافت:

ـ أتدري؟ الحقّ أنّ جوادًا هو الذي تسبّب في انفصالنا.

عندما رأت الاضطراب باديًا على وجهي ضحكت ضحكة أخرى، وكانت تدلّ على شدّة توتّر أعصابها هذه المرّة.

ـ في يوم من الأيّام، كنّا نتمشّى معًا، فشاهدت جوادًا وعربة. قد تجد هذا الأمر سخيفًا، ولكنّني سأخبرك بما حدث في كلّ الأحوال. أتدري؟ كان جدّي رجلاً مدهشًا، استثنائيًّا بكلّ ما في الكلمة من معنًى، وكان يقول لي: إذا لم تتمكّني من الموت قبل الموت نفسه، فالحياة التي تعيشين والموت الذي تموتين لن يكونا سوى التزام. لم يكن يهمّه أبدًا أمر الحوريّات في الجنَّة ولا نار جهنّم. وكان من عادته أن يسلِّم على كلّ حيوان يصادفه في طريقه، زاعمًا: «ربّما كان ذلك صديقًا قديمًا من أصدقائك، ومن غير اللائق أبدًا عدم التسليم عليه. عندما يرحل المرء عن هذه الحياة، فإنّه لا يفارق في حقيقة الأمر، وإنّما يرجع إلى الأرض، إنسانًا أحيانًا، وحيوانًا أحيانًا أخرى. في كلّ مرّة نتّخذ فيها شكلاً مختلفًا، سواء أكان شكل حمار أو بطّة أو فراشة أو ضفدعة، فذلك يعتمد على المصادفة. ما من سبب يدفعك إلى الإحساس بالمرارة...» وللحيلولة من دون هذا

Twitter: @ketab_n

الامتعاض، فإنَّ ذكرياتنا، وليست أرواحنا، ستموت على الموت، وذلك لكي لا نقدر على معرفة آثار كلّ المخلوقات التي كنّا عليها سابقًا. أتدري أنّ أروع الحوادث التي ترجع إلى أيّام جدّي هي تلك التي كنت أنا وهو نطوف في الشوارع، ونسلِّم فيها على كلّ حيوان نصادفه في طريقنا. كنّا نطلق التحيّات على القطط والكلاب والعصافير والحمير والصراصير. وكان جدّي يهتف بي: «تشرَّفنا يا صديقي العزيز» وكنت أقلِّده: «تشرّفنا يا صديقي». يا لها من تسلية!»

داعبت في حيطة وحذر استدارة بطنها المتوارية الآن من تحت الملاءة الملفوفة على جسدها بإحكام.

ـ على أيّ حال، عندما رأيت ذلك الجواد في الشارع، ألقيت عليه التحيّة من دون وعي. وعندما شاهدني أكلِّم الجواد، راح الأمير الأرجوانيّ يسخر منّي... سخر منِّي سخرية رهيبة، جرحت مشاعري إلى أبعد الحدود... واستمرّ في سخريّته. في الأيّام التالية، وكلّما شاهد حمارًا في الطريق، كان يقول هازئًا: «هيّا، اركضي وقبِّلي يد جدّك!» وعندئذٍ، صدمتني حقيقة مرّة، وهي أنّني لم أحبّ الأمير الأرجوانيّ! فالأشياء القليلة التي كنت أستمتع بها لم تكن تثير اهتمامه، وسألت نفسي: «كيف سأمضي بقيّة حياتي معه إذن»؟ وعندما سمع بقراري الانفصال عنه، رفض أن يصدِّق ويحمله محمل الجدّ. وقال وهو يتكلّف الابتسام: «آه، أنت في غاية الحساسيّة». وظنّ أنّ مزاجي سوف يتغيّر بعد أيّام قليلة، ولمّا رأى أنّه لم يتغيّر، كان استبداده يمثِّل الخطوة التالية. وراح يهدّدني. وفي ليلة من الليالي، كنّا نتناول طعام العشاء في المنزل، فجاء إلى الباب تفوح منه رائحة السكر، وراح يشتم زوج أمّي، ثم أمسك بذراعي وجذبني إلى الخارج. كانت رائحة الكحول تنبعث منه شديدة، كريهة.. ولاح كأنّه قد سقط في زجاجة الخمرة. وقال لي بالحرف الواحد: «هه!

Twitter: @ketab_n

انظري إليّ. إذا ما تخلّيت عنّي، فسوف أشوّه وجهك». فقلت له مجيبة: «لا تشغل بالك، فسوف أشوّه وجهي بنفسي». أعرف أنّك لا تصدِّقني، فأنا لا أستطيع أن أصدِّق نفسي. لا أدري ما الذي دفعني إلى الكلام على ذلك النحو، ولا السبب الذي جعلني أفعل ما فعلت. كنت يومئذٍ في سنّ السابعة عشرة، إلَّا أنّني كنت أفعل أشياء في نفسي من وقت لآخر كلّما كنت متألِّمة. . . كنت أُلحق الأذى بنفسي. . من دون قصد. بعد ذلك كانت الدهشة تستبدّ بي، فأقول: «يا إلٰهي! كيف فعلت هذا؟» غير أنّ ذهني كان خاليًا من الأفكار وقتئذٍ. أتدري ما أعني؟ لو كنت فكّرت لحظة قبل أن أؤذي نفسي لما تمكّنت من فعل ما فعلت. صحيح؟

ابتسمت. أحد طرفيْ السذاجة يُؤدّي إلى التقصير، والثاني إلى البراءة. ويمكن للتقصير أن يكون نقيصة أو شائبة، لكنْ ربّما لا يوجد الشيء الكثير في هذا العالم لإثارة البراءة.

ـ كانت أمّي وزوج أمّي يصغيان من وراء الباب، وهما على استعداد للتدخُّل إذا ما حدث شيء ما، بعد أن استبدّ بهما الذعر ممّا قد يلحقه بي الأمير الأرجوانيّ من أذًى. لم تكن لديهما أيّ فكرة عمّا سوف أفعله. المؤكّد أنّني لم أكن أملك سكّينًا أو أيّ شيء. كلّ ما هنالك هو الدبُّوس المعدني في شعر رأسي ـ وهو دبُّوس حادّ جدًّا ـ وكان شعر رأسي آنئذ كثيفًا لا يمكن لأيِّ دبُّوس آخر أن يفعل فعله. على أيّ حال، هذا ما استخدمته لجرح خدّي الأيسر. على الرّغم من أنّني لم أتمكَّن من مشاهدة وجهي في تلك اللحظة، إلَّا أنّني استطعت مشاهدة وجه الأمير الأرجوانيّ: ممتقعًا من شدّة الهلع، يكاد يكون أصفر مثل الليمون. فراح يصيح ويصرخ كي أتوقّف، فما كان من أمّي إلَّا أن هرعت إلى مصدر الجلبة، وأطلقت صرخة بدورها. ولم أدرك إلَّا في تلك اللحظة أنّني كنت حقًّا في حالة يُرثى

Twitter: @ketab_n

لـهـا، وأنّ جـرحـي بـلـيـغ تـمـامًـا. وبـدأ زوج أمّي يـضـرب الأمـيـر الأرجوانيّ معتقدًا أنّه هو الذي جرحني، فلم يدافع هذا عن نفسه إذْ كان ما يزال مذهولاً بتأثير الصدمة! وفي حين كان زوج أمّي يشبعه ضربًا، ركبنا أنا وأمّي سيّارة أجرة وهرعنا إلى غرفة الطوارئ. المدهش أنّني لم أتألّم أبدًا، الواضح أنّ الألم لا يأتي إلّا لاحقًا. كان في غرفة الطوارئ طبيب أبويّ المعاملة يكاد يكون رفيق روح جدّي. فتحدّث بعذوبة ومودّة محاولاً الحصول على معلومات لمعرفة من ذا الذي فعل هذه الفعلة بي. وعندما أدرك الحقيقة، استبدّ به الغضب والحنق. لكنْ، دعني أقول لك إنّ تأنيبه كان عذبًا أيضًا. وجرى تخديري وتمّت خياطة الجرح. وبينما كنت أغادر المستشفى، أمسك بيدي وقال: «يا فتاتي الصغيرة المجنونة، بعد أن اجتزت الآن عتبة سلامة العقل، وجرحت وجهك الجميل، فلا تعودي بعد اليوم إلى بستان العقل والفطرة العامّة. إنّ ما هو أسوأ من جرح وجهك من دون ندم يتمثّل في الندم الذي يعقب الجرح. في تلك الحالة، سوف تتعذّبين حقًّا، تتعذّبين من أجل لا شيء. فكوني صادقة في نفسك، وابقي مجنونة مثلما كنت يومًا ما عند إزالة خيوط الجرح. وعد؟» فوعدته. وتصافحنا. كنت محظوظة إذْ قدّم لي عملاً رائعًا. لو كان ثمّة طبيب آخر غيره، لكان قد خيّط جرحي مثلما يخيط كيسًا من الأكياس. بقيت ندبة، وهذه الندبة لا تزول.

لم أعرف ماذا أقول. فقصّتها ليست من القصص التي كنت أتوقّع سماعها. إنّه الهيام بشخص يرقى إلى إطلاق حكايات مكبوتة من بيوت أحزانها ــ حكايات لم تر نور النهار. أمّا البقاء في حالة الحبّ، فذلك يعني السقوط عموديًّا بعد سماع هذه الحكايات في بيت أحلام المحبوب، والبقاء من دون حراك عند سماع حكايات أخرى أكثر سوءًا. لقد تصرّفت تصرُّفًا متهوّرًا تجاه العشيقة الزرقاء. فهي ليست زرقاء. على الأقلّ، لم

Twitter: @ketab_n

تكن زرقتها شفّافة أو رائعة على النحو الذي لاحت فيه من أوّل نظرة. جذبتها ناحيتي، فاقتربت أكثر وتململت إلى أن وضعت رأسها على صدري على نحو مريح. ثم أطلقت العنان لنفسها برقّة وصمت.

ـ أحببت الأمير الأرجوانيّ، لأنّ غيره لم يتظاهر بأنّه شخص آخر. لا تكذب عليّ، أرجوك. سوف تسير الأمور في مجراها!

أومأت برأسي فحسب. إنّ من تزعم أنّها تمتعض من الكذب، فإنَّها سوف تجلب الحظّ السيِّئ على أولئك الذين هم من حولها، مثل مرآة مكسورة، إذا لم تكن تكذب بدورها. ومن يطلب من الآخرين ألّا يكذبوا عليه، فإنّه يتوق إلى الكذب؛ وهذا يشبه إظهار بندقيّة في شريط سينمائي ـ إذْ سوف يتمّ استخدامها عاجلاً أم آجلاً. ومع هذا، فإنّني لم أرغب في الاحتجاج أو الاعتراض. وقبل أن يمضي وقت طويل، استسلمت للنوم تحت الضوء المنساب من النافذة. لم تكن امرأة جميلة، ولكن وجهها ساحر، وكانت مراقبتي إيّاها تمنحني لذّة كبيرة.

نهضت، وبحثت عن شيء ما أرتديه في الظلمة، وأضأت النور. كانت الملاءة التي غطَّت العشيقة الزرقاء نفسها بها قد انزلقت قليلاً كاشفة بذلك عن ساقها اليمنى. ولم أدرك إلّا في تلك اللحظة، وللمرّة الأولى، أنّنا مارسنا الحبّ إمّا في الظلام أو شبه عراة. وما زال جسدها العاري لغزًا من الألغاز.

كان الجزء الأعلى من ساقها مغطّى بخطوط قرمزيّة من الندب. كانت الخطوط عموديّة، الواحد بجانب الآخر مثل مجموعة الخطوط الخمسة التي نتخيّلها مستخدمة في السجون لتعداد الموتى ـ وليس لتعداد الأيّام المنقضية. نظرت نظرة إمعان وتأمُّل إلى الندب، فبدت أغلبها ليست عميقة جدًّا، وكأنّها تعرَّضت إلى ضرب سريع، بيد أنّ إحداها كانت عميقة جدًّا، وبدت وكأنّها حديثة ولم تتماثل للشفاء بعد.

Twitter: @ketab_n

الساعة الثانية والدقيقة الثانية والعشرون فجرًا. انقلبت على وجهها وندّت عنها آهة مكبوتة. فغطّيت جسدها وأطفأت النور. فكّرت أنّ من شأن مشروب العرق أن يستقرّ في جوفي استقرارًا جيِّدًا في تلك اللحظة، وفي اللحظة التي أضأت فيها مصباح المطبخ، توارت عن الأنظار بعض الصراصير بسرعة البرق الخاطف. عاجلاً أم آجلاً، ينبغي لي أن أدخِّن المنزل. قطّعت عددًا كبيرًا من شرائح الجبنة البيضاء والبطِّيخ، وسكبت على الجبنة زيت الزيتون الذي أحضرته العشيقة الزرقاء، كما وضعت كمِّيَّة من الزعتر، كمِّيَّة كبيرة جدًّا. ربّما ما كان من شأن تاجر زيت الزيتون أن يرغب في معرفة أنّ القناني التي كان ينقلها إلى عشيقته الصغيرة كان يستهلكها رجل آخر.

خطوت إلى الشرفة حريصًا على ألّا أسحق مجموعة من النمل، الذي كان ينقل جثّة خنفسانة سوداء ضخمة إلى بيته. قرّبت الكرسي من الحاجز الحديديّ وأشعلت سيكارة. كم ندبة أخرى يا ترى على جسدها؟ لا أدري ما الذي تسبب في هذه الجروح... أهي سكِّين أم شفرة؟ أم دبُّوس شعر؟ رنوت إلى أكياس الزبالة المكدّسة قرب سور الحديقة من تحت. لم يتغيّر شيء. ما تزال رائحة الزبالة الكريهة ترافقنا.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١٠
السيِّدة العمَّة

كانت السيِّدة العمّة تنتظر على مدى ساعات بالقرب من ساحل البحر رفقة هواة جمع النوادر. ومع كلّ هبّة ريح قويّة تزيد من عنفوان الريح الجنوبيّة الغربيّة، كانت الأمواج تقذف بقطع صغيرة مختلفة، أشرعة مكسورة، مجاديف محطمّة، بوصلات مكسورة العقارب، دفّات سفن تاهت في طريق إبحارها، كما تساقطت الحروف من أسماء القوارب المتخلّفة عن تلك الرحلات البحريّة، التي لم تصل مرفأ من مرافئ السكينة، وعن أولئك المسافرين الذين هبطوا من تلك القوارب منذ زمن طويل.

بعد أن يشبع البحر من اللعب بتلك الكرات المطّاطيّة أو الأسرَّة القابلة للنفخ التي التقطها الموج منذ أمد بعيد أثناء تمتّعك بإجازة، وحملت الرياح الحصران أو القبّعات المصنوعة من القشّ بعيدًا عن أماكنها الحقيقيّة، فإنّه يأتي بها كلّها ويسلّمها إلى السواحل.

كانت السيِّدة العمّة، بجانب هواة جمع النوادر الذين يشبهونها، تنتظر جمع ما يقذفه البحر إلى الساحل.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٣
مصفّف الشعر جلال

ما إن خرج جلال من دار التجميل حتى اندفع في الشوارع الخلفيّة المؤدِّية إلى الجادّة. وبعد أن سار مدّة خمس عشرة دقيقة وسط جموع الناس، من دون أن يكون في ذهنه هدف محدّد يروم الوصول إليه، حتى دخل شارعًا اصطفّت فيه خمس حانات متشابهة المظهر. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن معتادًا على تناول المشروبات، إلَّا أنّه شعر برغبة في احتساء كأس من الجعّة، فاختار من بين الحانات الخمس إحداها اختيارًا اعتباطيًّا، ودلف إليها. كانت الحانة تغصّ بالناس، فاتّجه مباشرة إلى الطاولة الأقرب إلى الباب، لأنّه اعتاد أن يكون قريبًا قدر المستطاع من باب الخروج، وطلب كأسًا من الجعَّة، وطبقًا من الأطعمة المقليّة من النادل الضئيل الجسم والهزيل البنية الذي كان يُبدي إشارات لا تدلّ على امتعاضه من عمله فحسب، بل تدلّ أيضًا على أنّ ذهنه منشغل بمكان آخر.

بينما انتظر جلال ليفصح عن طلباته، لمح على الطاولة المقابلة له رجلاً أسمر البشرة، ومن تحت عينيه ثلاث حلقات بثلاثة ظلال من اللون البنفسجيّ، لم يبدُ عليه أنّه كان قادرًا على التزام السكينة، أو أنه

Twitter: @ketab_n

يوشك أن يتهالك على الطاولة. كانت عينا الرجل ثابتتين على شراب العرق أمامه. وعلى الرّغم من أنّه لم يرشف قطرة واحدة من كأسه في هذه الآونة، إلّا أنّه كان واضحًا جدًّا أنّه شرب أكثر من طاقته. كما أنّه لم يأكل شيئًا من سمك الآنشوفة.

على حين بغتة، نعب الرجل وهو يخلط في كلماته خلطًا خشنًا:

ـ لماذا ـ تحدِّق ـ إليَّ ـ أيُّها ـ الرفيق؟

انكمش جلال في مقعده، لا يدري ما يقول، إلّا أنّ النادل وثب إلى جانبه في تلك اللحظة تمامًا.

ـ هوّن عليك أيُّها الأخ.

قال النادل ناصحًا جلال، مركِّزًا انتباهه في المارّة الذين كانوا يهرعون إلى الجانب الآخر من النوافذ، كأنّه كان يرغب في أن يكون برفقتهم بدلاً من أن يكون هنا في الحانة. وأضاف:

ـ رجل لا يؤذي ولا يضرّ أحدًا، لكنَّه يشعر بالقنوط اليوم.

كانت الجعَّة مقبولة، أمّا المقليّات فلم تكن مقبولة البتّة، لأنّها كانت تحتوي على مقدار كبير من المايونيز وصلصة الطماطم. كان المايونيز لا بأس به، إلّا أنّ جلال لم يكن ليطيق صلصة الطماطم، فغضب من نفسه لأنّه لم ينبِّه النادل مسبقًا إلى ذلك. التفت جانبًا، وهو يتململ بعصبيّة كي لا يضطرّ إلى النظر إلى الطاولة المقابلة له.

رفع أحد الرجال الأربعة الطوال القامة والمتينيّ البنيان، الجالسين من حول الطاولة المجاورة، إبهامه إلى أعلى، كأنّه يريد أن يركب متطفِّلاً من المقعد الجالس عليه. كان رجلاً قويَّ الجسم يوقع الرعب في النفوس، معقوف الأنف، ذا شهوة لا قرار لها نحو ضرورة توكيد الآخرين وجهات نظره، ومردِّدًا بين الفينة والفينة:

ـ صحيح؟

Twitter: @ketab_n

وبعد أن كرع من جعّته مقدارًا كبيرًا، مسح شاربه بظاهر كفِّه، وشنّ هجومًا على زملائه:

ـ ما الذي يجري؟ لماذا أنتم صامتون؟ لسنا من النمط الذي يخاف ويهرب! صحيح؟

ضرب بقوّة على وسط الطاولة سكِّينه المثلومة الملطَّخة بصلصة سندويتش السجق الساخن التي كان يمسك بها بيده، وقال:

ـ أتراهنون؟ كونوا ضيوفي. هكذا أضع الرهان أيُّها الرجال. نحن لسنا أطفالاً نراهن على كرتين زجاجيّتين أو ثلاث سدَّادات قناني زجاجيّة. صحيح؟ إذا خسرتُ، فسوف أقطع هذا الإبهام وأتركه من فوق الطاولة. لكنْ إذا خسرتم، فإنَّ القانون نفسه ينطبق عليكم. صحيح؟

إذا كانت السكِّين سوف تستعمل لهذه الغاية، فإنَّها ليست مؤثِّرة بما يكفي، لأنّه فتح شفرة سكِّين الجيب في غمضة عين ووضعها على الطاولة بجانب السكِّين الأخرى. ثم رفع مجدّدًا إبهامه إلى أعلى، متجمّدًا كالتمثال. وبينما فغر الآخرون أفواههم أمام الإبهام الموجّه إليهم، سرت قشعريرة من فوق الطاولة.

لو كان الوقت غير هذا الوقت، لكان جلال الذي يخشى المشاجرات قد ترك المكان ومضى في سبيله. لكنَّه كان في هذا اليوم يروقه أن يحتسي الشراب. ولهذا السبب، لبث في مكانه، واستمرّ في تناول الشراب، بالرّغم من استفزازات السكِّير الجالس من حول الطاولة المقابلة له، وصلصة الطماطم على المقليّات والإبهام يروّعان الطاولة المجاورة.

لمّا كان جلال غير معتاد على تناول المسكِّرات، فقد اتّقدت عيناه قبل أن يكمل نصف الكأس الثانية من الجعَّة. ثبّت نظره على البقع وآثار

Twitter: @ketab_n

حرق السكائر المنتشرة من فوق غطاء الطاولة، وتنهَّد تنهيدة عميقة. وفكّر: لماذا يختلف شقيقه التوأم عنه الاختلاف كلّه؟ فهما لا يشتركان في صفة واحدة. لماذا لا يتشابهان بأيّ وسيلة؟ وإذا كانا بهذه الدرجة من الاختلاف، فلماذا يعملان معًا حتى الآن؟ في اللحظة التي أكمل فيها شرب الكأس الثالثة، كان قد توصّل إلى قرار الانفصال عن جمال.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٨
سو والسيِّدة العمَّة

المقرّر أن تتلقّى سو درسها الأوّل باللغة الإنكليزيّة في الساعة السابعة من مساء اليوم، وهو الموعد المتّفق عليه. رنت إلى الساعة المتألِّقة في الظلمة التي منحها إيّاها والدها هديّة في مناسبة عيد مولدها، فوجدتها تشير إلى الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين. ما يزال أمامها وقت طويل. شعرت بالضجر، فراحت تطوف في أرجاء المنزل، حيث تحوّل كلّ شيء إلى لون أبيض. كانت أمّها نائمة بعد أن أنفقت الليل مرّة أخرى مستيقظة ومنهمكة في التنظيف.

فتحت النوافذ، واختلست نظرة إلى الأطفال وهم يمارسون اللعب في الشارع. على الرّغم من أنّها راقبتهم باهتمام، إلَّا أنّها لم تفكِّر في الانضمام إليهم. كما أنّها لم ترغب في أن تكون في صحبتهم حتى لو أُتيحت لها الفرصة. وكما هو شأن كلّ الأطفال المستوحدين الذين لا يملُّون أصدقاء لهم خارج المدرسة أو حتى صديق داخل المنزل، ممَّن يتقنون فنّ حسن السلوك كما هو متوقّع، ويكونوا هادئين على غير ما يُتوقّع منهم، ويبحثون اليوم عن وسائل لتشويه هذا الفنّ، فإنَّها سرحت ببصرها إلى أسفل الشارع على نحو ينطوي على غضب دفين. فالألفة

Twitter: @ketab_n

التي نشأت مع المرأة العجوز في ذلك اليوم في دكّان الحلّاق ما تزال حيّة في ذاكرتها. صحيح، أنّها لم تنسَ الحظر المفروض على الخروج من قصر الحلوى باستثناء الخروج إلى المدرسة... إلّا أنّ التفكير مليًّا في الحظر لا يعني أنّ الخروج إلى الشقّة المقابلة يمكن أن يعدّ منطقة «خارجيّة». صحيح؟

وهكذا، فعلت ما لم تفعله من قبل، وهو أنّها امتلكت الجرأة على زيارة الجار القريب منها. إلّا أنّها لم تسمع صوتًا قادمًا من الشقّة عندما ضغطت على جرس الباب. فضغطت عليه مجدَّدًا، بإصرار وثبات هذه المرّة، وكادت أن تتخلّى عن الزيارة لولا أن فتح باب الشقّة رقم ١٠.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٣
مصفّف الشعر جمال

بعد أن استاء جمال وامتعض من عدم عودة شقيقه التوأم، ودّع آخر زبونة وسلّم دار التجميل للمبتدئين، وخرج إلى الشارع ملؤه الإحساس بالقنوط والإحباط. كان نسيم الليل عليلاً، فاندفع في الشوارع الخلفيّة يحثّ خطاه وكأنّه ينزلق انزلاقًا، ودلف إلى الشارع الرئيس. وبعد أن سار خمس عشرة دقيقة وسط جموع الناس من دون أن يدري إلى أين يتّجه، دخل شارعًا اصطفَّت فيه خمس حانات متشابهة المظهر. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن معتادًا على تناول المشروبات، إلَّا أنّه شعر برغبة في احتساء كأس من الجعَّة. فاختار من بين الحانات الخمس إحداها اختيارًا اعتباطيًّا ودلف إليها. كانت الحانة تغصّ بالناس، فاتّجه مباشرة إلى الطاولة الأقرب إلى الباب، لأنّه اعتاد أن يكون قريبًا قدر المستطاع من باب الخروج، وطلب كأسًا من الجعَّة، وطبقًا من الأطعمة المقليّة من النادل الضئيل الجسم والهزيل البنية الذي كان يُبدي إشارات لا تدلّ على امتعاضه من عمله فحسب، بل تدلّ أيضًا على أنّ ذهنه منشغل بمكان آخر.

بينما انتظر جمال ليفصح عن طلباته، لمح على الطاولة المقابلة له

Twitter: @ketab_n

رجلاً أسمر البشرة ومن تحت عينيه ثلاث حلقات بثلاثة ظلال من اللون البنفسجيّ، لم يبدُ عليه أنّه كان قادرًا على التزام السكينة، أو أنّه يوشك أن يتهالك على الطاولة. كانت عينا الرجل ثابتتين على شراب العرق أمامه، فأومأ إلى النادل وهمس في أذنه:

ـ اسأله ـ عن ـ سبب ـ رجوعه ـ دعنا ـ نعرف.

ولـمّا رأى الاضطراب باديًا على وجه النادل، أوضح القول نافد الصبر:

ـ اسأله ـ عن ـ سبب ـ انصرافه ـ إن ـ كان ـ سيرجع ـ وإن ـ كان ـ سيرجع ـ فلماذا ـ انصرف؟

أدرك جمال الآن أنّ الرجل يتكلّم عليه، إلّا أنّه لم يتمكّن من معرفة ما الذي يقوله عنه. فانكمش في مقعده، لا يدري ما يقول، إلّا أنّ النادل لحسن الحظّ وثب إلى جانبه في تلك اللحظة، وتمتم بصوت خانق:

ـ هوّن عليك أيُّها الأخ.

ثم أضاف قائلاً:

ـ إنّه زبون منتظم. لكنَّه يشعر بالقنوط اليوم، يستفزّ كلّ من يراه، ولكنَّه لا يتصرَّف تصرُّفًا مخزيًا أبدًا.

كانت الجعّة مقبولة، أمّا المقليّات فلم تكن مقبولة البتّة، لأنّها كانت تحتوي على مقدار كبير من المايونيز وصلصة الطماطم. كانت صلصة الطماطم لا بأس بها إلّا أنّ جمال ما كان ليطيق المايونيز. فغضب من نفسه، لأنّه لم ينبِّه النادل مسبقًا إلى ذلك. التفت جانبًا وهو يتململ بعصبيّة كي لا يضطرّ إلى النظر إلى الطاولة المقابلة له.

ثمّة أربعة رجال طوال القامة متينو البنيان، تحلّقوا من حول الطاولة إلى يمينه. وكان أحدهم يرفع إبهام يده اليمنى إلى أعلى، وكان ملفوفًا

Twitter: @ketab_n

بضمّاد، وعلى ظفره كتلة من دم يابس، وقد ظلّ جالسًا مثل تمثال.

وتمتم أحد الآخرين بصوت هادئ:

ـ لماذا لا تذهب إلى البيت أيُّها الرجل؟ لماذا تظلّ جالسًا هنا بهذا الضمّاد وهذه الخيوط؟

فما كان من الشخص التالي الجالس بجانبه إلّا أن شرع في الكلام مؤيِّدًا بقوله:

ـ على أيّ حال، ليست لديّ أدنى فكرة عن السبب الذي جعلنا نعود إلى هذا المكان. لعلّنا الوحيدين على وجه الأرض الذين يرجعون إلى الحانة بعد زيارة إلى قسم الطوارئ.

هدر الرجل الضخم ذو الأنف المعقوف، وهو يهزّ رأسه متحمِّسًا:

ـ لقد لجأنا إلى رهان صحيح؟ وما دام أنّني خسرت الرهان، فسوف أواجه عقوبتي مثل رجل. فإذا كنت أخشى ثلاث درزات وحقنة واحدة، فينبغي لي أن أرتدي تنُّورة. هل هذا صحيح؟ ما دام أنّنا لجأنا إلى هذا المكان لاحتساء الخمرة، فإنّنا سنحتسي الخمرة! سوف نشرب نخب إبهامي، لأنّني لو لم أكن رجلاً شريفًا، ولو لم أنفِّذ وعدي، لكان هذا الإبهام ما يزال قطعة واحدة. صحيح؟ لكن الذي فعلتهُ هو أنّني وفيت بوعدي. وهكذا، فإنَّ جرح السكِّين دليل على شرفي. صحيح؟ فإذا ما شربنا نخب إبهامي، فإنّنا سوف نشرب نخب الشرف. أليس هذا بصحيح؟

ـ في الوقت الذي رفع الآخرون كؤوسهم ممتعضين، ومتردِّدين، سرت قشعريرة من فوق الطاولة.

لو كان الوقت غير هذا الوقت، لكان جمال الذي يخشى المشاجرات قد ترك المكان ومضى في سبيله. لكنَّه كان يروقه احتساء الشراب في هذا اليوم. ولهذا السبب، لبث في مكانه، واستمرّ في تناول

Twitter: @ketab_n

الشراب بالرّغم من استفزازات السكّير الجالس من حول الطاولة المقابلة له، والمايوينز على المقليّات والإبهام يروّعان الطاولة المجاورة.

لمّا كان جمال غير معتاد على تناول المسكّرات، فقد اتّقدت عيناه قبل أن يكمل نصف الكأس الثانية. ثبّت نظره على البقع وآثار حرق السكائر المنتشرة من فوق غطاء الطاولة، وتنهّد تنهيدة عميقة. وفكّر: لماذا يختلف شقيقه التوأم عنه الاختلاف كلّه؟ فهما لا يشتركان في صفة واحدة. لماذا لا يتشابهان بأيّ وسيلة؟ وإذا كانا بهذه الدرجة من الاختلاف، فلماذا يعملان معًا حتى الآن؟ في اللحظة التي أكمل فيها شرب الكأس الثالثة، كان قد توصّل إلى قرار الانفصال عن جلال.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١٠
السيِّدة العمّة وسو

عندما رنّ جرس الباب، كانت السيِّدة العمّة مشغولة بإفراغ الأكياس التي أحضرتها من الشارع. لبثت ساكنة من دون حراك من هول المباغتة. فما من أحد يدقّ على بابها سوى مريم التي توزِّع الخبز في صباح كلّ يوم، وتجمع أجور صيانة الشقق مرّة واحدة في كلّ شهر. في البدء، ظنَّت أنّ ثمّة من ضغط على زرّ الجرس في الطبقة السفلى مصادفة، لكن ما إن رنّ من جديد، وبإصرار أشدّ هذه المرّة، حتى استبدّ بها قلق وراح ينخر فيها. وأسرعت بملء الأكياس بكلّ ما أخرجته منها، وحملتها إلى الغرفة الصغيرة. كانت مبهورة الأنفاس عندما أغلقت الباب الأبيض بزجاجه المصنفر الذي كان يفصل غرفة الجلوس عن بقيّة أرجاء المنزل، وأقفلته مرَّتين اثنتين زيادة في الحيطة والحذر. ووضعت من حول رقبتها المفتاح المتدلِّي من شريط مخملي بنفسجيّ اللون، مدركة أنّها سوف تفقده لا محالة إن تخلَّت عنه. سرحت ببصرها إلى غرفة الجلوس آخر مرّة، واتّجهت بعد ذلك إلى الباب الخارجي، متردِّدة وقلقة.

قالت مندهشة:

Twitter: @ketab_n

ـ آه، أهذه أنتِ يا سو؟

ثم استرخت على ما يبدو عندما فتحت الباب، وأضافت:

ـ كيف حالك يا عزيزتي؟ هل أنت راضية بشعرك القصير؟

أومأت سو برأسها مبتسمة ابتسامة مشرقة، وهي التي لا تزيد طولاً عن السيِّدة العمّة بأكثر من ثلاثة سنتيمترات ونصف السنتيمتر. مرّة أخرى، شعرت المرأة العجوز بشيء من الحرج أمام الفتاة التي كانت تفيض حيويّة ونشاطًا، وتطفح بشرًا وسرورًا. واستبدّ بها قلق شديد بدلاً من الضيق، عندما أدركت أنّ الطفلة كانت واقفة تنتظر دعوتها للدخول، فنظرت إلى غرفة الجلوس نظرة سريعة ملؤها الحيطة والحذر، إذ مضى زمن طويل لم يدلف أيّ زائر داخل هذا المنزل، ولا حتى شقيقها الذي كانت تحبُّه حبًّا جمًّا، وكانا يلتقيان في دكّان معجّنات مزيّن بزجاج ملوَّن، وذائع الصيت بسبب قدمه، وكانا يتناولان فيه في كلّ مرّة ومن دون استثناء قطعة من فطيرة التفّاح وكوبين من قهوة الكابوتشينو وسط رائحة القرفة والكريما المخفوقة. على الرّغم من أنّ المرأة العجوز كانت ما تزال تفكِّر في أعذار من شأنها أن تبعد الطفلة من دون أن تكسر فؤادها، إلّا أنّها انجذبت إلى أعماق عينيها السوداوين والواسعتين. كانت هذه الطفلة في غاية الكدر والحزن، على الرّغم من الابتسامة المشاكسة الواضحة على وجهها. فلم يطاوعها قلبها على صرفها من المنزل. زد على ذلك، كانت قد اتّخذت كلّ الاحتياطات اللازمة، فما الضرر الذي يمكن أن ينجم عن دعوتها للدخول؟

قالت، وهي تتنحّى جانبًا لتسمح للفتاة بالدخول:

ـ تفضّلي، لنشرب قهوة بالحليب.

هتفت سو:

ـ أنا لا أحبّ الحليب.

Twitter: @ketab_n

أومأت السيِّدة العمّة برأسها:

ـ لم أصادف في حياتي يومًا طفلة تحبّ الحليب. لكن ما دام أنَّك قد كبرت بما يكفي لأن تكوني في الصفّ السادس، فقد ظننت أنّك سوف تحبِّين شرب الحليب.

عندما رأت سو مثل هذا السبب الذي لا تستطيع الاعتراض عليه، فقد خلعت حذاءها من دون أن تُحدث صوتًا، وأدركت مندهشة أنّ في وسع المرء أن يمشي في هذا المنزل بجوربه، بعد أن أخفقت في رؤية سلّة تحتوي على مجموعة من الأخفاف الصحِّيّة التي تستعمل مرّة واحدة قرب باب الدخول.

هتفت سو، وهي تدخل غرفة الجلوس:

ـ الرائحة هنا أسوأ ممّا هي في منزلنا.

ثم ابتسمت ابتسامة تنمّ عن اهتياجها، كأنّها تعتزّ بإبداء هذه الملاحظة، وراحت ترنو إلى ما يحيط بها وهي تدندن بأغنية، سبق لها أن سمعتها في الحافلة الصغيرة عند ذهابها إلى المدرسة في صباح كلّ يوم.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٢
سيدار وغابا

بينما كان سيدار يراقب الفتاة وهي تُخرجُ المواد من حقيبتها الواحدة تلو الأخرى، انتابه إحساس بالتوتّر وهيمن عليه: فرشاة أسنان شذريّة اللون (أصبحت في المنزل الآن اثنتان من فراشي الأسنان)، وكوب لا يُستساغ، وعليه عيون جاحظة، بعضها مفتوحة والأخرى مغمضة (فأصبح في المنزل الآن كوبان)، وعبوة غسول بعشبة جوجوبا مخصَّصة للشعر الذي يُغسل بين وقت وآخر (فأصبح في المنزل الآن عبوتان من الغسول)، وعلبة واحدة من سدادات قطنيّة (وهي سدادات لا وجود لها في المنزل)، ومنشفة واحدة (فأصبح في المنزل الآن منشفتان)، وعدد كبير من الكتب والأقراص المدمَّجة (فأصبح في المنزل الآن عدد كبير من الكتب والأقراص المدمَّجة).

لم يفكّر سيدار في هذه الأشياء عندما وافق على بقاء الفتاة وإيّاه في الشقّة. كان قد أخبرها بأنّ في وسعها أن تبقى بين مدَّة وأخرى، وليس الانتقال نهائيًّا ودائميًّا، فإذا كانت هذه الفتاة ذات العينين الوقورتين الجميلتين والشعر النحاسيّ تبغي غابا ببسكويت الويفر بالبندق، وأن تستلقي على هذه الأريكة وتنظر إلى السقف، وتمارس الحبّ معه، فلا

Twitter: @ketab_n

بأس. فهو ليست لديه مشكلة تخصّ وجودها في الشقّة، ما دام لا يوجد هنا سوى سيدار واحد وغابا واحد وفتاة واحدة. إلّا أنّ الشيء الذي أثار قلقه كثيرًا هو هذه المقتنيات الخاصّة بها. ففي اللحظة التي يتغلغل الآخرون إلى حياة غيرهم من الناس، يبدون مضطرّين إلى إحضار مقتنياتهم الشخصيّة أيضًا.

ومع هذا، فكلّما ركب سيدار عربة الحشيش الصلصاليّة اللون، أو الجياد العنيدة الملوَّنة المنطلقة في متاهة عقله غير المدوَّنة على الخرائط، فإنّه يتعثَّر عند عتبة السؤال الأزلي نفسه: «أيّ واحد؟». تلك هي الورطة التي كان يهابها كثيرًا كلّما ارتفع. وعند إخفاقه في العثور على جواب، فإنّه في كلّ مرّة يُقذف به إلى هاوية سحيقة لا قرار لها. فإذا كان ثمّة كوبان أمامه، فإنّه لا يستطيع أبدًا أن يقرّر بأيّ واحد منهما يشرب؛ وإذا كانت ثمّة منشفتان، فإنّه لا يدري بأيّ منشفة يمسح وجهه؛ كتابان، قرصان مدمَّجان... أيّ فكرة من شأنها أن تكون خادعة، مضلِّلة، بل وأكثر من ذلك. ما دام هناك أكثر من مادَّة واحدة، فإنَّ السؤال الخاصّ بأيّ شوكة أو قدح أو طبق أو غلّاية قهوة يستخدم، يتحوّل إلى لغز مثبط للعزيمة جدير بأولئك الذين سألوا في المطهر. كم من مرّة تجمّد في مكانه، وفي إحدى يديه قطعة حلوى بالسمسم وباليد الثانية قطعة حلوى بالكريما، ليُدرك أنّه مسمَّر في البقعة نفسها من دون حراك أربعين دقيقة أو ما يقرب من ذلك. وعندما يحاول أن يشقّ طريقه جاهدًا للخروج من هذا الوثاق المحكم، فإنّه يغوص أعمق فأعمق. وكلَّما شعر بميل لاختيار إحدى المادَّتين، يجد أفكاره مثبّتة على المادّة الأخرى التي تركها من ورائه. وعندئذٍ، تفتح الموادّ أفواهها الصغيرة على سعتها، وتصيح بصوت واحد: أنا! أنا! أنا سيدار! أرجوك اخترني أنا! وكأنّها طيور صغيرة ومشاكسة لم ترجع أمّها بعد.

غير أنّه لم يرغب في الاختيار. الناس يعتقدون أنّه لجأ إلى

Twitter: @ketab_n

الاختيار بين سويسرا وتركيا عندما جاء ليقطن في تركيا، ولكن هذا غير صحيح. فهو لم يقرّر أيّ شيء، بل وجد نفسه ببساطة يصل هذا المكان، ويومًا ما سيجد نفسه ببساطة راحلاً عنه. كذلك، فإنَّ فعل الانتحار، الذي راح مؤخَّرًا يشغل باله أكثر من أيّ شيء آخر. لم يكن يعني، كما ظنّ الآخرون، اختيار الموت على الحياة. فالانتحار مثل غابا، الواحد الأحد. إذْ سيلجأ إليه بكلّ بساطة.

المؤكَّد أنّ هذا الاعتقاد كان موضع تمحيص عندما كان أسلوب الانتحار وليس سببه موضع تفكير، لأنّه في ذلك الحالة سوف يواجه مجدَّدًا مجموعة من الخيارات تقدّم له وسائل مختلفة وكثيرة من الانتحار. وكلّما ركب سيدار عربة الحشيش الصلصاليّة اللون أو الجياد العنيدة الملوَّنة المنطلقة في متاهة عقله غير المدوَّنة على الخرائط، فإنّه يقف هناك في مواجهة الورطة نفسها. ثم يبدأ فرن الغاز في المطبخ والحبل الذي ينتظر حتى يتمّ تعليقه من أنبوب الغاز الذي يمرّ بحجرة الجلوس، والحبوب في القنّينة الزجاجيّة، والشفرة في حوض الحمّام، وجسر البوسفور بقدميه الشبيهتين بقدميّ غولياث، بالصياح صيحة واحدة: أنا! أنا! أنا يا سيدار! أرجوك اخترني أنا!

غمغم سيدار مشيحًا بنظراته بعيدًا عن نظراتها:

ـ لا يمكنك البقاء هنا!

ـ لكنّني طلبت منك ذلك، ولم تعارض وقتئذٍ.

اعترف سيدار بعصبيّة، عندما لاحظ العنكبوت معلَّقًا من السقف.

ـ أعرف، ولكنّني غيّرت رأيي.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٣
مصفّفا الشعر جمال وجلال

على الرّغم من أنّ جمال كان عازمًا على الذهاب إلى البيت مباشرة بعد خروجه من الحانة، إلّا أنّه وجد نفسه أمام قصر الحلوى، إمّا لأنّه وجد مشقّة في السير مباشرة، أو أنّه بدأ يدرك أنّ قراره بالافتراق عن توأمه كان يعني توديع محلّ عملهما المشترك أيضًا. مال من فوق الكتابة الفستقيّة اللون المدوَّنة على سور الحديقة، محاولاً ألَّا يلمس أكياس الزبالة المتراكمة على الرصيف، والمنبعثة منها رائحة كريهة من جهة والناضحة بالسوائل من جهة أخرى، وشرع يحملق في دار التجميل بعينين حزينتين. غير أنّ ما شاهده سرعان ما قلب حزنه إلى قلق وانزعاج. ثمّة شمعة تومض في داخل الدار. لا شكّ لديه في أنّ المبتدئيْن أقفلا المحلّ ومضيا في سبيلهما منذ ساعات. لبث واقفًا من دون حراك، مقطَّب الجبين، يرنو إلى شرفة شقّتهما الواطئة. لا بدّ أنّ اللصّ دخل من هناك.

لم يسبق لجمال أن استبدَّت به موجة من الشجاعة، غير أنّه بعد أن كرع ثلاث كؤوس كبيرة من الجعّة، وإذا به يغدو أكثر من مستعدّ لأن يسدِّد لطمة إلى أيّ لصّ، فتتورَّم عينه. أمسك بتعليقة ثياب مكسورة لا

Twitter: @ketab_n

يعلم إلّا الله من الذي رمى بها في الزبالة، واندفع في اتّجاه الحديقة مجتازًا شجرة ورد الأكاسيا حتى أفلح في الوصول إلى الشرفة في أوّل محاولة. وكما هو متوقَّع، كان الباب مواربًا، فهرع إلى الداخل ناحية ظلّ رجل يقف بجانب الشمعة... ولكنَّه سرعان ما ترك سلاحه المكسور يسقط على الأرض...

في هذه الأثناء، عندما شاهد الرجل الآخر مثل هذا الظلّ الاعتدائي يتقدّم من الشرفة، أخذ يهرول محتميًا وراء جهاز إزالة الشعر. لم يسبق لجلال أن استبدّت به موجة من الشجاعة، ولو كان الوقت غير هذا الوقت لراعه الأمر، لكنَّه كان قد ترك بدوره من خلفه ثلاث كؤوس كبيرة من الجعَّة. ومع هذا، وربّما بسبب المقارنة بتوأمه، فإنّه إمّا كان غير متأكِّد بفعل الكحول أو أنّه أقلّ خفّة وحركة، وعلى الرّغم من أنّه كشف هويّة الظلّ المتربّص في اللحظة الأخيرة، إلّا أنّه لم يتمكّن من وقف ذراعه بسرعة كافية. وفي الوقت الذي بدأت ذراع جلال الامتثال لأمر «التراجع» الموجَّه من الدماغ، إلّا أنّ الأوان كان قد فات. ففي غمضة عين، لطم جهاز إزالة الشعر كتف جمال تاركًا عليه زرّ السيطرة على الحرارة.

كان التوأمان في سنّ العاشرة عندما رجع والدهما من أستراليا، التي كان قد هاجر إليها قبل ذلك بسنوات طويلة. وكان التوأمان يصغيان في ذعر وهلع للحكايات التي كان يحكيها لهما الرجل الذي أُعجبا به أيّما إعجاب. كان الأب قد كدّ واجتهد في عمله، وجمع ثروة طائلة من المال، وعاد الآن ليصطحب أسرته ويرجع إلى بلد الرفاهية. كان في انتظارهم هناك بيت ذو لون أصفر زاهٍ بلون الذرة المسلوقة، وأرجوحة مصنوعة من إطار سيّارة في فناء الدار. وفي حين راح التوأمان يصغيان لأبيهما بأنفاس مبهورة، كانت أمّهما مشغولة بتوضيب الحقائب وتوديع الجيران وتوزيع مقتنياتهم عليهم، ما دام أنّهم لن يأخذوا أيًّا منها معهم.

Twitter: @ketab_n

تقلَّب جلال وجمال في فراشيهما على الأرض في اليوم الذي سبق رحيلهم، عندما تسلَّل والدهما داخل غرفتهما. فربت على رأسيهما، وأخرج من جيبه صورة واحدة تمثّل بيتًا لاح مترامي الأطراف حقًّا، أصفر اللون مثل الذرة. وكانت مؤخِّرة الصورة كما أتى على وصفها. فثمّة أرجوحة وعليها جلست امرأة مكتنزة ذات ابتسامة مشرقة. كان شعرها أحمر اللون، وفيه خصلة مجعَّدة بهيئة ضفيرة سميكة، ومربوطة رباطًا يفتقر إلى الإحكام بشكل كعكة في مؤخِّرة العنق. وكان والدهما قد سألهما: «ما رأيكما فيها؟ جميلة، صحيح!» فأومأ التوأمان رأسيهما في خجل. لم تكن تبدو كالمرأة التي كانا قد شاهداها حتى الآن، وعلى وجه الخصوص، لم تكن شبيهة بأمّهما. أعاد الأب الصورة إلى مكانها، وربت مجدّدًا على رأسيهما، وهمس:

ـ سنسافر نحن الثلاثة يوم غد، أمّا أمّكما فسوف تبقى هنا في هذه الآونة. وعندما نصل أستراليا ونستقرّ فيها، فيمكننا العودة إلى هنا لاصطحابها معنا.

على الرّغم من صغر سنّ الصبيَّيْن، وإعجابهما بأبيهما الإعجاب كلّه، إلَّا أنّهما أدركا من فورهما أنّ والدهما يكذب عليهما. وعندما أصبحا وحدهما في الغرفة لم يتفوّها بأيّ كلمة أخرى عن هذا الموضوع، وتظاهرا بالجهل وكأنّهما بهذا التصرُّف سوف يتمكّنان إلى حدٍّ ما من أن ينسيا ما كانا قد عرفاه. ولمّا استسلما أخيرًا إلى النوم في تلك الليلة، وجدا أنّهما راحا في أحلامهما يومئان إلى المرأة ذات الشعر الأحمر. غير أنّهما لم يقدرا في صباح اليوم التالي على التأكّد إن كانت قد جاءت أم لا.

همس جمال لتوأمه، وهو ما يزال على ركبتيه يبحث عن جهاز السيطرة على الحرارة.

ـ لقد تأثّرت كثيرًا لما ذكره أبي لنا...

Twitter: @ketab_n

ثم قال مدندنًا ومستغرقًا في التفكير:

ـ تلك البلاد الشاسعة، تلك المرأة الجميلة. لقد بعت أمّي مقابل هؤلاء. كم أنا وغد وخسيس. فمقابل هؤلاء، بعت المرأة التي ولدتني وأرضعتني وربّتني. اللعنة! يمكن للمرء أن يصبح مادّيًا بمرور الأيّام، وتعتقد أنّ الحياة صنعت من الشخص رجلاً مادّيًا، ولكن كيف يمكن للمرء أن يكون مادّيًا وهو ما يزال طفلاً، في تلك السنّ؟

في اليوم التالي، وبعد أن أُرسِلَت أمّهما في مهمّة ما بعذر كاذب، وضع الثلاثة الحقائب في السيّارة.

قال جمال متنهّدًا، وهو يشاهد أخاهُ ينكمش من تحت كرسيٍّ دوّار بحثًا عن جهاز السيطرة على الحرارة:

ـ لكنّك، لكنّك لم تبع أمّنا لقاء هذه الأشياء! أنت لم تعرض روحك للبيع ولا حتى إنسانيّتك! اللعنة على المال. اللعنة على الرفاهية! أنت الذي قرّر، ثم ترجّلت من السيّارة. لقد قرّرت البقاء بصحبة أمّنا وحاولت أن تقنعني أنا أيضًا. كنت تجري مسرعًا من خلف السيّارة عندما تركنا أنا وأبي القرية. لقد انتهى ذلك المشهد القابض للصدر من مخيِّلتي. كنت تصرخ بأعلى صوتك: قفا! قفا! وركضت من ورائنا على امتداد الطريق حتى رأس القرية.

بعد أن طوى جمال المنديلَ مرَّتين، أربع مرّات، ستّ عشرة مرّة، ومخّط أنفه في الطيّة الأخيرة، عادت الطاقة الكهربائيّة مجدَّدًا. فهرع جلال إلى المطبخ ليأتي لتوأمه بقدح ماء. وقبل أن يناوله إيّاه، وضع فيه خمس قطرات من كولونيا ليمونيّة.

قال جمال:

ـ شكرًا لك.

ردّ جلال:

Twitter: @ketab_n

ـ فقدت فردة حذائي.

حاول جمال أن يفهم ما قيل له قبل قليل، وراح يحدِّق بعينين فقدتا بريقهما ناحية لهب الشمعة الذي كان يتذبذب ويتأرجح بعد أن عاد التيَّار الكهربائي.

فكّر جلال:

ـ فقدت فردة حذائي.

كان بودِّه أن يلبث صامتًا، إلَّا أنّ فمه كان يهذر من دون أن يستشيره. كم تمنّى لو أنّه لم يشرب الكأس الثالثة من الجعَّة!

ـ في اللحظة التي ركبت فيها السيّارة، سقطت فردة حذائي، ولهذا السبب ترجّلت لأضع حذائي. ولكن قبل أن تؤاتيني الفرصة، ظهرت أمّي. وعندما شاهدها أبي قادمة، أدار محرِّك السيّارة، فركضتُ وراءكما بفردة حذاء واحدة، لكنّ السيّارة كانت قد انطلقت وابتعدت. طفقت أصيح بأعلى صوتي، وركضتُ من خلفكما الطريق كلّه حتى رأس القرية.

أنشأ جلال، الذي جُرح طوال حياته، لأنّه كان الطفل الذي أهمله والده، وجمال الذي جُرح طوال حياته، لأنّه كان الطفل الذي أهملته والدته، يحدِّق أحدهما إلى الآخر بعزيمة واهنة وشيء من الارتباك إلى حدٍّ ما، وقد انقلبت ظهرًا لبطن هويّتاهما في المرآة التي وفّرها كلّ منهما للآخر... ومهما كان الشيء الذي رأياه فيها، فقد اعتقد كلّ واحد منهما أنّ وضعه كان أشدّ إثارة للقلق من وضع الآخر...

قال جلال متلعثمًا:

ـ ثمّة أمر آخر أودّ أن أخبرك به. أنت تعلم أنّ أمّنا كانت امرأة غير متعلِّمة، وبعد رحيلك، داهمها المرض بسبب الحزن. وحثّها الناس على أن تطلب العون من هذا الساحر ذائع الصيت. فأخذتني وإيّاها

Twitter: @ketab_n

إليه. كان رجلاً شابًّا تشبه عيناه الزجاج، ولكن اتّضح أنّه ضرير. لا مناصّ من أنّه شعر بالرأفة على والدتي، إذْ قال لها:

ـ إنّني لم أمارس سحرًا سيِّئًا حتى يومنا هذا. ولن أحضره بعد اليوم، إلّا أنّ زوجك يستحقّ أسوأ سحر.. ولهذا، فسوف أساعدك، فأنت استثناء من قاعدتي. دعينا نغلق الطريق من أمامهما، أن نقلب سيّارتهما، أن نغرق سفينتهما إذا ما اقتضت الضرورة، ولنتأكّد أنّهما لن يصلا أستراليا. هل تودِّين أن أفعل هذا؟ أخبريني. أهذا ما تريدين حقًّا؟

غير أنّ أمِّي المسكينة لبثت ساكنة، وبكت، وتألَّمت، وقالت بعد أن عجزت عن تحمُّل ما هو أكثر ممّا تحمّلت:

ـ نعم!

في تلك الليلة، استغرق جمال وقتًا أطول ممّا هو معتاد كي يفهم كلمات توأمه، فتلكّأ، وكان دماغه لا يعمل بأسرع ممّا تعمل قطرات من الماء وهي تتجمّد، متظاهرة بتجاهل الشمس. كان يودّ أن يتدخَّل وأن يتفوَّه ببعض الكلمات بنفسه، إلّا أنّه لم يكن يدري ما يقول، فضلاً عن أنّ فكرة تحريك فكِّه أتعبته في تلك اللحظة. كم تمنّى لو أنّه لم يكمل شرب تلك الكأس الثالثة من الجعّة...!

ـ مسكينة هي أمِّي. كانت في غاية الإنهاك، فلم تستطع حتى متابعة الكلام... وهكذا كنت مرغمًا على الحصول على التعليمات الخاصّة كي أنفِّذ السحر. فأعطاني الساحر قشور ذرة، وملأ زجاجة بماء مبارك، وكتب على قصاصة ورق ما لا يعرفه أحد، وقال لي: «أقسم قشور الذرة إلى قسمين وأحكم شدّها، ثم ضعهما في قصاصة الورق ولفّها مثل سيكارة، وأحرقها بعد ذلك. وعندئذٍ، سوف تسمع صوتًا. سيتكلَّم صوت صادر من النار، وعندما تسمعه، فتيقّن أنّك تفعل الشيء الصحيح. لكنْ، لا تلمس النار أبدًا، بل اتركها تحترق

Twitter: @ketab_n

حتى تخمد. وعندما يخمد اللهب تمامًا، رشّ الرماد على الماء المبارك، ثم اسكب الماء على أسفل شجرة ورد أحمر اللون. وستظهر النتيجة من تلقاء نفسها.

انقطع التيّار الكهربائي مجدّدًا، فانبعث الأمل واضحًا في وهج الشمعة الباهت، ممتنًّا للظلمة المفاجئة. وقالت أمّي: «نفِّذ السحر لدى وصولنا المنزل مباشرة. افعل ما قاله لك الساحر تمامًا». وهكذا ربطت قشور الذرة، وجعلتها في قسمين (أحدهما كبير والآخر صغير)، ووضعتهما في قصاصة الورق، وغلّفتها جيّدًا وأضرمت فيها النيران. كان ينبغي لك أن تشاهد أمّي التي اتّسعت عيناها وأصبحتا مثل طبقتين! يا الله! كانت تحديقتها مفعمة بالأمل، وكانت تتوقّع منّي الشيء الكثير. وهكذا راحت القصاصة تحترق، وحاولت أن أقنع نفسي: «لا يحدث شيء». بيد أنّني سمعت بغتة صرخة، مثلما أخبرني الساحر. كأنّ شخصًا ما يبكي... ثم أعقبت تلك الصرخة، صرخة أخرى. ظننت أنّني سمعت صوتك. ارتعدت أوصالي، فأمسكت بالماء المبارك وصببته على النار المتأجِّجة، فانطفأت محدثة هسيسًا، فشعرت بالارتياح. الحقّ، أنّني لم أخبر أمّي بما أقدمت عليه، واعتقدت أنّني صببته على أسفل شجرة الورد الأحمر. ثم أوينا إلى سريرينا، لكنّني استيقظت في الفجر عندما سمعت ضجيجًا، فنهضت من فراشي، فماذا رأيت؟ رأيت أمّي في الحديقة تبكي جاثية على ركبتيها وتئنّ: «ماذا فعلتُ يا جلال؟ أتمنّى من الله ألّا يصيبهما بمكروه في الطريق». فسألتها: «أتعنين الاثنين معًا؟» فقالت: «نعم، الاثنين». لاحظت أنّ الخدوش تملأ يديها، فقد انتزعت شجرة الورد لتبطل مفعول السحر، وتوسّلت: «ألن يحدث مكروه يا جلال؟» فهدّأت من حالتها، وقلت مجيبًا: «لن يحدث». فسألتني: «ألم تنفّذ كلّ شيء كما قيل لك؟» فأجبت: «لا». فقالت مبتسمة، وقد لاح عليها الارتياح: «سيعود ذلك بالنفع عليك يا ولدي

Twitter: @ketab_n

الذكيّ». ثم عانقتني بامتنان، فهمت كلّ شيء من ورائه. فهمت أنّها كانت تحبّك أكثر منّي. الابن الذي سافر أحبَّته أكثر من الآخر.

ارتعش جمال، وبذل قصارى جهده، ونهض لغلق باب الشرفة، إلَّا أنّه كان ذاهلاً ذهولاً شديدًا أدّى به إلى الجلوس من فوره.

ـ منذ ذلك اليوم فصاعدًا، كلّما ذكر أحد ما ـ يا جمال ـ الأولياء والسحرة وما أشبههم، فإنَّ الرعب يستبدّ بي. هذا لا يعني أنّني أؤمن بذلك. فلو سألتني عن رأيي، فإنّني لا أؤمن بأيّ شيء من هذه الأشياء. وإذا ما أردنا قول الحقّ بعد كلّ هذه السنين، فإنّني أشكّ في أن تكون قشور الذرة قد نتج عنها أيّ صوت. كنت أتخيّل الصوت، لأنّني كنت مذعورًا تمامًا. إنّ الشكّ يخامرني في كلّ شيء، ولولا ذلك الشكّ لكانت أمّي تتلوّى في القبر. هذا هو شعوري.

خيَّم الصمت طوال دقيقتين اثنتين. وعاد التيّار الكهربائي في وسط تينك الدقيقتين، فكانت دقيقة واحدة في الظلمة ودقيقة أخرى في النور.

ـ هذا هو السبب إذن الذي أدّى بك إلى أن يجنّ جنونك عندما استهزأت بالوليّ في الحديقة! لكنّني أعدك، لن أفتح فمي بعد الآن أبدًا.

تنهّد جلال. فقد كان شقيقه التوأم يضبط حالته المزاجيّة ضبطًا، فيدفع بها إلى أعلى درجاتها أو أدناها.

ـ لنغلق دار التجميل ونصفِّي أعمالنا إن شئت، هذا إذا كنت قلقًا بسبب فكرة كون قصّ الشعر منافية لرغبات الوليّ. في وسعنا أن نفتح دار تجميل في منطقة أخرى.

قال جلال ضاحكًا:

ـ هيّا.. بالله عليك! أظنّك تتوهّم بأنّني الفرشاة ذات المقبض العظميّ.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٩

سـو

هتفت سو:

ـ البدينات المحجّبات! البدينات المحجّبات!

ثم دفعت رأسها خارج النافذة الخلفيّة وداخلها مثل طائر ساعة جداريّة. في المقعد الأمامي، ثمّة صبيّان وفي يد كلّ واحد منهما بندقيّة صيد، ينتظر، كلّ بدوره، ليجلس على المقعد القريب من النافذة، حيث يمكنهما أن يصوّبا البندقيّتين إلى أهدافهما التي كانت الفتاة تشير إليها.

كانت النساء المحجَّبات اللواتي ثبّتت سو من بصرها عليهنّ قد انحشرن في منتصف طريق بممرَّين يحاولن العبور. ولم يلاحظن حافلة المدرسة الصغيرة المنطلقة على طول الطريق، من دون أن يعترضن على الإطلاقات التي كانت تمرق من أمامهنّ. وقبل أن يتمكَّن الصبيّ الذي أخطأ هدفه من الانتقال من مقعد، وتسليمه إلى صديقه ذي الوجه الطويل، كانت سو قد حدَّدت الهدف الجديد: الرجل في صحبة كلبه! الرجل في صحبة كلبه! تمكّنت إحدى الإطلاقات وهي حبّة حمّص من اختراق قبّعة رجل يرتدي ثيابًا اعتياديّة، إلّا أنّ كلبه لم يكن موفور الحظّ مثله، إذْ نبح مرَّتين وهزّ ذيله، قبل أن يُدرك ما الذي كان ينهال عليه.

Twitter: @ketab_n

ولم يستطع الجرْي من وراء الحافلة الصغيرة إلّا بالقدر الذي يسمح له به حبل طوقه، فتوقّف متألمًا ومنتظرًا صاحبه كي يلحق به. لا بدّ من أنّ إحدى الإطلاقات أصابت الكلب في عينه، لأنّه ظلّ يرمش من وراء الحافلة. وقال القنّاص مستحسنًا صنيعه:

ـ رهيب!!

كانت كلمة «رهيب» شائعة التداول في تلك الأيّام أكثر من كلمة «إهدأ».

في تلك اللحظة، استدارت الفتيات الثلاث اللواتي كانت تسريحة شعرهنّ تشبه ذيل الحصان، واللواتي كنّ على الدوام يجلسن في المقعد الأمامي، ويعاملن السائق معاملتهنّ لصديق من أصدقائهنّ القدامى، تحثّانه على تشغيل أشرطة أغانيهنّ الشعبيّة مرّات ومرّات، ورشقن من تسبَّب بالحادثة بنظرات حادّة كالخناجر. أمّا سو، فلم تعر الأمر أيّ أهمّيّة. فمنذ اليوم الذي قصَّت فيه شعرها قصَّة قصيرة، وهي تتعمّد هجر عالم الفتيات الذي نُفيت منه أصلاً في اللحظة التي انتشر خبر إصابتها بالقمل، بعد أن كانت تلاقي صعوبة في الاندماج بذلك العالم. ولم تلتقِ غيرها من الفتيات إلّا قبل الرياضة وبعدها في غرفة تبديل الملابس. في تلك اللحظات، كانت سو تتظاهر أنهنّ غير موجودات، وكانتا تطلب لقاء ذلك معاملتها بالمثل، وكأنّها غير موجودة. ولكنْ، كلّما اصطففن عند المصاطب، وأغرقن غرفة تبديل الملابس الضيّقة والكريهة الرائحة بكمّيّات من معطّر الجوّ، ولبسن ثياب الرياضة الضيِّقة وهنّ يتبادلن نظرات ذات مغزى، ويتكلّمن بما يشبه الكلام المشفَّر، فقد كان هدفهنّ هو جعل سو تشعر بأنّها غير محبوبة وغير مرغوب فيها. بيد أنّ الصبيان كانوا يختلفون عن الفتيات. فالإصابة بالقمل مسألة اعتياديّة في أوساطهنّ، وأنّ القمل نادرًا ما يشكِّل خبرًا.

أخرجت سو رأسها وجذعها حتى خاصرتها من النافذة، وأشارت

Twitter: @ketab_n

بإبهامها إلى الكلب الذي لبث في الخلف، ولكنْ في اللحظة التي كادت فيها أن تتراجع إلى الوراء، لمحت رجلاً على بعد بضعة أمتار يتقدَّم، كثّ اللحية، طويل الشعر، قذرًا، ينبش في الزبالة. كان هذا الرجل منشغلاً وهو يملأ أكياسًا يحملها على كتفيه بعلب صفيح، كان قد عثر عليها وسط القمامة. وكان بين الفينة والفينة يحكّ رأسه مستغرقًا في التفكير، كأنّ صوتًا غامضًا يخاطبه ويوجِّه إليه أسئلة منهكة من داخل حاوية النفايات. وكان يعتمر بيريه خمريّة اللون، وبذلة عمل خضراء بلون النفط مهلهلة. كان في وسع المرء أن يشاهد من خلال شقوق البذلة عظام ركبتيه بارزة وقد علتها الأوساخ.

هتفت سو:

ـ إلى الصعلوك! إلى الصعلوك!

حشا الصبيّ القنّاص الجالس بجانب النافذة اللفافة الورقيّة بالإطلاقات، وسدَّد، ورمى بأقصى ما يستطيع من قوّة. في اللحظة نفسها، توقّف الصعلوك المستهدف عن أداء العمل الذي كان منشغلاً به، واستدار بدافع غريزي شبه حيواني، وابتسم ابتسامة الضحيّة أمام قتلته قبل أن يستقبل الإطلاقة، وفغر فاه وتلقّفها بحركة واحدة وهي ما تزال في الجوّ، وابتلعها من دون حتى أن يلوكها. ثم ضغط يده على فؤاده، ومال برأسه إلى أمام، وكأنّه يريد أن يعبِّر عن شكره، ثم فتح فمه مجدَّدًا وطقطق أسنانه المصفرّة. جفل الصبي القنّاص مرتعبًا، ورمى سو بنظرة تنمّ عن ذهول أغرب إنسان تراه عين، إنسانٍ لم يكن يبدو شبيهًا بأيّ شخص آخر.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٢
سيدار وغابا

بمجرّد أن خرجت الفتاة وأغلقت الباب بعنف من ورائها حتى شعر سيدار بالتعاسة. فانتظر حتى حلول منتصف الليل، مؤملاً أن تغفر له وتعود أدراجها إليه. وعندما اضطرَّ إلى تقبُّل حقيقة أنّ انتظاره بلا فائدة، قيَّد غابا بالطوق، وخرجا من المنزل.

كانت المقبرة الأرمنيّة الكاثوليكيّة تبعد مسافة خمس وعشرين دقيقة سيرًا على القدمين. وكانت هذه المقبرة تروقه أكثر من أيّ مقبرة أخرى في اسطنبول. ولأجل أن يساعد غابا على المرور، سار نحو الباب الضخم المزخرف الذي لا يوحي بأدنى دليل عن المكان البرّاق الكامن من ورائه. تذمّر الحارس كمألوف عادته لمّا رآه قادمًا، إذْ كان قد اعتاد على رؤيته بمرور الزمان، ولا بدّ من أنّه عدّ هذا الشابّ الهزيل والقذر معتوهًا، ولكنَّه غير ضارّ، لأنّه لم يعد يعترض على وجوده بعد اليوم.

عندما وصل سيدار طريق الحجارة الفسيح الذي يتقاطع وإيّاه كلّ ممشى في المقبرة، لوَّح له رجل عجوز ووحيد جالس على مصطبة. كان الاثنان قد التقيا مرّتين قبلئذٍ، وتبادلا التحيّات، ولكن أحدهما لم يكلِّم الآخر.

Twitter: @ketab_n

ابتسم الرجل العجوز وربت على المقعد بجانبه، وقال:

ـ ها قد أتيت مجدَّدًا، لكنّك ما تزال في رَيَعان الصِّبا. لماذا أنت مسرع؟

تربَّع سيدار فوق طرف المقعد الثاني. وقبل أن يجيبه، راح ينظر مليًّا إلى العجوز، وفكّر أنّه لا بدّ في سنّ الخامسة والسبعين، أو ربّما حتى الثمانين، وكانت عيناه صغيرتين ودائريّتين، رماديّتين مائلتين إلى الزرقة العميقة.

ردّ سيدار معاندًا:

ـ لكنِّني رأيت عددًا كبيرًا من قبور الأطفال هنا.

ـ أنا لم أقل إنّك أصغر من أن يطالك الموت، بل كنت أعني أنّك أصغر من أن تفكِّر في الموت.

تناهى إلى المسامع صوت نباح غابا من مسافة بعيدة، ربّما لا شيء يستدعي القلق. لعلّ أحد الغرباء يعطيه شيئًا يأكله، فهو ينبح مثل هذا النباح عندما يوشك أن يحصل على لقمة من غريب. نباح معناه: «شكرًا جزيلاً على قطعة السميط، أنت في غاية اللطف».

تمتم العجوز، وقد لاح عليه الاهتمام بتجاذب أطراف الحديث على ما يبدو:

ـ كنت أفكِّر بدوري في الموت في هذا اليوم. ففي هذا اليوم، زارتني أختي، وأخبرتني بأنّ حلمًا مزعجًا راودها في الليلة الماضية مفاده أنّنا كنّا طفلين صغيرين، وفي أيدينا زجاجتي حليب، غير أنّ الحليب كان غير مألوف، إذْ لم يكن سائلاً، بل كان متكتِّلاً. وكانت الفئران الصغيرة بحجم إصبعي الصغرى تجري مسرعة داخله. فما كان من أمِّي إلّا أن أمسكت بأيدينا

Twitter: @ketab_n

وأبعدتنا، غير أنّ أختي عادت إلى ذلك المكان. وعلى الرّغم من أنّها كانت تعلم علم اليقين أنّ الحليب ملوَّث، فقد شربت منه. غضبت أمّي منها واستبدّت بها العصبيّة، وصرخت: «لماذا فعلتِ هذا؟ لقد ارتكبتِ إثمًا». إلَّا أنّها لم تتمكَّن من تحمُّل دموع أختي، فأجلستها في حضنها لتهدئتها، وقالت مطمئنة إيّاها: «لا تقلقي. سوف يغفر الله لك».

نبح غابا للمرّة الثانية، ربّما لأنّ أحد الغرباء حاول أن يربت عليه. فالتفت سيدار والرجل العجوز من غير قصد، ونظرا إلى مدخل المقبرة، وإنْ كانا يعلمان أنّهما لا يمكنهما مشاهدته من تلك الزاوية. لا بأس. ربّما كان معنى نباحه هو: سوف أسمح لك بالتربيت عليّ، إذا ما أعطيتني قطعة سميط أخرى.

استرسل العجوز:

ـ لم يراودني أيّ حلم على مدى سنين طويلة، بل لا أجدني أتذكَّر أنّي كنت قد حلمت يومًا ما أم لا، بيد أنّ أختي تساورها الأحلام، وكانت أحلامها تتحقّق على الدوام. إنّها امرأة مثقّفة. لو كنت التقيتها، وهي في ريعان شبابها، لما وجدت لديها اهتمامًا بأيّ شخص. كلّ ما يشغل تفكيرها الكتب! فتكدَّرت أمّي وضاق صدرها. مسكينة. ومنعت أختي من القراءة أكثر ممّا ينبغي، لأنّ كثرة القراءة تسبّب لها نزيف الأنف، إلَّا أنّ أختي واظبت خلسة على القراءة، وكان أغلب ما تقرأ الروايات... ذات الأصول الفرنسيّة... ما زلت أتخيَّلها منحنية من فوق الكتاب، مستغرقة في التفكير في عالم آخر. وكنت أعرف متى يبدأ نزيف أنفها مجدَّدًا. وكان في مستطاعي أن أحذِّرها، ولكنّني لم أكن قادرًا على الاقتراب منها أثناء انهماكها بالقراءة. لا أدري سبب ذلك! كلّ ما فعلته هو أنّني لبثت أراقبها،

Twitter: @ketab_n

منتظرًا في صمت قطرة الدم وهي تسقط. كانت ثمّة بقع كثيرة، حمراء اللون على صفحات الروايات التي كانت تطالعها، إذْ لم يكن في الإمكان مسحها أو تمزيق الصفحات. ما الذي في وسعك أن تفعله إذن؟ وهكذا بقيت البقع على حالها. كانت لديها مفكِّرة، وكانت لا تكلّمنا، لكنَّها كانت تكلِّم مفكِّرتها. وفي يوم من الأيّام، عدنا أنا وأختي من المدرسة لنجد كتبها ومفكِّرتها قد توارت عن الأنظار. وقالت أمّي محتدّة: «لقد رميت بها كلّها!»... فامتقع وجه أختي. كانت تحبّ أمّي. نعم. لكنّني لا أعتقد أنّها غفرت لها صنيعها أبدًا.

ازداد نباح غابا عددًا، وازداد علوًّا في كلّ مرّة. ربّما كان منزعجًا لسبب من الأسباب. كان نباحه هذه المرّة معناه: إذا لم تعطني قطعة سميط أخرى، فأرجو أن تتركني وشأني.

استطرد العجوز:

ـ ولمّا كانت أختي صعبة الإرضاء، فإنَّها لم تتزوَّج إلَّا في وقت لاحق من حياتها. كان زوجها طبيب عيون، ولديه عيادة في منطقة سيزلي، وأحبَّ أحدهما الآخر حبًّا حقيقيًّا. ولكنَّهما لم يرزقا بأيّ طفل، وإذا بالرجل المسكين توافيه المنيّة على نحو غير متوقّع. مات أثناء عبوره الشارع، ولا مناصّ منه أنّه فقد بصره أو ما يشبه ذلك. وخطا نحو الشارع من دون أن ينظر جانبًا. كانت السيّارة قد صدمته وهربت في رابعة النهار. لقد سبق لي أن رأيت رؤوس عدد كبير من الناس وقد ابيضَّ شعر رأسها حزنًا وغمًّا، ولكن في حالة أختي، فإنَّ جسدها هو الذي انكمش وذوى من شدّة الحزن. ولم يمض وقت طويل حتى باتت امرأة ضئيلة، مهمومة ومكتئبة. وتخلَّت عن كلّ شيء، وأضربت عن تناول الطعام، وعلّقت صور زوجها في جميع أرجاء المنزل. ومثلما كانت تكلِّم مفكِّرتها في شبابها، فإنَّها راحت تكلِّم

Twitter: @ketab_n

تلك الصور. وعندئذٍ ارتكبتُ هفوة كبيرة، إذْ فكّرت لو أنّني أخفيت كلّ مقتنيات زوج أختي عن أنظارها، فلربّما سهل عليها النسيان. وفي يوم من الأيّام، جمعت الصور خلسة، كلّها، وأعطيتها للأصدقاء والأقرباء. ومثلما لم تسامح أمّي أبدًا، فإنّها لم تسامحني أنا الآخر. وعندئذٍ انتقلت إلى دار أخرى. كما ترى، فقد فكّرت أنّ حياتها ستكون شاقّة إذا عاشت في منزل تحيط به ذكريات زوج أختي. لكن ما حصل هو العكس تمامًا.. فقد شقَّ على أختي أن تعيش هناك في اللحظة التي انطفأت تلك الذكريات. فانتقلت للعيش في مكان آخر. وبعد كلّ تلك السنين، ما تزال حتى يومنا هذا لا تسمح لي بدخول منزلها. كما أنّها لم تتزوّج مجدَّدًا، وظلّت طوال هذا الوقت تعيش وحدها عازبة. وإذا ما التقينا، فإنّنا نلتقي في دكّان بيع المعجّنات. هل تفقه شيئًا في تفسير الأحلام؟ المؤكَّد أنّ أختي تفقه في تفسير الأحلام، وأنّ أحلامها تتحقّق على الدوام.

سأل سيدار مندهشًا:

ـ إذن كيف فسّرت هذا الحلم؟

ـ قالت إنّها ربّما ستموت قبل أن تنتظر حتى يحين أوانها. وهذا هو سبب غضب أمّي منها.

هتف سيدار متعجّبًا بصوت تشوبه مسحة من الإثارة:

ـ أتعني الانتحار!

بدا وجه العجوز جامدًا، خَلْوًا من أيّ تعبير، وهو يرمش عينيه الرماديّتين الضاربتين إلى الزرقة، وكأنّه لم يفكّر سابقًا بمثل هذه الكلمة، أو حتى سمع بها.

بدا غابا الآن مرتبكًا أكثر من ذي قبل. فهو يستخدم نباحًا معناه: إذا كنت تصرّ على عدم تركي وشأني، فسوف أمضي في سبيلي! انطلق

Twitter: @ketab_n

سيدار مهرولاً، لكانت في جعبته أسئلة أخرى يودّ أن يطرحها على العجوز. فوجد غابا في مدخل المقبرة، مثلما توقّع تمامًا، ينبح نباحًا ينمّ عن ضيق في وسط مودّة واهتمام حشد من المتفرِّجين الفضوليين. وقبل أن يمضي لإنقاذ كلبه، توقّف مدّة ثانية واحدة ليلوّح للرجل العجوز، إلّا أنّ الأخير كان قد التفت إلى الناحية الأخرى وهو ما يزال يتمتم ويغمغم، كأنّه غير مدرك بعد إلى أنه بات وحيدًا الآن على المصطبة.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٩

أنّا وهايجين تايجين وســو

٦,٥٤ مساءً

كانت سو قد أدلت من فوق الكرسيّ ذي المرفقين بساقيها الرفيعتين كالعصا، المكسوّتين بأعداد كبيرة من عضّات البعوض، التي انقلبت إلى حكّة بسبب خربشتها إيّاها من دون توقّف، ووضعت يديها في جيبيْ بنطالها القصير، وركّزت من تحديقتها تركيزًا شديدًا في عقرب دقائق الساعة الجداريّة، وكأنّها بهذا التصرُّف ستعجِّل من سريان الزمن. كان معلّمها متأهِّبًا للعمل، ذا همّة من فوره. فهو لم يتأخّر عن موعد وصوله حتى هذا اليوم، حتى ولو كان تأخُّره دقائق معدودة، لكن لمثل هذه الدقّة في المواعيد ردود فعل. فقد كان ينهي الدرس في الموعد المحدّد تمامًا، ولم يلبث بعد ذلك ولو بضع دقائق. وكان في اللحظة التي يبدأ فيها الدرس، يضع ساعته ذات النطاق الجلديّ بينهما على الطاولة. وعلى الرّغم من أنّه لم يختلس النظر إليها، كما هو دأب من يشعر بالضجر، إلّا أنه ظلّ يثب على قدميه بمجرّد أن تنقضي الساعة.

٦,٥٧ مساءً

تقفز من مكانها لدى رنين جرس الباب. مبكرًا ثلاث دقائق.

Twitter: @ketab_n

كانت هايجين تايجين قرب المغسلة في المطبخ تكشط الرواسب المتجمّعة في قعر غلّاية الشاي. جفّفت يديها البيضاوين كالثلج ذواتي الأنامل المتغضِّنة بسبب بقائها في الماء الساخن طوال ساعات، وهرعت إلى الباب. ولمّا فتحته، راحت تتفرَّس في معلِّم ابنتها من قمَّة رأسه حتى أخمص قدميه. كان الرجل يبدو أنيقًا، بهيّ الطلعة ككلّ يوم. خلع حذاءه في إذعان قبل الدخول، ووضع عوضًا عنه خفًّا صحّيًّا من فوق جوربيه البنيين الفاتحين التقطهما من السلّة. في تلك الأثناء، شرعت الأمّ والابنة تراقبان حركاته وإشاراته مغاليتين في المجاملة والتقدير. ثم انتقل ثلاثتهم إلى غرفة الجلوس، تصدر عن وقع أقدامهم أصوات خفيفة. على أحد طرفيْ طاولة الطعام المستطيلة شرائح من قالب حلوى بجوز الهند في طبقين من الخزف، رفقة منديلين أبيضين على أحد جانبيْ الطبقين، ودفتر بزنابق بيض مفتوح، ورؤوس أقلام رصاص مشذَّبة بعناية، فضلاً على منفضة سكاير، وكلّها أُعدّت خصّيصًا للدرس قبل حلول موعده. في وسع المرء أن يدخِّن في هذا المنزل. فالدخان والرماد لا يُعدّان في مملكة هايجين تايجين من «القاذورات»، بحسب مفهومها.

ـ أرجو ألَّا ينمّ عملنا في الداخل عن قلّة أدب أثناء محاضر هنا.

كانت تتفوّه بهذه العبارة على الدوام قبل كلّ محاضرة. وكان ردّي دائمًا هو: لا، أبدًا.. أيّتها السيِّدة تايجين. أرجوكِ أكملي عملك.

في تلك اللحظة، ظهرت للعيان المنظِّفة من داخل الحمَّام، تحمل بإحدى يديها دلوًا مملوءًا بماء فيه رغوة صابون، وفي اليد الثانية ممسحة أرجل ذات شراريب رثَّة لكثرة استعمالها. وجاءت من ورائها مريم حاملة بطنها المنتفخة جدًّا، وكانت قد تركت منشفة طويلة بيضاء كالثلج متدلّية من إحدى كتفيها وكأنّها مدرِّب ملاكمة أو مدلّك في حمّام تركي. ولاح على المرأتين ضيق، وهما تضعان الخفّ الصحّي في أقدامهما.

Twitter: @ketab_n

سألتها:

ــ لماذا ما تزالين تشتغلين؟

ولكن قبل أن تحر جوابًا، تدخّلت هايجين تايجين قائلة:

ـ لا، لا. مريم لا تشتغل حقًّا. فقد توقّفت عن الشغل في الأسبوع الماضي، بيد أنّي كنت في ضيق شديد من دون مساعدة، فكان هذا هو الحلّ الذي توصّلنا إليه: فمريم توجّه أسماء خانم بما يتوجَّب عليها عمله، وأنا ممتنّة لها. صحيح؟

عندما سمعت أسماء خانم اسمها يُلفظ، التفتت وألقت تحيّة فاترة الهمّة تعوزها الحيويّة، ولعلّها كانت غير متحمِّسة تحمُّس المرأتين الأخريين في موضوع تقسيم العمل. ثم عادت النساء الثلاث إلى عملهنّ المتعب، تاركات المعلِّم والطالبة وحدهما.

٧,٠٠ مساءً

بينما أخذت سو تدنو بكرسيِّها أكثر من الطاولة، اختلست نظرة خاطفة إلى ساعة اليد الجلديّة النطاق الموضوعة مثل حاجز ـ يفصل بينهما.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٧

أنا والعشيقة الزرقاء

لدى رجوعي إلى منزلي بعد انتهاء الدرس، وجدت العشيقة الزرقاء ما تزال هناك. زد على ذلك، أنّها وضعت عددًا من الصناديق التي كانت تنتظر من يفتحها، في أماكنها، بعد أن لبثت هناك منذ اليوم الذي انتقلت فيه، كما أنّها رتّبت المكان ترتيبًا جيّدًا. غير أنّها أخبرتني أنّها سوف تمضي في سبيلها لإعداد الطعام لتاجر زيت الزيتون. فامتنعتُ عن الخوض في هذا الموضوع ـ لأنّ سير الأمور على ما يرام بينهما مؤخّرًا ليس من شأني.

قالت متودِّدة:

ـ أخبرني، أيّ طعام ترغب فيه؟

تذمَّرت، وقلت:

ـ معكرونة الباستا.

على الرّغم من عبوسها الأوّلي، إلّا أنّها رأت الفكرة عمليّة. ففي حين بدأتُ بإعداد المعكرونة، شرعت هي بتحضير صلصة الطماطم والزعتر، بما يتوافر في البيت من كمِّيّة قليلة من المقادير. أعتقد أنّ ذلك هو السبب الذي يجعلها تحبّني. فعلى العكس من الرجال الآخرين في

Twitter: @ketab_n

حياتها، فإنّني لا أطلب منها إلّا أقلّ ما ترغب هي في منحه. أمّا أنا، فإنّني أتلقّى لقاء ذلك، أكثر ممّا طلبت في البداية.

رنّ جرس الباب عندما تحلَّقنا من حول المائدة. كانت سو فتاة غريبة الأطوار جدًّا. فقد جاءت حاملة دفترها بيدها لتخبرني أنّني نسيت إعطاءها واجبًا بيتيًّا لإعداده في عطلة نهاية الأسبوع. دعتها العشيقة الزرقاء للجلوس من حول المائدة، إلّا أنّها لم ترغب في الجلوس. وبينما هما تتجاذبان أطراف الحديث، اخترت عددًا من التمرينات تفوقها مستوًى. إذا كانت تريد أنّ تفسد عطلة نهاية أسبوعها بواجب إضافيّ، فليكن كذلك.

نخرت العشيقة الزرقاء، عندما أفلحنا أخيرًا في الجلوس حول المائدة لتناول طعامنا:

ـ حسنًا، اتّضح أنّني لست الجارة الوحيدة التي أغرمت بوجهك الوسيم، أيّها الأستاذ.

ـ لا تتكلّمي كلامًا لا معنًى له، فهي ليست سوى طفلة.

ـ ثم ماذا؟ ألا يمكن للأطفال أن يُغرموا بأحد؟ أقسم بالله، إنّني أعرف أنّه كان في وسعي أن أحبّ وأنا في ذلك العمر. أَلَم تُحبّ فتاة عندما كنت طفلاً؟

شعرت بالحرج على حين بغتة. فالعشيقة الزرقاء تتكلّم على طفولتها، وكأنّها تشير إلى ماضٍ موغل في القدم.. في حين أنّ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة على الأكثر تفصلها عن ذلك الزمان. وإذا ما فكّرنا في الأمر، فإنّ إحدى عشرة سنة لا أكثر هي التي تفصل بين سو والعشيقة الزرقاء.

قالت مُصرّة، ومنزعجة على ما يظهر بسبب التزامي الصمت:

ـ لم تجب! هل سبق لك أن أحببت وأنت طفل أم لا؟

Twitter: @ketab_n

الحقّ، أنّني أحببت. إنّ ذلك الحبّ كان ذكرى لا تستحقّ التسجيل. فقد كنت أذهب إلى المدرسة رفقة فتاة متقلّبة صخّابة، ذات نزوات ونمش. أتذكّر أنّني انجذبت إليها. وأنا حتى هذا اليوم، لم أصادف شخصًا مثلها له ميل طبيعيّ إلى السرقة. كلّ ما كان يهمّها هو أنّ ما من شيء في الوجود يحول بينها وبين الاستمتاع بسرقة شيء يملكه شخص آخر: تفّاحة من بستان الجيران، خفّ من عتبة بيت يسوده جوّ عائلي، وأقلام رصاص ومماحي من زملاء الصفّ الدراسي... فكانت تختلس كلّ هذه الأشياء وتقاسمني غنائمها في كلّ مرّة... وكانت بين الفينة والفينة تدخل متمايلة دكّانًا، تفوح منه رائحة كريهة لإسكافي قبيح المنظر مدمن على تنشُّق الصمغ، كنّا نمرّ به في طريقنا إلى المدرسة. وفي الوقت الذي كنت أدردش مع الرجل، كانت هي تملأ جيوبها بالمسامير ونعل الأحذية. ولا يعلم إلّا الله السبب الذي كان يدفعنا إلى أن ندقّ تلك الأشياء على الأسوار أو المصاطب أو العلب أو الأبواب التي كنّا نصادفها. إلّا أنّ حبيبتي، وبعد كلّ الذي تقاسمناه، لعبت لعبة قذرة معي من دون سبب وجيه، ووشت بي أمام والديَّ. غير أنّ والدي لم يكترث قيد أنملة عندما تلقّى نبأ سرقات ولده، بيد أنّ أمّي كانت لها حكاية أخرى معي. فاستشاطِ غضبها، وبالغت في استخدام عقابها الأموميّ إلى أبعد حدّ. وبعد عشرة أيّام، توفّي والدي، فمسح بذلك من جدول أعمال أمّي فضيحة جنايتي إلى الأبد.

سألت العشيقة الزرقاء، وهي تهزّ طاحونة الملح للمرّة العاشرة، كأنّها مصمِّمة على العثور على قعرها:

ــ ما اسمها؟

بذلت قصارى جهدي، ولكنّني لم أستطع أن أتذكّر اسمها ــ مثلما لم أستطع أن أتذكّر أسماء أغلبيّة أصدقاء طفولتي. اعترفت لها بصعوبة تذكُّر أسماء الأشخاص، غير أنّني لم أكشف لها أنّ هذه العادة كانت

Twitter: @ketab_n

تثير ثائرة آيشين. على أيّ حال، كانت العشيقة الزرقاء لا تسأل إلّا أقلّ الأسئلة عن حياتي الزوجيّة السابقة. ربّما كان ذلك يرجع إلى ضجرها من سماع زواج تاجر زيت الزيتون، أو ربّما كانت واحدة ممَّن يصيخ السمع للحديث عن طفولة دائميّة، وليس عن ماضٍ قريب. أخبرتها أنّني قد أتذكّر الألقاب أكثر ممّا أتذكّر الأسماء ـ فأنا لا أنساها بسهولة.

تمكّنتْ أخيرًا من ترك طاحونة الملح والتوقّف عن هزّها، وقالت:

ـ إذن اختر لي لقبًا.

قلت لها مؤكِّدًا:

ـ لديك لقب. فأنت «العشيقة الزرقاء».

لم تقل شيئًا، ولكنّني تمكّنت من أن أرى في عينيها كلّ شيء. لقد راقها الاسم الذي كنت أعطيتها إيّاه.

٣,٣٣ فجرًا

استيقظت، فلم أجدها بجانبي.

لكنّني وجدتها في الشرفة، ممتقعة الوجه، وكأنّها نهضت من نومها وهي في خضمّ كابوس رهيب، يثبط العزيمة على نحو سرق منها رغبة الخلود إلى النوم مجدّدًا. تهالكت من فوق الكرسي المجاور لها، وأشعلت سيكارة. رأيت من تحت طاولة القهوة التي تفصل بيننا جيوشًا من النمل تطوف من حول قطعة من البطّيخ، بدأت تتعفّن في المكان الذي سقطت عليه. وبينما كان النمل يجهد نفسه بقطعة البطيخ، جلسنا صامتيْن، نرنو إلى الشارع الخالي.

قالت شاردة الذهن:

ـ أراهنك، على أنّ تلك الفتاة لم تخذلك وتبلّغ عنك. لا مناصّ من أنّ والدتك سمعت بما سمعت من طريق آخر، ما الذي يدفعها إلى ذلك

Twitter: @ketab_n

الفعل. فأنتما الاثنان متواطئان.

دخلت الشقّة، وأحضرت كأسين كبيرين من مشروب العرق. فأخذت كأسها مبتسمة، ولكنَّها لم ترشف منها إلَّا النزر اليسير. الواضح، أنّها ليست معتادة على احتساء المشروبات. إلَّا أنّها بالرّغم من ذلك، لم ترغب في الإفصاح عن ذلك، وربّما كان السبب أنّها كانت على الدوام تلتقي رجالاً يحتسون المشروبات كالإسفنج. وبعد إمعان الفكر، قرّرتُ أنّني ربّما كنت مخطئًا في هذا، فهي، على كلّ حال، ليست من النمط الذي يخدع الآخرين. وربّما كانت هي نفسها غير مدركة لعدم رغبتها في المشروبات الكحوليّة في المقام الأوّل.

قلت:

ـ ربّما كان العكس هو الصحيح!

عندما أفرغ من تناول كأسي، فإنّني سوف أحتسي كأسها أيضًا ـ شريطة ألَّا تلطِّخ الكأس بأحمر الشفاه. وأضفت قائلاً:

ـ التواطؤ قد يربط الناس ببعضهم بعضًا، إلَّا أنّ ذلك الارتباط من شأنه أن يكون عابرًا. الحقّ، إذا كنت متواطئة مع آخرين، فإنّكِ ستحاولين التخلُّص منهم في أقرب فرصة مؤاتية. وإذا لم تلجأي إلى ذلك، سيحاولون هم التخلُّص منك. إنّ من يرتكب خطأ قد يعود إلى مكان الجريمة، وليس إلى الشريك في الجريمة.

قالت:

ـ آه، ليباركك الله يا معلّمي. أنت تعرف كيف تتكلَّم.

ثم وضعت الكأس التي كانت تداعبها فوق الطاولة. ممتاز. لا أثر لأحمر الشفاه. وأضافت:

ـ هل يستمتع تلاميذك بالإصغاء إليك؟

ـ رافقيني يومًا ما إلى الصفّ، واجلسي وسط الطلَّاب، وقرِّري بنفسك.

Twitter: @ketab_n

ـ وإذا سأل أحدهم: من هذه؟ فبماذا أُجيب؟

تمتمت، وأنا أداعب وجهها:

ـ سوف تكونين طالبة من مكان آخر، وقد جئت للاستماع إلى المحاضرة.

لم تكن الندبة على وجهها واضحة في هذا الضوء المعتم، قلت:

ـ لكن إن شئِت، ففي وسعي أن أخبرهم بأنّك صديقتي.

قطّبت جبينها واحتدمت غيظًا:

ـ ستكون تلك كذبة واضحة. كيف يمكن لهم أن يظنّوا بأنّني صديقتك؟ لن يستغرق منهم سوى حديث قصير وإيّاي حتى يكتشفوا الكذبة. فأنا ليست لديّ أدنى فكرة عن كثير من الأشياء التي تتكلّم عليها. فأنا لم ألتحق بأيّ كلّيّة، والواضح أنّني لن ألتحق وأنا في هذه السنّ.

أيّ سن؟ يراودني شكّ في بعض الأحيان بأنّها لا تدرك كم هي صغيرة السنّ.

أمطرتني بسيل من الكلمات، عندما أدركت أنّني موشك على الاعتراض:

ـ الصداقة تستند إلى التوافق. في وسع المرء أن يُغرم بشخص آخر غير متوافق معه، ولكن لا يمكن أن يكونا صديقين. فمن جهة أولى، عندما تتكلَّم، فينبغي للآخر أن يفهم كلامك من فوره. وهذا يتطلَّب مستوى ثقافيًّا مماثلاً. فأنا وأنت لا يمكننا أن نكون صديقين. ولا يمكننا أيضًا أن نتزوّج، أو أن نكون عاشقيْن. حاولنا أن نكون جارين، إلّا أنّنا أفسدنا الجيرة أيضًا.

ـ ولماذا لا يمكننا أن نكون عاشقين؟

بدلاً من أن تردّ العشيقة الصغيرة على استفساري من دون أحمر شفاه ومن دون تسامٍ، رشفت رشفة كبيرة من مشروبها الذي ظننت أنّها

Twitter: @ketab_n

أهملت شأنه منذ مدّة طويلة، وتجهّم وجهها مباشرة. لماذا ترغم نفسها على تناول مشروب، بينما لا تروقها المشروبات الكحوليّة أبدًا؟

قالت من غير تبصُّر بغتة:

ـ أعتقد أنّنا إذا أردنا أن نطلق علِى نفسينا أيّ صفة، فإنَّها صفة متواطئين.

كانت خشونة كلماتها لا تنسجم أبدًا وطبيعة حركاتها الكسولة، عندما مدّت يدها ناحية المكسَّرات البائتة للتخلُّص من مذاق المشروب في فمها.

شقّت سيّارة بيضاء معتمة النوافذ طريقها وسط شارع الجبل، وكان صوت شريط التسجيل يصدح عاليًا من داخلها. هزّت العشيقة الزرقاء رأسها من فوق السور الحديديّ وأطلقت شتائمها من دون تحفُّظ. فما كان منّي إلّا أن جذبتها ناحيتي وقبّلتها. تلاشى صوت الموسيقى الذي شقّ الآذان رويدًا رويدًا، وفي غمرة ذلك السكون، مرقت بعوضة متعجّلة خلسة، وهي تبعث طنينًا. هدأت الريح، فامتلأ الجوّ برائحة الزبالة الكريهة. أنهت العشيقة الزرقاء تناول الفستق في الطاس، وأنهيت أنا احتساء مشروب العرق من كأسي، فواصلت احتساء كأسها. في الهجمة التالية للبعوض، تردّد صدى تصفيقي في الجوّ. ففتحت يديَّ مؤمِّلاً أن أراها ميتة، لكنّني وجدتهما خاليتين.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ١٠
السيِّدة العمَّـة

ـ هل أنت مستاءة من شيء ما يا سو؟

ردَّت سو ردًّا حادًّا، وهي تضغط على دفتر تمارين اللغة الإنكليزيّة الذي لفّته لفًّا:

ـ إنّني بخير.

قالت السيِّدة العمّة، محاولة ألَّا تقلق بسبب ما تشعر به الصبيّة من مرارة:

ـ لِمَ لا أعدّ لنا فنجانين من القهوة اللذيذة بالحليب، على أن تختاري بنفسك الفنجانين من الخزانة الزجاجيّة يا عزيزتي؟

بالرّغم من أنّها تعهّدت في نفسها أن تبعد الفتاة عنها بعذر وجيه، إذا ما جاءت وقرعت الباب مجدَّدًا، إلَّا أنّها لم تستطع الوفاء بوعدها، بعد أن رأت الفتاة في مثل هذه الحالة من الكدر وضيق الصدر.

تنهَّدت سو تنهيدة قويّة، وهي تسير من وراء المرأة العجوز داخلة المنزل. ففي هذا الطقس الدافئ، كان آخر شيء تتمنّى أن تشربه هو القهوة بالحليب. لكن ما الفارق! فكلّ شيء مغثٌّ وحقير على أيّ حال. كانت كلمة «مغثٍ» هي السائدة في هذه الأيّام بين أوساط الناس، بدلاً

Twitter: @ketab_n

من كلمة «رهيب». ما الفرق إن احتست كوكاكولا مغثة أو قهوة بالحليب مغثة؟ حكّت ساقيها النحيفتين وسارت متكاسلة ومتهدِّلة إلى غرفة الجلوس، وفتحت الخزانة الزجاجيّة المنتصبة في ركن الغرفة، واختلست نظرة إلى الداخل في دهشة عميقة. ثمّة أشياء كثيرة جدًّا هنا! فقد اصطفّت على رفوف الخزانة أكواب خزفيّة مقلوبة، وأكواب مشروبات، وكؤوس شمبانيا، وأباريق بلّوريّة، وإطارات مزخرفة، وكلّ أنواع العلب الصغيرة المنقوشة التي لم تستطع أن تُدرك مغزى وظائفها. وبعد نظرة سريعة، تاقت إلى فنجانين أرجوانيَّين بمقبضيْن لبلابيْن متداخليْن.. وكان من خلفهما صينيّة دائريّة مزجَّجة، عليها رسوم تمثّل رجلاً متين البنية، ذا شارب، وقبّعة سوداء بلون الغراب، حاملاً امرأة أسفل سلّم وهي في حضنه، يتدلَّى ثوبها الشفّاف إلى كاحليها. كانت المرأة قد وضعت رأسها على كتف الرجل، تحدِّق حالمة إلى الأفق، وكأنّهما ليسا فوق سلّم يمكن لهما أن يسقطا من فوقه في أيّ دقيقة، وإنَّما فوق تلٍّ شاعريّ يطلّ على مشهد بهيٍّ. كانا يبدوان وكأنّهما يهربان من حكاية خرافيّة ينتميان إليها. ويمكن للمرء أن يلاحظ بضعة بيوت، ومن ورائها غابة بتدرُّجات من لون أخضر. قلبت سو الصينيّة على ظهرها كأنّها تؤمل أن ترى فيها المصير الذي ينتظر هذين الفردين المبجّلين، إلَّا أنّها لم تشاهد أيّ صورة على الجانب الخلفيّ، وإنّما كلمة واحدة وهي: «فيشينياكوف».

وضعت الفنجانين الأرجوانيَّين على الصينيّة، وأغلقت باب الخزانة بقدمها. وفي اللحظة التي كانت توشك على الانصراف، لمحت عيناها شيئًا آخر في أقصى الغرفة. كان باب غرفة الجلوس المؤدّي إلى الردهة مواربًا، وبدا ما وراء الباب غريبًا إلى حدٍّ ما...

اقتربت من الباب بلامبالاة، وفتحته على مصراعيه، فجمدت في مكانها. إلَّا أنّها كالمسحورة، راحت تتقدَّم خطوة فخطوة على امتداد

Twitter: @ketab_n

ردهة منزل السيِّدة العمّة. كانت كلّ خطوة من خطواتها تجعل من قلقها ينطوي على شيء لا يصدّق.

نادت السيِّدة العمّة من المطبخ:

ـ ما مقدار السكَّر الذي تريدين؟

ولمّا لم تسمع ردًّا على تساؤلها، خفضت من لهيب النار من تحت الحليب، وذهبت لتصطحب ضيفتها. وعندما شاهدت غرفة الجلوس خاوية، فكَّرت أنّ الطفلة قد خرجت، إلَّا أنّها لاحظت بعد ذلك باب الردهة مفتوحًا عن آخره. وفي حالة من ذعر شديد، مدَّت يدها في حركة لاشعوريّة إلى عنقها، لكنَّها لم تجد الفتاة. رنت بعينيها الرماديّتين الضاربتين إلى الزرقة، الفزعتين، إلى أن شاهدت المفتاح المخملي المزيَّن بالأشرطة مذنّبًا على طاولة القهوة في ركن الغرفة. طار الدم من وجهها، وخفق قلبها خفقانًا شديدًا، واندفعت إلى الردهة من وراء الفتاة.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٥
حاجّي حاجّي وكنّته وأحفاده

صاحت الكنَّة في ألم:

ـ استمرّا في السير، استمرّا في السير وإلّا سأكسر لكما سيقانكما!

عندما سمع الطفلان هذه الكلمات، بدآ بالبكاء أشدّ من ذي قبل وهي تجرّهما جرًّا. أمّا الطفل البالغ سبع سنوات ونصف السنة، فكان يمشي إلى الخلف، فاتر الهمّة، تعوزه الحيويّة والنشاط، يمشي في هدوء تامّ. على الرّغم من أنّه استمتع كثيرًا اليوم بما صادفه من مرح، إلّا أنّه كان يومًا قاسيًا على أمّه. ولعلّ المدير الذي كان لا يأتي إلّا مرّة واحدة فجأة إلى السينما، قد أتى اليوم في وقت الظهيرة تقريبًا، ربّما نتيجة لتذمُّر عاملة قطع التذاكر الأخرى.

وزمجر:

ـ أتظنِّين أنّنا ندير مركز رعاية نهاريّة في هذا المكان؟

ثم عبس وتجهَّم وجهه أمام الطفلين البالغين خمسة أعوام ونصف العام وستّة أعوام ونصف العام اللذين كانا يقفان في الركن، فاغريْ الفم أمام صورة علاء الدين والجنِّي ذي الكرش الضخم، الجالس متصالب الساقين على بساط مقوّى أبعاده ١ × ٢ متر، والمتدلّي من السقف لبث

Twitter: @ketab_n

الدعاية للشريط السينمائي. كان الطفلان يبكيان من دون توقف، من تلك اللحظة فصاعدًا.

كانت الكنّة قد توسّلت مطأطأة الرأس، كسيرة الخاطر، وإن كانت تعلم علم اليقين أنّ توسُّلاتها ستذهب أدراج الرياح:

ـ لو تحمّلت يومين آخرين، فأنا واثقة من أنّني سأجد حلًا على وجه التأكيد!

لدى اقترابهم من قصر الحلوى، تلاشى بكاء الطفلين وتحوّل زعيقهم وصياحهم أخيرًا إلى صوت، نادرًا ما كان ينساب للآذان، ولكن ما إنْ ولجوا باب الشقّة رقم ٥ حتى راح الاثنان يركضان ويمرحان في أحضان جدّهما، وكأنّهما نابض ساعة مفكّك. في تلك اللحظة، كان حاجّي حاجّي قد غفا قليلاً على الديوان، وقد سقط أحد الكتب الأربعة من بين يديه. حاول أن ينهض واقفًا على قدميه بعد أن فاجأه الطفلان بهذا الفيض غير المتوقَّع من الحبِّ، ورمشت عيناه في ذهول وحيرة.

قالت الكنَّة مشيحة بأنظارها جانبًا:

ـ إنّني أعهد إليك يا أبي بالطفلين، وينبغي لي العودة إلى عملي الآن.

جذب حاجّي حاجّي رأسيْ الصبيّ الصغير والصبيّة الصغيرة إلى لحيته. فلمّا وجد الطفلان هذا التشجيع من جدّهما، بدآ جولة جديدة من الصياح. أمّا الكنّة، فقد لبثت واقفة، ساكنة، تراقب حزينة هذا المشهد، وهي تسمع نفسها تقول:

ـ لكنّني أتوسّل إليك، أرجوك.. ارحمنا، ولا تفسد عقليْ الطفلين بقصصك الخرافيّة.

أُغلق الباب، وبقي الأطفال الثلاثة وحدهم رفقة جدّهم. وبعد أن أدرك الطفلان الصغيران أنّ مآقيهما جفّت من الدموع والبكاء، تنهّدا تنهيدة عميقة، وجمع الجدّ الشعر المتراكم من لحيته عندما حنت تلك

Twitter: @ketab_n

الفوضى والجلبة، وغشيهم صمت مغيظ، إذْ لم يعرفوا ما الذي يتعيَّن عليهم فعله بعد الآن. وقبل أن يمضي وقت طويل، طرح الطفل البالغ من العمر سبعة أعوام ونصف العام رأسه الكبير إلى الخلف، وابتسم ابتسامة لمعت فيها عيناه الخضراوان بلون الطحلب. الحقّ، أنّه استمتع بدوره بالعودة إلى المنزل. صحيح أنّ الخروج يمثِّل متعة، إلَّا أنّه كان قد شعر أنّه ضئيل مثل قملة، مثلما أنّه غريب وسط كلّ أولئك البشر الذين راقبوا كلّ حركة من حركاته بعطف وشفقة. فهو في هذا البيت الآمر في هذه المملكة الصغيرة، والسيِّد الذي لا ينازع على حياته المحميّة، على العكس من العالم الخارجي.

صرّح بوقار:

ـ هيّا يا جدِّي! لا تتلكّأ ولا تتوانَ، ففي وسعك أن تحكي لنا أيّ حكاية تشاء!

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١٠
السيِّدة العمَّة وسو

هتفت سو متعجِّبة، وهي تهزّ رأسها في دهشة متزايدة:

ـ لديك حاجيات كثيرة هنا أيّتها السيِّدة العمّة!

عندما وصلت المرأة العجوز إليها، كانت الفتاة قد وصلت نهاية الردهة؛ وصلتها، ورأت محتويات الغرف الثلاث المؤدّية إلى الردهة:

ـ إنّها ليست كلّها ملكي.

ـ صحيح؟ لمن هي إذن؟

ـ إنّها ملك مختلف الناس. فأنا أعتني بحاجياتهم.

قالت السيِّدة العمّة ذلك من دون أن ترفع بصرها عن الصينيّة والفنجانين الأرجوانيَّين من فوقها. كان عقلها قد عجَّ بالخوف من تحطّمهما، بيد أنّها صعقت تمامًا عندما لم تتقدّم خطوة واحدة لأخذ البويار[1] وعشيقته من يديّ الطفلة.

غير أنّ سو كانت هي الحائرة في هذه اللحظة بالذات. فقد نشأت هذه الطفلة في بيت يهيمن عليه اللون الأبيض، وكلّ شيء فيه خاضع

(١) البويار Boyar: واحد من طبقة النبلاء في روسيا، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

باستمرار للتنظيف والتلميع والكنس والتعقيم، يُبيَّض تبييضًا لا هوادة فيه، ولكنَّ بياضه يظلّ غير كافٍ. وشعرت أنّها أُنزلت في حديقة سحريّة لم تصدّق أنّها موجودة على وجه الأرض. هناك أشياء كثيرة من كلّ لون، باستثناء اللون الأبيض. كانت الحاجيات والمقتنيات متكدِّسة بعضها فوق بعض، متداخلة، متغلغلة في كلّ زاوية وركن، بحيث إنّ كلّ غرفة من الغرف الثلاث لاحت محتشدة بها حتى السقف. في خضمّ هذا الخليط المتنوِّع، كان يصعب فصل ما هو ثمين عمّا هو عديم القيمة، فقد كانت الأشياء مختلطة ببعضها ببعض تمامًا. وأمام هذه الموادّ الكثيرة، لم تستطع سو منع نفسها من الاعتقاد بأنّ هذا المكان أكبر من شقَّتها بكثير، بل إنّ هذه الشقّة أكبر بكثير من كلّ الشقق التي شاهدتها حتى الآن، إذا ما اجتمعت في شقّة واحدة! الحقّ، أنّ الشقّة رقم ١٠ لم تبدُ شقّة إطلاقًا، وإنّما تركيبًا غريبًا وملتويًا يحتوي على أكداس من مختلف الأشياء ومئات من الأزرار المتباينة، فإذا ما سحبت زرًّا واحدًا، فإنَّ التركيب برمَّته سوف ينهار ويتوقّف عن العمل.

ثمّة أقلام جافّة في كلّ مكان... ومصابيح كهربائيّة محترقة، وبطّاريّات مستهلكة، وأقمشة شفّافة ممزّقة، وبالونات منفجرة، وأدوية منتهية الصلاحيّة، وأقمشة مستعملة، وأزرار لا يشبه فيها اثنان أحدهما الآخر، ولواصق فقدت صمغها، وخرطوشات فارغة، وقدّاحات من دون غاز، ونظّارات مكسورة العدسات، وأغطية جرّار من مختلف الأحجام، ونقود لم تعد صالحة للتداول، وقطع ممزّقة من القماش، وحليّ صغيرة رخيصة الثمن متصدِّعة، وصور اصفرَّ لونها، وصور من دون إطارات، وشراريب ممزَّقة، وشعر مستعار مهلهل، ومفاتيح فقدت حلقاتها، وأكواب مكسورة المقابض، وزجاجات رضاعة من دون حلمات، وظلّات مصابيح منضديّة رثّة، وكتب عتيقة، وصناديق مختلفة الأحجام (بعضها من اللدائن وأخرى من الخشب)، وعِرق لؤلؤ تلاشى

Twitter: @ketab_n

بريقه، وورق مقوّى، وزجاجات حليب فارغة، وعيدان حلوى التفّاح، وعيدان مثلّجات، وطاسات طعام، ودمى بلا رؤوس أو أطراف، ومظلّات واقية من الشمس بأسلاك بارزة، ومصافي سوائل مسودّة اللون، وأجراس أبواب لا تعرف على أيّ باب كانت ترنّ، وسراويل ضيّقة منسّلة أوقف تمدُّدها باستخدام طلاء الأظافر، وورق تغليف ومقابض أبواب، وأدوات منزليّة مكسورة، ودفاتر مملوءة كتابة، وصحف مصفرّة اللون، وزجاجات عطر فارغة، وفردات أحذية مختلفة، وأجهزة تحكُّم عن بُعد مهشّمة، وقطع معدنيّة صدئة، وحلوى قديمة، وخواتم بلا حجر، وماسك ورود مُخرّم، وبطانة أحذية، ولاستيك من المطّاط، وأقفاص طيور، وآلات كاتبة بحروف مفقودة، وشاي متعفّن فطريًّا في علب معدنيّة، ورزم تبغ، وأساور متباينة الألوان، ومشابك لشعر المرأة. كلّ واحد منها أجمل من الآخر، وعدسات منظار مكبِّر... في الوقت الذي راحت سو تجيل الطرْف من حولها في حيرة وذهول، وقع بصرها على شبكة صيد سمك كبيرة الحجم، معلَّقة فوق مجموعة من الأشياء.

قالت السيِّدة العمّة بصوت اكتسب فخرًا وكبرياء:

ـ البحر هو الذي أتى بها.

ـ قلتِ إنّ البحر هو الذي أتى بها؟

ـ البحر يغدو كريمًا جدًّا عند هبوب الرياح القويّة، حاملاً معه كومة من الأشياء إلى الساحل. إنّ أمواج البحر تلعب بكلّ هذه الأشياء كما يلعب الأطفال بالكرات، فتنتقل إلى أمام وإلى الخلف، حتى تأتي إلى الساحل. الموج مثل البشر، سرعان ما يضجر من الأشياء. وكما تعلمين، فإنّني لست الوحيدة التي تذهب إلى الساحل. ثمّة عدد كبير من الاسطنبوليّين الذين يبحثون عن مثل هذه الأشياء التي ينقلها البحر.

Twitter: @ketab_n

على أيّ حال، لم تعد سو تصغي لكلام السيِّدة العمّة، بل راحت عوضًا عن ذلك تحدِّق إلى قبّعة طفل مصنوعة من المخمل البنفسجيّ. كانت قبّعة جميلة وجديدة على ما يبدو. وقالت، وهي تدفع الصينيّة بين يديْ صاحبتها وتمضي لِلَمْس سطح القبّعة الناعم الملمس:

ـ من أين حصلت على هذه القبّعة، أيّتها السيِّدة العمّة؟

تردّدت المرأة العجوز لحظة من الزمان، لكن سبق السيف العذل، إذْ ما الذي يمكنها أن تخفيه الآن عن هذه الصديقة الصغيرة التي تجاوزت حدودها من فورها، وإلى أيّ مدًى؟

ردّت:

ـ كانت في الزبالة. أنا لا أعرف ما الذي يدفعهم إلى رمي مثل هذه القبَّعة الجميلة في الزبالة!

ثم ربتت على القبَّعة شاردة الذهن. وتخيّلت الصعلوك الذي واجه إطلاقاتهم بكلّ شجاعة يبتسم لها، ملوّحًا بكيس من الإطلاقات الصغيرة استحوذ عليها من الزبالة. وأصبحت أسنانه الصفراء واضحة الوضوح كلّه.

ـ وهذه؟ لماذا أخذتها؟

تساءلت المرأة العجوز، وهي تنظر نظرة خاطفة إلى زجاجات الحبوب الفارغة:

ـ هل هي سيِّئة؟ إنّ المرء يحتاج دومًا إلى زجاجات فارغة. التخلُّص منها عمل غير صحيح.

أنعمت النظر إلى أسنان المرأة العجوز، فرأتها ـ ويا للغرابة ـ نظيفة وبيضاء، مثل أسنان أمّها تمامًا.

ـ إذا أعجبتك القبّعة، فخذيها. إنَّها تلائمك تمامًا.

ـ حقًّا؟

Twitter: @ketab_n

ومضت عينا سو، وهي تمدّ يدها إلى المرآة التي شاهدتها وسط علب الصفيح الفارغة المكدَّسة بجانب الجدار. وبمجرّد أن اعتمرت القبّعة المخمليّة البنفسجيّة، انفجرت ضاحكة. إذْ تبيّن أنّها مرآة مكبِّرة، وليست مرآة اعتياديّة.

هتفت السيِّدة العجوز في اللحظة ذاتها:

ـ آه، لا. لقد نسينا الحليب. اركضي. . اركضي!

هرعت المرأتان إلى المطبخ: سو في المقدِّمة والعجوز من ورائها حاملة الفنجانين الأرجوانيَّين. كان الحليب في الغلَّاية الصغيرة قد فار منذ مدّة طويلة، وانتشر في كلّ مكان على الفرن، مُطفئًا الموقد الغازي بذلك.

بعد أن فرغتا من تنظيف الفرن، وعادتا أدراجهما إلى غرفة الجلوس، رنت سو مجدَّدًا في دهشة إلى باب الردهة الذي كان ما يزال مواربًا، وانفجرت قائلة:

ـ يا للسماء! يا للسماء!

كانت هذه العبارة شائعة في أوساطهما في تلك الأيّام، بدلاً من كلمة: «يا للحقارة. . يا للحقارة!».

وتربَّعت فوق أقرب كرسيّ ذي مرفقين، وراحت تهزّ ساقيها الهزيلتين، وأضافت:

ـ هذه هي قلعة الزبالة! لو رأى الأولاد هذا، لاستبدَّت بهم الإثارة.

تلعثمت المرأة العجوز، وهي تناول الطفلة القهوة بالحليب:

ـ لكنْ، لا ينبغي على الأولاد رؤية هذا المكان! لا ينبغي على أحد رؤيته. . .

ثم قدَّمت للطفلة قطعة شوكولا بيضاء من طاس الحلوى البلّوري على طاولة القهوة. أخذت الطفلة القطعة ورمت بها في فمها من دون أن

Twitter: @ketab_n

تفكِّر، إلَّا أنّها سرعان ما توتَّرت مباشرة، وفكَّرت: ماذا لو كانت هذه الشوكولا مستخرجة من الزبالة أيضًا؟ وفغرت فاها متكدِّرة إلى المرأة العجوز، كأنّ الإجابة مكتوبة في مكان ما على جبينها. ومع هذا، وقبل أن تذوب الشوكولا في فمها، فاجأها سؤال آخر، فصاحت مستهزئة:

ـ أيّتها السيِّدة العمّة...

إلَّا أنّ صوتها سرعان ما تحوَّل إلى همس عن غير قصد:

ـ أهذا هو السبب في انبعاث الرائحة الكريهة من قصر الحلوى؟

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٣
مصفّفا الشعر جمال وجلال

سألت الشقراء الحولاء التي جاءت إلى هناك مرّة أخرى لصبغ شعرها، إذْ لم تقتنع بأنّها ليست في حاجة إلى صبغه مرارًا:

ـ هه! ما خطبك؟ هل أكل القطّ لسانك؟

لم يكترث جمال لمناكدة المرأة، مفضّلاً على ذلك أن يركّز على خصلة من شعرها يوشك أن يُبرزها. كان من دأبه ألّا يردَّ على زبوناته، لأنّ ضغط كلّ كلمة على طرف لسانه كان من القوّة ما يدفعه إلى الكلام، فاستدار، وصاح بالمبتدئ ذي البثور من غير سبب. فاحمرّ وجهه لهذا التوبيخ أمام كلّ أولئك النساء، وهو الذي وصل به نكد الطالع حدًّا جعله يقضي الآن مرحلة البلوغ الدقيقة من حياته، وهو يعمل في دار تجميل نسائيّة. وبمجرّد أن التقت نظراته التي أشاح بها عن رؤية الزبائن بنظرات العشيقة الزرقاء مصادفة، ازداد وجهه احمرارًا ومال إلى السواد. لم يعرف بذلك، ولكنْ عندما لاح هذا التدرُّج من اللون الأحمر، تلاشت بثوره تقريبًا.

همست العشيقة الزرقاء لفتاة العناية بالأظافر القريبة منها:

ـ ما خطب جمال؟

Twitter: @ketab_n

لم يسبق لها أن لجأت إلى فتاة للعناية بأظافرها، لكنّ اليوم استثنائيّ، لأنّها بعد مرور مدَّة من الزمان، سوف تلتقي تاجر زيت الزيتون مجدَّدًا، الذي أرسل رسالة نصِّيَّة إلى هاتفها الخلويّ بعد ظهر اليوم موضحًا أنّه يودّ زيارتها وأن يكون صريحًا وإيّاها. لم يكن الرجل يهتمّ على وجه الخصوص بالأظافر الجميلة، وإذا ما أردنا قول الحقّ، فإنّه لا يمكنه حتى معرفة الفرق. ولكنْ، بينما كانت جالسة في مكانها، وإحدى يديها شبه مخدَّرة على نحو يبعث على السرور في طاس ملؤه ماء دافئ ذو رغوة، فإنَّها كانت ما تزال تعتقد أنّها تعمل العمل الصحيح. أمّا السبب الذي يجعل النساء متجاهلات حقيقة أنّ استعداداتهنّ هي من أجل الرجال الذين سيظلُّون متجاهلين تلك الاستعدادات، فهي أحجية خاصّة بالنساء.

ردّت فتاة العناية بالأظافر هامسة بصوت مبحوح وهي تركِّز في أحد الأظافر المكسورة:

ـ ليست لدينا فكرة عمّا حدث له. إنّه أشبه ببرميل بارود، على أهبّة الاستعداد لكي يفجِّر رأسه. فهو لم يكلِّم الزبونات كلمة واحدة، ولكنَّه يستمرّ في انتقادنا. قد تظنِّين أنّه مدمن على التدخين، فتوقّف عنه فجأة في هذا الصباح. حسّاس. يبدو وكأنّه يمرّ بمرحلة سابقة للحيض.

عبس جمال في وجهَيْ فتاة العناية بالأظافر والعشيقة الزرقاء، اللتين كانتا تضحكان ضحكًا خافتًا؛ وأسرع المبتدئ ذو البثور إلى الإمساك بأربع قطع من رقائق الألومنيوم خشية أن يتلقّى تأنيبًا آخر.

هدر الآخر، بعد أن وجد فرصة لتوبيخ المبتدئ النكد الطالع:

ـ لماذا لا تسلِّمها قطعة فقطعة يا بنيّ؟

في هذه اللحظة، ربتت يدٌ على كتفه.

Twitter: @ketab_n

ـ هل يمكنك أن تأتي إلى المطبخ لحظة واحدة؟

قال ذلك جلال وهو يحرص على عدم جذب الأنظار إليه أو إلى أخيه.

وقفا في المطبخ، وبينهما السماور يغلي ويفور باستمرار وبقوّة. حدَّق جلال بعطف إلى الرجل الذي بدا اليوم رائقًا أكثر من شقيقه التوأم، رزينًا، ثابتًا كالصنم داخل قميصه الأخضر.

قال جلال مبتسمًا ابتسامة متعبة:

ـ استسلم. عُدْ إلى عملك بالله عليك، وكن طبيعيًّا كسابق عهدك. كن كما كنت. فأنا، ليست لديّ أيّ فكرة إلى أيٍّ حدّ ستكون رجلاً لا يُطاق عندما تكون رزينًا.

قبل أن تسنح الفرصة للآخر كي يضمر الحقد، وضع جلال يده على كتفه، وضغط عليه، كأنّه خاله أو عمّه. وقال:

ـ بصراحة أيُّها الأخ، عندما لا تثرثر وتثير ضحك هؤلاء النساء، فإنَّ السأم يستبدّ بدار التجميل.

بعد بضع دقائق، فتح التوأمان الستارة التي تفصل المطبخ الصغير عن دار التجميل، والتفتت كلّ الرؤوس من بين الصديريّات المطرّزة بالفهود إلى تلك الناحية. دفع جلال شقيقه في حيطة وحذر كي يتقدَّمه، كأنّه يشجِّع ممثّلاً يخشى الظهور على خشبة المسرح. ثم ابتسم وغمز للمبتدئ الخالي من البثور، وقال:

ـ اصنع لنا كلّنا يا بنيَّ قهوة فوّارة لذيذة، كي نتمكّن من رشفها ونحن نحدِّق إلى الوليّ الصالح.

عندما سمع جمال هذه الكلمات، زالت حدَّته على ما يبدو، وابتسم في نهاية الأمر ابتسامة، كان قد كتمها منذ بواكير الصباح.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٧
أنـا وسـو

بداية، كنت أظنّ أنّ الطفلة كانت تكذب. فالأطفال يفبركون الأشياء. نظرت إليّ فوجدت أنّ خمس عشرة دقيقة مضت منذ أن انتهى الدرس. وكنّا منذ ذلك الحين نثرثر هامسين. وقبل أن أمضي في سبيلي، قالت لي:

ـ أودّ أنّ أخبرك بشيء ما، أيّها الأستاذ!

كانت هايجين تايجين ومريم وأسماء خانم في الغرفة المجاورة منشغلات في تعليق الستائر التي فرغن قبل قليل من غسلها. في وسع المرء أن يخمّن، من أسلوب الحديث الدائر بينهنّ، أنّ أسماء خانم كانت قد ارتقت مكانًا عاليًا، وربّما كان ذلك سلّمًا، في حين كانت هايجين تايجين تمسك لها السلّم بثبات من الأسفل؛ وأمّا مريم، فيبدو أنّها كانت تصدر التوجيهات. أمّا أنا وسو، فقد تجاذبنا أطراف الحديث في همسات حذرة كي لا يسمعنا أحد.

قالت سو متأوّهة ومستاءة من عدم إيماني:

تظاهرت بأنّني مقتنع، ولكنْ جاء دورها الآن لترتاب. فطلبت منّي أن أعدها بألّا أفشي سرًّا ائتمنتني عليه. يبدو أنّ وعدي لم يكن كافيًا،

Twitter: @ketab_n

لأنّها طلبت منّي بعدئذٍ أن أقسم مرارًا وتكرارًا ـ أولاً، أن أقسم بشرفي، وبعد ذلك، بكلّ اسم من أسماء أحبّائي، فردًا فردًا، وذلك كي يهدأ التشاؤم ويزول من عينيها السوداوين الواسعتين، فامتثلتُ لكلّ طلب من طلباتها. إلّا أنّها لم تهدأ، بل راح كلّ قَسَم أدليت به يزيدها قلقًا واضطرابًا. وفي مرحلة ما، مضت داخل الشقّة بخفّها، وعادت حاملة قرآنًا صغير الحجم بغلاف أخضر زمرُّديّ، من النوع الذي يحمله الناس في محفظاتهم وحقائب اليد. ولم تهدأ إلّا بعد أن أقسمت اليمين والقرآن في كفّي. وعندما فرغت، وأدركت أنّه لم يعد ثمّة شيء تطلبه منّي باستثناء الوثوق بي، تنهَّدت تنهيدة أخيرة. ولمّا كانت كثيرة التطلُّب، كيف يمكن لي أن أنزعج بمتطلّباتها. إنّ الحبّ يجعل البشر، والأطفال أيضًا، في شقاء.

قلت لها:

ـ بالله عليكِ، دعينا ننهِ هذا الموضوع. لا تقلقي، فقد خُتم على شفتيَّ، ولن أخبر أحدًا.

سررت وأنا أشاهد ابتسامتها، وقلت:

ـ إذا أخبرت أحدًا بسرّك، فأرجو من الله أن يصيِّرني حمارًا!

اعترضت بصوت يشبه تغريدة طائر:

ـ ليس حمارًا، ليس حمارًا!

ـ ماذا إذن؟

في هذا الوقت كانت قد نفضت عن كاهلها كلّ أنواع القلق، واستعادت بهجتها. فسارت من حولي تثرثر، وتذكر كلّ أنماط الحيوانات المقزّزة التي تعرفها كي تعثر على أسوأ مسخ على وجه الأرض. فالبوم مخيفة، ولكنَّها ليست تعيسة بما يكفي. الجرذان قذرة ولكن ليس إلى درجة كبيرة. الصراصير تثير الغثيان، والعناكب تجمِّد

Twitter: @ketab_n

الدم في العروق، والزنابير خطرة، والتماسيح مخيفة، وقناديل البحر مقرفة، والعقارب سامّة. الخنازير تتمرَّغ في البراز، والنسور تأكل الجِيف، والدببة قد تلتهم صغارها، والخفّاش يمتصّ الدماء، وقنافذ البحر توخز، والضفادع تسبِّب لنا البثور، وأمّ أربع وأربعين تتسلّل إلى آذاننا، والدود الذي يخرج من التربة في أعقاب المطر، والدعسوقة التي تتلوَّى في الخسّ، والجرادة التي تلتهم الحقل، والسحلية التي تهرب تاركة من ورائها ذيلها، والذبابة التي لا تمنح المرء الهدوء والراحة، والبعوضة التي تمصّ الدماء. . . كلّها ذات جانب كريه فيها، غير أنّها ليست خبيثة بما يكفي. وحتى الطحلب، الذي يبدو مقزِّزًا أكثر من كلّ هذه الحشرات والحيوانات مجتمعة، يمكن أن يكون مفيدًا ذا نفع للبشر، ولهذا فإنّه مستبعد. إنّ ما كانت تبحث عنه هو شيء أسوأ من كلّ هذه المخلوقات: شيء ما لا يفيد نفسه ولا يفيد الآخرين، شيء ما لا ينسجم وأيّ حالة من حالات الخير، وجوده على ما يظهر ليس له أيّ هدف حقيقي، وهو أسوأ بالمقارنة من كلّ هذه المخلوقات عديمة النفع وغير المضرَّة أيضًا التي خلقها الله بما تبقّى من طين. هكذا كان نمط المخلوق الذي أرادت أن تخيفني به، حتى أتحوَّل إليه إذا نكثت بوعدي يومًا ما.

ـ إذا كنت تبحثين عن أسوأ مخلوق، فعليك أن تولي اهتمامك إلى العينين. فالمخلوق الذي يمكنك النظر إلى عينيه ليس بالسوء الذي عليه المخلوق الذي لا تستطيعين النظر إليه.

راقها هذا الكلام كثيرًا، إذْ سرعان ما مزَّقت ورقة من دفترها المزيَّن بالزنبق، وبدأت تعدّ قائمة بأسماء المخلوقات التي لا يمكن رؤية عينيها. وأخذت المهمّة على محمل الجدّ، حتى بات يستحيل تغيير الموضوع أو النهوض والانصراف. وبينما هي تحاول أن تعثر على عقوبة من بين مجموعة متنوِّعة من العقوبات، في حال ارتكبت خيانة

Twitter: @ketab_n

عظمى، فقد حاولتُ أن أساعدها بأفضل ما في وسعي.

قلت هامسًا، وأنا أضغط على لساني بين أسناني:

ـ دعيني أصبح أفعى مُجلجلة.

ـ لا . . . ا . . . ا . . . ا . . . ا . . . ا!!

قلت مجلجلاً فاغرًا فاهي:

ـ دعيني أصبح واحدة من أسماك الضاري.

ـ بالله عليك . . . لا . . . ا . . . ا!!

تظاهرت بالاستياء، وقلت:

ـ إنّني لا أقدر على جعلك تحبِّين أيّ شيء.

يُخيل إليّ أنّني كنت أمزح حتى تلك اللحظة. ولكنْ، على حين بغتة، غشيني ضيق مبهم. فتقلّدت ساعتي. لقد تواصلت اللعبة الوقحة والمنافية للأدب، واستغرقت وقتًا أطول ممّا ينبغي، ولا أدري السبب الذي جعلني أتضايق منها. وفي الوقت الذي فكَّرت بالانصراف، قالت ضاحكة بصوت ينمّ عن بهجة واغتباط:

ـ وجدته، وجدته. لم تعد ثمّة ضرورة للبحث على أيّ حال!

سألتني:

ـ سوف تردّد الآن من بعدي. اتّفقنا؟

كان سهلاً وسريعًا انتقالها من الحديث الرسمي الذي كنّا نستخدمه عادة حتى الآن إلى حديث عابر وسطحيّ. أومأت رأسي صاغرًا، فوقفت قبالتي محدِّقة إلى عينيَّ مباشرة.

ـ أنا رجل كبير.

ـ أنا رجل كبير.

ـ لكنْ، إذا أفشيت سرَّنا لأيّ شخص آخر . . .

Twitter: @ketab_n

ـ لكنْ، إذا أفشيت سرَّنا لأيّ شخص آخر . . .

تفوّهت بالجملة الأخيرة بعد أن ضيّقت عينيَّ، وأضفت مسحة خفيّة لصوتي. غير أنّها توقّفت عن الابتسام. ففي ظلمة عينيها، رأيت ثعبانين رشيقين، ثعبانين أسودين رشيقين من ثعابين الماء ينزلقان في وهج فضّيّ.

صاحت سو متذمِّرة، وهي تؤكِّد كلّ كلمة توكيدًا شديدًا:

ـ أتمنّى من الله أن يحوِّلني إلى قملة! أكبر قملة إطلاقًا!

صمتُّ متذمِّرًا وأنا أؤكّد كلّ كلمة توكيدًا شديدًا.

ـ أتمنّى من الله أن يحوِّلني إلى قملة! أكبر قملة إطلاقًا!

وثبت على قدمي مفترضًا أشدّ عبارة مثيرة للخوف تمرّ من أمام عينيّ، وتدفع الصفّ الأمامي من أسناني إلى شفتي السفلى مثل مصّاص دماء، وتجذب فكّيَّ إلى أمام، وتجعل شعري ينتصب، وجبيني يتغضّن، وتفتح منخريَّ على سعتهما، وتحرِّك حاجبيّ إلى أعلى وإلى أسفل. فأنا لم يسبق لي أن حاولت تقليد قملة. ولم أدرك مدى صعوبة ذلك! ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن شكل وجوه القمل. الحقّ، أنّني لا أستطيع أن أجزم إن كانت للقمل وجوه أم لا، لكن أحد الأشياء التي كنت أعرفها عنه هو إمكانيّة التعرُّف عليه من مكان بعيد فحسب، إذْ ليس في وسع أحد أن يحدِّد شكل القمل عن قرب. شيء آخر: إنّني أعرف أيضًا أنّ القمل متناه في الصغر، فلا يمكن رؤيته بالعين المجرّدة، وأنّ الشرّ يبلغ به حدًّا يجعله لا يكشف عن عينيه.

فكّرنا في الموضوع معًا حتى توصّلنا إلى افتراضات أخرى. ربّما كانت قدرته الفريدة على التماهي بضحيّته هي التي تجعله دنيئًا وسيِّئًا جدًّا. وتبعًا لذلك، فإنَّ القملة ليست نمطًا من الأعداء يكمن خارجًا، منتظرًا حتى تحين الفرصة للهجوم، بل هو بلوى تقضم من الداخل

Twitter: @ketab_n

خلسة. إنّ البعوضة، مثلاً، تمتصّ دماءنا، إلّا أنّها تترك ضحيّتها وشأنها عندما ينتهي عملها وتحصل على بغيتها. كما أنّ البعوضة تستمرّ في وجودها كجزء من العالم الخارجيّ حتى في اللحظة التي تعثر على وريدنا، ولا تصبح جزءًا منّا. إنّ هذا الانفصال واضح وضوحًا شديدًا، بحيث إنّنا نجد أنفسنا، حتى عندما نسحق البعوضة التي لسعتنا قبل قليل، وقد أصابنا القرف والتقزُّز لدى رؤيتنا الدم بين راحتيْ يدينا، وكأنّه ليس دمنا بل دم البعوضة نفسها. ومع هذا، فعندما يخصّ الأمر القمل، فإنَّ العكس هو الصحيح. فالقملة لا تنتمي إلى الخارج بل إلى الداخل، إلينا نحن شخصيًّا.

لتصوير القملة، مزَّقت بدوري ورقة من الدفتر المزيَّن بالزنبق. ولمّا كنّا غير قادرين على أن نتصوّر إن كان للقملة وجه أم لا، وإن كان لها وجه، فما شكله؟ ولمّا كانت إشارتنا الوحيدة متمثِّلة في أنّها أسوأ المخلوقات السيِّئة، فإنَّ في وسعنا أن نستحوذ على وحشيّتها بالاقتراض من كلّ مخلوق سيِّئ على وجه الأرض شيئًا صغيرًا ثم نضفي عليها البدن المتخيَّل وبهذا تكون قد تشكَّلت وخلقت. وعندما فرغت من عملي، فإنَّ النتيجة كانت شكلاً غريب الخلقة حقًّا. ولمّا كان هذا المخلوق قد استعار كلّ جزء من أجزاء بدنه من مخلوق مختلف، فقد كان يشبه عددًا من الأشكال الحيَّة، ولكنَّه لم يشبه أيّ شكل محدّد لواحد منها. فالعينان، إحداهما مأخوذة من عين ضفدعة، والأخرى من بومة؛ وكانتا في غاية الغرابة، وكأنّها ضُربت على رأسها بمطرقة ثقيلة. وكتبت بحروف صغيرة من تحت الورقة عبارة: «قملة ثملة مرتبكة».

راحت سو تضحك في اللحظة التي شاهدت الصورة، وقالت:

ـ ممتاز.. هذا هو المطلوب! إذا لم تبق ساكتًا، فسوف يحوِّلك الله إلى قملة ثملة مرتبكة!.

حاولت أن أتصرَّف وكأنّني خائف، بيد أنّني لم أستطع أن أحول

Twitter: @ketab_n

بيني وبين الضحك. حاولت أن تتصرّف وكأنّها مستاءة، بيد أنّها لم تستطع أن تحول بينها وبين الضحك.

ثم توقّفت بغتة وجلة، وتوقّفت عن الكلام، وكأنّ سلطة غير مرئيّة في الغرفة وبّختها. إنّ حساسيّة شخص ما أدرك من فوره أنّه كشف عن أشياء لا يمكن استرجاعها ألقت ظلًّا على وجهها الشابّ. وعندئذٍ فقط، راودني شكّ مفاده أنّ ما أخبرتني به يمكن أن يكون صحيحًا.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٦
متين جتين جفيز وزوجته ناديا

قالت الممرِّضة مخاطبة في تودُّد المرأة التي توشك على الخروج من المستشفى:

ـ قلت لكِ لا تفقدي أملك بالله يا لوريتا. ينبغي لكِ الآن يا ابنتي أن تكوني ممتنَّة لأنّك استعدت ذاكرتك، وأنت تستحقِّين أن تكوني سعيدة.

ابتسمت المرأة الأخرى، واتَّسعت عيناها الخضراوان اللتان اكتسبتا قوّة دراميّة مؤثِّرة بظلال العيون الأخضر، وقالت:

ـ إنّ أكثر ما كنت أتمنّاه حتى الآن هو أن أتذكَّر ماضيَّ. أمَّا في هذه الآونة، فإنّني أريد الهروب من ذلك الماضي، وسوف أبدأ حياة جديدة أيّتها الممرِّضة، ولن أتخلَّى عنكِ من الآن فصاعدًا.

تردَّد صوت زوجته ناديا في حلقها قائلة للحشرة، التي كانت تنازع في جرّة الهلام الفارغة التي دأبت على هزّها بين راحتيْ يديها:

ـ هل رأيتِ؟ لن تتخلَّى عنّا لوريتا ابتداءً من الآن، على العكس منك، فأنتِ سوف تتخلِّين عنّا.. صحيح أيّتها الصرصورة؟

بحلول نهاية القرن الماضي، وفي يوم مكفهرّ يغشاه سديم، وفي

Twitter: @ketab_n

منتصف شارع قذر وموحل، أورد عالم متحمِّس خبرًا مفاده أنّه شهد هجرة جماعيّة لنوع من الصراصير، يُدعى Blatella Germanic. وكان أغلب الصراصير المهاجرة مؤلَّفًا من الإناث تقريبًا. ولمّا رآها الدكتور هاوارد، كانت منهمكة في مغادرة المطعم الذي أَلِفت البقاء فيه، ومستعدَّة لعبور الشارع. استغرقت هجرة الحشرات زهاء ثلاث ساعات.. وعندئذٍ وصلت المكان الذي سوف تسكنه ابتداءً من الآن. ولمّا بدأ الدكتور هاوارد يسأل عن سبب ترك هذه الصراصير المطعم بالدرجة الأولى، لم يتمكّن من الوصول إلى إجابة مقنعة. وبقدر ما في وسع المرء أن يلاحظ، لم يحدث أيّ حدث غريب أو استثنائيّ في المطعم في ذلك النهار، لا تنظيف ولا تبخير واسع النطاق. ولم يبق سوى عامل واحد قد يكون سببًا في انطلاق الهجرة: الازدحام الشديد! إذْ لا مناصّ من أنّ الجزء الخلفي من ذلك المطعم بات شديد الازدحام، ما دفع إناث الصراصير إلى المجازفة بالتخلّي عن كلّ من ذكورها ومأواها، على الرّغم من عدم حدوث أيّ مصيبة لها. وبما أنّ المئات منها انطلقت في اتّجاه الشارع، فلا بدّ أنّ الآلاف منها بقيت في المطعم.

بوّزت زوجته ناديا، وهي ترنو إلى الجرّة، كيف يمكن لهذا العدد من الصراصير ــ المعروفة بكرهها ضوء النهار ــ أن تواظب على الظهور في رابعة النهار في مختلف أرجاء المنزل، وبخاصّة في خزانة وضعت فيها مصابيح البطاطس؟ الأهمّ من هذا، هل تعني الهجرة المبهمة لهذه الأسراب من الصراصير، في مختلف أرجاء العمارة السكنيّة، أنّ ثمّة مئات أو ربّما آلاف منها متوارية في مكان قريب؟

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٧
أنا والعشيقة الزرقاء

بينما كنت أسخِّن معكرونة الباستا المتبقِّية من اليوم السابق، رنّ جرس الباب رنينًا متواصلاً وثاقبًا. فتحت الباب، فشاهدتها على نحو لم أشاهدها فيه من قبل.

تأوَّهت قائلة:

ـ المؤكَّد، أنّني أستحقّ ما حصل لي.

كانت قد تجمَّعت من تحت عينيها جيوب منتفخة حمراء بلون اللحم النيء؛ ألق وجهها النضر اختفى مع اختفاء بريق عينيها ولمعان بشرتها. وكان جانبا أنفها محمرَّين من كثرة المسح حتى تقشّرا. إنّه وجه غريب، ولمّا كانت العشيقة الزرقاء حاضرة بكيانها وتعيش على وجهها وفي نطاقه، فقد لاحت امرأة غريبة الآن. مددت كأس مشروبي من العرق لها، وأنا ما زلت في انتظار أن تسخن المعكرونة، إلَّا أنّها رفضت أن تحتسي مشروبي، وانتظرت بفارغ الصبر كي أشرب نصف الكأس حتى تبدأ بالكلام.

قالت متنهِّدة:

ـ سوف يأتي في هذه الليلة، فقد أرسل إليّ رسالة على هاتفي الخلويّ.

Twitter: @ketab_n

فأعددت الباذنجان بالمرق. الحقّ، أنّني كنت أوشك أن أطبخ دجاجة بالجوز، لكنّني لم أشعر برغبة فيها في هذه المرّة. أعتقد أنّني مستاءة قليلاً. فأنت تعلم أنّه لم يأت منذ عشرة أيّام. لهذا السبب، أعددت طبق الباذنجان. إنّه طبق يروقه أيضًا، ولكن ليس قدر ما يروقه الدجاج بالجوز. لقد أنفقت النهار في شيّ الباذنجان.

حدَّقت إليها تحديقة صارمة، ولكنَّها لم تتنبَّه إلى عدم اهتمامي بكلّ هذه التفاصيل. وراحت في عجالة، وكأنّ شخصًا ما سوف يعلن أنّ وقتها انتهى في أيّ لحظة، تتحدّث حديثًا ملؤه التفاصيل الدقيقة والتافهة، وكدّستها كلّها أمامي. فلم أتدخّل بعد ذلك.

بكت مُرّ البكاء، بعد أن فرغت من التفاصيل الخاصّة بالعشاء، وقالت:

ـ لقد أُصيب بنوبة قلبيّة. هل تصدِّق ذلك؟ أُصيب بنوبة قلبيّة في طريقه إلى هنا. لقد اتّصلوا بي من المستشفى. ظنُّوا أنّني زوجته أو أحد أفراد أسرته، لأنّ آخر رقم على هاتفه كان رقم هاتفي.

ـ يؤسفني...

بمجرّد سماعها صوتي، بدأت تشهق وتجهش بالبكاء، وكأنّني كشفت قرارًا طال انتظاره سلبًا. لعلَّها ارتابت بصدق كلماتي. ولكنَّها ليست مخطئة في ريبتها. فتاجر زيت الزيتون الذي لم ألتقه وجهًا لوجه والذي حكمت عليه، وإن كنت قد رأيته مرَّتين اثنتين في الأغلب ومن على مسافة بعيدة، لم يكن سوى مثيل لي: خصم كثيف الشعر، دهنيّ البشرة، يبعث على الشفقة، يتدلّى كرشه من فوق بنطاله. كنت أشعر بالشفقة على عشيقتي الصغيرة أكثر ممّا شعرت بها نحوه... كما أنّني دُهشت أيضًا إلى حدٍّ ما. فأنا لم أفكِّر حتى اللحظة باحتمال أن تكون متعلِّقة تعلُّقًا شديدًا بذلك الشخص الفظّ. ولم تكن خيانتها له، أو عدم

Twitter: @ketab_n

اعتراضها، بل واستمتاعها لدى سماعها شتائمي الموجَّهة إليه، لتدلّ على أنّها غير متعلِّقة بالرجل. الحقّ، أنّها متعلِّقة به أكثر ممّا توقَّعت. دفعت بأصابعي في شعرها، إلَّا أنّها أبعدتها في خشونة.

تردّد صوتها في حلقها قائلة:

ـ إنَّك لا تفهم. الغلطة غلطتي. إذا كان لا يستطيع البقاء حتى الصباح، فالذنب ذنبي.

بلعت ريقها في صعوبة، وكأنّها تريد التخلُّص من مذاق كريه في فمها، وأضافت:

ـ لقد زرت الوليّ.

ـ ماذا فعلتِ؟ ماذا فعلتِ؟

ـ حسنًا. الحقّ، لا يمكن أن تصف ما فعلت بالزيارة. فقد أوحت مريم إليّ بالفكرة. ثمّة عدد من زجاجات شراب الموز باقية في الشقّة. أعطيتها لها قبل بضعة أيّام. فأنا لا أحبّ هذا المشروب، بينما يعجبها هي كثيرًا. كنّا نتجاذب أطراف الحديث عمّا إذا كان هذا المشروب يضرّ بصحّة الجنين، وما أشبه. الحمد لله.. لم تكن ثمّة خطورة على حملها، وهي في هذه المرحلة. أخبرتني مريم أنّها فقدت ثلاثة أطفال من الذكور قبل محمّد، اثنان وُلدا ميّتين، والآخر توفّي وهو في الشهر السادس من عمره. ولهذا، تركت شعر محمّد ينمو ويطول كالفتيات عندما وُلد. وكان الولد يروح ويجيء، وكأنّه بنت من البنات إلى أن التحق بالمدرسة، وذلك من أجل تضليل عزرائيل.

يستبدّ بي الفضول، فأرغب في أن أعرف إن كانت للنساء آليّة معيَّنة، أو مادّة كيمياويّة في أدمغتهنّ تمنعهنّ من التعبير عن أنفسهنّ تعبيرًا مباشرًا. تفاصيل كثيرة ومقدِّمات لا تنتهي وحكايات متشعِّبة، كأنّها دوائر

Twitter: @ketab_n

في دوائر، فلا تصل هدفها. أعدت ملء كأس مشروبي من العرق، ولكنّني لم أجد صودا متبقّية فوق الرفوف الخاوية من ثلّاجتي الضخمة، ولا مناصّ لي من الخروج وشراء بعض منها.

ـ على أيّ حال، عاش الولد، إلّا أنّه كان دائم التعرُّض إلى الضرب في المدرسة. ومع هذا، قالت مريم إنّه تغيَّر كثيرًا مؤخَّرًا. وحلّ محلّ ذلك الصبيّ الخائر العزم صبيّ آخر مختلف عنه الاختلاف كلّه، ولم يعد أصدقاؤه يضربونه. ذلك أشبه بالمعجزة!

فكَّرت في نفسي، إن كان البقّال الإسلامي في الجهة المقابلة من الشارع قد أقفل دكّانه أم لا. صحيح أنّه لا يبيع مشروب الجنّ، إلّا أنّه يبيع مياه غازيّة معدنيّة، صحيح أنّه لا يبيع مشروبات روحيّة، ولكنَّه يبيع الشوكولا بالكحول. وعلى هذا الأساس، فإنّه لا يبيع مشروب العرق، ولكنَّه يبيع الصودا التي تُمزج بالعرق.

ـ كنّا نتكلَّم على كيفيّة تحوُّل هذا الطفل تحوُّلاً جذريًّا، ثم أفشت إليّ مريم سرًّا، مفاده أنّها وعدت الوليّ...

سألت:

ـ أيّ وليّ؟

فأجابت في حيرة:

ـ لا تسأل! إذا كانت لديك أمنية تنتظر منذ زمن طويل، فعليك أن تفعل ما فعلته هي. وإذا ما تحقَّقت أمنيتها، فعندئذٍ سأخبرك بالوليّ الذي زرته.

ثم طلبت منّي وشاحًا نظيفًا، فكتبت أمنيتي وطويتها، لتكون بمثابة التماس، وناولتها إيّاها.

تخلّيت عن فكرة الخروج، لأنَّ البقّال الإسلامي من شأنه عند نهاية هذه الحكاية أن يكون قد أقفل دكّانه وقفل راجعًا إلى منزله. وفي ضوء

Twitter: @ketab_n

الخيارات المتاحة أمامي، قرّرت أن اكتفي بالماء.

مضت في حكايتها:

ـ أخبرتني مريم: إذا تحقّقت أمنيتي، فذلك شيء حسن، وأنّها ستكون هديّة منّي إليكِ، فقد أعطيتني كمّيّات كبيرة من عصير الموز، وإذا لم تتحقّق، فلن يعرف أحد بذلك. كلّ ما فعلناه هو أنّنا بذلنا محاولة. هذا ما قالته مريم. حسنًا، ربّما لم يكن هذا كلامها إن توخّينا الدقّة، ولكنّه كلام يماثل ما ذكرته لك، فأنا لا أستطيع أن أتذكّر الآن.

كان مذاق العرق سيّئًا! إنّه مشروب لا يصلح مزجه بالماء.

ـ وهكذا، طويت الورقة مثل رسالة كما علمّتني. وكتبت: «دعني أتخلّص من هذه الحالة!» أو ربّما كتبت: «دعني أتخلّص من هذا الرجل!»... آه كم أتمنّى لو تذكّرت! فقد اختلطت الأمور عليّ. ماذا كتبتُ؟ يا الله، ما الذي فهمه الوليّ؟ إنّ الرجل يحتضر هناك بسببي.

ما سمعته كان أمرًا مضحكًا إلى أبعد الحدود، ولم أستطع أن أُصدّق حقًّا أنّها كانت تؤمن بهذا الكلام الفارغ. وحتى لو آمنت، فإنّني لا أستطيع أن أخفي أهمّيّة كبيرة على الألم الذي سوف تعانيه بسبب ذلك. على أيّ حال، هكذا هي الأحوال. فإذا أردنا حقًّا أن نشارك شخصًا ما آلامه، فينبغي لمثل هذا الشخص أن يشاطرنا الواقع نفسه. وعندما نهدّئ من روع طفل من الأطفال يبكي، لأنّ جزءًا من اللعبة المقلقلة انكسر؛ وعندما نقسم اليمين أمام امرأة مُصابة بفقدان الشهيّة للطعام، وتبدو مثل هيكل عظمي ولكنّها تتخيَّل نفسها بدينة، بأنّها ليست بدينة؛ وعندما نتحمّل الحديث اللامعقول لأفضل أصدقائنا جنَّ جنونه على الحياة، لأنّها جعلته ينخدع بامرأة عديمة الشأن لم ينفق وإيّاها سوى أسبوعين اثنين؛ وعندما نحاول بذل قصارى جهدنا أن نشتّت انتباه

Twitter: @ketab_n

رجل مريض عقليًّا، إلى أن يُحضر طبيبه النفساني، وهو يرتاب في أنّ حمامة سرقت روحه، وبهذا راح يطارد كلّ الحمام في الميدان بحثًا داخل مناقير كلّ واحد منها. . في كلّ هذه الحالات، نقف في مساندة هؤلاء الناس ونؤازرهم، ولكنَّنا ننظر إلى آلامهم من مسافة بعيدة. فالطفل الذي يذرف دموعه من أجل مثل هذا الشيء البسيط، والمرأة التي فقدت شهيَّتها للطعام والبعيدة البعد كلّه عن الواقع، والصديق التعس الذي لا يتمكَّن من الفهم بأنّه لا ينبغي له أن يضيِّق صدره ويتكدَّر من أجل مثل هذه المرأة عديمة القيمة، وأنّ المخبول العاجز عن فهم حقيقة أنّ الحمام المسكين يطوف من حول خرسانة حقيقيّة بحثًا عن حبوب القمح، وليس عن أرواح مراوغة غير ملموسة. . يمكن لهؤلاء كلّهم أن يتوقَّعوا منّا راضين مرضيّين درجة من الاهتمام والعطف، التهدئة أو التضامن. وعلى الأرجح، سوف يحصلون على ذلك أيضًا. إنّنا نستطيع حقًّا أن نحقِّق دور المهدِّئ من دون تردُّد كثير، فعندما نشاهدهم وهم يتكلَّمون كلامًا لا معنًى له بسبب معاناتهم يعانون بسبب كلامهم الذي لا معنى له، فإنَّ الفرص مؤاتية في أن نشعر من أعماقنا بمدى قربنا عاطفيًّا منهم. . . غير أنّ ذلك هو الحدّ الأقصى. قد يلتمسون عطفنا، وقد يتلقُّون طيبة قلبنا في واحدة من تلك اللحظات، ولكنَّهم لا يستطيعون إقناعنا بدخول واقعهم. يمكننا أن نشفق عليهم، أو أن نحبُّهم، شريطة ألَّا يتوقّعوا منّا أن نشاطرهم معاناتهم مشاطرة حقيقيّة ومخلصة.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ١٠

السيِّدة العمَّة

في درجة حرارة غرفة مقدارها ٢٧ درجة مئويّة، ومعدَّل الرطوبة فيها ٦٥٪، تتضمَّن دورة حياة ذبابة المنزل يومًا أو يومين في البيوض، وما بين ثمانية إلى عشرة أيّام وهي يرقة، وتسعة إلى عشرة أيّام وهي خادرة أو عذراء. ولوحظ في مختبر تجري أبحاثه في ظلّ الظروف نفسها، أنّ ٥٠٪ من ذكور الذباب يموت في الأيّام الأربعة عشر الأولى، وأنّ ٥٠٪ من إناث الذباب يموت في الأيّام الأربعة والعشرين الأولى.

وفي درجة حرارة غرفة مقدارها ٢٧ درجة مئويّة، ومعدَّل رطوبة مقداره ٣٦ ـ ٤٠٪، أثبتت الصراصير أنّها أشدّ مقاومة من الذباب. ففي مثل هذه الظروف، يمكنها أن تعيش من دون أن تأكل أيّ طعام مدَّة عشرين يومًا. ويمكنها أن تظلّ على قيد الحياة معتمدة على الماء وحده مدَّة خمسة وثلاثين يومًا. وتبيض البيوض الموضوعة في درجة الحرارة نفسها، ومستويات الرطوبة نفسها في مدّة تتراوح بين سبعة وعشرين إلى ثلاثين يومًا. وتغيّر المواليد الجديدة من جلدها ما بين خمس إلى عشر مرّات حتى تصل مرحلة البلوغ. ويمكن للصراصير البالغة أن تعيش زهاء ستّة إلى اثني عشر شهرًا، ثم تموت بدورها.. تتعفّن وتتفسَّخ، تتفكّك

Twitter: @ketab_n

وتتبعثر، وتفقد شكلها، وتختلط بأشياء كثيرة مختلفة.

وكما هو شأن الذباب والصراصير، فإنَّ للطعام دورة حياة أيضًا. ففي المكان البارد والجافّ، يبقى الحليب المعقَّم طازجًا سنة واحدة، والحلاوة بالفستق سنتين، والبسكويت الصحِّي بالقرفة سنتين، والقهوة المطحونة سنتين، وعلكة الفراولة ما بين عشرة إلى اثني عشر شهرًا، والشوكولا المطعّمة بالأرزّ سنة واحدة، وعلبة سمك التونا أربع سنوات، وعلبة الكوكاكولا ستّة أشهر، والذرة بنكهة الجبنة ستّة أشهر. وإذا حُفظت هذه الموادّ الغذائيّة في ثلّاجة، فإنّها تحافظ على قيمتها الغذائيّة كما يأتي: السمك البحري أسبوعًا ونصف الأسبوع، وشراب اللبن سبعة أيّام، وجبنة الموزريلّا شهرًا ونصف الشهر، والدجاج المعبّأ في أكياس ما بين اثني عشر إلى أربعة عشر يومًا. وفي نهاية هذه المدّة، تبدأ هذه الموادّ بالموت أيضًا، إذْ تتعفَّن وتتفسَّخ، تتفكَّك وتتبعثر، وتفقد شكلها، وتختلط بمختلف الأشياء. وعندما تبدأ صلاحيّة الشاي أو التبغ، الدقيق أو الجبنة بالانتهاء، فإنّها تبدأ بتكوين القمل والبقّ أو اليرقات في تجاويف الأكواب التي تُحفظ فيها، ويتكوَّن العثّ في الثياب، ويحتشد الأثاث بالدود، وتغزو الخنافس الحبوب. كما تصل الصراصير إلى مثل هذه الأماكن. على أيّ حال، الصراصير في كلّ حدب وصوب.

وكما هو شأن الذباب والصراصير والأغذية، فإنَّ للموادّ دورة حياة. وعلى وجه العموم، فإنَّ بذلة الطفل الرضيع الكاملة تدوم شهرًا أو شهرين. والقطار العامل بالبطّاريّة الذي يحصل عليه الطفل يعمل ساعة واحدة على مدى سنة كاملة، والمفكِّرات اليوميّة التي يحتفظ بها كاتبوها في مرحلة المراهقة، تدوم ما بين ثلاثين إلى ستّين يومًا، والكنزة الصوفيّة التي يقدِّمها قريب هديّة بلا ذوق في الثياب العصريّة عشر ثوانٍ، والغليون الذي يُشترى بهدف التوقّف عن التدخين، وتبيّن فيما بعد مدى

Twitter: @ketab_n

صعوبة تنظيفه، لا يدوم بعد نفختين إلى ستّ نفخات من الدخان. أمّا خرطوشة حبر الطابعة فتدوم خمسة عشر يومًا وثلاثة أشهر، وبطاقة سفر بالقطار ساعة إلى عشرين ساعة، والزينة المبهرجة التي يتمّ الحصول عليها عن حبّ عندما يكون المرء ثملاً، لتبدو ليست بتلك الدرجة من الجمال عندما يصحو ذلك المرء من ثمالته، ليلة واحدة لا أكثر. إنّها تموت بدورها. تموت وتُرمى، إمّا جانبًا أو في الزبالة.

يقضي سكّان مدينة اسطنبول أيّامهم منذ اللحظة التي ينهضون فيها من أسرَّتهم إلى خلودهم إلى النوم، وهم يرمون الحاجيات والأغراض باستمرار ومن دون وعي. وإذا ما حسبنا الأمور بحساب الأسابيع، والأشهر والسنين، فإنَّ كومة كبيرة نسبيًّا من الزبالة تتراكم من وراء كلّ شخص. وكما هو شأن الذباب والصراصير والأطعمة والموادّ، فإنَّ للبشر تاريخ نفاد أيضًا. فمعدَّل العمر المتوقَّع هو خمسة وستُّون عامًا للذكور وسبعون عامًا للإناث. وعندئذٍ يأتي المحتوم، ويموت الذكور والإناث أيضًا. فيبدأون بالتعفُّن والتفسُّخ والتفكُّك والتبعثر ويفقدون أشكالهم ويختلطون بمختلف الأشياء.

عندما انتقلت السيِّدة العمّة وحدها إلى الشقّة رقم ١٠ من قصر الحلوى، على أثر فقدها زوجها في حادث مؤسف قبل خمسة وعشرين عامًا، شاهدت حاجيات من بقايا ممتلكات من سكن قبلها في الشقّة: مائة وواحد وثمانون شيئًا عفا عليها الزمان مشاعة، لا مالك لها. وعلى الرّغم من أنّ الرسالة المرسلة من مالك العمارة الجديد في فرنسا أوضحت بجلاء أنّ في وسعها أن تستغني عن هذه الأشياء بأيٍّ شكل ترتأيه، إلّا أنّها لم تشعر بالرغبة في التخلّي ولو عن شيء واحد منها. وعندما قرأت رسالة ابنة بافيل أنتيبوف المقيمة في فرنسا، فإنّها لم تنزعج ولم تثر ثائرتها. ومع هذا، فثمّة أوقات في ماضي الزمان ثارت ثائرتها

Twitter: @ketab_n

لسهولة تخلّي الناس عن حاجيات الآخرين. نعم ثارت ثائرتها قبلئذٍ، وحتى قبل ذلك... عندما كانت في ريعان الصبا، كانت أمّها قد رمت رواياتها ويوميّاتها، وبعد مرور سنوات، عندما فقدت زوجها، عمد شقيقها إلى توزيع كلّ صوره التي كانت في حوزتها على الأصدقاء والأقارب. ربّما لم تستطع استعادة مقتنيات في الماضي، لكن ابتداءً من الآن، سوف تهتمّ بعناية بمقتنيات الآخرين بوصفها حارسة أمينة يُركن إليها.

إنّ الحصول على الموادّ من أجل استعمالها مدّة من الزمان، ورميها بعد ذلك في الزبالة، عادة يتميَّز بها أولئك الذين يظنُّون أنفسهم مالكي تلك الموادّ. غير أنّ الموادّ لا مالك لها، وإذا كانت ثمّة صلة تربطهم بالموادّ، فإنَّ الصلة تتحدَّد بحكاياتها. وفي بعض الأحيان، فإنَّ هذه القصص هي التي تملك هؤلاء الناس الذين عبثوا بها.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقـم ٧

أنـــا

بعد انتهاء المحاضرة، جاءت أثيل لتقلّني بسيّارة شيروكي عسليّة اللون، فتركنا سيّارتي في موقف سيّارات الكلّيّة، وواصلنا طريقنا بلعبتها الجديدة. بداية، لم يبدُ عليها رائقة المزاج كي تتجاذب أطراف الحديث، ولكنْ عقدة لسانها انفكّت عندما عجزنا عن الحركة والتقدُّم بسبب ازدحام حركة المرور. كنت أودّ لو أنّها، بدلاً من الكلام، ركّزت اهتمامها في القيادة، إذْ كانت سياقتها تزداد سوءًا بمرور الأيّام. ولمّا راحت تثرثر في موضوع المرحلة الأخيرة التي وصلوا إليها في مشروع الجامعة، لاحظت أنّها فقدت تحمّسها الأوّلي. فكّرت بأنّ هذا المشروع، إمّا أخفق إخفاقًا تامًّا، أو أنّ أثيل وطّنت العزم على أن تتخلّى عنه وتمضي في سبيلها. وأمسكت عن الاستفسار عن السبب، لأنّها في نهاية المطاف، ستخبرني بكلّ التفاصيل غدًا إن لم يكن اليوم.

ـ هه! أخبرني. كيف تسير الأمور في العمارة السكنيّة التي يقطنها الحمقى وغريبو الأطوار؟

كانت تلك هي أوّل عبارة نطقت بها، بعد أنْ عانينا معاناة شديدة في ازدحام حركة السير، ووصلنا أخيرًا إلى طاولتنا المحجوزة في

Twitter: @ketab_n

المطعم. وكما هي رغبتي على امتداد الطريق، وبجانب النافذة، اخترت أن أجلس موليًا ظهري للزبائن، بينما واجهتهم أثيل. الواضح أنّها أرادت أن تراقب غيرها من الناس. وماذا يهمّني؟

ـ لا تسأليني! البقّ يحتشد في كلّ مكان.

ـ إذن، يأتي البقّ أيضًا من أجل المتعة، يا لك من نغل محظوظ! لقد انتهى بك المقام لتسكن في أكثر الأماكن إثارة للمرح. العمارة تبدو وكأنّها مصحّة أمراض عقليّة وليست بناية سكنيّة.

قلت متأوّهًا:

ـ أظنّ أنّ الأمر صعب عليكِ، ولكنْ حاولي ألّا تبالغي. يعلم الله، أنّ البناية السكنيّة التي عشت فيها من قبل لم تكن ربّما مختلفة. ولكنْ في تلك الأيّام، لم تكن لديّ أيّ فكرة. أمّا الفرق الوحيد اليوم، فهو أنّني لست غير مبالٍ بالجيران في قصر الحلوى.

تردّد صوتها في حلقها، وهي تقول:

ـ آه، نعم. أفهم ذلك. فأنت مهتمّ على وجه الخصوص بواحدة منهنّ.

ثم وضعت سيكارتها الأولى في هذه الليلة من ماسك السكائر المصنوع من خشب الياسمين، وأرسلت في اتّجاهي ثلاث حلقات من الدخان، واحدة تلو الأخرى.

تظاهرت بأنّني لم أسمع ملاحظتها الأخيرة، لأنّني لم أكن أحبِّذ الشجار معها في هذه الليلة، بيد أنّ عدم اكتراثي بدا وقد استفزّها أكثر.

ـ لا يمكنك معاشرة تلك المرأة يا قطعة الحلوى. أتدري السبب؟ إنّه ليس سببًا أخلاقيًّا أو ما أشبه، وإنّما لأنّك مضطرّ إلى الاحتفاظ بصورتك لا تشوبها شائبة. في الوقت الراهن، ليس ثمّة مشكلة. ابقَ داخل المنزل، وضاجع من تضاجع على هواك، فكلّ شيء على ما يرام، ولكن ما الذي سيحدث بعدئذٍ؟ هل يمكنك الخروج وإيّاها إلى

Twitter: @ketab_n

الأماكن العامّة؟ هل يمكنك أن تتأبَّط ذراع فتاتك الهاربة من المدرسة الثانويّة والبالغة من العمر اثنين وعشرين عامًا، المتمسِّكة بالدِّين تمسُّكًا شديدًا، ولكنَّها في الوقت نفسه عاشقة منحلّة خلقيًّا، متردِّدة في اتّخاذ قراراتها تردُّدًا حاسمًا، وأن تتنزّه وإيّاها وأن تتسكّع؟ هل تعتقد حقًّا أنّ أكاديميًّا بمثل هذا الذكاء يمكنه أن يتكيّف وتلك الفوضى البشريّة المتنقِّلة للآنسة الصغيرة الجاهلة؟

لم أستطع أن أردّ عليها، بل ضحكتُ كثيرًا لما قالته. وقبل مرور وقت طويل، سئمت من إزعاجي، ولم يكن أيّ واحد منّا رائق المزاج. وبينما نحن ننتظر طبق سلطة الفواكه المتنوِّعة، رحنا نخمِّن بشأن الناس المتحلِّقين من حول الموائد المجاورة لنا، وبهذا قلَّلنا من مقدار الضرر الذي كان يمكن لكلّ واحد منّا أن يلحقه بالآخر، غير أنّ أثيل بدت وقد ادّخرت المفاجأة الحقيقيّة حتى النهاية.

ـ أصغِ إليّ يا قطعة الحلوى! لم أرغب في أن أكون أنا الشخص الذي سيخبرك بهذا الكلام. ولكنْ، ربّما يستحسن أن تسمعه منّي. فمن غيري لديك لتصبّ سمومك؟ على أيّ حال، دعنا نوفِّر الملاحظات التخمينيّة حتى النهاية. بداية المعطيات الحقيقيّة! ها هو الخبر المذهل: سوف تتزوَّج آيشين، تتزوَّج مجدَّدًا!

كان التوقيت هو أسوأ خطأ اقترفه النادل الأمهق المدوَّر الوجه كالقمر عندما مدّ يده في تلك اللحظة ليغيّر من طبقي. أنا لست واحدًا من أولئك الناس الذين يتسبَّبون بإثارة المتاعب في المطاعم، يرشقون بأعلى أصواتهم الإهانات يمنة ويسرة، ولكنِّني أكره حقًّا أن يغيِّر أحدهم طبقي من دون أن أطلب ذلك شخصيًّا. إنّ النادلين على وجه العموم، لا يريدون مجرّد التفكير في هذا الأمر على أنّه احتمال قائم، لكنَّ ثمّة ناسًا في هذه المدينة يستمتعون بقضم بقايا طعامهم. إنّنيٰ لا أتحمَّل رؤية بقايا طعامي، وقد رُفعت من أمامي بسرعة، وكأنّها مضيعة للكرامة. لو كان

Twitter: @ketab_n

الأمر بيدي، لن أفارق طبقي إلى اللحظة التي يحين فيها وقت نهوضي من حول المائدة. في وسعي أن أخلط بقايا المقبّلات الباردة بمقبّلات حارَّة، وأستمرّ في قضم قطع صغيرة طوال الليل. غير أنّني لا أشعر بأقلّ ضيق لتناول شرائح الفاكهة الملطَّخة بالزيت والصلصة والملح والبهارات الممزوجة كلّها بالمقبّلات الحارَّة فحسب، وإنّما أجلس أحيانًا وأصنع خلطات من هذه الموادّ، حلوة وحامضة أيضًا. وإذا أحببت هذا الخليط النهائي وراقني، فإنّني أتناوله. وإذا لم أحبّه، فإنّني أتلفه. تعرف أثيل هذه العادة المتأصّلة فيَّ، فلا تتدخَّل. أمّا النادلون فلا يعرفونها، فيتدخّلون.

ـ أعذره من فضلك! إنّه يمر بمرحلة صعبة، إذْ طلَّق زوجته مؤخَّرًا.

نقَّت أثيل مخاطبة النادل الذي كان يقف بجانبي وبيده طبق أبيض مخربش، غير قادر على فهم السبب الذي كلّمته فيه بحدّة.

أدرك الرجل بالحدس السخرية الكامنة منَ وراء هذه الكلمات، وانفرجت شفتاه الممتقعتان عن ابتسامة. لكنْ، لا بدّ أنّه في الوقت نفسه شعر بضرورة أخذ جانب الحيطة والحذر تحسُّبًا لما قد يحدث، إذْ ضغط على حركة شفته، وراح يتلكّأ من خلفي بوجه أشبه ما يكون بالقناع: نصفه مبتسم ونصفه الآخر حزين.

قالت أثيل باسمة:

ـ استمرّ في عملك رجاءً، وفي وسعك أن تبدِّل طبقي. فأنا مرتاحة.

كشّر النادل عن أسنانه، وهو يرفع الطبق القذر من أمامها، بعد أن فاجأته بهذا المقترح المنطوي على ثقة متبادلة.

قالت أثيل هازَّة كتفيها، عندما أصبحنا وحدنا مجدّدًا:

ـ لو سألتني لقلت لك إنّ الرجل ساذج تمامًا.

استغرقتُ دقيقة إضافيّة كي أدرك أنّها كانت تتكلَّم على زوج آيشين

Twitter: @ketab_n

المقبل، وليس على النادل.

ـ إنّه ساذج، سليم الطويّة ـ خنوع وسهل الانخداع ـ إلّا أنّه ساذج بالرّغم من ذلك. متواضع وطيّع وبسيط. حدوده واضحة أكثر ممّا يلزم، زوايا في كلّ جهة. كلّ ما يواجهه، يصطدم بجدار. وإذا ما أردت أن تعثر لك على شرارة تنمّ عن حيويّة ونشاط في الرجل، يتعيَّن عليك أن تحفر على الأقلّ سبع طبقات في أعماق ماضيه. إنّني أفكِّر إن كان حقًّا قد فاض مرّة واحدة في طفولته بالحيويّة والنشاط. وعلى الرّغم من ذلك، لا تتوقَّع الشيء الكثير، بل شيئًا قليلاً جدًّا. والآن سوف يستبدّ بك الفضول لمعرفة مظهره!

أمسكت بيدي، وحدست:

ـ دعني أوضح لك: مقارنة بك، يبدو وكأنّه حيوان غُرَير خَرِفْ.

هكذا إذن. سوف تتزوَّج آيشين من غُرَير خَرِفْ. أضع قطعة من البطِّيخ في زاوية طبقيّ، حيث انتشرت بكثافة صلصة الثوم والجوز.

غمغمت أثيل وهي ترفع يدها، تاركة على رسغي آثار أظافرها المطليّة بطلاء نيلي برّاق:

ـ صاحب السنّ الناتئة، أهو غُرير أم خُلد؟ على أيّ حال، أنا متأكِّدة من شيء واحد يا قطعة الحلوى، وهو أنّ هذا الرجل قبيح، حقًّا. من حيث المبدأ، أودّ أن أقول إنّ آيشين تستخدم أسلوب المحاولة والخطأ. فالمرء لا يلدغ من جحر مرَّتين، ولهذا تنأى هي بنفسها عن الأكاديميِّين الشبّان من ذوي الطلعة البهيّة.

عندما غادرنا المطعم، جلست بجانبها ملؤني ثقة، مدركًا أنّها تقود السيّارة بحرص وعناية عندما تكون مخمورة، مقارنة بقيادتها وهي صاحية. وهكذا، أوصلتني قصر الحلوى من دون أيّ مشكلة بعد أن قطعت مسافة طويلة. ثم انطلقت من بعد ذلك في الشارع المعتم،

Twitter: @ketab_n

فظهرت هالة عسليّة مشعّة في الظلمة.

بمجرّد أن وصلت الطبقة الثالثة، توقّفت أسترق السمع على باب الشقّة المقابلة لشقّتي، فلم أسمع أيّ صوت يندّ من داخلها. صحيح أنّني لم أخطّط لرؤيتها في هذه الليلة، إلّا أنّني قرعت جرس الباب من دون تفكير حقًّا. كانت قد منعتني من الحضور إليها من دون إبلاغها مسبقًا، ولكن كان في وسعي انتهاك الحظر في تلك الليلة، إذْ من غير المرجَّح أن ينفق تاجر زيت الزيتون الليلة في فراش عشيقته بعد إصابته بنوبة قلبيّة.

اقتربت خطوات رقيقة ناعمة، وازداد عتمةً الضوء الذهبي المتسلّل من ثقب الباب الذي يُختلس منه النظر. لبثنا واقفين على تلك الحالة، كلّ واحد منّا على أحد جانبيّ الباب، دقيقة واحدة طويلة، ثم فُتح الباب ببطء يثير الانزعاج. ورنت إليّ بعينيها الكستنائيّتين الخاليتين من البريق أو الحبّ أو الأحاسيس، واستدارت وترنَّحت عائدة إلى غرفة الجلوس تجرّ قدميها جرًّا، من دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، طيِّبة كانت أم سيِّئة. غير أنّني لم أكترث لها. فمهما كانت حركاتها غريبة الأطوار، فإنَّ ثمالتي كانت جيِّدة أيضًا. جلست فوق الأريكة، ورحت أشاهد التلفاز من دون صوت. كانت ثمّة مغنّية تتكلّم من وراء لاقطة الصوت عمّا مرّت به، مغنّية تغنِّي أغاني كلاسيكيّة، ومن تحت ثوبها الشفّاف بلون الليلك والمرصَّع بالجواهر، راح جسدها الذهبيّ اللمَّاع يتألّق. كانت قد كسرت ساقها أثناء رحلة تزلُّج على الجليد، ولكنْ نظرًا لعدم قدرتها على إلغاء تذاكر الحفل الغنائي، ومضايقة عشّاقها ومحبِّيها الأعزّاء، اتّخذت قرارًا بطوليًّا في الظهور على خشبة المسرح معتمدة على عكّازين. وكان طبيبها يقف بجانبها، فيتدخَّل أحيانًا للردّ على الأسئلة التي يطرحها الصحافيُّون في مؤخِّرة المسرح.

Twitter: @ketab_n

نقَّت العشيقة الزرقاء:

ـ مات!

أطرقت ببصري إليها، ذاهلاً مرتبكًا، عاجزًا عن إدراك المقصود بكلامها. انزلقت عيناي تلقائيًّا في اتّجاه شاشة التلفاز، فبدت المغنِّية لي مفعمة بالحيويّة والنشاط، ولكنَّها ربّما كانت ممتقعة الوجه الآن. رمت بقبلة نحو عدسة التصوير، فأطفأتُ التلفاز، وجلست بجانبها لا أدري ما أقول.. ولكنِّني أمسكت بيدها، غير أنّها لم تمسك بيدي، إذْ استسلمت للنوم، بكلّ هدوء... هدوء أكثر ممّا ينبغي...

جلست وحيدًا في غرفة الجلوس محاولاً أن أستجمع أفكاري، ولم أدرك كم من المشروب احتسيتُ في هذه الليلة، وسيطر عليّ نوم وكسل وخمول، ولم أستطع التفكير بسرعة ولا أن أتصرَّف تصرُّفًا ينمّ عن خفّة حركة. فأنا لم أعرف كيف أواسي عشيقتي الصغيرة فحسب، وإنّما لم أشعر بذرَّة من الحزن. كلّ ما أردت أن أفعله هو الذهاب إلى شقَّتي والاستسلام للنوم.

إلَّا أنّني على الرّغم من ذلك، لم أتّجه ناحية الباب، وإنّما إلى غرفة نومها. واستلقيت بجانبها في الظلمة الحالكة مصيخًا السمع لكلّ الأصوات، في محاولة للتأكُّد إن كانت نائمة أم لا.. فوجدتها يقظة.

همست:

ـ لم يستطع التغلُّب على النوبة القلبيّة، فتوفّي في الساعة الثالثة فجرًا.

لمست خدَّيها، فوجدتهما جافّين، غير مبلّلين، فعرفت أنّها لم تبك. اقتربت منها، فلم تدفعني ولم تستجب للمستي، بل لبثت راقدة مثل كيس فارغ. كان الفراش دافئًا، فتعانقنا، وخلدتُ إلى النوم.

نهضت من نومي أثناء الليل، وأنا في ظمأ شديد. وبعد أن كرعت كلّ الماء الموجود في الكأس على المنضدة، ذهبت إلى الحمّام. وبينما

Twitter: @ketab_n

أنا أتبوّل حذّقت، مترنِّحًا من السكر، إلى الصابون المعطّر في ركيزة زجاجيّة، وعبوات وغسول الببايا المصطفّة في زاوية المغسلة، وزجاجات العطور الصغيرة تلمع من أمام المرآة، وإسفنج الاستحمام الشذريّ اللون، ومستحضرات الجسم السائلة، وتجهيزات مفصَّلة تفصيلاً دقيقًا لمن هو في خريف العمر. تركت ماء المرحاض يتدفَّق، فوقع بصري وسط هذه الأشياء على شفرتين من شفرات الحلاقة، إحداهما كانت قد سقطت على الأرض، والثانية في المغسلة.

كان ذلك المنظر كافيًا كي أستردّ وعيي وأصحو، وأندفع إلى غرفة النوم. أضأت المصباح، وجذبت غطاء الفراش من فوقها. وبينما هي تحاول أن تجلس في السرير، رفعت إلى أعلى ثوب نومها الأزرق الممتدّ إلى ركبتيها، فلم أجد شيئًا على ساقها اليسرى، لا شيء جديدًا، لكنّ الجزء الأعلى من ساقها اليمنى كانت ملفوفة بمنشفة ومغطّاة ببقع كبيرة حمراء بلون القرميد الأحمر. كان هذا الغطاء الفضفاض منتفخًا انتفاخًا لم يجعلني أدرك كيف أنّني نسيت ملاحظته قبلئذٍ. وبينما أسرعت في إزالة المنشفة الطويلة والرقيقة، انتظرت هي صابرة، بكلّ بساطة، من دون أن تبدي أيّ مقاومة.

ظهرت من تحت المنشفة خمسة جروح قرمزيّة، يبلغ طول الجرح الواحد منها شبرًا. ولم تبدُ ثلاثة من تلك الجروح عميقة جدًّا، ولاحت وكأنّها جاءت على أثر حادث أو بالرّغم منها، كأنّها كانت إعدادًا مبدئيًّا للجرحين الآخرين اللذين كانا غائرين. هرعت مرّة أخرى إلى الحمّام. ولمّا لم أجد شيئًا مفيدًا في الخزانات، أسرعت إلى شقّتي مهرولاً. وبينما أنا أجري مسرعًا من إحدى نهايتيْ قصر الحلوى إلى النهاية الأخرى حاملاً فوق أوكسيد الهِيدروجين وكرات القطن، تبخَّر كلّ أثر للكحول الذي احتسيته في هذه الليلة.

راقبتني في صمت، وأنا أنظِّف جروحها وأضمِّدها. ثم شكرتني

Twitter: @ketab_n

على استحياء، تارة، وكالحة الوجه متجهِّمة تارة أخرى، وغطّت جسدها بثوب النوم الأزرق الذي لم يتلطّخ أثناء هذه المدّة من الزمان، وانكمشت مجدّدًا مثل كرة. أطفأت النور وانتظرتها، كي تبكي أو تتكلّم أو تدني نفسها تودُّدًا أو التماسًا للدفء. في الظلمة، وبعد أن انكفأت على نفسها تاركة إيّاي وحيدًا بجانبها، اضطّررت إلى أن أعترف بيني وبين نفسي بأنّني لم أفهمها قطّ. إنّه خنوع غير مبرّر أن نعتقد بأنّنا عندما نفضّ بكارة النساء اللواتي نحبّ، إنّما نتمكّن من اختراق أجسادهنّ بأنظارنا، وأنّنا بعد الإيلاج نصل أعماقهنّ...

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ١٠
السيِّـدة العمَّـة والـزبَّـالـة

بدأت أولى مركبات الزبالة وأولى شركات الزبالة عملها في مدينة اسطنبول العام ١٨٦٨. وكانت المهمّة قبلهما ملقاة على عاتق نقابة الباحثين العاملين بإمرة المشرف على الزبالة. وكما هو شأن زبّالي هذه الأيّام، فإنَّ الباحثين عن الزبالة في تلك الأيّام، كانوا مسؤولين عن التخلُّص ـ وإن جزئيًّا ـ ممّا يريد أهالي اسطنبول التخلُّص منه تمامًا وإلى الأبد. لكن عندما كان الموضوع يصل إلى مرحلة كيفيّة تنفيذ ذلك، فإنَّ ثمّة فرقًا كبيرًا بين رجال زبالة اليوم وأسلافهم. وكان هدف نقابة الباحثين الأوّل في جمع ما يراد التخلُّص منه، يتمثّل في العثور وسط الأشياء المجموعة على ما يمكن الاحتفاظ به بدلاً من رميه. وقبل أن يتخلَّصوا من النفايات والقاذورات والأنقاض التي جمعوها في أكوام، فإنّهم ينقلونها كلّها إلى ساحل البحر في عدد من الأجربة التي تُحمل على الظهر أو الكتف، حيث يصنِّفون هذه الكومة وينظِّفونها ويشطفونها مرّات ومرّات. ثمّة أوقات كانوا يعثرون فيها على أطباق نحاسيّة وقضبان حديد ومسامير، يمكن استعمالها مجدَّدًا، وثياب لم تصبح رثّة بعد، وفضَّة غير مؤكسدة، أو هدايا لم يكترث لها الذين أُهديت إليهم. وإذا

Twitter: @ketab_n

كانوا من أصحاب الحظّ السعيد، فيمكنهم العثور على مجوهرات مفقودة.

كانت النقابة تزور مواقع الحريق في أغلب الأحيان. فكلَّما شبّ حريق في بيت من البيوت وتحوَّل إلى رماد في اسطنبول، مدينة الحرائق، فإنّها تعمد إلى نقل الحطام. ومثلما كانوا يجمعون الموادّ من الزبالة، فإنَّ النقابة كانت تجمع الأشياء من الرماد. وكان الباحثون يتجمَّعون لكي ينقِّبوا في الأشياء، في حين كان عمَّال الزبالة يجمعون الأشياء لرميها. إذا أرادت مدينة ما أن تسلك سبيل التحديث، فينبغي لنظام الأشياء أن ينقلب. ففي الوقت الذي كانت الموادّ المرميّة في كلّ حدب وصوب تُجمع في منطقة واحدة قرب ساحل البحر، فإنَّ ما كان يجمع في كلّ حدب وصوب، أصبح يُرمى الآن في منطقة واحدة قرب تلال الزبالة.

أمّا بخصوص السيِّدة العمّة، فإنّها لا تنتمي إلى هذا العصر بوصفها باحثة عن زبالة. وكما هو شأن أعضاء النقابة في غابر الأيّام، كانت تنقِّب بدورها وسط الزبالة عن أشياء ومقتنيات لا ينبغي رميها. وهي لم تخفق في مسعاها والعثور على تلك الأشياء حتى يومنا هذا.

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ٨

أنا والعشيقة الزرقاء

على الرّغم من أنّني لم أحظ بقسط وافر من النوم، فقد استيقظت في وقت مبكر من هذا الصباح. وبينما أنا أدفع شعر العشيقة الزرقاء الملتصق بجبينها المبلَّل بالعرق إلى ما وراء أذنها، تململت قليلاً. تركتها نائمة، وأشعلت سيكارة ومضيت إلى المطبخ. كانت قد حشدت الثلَّاجة بالطعام كعهدها، بكلّ ما كان تاجر زيت الزيتون يشتهي. كنتُ في أيّامنا السعيدة التي قضيتها رفقة آيشين قد أَلِفت النهوض متأخِّرًا من النوم أثناء عطلات نهاية الأسبوع، فنتناول فطورًا يستغرق وقتًا طويلاً، متكاسلين. لعلَّها الآن تروِّض ذلك الفريد العجوز بحسب وتيرتها. وإذا كان الرجل كما وصفته أثيل، فلا مناصّ لي من لقائه. لا يعني هذا أنّني أتوقَّع إجراء أيّ تغيير، ولكنّني ما زلت أريده أن يراني. ففي وسعي أن أُثير فيه نقطة الشعور بالنقص. وربّما قد أنجح في أن أبذر أصغر بذور الشكّ في ذهنه. وعندئذٍ، أتركه يتمرَّغ في احتمال عودة المرأة التي يوشك أن يتزوّجها إلى زوجها السابق في يوم من الأيّام.

لا بدّ أنّني أيقظت العشيقة الزرقاء بما أحدثته من جلبة. ففي حين كانت تقف قرب باب المطبخ ملتفّة بوشاح مُنقَّط، لاحت بأفضل ممّا

Twitter: @ketab_n

كانت عليه في الليلة الفائتة، على الرّغم من أنّ وجهها ما يزال شاحبًا وعينيها منتفختان انتفاخًا شديدًا.

قلت وأنا أملأ كوبها شايًا:

ـ أتمنى ألّا تُلقي باللّائمة على نفسك بعد الآن.

لكنّها تلوم نفسها... كما أنّني ألومها أيضًا... ألومها وألوم كلّ من يتصرَّف على أساس أنه ربّ كونه الرابض. يستحيل عليّ أن أفهم أولئك الذين يتضرَّعون من أعماق قلوبهم بأن يصيب مكروه شخصًا ما لا يستطيعون النيل منه، ثم ينهارون بكلّ بساطة، يشملهم الذنب ويلفّهم العار، عندما تتحقّق مصادفة أمنياتهم. ولا أستطيع أن أتحمّل أولئك الذين يحيلون كلّ مشكلاتهم التي لا يتمكَّنون من معالجتها، بل ولا يبذلون أيّ جهد في سبيل حلّها، إلى قوًى غيبيّة مطهّرة من كلّ الشرور، ومن جهة أخرى، يحنُّون إلى أن يصيبهم جزء يسير من الشرور الغيبيّة لمعالجة مشكلاتهم الدنيويّة. وتثور ثائرتي عندما أرى مقدرة الناس على ما يفعلون بأنفسهم، عندما يخفقون في معرفة حدودهم، ولا يرجع هذا إلى تقديرهم المبالغ بأنفسهم، وإنّما بسبب التقليل من قيمة الشرّ أكثر ممّا ينبغي. إنّ العالم يحتشد بناس يراقبون من على مسافة بعيدة الفرصة كي يلحقوا الضرر بشخص ما، وعندما يحدث ذلك الضرر مصادفة، فإنّهم لا يحمِّلون الحظّ المسؤوليّة وإنّما يحمِّلون الأفكار والأمنيات التي مرّت بذهنهم ذات مرّة. إنّني لا أريد أن تلتحق العشيقة الزرقاء بصفوفهم، فأنا لا أريد أن أفقدها بهذه الطريقة، وإنّما كان الأمل يراودني بدلاً من ذلك في أن أحتفظ بهذه المخلوقة الساذجة واللطيفة، المؤمنة بأنّ ربّها الذي خلق الكون بقوله: «كن!»(١) يمكن له أن يدمِّره بقوله: «مت!». لهذا قرّرت أن أوضح ما فعلت.

---

(١) بحسب الديانة الإسلاميّة، فإنّ الله قال عندما أراد خلق الكون «كن!» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

قلت، وأنا أضع في طبقها نصف كمِّيّة أفضل عجّة بيض أعدّها منذ زمن طويل:

ـ هلّا أخرجت من رأسك حكاية الوليّ؟ إنّ الوليّ الصالح الذي كلّمتك مريم عنه، ظهر على الأرجح من بين الكتابة على سور الحديقة، ولكنِّني أنا الذي دوّنت تلك الكتابة.

آه.. لو تمكَّنت من فهم ما الذي يدور في ذهنها من أفكار في تلك اللحظة. آه.. لو استطعت التأكُّد من أنّني كنت أتصرَّف التصرُّف الصحيح عندما بحت لها بذلك.

ـ انظري إليَّ! يؤسفني ما حدث لتاجر زيت الزيتون ـ لكن لا يجنّ جنونك بسببي، عندما أُشير إليه بوصفه «تاجر زيت الزيتون». أتمنّى لو أنّك مدركة بأنّه حتى لو كان ثمّة وليّ راقد تحت سور الحديقة، وتحوَّلت عظامه إلى تراب، لما اختلفت النتيجة. لأنّ.. عش... يقك... يا... صغير... تي لم... يمـ...ت... لأ.. نّك... كنت... تر... يد... ين... الخلا... ص... منه... بل... لأ... نّه... أُصي... ب... بنو... بة... قلـ... بيّة.

ها هي مجدَّدًا، يلوح على عينيها طيف ظلال. مرّة أخرى في حياتي، شهدت تلك المرحلة المعتمة التي بدأت فيها بإيقاظ الضغينة في امرأة، كنت قد تعوَّدت على عينيها الجميلتين.

ـ من حيث المبدأ، يا حبيبتي، إذا كنت تريدين توجيه اللوم إلى نفسك لكلّ مصيبة تحدث، وتواصلين تمزيق جسدك، فلا سبيل لي كي أوقفك عن ذلك. ولكنْ، إذا أردت أن تتخلِّي عن هذه العادة، فسوف أبذل قصارى جهدي لمساعدتك. والآن، إذا نظرت إليّ نظرة صديق وليس نظرة عدوّ، فلنجلس معًا ونتحدَّث عمّا سيحدث ابتداءً من الآن، فحياتك بعد كلّ هذا، لن تظلّ كما كانت عليه، ولكنَّها

Twitter: @ketab_n

يمكن أن تكون أجمل. من يدري؟

فهذرت قائلة:

ـ لماذا كذبت؟

ـ إذا كنت تعنين في موضوع الوليّ، فأنا لا أعتبر نفسي كاذبًا. الشيء الوحيد الذي أردتُ هو تطهير العمارة السكنيّة من هذه الرائحة البغيضة. كلّ ما أردت هو أن أجعل أولئك الذين يكبُّون زبالتهم هنا غير مرتاحين. ولم يدر في خلدي أنّ أحدًا سوف يأخذ تلك الكتابة السخيفة مأخذ جدّ.

لاح على وجهها طيف اكتئاب، بعد أن ران عليها صمت مزعج. فما كان منّي إلّا أن بذلت محاولة أخيرة لكسب فؤادها.

ـ الحقيقة هي: إذا كانت الرائحة منبعثة حقًّا من الخارج، فإنَّ كتابتي ربّما ساعدت في التغلُّب على هذه المشكلة، ولكنّ الشكّ كان يساورنا في أنّ مصدر الرائحة قادم من مكان غير المكان الصحيح طوال الوقت، وتبيَّن لنا أنّها قادمة من الداخل، من داخل قصر الحلوى.

نجحت الخطّة، إذْ راحت ترمقني بنظرات تنمّ عن كراهية أقلّ واهتمام أكبر. دفعت طبق الفطور أمامها وأبصرتها وهي ترفع الشوكة بيدها، فغمرني فرح طفولي. ها هي ستبدأ في تذوُّق عجّة البيض التي أعددتها، وسوف تتودّد إليَّ وتغازلني.

قلت بصوت خشن:

ـ ها أنذا أعلن لك عن قائد زبالتنا. تشبّثي بمقعدك!

أثارتني الحماسة التي كانت تشوب صوتي، وأقلقتني لحظة عابرة، لكنّني لم أهتمّ، بل استرسلت قائلاً:

ـ الشقّة رقم ١٠! جارتنا المحترمة الأرملة!

Twitter: @ketab_n

همست العشيقة الزرقاء:

ـ أتعني السيِّدة العمّة؟ مستحيل. لن أصدِّقك. لا بدّ أنّك مخطئ، إذْ ما من شأنها أن تفعل مثل هذا الشيء!

ـ بل فعلته حقًّا يا حسنائي. لقد ملأت بيتها بالزبالة عن آخره.

سألتني، وهي تضيِّق عينيها الكستنائيّتين:

ـ كيف عرفت؟

ـ انسِ كيف عرفت. فأنا أقول الصدق. الله يعلم أنّ ذلك هو السبب في كثرة الحشرات في منزلك.

ما يدعو إلى الاستغراب أنّني لم ألتفت إلى هذه الصلة. لكنْ بغتة، راحت كلّ التفاصيل الصغيرة الخاصّة بالأحداث ترتبط في ذهني.

قالت متخلّية عن شوكتها من يدها:

ـ لا أصدِّقك. لن أصدِّقك بعد اليوم!

قلت متبرِّمًا، يراودني إحساس بعدم ضرورة إخفاء خروجي عن هدوئي ورباطة جأشي:

ـ آه، حقًّا؟ وماذا لو أثبتُّ لك ذلك حبيبتي؟!

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ٦
نـاديـا

هتفت لوريتا:

ـ لِنُقِمْ حفلة كبرى أيّتها الممرِّضة. لندعُ كلّ فرد، حتى أعداءنا!

ثم انسلَّت أمام باب العيادة الطبِّيَّة من بين ذراعيْ امرأة عجوز وفيّة تذرف دموع الفرح. وكان يقف بجانبها الطبيب ـ الزوج الذي بذل جهودًا شاقَّة في معالجتها منذ زمن طويل، فتستطيع أن تتذكَّر أنّها تزوّجته. وقبل أن يستقلَّا السيّارة التي كانت تنتظرهما، التفتا إلى الخلف، ولوّحا في وقت واحد للممرِّضة الباكية بكاءً متواصلاً ولموظّفي العيادة المبتسمين ابتسامًا متواصلاً.

أطفأت زوجته ناديا جهاز التلفاز، وأغلقت الحقيبة النتنة الكهرمانيّة اللون بعد أن فتَّشتها تفتيشًا أخيرًا. رنت إليها دمى مسرح الظلّ مستاءة من الركن الذي أُلقي بها إليه. كان في وسعها أن تأخذ حقيبة أخرى، ولكنَّها، لسبب لا تدري كنهه، أرادت أن تأخذ هذه الحقيبة بعينها. كانت زوجته ناديا راحلة، فقد انتهت دولة الديموقراطيّة.

للبشر، كما للحشرات طاقة بيئويّة، بمعنى حدود التحمُّل. فمتى وحيثما صادفت ظروفًا غير مؤاتية، تجد ردَّها متمثِّلاً في تحديد وظائف

Twitter: @ketab_n

حياتها. وبهذا، فإنّ آليّات أبدانها ذات وظيفة أقلّ أو ربّما مختلفة. وبفضل هذه القدرة، تكيّف مجموع التغيّرات الكيماويّة في جسمها بحسب الظروف الجديدة التي اضطرّت إلى الخضوع لها. وفي دورة الحياة، يمكن أن تظهر في أيّ وقت مثل هذه الحالة من الخمود المتعاقب، بل في أيّ مرحلة، ويمكن أن يتكرّر مرّات ومرّات. فثمّة نوع من الحشرات التي تعيش، مثلاً، في فصل الشتاء معتمدة على المرور بعدد من المراحل المختلفة من اليرقة في حالة البويضة. وتقلّل من تحوُّلها المادّي بوقف هذا التحوُّل أو تقليله إلى أن ينقضي الطقس البارد. ومع هذا، فثمّة حدود لهذه المرحلة، فيتعيّن عليها التوقّف. وإذا ما استمرَّت الظروف المحيطة، وهي غير مناسبة مدّة طويلة من الزمان، فيمكن أن يلحق ضرر لا سبيل إلى أصلاحه بتلك التغييرات الكيماويّة.

من أجل أن نقدر على معرفة ما نعرفه قبل الآن، فإنّنا نؤكّد مرارًا وتكرارًا على انتظار علامة ما، إن لم يكن رسولاً، لكن من يقول إنّ الرسول ينبغي له أن يكون ذا شكل معيَّن وذا مقاييس محدَّدة؟ المهمّ في نهاية الأمر ليس شكل الرسول، وإنّما قدرتنا على فكّ مغاليق الرسالة. عندما راحت ناديا أونيسيموفنا تُبوّز في الحشرات المحتشدة في خزانتها، حيث تحتفظ فيها بمصابيح البطاطس، انساقت بغتة من وراء فكرة أنّ حالة كونها «زوجته ناديا» كانت مرحلة خمود متعاقب في حياتها. فقد حدّدت طوال هذه المدّة وظائفها الحياتيّة وهبطت إلى ما دون قدرتها، وجمَّدت تحوّلها، وما لم تخرج من هذه المرحلة الضحلة بأسرع وقت ممكن، فإنّ ضررًا لا سبيل لإصلاحه سيلحق بشخصيّتها.

سوف تعود أدراجها إلى أوكرانيا، حاملة وإيّاها تلك الجرثومة التي قطعت كلّ تلك المسافة حتى تصل قدميها لتعطيها الرسالة، لتذكّرها أنّها امرأة مختلفة، ولا يمكن تضليلها أو تركها روحًا وحيدة مستوحدة، مرتبكة ذاهلة، تبحث عن الاختلاف في التشابه، امرأة أجنبيّة خارج

Twitter: @ketab_n

حدود الزمن في المدينة التي تقطنها، زوجة مخدوعة وربّة بيت غير قادرة على إعداد طبق العاشوريّة إعدادًا جيِّدًا، وضحيّة عنف منزلي يلحقه بها سكِّير مدمن على تعاطي المسكرات، لا يشبعه حتى عنب ليون الحكيم، وواجمة وجومًا يكفي لأن تتوقّع مساعدة من مراسلاتها الرتيبة مع عمّة متشدِّدة دينيًّا، تسمع صوت الله يُلفظ في قدور الشوربا، امرأة فاترة الهمّة كلّ يوم من الأيّام شبيه بسابقه، وعمياء على نحو يكفي لأن تتوقّع الاستنارة من مصابيح البطاطس... يُضاف إلى ذلك وفوق كلّ تلك الأشياء، ساعدها البقّ على أن تتذكّر أنّها عالمة أحبَّت عالم الحشرات أكثر ممّا أحبَّت عالم البشر.

Twitter: @ketab_n

رقم ٨٨
قصر الحلوى

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة العشرين من بعد ظهر يوم الأربعاء المصادف في الأوّل من شهر مارس ٢٠٠٢، توقّفت شاحنة بيضاء أمام قصر الحلوى، وكانت بحاجة إلى غسل وتنظيف، ومزدانة بصورة جرذ كبير ذي أسنان حادَّة كالإبر على أحد جانبيها، وعنكبوت كثيف الشعر، كبير الحجم، على الجانب الآخر، وعلامات من مختلف الأحجام تغطِّيها من كلّ جهة. وكان اسم سائق الشاحنة أنجاستس بيورتورك، رجلاً أحمر الشعر، متهدِّل الأذنين، طفوليّ الوجه، مضحكًا، سنّه لا يناسب مظهره تمامًا. كان يتولّى عمليّة تبخير المكان لقتل الحشرات منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، ولم يسبق له أن كره مهنته كرهًا شديدًا كما يكرهها في هذا اليوم.

ركن سيّارته قريبًا من الرصيف، وحدّق تحديقة تنطوي على شكّ وريبة إلى مجموعة من الناس عند مدخل العمارة السكنيّة، تحقّق من العنوان الذي سلَّمته له سكرتيرته الثرثارة في الصباح: ٨٨ قصر الحلوى، شارع الجبل. وأرفقت سكرتيرته المهذارة ملاحظة صغيرة، مفادها: «العمارة السكنيّة التي تنتصب في حديقتها شجرة ورد الأكاسيا». مسح

Twitter: @ketab_n

قطرات العرق من على جبينه، وحملق في الشجرة المنتصبة في الحديقة، فرآها يانعة بزهورها الورديّة على بعض أغصانها والبنفسجيّة على البعض الآخر. وفكَّر في نفسه، لا بدَّ أنّ هذه هي الشجرة التي يطلقون عليها اسم «ورد الأكاسيا».

ولكنْ، بما أنّه لم يكن يومًا يولي ثقته لسكرتيرته التي عزم على استبدالها بأقرب فرصة مؤاتية، فقد أراد أن يشاهد بأمّ عينيه المصابتين بقصر البصر العلامة الدالَّة على المبنى. كان في ميسوره أن يسأل الناس المتجمهرين أمام العمارة السكنيّة، لكنَّه كان قد اعتاد اعتيادًا رهيبًا لا يتزحزح على الاهتمام بعمله، فضلاً على عدم إيلاء ثقته بالآخرين، فقد ركن الشاحنة منحرفة عن الطريق ووثب منها، لكن ما إن خطا خطوة حتى صرخت في ذعر وهلع فتاة صغيرة، كانت واقفة رفقة ثلاثة أطفال في الحشد:

ـ الجنّيّ هنا! جدّي، جدّي، انظر.. الجنّيّ هنا!

استدار العجوز ذو اللحية البيضاء الدائريّة والجبين العريض والمعتمر بقبَّعة رأس، والذي راح الأطفال يجذبون بنطاله، ولاحت على وجهه نظرة تنمّ عن خيبة أمل، وهو يرنو أوّلاً إلى الشاحنة الصغيرة، ثم إلى السائق. وقطّب جبينه وبدا أكثر امتعاضًا، وجذب الأطفال الثلاثة قريبًا منه، غير راضٍ عمّا شاهده على ما يبدو.

اخترق أنجاستس بيورتورك الجمع الحاشد بخطوات واثقة، محاولاً ألّا يبدو مستاءً. دفع الأهالي جانبًا واقترب من العمارة السكنيّة وتمكّن من قراءة الرقعة، وشعر بالارتياح عندما علم أنّه وصل العنوان الصحيح. وبعد أن رفع بطاقة زيارة محشورة بين أزرار الأجراس الكهربائيّة المتراصفة، ووضع بطاقته بدلاً منها، وثب إلى مقعد السائق في شاحنته الصغيرة ووضعها في موضع الرجوع إلى الخلف. في تلك اللحظة، مدّت أنثى رأسها.

Twitter: @ketab_n

ـ هل أتيت بشاحنة واحدة؟ إنّها لا تكفي.

نخرت في وجهه امرأة شقراء وحولاء مرتدية صدريّة مصفّف شعر مطرَّزة بالفهود ومربوطة من حول رقبتها، وأضافت:

ـ لقد وعدونا بشاحنتين، بل إنّ شاحنتين لا تكفيان لرفع كلّ هذه الزبالة.

بينما حاول أنجاستس بيورتورك أن يُدرك ما كانت المرأة تتكلَّم عليه، ويناور بسيّارته وسط الشاحنات الداخلة إلى الشارع من جهتين متقابلتين في الجانب الآخر، فَقَدَ سيطرته على عجلة القيادة، واصطدم بكومة الزبالة القريبة من سور الحديقة.

في ذلك اليوم، لاحت للعيان شاحنتان أخريان، عدا الشاحنة التي كان يقودها أنجاستس بيورتورك، وجاءتا إلى مدخل قصر الحلوى فضلاً عن سيّارة قناة تلفازيّة أهليّة؛ وغادرتا قصر الحلوى في نهاية النهار. وتعطَّلت الشاحنتان بسبب الزبالة، بينما غادرت سيّارة القناة التلفازيّة ومعها كلّ اللقطات التي جاءت من أجلها. وبدلاً من أن يُجري منسِّق الأخبار لقاءات مع الجيران الذين كانوا يتطلّعون إلى الحديث والمقابلات، فإنّه أراد أن يجري لقاءً مع المرأة الساكنة في بيت الزبالة. لكنْ في اللحظة التي أُفرغت شقّتها من الزبالة وجرى تبخيرها، أقفلت الباب من ورائها في الشقّة رقم ١٠، رافضة فتحه لأيّ شخص.

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ٤
أبنـاء الطبـع النـاري

غدت زليخا مبهورة الأنفاس عندما أوصدت باب غرفتها من ورائها، ورمت بحقيبتها على سريرها. وعندما أرادت أن تستعيد توازنها بأن تشبّثت بجانب السرير، انتظرت حتى تعود ضربات قلبها إلى وضعها الطبيعيّ. لقد اختارت يومًا غير مناسب للهروب من البيت. فمجرّد أن خطت خطوتها الأولى إلى الشارع، وجدت نفسها في خضمّ فوضى جنونيّة تسير فيها شاحنتان حمراوان برّاقتان في اتّجاهين متعاكسين. كان اللون الأحمر لا يُطاق في العالم الخارجي. فمن بين كلّ الألوان، تبدو شوارع اسطنبول الأقرب إلى اللون الأحمر.

ـ لِمَ أنا مكتئبة لا يرقأ دمعي؟ كان ينبغي لي أن أعرف أنّني لن أقدر على مبارحة هذا البيت.

التقطت المرآة، فأبصرت الطفح الجلدي وقد غطّى وجهها كلّه. كان الطفح أحمر اللون كالجحيم. بكت أوّل الأمر بكاءً

Twitter: @ketab_n

صامتًا، لكنَّه تحوَّل إلى نشيج وعويل بعدئذٍ. وعلى حين بغتة، ترامى إلى مسامعها صوت مغرِّد. ثمّة من يردّ على بكائها من الداخل. على الرّغم من أنّ رأسها كان ما يزال في حالة دوار، وبصرها يتلاشى من كثرة رؤيتها اللون الأحمر، فقد اقتفت أثر الصوت بخطوات مترنِّحة. كان طائر الكناريّ يشدو شدوًا عذبًا في قفصه قرب نافذة غرفة الجلوس:

ـ لماذا أنت مغتبط كلّ هذا الاغتباط؟ إنّك لن تتمكّن أيضًا من الرحيل عن هذا المنزل.

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ٧

أنـــا

إنّني أتذكَّر دومًا كلّ شيء تحدّثنا عنه في ذلك اليوم، على الرّغم من بذلي قصارى جهدي كي لا أتذكَّر. أمّا بخصوص ما حدث بعدئذٍ، فإنّني أفضِّل محوه من ذاكرتي، أو على الأقلّ، لا أتذكّره إلّا تذكُّرًا غامضًا ونادرًا. بيد أنّ لعنة سو بدت وقد أتت ثمارها. فقد تحوَّلت ذاكرتي حقًّا إلى قملة، حتى وإن لم يتحوَّل إليها بدني. وكما هو شأن القملة الكبيرة المتشبِّثة في رأسي، فقد أصبحت ذاكرتي ماكرة تُستنسخ كلّ يوم عابر. أرى ذاكرتي، في مخيِّلتي، وهي تطوف في أنحاء رأسي، أحيانًا تتربَّع عليه، داخله، وفي أحيان أخرى، تصدر أصواتًا مزعجة وهي تضع بيوضها البيضاء الصغيرة واللّامرئيّة والكثيرة في كلّ مكان. وتخرج من هذه البيوض الآن الأفواه الجائعة اللعينة التي لا تعرف الخجل، تتغذّى عليّ، رغمًا عنِّي. وتتزايد شهيّتها للطعام بتزايد أعدادها، فتلتهم التهامًا نهمًا لحمي، وتصيب رأسي بالخدر، فلا أشعر بألم، وكأنّ آلاف الدبابيس غُرزت فيه. إنّني لا أذكر هذا الموضوع لكائن من كان، ولأنّني لم أعد أطيق نفسي عندما أكون رفقة الآخرين، فإنّني أسعى إلى أن أبقى وحيدًا قدر المستطاع، وأبحث عن أجوبة

Twitter: @ketab_n

للأسئلة نفسها التي لا جواب لها.

لو لم أكتب تلك الرسالة التي لا معنى لها على سور الحديقة، ولو لم أثرثر، ولو استخدمت عقلي الذي أعتزّ به اعتزازًا كبيرًا ومن دون تحفُّظ لمعرفة عواقب فعلتي، وللتنبّؤ بالضرر الذي كدت أن ألحقه بشخص آخر، فهل كان من شأن هذا كلّه أن يحدث أيضًا؟ لو لم أنتقل إلى قصر الحلوى، ولم أختلط بهؤلاء الناس أو تعلَّمت أسراهم، ولو نجحت مرّة واحدة في حياتي في أن أكون شخصًا غير شخصي الحالي، فهل كان من شأن هذه الحكاية أن تسلك السبيل نفسه المؤدِّي إلى النهاية المحتومة نفسها؟ يمكنني أن أفكِّر في جوابين مختلفين، أوّلهما يعود إلى عقليّتي، والثاني لقلبي. يقول عقلي: لا تقلق، عاجلاً أم آجلاً، كان من شأن هذه المصيبة أن تقع في كلّ الأحوال. فأنت لست بالأهمِّيَّة التي تتصوّرها، ولا بالخبث الذي تخافه. ما الفرق إن كانت هذه المأساة قد وقعت بسببك أو بسبب آخر، ما دامت النتيجة النهائيّة واحدة؟ إذا كنت ستشعر بأنّك في أحسن حال، فأطلق عليها كلمة «حظّ». على أيّ حال، ما الذي يمكن لأيّ شيء آخر أن تكون له صلة بالحظّ، ويفسِّر حقيقة أنّ كلّ سرّ ينتهي في نهاية الأمر بيد من يفشيه؟

أُعزِّي نفسي. إنّني محتاج إلى الإيمان بصواب عقلي. «القضيّة لا تخصُّ هذا الإخفاق المتواصل، ولا قوّة إرادتك الفاشلة، سواء شئت أم أبيت، فأنت لست من يجعل المستحيل ممكنًا». ثمّة عزاء كبير في ما يزعمه عقلي. «الإنسان في غاية الضعف والبدائيّة. والمصادفات، وليست العواقب التي يتسبّب فيها، هي التي تترك أثرها في حياته. وفي ضوء الضعف الشديد الذي يتّصف به الجنس البشري، فإلى أيّ مدى يمكن أن تلوم نفسك على ما فعلت؟» كلّما ينحطّ شأني، أجدني متحرِّرًا أكثر من التزاماتي.

يحتجّ قلبي باستمرار. «حتى لو كان ثمّة حظّ، ألست أنت الذي

Twitter: @ketab_n

رحت ترتاب في سفالته؟ هل من شأننا أن نمتلك كلّ نصر، ولكنّنا نلوم العداءات على خسّة قوّة الأنثى الغريبة والمخيفة؟ ألا يُفترض بالفرد أن يُقرّ صراحة أنّه هو نفسه صانع قدرة بدلاً من أن يعزو مجرى الأحداث إلى خرافات جوفاء؟ ثمّة مقاضاة مشرفة في الزعم الذي يردِّده قلبي». إنّ الكائن البشري على غاية من التعقيد والمقدرة. وما ننظر إليه بوصفه فرصة لا يؤشِّر إلّا النتائج التي نتسبّب فيها. وفي ضوء كون قدرة الكائن البشري قدرة هائلة، فإلى أيّ مدى يمكن أن تتنصّل ممّا فعلت؟ كلّما أسمو أجد نفسي ملوَّثًا، قذرًا.

إنّني لا أحتسي المشروبات أكثر ممّا احتسيتها في الماضي، إلّا أنّني أنام في هذه الأيّام أكثر ممّا كنت أنام. وفي حين يزداد همّي وغمّي، فإنّني ألوذ بالنوم لأستيقظ من بعد ذلك أكثر همًّا أو غمًّا. لم يعد يهمّني بعد الآن إن رحلت أو بقيت. فمهما ابتعدت، فلن أقدر على الخروج من نطاق الرائحة النتنة المنبعثة من الشقّة رقم ١٠. ففي كلّ يوم أصحو فيه، تزداد الرائحة نتانة.

ما من رائحة في الحياة، ولا حتى رائحة الزبالة، يمكنها أن تكون سامَّة كهذه الرائحة.

أسترق السمع من حين إلى حين على الجيران. إنّهم يخطّطون لكسر الباب. وأنا لا أريد أن أكون حاضرًا هنا، عندما يقتحمون الشقّة رقم ١٠.

Twitter: @ketab_n

البويار وعشيقته

اقترب البويار وعشيقته من على السلُّم الخشبي المستند إلى الجدار، أحدهما من الآخر، في قلق واضطراب. كانت رائحة الموت تفوح من البيت، ولم يتجرّأ أيّ منهما على التنفُّس. أشاح أحدهما عن الآخر بنظرة، وحدّقا إلى الغابة الغامضة إلى حدٍّ ما، والخضراء جزئيًّا، والممتدّة بتكاسل بعيدًا عنهما.

عندما كُسر الباب، اقتحم المكان رجال مقنَّعون بأقنعة، يرتدون البياض، ووضعوا الجثّة النتنة على محفّة، ونقلوها خارج المنزل. كانت جثّة الأرملة العجوز في غاية الخفّة، في غاية الصغر... بل هي بقايا جسد رفض على مدى أيّام تناول الطعام والشراب والأدوية... لم تكن مقاومة السيِّدة العمّة الجوع والظمأ ترقى إلى نصف مقاومة الصراصير لهما.

وبمجرّد أن رحل الرجال، جرى تبخير الشقّة مجدَّدًا، وانهال رذاذ قاتل الحشرات على بيوض البقّ فضلاً عن مائة وإحدى وثمانين مادَّة قديمة، غير أنّ البويار وعشيقته تمكّنا لحسن الحظّ من الهروب في الدقيقة الأخيرة، فقد هبطا أسفل الدرج، وشقّا

Twitter: @ketab_n

طريقهما وسط الغابة، وخرجا من صينيّة فيشنياكوف الدائريّة والبرّاقة والأنيقة.

لبثت الغابة الغامضة إلى حدٍّ ما والخضراء جزئيًّا من ورائهما على الصينيّة، ولم تكن الرائحة المنبعثة من الغابة رائحة موت أو زبالة، وإنّما رائحة قرفة وكريما لا غير.

Twitter: @ketab_n

شقّة رقم ٢
سيدار وغابا

بعد أن قفل سيدار راجعًا إلى منزله، تهالك من فوق الأريكة مبهور الأنفاس. كان مستغرقًا في التفكير في الانتحار منذ زمن طويل، ولكنّ تلك الأرملة العجوز التي لم تفكّر بأيّ حال من الأحوال بالانتحار تفكيرًا طويلاً، بل ربّما لم يخطر ببالها إلّا في اللحظة الأخيرة، انتحرت انتحارًا سريعًا. وعندما نهض من مكانه، كتب على قصاصة ورق صغيرة العوامل التسعة التي استنتج في ذلك اليوم، ولصقها على أيّ فسحة خالية من السقف:

١ ــ كما الحضارات، للانتحار أيضًا شرق وغرب.

٢ ــ إنّ العقليّة التقدُّميّة التي تركِّز في جعل الحياة ذات معنًى من خلال السبب، والسبب وحده، وتتوقّع أن يكون كلّ يوم مقبل أكثر تقدُّمًا من اليوم الذي سبقه، تشعر بضرورة وزن الانتحار وزنًا دقيقًا، مفكّرة في أسبابه تفكيرًا صحيحًا. إنّ مثل هؤلاء الناس ينتحرون في الغرب بغضّ النظر عن المكان الذي يعيشون فيه.

٣ ــ تنضوي في هذا التصنيف حالات الانتحار التي يقدم عليها أولئك البشر، الذين تتراوح أعمارهم ما بين الشباب وخريف العمر إلى

Twitter: @ketab_n

خريف العمر وأواخر خريف العمر.

٤ ـ لمّا كان أقرباء المنتحرين في الغرب لا يقدرون على الحصول على الراحة وطمأنينة البال إلّا بعد أن يحصلوا على إجابة شافية للسؤال: «لماذا؟» فإنّهم يتّبعون النهج نفسه في التفكير للوصول إلى تحليل السبب والنتيجة.

٥ ـ ثمّة من ينتحر في آخر لحظة متوقّعة، في آخر دقيقة، من دون اضطرار إلى تنظيم التفاصيل. إنّ مثل هؤلاء الناس ينتحرون في مملكة الشرق، بغضّ النظر عن المكان الذي يعيشون فيه.

٦ ـ عندما ينتحر الأطفال وكبار السنّ، فإنّهم ينتحرون في الشرق.

٧ ـ ليس ثمّة ما يشوّش الفكر قدر حالات انتحار كبار السنّ، الذين ـ هم ـ على ـ شفا ـ حفرة ـ من ـ الموت ـ في ـ كلّ ـ الأحوال، والأطفال الذين هم ـ بعيدون ـ البعد ـ كلّه ـ عن ـ الموت.

٨ ـ إنّ حالات الانتحار في الشرق من حيث الجوهر سرّ من الأسرار، كما يقول الاسطنبوليّون، بخلاف مثيلاتها في الغرب.

٩ ـ لا ينبغي أن تكون الأسرار تفسيرًا لها.

Twitter: @ketab_n

شقّـة رقـم ٧

أنـــا

بداية، كنت أرسم دوائر من حول قصر الحلوى، نزهات قصيرة لا تنتهي إلى أيّ مكان. وراحت الدوائر تكبر شيئًا فشيئًا. وبكرور الوقت، شرعت أنحرف، مغيِّرًا اتّجاهي نحو أحياء اسطنبول النائية. كنت أبغي الكتابات المدوَّنة على جدران الشوارع.

عندما أخبرتني أثيل برغبتها في أن ترافقني في تلك النزهات داخل المدينة، لم أعترض. ففي حين كنت أدوِّن الملاحظات على الكتابات، كانت هي تصوِّرها كتابة فكتابة بعدسة تصويرها الرقميّة. وأخذت تقود سيّارتها الشيروكي العسليّة اللون منعطفة يمينًا ويسارًا في شوارع وعرة، غير مستوية داخل أحياء موحشة، وتسير في محلّات أصحاب الدخول المتوسِّطة التي تومض بطموح فرص ضاعت منذ زمن بعيد، وتطوف من حول قصور وحقول مهجورة، مختليات ومعتزلات. في الساحات والأفنية ومواقع البناء والمنازل المحتلَّة عنوة ودور العبادة: كانت الكتابات منتشرة في كلّ حدب وصوب. وكان معظمها مكتوبًا على الجدران بطلاء، لكن ثمّة البعض الآخر المكتوب بالطبشور وقلم الرصاص والفحم والقرميد على الأبواب والمقوّى ومختلف أنواع

Twitter: @ketab_n

العلامات. وكما هو شأن الزبالة، كانت الكتابة عن الزبالة قد انتشرت في أرجاء المدينة.

كنّا تحت أبصار الناس، ونحن نطوف في الأماكن التي ذهبنا إليها، فقد اقتفى أثرنا الأطفال عن حبّ استطلاع. وتجسّست النساء على كلّ حركة من حركاتنا من وراء قماش النوافذ الشفّاف، وأحاط بنا أكثر الحرفيِّين الفضوليِّين في كلّ مرّة، وأمطرونا بوابل من الأسئلة. وعندما اضطرُّونا إلى تقديم شرح مقنع، أخبرناهم أنّ مشروع مدرستنا يتطلَّب جمع «الكتابات عن الزبالة» في مدينة اسطنبول. وعلى الرّغم من لامعقوليّة شرحنا، إلّا أنّه كان مقبولاً منهم. ولم يفطن أحد على أنّني وأثيل قد تجاوزنا مرحلة الدراسة. إذْ كانوا يظنُّون أنّ المدرسة فوق الشبهات ــ وهي مكان يُنظر فيه إلى كلّ ما هو غير معقول على أنّه مسموح به.

تبيَّن لنا أنّ العثور على من كتب هذه الكتابات أشقّ من العثور على الكتابات نفسها، واضطّررنا إلى تقبُّل حقيقة أنّ كلّ الكتابات تقريبًا كانت لا تحمل اسم صاحبها، بيد أنّني تمكّنت في إحدى المرّات من العثور على مدبِّر إحدى الكتابات المدوَّنة على جدار مبنًى رثّ، آيل للسقوط رصاصيّ اللون كالسخام: «لا ترغمني على الجواب، فسوف أتفوّه بكلام بذيء على رماة الزبالة. وعلى من يرمي الجصّ هنا أن يأتي ويأخذ، ولا يرميه مجدّدًا فيجعلني أسبّ وأشتم».

كان الأطفال يعرفون الرجل الذي كان قد كتبها. وعلى الرّغم من أنّهم لم يكونوا يعرفون اسمه، إلّا أنّهم كانوا يعرفون مهنته. فهو حارس بوّابة إحدى الجامعات، حيث يسكن فيها رفقة زوجته طريحة الفراش وحماته، إلى أن حلّ فصل الربيع الفائت. وفي حين كان البناء المجاور متواصلاً، فقد ثارت ثائرته بسبب عمّال البناء الذين كانوا يكبُّون الجصّ أمام بيته، فخرج وكتب تلك الكتابة. وافت المنيّة الرجل في فصل

Twitter: @ketab_n

الخريف، واكتمل البناء بعد وفاته مباشرة، إلّا أنّ الكتابة على الجدار ظلّت ماثلة طوال هذا الوقت!

تبرَّمت أمام أثيل بعد رحيلنا عن حيّ حارس البوّابة:

ـ ألم يكن في وسعك أن ترتدي ثيابًا أكثر احتشامًا وتواضعًا، فقد أصبحنا مركز انتباه في كلّ مكان نذهب إليه؟

قالت في حدّة، وهي تغيّر من معدّل السرعة:

ـ لا تناكدني. إنّ موضوعنا ليس هو ثيابي، بل ضميرك المذنب. إنّ هذه الفوضى التي نحن في خضمّها، سببها «مشروعك لتطهير ضمير السيِّد المتصلِّب تصلُّبًا عنيدًا» وليس أنا.

ثم ضغطت على دوّاسة البنزين، على الرّغم من أنّ الطريق ازداد وعورة وضيقًا أمامنا. وأضافت قائلة:

ـ إنّنا ننطلق من أجل «مشروع تطهير ضمير السيِّد المتصلِّب تصلُّبًا عنيدًا!» لقد نظرت إلى نفسك طوال حياتك على أنّك مختلف عن كلّ من حولك إن لم تكن أرفع منهم. ولكنْ، في اللحظة التي تدرك أنّك أفسدت كلّ شيء، فإنّك تضطرّ إلى أن تثبت لنفسك أنّك تشبه كلّ فرد! هذا الاعتقاد هو وحده الذي يمكن أن يخفِّف من ذنبك. يبدو أنّك تتمنّى أنّنا كلّما ازددنا طوافًا في الأنحاء ونجمع الكتابات عن الزبالة، فإنَّ براءتك تصبح بلا منافس أكثر من ذي قبل. «آه يا إلٰهي، ماذا فعلت! إنّ لعنة امرأة عجوز تحلّ عليّ إن لم يحلّ عليّ دمها. إنّني أدفع الثمن غاليًا لمعاملتي الناس الضعاف باستخفاف. أخيرًا أبصرت الشيطان بأمّ عيني. الحقّ أنّني أبصرته، ولكنّني آمنت بك يا إلٰهي، فأنا شبيه بكلّ فرد. انظر! إنّ عبادك الآخرين دوّنوا كتابات على جدران اسطنبول. وهكذا، فإنَّ ما فعلته في الماضي كان أمرًا طبيعيًّا جدًّا. وتبعًا لذلك، فأنا لست رجلاً استثنائيًّا كما خُيِّل إليَّ.

Twitter: @ketab_n

شكرًا لك يا إلٰهي، لأنّني إنسان اعتيادي! فإذا كنت تحبّهم حقًّا، ففي وسعك أن تغفر لي أيضًا... سوف تغفر لي يا إلٰهي. صحيح؟» تشجّع يا قطعة الحلوى! فلن تصل أيّ شيء بهذه الآمال العقيمة. ألا تبصر المفارقة في مجهوداتك لتطهير نفسك بوساطة الزبالة؟

بعد مدّة قصيرة، بدأنا نصنِّف الكتابات إلى مجموعتين، على أن تنقل أثيل الصور التي التقطتها إلى حاسوبها في اليوم نفسه، في ملفّات منفصلة ودقيقة. وكانت المجموعة الأكبر تشتمل على كتابات ذات أخطاء أو بقع فيها. وكان أكثر تلك الكتابات شيوعًا بلا ريب عبارة: «من يرمي الزبالة هنا حمار». وفي حيّ غالاتا، ثمّة عبارة مدوَّنة على دار في شارع المصرف القديم، تقول: (من يرمي الزبالة هنا ابن ز ××××!) وكانت بقيّة الكلمة قد أُزيلت. وفي منطقة الفاتح، وعند ناصية شارع أوستورومكو، كانت واجهات منزل تساقط عنها الجصّ قد احتشدت بكتابات عن الزبالة، وكأنّ كاتبها شخص عاقبه المعلِّم، فاضطرّ إلى كتابة العبارة مائة مرّة: (من ترمي الزبالة هنا عاهرة). وفي شارع محطّة المياه العاطلة في الحيّ نفسه عبارة: (من يرمي الزبالة هنا حمار ابن حمار). على الرّغم من أنّ الشتائم والسباب كانت منتشرة انتشارًا واسعًا، إلّا أنّها لم تكن كثيرة الاختلاف عن بعضها بعضًا. وفي دولا بديري، ثمّة عبارة كُتبت على علامة خشبيّة مربوطة بشجرة ثمر التوت الأرجوانيّ، ومفادها: (إذا كان من يرمي الزبالة هنا امرأة، فهي عاهرة، وإذا كان رجلاً، فهو قوّاد). وعلى بُعد بضع خطوات على امتداد الشارع، ثمّة كتابة أخرى تجذب الأنظار مدوّنة هذه المرّة أمام أحد البيوت: (إنّ الذين يرمون الزبالة هنا يستحقُّون كلّ الشتائم). وفي منطقة أورينكتاب، وفي أعلى جدار آيل للسقوط، ثمّة عديد الكتابات بالأسود والأبيض، وبدت كلّ كلمة منها وقد كُتبت من فوق كلمة أخرى، معزّزة

Twitter: @ketab_n

بذلك الجنون. غير أنّ إحدى تلك الكتابات باللون الأرجوانيّ كانت حديثة تمامًا: (من سيفهم معنى هذا الكلام). وكانت أكثر العبارات سوقيّة من منطقة دولا بديري، ومفادها: (من يرمي الزبالة هنا، تبًّا لأمّه وزوجته وأخته وماضيه ومستقبله وكلّ أفراد أسرته).

وتأتي في المرتبة الثانية من الشعبيّة تلك العبارات المستندة إلى الفروق بين الإنسان والحيوان. ففي حيّ غالاتا، ثمّة علامة في شارع واجهة العرض، تقول: (إذا كنت بشرًا فلن ترمي زبالة. وإذا كنت دبًّا، فسوف ترميها مؤكّدًا). وفي شارع الحفرة الصغيرة، وعلى جدار جانبيّ لمصرف من المصارف، ثمّة عبارة مكتوبة بالفحم مفادها: (إنّ من هو من غير البشر سوف يرمي الزبالة هنا). وفي دولا بديري، وعند مدخل عمارة سكنيّة، عبارة مكتوبة بالطبشور مفادها: (البشر الذي يشبهون البشر لا يرمون الزبالة). ثمّة كتابات مشابهة تغطّي كِلَا جداريْ الكنيسة الأشوريّة القديمة: (لا ترم الزبالة. كن إنسانًا)، و(من يرمي الزبالة هنا وضيع وضاعة الزبالة نفسها)...

في المجموعة الثالثة، ثمّة كتابات حاولت أن تزيد من الوعي بالمواظبة. ففي كوستاب، مثلاً، كُتبت عبارة مفادها: (من لديه عادة تلويث البيئة لديه رأس، ولكن ليس لديه دماغ). وفي الحيّ نفسه، وعلى علامة من صفيح ثُبِّتت على تقاطع طرق، كانت عبارة تقول: (لنمتنع عن رمي الزبالة هنا ولنمتنع عن إهانة البيئة). وبخلاف كلّ الكتابات الأخرى المخصَّصة للحديث عن الزبالة، كُتبت هذه العبارة بخطّ جميل. أمّا في بلاط، ثمّة جملة مكتوبة من حول بئر قديمة في وسط السوق: (من يرمي الزبالة هنا ليس لديه شرف. هذا المكان ملكنا جميعًا). وفي منطقة أورنيكتاب، كُتبت عبارة على جدار بيت بدا موشكًا على الانهيار عند حدوث أدنى هزّة أرضيّة: (إنَّ من يرمي الزبالة هنا يكون قد ألحق ظلمًا بجيرانه). أمّا زوّار البطريركيّة الأرثوذكسيّة الروميّة في فينير، فكانت ثمّة

Twitter: @ketab_n

لوحة ترحّب بهم من بعيد: (إنّ من يرمي الزبالة هنا سيكبر ويصبح أكثر الناس خسّة).

ثمّة عدد لا بأس به من هذه الكتابات بقيت ناقصة، ولاح البعض الآخر منها كالحًا بكرور الزمن، وقسم ثالث بقي ناقصًا منذ البداية: فجملة (من يرمي الزبالة...) كانت مكتوبة على مختلف أنواع الجدران في اسطنبول من دون إكمالها. وفي منطقة حربيّة الواقعة في شارع بابا رونكالي، وقبالة جدران المدرسة الابتدائيّة، ثمّة حروف تساقطت من عبارة (إنّ من يرم... الزبالة هنـ... سوف يصبح حما...).

ثم هناك مقاطع كثيرة من الكتابات التي تنطوي على تهديد واضح، ومن بينها ذلك المقطع الكتابيّ الذي طالما تكرَّر أكثر من غيره، وهو: (إنّ من يرمي الزبالة هنا سيواجه مشكلة كبيرة). وفي الفاتح، كانت النافورة التاريخيّة المجاورة لمسجد الرؤوس الثلاثة تحتشد بكتابات عن الزبالة مثقلة بالتهديد مثل: (لا ترم الزبالة هنا وإلّا سوف تكبّ عليك المتاعب). بيد أنّ أكثر الكتابات التي كانت تنطوي على تهديدات ولعنات هي تلك المكتوبة على قطعة مقوّى بقلم مستدقّ، ومتدلّية فوق جدار في شارع مزدحم في الحيّ نفسه: (أتمنّى أن يلفظ طفل كلّ من يرمي الزبالة هنا نَفَسَهُ الأخير).

إضافة إلى السبّ والقذف، ثمّة عبارات كثيرة ملؤها الأدب الجمّ: (هلّا تكرَّمت بعدم رمي الزبالة هنا) أو (نرجو منكم عدم رمي الزبالة في هذه البقعة). وفي مدخل المدرسة الابتدائيّة ـ قبطان باشا، ثمّة لوحتان ثُبّتتا ظهرًا لظهر، إحداهما خُصّصت للتلاميذ داخل المدرسة، والأخرى تخاطب عابري السبيل خارجها: (الرجاء عدم رمي الزبالة في حديقة مدرستنا من الخارج)، وثمّة لوحة مثبّتة على الألواح الخشبيّة المحيطة بالبناء الكائن عند مدخل المسجد العثماني، كُتب نصفها بالتركيّة والنصف الآخر بالإنكليزيّة: (رجاءً، يُمنع منعًا باتًّا وقاطعًا رمي الزبالة). وفي

Twitter: @ketab_n

شارع الحظّ الميمون (من يحبّ الله لا ينبغي له رمي الزبالة هنا رجاءً).

ومن بين الشعارات الخاصّة بالزبالة، نجد أنّ كلمة «ممنوع» تتكرّر باستمرار. فعلى الأسوار المحيطة بالقصر الفلاشي، ثمّة عبارة محفورة بحروف كبيرة: (يُمنع منعًا باتًّا رمي الزبالة). وعلى الجدار الجانبيّ لدكّان خيّاط مشهور في حيّ الحربيّة، كانت العبارة مقتضبة وصريحة: (الزبالة ممنوعة هنا). وكانت كلمة (تامًّا) واسعة الانتشار أيضًا. فعلى سور بوليكينيك مستشفى أوكيميداني التعليمي، ثمّة عبارة واضحة من أسفل الشارع تُفيد: (يُحظَّر رمي الزبالة حظرًا تامًّا)، وعلى بعد بضع خطوات منها عبارة: (يُمنع منعًا باتًّا رمي أنقاض الزبالة).

تجدر الإشارة إلى أنّ أيًّا من هذه الكتابات لا تحمل في أسفلها اسم كاتبها، فبقيت مجهولة النسب. ومع هذا، فقد كنّا نصادف بين الحين والآخر بعض الاستثناءات. ففي تلك الحالات التي كانت تتّضح فيها وضوحًا تامًّا ضرورة استثمار الكتابات بنوع من السلطة، فإنَّ اسم مختار المحلّة كان يواجهنا في أغلب الأحايين. ففي شارع مثنوي خان، نقرأ: (نرجو عدم رمي أيّ زبالة وإلّا سوف تفرض غرامة ماليّة ـ مختار المحلّة). كما تُسهم البلديّات في هذه الأعمال: (تتعهَّد البلديّة بفرض إجراءات عِقابيّة بخصوص أولئك الذين يكبُّون زبالتهم هنا). في بعض الأحيان، يُقرّ سكّان الحيّ بالكتابة، كما لوحظ في زيريك: (لتحلّ المصيبة على من يوقف سيّارته أو يكبّ نفاياته هنا ـ سكّان المحلَّة).

ثم تأتي بعد ذلك الكتابات المخصَّصة للدين والإيمان. فمن حول بقايا القصر الذي أعاد تشييده الأمير المولدا في ديمتري كانتامير في السنوات ١٦٨٨ ـ ١٧١٠، كُتبت عبارة: (إكرامًا لله، لا ترموا الزبالة هنا). وكما هو شأن مدرسة فينر الثانويّة الأرثوذكسيّة الخاصّة، كانت الأماكن المحيطة بمختلف المساجد تحتشد بكتابات مماثلة. ففي شارع كاجيت، كان المدخِّن ثمّة ورقة مكتوبة على الحاسوب تُفيد: (كان ينبغي

Twitter: @ketab_n

لمن له دين وإيمان ألّا يرمي الزبالة هنا). وعلى مسافة مائة متر من هذا المكان، ثمّة كتابة أخرى: (اللّهمّ سلّط الشلل الدائم على أولئك الذين يرمون الزبالة هنا). وعلى أحد الشوارع الثانويّة المؤدِّية إلى ميدان كاديكوي (قاضي القضاة): (سيلحق الله الكوارث بالذين يرمون زبالتهم هنا). وفي الفاتح، ثمّة كتابة على سور حديقة اسودَّ لونه بسبب وضع ملصقات حملة سياسيّة: (نرجو منكم الامتناع عن رمي الزبالة هنا، فالناس تصبُّ لعناتها عليكم). وفي الناحية نفسها، كانت ثمّة مقبرة قديمة واقعة بين عمارتين سكنيَّتين أخذت نصيبها من الكتابة. فالواجهة الأماميّة للعمارة السكنيّة المقابلة للمقبرة، كُتب عليها بحروف كبيرة من بدايتها إلى نهايتها: (إكرامًا لله لا ترموا زبالتكم). وفي جيهانجير، مررنا مصادفة بنافورة تاريخيّة لا ماء فيها، وعليها بعض الكتابات التي بدت لنا مألوفة إلى حدٍّ غريب: (هنا يرقد في هذه البقعة وليّ صالح. فلا ترموا الزبالة).

أوصلت رائحة اسطنبول الكتابة إلى كلّ حدب وصوب: إلى قوسٍ دائري غير متوقَّع، وتلٍّ منعزل يجتمع فيه الجانّ، وإلى مناطق صرف صحِّي موغلة في القِدَم، وإلى بقايا قصر مندثر منذ زمن بعيد، وإلى شوارع مسدودة، وأسواق السلع المستعملة، وإلى واجهات عمارات سكنيّة حديثة الطراز، وإلى مقرَّات نتنة أو مستشفيات ذات مظهر بشع يُصيب المرء بالغثيان، وإلى مدارس تبدو باردة، وإلى أضرحة ومراقد لم يَرِد اسمها حتى في خرائط الله... في كلّ بقعة يلتقي فيها القديم والحديث، ثمّة كتابة عن الزبالة منتشرة هنا وهناك...

لم تستغرق أثيل وقتًا طويلاً حتى شعرت بالضجر. وقبل أن أُدرك ما حدث، وإذا بها تهيم بعيدًا عنّي وعن مشروع الزبالة. وأصبحت بدوري مشروعًا لم ينته بعد في مستودع عشّاقها، حيث لبث كلّ عاشق مشروعًا لم ينته بعد.

Twitter: @ketab_n

الشقّتــان ٧ و٨
أنــا والعشيقـة الزرقـاء

ـ ماذا ستفعل بهذا العدد الهائل من الصور؟

خاطبتني العشيقة الزرقاء مقطّبة جبينها، مستاءة وهي تجول ببصرها في أطراف شقّتي التي باتت على نحو متزايد أشبه ما تكون بمرآب وليس بيتًا. وأضافت:

ـ ما الهدف الذي ستحقّقه؟

ـ إنّني لا أجمعها لكي أحقّق هدفًا.

لكنّها ألحّت في السؤال:

ـ بالله عليك، لماذا تفعل هذا؟

ليس لديّ الانطباع بأنّني أفعل أيّ شيء. اعتقد أنّ كلّ أفعالي يقرّرها في نهاية الأمر عدم إقدامي على فعل أيّ شيء، وليس على فعلي، وعلى افتقاري للفعل وليس الفعل. فأنا لا أستطيع أن أتوقّف عن البحث: فعندما أبحث أجد، والذي أجده أجمعه. وما

Twitter: @ketab_n

أجمعه أراكمه، والذي أراكمه لا أستطيع أن أرميه.

إلَّا أنّ العشيقة الزرقاء، سألت بعناد:

ـ ماذا سيحدث بعدئذٍ؟

Twitter: @ketab_n

بعـــدئـــــذٍ..

سألني رفيق زنزانتي بعناد:

ـ ماذا سيحدث بعدئذٍ؟

ـ لا يوجد ما هو بعدئذٍ. بحسب الرجل، أنّه يراكم الكتابات الخاصّة بالزبالة، والتي لن تنفعه بأيّ شيء.

قال رفيق زنزانتي:

ـ كلام فارغ.

إلّا أنّني لم أنزعج. فهذه هي أكثر الوسائل الخشنة المبتكرة لقول عبارة: لديك عقل خيالي! وقد يكون على صواب. فكلَّما ينشغل بالي وأخلط في الكلام، وأخشى نظرات البشر وأتظاهر بأنّني لست كذلك، وأقدِّم نفسي لغرباء وأتصنَّع الجهل عن مدى اغترابي عن نفسي، وأشعر بالاستياء من الماضي، وأجد صعوبة في الإقرار بأنّ المستقبل لن يكون أفضل من اليوم، أو أخفق في الانسجام في المكان الذي أنا فيه أو في هويّتي؛ في أيّ لحظة من هذه اللحظات المتكرِّرة أكثر ممّا ينبغي، أعرف أنّ كلامي لا يشفّ عن معنًى، لكنّ اللامعنى بعيد البعد كلّه عن الخداع بعد الحقيقة. لأنّ الخداع يقلب الحقيقة ظهرًا لبطن. أمّا اللامعنى فيربط الخداع والحقيقة ربطًا محكمًا فيصعب التمييز بينهما. وهذا أمر في غاية

Twitter: @ketab_n

البساطة، وإن لاح معقّدًا، إلّا أنّه بسيط، في غاية البساطة. بسيط بحيث يمكن التعبير عنه بخطّ أفقي واحد:

الحقيقة خطّ أفقيّ، سواء كان ذلك ممرًّا في فندق أو ردهة مستشفى، أو مركز إعادة تأهيل، أو مقصورة قطار. فكلّها أفقيّة. في مثل هذه الأماكن، يصطفّ كلّ جيرانك بجانبك على مستوًى أفقي، لحظة عابرة من الزمان. ولا يمكنك أن تزرع الجذور في هذه الأماكن. الأفقيّة هي ملاذ للاضمحلال. أنا شخصيًّا، كنت أحيا على خطّ أفقي طوال ستّة وستّين يومًا ــ في الزنزانة السابعة من عشر زنزانات مصطفّة الواحدة بجانب الأخرى هنا.

أمّا الأكاذيب، فهي خطّ عمودي. والعمارة السكنيّة، مثلاً، مشيَّدة فيها شقق الواحدة من فوق الأخرى، وطبقتا من المقابر من تحتها، وسبع سموات طباقًا من فوقها. هنا، في وسعك أن تمدّ الجذور فتنمو الأغصان كما يحلو لك. العموديّة هي ملاذ الديمومة، رمز الخلود:

إنّ قصر الحلوى عمارة سكنيّة شُيِّدت على أرض مقابر. خطّ عمودي يصعد طبقة فطبقة. إنّها أكذوبتي. لأنّني لا أروي هذه الحكايات من شقّة هناك، بل من السجن.

فعندما قرّرت مجموعة من الثوريّين بنفاد صبر في الأوّل من مارس أن تقتحم ثكنة الشرطة، كنت واحدًا من بينهم. وعندما

Twitter: @ketab_n

احتُجزنا كلّنا وحُشرنا في حافلة شرطة، وجدت نفسي جالسًا مصادفة بجانب رجل أحمر الشعر، متهدِّل الأذنين، له وجه مضحك لا يبدو مظهره على سنِّه الحقيقيّة. إنّني ممتنٌّ له، لأنّني عندما شاهدت الخوف يملأ عينيه المفتوحتين على سعتهما، تمكَّنت من أن أنسى خوفي. وعندما اقتادونا إلى مقرّ الشرطة، لبث يئنّ ويتأوَّه، يتشكّى ويتذمّر باكيًا بأنّه غير مهتمّ بالسياسة، وأنّ كلّ ما فعله في حياته هو رشّ الدخان على البقّ. كان ذلك الرجل يقول الحقّ. فقد كان فعلاً يعمل في تبخير البقّ، ولعلَّه لم يكره مهنته كما كرهها في ذلك الوقت. لم يكن اسمه أنجاستس، فذلك الاسم ابتكرته بنفسي. غير أنّ الاسم ليس كاذبًا ولا مصطنعًا تمامًا، لأنّه كان يبدو من مظهره أنّه قد شهد الكثير من الظلم في الحياة. يُضاف إلى ذلك، لقبه صحيح. وقد أُطلق سراحه في اليوم نفسه على أيّ حال. أطلقوا سراحه واعتقلوني أنا.

منذ اليوم الذي جئت فيه إلى هذا المكان، لم أنفق يومًا واحدًا من دون التفكير في أنجاستس بيورتورك. وسبب ذلك يرجع إلى هذا البقّ. فقد كنت راديكاليًّا، أكره الحشرات كرهًا شديدًا. لسوء الحظّ، المكان يحتشد بها هنا، وبخاصّة الصراصير. فأنا أسمع صوتها في المرافق الصحِّيّة وفتحات التهوية، وحتى في شقوق الجدران وتصدُّعاتها. وتظلّ هذه الحشرات تسير هنا وهناك يشجِّعها على ذلك ظلام المكان، وتتكاثر تكاثرًا متواصلاً لا يتوقّف... لكنْ، في وسعي أن أطمئنك إلى أنّ القمل هو الأسوأ من بينها...

Twitter: @ketab_n

بلا ريب، ولأجل مشاهدة كلّ هذه المخلوقات على نحو أفضل، ينبغي لك أن تزورني وتقضي بعض الوقت هنا. لكنْ، إن لم يكن لديك متّسع من الوقت، فيتعيَّن عليك أن تقتنع بتفسيري للحكاية. إلّا أنّني لا أتكلّم في نهاية المطاف إلّا باسمي. ولا يعني هذا أنّني سوف أفرض أفكاري على ما سيظهر، ولكن في وسعي أن أربط هنا وهناك خطّ الحقيقة الأفقي بخطّ الخداع العمودي، كي أهرب من ضجيج الواقع الموهن الذي رسوت فيه اليوم. على أيّ حال، إنّني ضجر تمام الضجر في هذا المكان. لو أنّ شخصًا ما أتى إليّ بخبر سارّ مفاده أنّ حياتي ستكون أقلّ شقاءً يوم غد، فإنّني قد أشعر بضجر أقلّ اليوم. بيد أنّني أعلم علم اليقين أنّ الغد سيكون كسابقه، وكذلك بقيّة الأيّام المقبلة. ومع هذا، لا ينبغي لي أن أمنحك الانطباع مع ولعي بالدوائر بأنّ حياتي هي وحدها التي تكرِّر نفسها. وفي المرحلة الأخيرة، يكون العموديّ وفيًّا لتكراره وفاء الأفقيّ. وبخلاف ما يردِّده الكثيرون، فإنَّ ما يُسمّى «التكرار الأبديّ» يرجع إلى خطوط وترتيبات أفقيّة أكثر ممّا يعود إلى الدوائر.

لقد فبركت هذه الحكاية أصلاً لكي أتغلَّب على رهاب البقّ. فالأحلام التي راودتني عن أرملة عجوز تؤمن بالخرافات، وتجمع الزبالة في عالم عموديّ ما، ساعدني على البقاء على قيد الحياة مع الخطّ الأفقي هنا للزنزانات المجاورة إحداها للأخرى. ومع هذا، لا يمكن النظر إليّ على أنّني كذبت تمامًا، ولكنْ، يمكن أن يوجَّه إليّ الاتّهام بخلط الحقيقة بالأكاذيب، بالعودة إلى البداية بدلاً من وصول نهاية حاسمة.

Twitter: @ketab_n

أمّا أنا، فلن أبقى في هذا السجن أطول ممّا ينبغي. فالحكم الذي ارتأوا أنّه ملائم لي هو سنة واحدة وشهران. وقد انقضى من مدّة الحكم ستّة وستُّون يومًا. ومن هذه الأيّام الستّة والستِّين، أنفقت الأسبوع الأوّل باعتياد المكان والخوف من البقّ. وأمضيت بقيّة الأيّام محاولاً أن أنسى خوفي بفبركة القصّة التي قرأتها. والآن، بعد أن توقّف غطاء الزبالة المعدنيّ الرماديّ اللون عن الدوران، فإنّني حقًّا لا أعرف كيف سأنفق الأيّام الثلاثمائة والستِّين في هذا المكان.

على أيّ حال، وبمجرّد أن يُطلق سراحي، فإنَّ أوّل شيء أريد أن أفعله هو أن أزور أنجاستس بيورتورك. لقد اقتيد أوّل مخبر في تركيا إلى السجن، لأنّه كان ثوريًّا. الحياة عبث، في جوهرها يكمن اللامعنى. وإذا ما سألتني، فإنَّ الحظّ لا بدّ أن يكون قد سئم منذ زمن طويل من معالجة الأجوبة المحتملة للسؤال المستحيل: ما الذي سيحدث لمن ومتى؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قصر الحلوى: مبنًى أهداه مهاجرٌ أرستقراطيٌّ روسيٌّ لحبيبةِ قلبه.

في المبنى، تناقضاتُ المجتمع الإسطنبولي وتوتُّراتُه — من مهاجرين، وأقلّيّات، ومهمَّشين، ومجانين: أستاذ جامعيّ؛ توأمان يديران صالونَ حلاقة؛ رجلٌ تقيٌّ مع زوجة ابنه وأحفاده؛ امرأةٌ مهووسةٌ بالنظافة وابنتُها المُقمَّلة؛ و"العشيقة الزرقاء"...

لكنّ رواية "قصر الحلوى" هي، قبل كلّ شيء، روايةٌ عن الظلم الاجتماعيّ، وعن الخوف من ضياع الهويّة، وهيمنةِ القدر على مصائر الشخصيّات، ولعبةِ الحبّ الذي حَكَمتْ عليه النفوسُ الحائرةُ بالموت.

أليف شافاك أفضلُ مَن كَتَبَ الروايات في تركيا في هذا العقد. (أورهان باموك).

أليف شافاك: روائيّة وناشطة تركيّة. صدر لها عن دار الآداب: قواعدُ العشقِ الأربعون، لقيطة إسطنبول، شرف، قصر الحلوى، الفتى المتيَّم والمعلِّم، حليب أسود.

www.elifshafak.com

تصميم الغلاف: رنم الجندي

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

ISBN: 978-9953-89-504-8

9789953895048